



شرح الأربعين النووية

لأبي زكريا يحيى بن شرف الحزامي النووي رحمه الله

من الدرس الأول إلى الدرس الثالث

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما الله تعالى

١٤٤٠/٠٥/٠٩ هـ

الدرس الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .
أما بعد ..

فإننا نشرع بإذن الله تبارك وتعالى في دراسة كتاب قيّم ، ومؤلف نافع ، نفع الله جل وعلا به خلقاً
كثيراً من العباد ؛ أعني كتاب الأربعين للإمام النووي رحمه الله تعالى .

وقد كُتب في الأربعين كتبٌ كثيرةٌ لأهل العلم ؛ لكن هذا الكتاب حاز قصب السبق في سعة
الانتشار ، وكبر الانتفاع ، وعظم الاستفادة منه .

وقد جمع فيه مُصنّفه رحمه الله تعالى الإمام النووي جوامعَ كلمِ الرسول عليه الصلاة والسلام ، واعتنى بجمع
الأحاديث التي قال عنها أهل العلم أنّ عليها مدارُ الدين ؛ ولهذا كان هذا الكتاب كتاباً لا
يستغنى عنه طالبُ علم ، بل لا يستغني عنه مسلم .
ولهذا ينبغي أن يكون هناك سعيٌّ حثيثٌ لنشر هذا الكتاب وتداوله وقراءته وحفظه والتعاون
على انتشاره بين الناس ؛ لأن فيه خير عظيم .

وجرت عادةُ أهل العلم قديماً وحديثاً عندما يسألهم المبتدئ من طلاب العلم عن كتاب يبدأ
به ؛ فإنه أول ما يحيلونه إليه كتاب الأربعين للإمام النووي رحمه الله تعالى ، وأول ما يتبادر لذهن
العالم فيما ينصح به طالب العلم المبتدئ كتاب الأربعين للإمام النووي رحمه الله تعالى .

ولهذا ينبغي أن تكون عناية بهذا الكتاب العظيم ، وأن يكون الاهتمام به حفظاً للأحاديث
وفهماً لمعانيها ومدلولاتها ، وتطبيقاً لمقاصدها وغاياتها ، فيفوز العبد بخيري الدنيا والآخرة .

وستكون القراءة لهذا الكتاب بإذن الله تبارك وتعالى قراءة له مع قراءة شرح الوالد حفظه الله عليه ،
المسمى: فتح القوي المتين في شرح الأربعين و تتممة الخمسين للنووي وابن رجب رحمهما الله
والنووي كما هو معلوم جمع اثنين وأربعين حديثاً وسمها الأربعين تعليباً ، وابن رجب رحمه الله
زادها ثمانية أحاديث فبلغ عدده الجميع خمسين حديثاً ، وشرح ذلك كله الحافظ بن رجب رحمه
الله في كتاب حافل ومؤلف جامع حوى علماً غزيراً أسماه - جامع العلوم والحكم -

وهذا الشرح الذي بين أيدينا المسمى - فتح القوي المتين - فيه عناية بشرح هذا الكتاب
بشكل موجز ومن خلال نقاط تُبرز في بيان الأحاديث ودلالاتها ، وقد بدأ بحفظه الله بمقدمة بيّن
فيها أهمية كتاب الإمام النووي رحمه الله تعالى وعناية أهل العلم به وأيضاً حول أحاديث الأربعين
وجمع أهل العلم فيها .. فقال :

بسم الله الرحمن الرحيم

[الحمد لله مجزل العطاء ومسبغ النعم ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ذو
الفضل والإحسان والجود والكرم ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله سيد العرب والعجم ،
المخصوص من ربه بجوامع الكلم ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه وعلى آله أهل المكارم والشيم ،
وعلى أصحابه مصاييح الدجى والظلم ، الذين أكرمهم الله فجعلهم خير أمة هي خير الأمم
، وعلى كل من جاء بعدهم مقتفياً آثارهم وقد خلا قلبه من الغلّ للمؤمنين وسلم .
أما بعد ؛ فإن من الموضوعات التي ألف فيها العلماء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث
الأربعين ، وهي جمع أربعين حديثاً من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لحديث ورد في فضل
حفظ الأربعين حديثاً من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذكر النووي رحمه الله في مقدمة الأربعين
له ورود عن تسعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سماهم وقال : واتفق الحُقَّاط على أنه
حديث ضعيف وإن كثرت طرقه] .

الشرح..

هذا حديث يُروى عن النبي عليه الصلاة والسلام ولا يصح عنه ، فيه فضل من حفظ أربعين حديثاً

من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجاء من طرق عديدة ولكنها غير ثابتة ، فالحديث غير ثابت عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

وعددٌ من أهل العلم المتقدمين والمتأخرين ؛ جمعوا في الأربعين بناءً على الأحاديث الواردة في فضل العناية بأحاديث رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وفضل حفظها ونقلها للأمة ، ولم يبنوا ذلك على هذا الحديث الذي لم يثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام ، وإنما بنوا عملهم على الأحاديث العامة المطلقة التي جاء فيها الحث على حفظ أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وإبلاغها للأمة ، ومنها الأحاديث التي يذكر النووي رحمه الله أنه اعتمد عليها في تصنيفه لهذا الكتاب .

قال : [و ذكر أن اعتماده في تأليف الأربعين ليس عليه]

الشرح..

" وذكر " .. - أي النووي رحمه الله - أن اعتماده في تأليف الأربعين ليس على هذا الحديث الضعيف وإنما كان اعتماده على أحاديث ثابتة فيها الترغيب في حفظ أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام وإبلاغها للأمة .

قال : [بل على أحاديث أخرى مثل قوله صلى الله عليه وسلم : « لِيُبَلِّغَ الشَّاهِدُ مِنْكُمْ الْغَائِبَ » ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « نَضَرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوْعَاها » الحديث]

الشرح..

" نَضَرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوْعَاها " : هذا حديث فيه دعوة مباركة ميمونة من النبي عليه الصلاة والسلام لمن يحفظ حديثه ويُبَلِّغُه وقال هذه الدعوة المباركة في جمع كبير من الناس في مسجد الخيف من منى في خطبة له عليه الصلاة والسلام في يوم النحر فيها قال : « نَضَرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوْعَاها فَأَدَّأها كما سمعها » وهذا دعاء منه عليه الصلاة والسلام لمن يعتني بالحديث حفظاً وفهماً وإبلاغاً للناس .

قال : [وذكر ثلاثة عشر من العلماء أَلْفُوا في الأربعين أولهم عبد الله بن المبارك وآخرهم أبو بكر البيهقي وقال بعد ذكرهم وخلائق لا يُحْصُونَ من المتقدمين والمتأخرين] .

الشرح..

المؤلفات التي صُنفت في الأربعين كما قال النووي رحمه الله تعالى كثيرة جداً ، وبعد زمانه إلى زماننا هذا أُلِّف في الأربعين كتب كثيرة جداً ، وكل من أُلِّف في الأربعين جمع أحاديث أربعين في باب واحد ؛ مثل جمع أحاديث الأربعين في فضل لا إله إلا الله ، أو في فضل الدعاء ، أو نحو ذلك من المجالات التي جمعت فيها أحاديث الأربعين ، أما النووي رحمه الله تعالى فقد اتجه في جمعه للأربعين إلى جمع جوامع الكلم ، إلى جمع الأحاديث التي عليها مدار الدين.

قال : [ثم من العلماء من جمع الأربعين في أصول الدين ، وبعضهم في الفروع ، وبعضهم في الجهاد ، وبعضهم في الزهد ، وبعضهم في الآداب ، وبعضهم في الخطب وكلها مقاصد صالحة رضي الله تعالى عن قاصديها ؛ وقد رأيت جمع أربعين أهم من هذا كله] .

الشرح..

هذه الطريقة التي يذكرها النووي هي طريقة أهل العلم ؛ وهي ذكر أعمال أهل العلم بالثناء ، فلما ذكر هذه الكتب ولديه اهتمام إلى الكتابة في أمر أعظم ومجال أهم ؛ لم يقلل من شأن تلك الكتب ؛ بل إنه أثنى على كل تلك الكتب بقوله : " وكلها مقاصد صالحة رضي الله عن قاصديها " ؛ وهذه الطريقة هي طريقة أهل العلم ، وأما من سواهم فإنه يميل إلى الانتقاص والاستهانة بأعمال الآخرين ؛ مثل أن يذكر هذه الكتب ويقول هذه الكتب أُلِّفت في مجالات ليست بذات أهمية أو مجالات هناك ما هو أهم منها وأنا كتبت في أهم مجال أو نحو ذلك ، فهو رحمه الله لما ذكر هذه الكتب أثنى على مؤلفيها ودعا لهم ، وهذه طريقة أهل العلم في التعامل مع العلماء قال : " وكلها مقاصد صالحة رضي الله تعالى عن قاصديها " .

قال [وقد رأيت جمع أربعين أهم من هذا كله وهي أربعون حديثاً مشتملة على جميع ذلك ، وكل حديث منها قاعدة عظيمة من قواعد الدين ، قد وصفه العلماء بأن مدار الإسلام عليه ، أو هو نصف الإسلام أو ثلثه أو نحو ذلك] .

الشرح..

يعني أنه رَحِمَهُ اللهُ لما اتجه للجمع اتجه إلى جمع الأحاديث التي هي من هذا القبيل ، التي قال عنها العلماء أن عليها مدار الدين أو أنها نصف الدين أو أنها ثلث الدين أو أنها ربع الدين . وسيأتي نقول عن أهل العلم في هذا المعنى . فجمع رَحِمَهُ اللهُ الأحاديث التي عليها مدار الدين . وعليه فإن طالب العلم إذا حفظ الأربعين حفظاً متقناً وفهم معانيها ؛ فإنه يكون بإذن الله تبارك وتعالى قد حفظ الأحاديث التي يدور عليها الدين ، بمعنى أنه لا يكون هناك مجال من المجالات إلا ويجد أن عنده حديث يقرّر ذلك ، أيضاً بمعنى آخر يستطيع العالم بإذن الله جلّ وعلا من خلال الأربعين وحدها أن يصلح أي فساد في المجتمع ، وهذا لأهل العلم فيه تجارب كثيرة ، وجدوا فيه نفعاً عظيماً . وأذكر من طريف ما يورد هنا أنه قبل سنوات تقارب العشرين شرحت الأربعين في أحد المساجد ، وكنت ألزمت جماعة المسجد أن يحفظوا الأربعين ، فجاء رجل التحق بالدرس بعد أن شرحنا سبعة أحاديث وقال : أنا أريد أن أشارك معكم ؛ فقلت : بشرط أن تحفظ السبعة الماضية ؛ فحفظها حفظاً متقناً ودخل معنا الدرس ، ومضينا كل يوم حديث . أسمعهم ثم أشرح . إلى أن قاربنا إلى النهاية ، وكان هذا الرجل عاملاً من العمال يسكن مع عربة عمال ، لما قاربنا النهاية وخرجت من المسجد لحقني وقال لي : أنا أريد أن أقول لك شيء ؛ قال : أنا حسيت نفسي أني عالم الآن ، قلت له لماذا ؟ قال لأننا في العربة مع العمال إذا أخطأوا أي خطأ أردُّ عليهم بحديث وأذكر لهم الراوي وأذكر لهم من خرّجه ، وهذا في أي خطأ يخطئونه ؛ فقلت له أن هذا الذي حصلته من العلم يعتبر بداية العلم وأوله ، فالعلم مشوار يحتاج منك إلى صبر وإلى بذل وإلى جد وإلى مجاهدة ، لكن هذا الذي حصلته وهذه أصول وجوامع في كلم الرسول عليه الصلاة والسلام .

فالشاهد أن هذه الأربعين عظيمة جداً ، وينبغي على كل مسلم أن تعظم عنايته بها ؛ أولاً يحفظها ، وثانياً يشجع أبناءه وبناته وأهله في البيت على حفظها - وأنا أفضل لإخواننا الحُجاج والزوار عندما يرجعون إلى بلدتهم وأهلهم أن تكون أكبر هدية يقدمونها لأولادهم الأربعين ، ويشجعونهم على حفظ الأربعين ، ويتعاونون معهم على دراسة الأربعين ؛ فهذا أفضل ما يقدم هدية للأولاد بعد أداء هذه الفريضة المباركة والطاعة العظيمة - .

وأهل العلم قديماً من الصحابة ومن اتبعهم بإحسان كانوا يتهادون مسائل العلم ؛ يلقي بعضهم بعضاً ويقول : ألا أهدي لك هدية ؟ فيقول بلى ؛ فيهديه حديث من أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام وهي أعظم هدية .

قال [ثم التزمت في هذه الأربعين أن تكون صحيحة ، ومعظمها في صحيح البخاري ومسلم وأذكرها محذوفة الأسانيد ليسهل حفظها ويعم الانتفاع بها إن شاء الله ، وينبغي لكل راغب في الآخرة أن يعرف هذه الأحاديث لما اشتملت عليه من المهمات ، واحتوت عليه من التنبيه على جميع الطاعات وذلك ظاهر لمن تدبره] .

الشرح..

هذه وصية من الإمام النووي رحمه الله لا تغفل عنها ؛ فيقول رحمه الله : " وينبغي لكل راغب في الآخرة أن يعرف هذه الأحاديث " ؛ لماذا ؟

قال : " لما اشتملت عليه من المهمات ، واحتوت عليه من التنبيه على جميع الطاعات ، وذلك ظاهر لمن تدبره " .

لا أجد حرجاً في أن أروي تجربة لي مع الأربعين : في أحد الدول الأفريقية بقيت فيها قرابة العشرين يوماً ، وفتحت درساً في الأربعين ، وكان معي مترجماً ، والمسجد حافل بالحضور ، وفي البلد الذي كنت أُلقي فيه تلك الدروس مخالقات كثيرة في العقيدة وفي العبادة وفي الأخلاق وفي المعاملات ، وكنت أسأل بعض طلاب العلم عن الأمور التي في البلد سواءً مشاكل البيوت أو الجرائم التي تقع أو الفساد العقدي والبدع أو نحو ذلك ، وكنت من خلال الأربعين للنووي رحمه الله أعالج كل مشكلة أسمع بها ؛ أعالجها من دون أن أقول عندكم كذا ولكن وأنا أشرح الأربعين أقول : وقد دلّ هذا الحديث على عدم جواز كذا من جهة كذا وأبَيَّن الأدلة ، وكان عدد منهم يأتي ويعلن توبته ويأتي آخرون ويذكرون مخالقات أخرى في البلد ويقولون نريد أن تعرّج عليها في الأحاديث القادمة .

فالأربعين للنووي رحمه الله أمرها عَجَب ولا يدرك قيمتها إلا من تدبرها - كما قال النووي رحمه الله - فإذا تدبرت الأربعين واعتنيت بها عناية دقيقة وطالعت شروحات أهل العلم عليها وأتقنت حفظها ؛ وجدت أن معك علم عظيم مسدّد في معالجة ما يكون في الناس من مخالقات أيّاً كانت ؛ ولهذا أعيد كلمتي الأولى مؤكداً عليها.. " أن العالم بالأربعين فقط يستطيع أن يعالج أي مشكلة " ، وأعرف عدداً من علمائنا إذا طلب منه كلمة يذكر حديثاً من الأربعين ويشرحه بما يناسب المقام والحال .

قال شيخنا الوالد الشيخ عبد المحسن حفظه الله تعالى :

[والأحاديث التي جمعها النووي رحمه الله اثنان وأربعون حديثاً قد أطلق عليها أربعين تعليلاً مع حذف الكسر الزائد ، وقد رزق هذا الكتاب للنووي مع كتابه رياض الصالحين القبول عند الناس ، وحصل اشتهاهما والعناية بهما ، وأول كتاب ينقدح في الأذهان يرشد المبتدئون في الحديث إليه هذه الأربعون للإمام النووي رحمه الله]

الشرح..

كتاب الأربعين للنووي رحمه الله ، وكتاب رياض الصالحين ؛ كتابان كتب الله جل وعلا لهما قبولاً ، وربما تكاد تجزم أنه لا يوجد بلد في العالم من بلاد المسلمين أو من بيوت المسلمين إلا وفيه رياض الصالحين للنووي

وكتاب الأربعين للنووي تكاد تجزم أنه لا يوجد طالب علم إلا قرأ الكتاب ، حفظها أو قرأها مرات ، وحضر أيضاً فيها حلقات علم ، وعدد كبير من طلاب العلم حفظوه ، وليس هذا في زمان بل في زمن المصنف رحمه الله تعالى ، كتاب كتب الله سبحانه وتعالى له قبولاً وانتشاراً واسعاً بين الناس ، وشرح شروحات كثيرة .

وقال حفظه الله [وقد زاد ابن رجب رحمه الله عليها ثمانية أحاديث من جوامع الكلم فأكمل بها العدة خمسين وشرحها في كتاب سماه : جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم ، وقد كثرت شروح الأربعين للإمام النووي ، وفيها المختصر والمطول ، وأوسع شروحها شرح بن رجب الحنبلي رحمه الله ، وقد رأيت شرح هذه الأربعين مع زيادة ابن رجب شرحاً متوسطاً قريباً من الاختصار يشتمل شرح كل حديث على فقرات ، وفي ختامه ذكر شيء يستفاد من الحديث وقد استفدت في هذا الشرح من شروح النووي وابن دقيق العيد وابن رجب وابن عثيمين للأربعين ، ومن فتح الباري لابن حجر العسقلاني وسميته : فتح القوي المتين في شرح الأربعين وتنمية الخمسين للنووي وابن رجب رحمه الله .

والمتين من أسماء الله ؛ قال الله عز وجل في سورة الذاريات ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ ومعناه شديد القوة كما جاء في كتب التفسير ، وإني أوصي طلبة العلم بحفظ هذه الأحاديث الخمسين التي هي من جوامع كلم الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، وأسأل الله عز

وجل أن ينفع بهذا الشرح كما نفع بأصله إنه سميع مجيب ، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين] .

الشرح..

كذلك في بدء هذا المجلس الذي نسأل الله عز وجل أن يعظم البركة فيه لنا أجمعين ؛ أوصي الجميع بحفظ الأربعين أو بحفظ الخمسين ، ومن كان حافظاً لها مسبقاً يعاود الحفظ ، ومن لم يكن حافظاً يبدأ من اليوم بحفظ الخمسين وأقترح أن يكون تعاون بين طلاب العلم بالحفظ فمن كان له زميل يتعاهد بعضهم بعضاً على حفظ هذه الأحاديث على قدر الإستطاعة إما حديث أو حديثين ويمضي بالحفظ والتكرار إلى نهاية هذه المجالس في شرح الخمسين حديثاً ويستمر بالحفظ والتكرار لعل هذا العلم يرسخ

ونبدأ بالحديث الأول ..

قال الإمام أبو زكريا شرف النووي رحمه الله تعالى :

الحديث الأول

عن أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه " . رواه إماما المحدثين أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة البخاري وأبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري في صحيحهما الذين هما أصح الكتب المصنفة .

الشرح..

بدأ الإمام النووي رحمه الله تعالى بهذا الحديث العظيم المبارك ، وقد جرت عادة جماعة من أهل العلم بالبدء بهذا الحديث لأن أول الأعمال النيات ، وأول ما يبدأ العمل به النية وحسن القصد والتوجه إلى الله سبحانه وتعالى ؛ لأن الأعمال معتبرة بنياتها ؛ فبدأ بهذا الحديث العظيم المبارك ، وجماعة كبيرة من أهل العلم بدأوا بهذا الحديث مصنفاتهم .

والحديث ينبغي أن يستحضره المسلم في أعماله كلها لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول :

" إنما الأعمال بالنيات " ، والمعنى أن النية إن لم تكن صالحة ولم تكن صحيحة فالله جل وعلا لا يقبل العمل . كما سيأتي شرح هذا الحديث وبيانه . .

والحديث يرويه الصحابي الجليل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم .

أبو حفص كنية لعمر رضي الله عنه وليس له ولد اسمه حفص ، مثل أبي بكر رضي الله عنه يُكنى بأبي بكر وليس له ولد اسمه بكر ، وكذلك خالد بن الوليد يُكنى أبا سليمان وليس له ولد اسمه سليمان ، ومصنف الأربعين النووي رحمه الله تعالى . يُكنى بأبي زكريا وليس له ولد اسمه زكريا بل لم يتزوج رحمه الله تعالى .

بدأ رحمه الله بحديث عمر بن الخطاب عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ي نكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه " ؛ وذكر أنه اتفق على هذا الحديث البخاري ومسلم

قال شيخنا الوالد حفظه الله الشيخ عبد المحسن :

[أولاً : أخرجه البخاري ومسلم وأصحاب السنن وغيرهم ، وقد تفرد بروايته عن عمر علقمة بن وقاص الليثي ، وتفرد به عنه محمد بن إبراهيم التيمي ، وتفرد عنه يحيى بن سعيد الأنصاري ، ثم كثر الآخذون عنه ، فهو من غرائب صحيح البخاري ، وهو فاتحته ، ومثله في ذلك خاتمته وهو حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه " كلمتان حبيبتان إلى الرحمن " الحديث ؛ وهو أيضاً من غرائب الصحيح] .

الشرح..

هذا الحديث " إنما الأعمال بالنيات " لم يروه من الصحابة عن الرسول عليه الصلاة والسلام إلا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه ، وتفرد بروايته عن عمر علقمة بن وقاص الليثي ، وتفرد بروايته عن علقمة محمد بن إبراهيم التيمي ، وتفرد بروايته عنه يحيى بن سعيد الأنصاري ثم كثر الآخذون عنه ؛ فهو من غرائب الصحيح لأن الحديث الغريب . يقصد بالغرابة هنا - كونه تفرد بروايته عن الرسول عليه الصلاة والسلام رجل ، وتفرد عن الرجل رجل .. وهكذا ؛ فهو حديث من غرائب الصحيح لأجل ذلك ؛ يعني لكونه تفرد به عن عمر علقمة وعن علقمة محمد وعن محمد يحيى ثم كثر الآخذون عنه لهذا الحديث

وأشار إلى أن الإمام البخاري افتتح كتابه الصحيح بهذا الحديث واختتمه بحديث " كلمتان حبيبتان إلى الرحمن خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان " ؛ فبدأ بحديث إنما الأعمال واختتم بحديث فيه وزن الأعمال يوم القيامة ، وهذا فيه تنبيه وإشارة إلى أن بداية العمل النية ونهاية

الأمر وزن العمل يوم القيامة يوم يلقي العبد ربه سبحانه وتعالى .

قال حفظه الله تعالى :

[ثانيًا : افتتح النووي أحاديث الأربعين بهذا الحديث ، وقد افتتح جماعة من أهل العلم كتبهم به منهم الإمام البخاري افتتح صحيحه به ، وعبد الغني المقدسي افتتح كتابه عمدة الأحكام به ، والبعثي افتتح كتابيه مصابيح السنة وشرح السنة به ، وافتتح السيوطي كتابه الجامع الصغير به ، وعقد النووي في أول كتابه المجموع شرح المذهب فصلاً قال فيه : فصل في الإخلاص والصدق وإحضار النية في جميع الأعمال البارزة والخفية ؛ أورد فيه ثلاث آيات من القرآن ثم حديث إنما الأعمال بالنيات وقال حديث صحيح متفق على صحته ومجمع على عظم موقعه وجلالته ، وهو إحدى قواعد الإيمان وأول دعائمه و أكد الأركان] .

الشرح..

" وهو " أي حديث " إنما الأعمال بالنيات " إحدى قواعد الإيمان وأول دعائمه و أكد الأركان : وهذا يبين لك مكانة هذا الحديث وأنه للدين بمثابة القاعدة للبناء ، وأنه للدين دعامة بمعنى أن الدين لا يقوم إلا على النية الصالحة والخالصة بحيث لا يتغنى بالعمل إلا وجه الله سبحانه وتعالى ، فهذه دعامة للدين لا قيام للدين إلا عليها ؛ ولهذا قال النووي رحمه الله عن هذا الحديث ؛ قال هو إحدى قواعد الإيمان وأول دعائمه و أكد الأركان .

قال حفظه الله تعالى

[وقال الشافعي رحمه الله : يدخل هذا الحديث في سبعين باباً من الفقه] .

الشرح..

"يدخل هذا الحديث في سبعين باباً من الفقه " يغلب على الظن والله أعلم أنه أراد بـ " السبعين " الكثرة لا العدد أو الحصر ؛ فالمعنى أن أبواب الفقه كلها باباً باباً يدخل فيها هذا الحديث ؛ لأن أي عمل من الأعمال التي يتقرب فيها إلى الله سبحانه وتعالى لا بد فيها من النية ، والأعمال معتبرة بنياتها كما قال عليه الصلاة والسلام " إنما الأعمال بالنيات " ؛ ولهذا هذا الحديث مع المسلم في كل باب من أبواب الفقه ، بل الدخول في الفقه من بدايته لا بد فيه من النية ،

قراءة كتب العلم ودراسة الفقه لا بد فيه من النية ، قال الإمام أحمد رحمه الله : " العلم لا يعدله شيء إذا صلحت النية " ، يعني إذا صلحت النية في طلبه للعلم أما إذا فسدت النية كان علم الإنسان وبالاً عليه .

قال حفظه الله تعالى

[وقال أيضاً هو ثلث العلم ، وكذا قاله أيضاً غيره] .

الشرح..

قوله وهو " ثلث العلم " : ربما يأتي ما سيوضح ذلك ، وهي كلمة قالها عدد من أهل العلم أن هذا الحديث ثلث العلم ، بمعنى أنه العلم الموروث عن النبي عليه الصلاة والسلام وهو عليه الصلاة والسلام إنما ورث العلم ؛ العلم الموروث عنه جاء في أحاديث كثيرة جداً ؛ لكنها تدور على أحاديث معدودة ، من أهل العلم من قال أنها تدور على ثلاثة أحاديث ، فإذا كانت تدور على ثلاثة أحاديث من بينها هذا الحديث يصبح هذا الحديث ثلث العلم ، وإذا كانت تدور على أربعة أحاديث من بينها هذا الحديث . كما يقرر بعض أهل العلم . يكون هذا الحديث ربع العلم . فهذا قول الشافعي رحمه الله وغيره من أهل العلم أن هذا الحديث ثلث العلم ، لأن العلم الموروث عن النبي عليه الصلاة والسلام جاء في أحاديث كثيرة لكنه زوي عنه عليه الصلاة والسلام أحاديث جوامع يرجع إليها الدين كله ، بعض العلماء قالوا هي ثلاثة وبعضهم قالوا هي أربعة ، فمن قال إنها ثلاثة من بينها هذا الحديث فهذا الاعتبار يكون هذا الحديث ثلث العلم.

[وقد اختلف في عدّها فقليل ثلاثة وقليل أربعة وقليل اثنان] .

الشرح..

فإذا قيل ثلاثة أحاديث من بينها هذا الحديث فهذا الحديث ثلث العلم ، وإذا قيل أربعة أحاديث فهذا الحديث ربع العلم ، وإذا قيل إنها اثنان فهذا الحديث نصف العلم .

[وقيل حديث ، وقد جمعتها كلها في جزء الأربعين] .

الشرح..

" وقد جمعها كلها في جزء الأربعين " : وهذا يبين لك قيمة هذا الكتاب ، أي أن النووي رحمه الله اعتنى بتتبع كلام أهل العلم في الأحاديث التي قالوا عنها أن عليها مدار الدين ، أو قالوا عنها أنها ربع العلم أو ثلثه أو نصف العلم ، فاعتنى بحفظ هذه الأحاديث وأودعها في هذا المصنف المبارك .

قال : [وقد جمعها كلها في جزء الأربعين فبلغت أربعين حديثاً لا يستغني متدين عن معرفتها] .

الشرح..

كل صاحب دين ، ويريد لنفسه السعادة في الدنيا والآخرة لا يستغني عن هذه الأحاديث لأنها جمعت له أمهات الأحاديث التي يرجع إليها الدين وعليها يدور .

قال : [لأنها كلها صحيحة جامعة قواعد الإسلام في الأصول والفروع والزهد والآداب ومكارم الأخلاق وغير ذلك] .

الشرح..

أي أنه رحمه الله لم يخص جمع هذه الأحاديث في باب من أبواب العلم . كالاعتقاد مثلاً أو كالعبادات . ؛ بل اعتنى بجمع الجوامع من أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام التي عليها مدار الدين في أي باب من أبواب الدين ، ولهذا قال هنا : في الأصول والفروع والزهد والآداب ومكارم الأخلاق وغير ذلك ؛ فأنت في هذا تجد بغيتك في الدين كله عقيدةً وعبادةً وسلوكاً .

قال النووي رحمه الله تعالى :

[وإنما بدأت بهذا الحديث تأسيساً بأئمتنا ومتقدمي أسلافنا من العلماء رضي الله عنهم ، وقد ابتدأ به إمام أهل الحديث بلا مدافعة أبوعبد الله البخاري صحيحه ، ونقل جماعة أن السلف كانوا يستحبون افتتاح الكتب بهذا الحديث تنبيهاً للطالب على تصحيح النية وإرادته وجه الله تعالى بجميع أعماله البارزة والخفية] .

الشرح..

انتبه لهذا الملحظ وأرعه اهتمامك، ينفعك الله سبحانه وتعالى به ؛ جماعة من أهل العلم استحبوا بدء المصنفات بهذا الحديث ، حديث " إنما الأعمال بالنيات " لماذا ؟ قال رحم الله تعالى : " تنبيهاً للطالب على تصحيح النية وإرادته وجه الله تعالى بجميع أعماله البارزة والخفية " ، لأن النية قد يدخلها ما يدخلها ، حتى وإن جلس الإنسان في مجلس علم معلماً أو متعلماً ؛ فالنية قد يدخلها رياء ، قد يدخلها حبُّ ثناء ، قد يدخلها إرادة الدنيا ، قد يدخلها أمور عديدة تأتي على النية بالفساد ؛ ولهذا يحتاج طالب العلم في جلوسه للعلم أن يعالج نيته ، ومما يعينه على معالجة النية في بدء الطلب تذكيره بهذا الحديث العظيم ؛ ولأجل هذا بدأ جماعة من أهل العلم مصنفاتهم بهذا الحديث " إنما الأعمال بالنيات " ؛ تنبيهاً للطالب إلى أهمية استحضار النية في طلب العلم .

وطلب العلم عبادة وقربة لله تبارك وتعالى ، ولا يقبل الله من طالب العلم طلبه للعلم إلا إذا أراد بطلبه للعلم وجه الله ، أما إذا طلب العلم للدنيا أو للشهرة أو للرياء أو لمدح الناس أو ليقال عالم أو ليقال مناظر أو ليقال حافظ أو غير ذلك ؛ هذه كلها نيات ليست لوجه الله ، ولكل ما نوى .

فإصلاح النية من أهم ما يكون ، ولأجل هذا بدأ أهل العلم بهذا الحديث تنبيهاً لطالب العلم إلى إصلاح نيته وإرادته وجه الله تعالى بجميع أعماله البارزة والخفية .

أعماله البارزة مثل : الصلاة والزكاة والحج والصدقات .

والخفية ؛ التي في القلب : مثل الخوف والحياء والرجاء والتوكل وغير ذلك .

وكل هذه الأعمال البارزة والخفية لا يقبلها الله سبحانه وتعالى من العامل إلا إذا أراد بها وجه الله جل وعلا كما قال عز وجل : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ ، وقال ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ وقال في الحديث القدسي : " أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه " .

قال رحمه الله :

[وروينا عن الإمام أبي سعيد عبد الرحمن ابن مهدي رحمه الله قال لو صنف كتاباً بدأت في أول كل باب منه بهذا الحديث] .

الشرح..

" لو صنف كتاباً لبدأت كل باب منه بهذا الحديث " : وهذا فيه تأكيد وتقدير للمعنى الذي مرَّ معنا عن الإمام الشافعي رحمه الله قال " هذا الحديث يدخل في سبعين باباً من الفقه " ؛ فابن مهدي رحمه الله يقول لو صنف كتاباً في العلم لصدّرت كل باب من أبوابه بهذا الحديث ؛ لماذا .. ؟ لأن النية يحتاج إليها في كل باب من أبواب العلم ، وإذا فقدت النية في أي باب من أبواب العلم لم يستفد منه طالبه لأن الأعمال معتبرة بنياتها .

قال رحمه الله :

[وروينا عنه أيضاً قال من أراد أن يصنف كتاباً فليبدأ بهذا الحديث .

وقال الإمام أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب الخطابي الشافعي الإمام في كتابه المعالم رحمه الله تعالى : كان المتقدمون من شيوخنا يستحبون تقديم حديث الأعمال بالنيات أمام كل شيء يُنشأ ويبدأ من أمور الدين لعموم الحاجة إليه في جميع أنواعها . وقال ابن رجب في جامع العلوم والحكم : وافق العلماء على صحته وتلقيه بالقبول وبه صدّر البخاري كتابه الصحيح وأقامه مقام الخطبة له إشارة منه إلى أن كل عمل لا يراد به وجه الله فهو باطل لا ثمره له في الدنيا ولا في الآخرة .

وقال ابن رجب : وهذا الحديث أحد الأحاديث التي يدور الدين عليها ، فروي عن الشافعي أنه قال : هذا الحديث ثلث العلم ، ويدخل في سبعين باباً من الفقه . وعن الإمام أحمد قال : أصول الإسلام على ثلاثة أحاديث حديث عمر رضي الله عنه " الأعمال بالنيات " ، وحديث عائشة رضي الله تعالى عنها " من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد " ، وحديث النعمان بن بشير رضي الله تعالى عنه " الحلال بين والحرام بين " [.

الشرح..

هذه كلمة عظيمة للإمام أحمد رحمه الله في التنبيه على ثلاثة أحاديث قال عنها " أصول الإسلام على ثلاثة أحاديث " ؛ وحتى تعرف قيمة كلمة الإمام أحمد تذكر من هو الإمام أحمد ، وتذكر أيضاً كتابه المسند ، وقد طُبِعَ محققاً معتنى به في خمسين مجلداً كلها أحاديث جمعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم - جامع المسند للإمام أحمد رحمه الله - ؛ يقول : أصول الدين الإسلامي ترجع إلى ثلاثة أحاديث ، يعني اقرأ المسند كاملاً وغيره من كتب الحديث فجميع الأحاديث وأصول الدين

راجعة إلى ثلاثة أحاديث هي من جوامع كلمه عليه الصلاة والسلام وعليها يدور الدين ؛ ماهي ؟ قال " حديث عمر رضي الله عنه " الأعمال بالنيات " ، وحديث عائشة رضي الله تعالى عنها " من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد " ، وحديث النعمان بن بشير رضي الله تعالى عنه " الحلال بين والحرام بين " ، وهذه الأحاديث الثلاثة كلها أودعها النووي رحمه الله تعالى كتابه الأربعين ، وتوجيه كلام الإمام أحمد وتقريره وبيانه جاء عن ابن رجب رحمه الله توضيحاً له .

وقال أيضاً في توجيه كلام الإمام أحمد : [فإن الدين كله يرجع إلى فعل المأمورات وترك المحظورات والتوقف عن الشبهات ، وهذا كله تضمنه حديث النعمان بن بشير رضي الله تعالى عنه ، وإنما يتم ذلك بأمرين أحدهما أن يكون العمل في ظاهره على موافقة السنة ، وهذا الذي تضمنه حديث عائشة رضي الله تعالى عنها " من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد " ، والثاني أن يكون العمل في باطنه يقصد به وجه الله عز وجل كما تضمنه حديث عمر رضي الله تعالى عنه " إنما الأعمال بالنيات "] .

الشرح..

هذا توضيح من ابن رجب رحمه الله تعالى لكلام الإمام أحمد عندما قال : أصول الإسلام على ثلاثة أحاديث وهي حديث " الأعمال بالنيات " ، وحديث " من أحدث في أمرنا " وحديث " الحلال بين والحرام بين " ؛ فيقول ابن رجب رحمه الله : " الدين فعل المأمور وترك المحظور واتقاء المتشابه " ، وهذا بُيِّنَ على التمام والكمال في حديث النعمان بن بشير .
وإنما يتم ذلك بأمرين ..

الأول : أن تكون النية خالصة في الأعمال لا يراد بها إلا وجه الله تعالى وهذا مبين في حديث عمر " إنما الأعمال بالنيات "

والأمر الثاني : أن يكون العمل موافقاً للسنّة فإن لم يكن موافقاً لم يقبل ؛ وهذا بينه حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال " من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد " وفي هذا المعنى قال الفضيل رحمه الله في قوله تعالى ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ قال أخلصه وأصوبه ، قيل يا أبا علي وما أخلصه وأصوبه ؟ قال إنّ العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً ، والخالص ما كان لله والصواب ما كان على السنّة .

قال رحمه الله :

[وأورد بن رجب نقولاً عن بعض العلماء في الأحاديث التي يدور عليها الإسلام وأن منهم من قال أنها اثنان ومنهم من قال أربعة ومنهم من قال خمسة ، والأحاديث التي ذكرها عنهم بالإضافة إلى الثلاثة الأولى حديث " إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه " ، وحديث " من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه " ، وحديث " إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً " ، وحديث " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " ، وحديث " لا ضرر ولا ضرار " ، وحديث " إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم " ، وحديث " ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس " ، وحديث " الدين النصيحة "] .

الشرح..

هذه الآن أحاديث جميعها قال عنها بعض أهل العلم عليها مدار الدين ، أو عدوها في جملة الأحاديث التي هي جامعة لأصول الإسلام ، وبعض أهل العلم عدّها ثلاثة وبعضهم عدّها اثنين ، وبعضهم عدّها أربعة ، وبعضهم عدّها خمسة . وهنا تلخيص للأحاديث التي قيل عنها ذلك وجميعها أودعها النووي رحمه الله تعالى كتابه الأربعين .

قال حفظه الله تعالى :

[إنما الأعمال بالنيات : إنما أداة حصر ، الألف واللام في الأعمال : قيل أنها خاصة في القرب ، وقيل أنها للعموم في كل عمل ، فما كان منها قرينة أثبت عليها فاعله ، وما كان منها من أمور العادات كالأكل والشرب والنوم فإن صاحبه يثاب عليه إذا نوى به التقوى على الطاعة .

والألف واللام في النيات بدلاً من الضمير هاء ؛ أي الأعمال بنياتها ، ومتعلق الجار والمجرور محذوف تقديره معتبرة أي أن الأعمال معتبرة بنياتها.

والنية في اللغة : القصد ، وتأني للتمييز بين العبادات كتمييز فرض عن فرض أو فرض عن نفل ، وتمييز العبادات عن العادات كالغسل من الجنابة والغسل للتبرد والتنظيف] .

الشرح..

قال في شرح الحديث وبيان معنى قوله صلى الله عليه وسلم " إنما الأعمال بالنيات " ؛ قال :
" إنما " أداة حصر أي أن الأعمال بنياتها ، وهذا حصر للأعمال في قبولها واعتبارها عند الله سبحانه وتعالى أن ذلك متعلق بالنيات ؛ بمعنى أن أي عمل كان ليس معتبراً ولا مقبولاً ولا مرضياً عند الله جل وعلا إلا بالنية .

قال : " وأل في الأعمال " ما المراد بها ؟

قليل أنها خاصة في القرب ، الأعمال: أي القرب التي يُتقرب بها إلى الله عز وجل ؛ مثل الصلاة والصيام والحج والصدقة وغير ذلك

وقيل أن الأعمال أوسع من أن يراد بها القرب فقط ؛ فقليل أنها للعموم في كل عمل ؛ أي حتى الأكل والشرب والنوم والقيام والعودة والذهاب والرواح ، هذه أعمال .

فما كان منها قرينة أثيب عليه فاعله . أي إذا صلحت نيته . ، وما كان منها من أمور العادات كالأكل والشرب والنوم فإن صاحبه يثاب عليه إذا نوى به التقوى على الطاعة ؛ فمثلاً من نام مبكراً بنية قيام الليل ؛ يثاب على هذا النوم ، ويكون نومه عبادة وقرينة لله ، مَنْ أكل أو شرب ليتقوى بأكله و شربه على أداء الطاعات ؛ فأكله وشربه يُعدّ عملاً صالحاً يثاب عليه ، وإذا كان من يأكل ويحسن أكله ليرتكب الفواحش والعياذ بالله والمحرمات يُؤزر بهذا الأكل ، فإنَّ من يأكل ويشرب ليتقوى جسمه على العلم والدراسة والدروس والعبادة وغير ذلك ؛ فيكون أكله وشربه داخل في جملة الأعمال الصالحة التي يثاب عليها .

وعليه يكون الحديث مفيداً بعموم دلالاته أن العادات إذا صحبتها النيات الصالحة صارت عبادات وقربات مثل الأكل والشرب والنوم عادة للإنسان لكنها بالنية الصالحة يكون قرينة من القرب التي يتقرب بها العبد إلى الله سبحانه وتعالى فيثاب على ذلك .

قال " الألف واللام في النيات بدلاً من الضمير هاء " .. أي أن أصل الجملة هو " إنما الأعمال بنياتها " ؛ حذف الضمير وعوّض عنه بالألف واللام ، فالألف واللام في قوله بالنيات عوض عن الضمير ، وأصل الجملة " إنما الأعمال بنياتها " .

قال " ومتعلّق الجار والمجرور محذوف تقديره معتبرة " .. فيكون معنى إنما الأعمال بالنيات أي إنما الأعمال معتبرة بنياتها :

" معتبرة " أي في صلاحها وفي قبولها في رضا الله سبحانه وتعالى عن فاعلها بإثابته عليها

بنياتها

وهذا يشمل معنيين أرادهما أهل العلم أو استفادهما أهل العلم من هذا الحديث ، والمعنى الأول: يكثر إطلاقه في كتب الاعتقاد ، والمعنى الثاني: يكثر إطلاقه في كتب الأحكام

- أما في كتب الاعتقاد فالنية يطلقها أهل العلم ويراد بها تمييز المقصود بالعمل ؛ قوله إنما الأعمال بالنيات المراد بالنية ما يكون به تمييز المقصود بالعمل ، والمقصود بالعمل والعبادات هو رب العالمين ، فيجب أن يكون وحده جلّ وعلا المقصود بالعمل ، فمن كان مقصودة بعمله وجه الله اعتبر عمله بذلك وأثيب عليه ورضي الله سبحانه وتعالى عنه لأن عمله إنما قصد به وجه الله سبحانه وتعالى ، لم يرائي فيه ولم يسمع ولم يرد به الدنيا ، وإنما أراد به وجه الله سبحانه وتعالى .

- والمعنى الثاني في النية ما تتميز به العبادات ؛ قال في التعليق " **و تأتي للتمييز بين العبادات** " وهذا في إطلاق الفقهاء ؛ يعني عندما تطلق النية في كتب الفقه والأحكام هذا هو المراد بها ؛ " **ما تتميز به العبادات كتمييز فرض عن فرض** " ، الآن صلاة الظهر وصلاة العصر من حيث صورة العمل واحدة في السفر والحضر لكن ما الذي يميز هذه عن هذه ؟ النية فقط ؛ النية هي التي تميّز أن هذه الظهر وهذه العصر وإلا صورة العمل واحدة " **وتأتي للتمييز بين العبادات كتمييز فرض عن فرض** " مثل أن تميّز فرض العصر عن الظهر بالنية والنية محلها القلب ؛ عندما تنوي صلاة العصر تميّزت الصلاة بالنية أنها صلاة العصر

قال " **أو فرض عن نفل** " .. عندما تصلي نافلة ركعتين ، أو فريضة مثل صلاة الفجر ركعتين ؛ فيميز هذه عن هذه النية .

" **وتمييز العادات عن العبادات : كالغسل من الجنابة والغسل للتبرّد و التنظف** " .. ؛ فهذا غسل وهذا غسل ... فما الذي يميز غسل الجنابة عن غسل النظافة إلا النية .

فالنية لها إطلاقان :

إطلاق في كتب العقائد.. ويراد به تمييز المقصود بالعمل وهو الله بمعنى المراد بالنية عندهم الإخلاص ؛ يعني قوله " إنما الأعمال بالنيات " أي بالإخلاص لله جل وعلا في الأعمال .
ولها إطلاق آخر عند أهل الفقه في كتب الأحكام .. والمراد بها التمييز بين العبادات والتمييز

بين العبادات والعبادات .

قال حفظه الله تعالى :

[وقوله وإنما لكل ما نوى : قال ابن رجب إخبار أنه لا يحصل له من عمله إلا ما نواه ؛ فإن نوى خيراً حصل له خير ، وإن نوى شراً حصل له شر ، وليس هذا تكريراً محضاً للجملة الأولى ، فإن الجملة الأولى دلت على أن صلاح العمل وفساده بحسب النية المقتضية لإيجاده والجملة الثانية دلت على أن ثواب العامل على عمله بحسب نيته الصالحة وأن عقابه عليه بحسب نيته الفاسدة] .

الشرح..

لاحظ الفرق بين الجملتين " إنما الأعمال بالنيات و إنما لكل امرئ ما نوى " ؛ " ليس هذا تكرير محض للجملة الأولى " ، ليس إعادة للجملة الأولى ، وتوضيح ذلك قال : الجملة الأولى دلت على أن صلاح العمل و فساده بحسب النية المقتضية لإيجاده

" إنما الأعمال بالنيات " أي معتبرة صلاحاً وفساداً بنياتها هذا مراد الجملة الأولى ومقصودها .
الجملة الثانية قال : " دلت على أن ثواب العامل على عمله بحسب نيته الصالحة ، وأن عقابه عليه بحسب نيته الفاسدة " ، " وإنما لكل امرئ ما نوى " من الثواب والعقاب ما نوى ، فإن نوى خيراً حصل خيراً وإن نوى شراً وفساداً حصل عقوبة .

إذاً قوله " وإنما لكل امرئ ما نوى " ليس تكريراً محضاً للجملة الأولى وإنما هو بيان لما يترتب على النية من صلاح أو فساد وما يترتب عليها من ثواب أو عقاب ..
فالجملة الأولى لبيان العمل والجملة الثانية لبيان ثواب العمل أو العقاب عليه

[وقد تكون نيته مباحة فيكون العمل مباحاً فلا يحصل له به ثواب و لا عقاب فالعمل في نفسه صلاحه وفساده وإباحته بحسب النية الحاملة عليه المقتضية لوجوده ، وثواب العامل وعقابه وسلامته بحسب نيته التي بها صار العمل صالحاً أو فاسداً أو مباحاً] .

الشرح..

حتى المباح . كما مر معنا قريباً . أن المباح إذا فعله الإنسان بنية صالحة أثيب عليه ، والعبادات تتحول بالنيات الصالحة إلى قربات يثاب العبد عليها عند الله سبحانه وتعالى

قال حفظه الله تعالى :

[قوله فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه : الهجرة من الهجر وهو الترك ، وتكون بترك بلد الخوف إلى بلد الأمن كالهجرة من مكة إلى الحبشة ، وتكون من بلد الكفر إلى بلاد الإسلام كالهجرة من مكة إلى المدينة ، وقد انتهت الهجرة إليه بفتح مكة .

والهجرة من بد الشرك إلى بلد الإسلام باقية إلى قيام الساعة .

وقوله " فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله اتحد فيه الشرط والجزاء] .

الشرح..

" اتحد فيه الشرط والجزاء " والعادة أن يختلف الجزاء عن الشرط ، لكن هنا اتحد قال : " فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله " اتحد الشرط والجزاء فما معنى ذلك ؟

قال : [والأصل اختلافهما ، والمعنى : فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله نيةً وقصدًا ، فهجرته إلى الله ورسوله ثواباً وأجرًا ، فافتقرا] .

الشرح..

افتقرا في المعنى وان كانا اتحدا في اللفظ " فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله نيةً وقصدًا ، فهجرته إلى الله ورسوله " فاللفظ واحد لكن المعنى يختلف ؛ فالأولى وهي قوله " من كانت هجرته إلى الله ورسوله نيةً وقصدًا " ؛ لم يرد بالهجرة إلا الله ؛ فهذه نيته وهذا قصده ؛ فهجرته إلى الله ورسوله أي ثواباً وأجرًا ؛ فاتحدا في اللفظ واختلفا في المعنى . فالأولى المراد بها النية والقصد والثانية المراد بها الثواب والأجر ؛ وهذا فيه تنبيه لعظم الثواب وكبره .

قال ابن رجب رحمه الله :

[لما ذكر صلى الله عليه وسلم أن الأعمال بحسب النيات ، وأن حظ العامل من عمله نيته من خير أو شر ، وهاتان كلمتان جامعتان وقاعدتان كليتان لا يخرج عنهما شيء ذكر بعد ذلك

مثالاً من الأعمال التي صورتها واحدة ويختلف صلاحها وفسادها باختلاف النيات وكأنه يقول سائر الأعمال على حدو هذا المثال] .

الشرح..

هذا الآن مثال فقط " من كانت هجرته " ؛ مثال ليتضح به قوله " إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى " ، فمثّل لتوضيح هذه القاعدة الكلية بالهجرة ، وإلا جميع أعمال الدين أمرها وشأنها كذلك ؛ إن كانت نيته لله أثابه الله ثواب المخلصين ، ومن كانت نيته لغير الله حبط عمله وكان يوم القيامة من الخاسرين .

وقال أيضاً :

[فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن هذه الهجرة تختلف باختلاف النيات والمقاصد بها ؛ فمن هاجر إلى دار الإسلام حباً لله ورسوله ورغبة في تعلم دين الإسلام وإظهار دينه حيث كان يعجز عنه في دار الشرك فهذا هو المهاجر إلى الله ورسوله حقاً ، وكفاه شرفاً وفخراً أنه حصل له ما نواه من هجرته إلى الله ورسوله ، ولهذا المعنى اقتصر في جواب هذا الشرط على إعادته بلفظه لأن حصول ما نواه بهجرته نهاية المطلوب في الدنيا والآخرة ، ومن كانت هجرته من دار الشرك إلى دار الإسلام لطلب الدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها في دار الإسلام فهجرته إلى ما هاجر إليه من ذلك ، فالأول تاجر والثاني خاطب وليس واحد منهما بمهاجر] .

الشرح..

النبي عليه الصلاة والسلام قال " فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله " هذا فيه بيان حال المخلص بعمله الصالح وفيما يتقرب به إلى الله ، وأنه إنما تقرب بهذا العمل ابتغاء وجه الله ، فإذا كان العمل هجرة - كما في هذا المثال الذي في الحديث - وهاجر ليتعلم دينه وليظهر دينه لأنه عاجز عن إظهاره في بلد الكفر ، وليكون في ذهابه إلى بلاد الإسلام حفظاً لدينه ودين أولاده ؛ فهذه الهجرة الصحيحة التي يثاب عليها ثواب المخلصين الصادقين في نيتهم مع الله جل وعلا أو الصالحين في نيتهم .

والآخر.. قال " ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها " ..

" لدنيا يصيبها " .. ليس له غرض إلا التجارة و الربح الدنيوي ، أو " امرأة ينكحها " أي

ليس له نية في هجرته إلا النكاح والزواج ؛

قال " فهجرته إلى ما هاجر إليه " .. فالأول تاجر والثاني خاطب .

الذي هاجر لدنيا هذا تاجر والذي هاجر لامرأة ينكحها هذا خاطب فهجرته إلى ما هاجر إليه .

قال : " وليس واحد منهما بمهاجر " .. أي الهجرة التي يثاب عليها عند الله سبحانه وتعالى يوم القيامة وتكون في عداد أعماله الصالحة المقربة إلى الله .

قال رحمه الله تعالى :

[وفي قوله " إلى ما هاجر إليه " تحقير لما طلبه من أمر الدنيا واستهانة به ، حيث لم يذكره بلفظه ، وأيضاً فالهجرة إلى الله ورسوله واحدة]

قوله " هجرته إلى ما هاجر إليه " .. هذا فيه تحقير له ليس له هم في هجرته إلا الدنيا أو نحو ذلك " تحقير لما طلبه من أمر الدنيا واستهانة به ، حيث لم يذكره بلفظه "

[وأيضاً فالهجرة إلى الله ورسوله واحدة فلا تعدد فيها فلذلك أعاد الجواب فيها بلفظ الشرط ، والهجرة لأمر الدنيا لا تنحصر ، فقد يهاجر الإنسان لطلب دنيا مباحة تارة ومحرمة أخرى وأفراد ما يقصد بالهجرة من أمور الدنيا لا تنحصر فلذلك قال " فهجرته إلى ما هاجر إليه يعني كائناً من كان] .

الشرح ..

نبّه الحافظ بن رجب رحمه الله إلى أن قوله " إلى ما هاجر إليه " فيها ملحظان :

الملحظ الأول : تحقير واستهانة بمن كانت هذه حاله ، والملحظ الثاني أن الهجرة لأمر الدنيا لا تنحصر ، ولهذا لم يُعد وإنما قال " إلى ما هاجر إليه " لأن الهجرة لأمر الدنيا لا حصر لها ولا عدّ.

قال بن رجب رحمه الله :

[وقد اشتهر أن قصة مهاجر أم قيس كانت سبب قول النبي صلى الله عليه وسلم " من كانت هجرته

إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها " ، وذكر ذلك كثير من المتأخرين في كتبهم ، ولم نر ذلك أصلاً بإسناد يصح ، والله أعلم] .

الشرح..

هذا مشتهر ولكنه ليس بثابت أن الحديث له سبب وهو مهاجر أم قيس ، وهو رجل يقال أنه هاجر إلى المدينة لكونه يحب امرأة فيها يقال لها أم قيس ، ولأجل ذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام هذا الحديث ، ولكن هذا ليس له أصل ثابت في السنة الصحيحة .

قال حفظه الله تعالى :

[النية محلها القلب والتلفظ بها بدعة ، فلا يجوز التلفظ بالنية في أي قرينة من القرب إلا في الحج والعمرة فله أن يسمى في تلبينه ما نواه من قرآن أو أفراد أو تمتع ؛ فيقول : لبيك عمرةً وحجاً أو لبيك حجاً أو لبيك عمرةً لثبوت السنة في ذلك دون غيره] .

الشرح..

" النية محلها القلب " .. قوله صلى الله عليه وسلم : " إنما الأعمال بالنيات " النية محلها القلب والتلفظ بها بدعة ، يعني لا يجوز للإنسان أن يتلفظ بالنية بين يدي العبادة مثل الصيام فأول ما يبدأ يصوم يقول نويت أن أصوم هذا اليوم الاثنين من تاريخ كذا نفلاً لله جل وعلا فهذه بدعة ، أو رجل يريد أن يصلي الفريضة فيقول بين يدي الصلاة : نويت أن أصلي صلاة الظهر أربع ركعات جمعاً في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فهذا بدعة محدثة لا أصل لها في دين الله جل وعلا ، ولا يثاب على هذا العمل بل يُؤزر لأن البدعة مردودة على صاحبها غير مقبولة منه ؛ و النية محلها القلب لا يجوز للإنسان أن يتلفظ بالنية بين يدي العبادات ، والحج يشرع للمسلم أن يعلن إهلاله ويرفع صوته بإهلاله ؛ لأنها ثلاثة أنساك : الأفراد والتمتع والقرآن ، فيشرع له أن يرفع صوته بالشيء الذي قصده ؛ حجا مفردا أو حجا وعمرة قارنا بينهما أو عمرة متمتعا بها للحج ؛ فيقول : لبيك اللهم حجاً أو يقول لبيك اللهم حجاً وعمرة أو يقول لبيك اللهم عمرة ؛ فيرفع صوته بذلك حتى أيضاً يضبط الشيء الذي نواه أو أراده من هذه الأنساك الثلاثة ، ولا يجوز له أن يقول في الميقات : نويت أن أؤدي هذا العام حجاً فريضة ... إلى آخره ، هذا من البدع وليس له أصل في سنة الرسول عليه الصلاة والسلام .

قال حفظه الله تعالى :

[مما يستفاد من الحديث :

أولاً : أنه لا عمل إلا بنية .

ثانياً : أن الأعمال معتبرة بنياتها .

ثالثاً : أن ثواب العامل على عمله على حسب نيته .

رابعاً : ضرب العالم الأمثال للتوضيح والبيان .

خامساً : فضل الهجرة لتمثيل النبي صلى الله عليه وسلم بها، وقد جاء في صحيح مسلم عن عمر بن

العاص رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله وأن

الهجرة تهدم ما كان قبلها وأن الحج يهدم ما كان قبله " .

سادساً : أن الإنسان يؤجر أو يؤزر أو يحرم بحسب نيته .

سابعاً : أن الأعمال بحسب ما تكون وسيلة له ، فقد يكون الشيء المباح في الأصل يكون

طاعة إذا نوى الإنسان به خيراً كالأكل والشرب إذا نوى به التقوي على العبادة

ثامناً : أن العمل الواحد يكون لإنسان أجراً ويكون لإنسان حرماناً [.

هذه فوائد عظيمة مستفادة من هذا الحديث حديث " إنما الأعمال بالنيات " ..

سبحانك اللهم و بحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، اللهم صلّ وسلّم على عبدك

ورسولك نبينا محمد و آله وصحبه

..*

الدرس الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .
أما بعد ..

الحديث الثاني

[عن عمر رضي الله عنه أيضاً قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً ، قال: صدقت ، فعجبنا له يسأله ويصدقه . قال : فأخبرني عن الإيمان، قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره ، قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان، قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. قال: فأخبرني عن الساعة ، قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل. قال: فأخبرني عن أماراتها ، قال: أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان . ثم انطلق فلبثت ملياً ثم قال: يا عمر أتدري من السائل ؟ قلت: الله ورسوله أعلم قال: إنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم .. رواه مسلم]

الشرح..

هذا الحديث هو الحديث الثاني من الأربعين للإمام النووي رحمه الله تعالى ، وهو حديث معدود في جوامع كلم النبي عليه الصلاة والسلام ، ومعدود في الأحاديث التي عليها مدار الدين ، بل إن هذا الحديث جمع الدين كله بمراتبه الثلاثة الإسلام والإيمان والإحسان ، ويبيّن في هذا الحديث العظيم حقيقة كل مرتبة من هذه المراتب الثلاثة .

وهذا الحديث العظيم الجامع للدين كله وصفه بعض أهل العلم بأنه أم السنة لكونه جمع

تفاصيل ما جاء في سنة النبي صلى الله عليه وسلم ، جمع ذلك كله في هذا الحديث بشكل مجمل ، فالحديث أجمل والسنة فُصِّلَت ، كما أن فاتحة الكتاب تسمى أم القرآن لأنها أجملت ما احتوى عليه القرآن والقرآن فُصِّل ، فهي أم القرآن لأنها أجملت ما فُصِّل في القرآن الكريم وهذا الحديث سماه بعض أهل العلم أم السنة لكونه أجمل ما فُصِّل في السنة.

ومما يدل على ذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام قال في تمام هذا الحديث " هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم " فدل ذلك على أن الحديث فيه تعليم للدين ، ولهذا يُنصح كل مسلم بالعناية بهذا الحديث حفظاً له وفهماً لمعانيه وتحقيقاً لمقتضياته ودلالاته .

قال الشيخ عبد المحسن حفظه الله تعالى :

[الأول : حديث جبريل هذا عن عمر رضي الله عنه انفرد بإخراجه مسلم عن البخاري واتفق على إخراجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، والإمام النووي رحمه الله بدأ أحاديث الأربعين بحديث عمر " إنما الأعمال بالنيات " ، وهو أول حديث في صحيح البخاري ، وثني بحديث عمر في قصة مجيء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو أول حديث في صحيح مسلم ، وقد سبقه إلى ذلك الإمام البغوي في كتابيه شرح السنة ومصابيح السنة ؛ فقد افتتحهما بهذين الحديثين . وقد أفردت هذا الحديث بشرح مستقل أوسع من شرحه هنا] .

الشرح..

هذا الحديث هو أول حديث في صحيح الإمام مسلم ، وبدأ الإمام مسلم رحمه الله بهذا الحديث الجامع لأن ما سيأتي في كتابه كله تفصيل لما جُمع وأُجمل في هذا الحديث العظيم المبارك الذي فيه تعليم الدين ؛ فبدأ به رحمه الله كتابه الصحيح ، والإمام البخاري رحمه الله بدأ كتابه الصحيح بحديث " إنما الأعمال بالنيات " ؛ لأن بدأ كل عمل بالنية والأعمال معتبرة بنياتها.

والإمام النووي رحمه الله تعالى أراد بصنيعه هذا أن يجمع بين ما بُدأ به كتاب البخاري الصحيح وما بُدأ به كتاب مسلم الصحيح ، فجعل أول حديث عنده في الأربعين حديث إنما الأعمال بالنيات ، وثاني حديث عنده في الأربعين حديث عمر في قصة مجيء جبريل إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، وهذه الطريقة التي صنعها سبقه إليها الإمام البغوي رحمه الله في كتابين له في الحديث وهما مصابيح السنة وشرح السنة .

[ثانياً : هذا الحديث هو أول حديث في كتاب الإيمان من صحيح مسلم ، وقد حدّث به عبد الله بن عمر عن أبيه رضي الله عنهما ، ولتحديثه به قصة ذكرها مسلم بين يدي هذا الحديث بإسناده عن يحيى بن يعمر ؛ قال : إن أول من كان قال بالقدر بالبصرة معبد الجهني فانطلقت أنا وحيد بن عبد الرحمن الحميري حاجين قال أو معتمرين ، فقلنا: لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر فوفّق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخل المسجد فاكتفته أنا وصاحبي ، أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله ، فظننت أن صاحبي سيكلّ الكلام إليّ فقلت: أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرأون القرآن ويتقفرون العلم وذكر من شأنهم وأنهم يزعمون أن لا قدر وأن الأمر أنف ؛ قال: فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم وأنهم برأء مني ، والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر، ثم قال : حدّثني أبي عمر بن الخطاب وساق الحديث من أجل الاستدلال به على الإيمان بالقدر ، وفي هذه القصة: أن ظهور بدعة القدرية كانت في زمن الصحابة في حياة ابن عمر رضي الله عنهما ، وكانت وفاته سنة ثلاث وسبعين هجرية رضي الله عنه ، وأن التابعين يرجعون إلى أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم في معرفة أمور الدين ، وهذا هو الواجب، وهو الرجوع إلى أهل العلم في كل وقت لقول الله عز وجل ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ، وأن بدعة القدرية من أقبح البدع وذلك لشدة قول بن عمر رضي الله عنهما فيها ، وأن المفتي عندما يذكر الحكم يذكر معه دليله]

الشرح..

رواية بن عمر لهذا الحديث المشهور عند أهل العلم بحديث جبريل لها قصة ؛ وهي أن نفراً من أهل العراق سألوه رضي الله عنه وأرضاه عن بدعة القدرية ، وهي بدعة نشأت هناك في العراق ، والمراد ببدعة القدرية إنكارهم للقدر وزعمهم أن الأمور أو الأفعال التي تقع من العباد من إيمان وضده ليست بتقدير الله جل وعلا ، وأن قدرة الله جل وعلا لا دخل لها ولا علاقة لها بأفعال العباد ، فزعموا أن الأمر أنف أي مستأنف ، وأن لا قدر ؛ يعني ليس هناك أمور قدرها الله جل وعلا على العباد ، وهم بهذا يرون أن أفعال العباد مخلوقة للعباد وليست مخلوقة لله - تعالى الله عما يقولون - ، وهذا يعني أن ثمة خالق غير الله وهو الإنسان نفسه بزعمهم هو

الخالق لفعل نفسه ، وهذه بدعة سيئة وقبيحة ، وفيها جحد لقدر الله عز وجل وعدم إيمان بالقدر .

والإيمان ركنٌ من أركان التوحيد ؛ ركن من أركان الإيمان ، ولا توحيد إلا لمن آمن بالقدر كما قال بن عباس رضي الله عنهما : " القدر نظام التوحيد ، فمن وحد الله وكذب بالقدر نقض تكذيبه توحيدَه " ؛ بمعنى أنه لا يستقيم توحيد عبد إلا إذا آمن بالقدر ، وهؤلاء أنكروا قدر الله سبحانه وتعالى ، فكان من توفيق الله جل وعلا ليحيى بن يعمر أنه مع رفيقه حميد بن عبد الرحمن الحميري حج أو اعتمر ، وحرصا في حجهما واعتمارهما أن يسألا أصحاب النبي أو من يلقيه من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عن هذه البدعة ؛ وهذا فيه فائدة وهي الرجوع إلى أهل العلم ، وكذلك حرص السلف قديماً على استغلال الحج والعمرة على الاستفادة في أمور الدين ، وسؤال أهل العلم ، بل كان بعض السلف يفرح غاية الفرح عندما يأتي وقت الحج لأنه سيلقى فلان وفلان من أهل العلم ؛ سيلقى سفيان الثوري وفلان و فلان من أهل العلم فيفرح بالحج فرحاً عظيماً لأنه سيلقى أهل العلم الأكابر فيفيد منهم ويطرح عليهم ما لديه من سؤالات ، فيكون الحج فرصة لتحقيق هذه الطاعة العظيمة - وهي حج بيت الله الحرام- وكذلك فرصة للإفادة في أمور الدين وسؤال أهل العلم ، والحج رابطة إسلامية تجمع المسلمين من شتى البلدان ويلتقون في مكة ويلتقون أيضاً في المدينة لمن تيسر له زيارة مسجد النبي عليه الصلاة والسلام ، وتكون فرصة عظيمة للإفادة في أمور الدين .

يقول يحيى بن يعمر : " كان أول من قال بالقدر بالبصرة معبد الجهني " .. وهذا من كبار القدرية ومن المؤسسين لبدعتهم

" فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجين أو معتمرين ، فقلنا لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر " ..

أي أن حجنا أو اعتمارنا فرصة لنا نلقى فيها واحداً من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام فنسأله عن هذه البدعة التي نشأت في منطقتنا وننظر في حقيقة هذا الأمر ، وهذا فيه الرجوع إلى أهل العلم ، والله يقول ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ، ولا يزال الناس بخير ما رجعوا إلى الأكابر من أهل العلم ، أهل الفقه والبصيرة في دين الله تبارك وتعالى ؛ لأن أهل العلم هم بإذن الله تبارك وتعالى صمام الأمان للأمة إذا رجعوا إليهم ، وإذا عولوا على فتاويهم وإذا أخذوا عنهم فلا يزال الناس بخير ما رجعوا لأهل العلم أهل الفقه والبصيرة في دين الله تبارك

وتعالى .

" فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر "

... أي عن بدعة القدر التي أنشأها هؤلاء ؛ وهي إنكارهم للقدر وزعمهم أن لا قدر

قال : " فوفق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما داخلاً المسجد " ...

المسجد جامع الخير وكم من صلاح وفقه ودين وزوال إشكال تحقق للمسلمين في المساجد - بيوت الله- ، فالمساجد جوامع خير وعلم وإيمان وفقه في دين الله تبارك وتعالى ، وليست المساجد لإقام الصلاة فقط ؛ بل المساجد للصلاة وذكر الله تبارك وتعالى والفقه في دين الله وعقد الحلق العلمية والدروس الفقهية التي يبصر فيها الناس بدينهم وطاعتهم لربهم تبارك وتعالى ، وفيها يوعظ الناس ويذكرون ويوصون بالخير ، وفي المساجد يكون الفقه في الدين وسؤال أهل العلم ، هذه رسالة المسجد ﴿ فِي بُيُوتِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾

" فاستفتته أنا وصاحبي أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله " .. أي أحطنا به ؛ أنا عن يمينه وهو عن شماله أو العكس .

" فظننت أن صاحبي سيكمل الكلام إليّ " .. أي ظننت أن صاحبي يرغب أن أبدأ أنا بالكلام ؛ فبدأت .

" يا أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قبلنا - أي في العراق - ناسٌ يقرأون القرآن ويتفقرون العلم " : وهذه مقدمة لبيان حال أصحاب هذه البدعة ، وأنهم أناس ممن يقرأون القرآن ، وكذلك ممن يدعون العلم والفقه في دين الله تبارك وتعالى ؛ يعني ليسوا من العوام بل هم أناس يقرأون القرآن وأيضاً يتظاهرون بالعلم ، ويدعون العلم ، وذكر من شأنهم . يعني ذكر أوصافاً لهم . وهذا فيه أن صاحب البدعة قد تكون حاله فيما يظهر للناس حال صلاح ؛ فيتظاهر بالعبادة ويتظاهر بالعلم وبالتواضع حتى تنفق بدعته عند الناس

وأذكر أنني قرأت لبعض المعتزلة . أصحاب هذه البدعة . أحد شيوخ هؤلاء يوصي تلميذه لما درس على يديه الاعتزال قال : لا تنشر شيئاً مما قلت لك ولكن الزم سارية المسجد سنة ثم بعد ذلك انشره ؛ إذا لزم سارية المسجد سنة ، والناس لسنة كاملة يرونه متكئاً على السارية في المسجد كلما دخلوا رأوه ، ثم بدأ يحدثهم رُبما اطمأنت نفوسهم لكلامه لما يظهر لهم من صلاحه ومن عبادته ولزومه للمسجد ؛ ولهذا عدد من أهل البدع يظهر عليهم الصلاح في العبادة وفي الصلاة وفي التنسك وفي التواضع وفي الزهد وفي جوانب معينة لكن بداخله عنده بدعة أو

بدع يريد نشرها في الأمة وتوريط الناس بها وإدخالها في عقول الناس ، فهو مقتنع بها ويريد إقناع الآخرين ؛ فيجعل لإقناع الآخرين من التظاهر بالتنسك والزهادة ونحو ذلك وسيلة له لنشر بدعته ، وربما يكون فعلاً عابداً معني بالعبادة ليس متظاهراً لكنه في باب الاعتقاد فاسد ينتحل عقيدة فاسدة ، ومن كان ينتحل عقيدة فاسدة لن ينفق إلا مما عنده ؛ لأن كلاً ينفق مما عنده ؛ فإذا كان ينتحل عقيدة فاسدة لن ينفق للناس ولن ينشر بينهم إلا اعتقاده الفاسد الذي هو عليه ، وكم من أناس وأناس اغتروا بسبب أن من تلقوا عنهم البدعة مشهورون بالعبادة والزهادة والتواضع، ومشهورون بالمعاملة الجيدة ؛ فتنشر بسبب ذلك بدع وضلالات ؛ ولهذا قدم يحي بهذه المقدمة قال : " **يقرأون القرآن ويتقفرون العلم** " ، والنبي صلى الله عليه وسلم لما ذكر بدعة الخوارج قال مخاطباً أصحابه : " تحقرون صلاتكم إلى صلاتهم وعبادتكم إلى عبادتهم وقراءتكم إلى قراءتهم يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم " فوصفهم بالعبادة وتلاوة القرآن والعناية به ومع ذلك ذمهم عليه الصلاة والسلام أشد الذم بل قال عليه الصلاة والسلام " لئن لقيتهم لأقتلنهم قتل عاد " ، ووصفهم بصفات شديدة قال : " يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميّة " .

فالشاهد أن أرباب البدع يدخلون على الناس من خلال مداخل عديدة منها تفقُّر العلم والتظاهر بالزهد والعبادة والمعاملة الطيبة ونحو ذلك إلى أن تنفق بدعتهم وتروج بين العوام والجهال .

قال " **وذكر من شأهم أنهم يزعمون أن لا قدر وأن الأمر أنف** " ..

" **أن لا قدر** " .. أي أن الأمور ليست بقدر الله ولم يقدرها الله سبحانه وتعالى .

وجحد القدر كفر بالله لا تنفع معه لا تلاوة قرآن ولا صلاة ولا صيام ولا حج

ابن عباس رضي الله عنهما قال: " الإيمان بالقدر نظام التوحيد " يعني لا ينتظم التوحيد إلا بالإيمان بالقدر " فمن وحّد الله وكذب بالقدر نقض تكذيبه توحيدَه " أي لا يكون موحداً من كان جاحداً للقدر

فهؤلاء زعموا أن لا قدر وأن الأمر أنف ؛ ما معنى أن الأمر أنف ؟ أي أن الأمور والأفعال التي يقوم بها العباد هي مستأنفة لم تقدر سابقاً ، ولم تكتب سابقاً .. معنى أنف : أي أنها لم تقدر سابقاً ولم تكتب على العباد . قوله تعالى ﴿ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾

وقول النبي عليه الصلاة والسلام " إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض " وقوله جل وعلا ﴿ ثُمَّ جِئْتُ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴾ ، ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ ، ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۖ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ ؛ كل ذلكم لا غ عند هؤلاء ولا حقيقة له ولا أصل ، والأمور عندهم مستأنفة لم تقدّر ، فليس هناك تقدير سابق ولا كتابة سابقة .

قال ابن عمر لما ذكروا له هذه البدعة " قال : إذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم وأنهم براء مني " .. لأن بن عمر رضي الله عنهما يدين بالدين الحق المستمد من كتاب الله جل وعلا وفيه الإيمان بالقدر ، وهؤلاء يدينون بدين باطل أملتهم عليه عقولهم الفاسدة وأهوائهم المنحرفة .

" والذي يحلف به عبد الله بن عمر " .. أي الله سبحانه وتعالى ، والصحابة والسلف عموماً لا يحلفون إلا بالله عملاً بالأحاديث المتكاثرة عن النبي صلى الله عليه وسلم الأمرة بذلك " من كان حالفاً فليحلف بالله " ، وقال : " من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك " ، وقال : " لا تحلفوا بآبائكم ولا أمهاتكم " ، وقال " من حلف بالأمانة فليس منا " ، الحلف لا يكون إلا بالله سبحانه وتعالى لا يحلف لا بالأنبياء ولا بالملائكة ولا الصالحين ؛ ولهذا قال عبد الله بن عمر " والذي يحلف به عبد الله بن عمر " أي الله سبحانه وتعالى .

" لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر " .. أي لو كان لأحد هؤلاء من الذهب بما يماثل جبل أحد و هو جبل كبير عظيم يقع شمال المدينة وعنده وقعت غزوة أو معركة بدر، هذا الجبل لو أن أحد هؤلاء ملك من الذهب بما يزن جبل أحد وأنفقه في سبيل الله وابتغاء وجه الله ما قبل الله منه شيء من هذه النفقة لماذا ؟ لأن الله تعالى يقول : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ، وقال تعالى ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ ﴾ .

فالكفر مبطل للأعمال ومحبط لها ؛ لا يقبل الله سبحانه وتعالى ممن كفر أي عمل ؛ لا صلاة ولا صيام ولا صدقة ولا نفقة ولا شيء من ذلك فالأعمال كلها تكون باطلة ليست مقبولة " حتى يؤمن بالقدر " .

ثم روى حديث جبريل بتمامه ؛ ساق الحديث بتمامه من أجل جملة في الحديث وهي قول النبي عليه الصلاة والسلام " وأن تؤمن بالقدر خيره وشره " ؛ فعَدَّ عليه الصلاة والسلام الإيمان بالقدر ركناً من أركان الإيمان ؛ حيث بين عليه الصلاة والسلام أن الإيمان يقوم على أركان ستة منها الإيمان بالقدر ، ومن لم يؤمن بالقدر فهو كافر بالله سبحانه وتعالى لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً .

وهذه القصة فيها أن ظهور بدعة القدرية كان في أواخر زمن الصحابة ، أدرك نشأة هذه البدعة الصحابي الجليل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما الذي كانت وفاته عام ٧٣ هـ ، فهذا فيه أن البدعة نشأت في وقت مبكر في أواخر زمن الصحابة ، وكذلك بدعة الخوارج وبدع أخرى نشأت في أواخر زمن الصحابة رضي الله عنهم فأنكروا تلك البدع أشد الإنكار، وشنعوا على أصحابها ، وبينوا مخالفتهم لدين الله ، واستدلوا على بيان مخالفات هؤلاء من كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه .

ومن فوائد ما سبق أهمية الرجوع إلى أهل العلم الراسخين دون غيرهم ، ولا يزال الناس بخير ما رجعوا إلى أهل العلم الأكابر ، وإذا رجع المسلم أو من عنده إشكال إلى أهل العلم الأكابر أزالوا عنه الشبهة بإذن الله وأبانوا له السبيل ، أما إذا سأل مَنْ ليس من أهل العلم الراسخين فيه ؛ ربما مَكَّنَ للبدعة عنده ، أو ربما جرَّه إلى بدعة أخرى فنقله من ضلال إلى ضلال ومن باطل إلى باطل ، والواجب على المسلمين كافة أن يكون رجوعهم إلى أهل العلم الأكابر .

قال حفظه الله تعالى :

[ثالثاً : في حديث جبريل دليل على أن الملائكة تأتي إلى البشر على شكل البشر ، ومثل ذلك ما جاء في القرآن من مجيء جبريل إلى مريم في صورة بشر ، ومجيء الملائكة إلى إبراهيم ولوط في سورة بشر ، وهم يتحولون بقدرة الله عز وجل عن الهيئة التي خلقوا عليها على هيئة البشر ، قد قال الله عز وجل في خلق الملائكة ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَرِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾ ، وفي صحيح البخاري ومسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى جبريل و له ستمائة جناح] .

الشرح..

هذا الحديث ؛ حديث جبريل من فوائده أن الملائكة تأتي إلى الأنبياء على هيئة البشر ؛ أي أن الملك الذي خلقه وجسمه كبير وعظيم كما في صحيح البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى جبريل على صورته الحقيقية له ستمائة جناح قد سد الأفق ؛ هذا الملك كان يأتي على صورة أعرابي . رجل . ؛ الجسم الضخم الكبير يتحول إلى جسم صغير بقدرة الله سبحانه وتعالى ؛ الجسم الكبير الذي يسد الأفق و له ستمائة جناح بقدرة الله جلّ وعلا يتحوّل إلى جسم صغير

جسم إنسان وهنا نذكر قول الله سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

فالحديث يفيد ذلك وجبريل هذه المرة جاء على صورة رجل في الحديث " بين نحن جلوس عند رسول الله إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يظهر عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد " .. جاء على هيئة رجل وصِفَتُهُ أنه شديد بياض الثياب وشديد سواد الشعر ، وفي الوقت نفسه غير معروف ليس من أهل البلد ، ولا يرى عليه أثر السفر ، وهذا في زمانه يعتبر في غاية الغرابة لأن القادم من سفر معروف بهيئته لأن الشمس قد أثرت فيه والرياح أثرت فيه والسفر الطويل في البراري والصحراء أثر فيه ؛ فيأتي بصورة معروفة عند الناس ، بينما في زماننا يأتي الرجل من أقصى الدنيا ولا يُرى عليه أثر السفر؛ ففي زماننا ليس غريباً أما في زمانهم فيعتبر غريباً لأن السفر قد يكون من الشام شهر كامل إلى المدينة ويتعرض خلال ذلك إلى وهج الرياح والشمس والصحراء وتقلبات الجو فيأتي ويرى عليه أثر السفر؛ يُرى عليه الغبار وأثر الشمس .

والشاهد أن الله جل وعلا أعطى الملائكة قدرة على التشكل ففي قصة مريم ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ أي جبريل أي جاءها على مثل وهيئة البشر ، والله سبحانه وتعالى أقدر الملائكة على ذلك ومكّنهم من ذلك ، والقرآن دل على ذلك ودلت عليه أيضاً سنة النبي صلى الله عليه وسلم . والأضياف الذين جاءوا إبراهيم الخليل عليه السلام جاءوه على هيئة بشر ، فالله جل وعلا أقدر الملائكة على ذلك .

قال : [رابعاً: في مجيء جبريل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلوسه بين يديه بيان شيء من آداب طلبه العلم عند المعلم وأن السائل لا يقتصر سؤاله على أمور يجهل حكمها ؛ بل ينبغي له أن يسأل غيره وهو عالم بالحكم ليسمع الحاضرون الجواب ؛ ولهذا نسب إليه الرسول صلى الله عليه وسلم في آخر الحديث التعليل حيث قال : " فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم " .

والتعليم حاصل من النبي صلى الله عليه وسلم لأنه المباشر له ، ومضاف إلى جبريل لكونه المتسبب فيه . [

الشرح..

من فوائد حديث جبريل .. الأدب الذي ينبغي أن يكون عليه طالب العلم في طلب العلم ، في جلوسه عند العالم الذي يُفقهه في دين الله تبارك وتعالى ؛ ففيه إرشاد إلى ما ينبغي أن يكون

عليه طالب العلم من الأدب في طلبه للعلم ؛ هذا جانب .

والجانب الآخر أن السائل ليس من شرطه أن يكون يسأل عما لا يعلم ؛ بل يحسن بالسائل أن يسأل عما لا يعلمه كثير من الحاضرون ؛ فيسأل ليفقههم في الدين ، وهذه طريقة شرعية صحيحة ؛ إذا كنت بحضرة عالم وتعلم أن عدداً من الحاضرين لديهم تقصير في الصلاة مثلاً وتهاون بها أو تهاون في شروطها وواجباتها أو عدم المحافظة على وقتها ، ثم طرحت على العالم سؤالاً تعلم جوابه لكنك تريد أن يستفيد الحاضرون ويتعلموا دينهم ؛ فقلت : لدي سؤال عن الصلاة : ما حكم كذا وكذا و كذا أريد جواباً مفصلاً ، وبدأ العالم يفصل أموراً ...

فهذا السؤال من السؤالات النافعة جداً التي ينبغي أن يُحرص عليها ، بخلاف الأسئلة التي النوايا فيها ليست صحيحة ؛ فأحياناً بعض الناس يسأل ليشوّش على الحاضرين والعياذ بالله ، أو يسأل ليثير شبهة في الحاضرين ، أو يسأل ليبرز نفسه أو يظهر نفسه لدى الحاضرين ، أو يسأل ليخرج من أمامه ومن يريد سؤاله ، أو غير ذلك ، والسؤال لا يكون صالحاً إلا إذا قصد به السائل نفع نفسه ونفع الآخرين كما جاء في حديث وفد عبد القيس قالوا للنبي عليه الصلاة والسلام : " مُرنا بقول فصل نخبر به من ورائنا وندخل به الجنة " فهذا يبين أن السؤال لا يكون صالحاً إلا إذا أراد به أو نوى به صاحبه هذه النية المباركة ؛ أن يدخل هو به الجنة وأن يكون سبباً لصلاح الآخرين ؛ ولهذا قال الإمام أحمد رحمه الله : " العلم لا يعدله شيء إذا صلحت النية قليل وما صلاحها قال أن تنوي به رفع الجهل عن نفسك وعن غيرك "

جبريل في هذا الحديث وصفه النبي صلى الله عليه وسلم بأنه أتاهم يعلمهم دينهم ، مع أن جبريل لم يحصل منه مباشرة للتعليم ، وإنما حصل له فقط سؤالات وجَّهها النبي عليه الصلاة والسلام ومع ذلك وصفه النبي صلى الله عليه وسلم أنه أتى يُعَلِّم الناس دينهم ، وهذا يستفاد منه أن من طرح سؤالاً على عالم ومراده من ذلك أن يفقه الناس من دين الله تبارك وتعالى ما يجهلونه أو ما هم مفرطون فيه ؛ فإن هذا السائل يثاب ثواب من يعلم الناس دينهم ؛ لأن العالم تعليمه للناس بمباشرة التعليم ، وهذا تعليمه للناس بالتسبب في التعليم ، والدال على الخير كفاعله كما جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام ؛ فقد يكون تعليم الناس بمباشرة التعليم وقد يكون تعليمهم بالتسبب وإذا تسببت في تعلم الناس فلك أجر من علّمهم وهذا فضل الله سبحانه وتعالى ، وعليه من لم يكن عالماً يتمكن من تعليم الناس وإن لم يكن عالماً ، مثلاً لو طلبت من طالب علم متمكن في بلدك

أن يعقد لكم درساً في مسجدكم تدرسون الأربعين للنووي أو غيره من كتب أهل العلم ، وألححت عليه في ذلك وبينت له حاجة الناس ووافق ، وبدأ يحضّر ويعد ويراجع ويُعلّم ويُفقه .. فكل ذلك يُكتب لك ، وأنت لم يحصل لك من الجهد إلا الطلب منه في بداية الأمر ؛ كل الجهد الذي يبذله يكون لك مثل أجره ؛ الدال على الخير كفاعله .. أي كفاعل الخير . ولهذا تعليم الناس قد يكون بالمباشرة وهذا لا يكون إلا من العالم ويكون بالتسبب وهو من العوام ، العامي من المتيسر له أن يُفقه الناس بالتسبب والتسبب في تفقيه الناس له طرق كثيرة إما بهذه الطريقة بسؤال العالم في محفل ومجمع للناس حتى يفقهوا دينهم فتتسبب في تعليمهم دينهم

أو بأن يأخذ العوام إلى حلق العلم ويرغبهم فيها ويحثهم على الجلوس فيها ؛ فهذا علّم بالتسبب .

وكذلك من وسائل التعليم بالتسبب مما هو متهيئ للعامي أن يهدي للناس الكتب والأشرطة النافعة والمفيدة التي تفقههم في دين الله .

فالعامي الذي لا فقه عنده في دين الله أن يكون معلماً للناس بالتسبب ، ولا يجوز للعامي أن يتصدر لتعليم الناس وتفقيهم وهو لا علم له في دين الله تبارك وتعالى .

سبحانك اللهم و بحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، اللهم صلّ وسلّم على عبدك ورسولك نبينا محمد و آله وصحبه

..*

الدرس الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .
أما بعد ..

قال: [خامساً: مما يستفاد من الحديث : قوله « قال: يا محمد أخبرني عن الإسلام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأن تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً » أجاب النبي صلى الله عليه وسلم جبريل عندما سأله عن الإسلام بالأمور الظاهرة ، وعندما سأله عن الإيمان أجابه بالأمور الباطنة ، ولفظا الإسلام والإيمان من الألفاظ التي إذا جُمع بينها في الذكر فرق بينها في المعنى ، وقد اجتمعا هنا فُفسر الإسلام بالأمور الظاهرة ، وهي مناسبة لمعنى الإسلام ، وهو الاستسلام والانقياد لله تعالى ، وُفسر الإيمان بالأمور الباطنة وهي المناسبة لمعناه وهو التصديق والإقرار ، وإذا أفرد أحدهما عن الآخر شمل المعنيين جميعاً . الأمور الظاهرة والباطنة . ، ومن مجيء الإسلام مفرداً قوله الله عز وجل ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ومن مجيء الإيمان مفرداً قول الله عز وجل ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ، ونظير ذلك كلمتا الفقير والمسكين ، والبر والتقوى وغير ذلك .]

الشرح..

هذا الحديث حديث عظيم حوى الدين بمراتبه ، وبين عليه الصلاة والسلام كل مرتبة من مراتب الدين بيان شافٍ وإيضاح وافٍ بألفاظ موجزة وعبارات مختصرة أتت على الخير كله ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

وهذا الحديث سأل فيه جبريل النبي عليه الصلاة والسلام عن الإسلام وسأله عن الإيمان ؛ فقال صلى الله عليه وسلم في بيان معنى الإسلام « أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة

وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً » ،

وقال في بيان معنى الإيمان « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن تؤمن بالقدر خيره وشره » ، وعندما تتأمل في التعريفين للإسلام والإيمان تجد أن النبي عليه الصلاة والسلام فسر الإسلام بالأعمال الظاهرة ، الشهادتان والصلاة والصيام والزكاة والحج ؛ هذه كلها أعمال ظاهرة يقوم بها العبد ؛ ففسر النبي عليه الصلاة والسلام الإسلام بالأعمال الظاهرة ، وفسر الإيمان بالعقائد الباطنة التي مكانها القلب ؛ قال « الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره » ؛ وجميع هذه الست عقائد مكانها القلب ، ففسر النبي عليه الصلاة والسلام الإسلام بالأعمال الظاهرة وفسر الإيمان بالعقائد الباطنة التي مكانها القلب ؛ وبهذا تستفيد فائدة عظيمة في بيان الفرق بين الإسلام والإيمان ؛ أن الإسلام والإيمان إذا اجتمعا معاً في الذكر - أي ذُكرا في نص واحد- فالمراد بالإسلام الأعمال الظاهرة والمراد بالإيمان عقائد الدين الباطنة ، وهذا موافق تمام الموافقة لمعنى هذين اللفظين ؛ لأن الإسلام من الاستسلام والإذعان ؛ فتفسيره بالأعمال الظاهرة موافق لذلك ، والإيمان من التصديق والإقرار فتفسيره بالعقائد الباطنة أيضاً موافق لذلك .

فالإسلام والإيمان لفظان إذا ذُكرا معاً في نص واحد فُسر الإسلام بالأعمال الظاهرة وفسر الإيمان بالعقائد الباطنة ، وإذا ذُكر كل واحد منهما مفرداً ولم يُذكر معه الآخر شمل معنى الآخر، فمثلاً عندما تقرأ ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ ، وعندما تقرأ ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ ، عندما تقرأ ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ ، وعندما تقرأ ﴿ ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ يعني في الإسلام ؛ هنا ذكر الإسلام مفرداً فلم يذكر الإيمان معه ؛ ففي هذه الحالة إذا ذُكر الإسلام مفرداً يشمل الدين كله ؛ فيشمل الأعمال التي تكون في القلوب ويشمل الأعمال التي تكون بالجوارح ،

وهكذا قُل في الإيمان ؛ فإذا ذكر مفرداً فإنه يشمل معناه الخاص به وهو العقائد ، ويشمل أيضاً الأعمال الظاهرة ؛ فمثلاً قول الله جل وعلا ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾ ، ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ ؛ ذكر الإيمان مفرداً فيتناول الدين كله عقيدةً وعبادةً .

وهذا مبني على قاعدة قرّرها أهل العلم وهي أن من الأسماء ما يكون شاملاً لمسميات

متعددة عند إفراده وإطلاقه ؛ فإذا قُرُن ذلك الاسم بغيره صار دالاً على بعض تلك المسميات والاسم المقرون به دال على باقيها . وهذا ليس خاصاً بالإسلام والإيمان ؛ بل بألفاظ عديدة شرعية منها ما مرَّ معنا الإشارة إليه مثل البر والتقوى ، والفقير والمسكين ، ونحو ذلك من الألفاظ ، فمن شأن هذه الألفاظ أنها إذا ذُكر أحدها مفرداً عن الآخر شمل معنى الآخر وإذا ذُكرا معاً استقل كل واحد منهما بمعنى خاص ، وبهذا ينبغي أن تعلم أن لفظ الإسلام والإيمان من حيث ورودُهُ في النصوص الشرعية تارةً يأتي ذكرهما معاً في النص الواحد مثل حديث جبريل ، ومثل قول الله تعالى ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ ، ومثل قوله تعالى ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ ؛ فمثل هذه النصوص يأتي فيها ذكر الإيمان والإسلام معاً ، هذه حالة .

الحالة الثانية أن يأتي ذكر الإيمان مفرداً ، وسبق أن أشرت إلى بعض الآيات التي يأتي بها ذكر الإيمان مفرداً .

والحالة الثالثة أن يأتي ذكر الإسلام مفرداً ، وأيضاً سبق ذكر بعض الآيات التي جاء فيها ذكر الإسلام مفرداً ، فهذه حالات ثلاث ؛

- إذا ذُكر الإسلام والإيمان معاً يفسر الإسلام بالأعمال الظاهرة ، ويفسر الإيمان بالعقائد الباطنة ، والمعيار عندنا حديث جبريل في التفسيرين
- الحالة الثانية ذكر الإيمان مفرداً ؛ الإيمان إذا ذكر مفرداً شمل الكل ، شمل العقائد التي في القلوب وشمل الأعمال التي بالجوارح
- الحالة الثالثة ذكر الإسلام مفرداً ، والإسلام إذا ذُكر مفرداً أيضاً يتناول الجميع ، يتناول العقائد التي تكون في القلوب ويتناول الأعمال التي تكون بالجوارح .

قال : [وأول الأمور التي فُسر بها الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهاتان الشهادتان متلازمتان ، وهما لازمتان لكل إنسي وجني ، من حين بعثته إلى قيام الساعة ، فمن لم يؤمن به صلى الله عليه وسلم كان من أصحاب النار لقوله صلى الله عليه وسلم « والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار » رواه مسلم] .

الشرح..

أول ما فسر به الرسول صلى الله عليه وسلم الإسلام الشهادتان قال: " أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله " فهذا أول شيء فسر به النبي صلى الله عليه وسلم الإسلام وسيأتي معنا نظير هذا حديث عمر الآتي " بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله" .

وأول ما يحصل به الإسلام من العبد الشهادتان ، فلا يكون مسلماً إلا بهما ، وأول ما يدخل به العبد هذا الدين ؛ فالشهادتان أول الأمر وآخره كما قال عليه الصلاة والسلام " من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة " ، وهما كلمتان متلازمتان لا تنفك إحداها عن الأخرى ، ولا تقبل إحداها إلا بالأخرى ، فشهادة أن محمداً رسول الله قرين لشهادة أن لا إله إلا الله لا تنفك عنها بل لا تقبل لا إله إلا الله إلا بها ؛ ولهذا فإن الشهادتين متلازمتان لا تنفك عنها ولا تقبل شهادة أن لا إله إلا الله إلا إذا ضُم إليها شهادة أن محمد رسول الله ، ولو قدّر أن شخصاً شهد أن لا إله إلا الله وأعلن التوحيد لكنه لم يشهد بأن محمداً رسول الله عليه الصلاة والسلام ، بلغتْهُ بعثتْهُ ولم يؤمن به ، قال أنا أبقي موحداً لا أشرك بالله ولا أعبد مع الله غيره ولكني لا أُؤمّنُ بهذا النبي ولا أقبل الإيمان به ولا أنطق بالشهادة بأنه رسول الله ؛ فمثل هذا لا يقبل منه الله سبحانه وتعالى شهادة أن لا إله إلا الله ؛ فقد قال عليه الصلاة والسلام « والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولا يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان حقاً على الله أن يدخله النار » ؛ فشهادة أن محمداً رسول الله قرين لشهادة أن لا إله إلا الله ، ولهذا محبته من محبة الله وطاعته من طاعة الله وتصديقه من تصديق الله ومعصيته من معصية الله ، وهو رسول الله عليه الصلاة والسلام مُبَلِّغٌ عن الله شرعه ودينه ، فمن لم يؤمن به عليه الصلاة والسلام ليس مؤمناً بالله ؛ لأن الكفر به كفر بمرسله صلوات الله وسلامه عليه .

قال : [وشهادة أن لا إله إلا الله معناها لا معبود حق إلا الله ، وكلمة الإخلاص تشتمل على ركنين: نفي عام في أولها وإثبات خاص في آخرها ؛ ففي أولها نفي العبادة عن كل من سوى الله ، وفي آخرها إثبات العبادة لله وحده لا شريك له وخبر لا النافية للجنس تقديره حق ، ولا يصلح أن يُقدّر موجود لأن الآلهة الباطلة موجودة وكثيرة وإنما المنفي الألوهية الحقّة فإنها منتفية عن كل ما سوى الله وثابتة لله وحده] .

الشرح..

هنا بيان لمعنى شهادة أن لا إله إلا الله ، و " لا إله إلا الله " لا تقبل من قائلها إلا إذا عرف معناها قال تعالى ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ قال غير واحد من المفسرين: إلا من شهد بلا إله إلا الله وهم يعلمون معنى ما شهدوا به ، الحق لا إله إلا الله وهي أعظم الحق ؛ قال تعالى ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ وقال ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ ف"لا إله إلا الله " هي كلمة الحق ، فلا تقبل من قائلها إلا إذا عقل معناها وعرف مدلولها ، وقال تعالى ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ ، وفي صحيح مسلم من حديث عثمان رضي الله عنه أن النبي عليه الصلاة والسلام قال « من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله » ؛ فاشتراط عليه الصلاة والسلام العلم ؛ ولهذا من شروط قبول " لا إله إلا الله " من قائلها أن يكون عالماً بمعناها نفياً وإثباتاً المنافي للجهل ؛ لأن " لا إله إلا الله " قائمة على ركنين ، فلا يكون من أهلها من قالها إلا إذا عرف معناها وعقل مدلولها ، وهي كلمة قائمة على ركنين: النفي والإثبات ، والتوحيد الذي حُلِقَ الخلق لأجله وأوجدوا لتحقيقه لا يمكن أن يحصل من العبد إلا بالنفي والإثبات ، بدون نفي وإثبات لا يكون توحيد ، التوحيد الذي هو الإخلاص لله جل وعلا لا يكون إلا بالنفي والإثبات ، التوحيد هو مدلول لا إله إلا الله ؛ و " لا إله إلا الله " قائمة على ركنين : نفي عام في أولها وإثبات خاص في آخرها ؛ أولها نفي عام " لا إله " ، والإله في اللغة المعبود ، فقوله " لا إله " : هذا نفي للعبودية عن كل من سوى الله أيّاً كان ، لا بد من هذا النفي ليكون العبد موحداً ، ينفي العبودية بكل معانيها عن كل أحد كائناً من كان ، ينفيها عن الملائكة ينفيها عن الأولياء ينفيها عن الجبال والأشجار.. إلى غير ذلك ، نفي عام عن كل ما سوى الله ثم إثبات خاص في آخرها " إلا الله " إثبات العبودية بكل معانيها لله وحده .

فلا يكون المرء موحداً من أهل لا إله إلا الله إلا بالنفي والإثبات ؛ بالنفي وحده لا يكون موحداً وبالإثبات وحده لا يكون موحداً بل لا يكون موحداً إلا بالنفي والإثبات فهما ركنا التوحيد فلا توحيد إلا بهما ..

" تشتمل على ركنين: نفي عام في أولها وإثبات خاص في آخرها "

ولو أن شخصاً نفى ولم يثبت . قال " لا إله " وسكت لم يثبت . يكون ملحدًا ؛ لأن الملاحظة شعارهم لا إله والحياة مادة .

وإذا أثبت ولم ينفي ؟ ، فلو أن شخصاً قال : أنا أقر بأن الله معبود وأعبد ، أصلي وأحج وأتصدق لكن لا أنفي العبودية عن سوى الله ماذا يكون ؟ يكون مشركاً

فمن نفى ولم يثبت فهو ملحد ومن أثبت ولم ينف فهو مشرك ، ولا يكون موحدًا إلا بالنفي والإثبات .

ولهذا التوحيد الذي هو حق الله جل وعلا على العبيد لا بد فيه من النفي والإثبات ، النفي العام " لا إله " نفي للعبودية عن كل ما سوى الله ، " إلا الله " : إثبات للعبودية بكل معانيها لله وحده ؛ ولهذا الذي يقول لا إله إلا الله وهو يعرف معناها لا يسأل إلا الله ، ولا يستغيث إلا بالله ، ولا يدعو إلا الله ، ولا يذبح إلا لله ، ولا ينذر إلا لله ، هذا هو معنى لا إله إلا الله ، ولهذا المشركون لما قال لهم النبي عليه الصلاة والسلام قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ماذا قالوا؟ ﴿ أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ ؛ عرف القوم أن " لا إله إلا الله " تنفي العبودية عن جميع الآلهة التي يعبدون وتثبت العبادة لله وحده دون شريك ، ولهذا قالوا متعجبين ﴿ أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ وانطلق الملائمة منهم أن امشوا و اصبروا على آلهتكم إن هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿ وفي الآية الأخرى ﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿ وَيَقُولُونَ آءَنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴾ لتاركوا آلهتنا : لأن " لا إله إلا الله " تعني ترك الآلهة ونبد الأصنام ، ونبد عبادة أي أحد غير الله سبحانه وتعالى . فهذا معنى " لا إله إلا الله " ، ولا يكون العبد موحدًا إلا إذا نطق بلا إله إلا الله وقد عقل معناها وعرف مدلولها

" لا " .. في كلمة التوحيد : نافية للجنس ، ولها مبتدأ وخبر .

" إله " .. هو المبتدأ ، وخبرها محذوف مُقَدَّر " لا إله " ثمة محذوف مقدر ؛

ما هذا المحذوف المقدر ؟ ..

" لا إله إلا الله " .. رأيتم لو قال قائل المقدر المحذوف هو كلمة " موجود " ، أيصح ذلك ؟

بحيث يكون المعنى : - لا إله موجود إلا الله - ؟

الآلهة الموجودة المعبودة بالباطل كثيرة أم قليلة ؟ .. كثيرة

فإذا كان هذا المعنى : " لا إله موجود إلا الله " ؛ يكون معنى هذه الكلمة : كل إله موجود هو

الله - سواء عُبد بحق أو عُبد بباطل « ولا يُعبد بحق إلا الله » - هو الله ؛ وهذا معنى فاسد باطل

وهو نقيض كلمة التوحيد " لا إله إلا الله " ، فلا يجوز أن يُقَدَّر المحذوف بموجود ، بل لا يجوز

أن يُقَدَّر إلا بكلمة حق " لا إله حق إلا الله " المحذوف لا يجوز أن يقدر إلا بحق ، ودليلها

القرآن ؛ قال الله عز وجل ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّبُ الْمُوتَى ﴾ ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ

أَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ ﴿١﴾ ، ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ ، في تلبية بعض الصحابة : " لبيك إله الحق " فلا يُقدَّر إلا بهذه الكلمة فـ " لا إله إلا الله " معناها " لا معبود حق إلا الله " وإن شئت أن تفسر " لا إله إلا الله " بالقرآن .. فعندك في القرآن آيات كثيرة جداً تفسر لك " لا إله إلا الله " ، فلو قال لك قائل : ما معنى " لا إله إلا الله " ؟ قل معناها : ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ ؛ لأن " اعبدوا الله " إثبات ، " لا تشركوا به شيئاً " نفي .
أو قلت : ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ ، أو ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ ؛
أو قلت ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴿﴾ ، نفي وإثبات ؛ فهذه كلها آيات تفسر " لا إله إلا الله " وتبين معناها .

وعليه فإنه من يشهد أن لا إله إلا الله وأنه لا معبود حق إلا الله عليه أن يعرف العبادة ماهي حتى لا يصرف شيئاً منها إلا لله المعبود بحق سبحانه وتعالى .

قال : [ومعنى شهادة أن محمداً رسول الله أن يُحِبَّ فوق محبة كل محبوب من الخلق وأن يُطاع في كل ما يأمر به ، وينتهي في كل ما نهى عنه ، وأن تُصدق أخباره كلها سواء كانت ماضية أم مستقبلية أو موجودة وهي غير مشاهدة ولا معاينة ، وأن يُعبد الله طبقاً لما جاء به من الحق والهدى] .

الشرح..

هذا معنى شهادة أن محمداً رسول الله ، وهذه الشهادة العظيمة معناها يتناول أموراً عديدة :
الأمر الأول : أن يُحِبَّ عليه الصلاة والسلام محبة مقدمة على النفس والنفيس والمال والأهل والولد والتجارة ؛ كما قال الله سبحانه وتعالى ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ؛ فمحبتة عليه الصلاة والسلام مقدمة على محبة النفس والأهل والولد والتجارة والبيت والعشيرة وغير ذلك ، وفي الحديث قال عليه الصلاة والسلام « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين » ، وفي صحيح البخاري يقول « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » ، فإذا من مقتضيات شهادة أن محمداً رسول الله أن يُحِبَّ عليه الصلاة والسلام محبة مقدمة على محبة النفس والولد والأهل والتجارة والناس أجمعين ؛ وذلك لأنه عليه الصلاة والسلام أولى بك منك كما قال جل وعلا ﴿النَّبِيُّ

أَوَّلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴿١﴾ ، وَأَحْرَصَ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ مِنْكَ ﴿٢﴾ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٣﴾ . وبواسطته عليه الصلاة والسلام عرفت دين الله ، ودعاك وذلك إلى صراط مستقيم ، فهو عليه الصلاة والسلام رسول الله البشير النذير الداعي إلى الله بإذنه والسراج المنير صلوات الله وسلامه عليه ، فوجب على كل من شهد أنه رسول الله أن يُقدم محبته عليه الصلاة والسلام على محبته لنفسه ومحبته لماله ومحبته لولده وأهله ولعشيرته وغير ذلك ، ولا يكفي في هذه المحبة مجرد الادعاء لأن الادعاء أمر يسير على كل إنسان لكن العبرة ليست بالدعوى ؛ قال الله تعالى ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ ، فلا يكفي مجرد الادعاء وإلا لو كان مجرد الادعاء فإخوان القردة والخنازير قالوا كما ذكر الله عنهم ﴿ نَحْنُ أَبْنَاؤُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ ، الادعاء أمره سهل ويسير على الألسن ولا يكفي فلا بد من عمل يدل على صدق المحبة وهو الإتيان للرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ، هذا الأمر الأول من مقتضيات شهادة أن محمداً رسول الله .

الأمر الثاني : أن يطاع في كل ما يأمر به ؛ كما قال الله سبحانه وتعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ . وقد قرن الله جل وعلا طاعته بطاعته سبحانه وتعالى في آيات كثيرة من القرآن ، وأخبر أن طاعته من طاعة الله ﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ فإذا من مقتضيات شهادة أنه رسول الله أن يطاع في كل ما يأمر به .

الأمر الثالث : أن يُنتهى عن كل ما نُهى عنه ، نُهى عليه الصلاة والسلام عن أمور كثيرة أخطرها الشرك ، نُهى عن القتل ، عن السرقة وعن الزنى وعن الكذب وعن الغش وغير ذلك ؛ فمن مقتضيات أنه رسول الله أن يُنتهى عن كل ما نُهى عنه صلوات الله وسلامه عليه .

الأمر الرابع : تصديقه في كل ما يخبر به ، وهو عليه الصلاة والسلام أخبر عن أمور ماضية وأخبر عن أمور مستقبلية وأخبر عن أمور موجودة مشاهدة وغير مشاهدة ؛ فيجب على من شهد أنه رسول الله أن يصدِّقه في كل أخباره بدون تردد .

الأمر الخامس : أن يُعبد الله طبقاً لما جاء به من الحق والهدى ؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يقبل من العبادة إلا ما كان موافقاً لما جاء به عليه الصلاة والسلام ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ » ؛ أي مردود على صاحبه غير مقبول منه

قال : [وإخلاص العمل لله واتباع ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم هما مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فكل عمل يتقرب به إلى الله لا بد أن يكون خالصاً لله ومطابقاً لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا فقد الإخلاص لم يقبل العمل لقول الله عز وجل ﴿ وَ قَدْ مَنَّا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِن عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ نَبْءًا مَّشُورًا ﴾ وقوله تعالى في الحديث القدسي : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه » رواه مسلم

وإذا فقد الإتيان ردَّ العمل لقوله صلى الله عليه وسلم « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » رواه البخاري ومسلم ، وفي لفظ لمسلم « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » ، وهذه الجملة أعم من الأولى لأنها تشتمل من فعل البدعة وهو محدث لها ومن فعلها متابعاً لغيره فيها ، وستأتي الإشارة إلى شيء مما يتعلق بالصلاة والزكاة والصيام والحج في حديث ابن عمر رضي الله عنهما "بني الإسلام على خمس " وهو الحديث الذي يلي هذا الحديث] .

الشرح..

الجمع بين الشهادتين - شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله - فيهما الجمع بين شرطي قبول العمل ؛ لأن العمل أيّاً كان - من صلاة أو صيام أو صدقة أو حج أو غير ذلك - ؛ لا يقبله الله إلا بشرطين .. الأول : الإخلاص للمعبود ، والثاني : المتابعة للرسول صلى الله عليه وسلم ، فإذا فقد العمل أحد هذين الشرطين أو فَقَدَهُمَا معاً لم يقبله الله ، فالله سبحانه وتعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه مطابقاً لسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

والدليل على أن العمل إذا لم يكن على الإخلاص لم يقبل قول الله جل وعلا في الحديث القدسي « أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه » ، والدليل على أن العمل إذا فقد المتابعة لم يقبل قوله صلى الله عليه وسلم : « من عمل ليس عليه أمرنا فهو رد » ، أي مردود على صاحبه غير مقبول منه فالأعمال لا تُقبل عند الله إلا إذا أخلص فيها العامل لله وتابع فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وإذا قيل ما أقسام الناس من حيث الإخلاص والمتابعة ؟ الناس في هذا الباب ينقسمون إلى أربعة أقسام :

القسم الأول: أهل الإخلاص والمتابعة ، وهم وحدهم الذين يقبل الله سبحانه وتعالى عملهم - لأن الله لا يقبل العمل إلا إذا اجتمع فيه الأمران - .

القسم الثاني: من عنده إخلاص ، مخلص لله لا يتغي بعمله إلا وجه الله لكن عمله يفتقد

المتابعة ، مخلص لكنه مبتدع ويعبد الله بالبدع ، يعبد الله بأمور محدثة لم تأت عن رسول الله صلى

الله عليه وسلم •

فهل مثل هذا يقبل الله عمله لكونه مخلصاً؟ الجواب : لا ؛ لماذا .. لأن النبي عليه الصلاة والسلام قال: " من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد " ، ف اشترط لقبول العمل أن يكون موافقاً لعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم .
القسم الثالث : من عنده متابعة - يعمل العمل موافقاً للسنة - لكنه في قلبه ليس مخلصاً لله ؛ فهو يأتي العمل إما رياءً أو سمعةً أو شهرةً ؛ فهذا أيضاً لا يقبل الله منه عمله - لأن الله لا يقبل العمل إلا إذا كان خالصاً وموافقاً للسنة - .

القسم الرابع : من لا إخلاص عنده ولا متابعة - ليس مخلصاً لله ولا متبع لرسول الله - .

• وهذه الأقسام كلها مردودة إلا القسم الأول وهو من كان عمله مخلصاً لله موافقاً لرسول الله

صلى الله عليه وسلم •

ولهذا وجب على كل مسلم عاقل بأن ينتبه لهذا الأمر وأن يجاهد نفسه دائماً وأبداً بأن تكون أعماله لله خالصة ولسنة النبي عليه الصلاة والسلام موافقة ؛ وهذا هو معنى قوله تعالى ﴿ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ ، وفي الدعاء الذي علمه النبي عليه الصلاة والسلام لمعاذ ؛ قال : « أن تقول دبر كل صلاة اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » ،

العبادة لا تتصف بالحسن إلا إذا كانت لله خالصة ولسنة النبي عليه الصلاة والسلام موافقة ؛ لأنها إن لم تكن لله خالصة لا تكن حسنة لأنها شرك ، وإذا لم تكن للسنة موافقة لا تكن حسنة لأنها بدعة وكل بدعة ضلالة .

فلا تكون العبادة مرضية عند الله ولا تكون حسنة إلا إذا قامت على الإخلاص والمتابعة ، ولهذا قال الفضيل بن عياض رحمه الله في قوله تعالى ﴿ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ ؛ قال أخلصه وأصوبه ، قيل يا أبا علي : وما أخلصه وأصوبه ؟ قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل ، والخالص ما كان لله ، والصواب ما كان على السنة .

ومن الدعاء المأثور عن بعض الصحابة : " اللهم اجعل عملي لوجهك خالصاً ولسنة نبيك صلى الله عليه وسلم موافقاً ولا تجعل لأحد فيه شيئاً " .

[سادساً : قوله " قال: صدقت فعجبنا له يسأله ويصدقه " ، وجه التعجب أن الغالب على

السائل كونه غير عالم بالجواب فهو يسأل ليصل إلى الجواب ، ومثله لا يقول للمسؤول إذا أجابه صدقت ؛ لأن السائل إذا صدّق المسؤول دلّ على أن عنده جواباً من قبل ، ولهذا تعجب الصحابة من هذا التصديق من هذا السائل الغريب .

سابعاً : قوله " قال: فأخبرني عن الإيمان قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره " : هذا الجواب مشتمل على أركان الإسلام الستة ، وأول هذه الأركان الإيمان بالله ؛ ولهذا أضيف إليه الإيمان بالملائكة والكتب والرسل ، ومن لا يؤمن بالله لا يؤمن ببقية الأركان ، والإيمان بالله يشمل الإيمان بوجوده وبربوبيته وألوهيته وأسماءه وصفاته ، وأنه سبحانه وتعالى متصف بكل كمال يليق به ، منزّه عن كل نقص ، فيجب توحيده بربوبيته وألوهيته وأسماءه وصفاته ، وتوحيده بربوبيته بالإقرار بأنه واحد في أفعاله لا شريك له فيها كالخلق والرزق والإحياء والإماتة وتدبير الأمور والتصرف في الكون وغير ذلك مما يتعلق بربوبيته .

وتوحيد الألوهية توحيدُهُ بأفعال العباد كالدعاء والخوف والرجاء والتوكل والاستعانة والاستعاذة والاستغاثة والذبح والنذر وغيرها من أنواع العبادة التي يجب إفراده بها فلا يصرف منها شيءٌ لغيره ولو كان ملكاً مقرباً أو نبياً مرسلًا فضلاً عما سواهما .

وأما توحيد الأسماء والصفات فهو إثبات كل ما أثبتته لنفسه وأثبتته له رسوله صلى الله عليه وسلم من الأسماء والصفات على وجه يليق بكماله وجلاله دون تكييف أو تمثيل ، ودون تحريف أو تأويل أو تعطيل ، وتنزيهه عن كل ما لا يليق به عز وجل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ، فجمع في الآية بين الإثبات والتنزيه ؛ فالإثبات في قوله ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ والتنزيه في قوله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ فله سبحانه وتعالى سمع لا كالأسماع وبصر لا كالأبصار، وهكذا يقال في كل ما ثبت لله من الأسماء والصفات [

الشرح..

قول النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث " الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره " : ذكر هنا صلوات الله وسلامه عليه أصول الإيمان وأركانه التي عليها قيام الدين ، والدين له أصول لا يقوم إلا عليها وله أركان لا ينبنى إلا عليها ؛ فإذا كفر عبداً بشيء من هذه الأركان حبط عمله وكان في الآخرة من الخاسرين ، كما قال تعالى ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ

حَبِطَ عَمَلُهُ ﴿١﴾ وقال تعالى ﴿٢﴾ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٣﴾ ؛ فهذه الأصول للإيمان بمثابة الأصول للأشجار و بمثابة القواعد للبنیان ؛ فكما أن الأشجار لا تقوم إلا على أصولها والبنیان لا تقوم إلا على عمادها فكذلك الإيمان والدين لا يقوم إلا على أركانه ، والله سبحانه وتعالى ضرب لنا مثلاً في القرآن يبين ذلك في سورة إبراهيم ؛ قال تعالى ﴿٤﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾ ؛ فهذا مثل الإيمان ؛ مثل الإيمان بالشجرة الطيبة ، والمراد بالشجرة هنا النخلة كما فسر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك في السنة الصحيحة ، والنخلة شجرة معروفة لها أصل ثابت قوي متمكن في الأرض ، ولها فرع ، وكما أن النخلة إذا قُطعت من أصلها ماتت فالإيمان إذا فقد أصله مات وانتهى ، فلا يقوم إيمان ولا يقوم دين إلا على هذه الأركان ؛ وهي أركان ستة ومكانها القلب - الإيمان بالله والملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والقدر خيره وشره -

فهذه أصول للإيمان وقواعد يقوم عليها الدين إذا فقد شيء منها لم يقبل ولم يُنتفع بطاعة . وأعظم هذه الأركان وأجلها هو الإيمان بالله ، وهو أصل أصول الإيمان ، وبقية أصول الإيمان تبع له ومتفرعة منه وراجعة إليه ؛

ولهذا تجد في الآيات ترجع هذه الأصول إلى هذا الأصل العظيم مثل قوله تعالى ﴿٦﴾ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ ﴿٧﴾ هذا أصل الأصول ثم البقية ترجع إلى هذا الأصل ﴿٨﴾ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ﴿٩﴾ ؛ فالإيمان بالله أصل أصول الإيمان وأعظم أركانه .

والإيمان بالله هو: الإيمان بوحداية الله سبحانه في ربوبيته وألوهيته وأسماءه وصفاته ولهذا قال العلماء : الإيمان بالله يقوم على أركان ثلاثة :

الركن الأول: الإيمان بوحداية الله في ربوبيته ؛ هو الإيمان بأنه سبحانه وتعالى هو الملك لا شريك له في الملك الخالق الرازق المدبر المتصرف ، والإيمان بجميع أفعاله سبحانه .

الركن الثاني: الإيمان بوحداية الله في ألوهيته ؛ بالإقرار بأنه المعبود بحق ، ولا معبود بحق سواه ، وبأن يفرد وحده سبحانه وتعالى بالعبادة ، وبأن لا يُجعل له شريك في شيء منها ، كما قال جل وعلا ﴿١٠﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ ، وكما قال جل وعلا ﴿١٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴿١٣﴾ .

الركن الثالث : الإيمان بوحداية الله في أسمائه وصفاته ؛ وذلك بالإيمان والإقرار بأسماء الله

وصفاته الثابتة في كتابه وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام ، إثبات بلا تمثيل ، وتنزيه بلا تعطيل على حد قوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ .

قال : [والإيمان بالملائكة الإيمان بأنهم خلق من خلق الله ، خلقوا من نور - كما في صحيح مسلم- أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: « خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من نار وخلق آدم مما وُصف لكم » ، وهم ذوو أجنحة كما في الآية الأولى من سورة فاطر ، وجبريل له ستمائة جناح كما ثبت ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقدم قريباً ، وهم خلق كثير لا يعلم عددهم إلا الله عز وجل ويدل لذلك أن البيت المعمور وهو في السماء السابعة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه . رواه البخاري ومسلم وروى مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها » . والملائكة منهم الموكلون بالوحي ، والموكلون بالقطر ، والموكلون بالموت ، والموكلون بالأرحام ، والموكلون بالجنة ، والموكلون بالنار ، والموكلون بغير ذلك ؛ كلهم مستسلمون منقادون لأمر الله لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وقد سُمِّيَ منهم في الكتاب والسنة جبريل وميكائيل وإسرافيل ومالك ومنكر ونكير ، والواجب الإيمان بمن سُمِّيَ منهم ومن لم يسمَّ ، والواجب أيضاً الإيمان والتصديق بكل ما جاء في الكتاب العزيز وصحت به السنة من أخبار عن الملائكة] .

الشرح..

هذا الركن الثاني من أركان الإيمان وهو الإيمان بالملائكة، والملائكة خلق لله عز وجل لا يعلم عددهم إلا الذي خلقهم ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ ، ﴿وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مَن بَعَدَ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ ؛ وكما للتكثير، فالملائكة خلق لا يعلم عددهم إلا الذي خلقهم وقد دلت النصوص على الكثرة الكثيرة لعدد الملائكة ، والنبي عليه الصلاة والسلام ذكر كما في الصحيحين أنه رُفِعَ إليه البيت المعمور فقل ما هذا قيل هذا البيت المعمور يدخله في كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون ، وعدد من يدخل البيت المعمور من الملائكة يومياً سبعون ألف ؛ هذا يدل على أن الملائكة عددهم عدد كثير لا يحصيه إلا الله . وجاء في الحديث أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: « أَطَّتِ السماءَ وحق لها أن تَطَّطَ ما فيها موضع شبر

إلا وفيه ملك ساجد لله » فالملائكة خلق لله وعددهم كثير ولا يعلم عددهم إلا الله . وقيل
سُموا ملائكة من الألوة وهي الرسالة؛ أَلَكْنِي : أي أرسلني ؛ وهذا يدل عليه قول الله تعالى ﴿ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةَ رُسُلًا ﴾ ؛ فالملائكة رسل الله عز وجل .

وهم مطيعون لله ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ ؛ ولهذا لا يوجد في الملائكة
عاصٍ ، ولا يوجد في الملائكة عصيان ، كلهم على الطاعة الدائمة المستمرة لله تبارك وتعالى
جبلوا على ذلك جبلهم الله على طاعته وعلى القيام بكل ما يأمرهم به سبحانه وتعالى .

والإيمان بالملائكة هو الإيمان بكل ما جاء في الكتاب والسنة مما يتعلق بالملائكة من ذكرٍ
لأسمائهم أو أعدادهم أو أوصافهم أو وظائفهم إجمالاً فيما أُجمل وتفصيلاً فيما فُصِّل ؛ هذا
الذي يجب علينا أن نؤمن به تجاه الملائكة أربعة أشياء - يعني كل ما ينبغي أن نؤمن به تجاه
الملائكة يرجع لهذه الأمور - (الأسماء والأعداد والأوصاف والوظائف) إجمالاً فيما أُجمل وتفصيلاً
فيما فُصِّل .

ونحن نعلم أن ما يتعلق بالملائكة من أسماء أو أعداد أو أوصاف أو وظائف لم تُفصّل كلها في
القرآن والسنة ، وإنما ذُكر على وجه التفصيل منها قدراً كبيراً ، وبقية أمور الملائكة من أعداد
أو أوصاف أو غير ذلك أُجملت .

إذاً ما أُجمل من أسماء الملائكة نؤمن به مجملاً كما جاء ، وما فُصِّل من أسماءهم نؤمن به
مفصلاً كما جاء ؛ فعلى سبيل المثال: جاء في التفصيل من أسماء الملائكة جبرائيل وإسرافيل
وميكائيل ومالك ﴿ وَقَالُوا يَا مَالِكُ ﴾ ومنكر ونكير؛ فهذه الأسماء جاءت مفصلة نؤمن بها ؛
فنقول من الملائكة ملكٌ اسمه جبريل وآخر اسمه ميكائيل .. ، ولا نذكر اسماً إلا عليه دليل
من كتاب الله أو السنة الصحيحة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أعداد الملائكة إجمالاً لا
يحصيه إلا الله ، وجاءت تفاصيل تتعلق ببعض الأعداد المتعلقة بالملائكة فنؤمن بهذه
التفاصيل ، ومن ذلك الحديث الذي مرَّ في صحيح مسلم « يؤتى بجهنم يوم القيامة لها سبعون
ألف زمام » الزمام معروف وهو الخطام الذي يُجر به الدابة أو يُجر به الشيء « ومع كل زمام
سبعون ألف ملك يجرونها » ولهذا عدد الملائكة الذين يجرون جهنم -أجارنا الله جميعاً منها - إلى
أرض المحشر يوم القيامة سبعون ألف في سبعين ألف .

و الملائكة أيضاً لهم مهام كثيرة ، وعدد من المهام تجدها مناطة بأعداد ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ

فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴿١٠﴾ ، ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ وهكذا ؛ تجد أعداد تفصيلية معينة ، فكل عدد تفصيلي جاء في القرآن أو جاء في السنة نؤمن به كما جاء .

أيضاً أوصاف الملائكة إجمالاً نقول أن الملائكة خلقت من نور ، وهم خلقٌ عظيم لا يعلم عظم خلق الملائكة إلا الله سبحانه وتعالى ، وتفصيلاً نؤمن بالأوصاف التفصيلية التي جاءت لأفراد من الملائكة ؛ مثل ما جاء في الصحيح أنه عليه الصلاة والسلام رأى جبريل وله ستمائة جناح فنؤمن بذلك ؛ - نؤمن أن جبريل بصورته الحقيقية له ستمائة جناح- ، الله سبحانه وتعالى يقول ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةَ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحَةٍ مَّتَنَّى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ ؛ فنؤمن بذلك ، وجاء أيضاً في الحديث الصحيح أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «أُذن لي أن أحدثكم عن أحد الملائكة وهو من حملة العرش ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه تحفق فيه الطير سبعمائة سنة» - أي أنه لو طار طير من عاتق الملك متجهًا إلى شحمة أذنه يحتاج إلى سبعمائة سنة حتى يصل إلى شحمة أذنه - فنؤمن بذلك ؛ فهذا وصف تفصيلي صحت به السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فنؤمن به .

أيضاً وظائف الملائكة ؛ إجمالاً نؤمن أن الملائكة جند لله ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ، وتفصيلاً نؤمن بكل الوظائف التي وكل الملائكة بها ؛ منهم الموكول بالوحي ، ومنهم الموكول بالقطر ، ومنهم الموكول بالموت ، ومنهم الموكول بالأرحام ، وبالجنة وبالنار ، وبغير ذلك ؛ فهذه التفاصيل في الوظائف للملائكة نؤمن بها مفصلة كما جاءت في كتاب ربنا وسنة نبينا صلوات الله وسلامه عليه .

قال: [والإيمان بالكتب : التصديق والإقرار بكل كتاب أنزله الله على رسولٍ من رسله ، واعتقاد أنها حق ، وأنها منزلة غير مخلوقة وأنها مشتملة على ما فيه سعادة من أنزلت إليهم ، وأن من أخذ بها سلم وظفر ، ومن أعرض عنها خاب وخسر ، ومن هذه الكتب ما سمي في القرآن ، ومنها من لم يسم ، والذي سمي منها في القرآن التوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وموسى ، وقد جاء ذكر صحف إبراهيم وموسى في موضعين من القرآن في سورتي النجم والأعلى ، وزبور داوود جاء في القرآن في موضعين ، في النساء والإسراء ؛ قال الله عز وجل فيهما ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ ، وأما التوراة والإنجيل فقد جاء ذكرها في كثير من سور القرآن وأكثرها ذكرًا التوراة ؛ فلم يُذكر في القرآن رسولٌ مثلما ذكر موسى ، ولم يُذكر فيه كتابٌ مثلما ذكر كتاب موسى ، ويأتي ذكره بلفظ التوراة والكتاب والفرقان والضياء والذكر

، ومما يمتاز به القرآن على غيره من الكتب السابقة كونه المعجزة الخالدة ، وتكفل الله بحفظه ، وسلامته من التحريف ، ونزوله منجماً مفرقاً [.

الشرح..

هنا الأصل الثالث من أصول الإيمان : هو الإيمان بالكتب المنزلة كما قال الله سبحانه وتعالى ﴿ وَقُلْ أَمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ ﴾ أي بكل كتاب أنزله الله على أي رسول ، وقال الله جل وعلا ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ ﴾ ، وقال ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ ، فالإيمان بالكتب المنزلة أصل من أصول الإيمان ، والإيمان بها هو اعتقاد أنها كلام الله ، وأنها وحيه جل وعلا وتنزيله ، وأنها مشتملة على بيان الحق وهداية الخلق ، وأن من آمن بها فاز وسعد ، وأن من لا يؤمن بها خاب وخسر ، وأن رسل الله جل وعلا بلغوا كتب الله وافية تامة كما أمرهم الله سبحانه وتعالى ، ومن الإيمان بالكتب ؛ الإيمان تفصيلاً بما سمي منها ؛ ولم يسم منها إلا التوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وموسى والقرآن ، فما سمي منها نؤمن به تفصيلاً كما جاء وما لم يسم منها نؤمن به إجمالاً ونؤمن بأن الكتب المنزلة خُتِمت بالقرآن ، فكما أن الرسول عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين وبرسالته خُتِمت الرسائل ؛ فكتابه ختام الكتب المنزلة ، فلا كتاب بعد القرآن الكريم لأن الكتب المنزلة ختمت بالقرآن المنزّل على رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

والقرآن يمتاز عن الكتب السابقة بمميزات :

- منها كونه المعجزة الخالدة .
- وأن الله تكفل بحفظه ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ ، أما الكتب السابقة فقد وكل حفظها إلى الأقوام الذين أنزلت إليهم ﴿ بِمَا اسْتُخْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ﴾ وسلامته من التحريف .
- ونزوله منجماً مفرقاً .

والواجب على أمة محمد عليه الصلاة والسلام أمة القرآن أن يعتنوا بكتابتهم القرآن ، وأن يتلوه حق تلاوته ، وأن لا يتخذوا القرآن مهجوراً ، وأن يعملوا بالقرآن ، وأن يحكموه بينهم ، وأن يرجعوا إليه في تنازعهم ، وأن يأتروا بأوامره ، وأن ينتهوا عن نواهيه ، وأن يصدقوا بأخباره ، وأن يؤمنوا به كتاباً منزلاً من رب العالمين ، مشتملاً على هداية الخلق ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي

لِلَّتِي هِيَ أَفْوَؤُكُمْ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٥٣﴾ .

سبحانك اللهم و بحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، اللهم صلّ وسلّم على عبدك
ورسولك نبينا محمد و آله وصحبه

..*
..



شرح الأربعين النووية

لأبي زكريا يحيى بن شرف الحزامي النووي رحمه الله

من الدرس الرابع إلى الدرس السادس

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما الله تعالى

١٤٤٠/٠٥/١٤ هـ

الدرس الرابع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .
أما بعد ..

قال الشيخ عبدالمحسن البدر حفظه الله في شرح الحديث الثاني من الأربعين النووية ..
[والإيمان بالرسول التصديق والإقرار بأن الله اصطفى من البشر رسلاً وأنبياء يهدون الناس إلى الحق ويخرجونهم من الظلمات إلى النور، قال الله عز وجل ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ والجن ليس فيهم رسل بل فيهم النذر كما قال الله عز وجل ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ، فلم يذكروا رسلاً منهم ولا كتباً أنزلت عليهم وإنما ذكروا الكتابين المنزلين على موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، ولم يأت ذكر الإنجيل مع أنه منزل من بعد موسى وذلك أن كثيراً من الأحكام التي في الإنجيل قد جاءت في التوراة ، قال بن كثير في تفسير هذه الآيات " ولم يذكروا عيسى لأن عيسى عليه السلام أنزل عليه الإنجيل فيه مواعظ و ترفيقات وقليل من التحليل والتحريم ، وهو في الحقيقة كالمتمم لشريعة التوراة ، فالعمدة هو التوراة ولهذا قالوا ﴿أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى﴾] .

الشرح..

هذا الأصل الرابع من أصول الإيمان المذكورة في حديث جبريل ، وقد مرّ قول النبي صلى الله عليه وسلم
« الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن تؤمن بالقدر خيره وشره » ، فالإيمان بالرسول أصل من أصول الإيمان وركن من أركانه ، والإيمان بالرسول هو الإيمان بأن الله عز وجل اصطفى واجتبى سبحانه وتعالى من البشر رسلاً يبلغون شرعه ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ ، رسلاً يكونون هداة للخلق ودعاة للحق ، قال الله تعالى ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ ، وقال تعالى ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا

فِيهَا نَذِيرٌ ﴿١﴾ ، فالله جل وعلا أرسل الرسل ﴿٢﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ ﴿٣﴾ ، فهو جل وعلا أرسل الرسل ليكونوا واسطة بينه وبين عبادته في إبلاغ شرعه لأنه سبحانه وتعالى خلق الخلق ليعبدوه وأوجدهم لطيعوه ويمثلوا أمره ويجتنبوا نهيهِ ، ولا سبيل لهم إلى معرفة ذلك إلا بوحية سبحانه وتعالى ولهذا اقتضت حكمته سبحانه أن يصطفى من الناس رسلاً يبلغونهم دين الله ، وكان حال الناس مع الرسل هو الانقسام إلى فريقين ؛ قال الله تعالى ﴿٤﴾ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴿٥﴾ ؛ منهم من هدى الله فأمن بالرسول وصدق بما جاءوا به ، واتبعهم فيما أمروا ، وانتهى عما نهوا عنه وزجروا .

وفريق كذب المرسلين وتولى ، كذب الأخبار وتولى عن فعل الطاعات والقربات . الشاهد أن الإيمان بالرسول أصل من أصول الإيمان العظيمة وأساس من أسسه المتينة .

والرسل هم من الذكور من ذرية آدم ، والله سبحانه وتعالى جعل التكليف على الثقلين ؛ قال تعالى ﴿٦﴾ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٧﴾ ، لكنه جل وعلا لم يجعل من الجن رسلاً ؛ بل جعل الرسل من البشر من ذرية آدم ، وأما الجن فقد جعل فيهم النذر بحيث يستمعون إلى ما جاء به المرسلون من عند الله تبارك وتعالى ويذهبوا إلى قومهم منذرين ، لكن ليس فيهم رسول يوحى الله تبارك وتعالى إليه ويتنزل عليه وحى الله تبارك وتعالى ؛ ولهذا يقول جل وعلا ﴿٨﴾ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ ﴿٩﴾ ؛ فالجن فيهم النذر وليس فيهم الرسل ؛ فالرسالة اختصها الله تبارك وتعالى بالرجال من ذرية آدم ؛ ولهذا ليس في النساء نبياً ﴿١٠﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا ﴿١١﴾ والنبوة إنما هي في الذكور من ذرية آدم وليس في الجن رسولا ولا نبياً ولكن فيهم النذر ولهذا لما رجع هؤلاء الجن النذر إلى قومهم ﴿١٢﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٣﴾ ؛ فلم يذكروا كتاباً أنزل عليهم لأنه ليس في الجن نبي وليس فيهم رسول . وهم مكلفون مثل البشر ، مأمورون بما أمروا به من التوحيد والطاعة لله جل وعلا والالتزام بأمره والانتفاء عن نهيهِ .

والنذر هم من يأخذون عن الرسل ويبلغون أقوامهم ما سمعوه من المرسلين .

[والرسل هم المكلفون بإبلاغ شرائع أنزلت عليهم كما قال الله عز وجل ﴿١٤﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ ﴿١٥﴾ . والكتاب اسم جنس يراد به الكتب ، والأنبياء هم

الذين أُوحِيَ إليهم بأن يبلغوا شريعة سابقة كما قال الله عز وجل ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّائِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ﴾ الآية ، وقد قام الرسل والأنبياء بتبليغ ما أمروا بتبليغه على التمام والكمال كما قال الله عز وجل ﴿ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ ، وقال ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ ، قال الزهري رحمه الله " من الله عز وجل الرسالة وعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم البلاغ وعلينا التسليم " ، أورده البخاري في صحيحه في كتاب التوحيد : باب قول الله عز وجل ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ [١] .

الشرح..

الفرق بين الرسل والأنبياء ، أن الرسل هم المكلفون بإبلاغ شرائع أنزلت عليهم أي أنزل عليه كتاب خاص به ولهذا الكتب تنزل على الرسل ؛ يدل لذلك قوله تعالى ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ ﴾ ؛ و " ال " في " الكتاب " للجنس ، وهذا فيه أن الرسل هم الذين تُنزل عليهم الكتب ، أما الأنبياء فهم الذين أُوحِيَ إليهم بأن يبلغوا شريعة سابقة ؛ بمعنى أن النبي لا يُنزل عليه كتاب يختص به وإنما يوحى إليه ؛ والذي يُوحى إليه هو إبلاغ الشريعة السابقة ؛ مثل ما قال الله تعالى ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا ﴾ ؛ موسى عليه السلام رسول ، أنزل الله عليه التوراة ، وأنبياء بني إسرائيل ليسوا رسل ، ولهذا لم يُنزل عليهم كتباً مختصة بهم كما أنزل على موسى عليه السلام ؛ وإنما كانوا يحكمون بالتوراة ، أُوحِيَ إليهم وُبُعْثُوا مبشرين ومنذرين ، ولم يُنزل عليهم كتاباً خاصاً بهم كموسى أنزل عليه التوراة وعيسى أنزل عليه الإنجيل ، ودَاوُد أنزل عليه الزبور ، الأنبياء لم يُنزل عليهم كتباً خاصة وإنما أمروا أن يحكموا بالتوراة ، وبهذا يُعلم الفرق بين الرسول والنبي .

فالرسول هو المكلف بإبلاغ شريعة أنزلت عليه بحيث يكون أنزل عليه كتاب خاص بهم أما الأنبياء أُوحِيَ إليهم بإبلاغ شريعة أنزلت من قبلهم وهذا هو الشأن مع أنبياء بني إسرائيل وكل رسول نبي لأن مرتبة الرسالة أعلى ، وليس كل نبي رسولا ؛ فمرتبة الرسالة أعلى من مرتبة النبوة ؛ ولهذا نقول : أفضل الناس الأنبياء وأفضل الأنبياء الرسل ، وأفضل الرسل أولوا العزم من الرسل وهم خمسة ذكرهم الله تعالى في قوله ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمَنْ

نُوحَ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴿١﴾ . وأفضل أولوا العزم من الرسل محمد صلوات الله وسلامه عليه .

ومما يجب أن نعتقده في الرسل والأنبياء أنهم بلغوا البلاغ المبين ، وأدّوا مهمتهم على التمام ، ومهمتهم معروفة ﴿٢﴾ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴿٣﴾؛ فهم أدّوا ما أمروا بإبلاغه على التمام ، وما تركوا خيراً إلا دلّوا أممهم عليه ولا شراً إلا حذروا أممهم منه كما قال نبينا عليه الصلاة والسلام « ما بعث الله من نبي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته إلى خير ما يعلمه لهم وأن ينذرهم من شر ما يعلمه لهم » ، فيجب أن نعتقد في الرسل والأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه أنهم بلغوا البلاغ المبين ، وما تركوا خيراً إلا دلّوا الأمة عليه ، ولا شراً إلا حذروهم منه ؛ قال الله تعالى ﴿٤﴾ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴿٥﴾ ، وقال ﴿٦﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾

فإذا الرسل بلغوا ، والأقوام الذين جحدوا ما جاء به الرسل وكذبوا المرسلين ؛ يوم القيامة إذا أدخلوا النار يُسألون ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ ﴿٩﴾ ؛ بلى جاءنا الرسل وأنذرونا وأبلغونا دين الله ولكننا كذبنا وكفرنا ؛ فإذا الرسل بلغوا . ومن واجبتنا نحو المرسلين أن نعتقد أنهم بلغوا البلاغ المبين ، وهذه هي مهمتهم فالرسل مهمتهم البلاغ مثلما ما قال الزهري رحمه الله : " من الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ وعلىنا التسليم " ؛ فالله جل وعلا أرسل الرسل بالحق والهدى ، والرسل بلغوا البلاغ المبين ، ومهمة العباد التسليم ﴿١٠﴾ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿١١﴾ ؛ أن يسلموا بما جاءت به الرسل وأن يذعنوا وأن ينقادوا ويطيعوا ويمثلوا .

قال: [والرسل منهم من قُصَّ في القرآن ، ومنهم من لم يُقصص كما قال الله عز وجل ﴿١٢﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴿١٣﴾ ، وقال الله عز وجل ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴿١٥﴾ ، والذين قُصصوا في القرآن خمسة وعشرون منهم ثمانية عشر جاء ذكرهم في سورة الأنعام ﴿١٦﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاءٍ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن دُورَيْتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٨﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾

والسبعة الباقون آدم وإدريس وهود وصالح وشعيب وذو الكفل ومحمد صلوات الله وسلامه وبركاته عليهم أجمعين] .

الشرح..

مما يجب اعتقاده نحو المرسلين أن الله تبارك وتعالى لم يقص علينا في القرآن خبرهم وتفاصيل قصصهم وأسماءهم أجمعين ؛ وإنما قص بعضاً ولم يقصص بعضاً ؛ كما قال تعالى ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ ؛ وإذا علم ذلك فالواجب فيمن قص الله تبارك وتعالى خبره في القرآن أن نؤمن به كما جاء مفصلاً ، ومن لم يذكر خبره أو اسمه أو تفاصيل قصته نؤمن به إجمالاً ؛ فنحن إجمالاً نؤمن بكل رسول أرسله الله ، ونؤمن بأن الرسل بلغوا دين الله تبارك وتعالى على التمام والكمال ، وأما تفصيلاً فمن ذكرت أسماءهم أو ذكرت تفاصيل قصصهم في القرآن فهذا الذي جاء مفصلاً نؤمن به مفصلاً كما جاء ؛ فالإيمان بالرسول مجمل ومفصل ؛ إيمان مجمل بما لم يفصل ، وإيمان مفصل بما جاء مفصلاً في كتاب الله أو سنة النبي عليه الصلاة والسلام ، وإذا طالعنا أسماء الأنبياء في القرآن ممن قص الله تبارك وتعالى خبرهم أو ذكر شيئاً من خبرهم نجد أن عدد من ذكر باسمه في القرآن الكريم من الرسل والأنبياء خمسة وعشرون ، جاء منهم على التوالي ثمانية عشر في قول الله في سورة الأنعام ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ﴾ ؛ جاء ذكر ثمانية عشر نبياً على التوالي في سياق واحد في آيات متتالية ؛ قال جل وعلا ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ ﴾ إلى هنا عشرة ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ ﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا ﴾ هؤلاء ثمانية عشر ﴿ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ ذكروا في هذا السياق ، وقلنا أنهم خمسة عشر فيبقى سبعة ؛ فالباقون هم : آدم وإدريس وهود وصالح وشعيب وذو الكفل ومحمد صلوات الله وسلامه عليه ؛ ولهذا قال الناظم :

في تلك حجتنا منهم ثمانية من بعد عشرٍ ويبقى سبعة

وهم إدريس هود شعيب صالح وكذا ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

" في تلك حجتنا " أي في الآيات التي بدأها الله بقوله ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ﴾ في سورة الأنعام

" منهم " أي من الأنبياء

" ثمانية من بعد عشر " أي ثمانية عشر ويبقى سبعة فصلهم في البيت الثاني
وهم إدريس هود شعيب صالح وكذا ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

فهذا عدد من قص أو ذكر اسمه من الأنبياء في القرآن الكريم ، ومن قص وذكر اسمه في القرآن الواجب علينا أن نؤمن به كما جاء مفصلاً في كتاب الله ، ومن لم يذكر اسمه أو شيء من تفاصيل قصته فنؤمن به إجمالاً ، وكذلك مما ينبغي أن نعتقده في الأنبياء أنهم متفاضلون ، فَضَّلَ اللهُ سبحانه بعضهم على بعض كما قال جل وعلا ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴾ ، وقال جل وعلا ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ ؛ فهم متفاضلون ، والأمر كما قيل سابقاً أفضل الناس الأنبياء ، وأفضل الأنبياء الرسل ، وأفضل الرسل أولوا العزم منهم ، وأفضل أولوا العزم سيد ولد آدم محمد صلوات الله

وسلامه عليه •

[والإيمان باليوم الآخر التصديق والإقرار بكل ما جاء في الكتاب والسنة عن كل ما يكون بعد الموت وقد جعل الله الدور دارين ؛ دار الدنيا والدار الآخرة ، والحد الفاصل بين هذين الدارين الموت والنفخ في الصور الذي يحصل به موت من كان حياً في آخر الدنيا ، وكل من مات قامت قيامته ، وانتقل من دار العمل إلى دار الجزاء ، والحياة بعد الموت حياتان ؛ حياة برزخية وهي ما بين الموت والبعث ، والحياة بعد الموت ، والحياة البرزخية لا يعلم حقيقتها إلا الله ، وهي تابعة للحياة بعد الموت لأن في كل منهما الجزاء على الأعمال ، وأهل السعادة منعمون في قبورهم في نعيم الجنة ، وأهل الشقاوة معذبون فيها بعذاب النار] .

الشرح..

ثم الأصل الخامس من أصول الإيمان وهو الإيمان باليوم الآخر ، وثمالي اليوم الآخر بهذا الاسم لأنه متأخر ، يأتي متأخراً على الدنيا فإذا انقضت الدنيا جاء اليوم الآخر ، ويسمى يوم القيامة لأن الناس يقومون فيه لرب العالمين ، ويسمى يوم الحساب ويوم الدين لأن فيها الجزاء والحساب ، ويسمى يوم البعث ويوم الحشر ...

وهذه الأسماء لهذا اليوم مأخوذة من أحوال ذلك اليوم وأهواله ؛ ولهذا تعددت أسماء هذا اليوم

وكثر لتعدد أحواله وكثرتها .

والإيمان باليوم الآخر هو الإيمان بكل ما يكون بعد الموت مما أخبر به رسل الله بدءاً من ما يكون في القبر من فتنة ثم عذاب أو نعيم ثم ما يكون بعد ذلك من النفخ في الصور والبعث والنشور والجزاء والحساب ونصب الموازين ونشر الدواوين وأخذ كتابه باليمين وأخذ كتابه بالشمال وما يكون كذلك من الصراط الذي ينصب على متن جهنم ، وما يكون أيضاً من تفاصيل في ما في الجنة من نعيم ، وتفاصيل مما في النار من عذاب .. إلى غير ذلك من التفاصيل المتعلقة بذلك اليوم مما جاء في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . فالإيمان بذلك كله من الإيمان باليوم الآخر ، وإيمان الناس بهذا اليوم العظيم على درجتين :

الدرجة الأولى: الإيمان الجازم ولا يُقبل من أحد إيمان إلا إذا كان إيماناً جازماً لا شك فيه .

الدرجة الثانية: الإيمان الراسخ الذي يملأ القلب، ويستحضره العبد ، وهذا الإيمان الراسخ له أثره العظيم على العبد صلاحاً واستقامةً ، وكلما كان العبد ذاكراً لليوم الآخر وللحشر والجزاء والحساب صلحت حاله واستقام أمره وابتعد عن معصية ربه تبارك وتعالى ؛ قال جل وعلا ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ﴾ ، وقال ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلِمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ ؛ فالعبد كلما كان على ذكر من الحشر والجزاء والحساب والعقاب والوقوف بين يدي الله تبارك وتعالى وعلى ذكر للأهوال التي تكون يوم القيامة تصلح حاله ، أما إذا غفل عن اليوم الآخر ضاع في هذه الحياة الدنيا وأصبحت الدنيا أكبر همه ومبلغ علمه ؛ لأنه لا تفكير عنده ولا اهتمام باليوم الآخر ، ولا ذكر لهذا اليوم في قلبه ؛ ولهذا يضيع في الدنيا وتهلكه الدنيا تمام الهلكة ، ويضيع فيها تمام الضياع ، لكن إذا استيقظ قلب العبد وأصبح على ذكر من هذا اليوم ، يتذكر الموت والجزاء والحساب والوقوف بين يدي الله تبارك وتعالى ، يتذكر أن أعماله تُحضر يوم القيامة وأنه عليها يُحاسب وأنه مجزي بعمله وأن الأمور لا تضيع ، وأن الأعمال توزن ؛ إذا ذكر ذلك كله وذكر أن هناك جنة لأهل النعيم ونار للعصاة والكافرين ؛ كل ذلكم يحرك قلب الإنسان إلى فعل الخيرات واجتناب المنكرات ؛ ولهذا من يؤتو كتابهم باليمين يوم القيامة عندما ينطلقون بالكتاب فرحين مستبشرين ماذا يقولون ؟ ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِيهِ ﴾ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهِ ﴿ ؛ أي لما كنت في الدنيا اعتقدت أن فيه حساب وكنت خائفاً من الحساب فهذا الذي يسر الله به لي الصلاح والاستقامة . أما

إذا غفل الإنسان عن الحساب وعن الجزاء وعن يوم الدين ؛ فإذا غفل عن ذلك طمع في الدنيا إلى أن يدهمه الموت وهو على ضياعه ، ويندم بعد موته ولا ينفعه الندم ؛ ولهذا ذكر اليوم الآخر دائماً وأبداً فيه صلاح للإنسان ؛ ولهذا نلاحظ الأحاديث الكثيرة في الترغيب والترهيب تُصدّر بالتذكير باليوم الآخر ؛ أحاديث كثيرة يقول عليه الصلاة والسلام فيها " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليفعل كذا ... " ، " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يفعل كذا .. " ، أو يقول « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مع غير ذي محرم » ؛ فتذكر اليوم الآخر صلاح للعبد ، والغفلة عنه ضياع وهلكة وإذا كان الإيمان باليوم الآخر راسخ في القلب أحواله كلها تصلح ويستقيم قلبه على طاعة الله وتزين جوارحه بالأعمال الصالحات .

قد كان عليه الصلاة والسلام يقول « تذكروا هادم اللذات » ؛ فينبغي للإنسان أن يتذكر الموت، ويتذكر أنه ليس له في هذه الدنيا إلا أمد محدود ووقت محدود ، ولكل أجل كتاب ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ ، فيتهيأ ويستعد لذلك اليوم العظيم ، ومن مات قامت قيامته ؛ وفي هذا جاء في الحديث عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال « القبر أول منازل الآخرة » ؛ ولهذا قال العلماء " من مات قامت قيامته " ، الذي تُفارق روحه جسده بدأ في حقه اليوم الآخر ، وبدأت في حقه منازل اليوم الآخر لأنه انتهى من دار العمل وليس عنده مجال ليعمل ، ودخل في دار الجزاء والحساب ؛ لأن الجزاء والحساب يبدأ في القبر ، والنعيم والعذاب يبدأ في القبر ؛ ولهذا القبر أول منازل الآخرة فمن مات وخرجت روحه من جسده قامت قيامته ، ودخل في مرحلة الحساب وانتهى في حقه العمل ؛ قال صلى الله عليه وسلم « إذا مات ابن آدم انقطع عمله » يعني ليس له مجال أن يعمل « إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له » ، فمثل هذه يصل إليه ثوابها وهو في قبره ؛ إذا علم علماً ومات والناس في انتفاع من علمه فلا يزال ثواب تعليمه يصل إليه في قبره مادام الناس يتعلمون من العلم الذي بثه ونشره ، وإذا كان سبب سبباً من ماءٍ أو أوقف بيتاً أو شجراً أو نخلاً أو زرعاً أو حفر بئراً أو غير ذلك من أبواب الصدقات والنفقات فلا يزال الثواب يصل إليه في قبره مادام يستفاد من صدقته ومما سبَّله وأوقفه في سبيل الله ، وإذا كان له أولاد على الاستقامة والصلاح والطاعة لله فكلما دعوا له بالرحمة والمغفرة وصل إليه ثواب ذلك ، وصل إليه أثر هذه الدعوات التي يدعوا له فيها أولاده بصدق بالرحمة والمغفرة والعنتق من النار ؛ ولهذا بعض

الناس أُدخل في قبره وهو في قبره ميت تأتيه الأجور الكبار يومياً لأنه ترك أشياء قبل أن يموت يصل إليه ثوابها وهو في قبره بعد أن مات ، ويوجد أناس أحياء يمشون على وجه الأرض ويمر اليوم واليومين والثلاثة والأكثر ولا يُحصَلون ثواباً ، بل يُحصَلون أوزاراً وآثاماً وغضباً من الله عز وجل وسخطاً عليهم ؛ ولهذا الإيمان باليوم الآخر صلاح للعبد وصلاح لحاله ، ولا يزال العبد بخير مادام على ذكرٍ لهذا اليوم . وقد قال عليه الصلاة والسلام " إذا أصبحت فلا تنتظر المساء وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح " لأنك لا تدري ربما مرحلة اليوم الآخر في حقك تكون غداً أو بعده أو بعد أسبوع ؛ فلا تغتر بشبابك فإن الموت لا يفرق بين شاب وكهل ، كم من مرة يدخل الموت إلى بيت فيه كبير وطاعن في السن يتوقع أهل البيت أن يفارقهم عن قريب ؛ فيأخذ الصغير ويدع الكهل فالموت لا يفرق بين صغير أو كبير . فمن جاء أجله وحضرت منيته فارق الدنيا شاباً كان أو كهلاً ؛ فلا يغتر الشباب بشبابه ؛ ولهذا من الخير للإنسان أن يكون على ذكر لهذا اليوم العظيم واستحضار له ، يذكر أنه سيقف ويُحشر ويُبعث ويحاسب ويجازى ؛ يذكر ذلك كله .

وبعد هذه الحياة الدنيا حياتان : حياة البرزخ وحياة يوم القيامة ، والدار الآخرة ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ﴾ .

حياة البرزخ مختلفة عن الحياة الدنيا ، ولهذا من مات فهو باعتبار الحياة الدنيا ميت ، وانقطع عن الأمور التي هي متعلقة بهذه الحياة الدنيا ؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام « إذا مات ابن آدم انقطع عمله » ، فالميت ينقطع عن أعمال دار التكليف ، لا يستغفر ولا يدعو ولا يستطيع أن يقوم بالأعمال لأنه انقطع من دار التكليف .

والشهداء والصالحون والأنبياء يحيون في قبورهم حياة برزخية مختلفة عن الحياة الدنيا ؛ ولهذا الأنبياء والشهداء باعتبار الدنيا أموات ؛ يقول الله تعالى ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ ، وقال ﴿ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ ﴾ ؛ فالأنبياء هم باعتبار الدنيا أموات وهم في قبورهم أحياء حياة برزخية ؛ ولهذا لما مات النبي عليه الصلاة والسلام ، لما كان يقع الخلاف بين الصحابة في مسألة من أمور الدين ما كانوا يأتون عند قبره ويسألونه أو يستفتونه كما كانوا يصنعون في حياته ، ولا كان الصحابة يأتون عند قبره ويطلبون منه الدعاء كما كانوا يفعلون في حياته ؛ فقد كانوا في حياته صلى الله عليه وسلم يقولون له " ادعوا الله أن يسقينا " و ما قالوا هذا بعد أن مات ، ولا قالوا " استغفر لنا " بعد أن

مات لأنه عليه الصلاة والسلام بعد أن مات لا يدعوا لأحد ولا يستغفر لأحد صلوات الله وسلامه عليه ؛ ولهذا جاء في صحيح البخاري أنه صلى الله عليه وسلم قال لعائشة « إن كان ذاك وأنا حي استغفرت لك » ؛ أي أنه بعد موته لا يستغفر لأحد

ولهذا يخطيء بعض الناس ويقرأون الآية على غير بابها ؛ وهي ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ ﴾ ، ويقولون عند قبره ويقولون يا رسول الله استغفر لنا ؛ هذا غلط لا دليل على مشروعيته ؛ بل الأدلة تدل على أن هذا العمل غير صحيح ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام لعائشة « إن كان ذاك وأنا حي استغفرت لك » ، وربما استدل بعضهم على ذلك بأحاديث لا تصح مثل قوله فيما ينسب إليه عليه الصلاة والسلام " أعمالكم تعرض عليّ فما كان فيها من خير حمدت الله وما كان فيها من خلاف ذلك استغفرت لكم " ؛ فهذا غير صحيح وغير ثابت عن النبي صلوات الله وسلامه عليه .

ولما كان لدى الناس فهم خاطئ في فهم الحياة البرزخية توجه بعض العوام الجهال إلى القبور يستجدون بأصحابها ويلتجئون إلى من فيها من المقبورين طالبين المدد أو العون أو الرزق أو نحو ذلك ، ويقولون هم أحياء في قبورهم ويسمعون دعائنا ويقرأون قول الله تعالى ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ ؛ ولهذا أحد العوام الصالحين من أهل التوحيد قال له أحد هؤلاء الجهال : نحن ندعوا الأولياء لأنهم أحياء في قبورهم وقرأ الآية السابقة ؛

فقال هذا العامي الصالح الموحد : الله جل وعلا يقول ﴿ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ ؛ ولم يقل يرزقون - أي يرزقهم الله - ، فنحن لا ندعوهم ، نحن ندعوا الله الذي يرزقهم أما الذي يرزق فقير لمن يرزقه ، والفقر لا يدعى ، يقول تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ فالذي يدعى هو الغني الحميد ؛ فالأنبياء والأولياء والصالحين كلهم فقراء إلى الله سبحانه وتعالى لا يدعون ، والذي يدعى هو الله الغني سبحانه وتعالى .

والحياة الأخرى هي الحياة الآخرة ، حياة يوم القيامة ، وهي حياة أبدية إما في نعيم مقيم أو عذاب مقيم ، والدار الآخرة هي الحيوان ؛ ولهذا يوم القيامة إذا دخل أهل النار النار وأهل الجنة الجنة ، ولم يبق في النار إلا أهلها ؛ يؤتى بكبش ويُجعل بين الجنة والنار، ويُنادى أهل الجنة فيستبشرون ، وينادى أهل النار فيستبشرون ، فيقال هل تعرفون هذا ؟ فيعرفونه ؛ هذا

الموت ؛ لأنهم ذاقوه وعرفوا ؛ فيُذبح بين الجنة والنار ؛ ويقال : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، و يا أهل النار خلود فلا موت ، وتكون هذه النهاية ؛ قال تعالى ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارٌ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴾ .

قال : [ويدخل في الإيمان باليوم الآخر الإيمان بالبعث والحشر و الشفاعة والحوض والحساب والميزان والصراط والجنة والنار وغير ذلك مما جاء في الكتاب والسنة] الشرح ..

هذا كله داخل في الإيمان بالله واليوم الآخر ، وعرفنا أن ضابط الإيمان باليوم الآخر هو الإيمان بكل ما يكون بعد الموت مما أخبرت به رسل الله ؛ فيكون الإيمان بالبعث ، بعث الناس من قبورهم يوم يقوم الناس لرب العالمين حفاة عراة غُرلاً بُهْماً وحشرهم إلى الله عز وجل أجمعين على صعيد واحدة وأرض واحدة يُحْشَر عليها الأولون والآخرون ، يُجمع فيها الأولون والآخرون ، والشفاعة سواء العظمى وهي خاصة بنبينا عليه الصلاة والسلام ، أو الشفاعات الأخرى لعصاة الموحدين ، وهي له ولغيره من الأنبياء والملائكة والصالحين ، وكذلك الحوض المورد وقد وصفه النبي عليه الصلاة والسلام بأن طوله شهر وعرضه شهر ، وأن كيزانه عدد نجوم السماء ، وأن من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً ، فالإيمان بالحوض هذا من الإيمان باليوم الآخر ، وكذلك الإيمان بالحساب والميزان؛ أن الناس يحاسبون يوم القيامة وأن أعمالهم توزن وأن الموازين تنصب يوم القيامة موازين حقيقية ، والميزان له كفتان ؛ كفة توضع فيها الحسنات وكفة توضع فيها السيئات ، والوزن يوم القيامة بمثاقيل الذر ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿ ؛ ولهذا لا تحقرن من المعروف شيئاً ، ربما معروف قليل يثقل به ميزانك يوم القيامة ، وكما جاء في صحيح مسلم:

"رجل مر بغصن شجرة فيه شوك في طريق المسلمين وقال والله لا أدع هذا في طريق المسلمين فيؤذيهم فنحاه ، فشكر الله عمله فأدخله الجنة " ، وقال عليه الصلاة والسلام « إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً » ، قال « وإذا تصدق أحدكم بعدل تمرة من كسب طيب أخذها الله بيمينه ورباها له كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله حتى تكون يوم القيامة مثل الجبل » ؛ فلا يحقرن العبد من المعروف شيئاً.

وكذلك الإيمان بالصراط الذي ينصب على متن جهنم ، أحد من السيف وأدق من الشعرة ، ويطلب من الخلائق أن يمشوا فوقه ، ولا طريق إلى الجنة إلا بالعبور عليه ؛ قال الله تعالى ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿ ،

ويمر الناس على الصراط على قدر أعمالهم في الحياة الدنيا ، فمنهم من يمر كالبرق ، ومنهم من يمر كأجاويد الخيل وركاب الإبل ، ومنهم من يمر جرياً ، ومنهم من يمر مشياً ، ومنهم من يمر زحفاً ، ومنهم من يُكردس ويسقط في نار جهنم .

قال الجنة والنار : أي الإيمان بالجنة والنار وأنها مخلوقتان وموجودتان ، والجنة أُعدت للمتقين والنار أُعدت للكافرين . والإيمان بكل النعيم الذي ذكر مفصلاً في القرآن والسنة مما يتعلق بالجنة ، وأيضاً العقاب والعذاب مما ذكر مفصلاً فيما يتعلق بالنار؛ نؤمن بذلك ؛ فالإيمان بذلك من الإيمان باليوم الآخر .

والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

..*

الدرس الخامس

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .
أما بعد ..

قال : [والإيمان بالقدر؛ الإيمان بأن الله قدر كل ما هو كائن إلى يوم القيامة ، وله مراتب
أربع : علم الله أزلاً بكل ما هو كائن وكتابه المقادير قبل خلق السماوات والأرض بخمسين
ألف سنة ، ومشئته كل مقدر ، وخلق الله وإيجاده لكل ما قدره طبقاً لما علمه وكتبه وشاءه
؛ فيجب الإيمان بهذه المراتب ، واعتقاد أن كل شيء شاءه الله لا بد من وجوده ، وأن كل
شيء لم يشأه الله لا يمكن وجوده ، وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم " واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك
وما أخطأك لم يكن ليصيبك " ، وسيأتي في الحديث التاسع عشر].

الشرح..

هذا الأصل السادس من أصول الإيمان الواردة في حديث جبريل عليه السلام حيث قال النبي صلى الله عليه
وسلم في بيان الإيمان « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر وأن تؤمن بالقدر خيره وشره »
؛ فالإيمان بالقدر أصل من أصول الإيمان وركن من أركان الدين ، وشأنه في الدين عظيم ؛
فلا يستقيم إيمان عبد ولا توحيده إلا بالإيمان بالقدر؛ ولهذا قال الصحابي الجليل بن عباس رضي
الله عنهما " القدر نظام التوحيد فمن وحد الله وكذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده " بمعنى أن العبد لا
يمكن أن يكون موحداً لله جل وعلا إلا إذا آمن بالقدر ، وأن الأمور كلها بتقديره سبحانه وتعالى
كما قال الله عز وجل ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾ ، وكما قال ﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى ﴾
﴿ ، وكما قال جل وعلا ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ وَالَّذِي
أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴾ ، وكما قال جل وعلا ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ، وكما قال ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ
إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ؛ فالإيمان بالقدر أصل من أصول هذا الدين .
والقدر - كما قال إمام أهل السنة أحمد بن حنبل رحمه الله - قدرة الله ، فالمكذب بالقدر مكذب بقدرة

الله جل وعلا ، والمكذب بقدره الله كافر بالله ينتقض إيمانه ، وقد مر معنا براءة بن عمر رضي الله عنهما ممن أنكروا القدر ، وقوله " والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أنفق أحد هؤلاء مثل أحد ذهباً ما تقبل منهم ما لم يؤمنوا بالقدر " ؛ فالذي لا يؤمن بالقدر ، وأن الأمور كلها بتقدير الله سبحانه وتعالى هو في الحقيقة كافر بالله جل وعلا ، منكر قدرة الله عز وجل على كل شيء .

والإيمان بالقدر هو إيمان العبد بأن الله عز وجل علم كل شيء ، علم ما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون وأنه سبحانه وتعالى أحاط بكل شيء علماً وأحصى كل شيء عدداً ، وأن يؤمن بأن الله عز وجل كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، وأن يؤمن بمشيئة الله سبحانه وتعالى النافذة وقدرته سبحانه وتعالى الشاملة ، وأنه تبارك وتعالى الخالق لكل شيء .

فهذه حقيقة الإيمان بالقدر ؛ لا بد من الإيمان بأمر أربعة ليكون العبد مؤمناً بالقدر ، وبدونها لا يكون إيمان بالقدر ، يسمونها العلماء مراتب الإيمان بالقدر ؛ وهي: العلم والكتابة والمشية والإيجاد ؛ فهذه الأربع لا يؤمن بالقدر من لا يؤمن بها ، فمن كذب بها أو ببعضها هو مكذب بالقدر .

• المرتبة الأولى العلم : الإيمان بعلم الله الأزلي المحيط الشامل الواسع ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ ؛ فالله جل وعلا خالق هذا الكون محيط علمه بكل شيء فيه ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ ، فهذا الخلق . خلق الله جل وعلا . دليل واضح على قدرة خالقه عليه ، ودليل على إحاطة علم خالقه به ، وأن خالقه ومبدعه وموجده قد أحاط علماً بجميع الكائنات ، وأحصى كل شيء عدداً ، ولا يخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء .

• المرتبة الثانية : الإيمان بأن الله عز وجل كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم ، وقبل أن يوجدوا بخمسين ألف سنة ؛ قال تبارك وتعالى ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ ؛ فكل شيء فعله الناس ويفعلونه كتبه الله سبحانه وتعالى عليهم قبل أن يُخلقوا ؛ قد جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " أول ما خلق الله القلم قال له اكتب قال ما أكتب قال اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة " فجرى القلم ، وجاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة " ؛ إذاً الإيمان بالكتابة من الإيمان بالقدر، ومن جحد الكتابة التي دل عليها القرآن ودلت عليها سنة النبي الكريم عليه الصلاة

والسلام لا يكون مؤمناً بالقدر ؛ لأن هذه من مراتب الإيمان بالقدر ولا يكون العبد مؤمناً بالقدر إلا إذا آمن بالكتابة .

• المرتبة الثالثة : المشيئة النافذة والقدرة الشاملة ؛

المشيئة النافذة .. أي أن ما شاءه الله جل وعلا ينفذ ولا راد له ؛ لأنه سبحانه وتعالى لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه ، فما شاءه سبحانه وتعالى كان وما لم يشأه لم يكن ، الذي يشاءه سبحانه وتعالى يقع طبقاً لما شاء ولا يمكن أن يتخلف ؛ لأن مشيئة الله سبحانه وتعالى في هذا الكون نافذة ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ ؛ فلا يمكن أن يتخلف شيء إذا أراد الله سبحانه وتعالى وجوده ، فمشيئته سبحانه وتعالى في الكون نافذة .

وقدرته شاملة لكل شيء... ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ، لا يعجزه تبارك وتعالى شيء في الأرض ولا في السماء وهو جل وعلا القوي المتين ، التقدير على كل شيء سبحانه وتعالى

• المرتبة الرابعة : الإيمان بأنه جلّ وعز خالق كل شيء كما قال تبارك وتعالى ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ، وكما قال جل وعلا ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ ؛ فهو جل وعلا خالق كل شيء ؛ خالق العباد وخالق أفعال العباد ؛ خلق العبد وخلق الإرادة التي في العبد ، وخالق السبب التام ، خالق للمسبب ، الإرادة التي عند العبد التي يريد بها خيراً أو يريد بها شراً ، يريد بها نفعاً أو يريد بها ضرراً ؛ مخلوقة لله تبارك وتعالى ؛ الله الذي خلقها ؛ وما ينشأ عن هذه الإرادة من أفعال مخلوق لله لأنه سبحانه وتعالى الخالق لكل شيء ، ومن لم يقل بذلك فإنه ولا بد سيزعم بوجود خالق مع الله ؛ وهذا شرك في الربوبية والخلق والتدبير فمن مراتب الإيمان بالقدر الإيمان بأن الله خالق كل شيء خالق للأشخاص خالق لما يقوم به الأشخاص من أعمال وأفعال وسكنات وحركات كل شيء مخلوق لله سبحانه وتعالى

فهذه مراتب الإيمان بالقدر التي لا إيمان بالقدر إلا بالإيمان بها ؛ وهي :

علم كتابة مولانا مشيئته وخلقته وهو إيجاد وتكوين

وإذا علم العبد ذلك وتقرر هذا الأمر في قلبه ورسخ في نفسه ربما يرد عليه سؤال أو يجول في ذهنه وهو سؤال كما يقال يطرح نفسه ، عندما يعلم العبد بهذه المراتب للقدر ويؤمن بها كما جاءت فإنه سيرد عليه سؤال ؛

إذا كانت الأمور مكتوبة ومقدرة قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ففيم العمل؟

ولماذا يعمل الإنسان ؟

لماذا لا يتكل على ما كُتِبَ ؟

لماذا لا يتوقف عن العمل ويقول الذي كتبه الله جلَّ وعلا سيكون؟

هذا سؤال ربما يرد على كثير من الأذهان ، وهو سؤال حارَّت فيه أفهام وزلت فيه أقدام وضل فيه أقوام ، سؤال جنح بأقوام عن سواء السبيل وعن صراط الله المستقيم ، ومهما تطلَّب الإنسان جواباً لهذا السؤال لن يجد جواباً يشفي الغليل ويروي العليل غير جواب النبي الكريم عليه الصلاة والسلام عندما سأله الصحابة رضي الله عنهم عن السؤال نفسه ؛ قالوا له : فيم العمل ؟ وقالوا له : ألا نتكل على الكتاب ؟ فأجاب عليه الصلاة والسلام بما فيه الغنية والكفاية والشفاء ؛ فقال عليه الصلاة والسلام : « اعملوا فكلٌ ميسر لما خُلق له » ؛ فمن كان من أهل السعادة يسره الله لعمل أهل السعادة ، ومن كان من أهل الشقاوة يسره الله لعمل أهل الشقاوة " ، ثم تلى قول الله تبارك وتعالى ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى ﴾ وصدق بالحسنى ﴿ فسنيسره لليسرى ﴾ وأما من بخل واستغنى ﴿ وكذب بالحسنى ﴾ فسنيسره للعسرى ﴿

فذكر عليه الصلاة والسلام في الجواب أمرين وقرر أصليين لا يستقيم العبد على الجادة إلا بهما ؛

• الأصل الأول في قوله عليه الصلاة والسلام " اعملوا " ؛ وهذا أمر بفعل السبب وبذل النافع المفيد وتجنب الضار ، ولا يؤمر بالعمل إلا من له مشيئة ، أما الذي لا مشيئة له فإنه لا يؤمر بالعمل ، وهذا دليل على أن العبد له مشيئة ، والقرآن نصّ على ذلك ؛ قال تعالى ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴾ أثبت للعبد مشيئة ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ فأثبت للعبد مشيئة ولكنها ليست مشيئة مستقلة ، ولكنها تحت مشيئة الله . إذاً العبد له مشيئة وبمشيئته يختار ؛ يذهب إلى طريق العبادة أو إلى طريق النار بنفسه بمشيئته واختياره ، ومشيئته تحت مشيئة الله ؛ لأنه لا يقع في هذا الكون إلا ما شاءه الله وأذن بوقوعه سبحانه وتعالى .

فقوله " اعملوا " هذا أصل عظيم في الباب وهو الأمر بالعمل وبذل السبب ؛ ولهذا تجد في القرآن آيات كثيرة تأمر العباد بالعمل ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ ، الأمر بإقام الصلاة ، بإيتاء الزكاة ، ببر الوالدين .. إلى غير ذلك ؛ هذه أوامر إنما يؤمر بها من له مشيئة . فهذا الأصل الأول ؛ العبد مع إيمانه بالقدر ومن تمام إيمانه بالقدر أن يبذل الأسباب النافعة ويتجنب الأسباب المهلكة .

• والأصل الثاني مأخوذ من قوله عليه الصلاة والسلام « فكلٌ ميسرٌ لما خُلق له » سواء كان خُلق للسعادة أو خُلق للشقاوة ؛ وهذا فيه دعوة للعبد إلى الارتباط بالله ، وطلب التيسير والتوفيق

والثبات والهداية والعون والرشاد منه سبحانه لأن الأمر بيده ، وكان أكثر دعاء النبي عليه الصلاة والسلام " « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » ، قالت أم سلمة رضي الله عنها قلت يا رسول الله أو إن القلوب تتقلب ؟ قال : « ما من قلب إلا هو بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء فإن شاء أقامه وإن شاء أزاعه » ، وفي القرآن ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ﴾ ، ومن دعاء نبينا صلى الله عليه وسلم كما في الصحيحين « اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني فأنت الحي الذي لا يموت والجن والإنس يموتون » ، وكان إذا خرج من بيته صلوات الله وسلامه عليه قال « اللهم إني أعوذ بك أن أضلَّ أو أضلَّ أو أزلَّ أو أزلَّ أو أظلم أو أظلم أو أجهل أو يجهل علي » ، فهذه الأمور كلها بيد الله تبارك وتعالى يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، الهداية بيده والضلال بيده . فكان على من أكرمه الله جل وعلا وهدهد وآمن بأقدار الله عز وجل وأن الأمور كلها بمشيئته أن يقبل على الله سائلاً إياه جل وعلا الثبات والتوفيق والتيسير والعون على كل خير وفي الوقت نفسه يبدل الأسباب ؛ وتأمل هذا المعنى في قوله تعالى في سورة الفاتحة ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ؛ العبادة غاية والاستعانة وسيلة .. أنت خلقت لتكون عبداً لله لكن لا تستطيع أن تكون عبداً لله إلا إذا أعانك الله ؛ ولذلك أتبع الغاية بالوسيلة التي لا تتحقق الغاية إلا بها قال ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، ونظير هذا قوله تعالى ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ ؛ " اعبد " أمرٌ بالعبادة

" وتوكل عليه " أمر باللجوء إلى الله في طلب العون والتسديد والتوفيق والهداية ، نظيره قوله عليه الصلاة والسلام « احرص على ما ينفعك واستعن بالله » ؛ ولهذا لا يجوز للعبد أن يتخلى عن هذين الأمرين ، التخلي غلط وخلل عظيم سواء التخلي عن الأسباب أو التخلي عن التوكل على الله ؛ فلا بد من الأمرين معاً ؛ لا بد من بذل السبب ولا بد في الوقت نفسه من طلب العون من الله تبارك وتعالى لأن الأمور كلها بتدبيره وتقديره وتيسيره ، وفي هذا المعنى يقول الإمام الشافعي رحمه الله :

وما شئتُ إن لم تشأ لم يكن	ما شئتَ كان وإن لم أشأ
وفي العلم يجري الفتى والمسن	خلقتَ العبادَ على ما علمتَ
وهذا أعنتَ وذا لم تعن	على ذا مننتَ وهذا خذلتَ
ومنهم قبيح ومنهم حسن	فمنهم شقيٌّ ومنهم سعيد

فهذه كلها أمور بتقدير الله سبحانه وتعالى ؛ ولهذا من تمام الإيمان بالقدر بذل الأسباب النافعة المقربة إلى الله سبحانه وتعالى بفعل المأمور وترك المحذور .

قال [ثامناً: قوله: " فأخبرني عن الإحسان قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك " الإحسان أعلى الدرجات ، ودونه درجة الإيمان ، ودون ذلك درجة الإسلام ، وكل مؤمن مسلم وكل محسن مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمناً محسناً ، ولهذا جاء في سورة الحجرات ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ وجاء في الحديث بيان علو درجة الإحسان في قوله " أن تعبد الله كأنك تراه " أي تعبدك كأنك واقف بين يديه تراه ، ومن كان كذلك فإنه يأتي بالعبادة على التمام والكمال ، وإن لم يكن على هذه الحال فعليه أن يستشعر أن الله مطلع عليه لا يخفى منه خافية فيحذر أن يراه حيث نهاه ويعمل على أن يراه حيث أمره] .

الشرح..

قوله في حديث جبريل " أخبرني عن الإحسان " ؛ الإحسان في اللغة: هو الإتقان والإجادة ، والإحسان في الدين : هو الإتيان به على أتم أحواله وأكملها وأعلاها وأرفعها ؛ ولهذا لما قال جبريل أخبرني عن الإحسان ذكر النبي عليه الصلاة والسلام في بيان هذه الرتبة التي هي أعلى مراتب الدين حقيقة الإحسان بقوله « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » ؛ يعني أن تكون في إتقانك وإجادتك لعبادتك لله سبحانه وتعالى على هذه الحالة العلية والرتبة الرفيعة ؛ أن تعبد الله كأنك واقف بين يدي الله ترى الله ، تصل إلى هذه الرتبة .

وإن لم يصل الإنسان إلى ذلك فلا أقل أن يكون من أهل الإحسان أن يستشعر في عباداته وتقرباته إلى الله سبحانه وتعالى اطلاع الله عليه ورؤية الله سبحانه وتعالى إليه " فإن لم تكن تراه فإنه يراك " ، قال تعالى ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ۖ وَتَقَلُّبِكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ فيستشعر في عبادته لله وتقربه لله تبارك وتعالى اطلاع الله سبحانه وتعالى عليه ، ويمضي حياته مستشعراً ذلك ، فإذا كان على هذه الرتبة وعلى هذه الحال بلغ الرتبة العلية والرفيعة في هذا الدين ؛ لأنه سيمضي في حياته وأوقاته على السداد والاستقامة ؛ وهذا فيه أن العبد لا يزال في رفعة وعلو من دينه ما

دام مستشعراً رؤية الله له واطلاعه عليه ، وهذا يبين لنا المكانة العظمى لمعرفة الله بأسمائه وصفاته ، وأثر هذه المعرفة على العبد، وأن العبد كلما استشعر أسماء الله ومعانيها وصفات الله تبارك وتعالى ودلالاتها كان لها الأثر عليه ؛ ولهذا قال الله تعالى ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ ؛ فالعبد كلما كان بالله أعرف كان لعبادته أطلب وعن معصيته أبعد ومنه أو إليه تبارك وتعالى أقرب .

قال : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » استشعر رؤيته لك ، وإذا كان العبد في حياته على هذه الحال دائماً يستشعر رؤية الله له فإن هذا الاستشعار هو الذي يحجزه ويردعه عن المعاصي والآثام وهو الذي أيضاً يسوقه إلى الطاعات وحسن العمل والتقرب إلى الله تبارك وتعالى ، استشعار رؤية الله جل وعلا وعلمه واطلاعه ؛ وهذا كما قال أهل العلم أكبر واعظ للإنسان ؛ فإذا بقي معك دائماً مستشعراً هذا الأمر بلغ العبد بذلك رتبة المحسنين ودرجة المتقين في عبادتهم وتقربهم إلى الله سبحانه وتعالى ، وهذا يحتاج من العبد إلى مجاهدة ومعالجة لنفسه الأمانة بالسوء ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ؛ فالعبد بمجاهدته لنفسه واستعانته بربه تبارك وتعالى يبلغ الدرجات العلية.

وأهل الإحسان في الأولين كثر وفي الآخرين قلة ؛ كما قال الله سبحانه وتعالى ﴿ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴾ لما ذكر المقربين وهم أهل الإحسان ذكر كثرتهم في الأولين وقلتهم في الآخرين ، والعبد ما دام في جهاد في الله عز وجل ومجاهدة لنفسه وحرص وصدق مع الله وحسن إقبال على الله جل وعلا ؛ بلغه الله سبحانه وتعالى المنازل العالية والرتب الرفيعة . الإحسان مرتبة عليية من الدين ، هي أعلى مراتب الدين .

وحديث جبريل دلّ على أن الدين ثلاث مراتب ؛ وهي : الإسلام والإيمان والإحسان وفسر كل مرتبة من هذه المراتب... ففسر الإسلام بالأعمال الظاهرة ، وفسر الإيمان بالعقائد الباطنة التي هي في القلب ، وفسر الإحسان بأن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، فهذه ثلاث مراتب للدين ؛ ولهذا انقسم أهل الدين بحسب تحقيقهم له إلى أقسام ثلاثة : مسلم ومؤمن ومحسن ؛ وهذا الحديث من خلاله تستطيع أن تفرق بين أهل هذه المراتب الثلاث ، ومن خلاله تستطيع أن تعرف من المسلم ومن المؤمن ومن المحسن ، وعرفنا أن أعلى هذه الرتب رتبة الإحسان ثم يليه الإيمان ثم يليه الإسلام . قد ضرب بعض أهل

العلم المتقدمين مثلاً لتوضيح هذه المراتب الثلاث ؛ فوضع ثلاث دوائر دائرة صغيرة ثم تحيط بها دائرة أوسع منها ثم تحيط بها دائرة أوسع ؛ وأشار إلى الدائرة الصغيرة قال هذا الإحسان ، ثم الأوسع منها قال هذا الإيمان ، ثم الأوسع منها قال هذا الإسلام ، وأول ما يدخل العبد الدين يدخل في الإسلام "من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فهو المسلم له ما لنا وعليه ما علينا" ؛ فأول ما يدخل الدين يدخل مسلماً فإذا تقوى . عندما يدخل في الدين بالشهادتين والتزام فرائضه يكون مسلماً . وتمكن الإيمان في قلبه ورسخ في نفسه انتقل إلى رتبة الإيمان ، وإذا تقوى في الدين وجاهد نفسه في الإتيان لعبادة رب العالمين وصار إلى هذا الحال . يعبد الله كأنه يراه . بلغ رتبة الإحسان ؛ ولهذا إذا نظرت إلى هذه الدوائر الثلاثة التوضيحية تجد أن .. كل محسن مؤمن مسلم ؛ لأن دائرة الإيمان محيطة بالإحسان ، ودائرة الإسلام محيطة بالإيمان وكل مؤمن مسلم وليس العكس . ليس كل مسلم مؤمناً محسناً وليس كل مؤمن محسناً . والله جل وعلا يقول: ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾

يعني لم تصلوا بعد إلى رتبة الإيمان ، وهؤلاء الذين قال الله عنهم لم تؤمنوا ليسوا كفاراً ولا منافقين ﴿ وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ ؛ أي أنكم لازلتم بعد في مرتبة الإسلام ، أما مرتبة الإيمان فهي أعلى لم تبلغوها ، وفي حديث سعد لما قال للنبي صلى الله عليه وسلم " مالك عن فلان وإني لأراه مؤمناً قال أو مسلماً " أرشده عليه الصلاة والسلام إلى رتبة الإسلام ، إذاً كل محسن مؤمن مسلم وكل مؤمن مسلم وليس العكس .

عندما تقرأ قول الله تعالى ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ ، وتسأل ما معنى المسلمين وما معنى المؤمنين ؟ - وقد ذكرهم الله شبيئين - ..

تجد الجواب في حديث جبريل ؛ المسلم هو الذي يأتي بأعمال الإسلام الظاهرة . يشهد الشهادتين ويصلي ويحج الفرض الذي افترضه الله عليه ويصوم .. ولا يكفي هذا ؛ المسلم هو الذي يأتي بأعمال الإسلام الظاهرة وعنده من الإيمان القلبي ما يُصحح إسلامه ؛ لأن العمل الظاهر لا يُقبل إلا إذا وُجد قدر من الإيمان يصحح هذا الإسلام ؛ قال الله تعالى ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴾ ، لا يكفي أن يأتي الإنسان بالعمل الظاهر بل لا بد من وجود إيمان باطن بالقلب يصحح إسلامه ، فالمسلم هو الذي يأتي بأعمال الإسلام الظاهرة وعنده من الإيمان القلبي ما يُصحح إسلامه لكن لو جاء بأعمال الإسلام الظاهرة وليس عنده مطلقاً إيمان قلبي ؟ فمن يكون هذا؟ هذا

منافق ؛ فالمنافق يُظهر أعمال الإسلام الظاهرة والقلب ليس فيه أي إيمان - عريٌّ من الإيمان - ؛ لا يكون مسلم إلا إذا جاء بأعمال الإسلام الظاهرة وعنده من الإيمان القلبي ما يُصحح إسلامه وهذا بالنسبة لحكم الإسلام من حيث هو، أما حكمنا على الشخص بكونه مسلماً من خلال الظاهر، لنا الظاهر والله تبارك وتعالى يتولى السرائر .

والمؤمن هو الذي تمكن الإيمان في قلبه ، ورسخ في قلبه ؛ ولهذا قال الله للأعراب ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ أي لم يتمكن من قلوبكم . والإيمان القلبي يقوى ويضعف ، من الناس من يمتلئ قلبه إيماناً ، ومنهم من يكون في قلبه إيمان ضعيف ؛ سئل الإمام أحمد رحمه الله " أيزيد الإيمان وينقص ؟ قال يزيد حتى يكون أمثال الجبال وينقص حتى لا يبقى منه شيء " .

فالإيمان يزيد وينقص ويقوى ويضعف وأهلهم ليسوا فيه سواء ؛ بل هم متفاوتون ؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " إنَّ عمار بن ياسر مُلئَ إيماناً إلى مُشاشه . المشاش : أطراف الأصابع . " ؛ ففرق بين شخص مُلئَ إيماناً وبين شخص يعمل أعمال الإسلام الظاهرة وإيمانه القلبي قليل ويسير جداً ، فهذا القدر اليسير أو القليل هو الذي يصحح عمله الظاهر وكان به مسلماً ، وأما رتبة الإيمان فهي إنما تكون لمن امتلئ قلبه بالإيمان ، ومن امتلئ قلبه بالإيمان ما مقتضى ذلك ؟ أيمن أن يكون القلب ممتلئاً إيماناً ولا يعتني بالعمل ؟ ولا يهتم به ؟ أبداً ؛ لأن امتلاء القلب بالإيمان يتبعه لزماً صلاح الأعمال واستقامة الجوارح كما قال عليه الصلاة والسلام " ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب " ، فإذا امتلأ القلب إيماناً فالجوارح تبع ؛ يقول بن تيمية رحمه الله في كتابه الإيمان " لا يمكن أن تتخلف الجوارح عن مرادات القلوب " لأن حال الجوارح مع القلوب التبعية ؛ فالقلب هو الأمر ، والجوارح بمثابة الجنود المطيعة المنفذة لأمره؛ ولهذا قيل كل مؤمن مسلم ؛ ما معنى ذلك ؟ لماذا لم يُقال كل مسلم مؤمن لأنه من المسلمين من عنده الأعمال الظاهرة لكن الإيمان ما رسخ وما تمكن في قلبه ، لكن كل مؤمن مسلم لأن القلب إذا عُمر بالإيمان استسلمت الجوارح وانقادت وامتثلت للأوامر ؛ لأن الجوارح مع القلب حالها معها التبعية والانقياد ولا تتخلف عن مراد القلوب ؛ ولهذا قيل كل مؤمن مسلم .

والمحسن أعلى من هؤلاء ، وهو الذي بلغ في عبادته لله تبارك وتعالى كأنه يراه ؛ قال « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

قال: [تاسعاً قوله « قال فأخبرني عن الساعة قال ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » ؛ اختص الله بعلم الساعة فلا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله سبحانه وتعالى ، قال الله عز وجل ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ وقال تعالى ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ ومنها علم الساعة ففي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم « مفاتيح الغيب خمسة ثم قرأ ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ ، وقال تعالى ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقَّتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، وجاء في السنة بأن الساعة تقوم في يوم الجمعة ، أما من أي سنة و في أي شهر من أي سنة وفي أي جمعة من الشهر فلا يعلم ذلك إلا الله ، وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أهبط وفيه تيب عليه وفيه مات وفيه تقوم الساعة وما من دابة إلا وهي مسيخة يوم الجمعة من حين تصبح حتى تطلع الشمس شفقاً من الساعة إلا الجن والإنس » الحديث ، وهو حديث صحيح ، رجاله رجال الكتب الستة إلا القعني فلم يخرج له بن ماجه . وقوله: « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » معناه: أن الخلق لا يعلمون متى تقوم ، وأن أي سائل وأي مسؤول سواء في عدم العلم بها] .

الشرح..

قوله في حديث جبريل - قال جبريل للنبي عليه الصلاة والسلام - « فأخبرني عن الساعة قال ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » هذا فيه أن الله عز وجل اختص بعلم الساعة ، فلا يعلم متى تقوم إلا هو جل وعلا ، وكل من مات قامت قيامته وجاءت ساعته ؛ ولهذا يجب على العبد أن يبحث في ماذا أعد للساعة وماذا هيأ لها إذا قامت ؛ قال عليه الصلاة والسلام للرجل الذي سأله متى الساعة ؛ قال « ماذا أعددت لها ؟ ؛ فإلهم هو ما أعد للساعة ، وساعة الإنسان قد تكون بعد يوم أو يومين أو أقل أو أكثر ، فالذي يجتهد الإنسان في تحقيقه هو ماذا أعد للساعة ؛ فيبحث عن العلم النافع والعمل الصالح المقرب إلى الله تبارك وتعالى ، الذي هو خير زاد ليوم المعاد ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ ، والساعة علمها مختص به جل وعلا فلا يعلم متى تقوم إلا هو جل وعلا ؛ قال الله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ أي مختص بذلك ، وقال جل وعلا ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ ؛ ومن مفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلا هو

علم الساعة كما يبين ذلك حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ؛ قال صلى الله عليه وسلم « مفاتيح الغيب خمسة ثم قرأ ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ ، » ؛ فهذه النصوص وما ورد في معناها تدل على أن علم الساعة مختص به رب العالمين . إلا أن السنة قد دلت على أن قيام الساعة يوم الجمعة كما جاء في الحديث : « خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أهبط وفيه تيب عليه وفيه مات وفيه تقوم الساعة » هذا الحديث يدل أن الساعة لا تقوم إلا يوم الجمعة لكن لا يُدرى في أي يوم وفي أي سنة وفي أي شهر لكنّها تقوم يوم الجمعة كما في هذا الحديث الثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم . . .

وقوله « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » معناه أن الخلق لا يعلمون متى تقوم وأن أي سائل وأي مسؤول سواء في عدم العلم بها ، لأن علم الساعة اختص به تبارك وتعالى رب العالمين

✽ قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي في تفسيره لقوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ :

* يقول تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ أي المكذبون لك المتعنتون .
 ﴿عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ : أي متى وقتها الذي تجيء به ، ومتى تحل بالخلق .
 ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ : أي أنه تعالى مختص بعلمها .
 ﴿لَا يُجَلِّيهَا لَوَاقِحُهَا إِلَّا هُوَ﴾ : أي لا يظهرها لوقتها الذي فُدر أن تقوم فيه إلا هو .
 ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ : أي خفي علمها على أهل السماوات و الأرض ، واشتد أمرها أيضاً عليهم ، فهم من الساعة مشفقون .
 ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ : أي فجأة من حيث لا تشعرون ، لم يستعدوا لها ولم يتهيؤا لقيامها .
 ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ : أي هم حريصون على سؤالك عن الساعة كأنك مستحفي عن السؤال عنها ولم يعلموا أنك كمال علمك بربك وما ينفع السؤال عنه غير مبال بالسؤال عنها ولا حريص على ذلك ، فلم لا يقتدون بك ، ويكفون عن الاستحفاء عن هذا السؤال الخالي من المصلحة المتعذر علمه فإنه لا يعلمها نبي مرسل ولا ملك مقرب ، وهي من الأمور التي أخفاها الله عن الخلق لكمال حكمته وسعة علمه * .

قال الشيخ عبد المحسن حفظه الله :

عاشرا : [قوله « فأخبرني عن أماراتها قال أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء

يتناولون في البنيان » : أماراتها أي علاماته ، وعلامات الساعة تنقسم إلى قسمين :
علامات قريبة من قيامها كخروج الشمس من مغربها وخروج الدجال وخروج يأجوج
ومأجوج ونزول عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام من السماء وغيرها .

وعلامات قبل ذلك ومنها علامتان المذكورتان في هذا الحديث .
ومعنى قوله « أن تلد الأمة ربتها » فُسر بأنه إشارة إلى كثرة الفتوحات ، وكثرة السبي ، وأن من
المسييات من يطأها سيدها فتلد له فتكون أم ولد ويكون ولدها بمنزلة سيدها . وفُسر بتغيير
الأحوال وحصول العقوق من الأولاد لآبائهم وأمهاتهم وتسلطهم عليهم حتى يكون الأولاد
كأنهم سادة لآبائهم وأمهاتهم . ومعنى قوله « وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في
البنيان » أن الفقراء الذين يرعون الغنم ولا يجدون ما يكتسبون به تتغير أحوالهم وينتقلون إلى
سكن المدن ، ويتطاولون في البنيان ، وهاتان علامتان قد وقعتا .

قوله « ثم انطلق فلبث ملياً ثم قال : يا عمر أتدري من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم قال فإنه جبريل
أتاكم يعلمكم دينكم » ، معنى ملياً : زمناً ، فقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه عن السائل بأنه
جبريل عقب انطلاقه ، وجاء أنه أخبر عمر بعد ثلاث ، ولا تنافي بين ذلك لأن النبي صلى الله عليه
وسلم أخبر الحاضرين ولم يكن عمر رضي الله عنه معهم ، بل يكون انصرف من المجلس ، واتفق له أنه
لقي النبي صلى الله عليه وسلم بعد ثلاث فأخبره .

الشرح..

قوله : فأخبرني عن أماراتها : أي أخبرني عن علامات الساعة ؛ لأن الساعة لا تقوم حتى
يأتي قبلها أمارات وعلامات دالة على دنو مجيئها وقرب قيامها ، وقسم أهل العلم العلامات
إلى قسمين :

علامات قريبة من قيام الساعة ؛ وهذه العلامات من شأنها أنها إذا خرجت واحدة منها
توالت العلامات تباعاً كما ينفرط الخرز من العقد إذا قُطع تأتي متوالية ، وعلى إثرها تقوم
الساعة ، ومن شأنها كذلك أنها إذا ظهرت علامة من هذه العلامات الكبرى على قيام
الساعة لا ينفع الإيمان ؛ لأن الإيمان أصبح إيمان مشاهدة ومعاينة لخراب هذا الكون ، ودنو
قيام الساعة ؛ فالإيمان حينئذ إيمان مشاهدة فلا ينفع ، والذي ينفع هو الإيمان بالغيب
﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ .

والنوع الآخر من العلامات : علامات صغرى تأتي قبل العلامات الكبرى وهي كثيرة جداً ومنها هاتان علامتان المذكورتان في حديث النبي صلى الله عليه وسلم ؛ الأولى « أن تلد الأمة ربتها » ، والثانية « أن ترى الرعاة الحفاة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان » . ومعنى « أن تلد الأمة ربتها » : منها أن في ذلك إشارة إلى كثرة الفتوح ؛ بحيث تكون من المسبيات من يطأها سيدها فتلد له فتكون أمّ ولده ويكون ولدها بمنزلة سيدها .

وقيل المراد بذلك أن الأحوال تتغير ، وأن الأبناء يفسدون ويصبح الابن من فسادته متسلط على والديه ، ويكون لوالديه بمقام الأمر الناهي ، فقيل أن هذا هو المعنى ؛ أن يكون ولدها متسلطاً عليها أمراً ناهياً مستبداً . وقيل أقوال أخرى في معنى الحديث .

وقوله « أن ترى الحفاة العراة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان » : أي أن ترى أهل الماشية والأغنام يتحولون إلى المدن والحواضر ويتنافسون في بناء المباني العالية الأدوار ، وهاتان العلامتان قد وقعتا .

إلى هنا انتهى جبريل من مهمة التعليم التي جاء لأجلها فانطلق ؛ فلبث النبي ملياً عليه الصلاة والسلام ؛ ثم قال يا عمر « أتدري من السائل » ؛ أي انتظر النبي عليه الصلاة والسلام وقتاً وزماناً ثم قال « أتدري من السائل » ؛ وهذا أسلوب وتشويق في التعليم .

" قلت الله ورسوله أعلم " : وهذا أدب فيما لا يعلمه الإنسان يكله إلى من يعلمه . قال " هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم " : في قوله هذا دلالة على أن هذا الحديث جُمع فيه الدين ؛ ولهذا سماه بعض أهل العلم أم السنة لأن السنة جُمعت فيه إجمالاً كما جُمع القرآن إجمالاً في فاتحة الكتاب أم الكتاب .

قال : [الثاني عشر مما يستفاد من الحديث :
أولاً : أن السائل كما يسأل للتعليم فقد يسأل للتعليم ؛ فيسأل من عنده علم بشيء من أجل أن يسمع الحاضرون الجواب .
ثانياً : أن الملائكة تتحول عن خلقها وتأتي بأشكال آدميين ، وليس في هذا دليل على جواز التمثيل الذي اشتهر في هذا الزمان ، فإنه نوع من الكذب ، وما حصل من جبريل فهو بإذن الله وقدرته] .

الشرح..

التمثيل نوع من الكذب لأن الممثل يتقمص شخصية غيره ، وفي تمثيله له يدّعي أنه هو ، ويتكلم بلسانه على أنه هو ؛ وهذا نوع من الكذب سواء كان الغرض من ذلك إضحاك الناس أو كان الغرض من ذلك تعليم الناس .

فبعض من يفعلون ذلك استدلوا بقصة جبريل وزعموا أنه ممثل والتمثيل كذب ، وجبريل عليه السلام وعموم الملائكة مُبَرِّؤُونَ من كل ما هو معصية لله تبارك وتعالى ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ ﴾ . ومجيئه على صورة أعرابي هو شيء أقدره الله سبحانه وتعالى عليه ، وذلك الجسم الكبير الذي صورته الحقيقية له ستمائة جناح يسد الأفق أقدره الله سبحانه وتعالى على أن يأتي ويصغر ذلك الجسم الكبير ويصبح بهذه الصورة . صورة أعرابي . ، وهي صورة حقيقية يأتي بها جبريل والله جل وعلا أقدره على ذلك ؛ فشتان بين هذا وذاك .

والتمثيل من الأمور التي فشت في هذا الزمان وكثرت وأصبح بعض الناس ينسبها للإسلام وقيمون تمثيلات ومشاهد ويسموها إسلامية ، ثمّ تمارس باسم التمثيل الإسلامي المدعى أمور هي من الكذب الواضح بل أمور من الضلال البين ، وأذكر قديماً . نقل لي بعض الطلاب . أن تمثيلية أراد أربابها أن يعلموا -بزعمهم -الناس أذكار النوم وأهمية أذكار النوم ؛ فجاءوا بشخص ألبسوه لباساً وغيروا في هيئته وجعلوه على صفة موحشة ومخيفة ومنظر بشع وقالوا أنت إبليس . دورك إبليس . والثاني شاب عنده مشكلة في النوم ، كلما يأوي إلى فراشه لينام ما يستطيع ، ويضعون فراش أمام الناس ويأتي هذا الشاب ويتقلب أمام الناس يريد أن ينام ويظهر القلق أمام الناس وكل الذين يرونه يعلمون أنه يكذب فيتقلب أمامهم ويحاول أن يجعل تقلبه أمامهم بشكل مضحك حتى يستمتع الحاضرون برؤيته فيتقلب أمامهم ويتقلب وينادي ... أنا أريد أن أنام ، ما يأتيني النوم ، كيف أنام ، والناس ينظرون إليه ويضحكون ، وهم الآن بزعمهم يريدون أن يعلموا الناس أهمية الذكر ، وهذا الذي على صورة إبليس يأتي عند رأسه ويشوّش عليه حتى يرى الناس كيف أن إبليس يأتي عند رأسه وما يمكنه من النوم ويدخله في التشويش ، ثم يأتي شخص بزعمهم على هيئة متدين وناصح فيقول : ما المشكلة ؟ فيقول أنا ما أستطيع أن أنام ؛ فيقول : لماذا لا تقول أذكار النوم ؟ فيقول : ماهي أذكار النوم ؟ فيعلمه أذكار النوم ؛ فلما يبدأ بأذكار النوم يهرب الشيطان - اللي هو واحد منهم -

أمام الحاضرين ؛ وهذا هو المقصود أن يتعلموا أذكار النوم بمثل هذه المهزلة والكذب وإلى درجة أن بعض الشباب المسلم يُجعل على صورة إبليس ويمثل دور الشيطان ، وأحياناً يجعلون الشاب المسلم يمثلون دور الكفار يكون على صورة كافر أو عدو ، إذا قالوا من أنت قال أنا فرعون أو أنا إبليس والا يقول أنا أبو جهل .. هذا كله من الضياع ، وإذا قيل ما هذا ؟ قالوا هذا تمثيل إسلامي ... !

يعني ينسب للإسلام زورا والإسلام بريء من هذه الأعمال ، وليست هذه من الإسلام في شيء ، والنبي عليه الصلاة والسلام علم الأمة الأذكار وعلمهم الدين وفقهه الناس في دين الله عز وجل وتعلموا الحلال والحرام بدون هذه المهزلة التي تمارس باسم الإسلام ، ويحاول بعض هؤلاء أن يستدلوا لهذا التمثيل بأشياء لا تمت له بصلة

قال : [ثالثاً : بيان آداب المتعلم عند المعلم .

رابعاً : أنه عند اجتماع الإسلام والإيمان يفسر الإسلام بالأمور الظاهرة ، والإيمان بالأمور الباطنة .

خامساً : البدء بالأهم فالأهم ؛ لأنه بدءٌ بالشهادتين في تفسير الإسلام ، وبدءٌ بالإيمان بالله في تفسير الإيمان .

سادساً : أن أركان الإسلام خمسة ، وأن أصول الإيمان ستة .

سابعاً : أن الإيمان بأصول الإيمان الستة من جملة الإيمان بالغيب .

ثامناً : بيان التفاوت بين الإسلام والإيمان والإحسان .

تاسعاً : بيان علو درجة الإحسان .

عاشراً : أن علم الساعة مما استأثر الله بعلمه .

الحادي عشر : بيان شيء من أمارات الساعة .

الثاني عشر : قول المسؤول لما لا يعلم الله أعلم [

والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين

..*

الدرس السادس

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .
أما بعد ..

الحديث الثالث

عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول: « بُنِيَ الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة
وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان » رواه البخاري ومسلم

الشرح..

هذا الحديث الثالث من أحاديث الأربعين للإمام النووي رحمه الله وهو من حديث عبد الله بن
عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « بُنِيَ الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا
الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان » وهو قد جمع عليه الصلاة
والسلام في هذا الحديث مباني الإسلام ، والمراد بمباني الإسلام أي ما يُبنى عليه الإسلام ، وفي
الحديث تشبيه للإسلام بالبناء ، ومن المعلوم أن البناء يحتاج إلى عماد يقوم عليه كما قال
القائل :

والبيت لا يُبنى إلا بأعمدة ولا عماد إذا لم تُرسي أوتاد

فالبيت لا يقوم إلا على عماد ، وهذه المباني الخمس المذكورة في هذا الحديث هي للإسلام
بمثابة العماد للبناء، بمثابة الأساس للبناء ؛ وبهذا نعلم أن إيراد النووي رحمه الله لهذا الحديث عقب
حديث عمر بن الخطاب وفيه قال أخبرني عن الإسلام فذكر هذه الخمس ؛ ذكره لحديث
ابن عمر عقب هذا الحديث ليس من قبيل التكرار المحض ؛ بل لأن هذا الحديث فيه قدرٌ
زائد على ما جاء في حديث عمر ؛ هو التنصيص على أن الإسلام بُني على هذه الخمس ،
وأنها للإسلام بمثابة العماد للبناء .

وهذه الخمس المذكورة في الحديث هي فرائض لهذا الدين ، وأسس لا بد منها ، وواجب على

كل مسلم أن يحافظ عليها أشد المحافظة ، وهذه الفرائض الخمس إذا تأملها المسلم يجد أنها دالة على يسر هذا الدين كما قال عليه الصلاة والسلام « إن هذا الدين يسر » دالة على سماحته فليس فيها عنت ولا مشقة على العباد ؛ بل هي أعمال يسيرة مقتطعة من زمن طويل يعيشه العبد و يحياه .

- الصلوات الخمس المفروضة لا تجب على المسلم في اليوم واللييلة إلا خمس مرات ، وفي الحديث « صَلِّ قائماً فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب » .
- الزكاة لا تجب على كل مسلم ؛ وإنما هي واجبة على الأغنياء من المسلمين ، الذين عندهم النصاب الزكوي ، الذين عندهم القدر من المال الذي تجب فيه الزكاة ، وهي صدقة تؤخذ من الأغنياء وترد على الفقراء ، وفيها نماء للمال وبركة للمزكي وطهارة له .
- الصيام لا يجب في العام إلا شهراً واحداً ؛ يصوم في نهاره عن الطعام والشراب والجماع وسائر المفطرات تقريباً لله جل وعلا ، وفيه تمرين للنفس على الصبر وعلى الإخلاص وعلى حسن الإقبال على الله جل وعلا ، وعلى الانكفاف عن المحرمات .
- والحج فريضة لا تجب في العمر إلا مرة واحدة كما قال عليه الصلاة والسلام «الحج مرة فمن زاد فهو تطوع» ؛ فهذا يدل على يسر هذا الدين وسماحته وأنه ليس في العنت والمشقة على العباد .

قال الشيخ عبد المحسن العباد حفظه الله تعالى :

[قوله « بني الإسلام على خمس » فيه بيان عظم شأن هذه الخمس ، وأن الإسلام مبني عليها ، وهو تشبيه معنوي بالبناء الحسي ، وكما أن البنين الحسي لا يقوم إلا على أعمدته ؛ فكذلك الإسلام إنما يقوم على هذه الخمس ، والاقتصار على هذه الخمس بكونها الأساس لغيرها ، وما سواها فإنه يكون تابعاً لها] .

الشرح..

هذه الأمور الخمس جعلها النبي صلى الله عليه وسلم للإسلام مباني ؛ قال « بني الإسلام على خمس » والبناء أمر حسي ومشاهد .

وقد شبه النبي عليه الصلاة والسلام هذه الأمور بالبناء المشاهد ، وهذا من باب ضرب الأمثال ، والأمثال من فائدتها أنها تجعل الأمر المعنوي بمثابة الأمر المحسوس المشاهد الذي يراه الإنسان بعينه ؛

كأنه يُقال في هذا المقام إذا أردت أن تدرك مكانة هذه الأمور الخمس من الإسلام فانظر إلى أي بناء قائم على أعمدة وأسس وتذكر في مكانة هذه الأسس من البناء ، وأن زوال شيء من أسس البناء يؤدي إلى انهياره .

فالأمثال ضربها مفيد جداً لأنه يجعل الأمر المعنوي بمثابة الأمر المشاهد المحسوس ، وكثيراً ما يأتي ضرب الأمثال في القرآن وسنة النبي ﷺ في مقام التوضيح والبيان . واقتصر على هذه الخمس وجعلها مباني للإسلام لكونها الأساس لغيرها ، ولكونها أمهات الطاعات والعبادات المتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى ، وسائر العبادات راجعة إلى هذه العبادات فهي لغيرها من العبادات أساس والعبادات راجعة إلى هذه الخمس المذكورة في الحديث .

[ثانياً : أورد النووي هذا الحديث بعد حديث جبريل ، وهو مشتمل على هذه الخمس لما اشتمل عليه هذا الحديث من بيان أهمية هذه الخمس ، وأنها الأساس الذي بُني عليه الإسلام ؛ ففيه معنى زائد على ما جاء في حديث جبريل] .

الشرح..

إيراد حديث بن عمر رضي الله عنهما عقب حديث جبريل ليس من التكرار المحض . مع أن الخمس التي ذكرت هنا ذكرت هناك . ؛ لكن فيه قدر زائد وهو قوله عليه الصلاة والسلام في أول الحديث « بني الإسلام على خمس » ؛ وفي هذا بيان لمكانة هذه الخمس من الدين ، وأنها للدين بمثابة الأساس للبنیان .

[ثالثاً هذه الأركان الخمسة التي بني عليها الإسلام أولها الشهادتان؛ وهما أس الأسس ، وبقية الأركان وغيرها تابع لها ، فلا تنفع هذه الأركان وغيرها من الأعمال إذا لم تكن مبنية على هاتين الشهادتين ، وهما متلازمتان؛ لا بد من شهادة أن محمداً رسول الله مع شهادة أن لا إله إلا الله ، ومقتضى شهادة أن لا إله إلا الله أن لا يُعبد إلا الله ، ومقتضى شهادة أن محمداً رسول الله أن تكون العبادة وفقاً لما جاء به رسول الله ﷺ ، وهذان أصلان لا بد منهما في قبول أي عمل يعمل به الإنسان ؛ فلا بد من تجريد الإخلاص لله وحده ، ولا بد من تجريد

المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

الشرح..

تصدير النبي صلى الله عليه وسلم هذا الحديث المشتمل على مباني الإسلام بالشهادتين دليل على مكانة الشهادتين من الإسلام وأنها أعظم الإسلام وأجله على الإطلاق شهادة أن لا إله إلا الله و أن محمداً رسول الله ؛ ولهذا فإن بقية أركان الإسلام وأمور الإسلام الأخرى كلها راجعة للشهادتين ؛ لأن شهادة أن لا إله إلا الله تعني عبادة الله وإفراده تبارك وتعالى وحده بالعبادة وعدم الإشراك به ، وشهادة أن محمداً رسول الله تعني تجريده بالمتابعة وطاعته وامتنال ما يأمر به عليه الصلاة والسلام ؛ فرجع الدين كله إلى الشهادتين .

" والشهادتان متلازمتان " ؛ أي لا تنفك إحداها عن الأخرى ؛ فلا تُقبل شهادة أن لا إله إلا الله من قائلها ولا تنفعه عند الله إلا إذا ضم إليها شهادة أن محمداً رسول الله ؛ فلا يكون قبول لإحداها إلا بالأخرى والله جل وعلا لا يقبل من قائل لا إله إلا الله إلا إذا ضم إليها محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والشهادتان دالتان على الإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول صلى الله عليه وسلم ؛ لأن لا إله إلا الله معناها أن لا نعبد إلا الله وأن نخلص له الدين وأن نفرد وحده بالعبادة ، وهي قائمة على ركنين النفي والإثبات ؛ النفي العام في أولها نفي العبودية عن كل ما سوى الله ، والإثبات الخاص في آخرها للعبودية بكل معانيها لله وحده ؛ فلا إله إلا الله تعني أن لا يسأل إلا الله ولا يُدعى إلا الله ولا يستغاث إلا بالله ولا يُذبح شيء إلا لله ، ولا يصرف شيء من العبادة إلا لله تبارك وتعالى ، فكما أنه تفرد وحده بالخلق والإيجاد والإنعام والإمداد ؛ فيجب أن يُفرد وحده تبارك وتعالى بالعبادة ؛ ولهذا قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿ أَي لا تجعلوا لله شركاء في العبادة وأنتم تعلمون أنه لا خالق لكم إلا الله وحده تفرد بخلقكم ورزقكم وإمدادكم ؛ لا شريك له في ذلك ؛ فليُفرد وحده تبارك وتعالى بالعبادة.

وشهادة أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم تعني طاعته عليه الصلاة والسلام فيما أمر ، والانتها عما نهى عنه وزجر وتصديقه فيما أخبر وأن لا يعبد الله إلا بما شرع .

[رابعاً: قال الحافظ في الفتح : فإن قيل لم يذكر الإيمان بالأنبياء والملائكة وغير ذلك مما تضمنه سؤال جبريل عليه السلام أُجيب بأن المراد بالشهادة تصديق الرسول فيما جاء به ؛ فيستلزم جميع ما ذكر من المعتقدات . وقال الإسماعيلي ما محصله : هو من باب تسمية الشيء ببعضه كما تقول قرأت الحمد وتريد به جميع الفاتحة ، وكذلك تقول أيضاً مثلاً: شهدت برسالة محمد وتريد جميع ما ذكر ، والله أعلم] .

الشرح..

هذا الحديث ذكر فيه هذه الأمور الخمس ؛ قد يقول قائل: لم تُذكر في هذا الحديث أصول الإيمان الستة ، وقد علمنا أن الأعمال الظاهرة ليست مقبولة من العبد إلا إذا قامت على تلك الأصول و لم تُذكر في هذا الحديث ؛ والجواب على ذلك أن هذه الأصول داخلة في الشهادتين - شهادة أن لا إله إلا الله المتضمنة للإقرار لله تبارك وتعالى بالوحدانية في ربوبيته وألوهيته وأسماءه وصفاته - مشتملة على ذلك ، وهي تدل على توحيد العبادة مطابقة وتدل على بقية أنواع التوحيد تضمناً .

وشهادة أن محمداً رسول الله من مقتضياتها تصديقه فيما أخبر صلوات الله وسلامه عليه ، وأصول الإيمان هي أعظم ما أخبر صلى الله عليه وسلم ؛ فمن لم يصدق بهذه الأصول أو ببعضها فشهادته بأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم منخرمة وليست بصحيحة ؛ لأن من مقتضيات الشهادة له بأنه رسول الله أن يُصدّق صلوات الله وسلامه عليه في أخباره ؛ ولهذا عرفنا فيما سبق أن المسلم هو من جاء بشعائر وشرائع الإسلام الظاهرة وعنده قدر من الإيمان يصح إسلامه ، والمراد بالقدر من الإيمان الذي يصح الإسلام هو الجزم بهذه الأمور الستة دون تردد أو تشكيك . أن يكون عنده إيمان جازم . ، أما إن شك وتردد فالإيمان ينتفي لأن الإيمان لا بد فيه من انتفاء الشك كما قال سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾ وقال عليه الصلاة والسلام : « أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقي الله بهما عبداً غير شاك فيهما إلا أدخله الله الجنة » قال غير شاك فيهما ؛ فأمور الإيمان لا بد فيها من اليقين وهو انتفاء الشك ، وهذا قدر لا يقبل عمل من الأعمال إلا به ؛ فإذا وُجد شك أو ريب أو تردد أو عدم جزم بالإيمان أو بأصول الإيمان ؛ فإن الأعمال تكون باطلة ولو كثرت ؛ كما قال سبحانه وتعالى ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ ﴾ ، وكما قال جل وعلا ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ، وجاء

في آيات كثيرة ذكر الإيمان أساساً لقبول الأعمال ؛ كقوله جل وعلا ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ ، وكما قال تعالى ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ ؛ وهذا يفيد أن أعمال الإسلام الظاهرة لا تقبل عند الله سبحانه وتعالى إلا إذا كانت قائمة على اعتقاد جازم صحيح قائم في قلب المسلم .

[خامساً : أهم أركان الإسلام الخمسة بعد الشهادتين الصلاة وقد وصفها رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنها عمود الإسلام كما في حديث وصيته لمعاذ بن جبل وهو الحديث التاسع والعشرون من هذه الأربعين ، وأخبر أنها آخر ما يفقد من الدين وأول ما يحاسب العبد يوم القيامة . انظر السلسلة الصحيحة للألباني . ، وأن فيها التمييز بين المسلم والكافر . رواه مسلم وإقامتها تكون على حالتين : إحداهما واجبة وهو أدائها على أقل ما يحصل به فعل الواجب وتبرأ به الذمة ، ومستحبة وهو تكميلها وتتميمها بالإتيان بكل ما هو مستحب فيها] .

الشرح..

في هذا الحديث دلالة على مكانة الصلاة من الدين ، وأنها أعظم أركانه بعد الشهادتين ، الشهادتين هما أعظم الدين وأجلُّه على الإطلاق ويلى ذلك الصلاة التي هي عماد الدين وسيأتي معنا حديث عدّ فيه صلوات الله وسلامه عليه الصلاة عماد الدين قال : « وعموده الصلاة » فالصلاة للدين بمثابة العمود الذي يكون في وسط الخيمة ، ومن المعلوم أن الخيمة إذا نُزع منها عمودها تسقط فلا تقوم الخيمة إلا على عماد .

والإسلام لا يقوم إلا على عماد ، قد قال عليه الصلاة والسلام « وعموده الصلاة » ومن ضيع الصلاة فلا حظ له في الإسلام ، ومن أراد أن يعرف وزن الإسلام عنده فليُنظر إلى حظه من الصلاة ؛ فإن حافظ عليها ساقته إلى المحافظة على عموم الطاعة واجتناب المحرمات ؛ فالصلاة عون ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ ، وإن ضيعها فهو لما سواها أضيع ، إن ضيع عمود الدين فهو لما سواها أضيع و قد جاء في الحديث أن الصلاة ذُكرت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فقال : « من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة » ؛ نوراً : أي ضياءً ، وبرهاناً على إيمانه ، ونجاةً له يوم القيامة من عذاب الله جل وعلا ، « ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نوراً ولا برهاناً ولا نجاةً يوم القيامة » ، وجاء عنه عليه الصلاة والسلام ما يدل على كفر تارك الصلاة ، وأنها التمييز بين

المسلم والكافر ؛ قال عليه الصلاة والسلام « العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر » ؛ ولهذا لما يُسأل أهل سقر ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴾ قالوا لم نك من المصلين ﴿ ، وقال الله سبحانه وتعالى عن الكافر ﴿ فلا صدق ولا صلى ﴾ ، فترك الصلاة كفر بالله جل وعلا ، وهي للدين بمثابة العماد للبنيان وهي أول ما يُحاسِب العبد يوم القيامة ؛ وهذا دليل على المكانة العظمى والمنزلة العلية للصلاة من دين الله تبارك وتعالى .

[سادساً : الزكاة : الزكاة هي قرينة الصلاة في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم كما قال الله عز وجل ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ ، وقال ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ ، وقال ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴾ . وهي عبادة مالية ، نفعها متعدٍ ، وقد أوجبها الله في أموال الأغنياء على وجه ينفع الفقير ولا يضر الغني ؛ لأنها شيء يسير من مال كثير] .
الشرح..

الزكاة أحد أركان الإسلام ، وهي قرينة الصلاة في كتاب الله ؛ فكثيراً ما تأتي مقرونة بالصلاة مضمومة إليها ؛ يأتي الأمر بالصلاة ويُضم إليه الأمر بالزكاة ؛ مثل هذه الآيات التي مرت ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ ﴾ ﴿ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ﴾ وعرفنا مكانة الصلاة من الدين . والزكاة عبادة مالية مرتبطة بالمال وجوداً وعدماً ؛ فإذا وُجد المال وجدت ، وإذا غُدم المال غُدمت ؛ ولهذا ليست الزكاة مطلوبة من كل مسلم ؛ بل هي عبادة مطلوبة من الأغنياء الذين آتاهم الله سبحانه وتعالى المال ومنَّ عليهم بالمال .

والزكاة قدر يسير وقليل من المال يؤخذ من الأغنياء ويُرد على الفقراء ؛ ولهذا لما بعث النبي عليه الصلاة والسلام معاذاً إلى اليمن ، وأمره بدعوتهم إلى التوحيد والصلاة ؛ قال «إِنَّهُمْ أَطَاعوكَ لَدُنْكَ فَأَعْلَمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تَأْخُذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَاءِهِمْ» . وسميت الزكاة زكاةً لأن فيها زكاءً للمال ونماءً له ، وفيها تزكية لصاحب المال وتطهير له من الشح والبخل وغير ذلك من الأخلاق الذميمة ، وفيها إعانة له على البذل والعطاء وتفقد المحتاجين والفقراء ومساعدتهم بحيث يكون المجتمع المسلم مترابطاً متعاوناً يعطف أغنياءه على فقراءه ويساعدونهم بما أكرمهم الله سبحانه وتعالى به من مال وبما أمدهم الله سبحانه وتعالى به من رزق .
فالزكاة طاعة مفروضة مالية وهي إنما تجب في حق الأغنياء .

[سابعاً : صوم رمضان ؛ صوم رمضان عبادة بدنية ، وهي سر بين العبد وبين ربه ؛ لا يطلع إلا الله سبحانه وتعالى ، لأن من الناس من يكون في شهر رمضان مفطراً وغيره يظن أنه صائم ، وقد يكون الإنسان صائماً في نفل وغيره يظن أنه مفطر ؛ ولهذا ورد في الحديث الصحيح أن الإنسان يجازي بعمله الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبع مائة ضعف ؛ قال الله عز وجل إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به . رواه البخاري ومسلم ؛ أي بغير حساب ، والأعمال كلها لله عز وجل كما قال الله عز وجل ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ ، وإنما خص الصوم في الحديث بأنه لله لما فيه من خفاء هذه العبادة وأنه لا يطلع عليها إلا الله] .

الشرح..

الصوم الذي افترضه الله سبحانه وتعالى على عباده وهو ركن من أركان الإسلام ؛ هو صوم شهر واحد في السنة وهو شهر رمضان المبارك الذي أنزل فيه القرآن ، والصيام إنما هو في نهار رمضان من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ؛ هو إمساك عن الطعام والشراب والجماع وسائر المفطرات تقرباً إلى الله سبحانه وتعالى ، وقد قال عليه الصلاة والسلام « من صام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه » . فالصوم عبادة بدنية ، وهو سر بين العبد وبين الله ؛ لأن الصائم لا يعلم بصومه إلا الله جل وعلا ؛ وإلا واقع الناس قد يصوم الإنسان ويجلس مع إخوانه ولا يشعرون بصيامه ، وقد يُفطر الإنسان في نهار رمضان ويتوهم من يراه أنه صائم ؛ فالصوم سرٌّ بين العبد وبين الله .

والصلاة هي عمل يراه الناس وكذلك الحج والزكاة ؛ أما الصيام فهو سر بين العبد وبين ربه ؛ ولهذا جاء في الحديث « الصوم لي وأنا أجزي به » ، مع أن العبادات كلها لله ؛ الصلاة لله ؛ ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴾ ، والحج لله ؛ ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ ﴾ ؛ فالعبادات كلها لله ؛ فما معنى اختصاص الصوم بقول الله سبحانه وتعالى « الصوم لي وأنا أجزي به » ؟ ذلك أن الصوم سر بين العبد وبين الله تبارك وتعالى ؛ وذلك لما في هذه العبادة من الخفاء ولكونها سرٌّ بين العبد وبين الله جل وعلا .

والصوم صبر ، والصابر يوفى أجره بغير حساب ؛ لأن الصائم يصبر على منع نفسه عن

الأمر التي اعتادها وألفها سائر العام وسائر الأوقات ؛ فيتركها ويصبر طالباً ثواب ذلك عند الله ؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : « صيام شهر الصبر وثلاثة أيام من كل شهر يذهبن وحر الصدر » ، يسمى شهر رمضان شهر الصبر لأنه يدرّب الإنسان ويعوده على الصبر بأنواعه الثلاثة . الصبر على الطاعة والصبر عن المعصية والصبر على أقدار الله المؤلمة .

[ثامناً: حج بيت الله الحرام ؛ حج بيت الله الحرام عبادة مالية بدنية ، قد أوجبها الله في العمر مرة واحدة ، وبين النبي فضلها بقوله صلى الله عليه وسلم « من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق ؛ رجع كيوم ولدته أمه » رواه البخاري ومسلم .

وقال صلى الله عليه وسلم « العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور له جزاءٌ إلا الجنة » . رواه مسلم] .

الشرح..

هذا الركن الخامس من أركان الإسلام وهو حج بيت الله الحرام ، وهو عبادة مالية بدنية ، يشترك في هذه العبادة المال والبدن ؛ فالبدن يعمل وأيضاً يُنفق في هذه العبادة ، وهو لا يجب على العبد في حياته إلا مرة واحدة على المستطيع كما قال عليه الصلاة والسلام « الحج مرة فمن زاد فهو تطوع » وهو لا يجب على العبد في حياته إلا مرة واحدة على المستطيع ، وقال تعالى ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ . والحج فيه ثمار وآثار عظيمة لا يعلمها إلا الله ؛ قد الله سبحانه وتعالى ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ؛ فالحج فيه من المنافع والفوائد والآثار ما لا يحصى إلا الله سبحانه وتعالى ، منافع دينية ودنيوية . وفي الحج تربية على الإيمان والتوحيد والاستتابة لله تبارك وتعالى ، ومحافظة على الفرائض والواجبات ، وبعد عن الآثام والمحرمات ﴿ الْحُجَّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ ﴾ ، والحج يذكر بيوم القيامة ويذكر بالعرض على الله سبحانه وتعالى ، ويذكر بمغادرة الدنيا وترك الأهل والأولاد ، وفيه من المنافع والفوائد والعبر والعظات ما لا يحصى ؛ هو عبادة مفروضة على العبد في عمره كله مرة واحدة ، ويترتب على هذه العبادة من الفوائد غفران الذنوب والعق من النار والفوز بالجنة « الحج المبرور ليس له جزاءٌ إلا الجنة » ، « ومن حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه

« ، « ولله عتقاء من النار عشية عرفة » ، جاء من حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم « ما من يوم طلعت عليه الشمس أفضل من يوم عرفة ، وإن الله ليدنوا ويباهي بهم ملائكته فيقول عز وجل " ما أراد هؤلاء " » ؛ وهذا دليل على أن الله غفر لهم ؛ لأن الله لا يباهي بأهل الذنوب .

فالشاهد أن الحج فيه غفران الذنوب وفيه العتق من النار وفيه الفوز بالجنة « الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » ؛ فهو طاعة عظيمة وعبادة جليلة يغتبط غاية الاغتباط من أكرمه الله سبحانه وتعالى بها ، وإذا رأيت حب المسلمين في العالم لهذه العبادة وحرصهم عليها ترى من ذلك عجباً ، ولعلك تشاهد في الحجيج أناس طاعنين في السن ، وبعضهم يأتي به ابنه البار يحمله لا يستطيع حراكاً ليؤدي هذه الفريضة العظيمة وليجن ثمارها وآثارها العظيمة المباركة ؛ وهذا مما يدل على جمال هذا الدين وعظمته وكماله وعظم آثاره وفوائده .

[تاسعاً: هذا الحديث بهذا اللفظ جاء فيه تقديم الحج على الصوم وهو بهذا اللفظ أورده البخاري في أول كتاب الإيمان من صحيحه ، وبنى عليه ترتيب كتاب الجامع الصحيح ؛ فقدم فيه كتاب الحج على كتاب الصيام ، وقد ورد الحديث في صحيح مسلم بتقديم الصيام على الحج ، وتقديم الحج على الصيام ، وفي الطريق الأولى تصريح بن عمر رضي الله عنهما بأن الذي سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم تقديم الصوم على الحج ، وعلى هذا يكون تقديم الحج على الصوم في بعض الروايات من قبيل تصرف بعض الرواة والرواية بالمعنى ، وسياقه في صحيح مسلم عن بن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « بني الإسلام على خمسة على أن يوحد الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان والحج فقال رجل الحج وصيام رمضان قال لا صيام رمضان والحج » هكذا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم] .

الشرح..

هذه الرواية في الحديث بتقديم الحج على الصيام هي رواية جاءت في صحيح البخاري واعتمدها الإمام النووي في كتابه الأربعين ، وقد جاءت روايات بتقديم الصيام على الحج وهو الصحيح ، وابن عمر رضي الله عنهما صح عنه لما روى الحديث أن رجلاً قال له : الحج وصيام رمضان ؟ . يعني الحج هو المقدم . ؛ فقال بن عمر : لا ؛ صيام رمضان والحج هكذا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فالمسموع من الرسول عليه الصلاة والسلام هو تقديم الصيام على الحج ، فيكون ما جاء في هذه الرواية التي قدم فيها الحج على الصيام من تصرف الرواة ، ومن الرواية

بالمعنى وإلا فالصيام هو المقدم . ومَرَّ أيضاً في حديث جبريل قَدَّمَ الصيام ، والصيام فُرض قبل الحج ؛ فالصيام فُرض في السنة الثانية الهجرة ، والحج فُرض في السنة التاسعة من الهجرة ؛ فالصيام مقدم على الحج .

[عاشراً: هذه الأركان الخمسة وردت في الحديث مرتبة حسب أهميتها ؛ وبُدأ فيها بالشهادتين اللتين هما أساس لكل عمل يُتقرب به إلى الله عز وجل ، ثم بالصلاة التي تتكرر في اليوم والليلة خمس مرات ، فهي صلة وثيقة بين العبد وبين ربه ، ثم الزكاة التي تجب في المال إذا مضى عليه حول ؛ لأن نفعها متعدد ، ثم الصيام الذي يجب شهراً في السنة ، وهو عبادة بدنية نفعها غير متعدد ، ثم الحج الذي لا يجب في العمر إلا مرة واحدة] .

الشرح..

هذه الأركان الخمسة وردت في الحديث مرتبة حسب الأهمية ، وأيضاً مرتبة حسب نزولها وفرضها على العباد لأن أول ما فُرض على النبي عليه الصلاة والسلام حين بُعث التوحيد ؛ فأنزل الله جل وعلا عليه ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ ﴾ ﴿ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ ﴿ وَرَبِّكَ فَكْبِرْ ﴾ ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ ، ثم بقي الأمر على هذه الفريضة عشر سنوات . لم يفرض شيء آخر . ، وبعد عشر سنوات من فرض التوحيد فرضت الصلاة ، ثم بعد ذلك بخمس سنوات . السنة الثانية من الهجرة . فرضت الزكاة وفرض الصيام ، ثم بعد ذلك بخمس سنوات . في السنة التاسعة من الهجرة . فرض الحج ، فهذه الخمس المباني للإسلام مرتبة حسب أهميتها وحسب افتراضها على العباد ؛ والافتراض راجع للأهمية ، وأعظم هذه الأركان الشهادتان وبه بدأ ، ثم يليه الصلاة وهي عمود الدين وأول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة وهي عبادة بدنية ، ثم الزكاة وهو عبادة مالية ، ثم الصيام عبادة بدنية وهي سر بين العبد وبين الله جل وعلا ، ثم الحج وهو عبادة مالية بدنية تجب في العمر كله مرة واحدة .

[أحد عشر: ورد في صحيح مسلم أن ابن عمر رضي الله عنهما حدَّث بحديث إنما سأله رجل فقال له ألا تغزو ثم ساق الحديث ؛ وفيه إشارة إلى أن الجهاد ليس من أركان الإسلام وذلك أن هذه الخمس لازمة باستمرار لكل مكلف ؛ بخلاف الجهاد فإنه فرض كفاية ولا يكون في كل

وقت] .

الشرح..

ابن عمر رضي الله عنهما في روايته لهذا الحديث مناسبة وهي أن قائلاً قال له : ألا تغزو ؟ - أي ألا تشارك بالغزو - فقال « بُني الإسلام على خمس » ؛ استدل بهذا الحديث على أن الجهاد ليس من أركان الإسلام ، وأن أركان الإسلام هي هذه الخمسة ، وأنه من فروض الكفاية ؛ أما هذه الخمس فهي مفروضة على الجميع وباستمرار في ضوء البيان السابق المتعلق بهذه الفرائض ، استدل ابن عمر بهذا الحديث على أن الجهاد ليس من أركان الإسلام وأن أركان الإسلام إنما هي هذه الخمس المذكورة في الحديث .

قال : [مما يستفاد من هذا الحديث :

أولاً : بيان أهمية هذه الخمس بكون الإسلام بُني عليها .

ثانياً : تشبيه الأمور المعنوية بالحسية لتقريبها للأذهان .

ثالثاً : البدء بالأهم فالأهم .

رابعاً : أن الشهادتين أساس في نفسيهما وهما أساس لغيرهما ؛ فلا يقبل عمل إلا إذا بني عليهما .

خامساً : تقديم الصلاة على غيرها من الأعمال لأنها صلة وثيقة بين العبد وبين ربه

والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

* . *



شرح الأربعين النووية

لأبي زكريا يحيى بن شرف الحزامي النووي رحمه الله

من الدرس السابع إلى الدرس التاسع

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما الله تعالى

١٤٤٠/٠٥/٢٢ هـ

الدرس السابع

الحديث الرابع

عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يُرسل إليك الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه وعمله وأجله وشقي أو سعيد فوالله الذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها"

رواه البخاري ومسلم

شرح الشيخ :

هذا الحديث حديث عظيم في أمر غيبي من أمور الإيمان أخبر به النبي عليه الصلاة والسلام ؛ ولهذا صَدَّرَ الصحابي الجليل بن مسعود روايته للحديث بقوله حدثنا الصادق المصدوق ؛ لأن الحديث الذي سيرويه عن النبي صلى الله عليه وسلم يتعلق بأمر غيبي أخبر عنه عليه الصلاة والسلام ، وهو صادق مصدوق لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ، صادق عليه الصلاة والسلام فيما يقوله وفيما يرويه وفيما ينقله وفيما يخبر به صلوات الله وسلامه عليه فأخباره كلها صدق لأنها وحي من الله ، وأحكامه كلها عدل ، وهو مصدوق ومؤيد من الله جل وعلا .

الحديث فيه بيان لأطوار خلق الإنسان ، وأنه تكون أول ما تكون من نطفة استقرت في رحم الأنثى ، ثم بدأت في الرحم في أطوار يتكون من خلالها الجنين ؛ فتكون نطفة ثم تكون علقة ثم تكون مضغة ثم بعد ذلك ينفخ فيه الروح ، ثم يُكتب على هذا الإنسان وهو في رحم أمه ما سيعمله وما سيطعمه وموعد وفاته .. ؛ كل ذلكم يُكتب عليه قبل أن يخرج إلى هذا الوجود ويرى هذه الدنيا .

ثم بين في تمام الحديث أقوال الناس من حيث الخواتيم ؛ إنما تكون بما سبق للإنسان في الكتاب الذي كُتب عليه ؛ فإن سبق له في الكتاب ؛ خيراً حُتم له بخير ، وإن سبق له في الكتاب الموت على الشقاوة والعياذ بالله ؛ حُتم له بهذه الخاتمة .

الحديث حديثٌ عظيم في باب الإيمان بالقدر ، وأن الأمور كلها بتقدير الله وبقضائه سبحانه وتعالى ، وأن أعمال العباد وأرزاقهم وآجالهم ؛ كل ذلكم كُتب ؛ كُتب أولاً في اللوح المحفوظ قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكُتب ثانياً على كل إنسان بعينه في رحم أمه ، والأول يسميه العلماء التقدير العام ، وهذا يسميه أهل العلم التقدير العمري - أي الذي يتعلق بعمر كل إنسان من حين أن يخرج إلى هذه الدنيا إلى أن يغادر هذه الدنيا - ، وهناك تقدير آخر وهو التقدير السنوي الذي يكون في ليلة القدر ؛ كما قال سبحانه وتعالى { فيها يفرق كل أمر حكيم } ؛ أي يُكتب كل ما هو كائن إلى ليلة القدر من العام القادم . وكذلك التقدير اليومي ؛ يقول تعالى { كل يوم هو في شأن } ؛ يحي ويميت ، ويعز ويذل ، ويعطي ويمنع ، ويهدي ويضل ؛ الأمر بيده جل وعز .

وحديث بن مسعود حديث عظيم في هذا الأمر الغيبي ، ومن خصائص أهل الإيمان وأبرز صفاتهم الإيمان بالغيب كما ذكرت صفاتهم هذه في أول القراءان ؛ يقول تعالى { هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب } ؛ أي الذين يؤمنون بكل ما غاب عنهم مما أخبرتهم به رسل

الله ؛ لأن الرسل لا يقولون إلا ما هو وحي من الله ، ومما اتفقت عليه كلمة المرسلين الإيمان بالقدر ؛ فهذا أصل ثابت وعقيدة مستقرة لدى جميع الأنبياء ؛ فكل نبي دعى أمته إلى الإيمان بالقدر ، وبيّن لأمته أن الأمور كلها بقدر الله ، وأن ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن .

وأمر العقيدة أمور مستقرة وثابتة ومتفق عليها بين الأنبياء ، فلا خلاف بين نبي وآخر في شيء من أمور الاعتقاد وإنما يختلف الأمر بينهم في الشرائع والأحكام {لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً} ؛ ولهذا قال نبينا عليه الصلاة والسلام " نحن الأنبياء أبناء علات ديننا واحد وأمهاتنا شتى " ؛ ديننا واحد أي عقيدتنا واحدة .

فالإيمان بالقدر عقيدة مستقرة وثابتة ودعى إليها كل نبي بعثه الله ، وهي من الإيمان بالغيب لأن القدر أمرٌ مغيب ، وكما قال بعض السلف : " سر الله في خلقه " ، والله جل وعلا على كل شيء قدير ، ومحيط علمه سبحانه وتعالى بكل شيء ومشيتته جل وعلا نافذة ، وهو الخالق لكل شيء ، ولا رب سواه سبحانه وتعالى .

حديث بن مسعود حديثٌ عظيم ؛ عندما يقرأه المسلم متأملاً مضامينه ، متدبراً دلالاته مؤمناً بما جاء به ؛ يحصل له من هذا الحديث أثرٌ مبارك بقوة الرجاء بالله والخوف منه سبحانه وتعالى ، وقوة التعلق بالله والتوكل على الله جل وعلا ، إلى غير ذلك من الثمار والآثار التي تجنى من هذا الحديث المبارك .

قال الشيخ عبد المحسن العباد حفظه الله تعالى في شرح هذا الحديث :

[قوله وهو الصادق المصدوق : معناه الصادق في قوله المصدق فيما جاء به من الوحي ، وإنما قال بن مسعود هذا القول لأن الحديث عن أمور الغيب التي لا تُعرف إلا عن طريق

الوحي] .

شرح الشيخ :

لما كان الحديث يتعلق بأمر غيبي وهو من أمور الإيمان التي يُؤتمن فيها المخبر ، وإذا لم يكن مؤتمناً لا يكون هناك ثقة بما يخبر به ، وربما بقيت النفس شاكةً أو مترددة في قبول الخبر والتسليم ، ولكن إذا كان الخبر الغيبي وارد عن صادق مصدوق لا ينطق عن الهوى فإن النفوس المؤمنة تقبل ذلك بلا تردد ، وتصديق بذلك دون ارتياب ؛ وهذا إنما يكون لأهل الإيمان الذين قال عنه الله سبحانه وتعالى {إنما المؤمنون الذين ءامنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا} ، أما من في قلبه زيغ وعنده ضلال فرما لم يقبل هذا الحديث ، وربما تجرأ على رده أو صرفه عن مدلوله وحقيقته كما يصنع ذلك أرباب الضلال من نفاة القدر وغيرهم من الضالين .

قال : [ثانياً قوله يُجمع خلقه في بطن أمه ؛ قيل يُجمع ماء الرجل مع ماء المرأة في الرحم فيخلق منهما الإنسان كما قال الله عز وجل {خلق من ماء دافق} ، وقال {ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرار مكين} ؛ والمراد بخلقه ما يكون منه خلق الإنسان ، وقد جاء في صحيح مسلم " ما من كل مني يكون الولد "] .

شرح الشيخ :

بدأ النبي صلى الله عليه وسلم هذا الحديث بقوله " إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه " ؛ يجمع خلقه : المراد بخلقه أي ما يكون به خلقه من النطفة التي تخرج من الرجل وتستقر في رحم الأنثى فيمتزج ماءه بمائها ، ومن المائتين يتكون الجنين في بدء أطواره ، وليس تكون الجنين من كل الماء ولكنه يتكون من بعضه كما قال عليه الصلاة والسلام " ما من

كل المني يكون الولد " ، فالله عز وجل إذا قدر خلق جنين في الرحم عندما يستقر الماء في رحم الأنثى ويمتزج ماءه بمائها ؛ إن شاء الله خلق جنين من هذين المائين خلق بتقديره جل وعلا ؛ ولهذا قال جل وعلا { ألم نخلقكم من ماء مهين } ، وقوله { خلق من ماء دافق } . والإنسان خلق من ماء أو من مجموع من مائين ..

وثمة ملحوظة هنا ذكره أهل العلم لمن أصيب بكبر أو غرور أو خيلاء أو نحو ذلك عندما يذكر أصله وأساس خلقه يجد أنه قد خرج من مخرج البول مرتين ؛ مرة نطفة من مخرج بول أبيه ، ومرة إنساناً سوياً من مخرج بول أمه ؛ فعلام يتكبر وعلام يغتر وعلام يُصاب بعجب !! ولهذا المغرور المتكبر لا يعرف أصله ولا يعرف حقيقة نفسه وإلا لو تأمل في حقيقة نفسه وتفكر لوجد أن أوله نطفة وآخره جيفة في قبره تأكله الديدان ، ثم هو في هذه الحياة يحمل في بطنه العذرة؛ فلم الكبر ولم الغرور؟

وهذا من الفوائد التربوية التي يجنيها المتأمل في هذا الحديث العظيم .

إن أحدكم يجمع خلقه : عرفنا أن المراد بخلقه أي ما يكون منه الخلق من المائين - ماء الرجل وماء المرأة - ، وعرفنا أنه ليس من كل المني يكون الولد كما أخبر ذلك الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ؛ فقلوله صلى الله عليه وسلم يجمع خلقه أي يجمع ماء الرجل مع ماء المرأة فيخلق منهما الإنسان ؛ أي من مجموع هذين المائين .

قال : [في هذا الحديث ذكر أطوار خلق الإنسان أولاً النطفة وهي ماء مهين ، وثانياً العلقة وهي دم غليظ متجمد ، وثالثاً المضغة وهي قطعة من اللحم على قدر ما يمضغه الأكل ؛ وقد ذكر الله هذه الثلاث في قوله لَمَّا رَآهَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا

خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة}، ومعنى مخلقة وغير مخلقة : مصورة وغير مصورة ، وأكثر ما جاء فيه بيان أطوار خلق الإنسان قول الله عز وجل {ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقه فخلقنا العلقه مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً} .

شرح الشيخ :

هذا الحديث اشتمل على أطوار خلق الإنسان في الرحم ، وبين فيه النبي عليه الصلاة والسلام أن خلق الإنسان إنساناً سوياً يمر قبل ذلك بمراحل ؛ قال عليه الصلاة والسلام في بيانها " إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة " ؛ والمعنى أن النطفة التي تستقر في قرار مكين - الذي هو رحم الأنثى - تبقى على هذه الحال أربعين يوماً ، وهذه المرحلة الأولى ، ثم تعقبها مرحلة أخرى تستمر أربعين يوماً ؛ وفيها يقول عليه الصلاة والسلام :

" فيكون علقه مثل ذلك " ؛ أي تتحول النطفة - التي هي من المني - ؛ تتحول إلى علقه ، والعلقه هي قطعة صغيرة ويسيرة جداً من الدم المتجمد ، وتبقى على هذه الحال أربعين يوماً ؛ وهذا معنى قوله " ثم يكون علقه مثل ذلك " ، قال " ثم يكون مضغة مثل ذلك " ؛ أي تتحول بعد الأربعين الثانية أي الثمانين يوم ؛ تتحول إلى مضغة ، والمضغة هي القطعة الصغيرة من اللحم بقدر ما يعضغ في الفم - وهذا بيان لأنها قطعة صغيرة - وتبقى على هذه الحال أربعين يوماً ، يتم له بعد ذلك مائة وعشرين يوم أي أربعة أشهر ، وحينئذ يُرسل إليه الملك..

هذه الثلاث - نطفة ثم علقه ثم مضغة - ذكرت في قوله سبحانه وتعالى {يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث} أي في شك وعدم إيمان ؛ {فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة

ثم من علقه ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة { أي مصورة وغير مصورة ؛ فذكر هذه الثلاث دليلاً على البعث ، أي أن الذي خلق الإنسان في هذه الأطوار وأوجده جل وعلا ولم يكن الإنسان شيئاً مذكوراً ؛ قادرٌ على إعادته وبعثه يوم القيامة ؛ فهذا من البراهين والدلائل الواضحات على البعث والنشور . وفي سورة المؤمنون ذُكرت أطوار خلق الإنسان إلى أن أصبح إنساناً سوياً في أجمع آية لأطوار خلق الإنسان ؛ وهي أطوار سبعة اجتمعت في هذه الآية ؛ قال جل وعلا { ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين } ، والمراد بالإنسان هنا آدم ؛ لأن آدم خلق من طين - أي باعتبار أصله - ، وذريته مخلوقة من الماء المهيّن ، ويُقال الإنسان مخلوق من طين باعتبار أن أصل بني آدم من تراب ؛ مثل ما قال عليه الصلاة والسلام في خطبة الوداع " كلكم من آدم وآدم من تراب ، ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا عجمي على عربي إلا بالتقوى " .

قال : { ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين } ؛ هذا الطور الأول ، { ثم جعلناه نطفة في قرار مكين } ؛ هذا الطور الثاني ، { ثم خلقنا النطفة علقة } ؛ هذا الطور الثالث ، وعرفنا أن العلقه هي القطعة اليسيرة من الدم المتجمد ، قال { فخلقنا العلقه مضغة } ؛ هذا الطور الرابع ؛ أي أن العلقه تتحول إلى قطعة صغيرة من اللحم بقدر ما يمضغ في الفم ، قال { فخلقنا المضغة عظاماً } ؛ هذا الطور الخامس ، هذه المضغة هذه القطعة التي هي لحمٌ تتحول إلى شيء صلب ؛ وهو العظام ، قال { فكسونا العظام لحماً } ؛ هذا الطور السادس ، { ثم أنشأناه خلقاً آخر } ؛ أي إنساناً سوياً له يداً وقدمان وسمع وبصر .. إلى غير ذلك من ما خلق الله جل وعلا الإنسان عليه ، { فتبارك الله أحسن الخالقين } ، جاء عن بن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقول " خُلِقَ بن آدم من سبع " ، ثم يتلو هذه الآية من سورة المؤمنون ، وقوله " من سبع " : أي سبعة أطوار ، وهذه الأطوار السبعة كلها جاءت مجمعة في هذه الآيات من سورة المؤمنون .

قال : [رابعاً : في الحديث أنه بعد مضي هذه الأطوار الثلاثة وعدها مائة وعشرون يوماً تنفخ فيه الروح ويكون إنساناً حياً ، وقبل ذلك هو ميت ، وقد جاء في القرآن الكريم أن الإنسان له حياتان وموتتان كما قال الله عز وجل عن الكفار لم قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين } ؛ فالموتة الأولى ما كان قبل نفخ الروح ، والحياة الأولى من نفخ الروح إلى بلوغ الأجل ، والموتة الثانية من بعد الموت إلى البعث ، وهذه الموتة لا تنافي الحياة البرزخية الثابتة في الكتاب والسنة ، والحياة الثانية الحياة بعد البعث ، وهي حياة دائمة ومستمرة إلى غير نهاية ، وهذه الأحوال الأربع للإنسان بينها الله في قوله لم وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم إن الإنسان لكفور } وقوله لم كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون } ، وإذا مٌولد بعد نفخ الروح فيه ميتاً تجري عليه أحكام الولادة من تكفينه والصلاة عليه وخروج العدة وكون الأمة أم ولد ، وكون أمه نفساء ، وإذا سقط قبل ذلك لا تجري عليه هذه الأحكام] .

شرح الشيخ :

هذا الحديث ذكر فيها النبي عليه الصلاة والسلام الأطوار التي يمر بها الإنسان كما تقدم ، وعرفنا أن من هذه الأطوار أطوار ثلاثة وهي : النطفة المستقرة في الرحم لمدة أربعين يوماً ، ثم يلي ذلك طور آخر وهو تحول هذه النطفة إلى علقة لمدة أربعين يوماً ، ثم تحول هذه العلقة إلى مضغة لمدة أربعين يوماً ؛ فيكون بذلك تم له مائة وعشرون يوماً أي أربعة أشهر ، بعد تمام هذه المدة ينفخ فيه الروح ، يرسل إليه الملك ويؤمر بأن ينفخ فيه الروح ، فإذا نفخ فيه الروح دبت فيه الحياة ؛ ولهذا حياة الإنسان تبدأ في الرحم بعد مائة وعشرون .

وإذا تأملنا نجد أن الإنسان في بطن أمه جُمع له بين موت وحياة ؛ كان أولاً غير حي . ميت . ثم نفخت فيه الروح فأصبح شيئاً حياً ، وعندما تنتزع منه هذه الروح في آخر حياته يصبح ميتاً ؛ ولهذا الإنسان من حيث الحياة والموت له ميتتان وحياتان ؛ مودة وهو في رحم أمه قبل

أن ينفخ فيه الروح ، ثم بعد ذلك ينفخ فيه الروح فيصبح حياً إلى أن تقبض روحه ، ومنهم من تُقبض روحه قبل أن يخرج من الرحم بلحظات ، ومنهم من تقبض روحه وهو يخرج من الرحم ، ومنهم من يعيش أياماً قلائل ثم تُقبض روحه ، ومنهم يمتد عمره إلى ما كتب الله له من حياة .. ، فإذا موتة ثم حياة ، فإذا قبضت روحه دخل في عداد الموتى ، ثم بعد ذلك عندما ينفخ في الصور ؛ تعاد الروح إليه ويحيى الحياة الأبدية إما في سعادة ونعيم أو في عذاب وجحيم نسأل الله العافية ؛ فكل إنسان له موتتان وحياتان ؛ ولهذا قال الله عز وجل عن الكفار { قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين } ؛ الموتة الأولى قبل نفخ الروح والثانية قبل نزع الروح ، والحياتان : الأولى بعد النفخ في الروح ، والثانية بعد النفخ في الصور؛ ومثل ذلك ما جاء في قوله تبارك وتعالى { وهو الذي أحياكم ثم يميتكم } ؛ أحياكم : أي بعد أن كنتم أمواتاً لأنه كان ميتاً لا حياة فيه ، { ثم يميتكم ثم يحييكم إن الإنسان لَكفور } ، كذلك قوله سبحانه وتعالى { كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً } ؛ أي عندما كان الإنسان في الرحم قبل أن ينفخ فيه الروح ، { ثم أحياكم } أي بنفخ الروح في الإنسان عندما كان جنيناً في رحم الأم ، { ثم يميتكم } أي بقبض الأرواح ، { ثم يحييكم } أي بعد النفخ في الصور ، فهذه موتتان وحياتان كتبها الله سبحانه وتعالى على الإنسان .

ومن الأحكام المستفادة هنا أن الجنين إذا وُلد بعد نفخ الروح فيه ميتاً بعد أن يكون أكمل مائة وعشرين يوماً ؛ تجري عليه أحكام الولادة المعروفة ؛ ومنها أنه يغسل ويصلى عليه ، أما إذا سقط قبل ذلك أي قبل مرحلة نفخ الروح ؛ فلا تجري عليه هذه الأحكام .

قال : [خامساً بعد كتابة الملك رزقه وأجله وذكر أو أنثى وشقياً أو سعيداً ؛ لا تكون معرفة الذكورة والأنوثة من علم الغيب الذي يختص الله تبارك وتعالى به ؛ لأن الملك قد علم ذلك ، فيكون من الممكن معرفة كون الجنين ذكراً أو أنثى] .

شرح الشيخ :

مفتاح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله ، ومن هذه الخمس { يعلم ما في الأرحام } ؛ فهذا مما اختص الله تبارك وتعالى بعلمه ، وأورد بعض الناس إشكالاً فقالوا الآن مع الطب الحديث وأجهزة الأشعة ؛ أصبح من الممكن معرفة الجنين أهو ذكر أو أنثى وهو لا يزال في رحم الأم ؛ فأشكل ذلك على بعض الناس من جهة أن الآية تدل على اختصاص الله تبارك وتعالى بعلم ما في الأرحام ، وهذا الحديث - حديث بن مسعود - فيه جواب على هذا الإشكال و الإيراد ؛ لأن الملك عندما يؤمر بنفخ الروح فيه يؤمر بكتب أربع كلمات ؛ بكتب رزقه وأجله وذكر أو أنثى وشقي أو سعيد ، فيكون في هذه المرحلة والإنسان لا يزال جنيناً يكون الملك على علم به ، بل يكون على علم بتفاصيل أخرى تتعلق بهذا الجنين ؛ فأصبح الملك على علم بذلك ، فيكون المراد بالآية { يعلم ما في الأرحام } ؛ أي في المرحلة التي قبل ذلك أما هذه المرحلة فالحديث على أن الملك يعلم ؛ فلا إشكال لو قيل أن الطب يعرف هل هو ذكر أم أنثى

قال : [سادساً أن قدر الله سبق بكل ما هو كائن وأن المعتبر بالسعادة والشقاوة ما يكون عليه الإنسان عند الموت] .

شرح الشيخ :

قدر الله سبق بكل ما هو كائن : لأن النبي صلى الله عليه وسلم أقسم بالله قال : " فوالله الذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع " أي مسافة قليلة جداً ، " فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها " ، فإذا تكرّر قول النبي عليه الصلاة والسلام " يسبق عليه الكتاب "

فيمَن يكون من أهل الجنة وفيمن يكون من أهل النار ؛ وهذا يفيد أن قدر الله سابق بكل ما هو كائن ، وقدر الله سابق بأهل الجنة وأهل النار ولهذا قال في الحديث " فيسبق عليه الكتاب " ؛ ولهذا يشتد خوف السلف من السوابق والخواتيم أي ما سبق لهم في الكتاب وبما يختم للإنسان ؛ هل يختم له بكلمة الشهادة فيكون من أهل السعادة ، أو بغير ذلك فيكونوا من أهل الشقاوة ، يقول تعالى {إن الذين سبقتم من الحسنى أولئك عنها مبعدون} أي سبق فيما علمه الله جل وعلا من مثاله وما كتبه الله سبحانه وتعالى عليه وما قدره له ، والخواتيم أي ما يختم للإنسان به ، والأعمال بالخواتيم ، ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة .

فمن فوائد هذا الحديث أن قدر الله جل وعلا سابق بكل ما هو كائن ، علم الله ذلك في الأزل وكتب ذلك سبحانه وتعالى في اللوح المحفوظ قبل خلق الناس بخمسين ألف سنة وقبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ؛ قال صلى الله عليه وسلم كما جاء في صحيح مسلم " كل شيء بقدر حتى العجز والكيس " ، وجاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال " كل شيء بقدر حتى وضعك كفك في ذقنك " ، فكل ما هو كائن سبق في علم الله وأيضاً كُتب في اللوح المحفوظ { إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير } .

وأيضاً من فوائد الحديث أن الاعتبار في السعادة والشقاوة ما يكون عليه الإنسان عند الموت ، قد يكون الإنسان حياته كلها على الكفر ، ثم يشرح الله صدره للإسلام ، ولا يعيش في الإسلام إلا لحظات قلائل ، والعكس ؛ قد يكون الإنسان على الإسلام ثم يرتد ويموت مرتداً والعياذ بالله ؛ فالعبرة في السعادة والشقاوة بالخواتيم .

قال : [سابعاً أحوال الناس بالنسبة للبدايات والنهايات أربع :

من بدايته حسنة ونهايته حسنة .

الثانية من كانت بدايته سيئة ونهايته سيئة .

الثالثة من كانت بدايته حسنة ونهايته سيئة كالذي نشأ على طاعة الله وقبل الموت ارتد عن الإسلام ومات على الردة .

الرابعة من بدايته سيئة ونهايته حسنة كالسحرة الذين كانوا مع فرعون الذين ءامنوا برب هارون وموسى ، وكاليهودي الذي يخدم النبي صلى الله عليه وسلم وعاده النبي صلى الله عليه وسلم في مرضه وعرض عليه الإسلام فأسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم " الحمد لله الذي أنقذه من النار " وهو في صحيح البخاري ، والحالتان الأخيرتان دل عليهما هذا الحديث] .

شرح الشيخ :

أحوال الناس بالنسبة للبدايات والنهايات أربع :

الحالة الأولى : من بدايته حسنة ونهايته حسنة ؛ يعني ولد على الإسلام ونشأ على الإسلام ومات على الإسلام ؛ فالبداية والنهاية عنده حسنة .

الحالة الثانية : من بدايته سيئة ونهايته سيئة ؛ يكون أبواه يهوديان أو نصرانيان ؛ فهو داه أو نصرّاه أو مجّساه أو غير ذلك ؛ فنشأ من بدايته على الكفر بالله سبحانه وتعالى ، وبقي على هذه الحال إلى أن مات ؛ فالبداية سيئة ونهايته سيئة من حيث أنه نشأ على الكفر ومات عليه .

الحالة الثالثة : من كانت بدايته حسنة ؛ أي نشأ مسلماً وبين أبوين مسلمين وفي مجتمع مسلم ونشأ على الإسلام ، ثم في نهاية المطاف ارتد ومات على الردة ؛ فهذا بدايته حسنة ونهايته سيئة ، وقد قال عليه الصلاة والسلام " إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها " ؛ فهذا

بدايته حسنة ونهايته سيئة .

الحالة الرابعة : من كانت بدايته سيئة ونهايته حسنة بحيث يكون وُلد بين أبوين كافرين في مجتمع كافر فينشأ على الكفر سواء كان كفره تهوداً أو تنصراً أو تمجساً أو غير ذلك ؛ ثم تكون نهايته حسنة بأن يكتب الله سبحانه وتعالى له هداية يموت عليها ، يهتدي للإسلام ويموت على الإسلام ؛ وهذا كثير والأول قليل ؛ أي كون البداية سيئة والنهاية حسنة هذا كثير ، وكون البداية حسنة والنهاية سيئة هذا قليل .

ومن بدايتهم سيئة ونهايتهم حسنة هم من شرح الله صدورهم من الكفار ، وأحياناً شرح الصدر للإسلام يكون قبل موت الإنسان بأيام أو ساعات قلائل مثل الذي كان يخدم النبي وكان نصرانياً ؛ فعاده النبي عليه الصلاة والسلام في مرضه الذي مات فيه وعرض عليه الإسلام وأسلم ومات ؛ فحمد الله عليه الصلاة والسلام على إسلامه لأن إسلامه نعمة قال

" الحمد لله الذي أنقذه من النار " ، وكذلك السحرة الذين جمعهم فرعون ، وهم أهل سوء وشر في نشأتهم وبداياتهم وحياتهم ، وهم عدد كبير ، ولما رأوا الآية التي أجراها الله سبحانه وتعالى على يد نبيه موسى عليه السلام آمنوا أجمعين ، والسحرة من شرار الخلق وأسوأهم وأشدّهم ارتباطاً بالشياطين ؛ ومع ذلك أسلموا أجمعين وكتب الله لهم الهداية أجمعين .

والهداية منه الله جل وعلا على من شاء عباده { أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه } ، فالهداية بيد الله جل وعلا { يهدي من يشاء ويضل من يشاء } . أذكر قصة عن أحد الحاضرين ، ترك ورقة ذكر فيها أن جدته كانت على الكفر إلى أن جاوزت التسعين ، يقول ومن سنوات طويلة نحاول معها ونجتهد معها على الإسلام فتأبى ، يقول : وقبل أيام قلائل هداها الله إلى الإسلام ، وماتت بعد إسلامها بثلاث أيام ؛ وهذا يستفاد منه فائدة في باب الدعوة إلى الله أن المريض من الكفار لا يئأس الإنسان من هدايته ؛ فقد تكون هدايته في مرض موته ؛ ولهذا أعرف بعض الدعاة في بعض الدول خصص نفسه في

دعوة المرضى وأخبر أن عدداً من المرضى من الكفار أسلموا وماتوا ؛ عرفوا الإسلام وآمنوا به ونطقوا بالشهادتين وماتوا ؛ فلا ييأس الإنسان ويقول أنه مريض ، ومادام أنه تسعين سنة .. ؛ فيبذل الإنسان السبب ولا ييأس فإذا كتب الله الهداية ولو لم يبق من حياته إلا ساعات هداه الله إلى الإسلام ، ثم إذا دعوته وهداه الله تحمد الله بهذا الذي حمده النبي صلى الله عليه وسلم " الحمد لله الذي أنقذه من النار " .

فالحديث يفيد فائدة عظيمة وهو أن الإنسان لا ييأس مهما كانت شدة كفر من يدعى ومهما كان امتداده في الكفر يُكتب له هداية ولو في اللحظات الأخيرة من عمره .

قال : [ثامناً دل الحديث على أن الإنسان يعمل العمل الذي فيه سعادته أو شقاوته بمشيئته وإرادته وأنه بذلك لا يخرج عن مشيئة الله وإرادته ، وهو مخير باعتبار أنه يعمل باختياره ، ومسير بمعنى أنه لا يحصل منه شيء لم يشأه الله ، وقد دل على الأمرين ما جاء في هذا الحديث من أنه قبل الموت يسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة أو يعمل بعمل أهل النار]

شرح الشيخ :

هذا الحديث دلّ على أن الإنسان يعمل العمل الذي فيه سعادته أو شقاوته بمشيئته ؛ بمعنى أن الإنسان ليس مجرداً من المشيئة ، ليس كما يقوله طائفة من الضلال ؛ يقولون أن الإنسان مجبور على فعل نفسه ، ويقولون أن الإنسان كورقة في مهب الريح ؛ أي مجبور على ما يفعله ولا اختيار له ؛ فهذا كلام باطل لأن النصوص دلت على أن الإنسان له مشيئة بما يعمل ، وحديث بن مسعود نُص فيه على ذلك لأنه قال " يعمل بعمل أهل الجنة " ، وقال في الآخر " فيعمل بعمل أهل النار " ؛ فنسب إليه العمل لأنه باشره بمشيئته ، فالحديث يدل على أن الإنسان له مشيئة به يسلك طريق الخير ، وبها يسلك طريق الشر ...

وهذه المشيئة ليست مستقلة ؛ بل هي تحت مشيئة الله تبارك وتعالى ، ولهذا قال الله تبارك وتعالى {لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاءون إلا أن يشاء الله} .

والحديث أيضاً دل على هذا المعنى لأنه قال " فيسبق عليه الكتاب " أي أن ما يعمل به الإنسان هو بمشيئة الله وبما كتبه الله عليه وبما قدره ؛ فيكون الحديث جواباً للسؤال المعروف وهو أنه هل الإنسان مُسَيَّر أم مُخَيَّر ؟! فإذا قيل في الجواب أنه مسير - هكذا على الإطلاق - يكون الجواب خاطئاً ، وإذا قيل هو مخير - على الإطلاق - يكون الجواب خاطئاً ، ولا يكون الجواب صواباً إلا إذا أخذ مجموع ما دل عليه الحديث وغيره من النصوص وهو أن الإنسان مسير باعتبار ومخير باعتبار ؛ مسير باعتبار أن مشيئته تحت مشيئة الله ، ومخير باعتبار أن له مشيئة يختار بها طريق الخير من طريق الشر ؛ فمن يذهب إلى المسجد يذهب باختياره ، ومن يذهب إلى أماكن الشر يذهب إليها برغبته واختياره ، ولو قُدر أن إنساناً أكره على شر وأجبر على فعله ولو كان هذا الشر كفر بالله فلا يحاسبه الله {إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان} ؛ فالإنسان له مشيئة، ومشيئته تحت مشيئة الله ؛ ولهذا قال الشافعي رحمه الله :
ما شئتَ كان وإن لم أشأ وما شئتُ إن لم تشأ لم يكن

قال : [تاسعاً أن الإنسان يجب أن يكون على خوف ورجاء لأن من الناس من يعمل الخير في حياته ثم يختم له بخاتمة السوء وأن لا ينبغي له أن يقطع الرجاء فإن الإنسان قد يعمل بالمعاصي طويلاً ثم يمن الله عليه بالهدى فيتهدي في آخر عمره] .

شرح الشيخ :

من فوائد هذا الحديث أن الإنسان يجب عليه أن يجمع بين الرجاء والخوف وأن يكون معه في الحياة بشكل متوازن ، يرجو ويخاف ، ولا يغلب أحدهما على الآخر ؛ لأنه إن غلب الرجاء أمن من مكر الله ، وإن غلب الخوف قنط من رحمة الله ، واليأس والقنوط من الكبائر

، ولا سلامة منهما إلا بالإتيان والرجاء والخوف بشكل متوازن ؛ ولهذا قال بعض أهل العلم :

" ينبغي أن يكون الرجاء والخوف مع الإنسان كالجناحين للطائر " ؛ إذا استقام الجناحان واتزنا استتم الطيران ؛ ولهذا ينبغي على الإنسان أن يكون عنده الرجاء والخوف بشكل متوازن ، ومن يقرأ نصوص الترغيب والترهيب التي تُذكر في الكتاب والسنة متوالية ؛ تجد في القرآن ترغيب وترهيب والسنة فيها ترغيب وترهيب ، يأتي ذكر الجنة وعقبة ذكر النار ، يأتي ذكر الثواب وعقبة ذكر العقاب { نبي عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم } ؛ أنا الغفور الرحيم : فيه الرجاء ، عذابي هو العذاب الأليم : فيه الخوف ، فينبغي على العبد أن يجمع بين الأمرين .

وهذا الحديث - حديث بن مسعود - يفيد جداً في هذا الباب، في باب الرجاء والخوف ؛ فإن من الناس من يعمل الخير في حياته ثم يختم له بخاتمة السوء ؛ إذا عرفت ذلك والحديث دلّ على ذلك ؛ يأتي في القلب الخوف ، والسلف كانوا يخافون من الخواتيم ، ويخافون من السوابق ؛ فإذا قرأ هذا جاء في قلبه خوف ، وإذا قرأ أن الإنسان قد يعمل بالمعاصي طويلاً ومدة من الزمن ، ثم يمن الله عز وجل عليه بالهداية ؛ أيضاً يأتيه في هذا الجانب الرجاء ؛ فينبغي على الإنسان أن يكون في خوف ورجاء ؛ خوف من الخواتيم السيئة ورجاء من الله سبحانه وتعالى أن يحسن له الختام ، وأن يحسن له العواقب ، ويسأل الله تبارك وتعالى أن يختم له بالخاتمة الطيبة .

فالحديث يفيد في هذين الجانبين . جانب الرجاء وجانب الخوف . .

قال : [قال النووي في شرح هذا الحديث "فإن قيل قال الله تعالى لم إن الذين ءامنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً" ظاهر الآية أن العمل الصالح من

المخلص يُقبل وإذا حصل القبول الكريم أُمن مع ذلك من سوء الخاتمة ؛ فالجواب من وجهين : أحدهما أن يكون ذلك معلقاً على شروط القبول وحسن الخاتمة ، ويحتمل أن من آمن وأخلص العمل لا يختم له دائماً إلا بخير ، ثانيهما : أن خاتمة السوء إنما تكون في حق من أساء العمل أو خلطه بالعمل الصالح المشوب بنوع من الرياء والسمعة ، ويدل عليه الحديث الآخر " إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس " أي فيما يظهر لهم من إصلاح ظاهره مع فساد سريره وخبثها ، والله تعالى أعلم] .

شرح الشيخ :

هنا الإمام النووي رحمه الله في شرحه لهذا الحديث أورد استشكالاً وأجاب عنه بجواب مسدد ؛ الاستشكال قول الله جل وعلا { إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً } ؛ فالآية تفيد أن الذي آمن وعمل الصالحات يحفظ له إيمانه وعمله ولا يضيعه ؛ فأفادت الآية أن من آمن وعمل الأعمال الصالحة أن الله جل وعلا لا يضيع إيمانه ؛ فيفهم من ذلك أنه يموت على الإيمان ، والحديث فيه أن بعض أهل الإيمان أهل الجنة يسبق عليهم الكتاب حينما يكون بينه والجنة إلا ذراع فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ؛ فبعض أهل العلم أورد استشكالاً في هذا الحديث مع هذه الآية فما الجواب على ذلك ؟ قال النووي رحمه الله : الجواب من وجهين :

أحدهما أن يكون ذلك معلقاً على شروط القبول وحسن الخاتمة ، ويحتمل أن من آمن وأخلص العمل لا يختم له دائماً إلا بخير ؛ فيكون معنى الآية { إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات } ؛ أي أتوا بالإيمان المقبول ؛ فيختم لهم بهذه الخاتمة ، ولا أحد من الناس يجزم لنفسه بأن إيمانه متقبل ، وقد قال الله تعالى { والذين يؤتون ما ءاتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون } ؛ وعرفنا أن المعنى يقدمون ما يُقدِّمون من الطاعات وهم خائفون أن لا تُقبل ؛ فهذا جواب ، والجواب الآخر أن خاتمة السوء إنما تكون في حق من أساء العمل ،

أو خلطه العمل المشوب بالرياء والسمعة ؛ وعلى هذا يُحمل الحديث ؛ لأنه قال " إن أحكم يعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع " ؛ يعمل بعمل أهل الجنة لكن هذا العمل الذي كان يعمل مخلوط بشيء في قلبه ؛ يعني ظاهر عمله فيه الصلاح لكن في سريره شوائب ؛ ولهذا قال العلماء - ونقل ذلك بن القيم رحمه الله في كتابه الجواب الكافي - لا يعرف خاتمة سيئة لمن صحت عقيدته أي صح إيمانه بالله جل وعلا ، فالله عز وجل لا يضيع إيمانه ، إذا كان على إيمان صحيح بالله يحفظ الله سبحانه وتعالى إيمانه { وما كان الله ليضيع إيمانكم } ، أما إذا كانت له أعمال صالحة ظاهرة كثيرة ولكن سريره فيها ما فيها من الدخن ؛ فمثل هذا هو الذي عرضة لأن يختتم له بعمل أهل النار فيدخل النار ؛ ويدل لذلك أن الحديث جاء في بعض رواياته أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " إن أحكم يعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس " وهي زيادة ثابتة ، وهي رواية مفسرة للحديث ومزيلة للإشكال الذي قد يُورد .

فمن فوائد الحديث أهمية إصلاح القلوب بالإيمان والاعتقاد الصحيح، وحسن الصلة بالله، والثقة به والتوكل عليه ، والاجتهاد في إزالة ما يكون في القلب من أمراض وأسقام ، من أمراض هي نوع من النفاق أو نوع من أعمال القلوب السيئة فيحاول أن يجتهد في إصلاح قلبه ، ومن الدعاء المأثور " اللهم آت نفوسنا تقواها زكّها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها " ؛ فمن صلح قلبه إستقام على الاعتقاد الصحيح والإيمان القويم بالله وبما أمر سبحانه وتعالى عباده بالإيمان به ؛ مثل هذا لا يختتم له بإذن الله تبارك وتعالى إلا بخير ، وأما الخاتمة السيئة لمن كان يعمل الصالحات فهي لمن كانت أعماله صالحات فيما يبدو للناس ، وأما قلبه ففيه ما فيه . فهذا جواب واضح ومستفاد من بعض روايات الحديث ، قال النووي رحمه الله لما ذكر هذه الرواية " إن أحكم يعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس " أي فيما يظهر لهم ، من إصلاح ظاهره مع فساد سريره وخبثها ، ونقل ابن القيم رحمه الله في الجواب الكافي عن بعض أهل العلم أنه لا يُعرف من صحت عقيدته واستقام إيمانه أنه يُختتم له

بالخاتمة السيئة ؛ وهذا أيضاً يستفاد من قوله سبحانه وتعالى { يثبت الله الذين ءامنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء } .

قال [الحادي عشر مما يستفاد من الحديث :

أولاً : بيان أطوار خلق الإنسان في بطن أمه .

ثانياً : أن نفخ الروح يكون بعد مائة وعشرين يوماً ؛ وبذلك يكون إنساناً .

ثالثاً : أن من الملائكة من هو موكل بالأرحام .

رابعاً : الإيمان بالغيب .

خامساً : الإيمان بالقدر وأنه سبق في كل ما هو كائن .

سادساً : الحلف من غير استحلاف لتأكيد الكلام .

سابعاً : أن الأعمال بالخواتيم .

ثامناً : الجمع بين الخوف والرجاء وأن على من أحسن أن يخاف سوء الخاتمة وأن من أساء لا يقنط من رحمة الله .

تاسعاً : أن الأعمال سبب دخول الجنة أو النار .

عاشراً : أن من حُتِبَ شقيماً لا يُعلم حاله في الدنيا وكذا عكسه [.

والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

..*

الدرس الثامن

الحديث الخامس

عن أم المؤمنين أم عبد الله عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد " رواه البخاري ومسلم

وفي رواية لمسلم " من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد " .

شرح الشيخ :

هذا الحديث هو أحد الأحاديث التي عليها مدار هذا الدين ، وهو يدل أن الأعمال التي يُتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى لا تكون مقبولة عنده مرضية لديه إلا إذا كانت وفق ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الله عز وجل كما أنه يُعبد بالإخلاص فكذلك يُعبد بالمتابعة لرسوله عليه الصلاة والسلام ، والرسول صلى الله عليه وسلم مبلغ عن الله {وما على الرسول إلا البلاغ} ، وبلغ دين الله جل وعلا على التمام والكمال ، وأتمَّ الله عز وجل به الدين وأنزل في ذلك قوله {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً} ، فلا دين إلا ما جاء به ، ولا شرع إلا شرعه صلوات الله وسلامه عليه ، ومن تعبد بعبادة لم تأت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن الله عز وجل لا يقبلها بل يردّها عليه ؛ لأن من شرط قبول العمل موافقة الرسول عليه الصلاة والسلام ، فمن عمل عملاً غير موافق لهديه صلى الله عليه وسلم فهو مردود على صاحبه .

والحديث أصلٌ في رد البدع كلها ، وأن البدع كلها ضلالات ؛ لا يقبله الله عز وجل من

عامليلها بل مردودة عليهم ، وهم لا يؤجرون بل يؤزرون على تخليهم عن الحق والهدى الذي بُعث به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتمسكهم بالأهواء والبدع والضلالات .

قال الشيخ عبد المحسن العباد حفظه الله تعالى :

[أولاً هذا الحديث أصل في وزن الأعمال الظاهرة وأنه لا يعتد بها إلا إذا كانت موافقة للشرع ، كما أن حديث إنما الأعمال بالنيات أصل في الأعمال الباطنة ، وأن كل عمل يُتقرب به إلى الله لا بد أن يكون خالصاً لله وأن يكون معتبراً بنيته] .

شرح الشيخ :

تقدم قول النبي " إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى " ؛ هذا الحديث أصل في وزن الأعمال ؛ إذ أن الأعمال توزن في ضوء هذا الأصل ؛ فإذا كانت النية صحيحة خالصة لله تبارك وتعالى كان ذلك سبباً للقبول، وإذا كانت ليست كذلك رُد العمل ؛ ولهذا قال الله تعالى في الحديث القدسي " أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه " ؛ فكما أن ذاك الحديث أصل في وزن الأعمال باعتبار الباطن وهو القلب وما ينبغي أن يكون عليه من الإخلاص للمعبود ؛ فإن هذا الحديث - حديث عائشة - يعد أصلاً في وزن الأعمال الظاهرة ، فإن الواجب على العامل أن يزن أعماله في ضوء الشرع بحيث لا يعبد الله ولا يتقرب إليه سبحانه وتعالى إلا بما شرع ، فإن فعل ذلك قُبِل عمله وإلا رُد عمله ؛ لأن من شرط قبول العمل أن يكون موافقاً لهدى الرسول عز وجل ؛ فهما شرطان لا قبول لأي عمل من الأعمال إلا بهما ؛ الإخلاص ودل عليه حديث الأعمال بالنيات ، والمتابعة ودل عليه حديث عائشة رضي الله عنها . وقد جمع الله عز وجل بين هذين الشرطين في الآية الأخيرة من سورة الكهف ؛ قال تعالى { فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً } .

قال : [ثانياً إذا فُعلت العبادات كالوضوء والغسل من الجنابة والصلاة وغير ذلك ؛ إذا فعلت على خلاف الشرع فإنها تكون مردودة على صاحبها غير معتبرة ، وأن المأخوذ بالعقد الفاسد يجب رده على صاحبه ولا يملك ، ويدل لذلك قصة العسيف الذي قال له النبي صلى الله عليه وسلم " أما الوليدة والغنم فرُدْ عليك " رواه البخاري ومسلم

شرح الشيخ :

من فوائد هذا الحديث ودلالاته أن العبادات - التي هي الصلاة والصيام والغسل وغير ذلك من العبادات - ؛ إذا فُعلت على خلاف الشرع ، على خلاف هدي الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ فإنها تُرد ولا يقبل الله عز وجل وضوءاً ولا غسلاً ولا صلاةً ولا صياماً ولا حجاً ولا غير ذلك من الطاعات إلا إذا كان وفق الشرع ؛ فإذا وقعت العبادة على خلاف الشرع رُدت ؛ لأنه قال " من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد " ، وكذلك في باب المعاملات فإن العقود الفاسدة التي بُنيت على مخالفة للشريعة فإنها أيضاً فعلها أو عقدها على خلاف الشرع بعقود فاسدة يوجب رد ذلك لعموم قوله عليه الصلاة والسلام " من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد " .

فإذاً من فوائد الحديث أن العبادات التي تأتي من عاملها وأصحابها على وفق الشرع وخلافه فهي ترد على أصحابها ولا تُقبل منهم ، وكذلك العقود فما يؤخذ من عقد فاسد يُرد ، ومما يدل على ذلك قصة العسيف ؛ والعسيف هو الأجير . والعسيف كان خادماً عند رجل ، ثم إنه زنى بامرأته ، ثم قيل له إن على ابنك الرجم ، فدفع لزوج المرأة - وكلّ منهما على جهل بدين الله عز وجل في هذا الباب - فدفع لزوج المرأة مائة شاة ووليدة يفدي بها ولده من الرجم لأنه قيل له أن على ولدك الرجم ؛ فهذه الفدية التي دفعت لزوج المرأة المزني به من قبل الأجير أو العسيف ؛ هذا مبني على أمر فاسد وعلى شيء ليس من شرع الله ولا من دينه

تبارك وتعالى ، ثم إن الرجل سأل مرة أخرى فقل إن ابنك ليس عليه الرجم بل عليه مائة جلدة وتغريب عام ؛ فرجع يطالب بالدية التي دفعها ، ثم تحاكموا إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، والقصة في الصحيحين من حديث أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني رضي الله عنهما أنهما قالوا إن رجلاً من الأعراب أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله أنشدك الله إلا قضيت لي بكتاب الله ، فقال الخصم الآخر وهو أفاقه منه ؛ نعم فاقض بيننا بكتاب الله وأذن لي . أي أن أبدأ بالحديث . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قل ، قال إن ابني كان عسيفاً على هذا فزني بامرأته وإني أخبرت أن على ابني الرجم فافتديت منه بمائة شاة ووليدة ، فسألت أهل العلم فأخبروني أن ما على ابني الجلد وتغريب عام ، وأن على امرأة هذا الرجم ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله ، الوليدة والغنم ردٌ ، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام ، واغدوا يا أنيس إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها " ، قال فغدا إليها فاعترفت فأمر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فُرجمت .

قال [ثالثاً ويدل الحديث على أن من ابتدع بدعة ليس لها أصل في الشرع فهي مردودة ، وصاحبها مستحق للوعيد فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة " من أحدث فيها حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين " رواه البخاري ومسلم] .

شرح الشيخ :

مما يدل عليه هذا الحديث أن من أحدث في الدين ما ليس منه - ابتدع أمراً ليس له أصل في الدين ولا أساس - فإنه رد ، ومعنى رد أي مردود عليه ، وليس الأمر منتهياً عند هذا الحد، بمعنى أن عمله مردود عليه ثم يصبح لا له ولا عليه ؛ بل إن العمل يُرد والعامل يؤزر ولا يؤجر ؛ لأن البدعة أخطر من المعصية فيؤزر عليها ولا يؤجر ؛ ولهذا جاء في الحديث أن النبي

عليه الصلاة والسلام قال في المدينة " من أحدث فيها حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين " ؛ فهو يدل على أن صاحب البدعة إضافة إلى كون بدعته تُرد عليه ولا تقبل منه ؛ فإنه يعاقب ويحاسب على إحداثه في الدين ، وإذا كان هذا الحدث الذي أحدثه في الدين اقتصر هو على فعله فإنه يَأْثَمُ ويعاقب على فعله هذا الفعل المحدث في دين الله ، وإذا أضاف إلى ذلك بأن أصبح قدوة للآخرين في هذا الحدث فأخذوه عنه وتلقوه منه ؛ حَمِلَ مع وزره أوزارهم لقوله تعالى { ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون } ، ولقوله صلى الله عليه وسلم:

" ومن دعا إلى ضلالة فعليه إثمها وإثم من عمل بها لا ينقص ذلك من آثامهم شيء { .

قال : [رابعاً : الرواية الثانية التي عند مسلم أعم من الرواية التي في الصحيحين لأنها تشمل من عمل البدعة سواء كان هو المحدث لها أو مسبقاً إلى إحداثها وتابع من أحدثها] .

شرح الشيخ :

حديث عائشة رضي الله عنها له روايتان ؛ إحداهما إتفق على إخراجها البخاري ومسلم ؛ ولفظها " من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد " ، والثانية انفرد بإخراجها مسلم ولفظها " من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد " ، وهذه الرواية التي انفرد بإخراجها مسلم رحمه الله هي أعم من الرواية التي اتفق على إخراجها الشيخان ؛ لأنها تشمل من عمل البدعة ؛ فهي تشمل المحدث الذي عمل بدعته وحديثه وتشمل الذين اتبعوه في بدعته ولو لم يكونوا هم الذين أحدثوا هذا الأمر ، بينما الرواية الأولى المتفق عليها هي في من أحدث البدعة .

قال : [خامساً : معنى قوله في الحديث " رد " أي مردود عليه ، وهو من إطلاق المصدر وإرادة اسم المفعول مثل : خلق بمعنى مخلوق ، ونسخ بمعنى منسوخ ، والمعنى : فهو باطل غير معتد به] .

شرح الشيخ :

قوله عليه الصلاة والسلام " فهو رد " : هذه اللفظة مصدر للفعل ردَّ يُردُّ ردّاً ، وقوله " من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد " : أطلق هنا المصدر وأراد اسم المفعول ؛ فمعنى قوله " فهو رد " أي مردود غير مقبول ، نضير ذلك : خلق بمعنى المخلوق ؛ { هذا خلق الله { أي مخلوق الله الذي خلقه وأوجده ، وأيضاً نضير ذلك نسخ بمعنى منسوخ .
إذاً معنى قوله " رد " أي مردود أي غير مقبول عند الله تبارك وتعالى .

قال : [سادساً : لا يدخل تحت الحديث ما كان من المصالح المرسلّة أو موصلاً إلى فهمه ومعرفته كجمع القرآن في مصاحف وتجميع علوم اللغة والنحو وغير ذلك] .

شرح الشيخ :

من الأمور التي ينبغي أن تُعلم هنا أن الأمور التي هي المصالح المرسلّة ليست داخلّة في هذا الحديث في قوله عليه الصلاة والسلام " من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد " ؛ لأن الحديث يتعلق بالأمور التي يفعلها الإنسان ويتقرب بها إلى الله جل وعلا ويتعبد بها لله جل وعلا ولا أصل لها في الشريعة ، بأن يُحدث عبادةً أو قرينةً أو ذكراً أو نوعاً من الطاعات يتقرب إلى الله سبحانه وتعالى به ؛ فهذا مردود على صاحبه غير مقبول منه ، أما الأمور التي هي مصالح للعباد وتدخل تحت أصول عامة في الشريعة وقواعد كلية في هذا الدين ولا تخالف أصول الدين ولا قواعده ؛ فهذه لا يشملها الحديث ؛ ومن ذلكم جمع القرآن في المصاحف

، وجمع العلم في الكتب والمؤلفات ، وتصنيف الكتب ، استخدام الوسائل الحديثة لإبلاغ الدين وإلقاء العلم مثل مكبرات الصوت والمذياع وغير ذلك ؛ هذه كلها داخلة في المصالح ولا يقال أن فعل شيء من ذلك حدث في الدين ؛ لأن الحدث في دين الله تبارك وتعالى هو إنشاء عبادة أو قربة أو شرع لم يأذن به الله ، أما هذه الأشياء الداخلة في عمومات الأدلة وكليات الدين وهي من الصالح والمنافع العامة ؛ فلا يشملها الحديث ولا يتناولها .

قال : [سابعاً : الحديث يدل بإطلاقه على رد كل عمل مخالف للشرع ولو كان قصد صاحبه حسناً ، ويدل عليه قصة الصحابي الذي ذبح أضحيته قبل صلاة العيد، وقال له النبي صلى الله عليه وسلم " شائك شاة لحم " رواه البخاري ومسلم .

شرح الشيخ :

مما يدل عليه هذا الحديث بإطلاقه في قوله " فهو ردٌ " أن العمل الذي لا يوافق الشرع يُرد على صاحبه ولو كانت نيته حسنة ، ولو كان قصده طيباً ؛ فالنية الحسنة والقصد الطيب لا يشفع للإنسان في قبول عمله إن كان عمله مخالفاً للشرع ؛ لأنه كما أنه من شرط قبول العمل الإخلاص في النية ؛ فإن من شرطه كذلك الموافقة للسنة ، فإذا اختل الشرطان أو أحدهما رُدَّ العمل على صاحبه ، كما قال الفضيل بن عياض رحمه الله في قوله تعالى { ليلوكم أيكم أحسن عملاً } ؛ قال " أخلصه وأصوبه " ، قيل يا أبا علي وما أخلصه وأصوبه ؟ قال : إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل حتى يكون خالصاً صواباً ، والخالص ما كان لله والصواب ما كان على السنة " ؛ فنصَّ رحمه الله على أن العمل الخالص إن لم يكن صواباً لم يُقبل ، وأن العمل الصواب إن لم يكن خالصاً لم يُقبل ، والحديث بإطلاقه يدل على هذا لأن النبي عليه الصلاة والسلام نصَّ نصاً صريحاً على أن العمل الغير موافق لهديه وسنته صلوات الله وسلامه عليه بأنه مردود على صاحبه غير

مقبول منه ، وعرفنا فيما سبق أن أحوال الناس من حيث الإخلاص والمتابعة ينقسمون إلى أربعة أقسام :

الأول : من أخلص وتابع ؛ وهذا هو الذي يُقبل منه عمله . والثاني : من أخلص ولم يتابع ؛ فلا يُقبل منه عمله .

والثالث : من تابع ولم يخلص ؛ وهذا أيضاً لا يُقبل منه عمله . والرابع : لم يتابع ولم يخلص ؛ وهذا لا يُقبل منه عمله .

فلا يقبل الله سبحانه وتعالى عمل العامل إلا إذا كان خالصاً للمعبود موافقاً لهدي الرسول صلى الله عليه وسلم .

ومما يدل أن حسن النية وطيب المقصد لا يشفع للإنسان في قبول العمل؛ القصة التي رواها الإمام البخاري رحمه الله لأحد أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في عيد الأضحى ؛ فبنية طيبة وقصد حسن من هذا الصباحي ذبح أضحيته قبل الصلاة ، وقدر في نفسه أن هذا اليوم يوم أكل وشرب ؛ فقال : أسارع أنا في فعل الخير ، وأذبح الأضحية قبل الصلاة ؛ وفعلاً ذبح أضحيته قبل الصلاة وأكل منها قبل أن يصلي ، وأطعم أهله وأطعم جيرانه قبل الصلاة ، فعَلَ ذلك بنية طيبة وبقصد حسن .. ؛ فقال له النبي عليه الصلاة والسلام :

" شاتك شاة لحم " أي ليست أضحية ؛ فلم يشفع لهذا الصباحي حسنُ القصد في قبول أضحيته ، لم تُقبل منه هذه الشاة كأضحية في ذلك اليوم . بل جاء عنه عليه الصلاة والسلام أنه أمر من ذبح قبل الصلاة أن يذبح بدلها بعد الصلاة ؛ لأن الذبح الذي يكون قبل صلاة العيد ذبحٌ قبل الوقت ، وهذا خلاف السنة ، من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد أي لا يقبل؛ ولهذا لا يعتذر الإنسان لنفسه بفعل البدع أو المحدثات أو الأمور المخالفة للسنة ؛ لا يعتد لنفسه بأن يقول أن نيته طيبة وأنه ما أراد إلا الخير والتقرب إلى الله سبحانه وتعالى ، وكثيراً ما يعتذر أصحاب البدع لأنفسهم بمثل هذا العذر ؛ يقول : وهل أردنا إلا

الخير، وهل أردنا إلا ذكر الله ؛ مثل ما جرى أن أحد السلف رأى رجلاً يتنفل بعد صلاة العصر ؛ فنهاء وقال : ليس هذا وقت صلاة ؛ فغضب الرجل وقال أتنهاني عن الصلاة ؟ والله يقول {أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى} ؛ قال أنا لا أنهاك عن الصلاة ولكن أنهاك عن البدعة ؛ لأن الإنسان عندما يفعل العمل المشروع في وقت نهي ؛ هذا مخالف ، حتى وإن كان قصده ونيته طيبة وفعله صلاة ؛ لكنه يُرد عليه .. ، جاء في سنن الدارمي أن ابن مسعود رضي الله عنه وقف على نفر في المسجد ، وعليهم رجل قائم ، وبين أيديهم حصى فيقول لهم : سبحوا مائة ؛ فيقولون بصوت واحد سبحان الله سبحان الله سبحان الله مائة مرة ويعدونها بالحصى التي أمامهم ، ثم يقول لهم : كبروا مائة ؛ فيكبروا مائة .. ؛ فوقف عليهم بن مسعود رضي الله عنه وقال لهم كلاماً معناه : " عجباً لكم يا أمة محمد ما أسرع هلكتكم هذه آنية النبي صلى الله عليه وسلم لم تُكسر وثيابه لم تبلى وصحابته متوافرون ؛ ومع ذلك تدخلون في هذه الأمور المحدثه ... " ؛ إذا كان قال ذلك في ذلك الوقت فماذا يُقال في هذا الزمان المتأخر ؟ ثم قال لهم " أما إنكم جئتم ببدعة ظلماً أو فقتم أصحاب محمد علماً " ؛ لماذا قال ذلك ؟ لأن العمل الذي يفعلونه ليس عليه عمل الصحابة ، وما لم يكن ديناً زمن محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه لن يكون ديناً إلى أن تقوم الساعة . كما قال ذلك مالك رحمه الله . ، فبماذا اعتذروا ؟ قالوا : والله يا أبا عبد الرحمن ما أردنا إلا الخير . وأسأل كثيراً من أهل البدع التي يمارسونها لما يفعلونها ؟ يقولون : والله ما أردنا إلا الخير .. ؛ فكون الإنسان نيته طيبة وما يريد إلا الخير ؛ هذا لا يشفع له في قبول عمله ؛ لابد مع إرادة الخير أن يكون العمل موافقاً لسنة إمام الخير عليه الصلاة والسلام ، فقال لهم ابن مسعود رضي الله عنه " وهل كل من أراد الخير أدركه " ؛ أي ليس كل من يريد الخير يدركه ؛ بل لا يدرك الخير إلا من يلزم نفسه بالإتباع للرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

هذا الحديث من فوائده الرد على من يقول إن في الدين بدعة حسنة ، وهذه مقالة خاطئة وغير صحيحة يردها هذا الحديث وأيضاً تردها أحاديث كثيرة بل يردها القرآن الكريم ؛ لأن

الله سبحانه وتعالى قال {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً} ؛ فدين قد تم وكمل أي مجال بعد ذلك أن يُضاف فيه وقد نص الله تبارك وتعالى على تمامه وكمالهِ ؟ ولهذا استناداً لهذه الآية الكريمة قال الإمام مالك رحمه الله : من قال أن في الدين بدعة حسنة فقد زعم أن محمداً صلى الله عليه وسلم خان الرسالة لأن الله يقول {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً} فما لم يكن ديناً زمن محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه فلن يكون اليوم ديناً ولن يكون ديناً إلى أن تقوم الساعة . أورده الشاطبي رحمه الله تعالى في كتابه الاعتصام . .

وصح عنه عليه الصلاة والسلام في غير حديث أنه قال " كل بدعة ضلالة " و " كل " من صيغ العموم ؛ ولم يستثن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فكيف يقال إن في الدين بدعة حسنة؟ ولو كان هذا العموم على غير عمومهِ لقيدهِ النبي عليه الصلاة والسلام مثلما قيد الحديث الآخر ؛ قال " كل أمّي يدخلون الجنة " ؛ فهذا الأمر ليس على عمومهِ ، وهذه الكلية ليست على عمومها بل لها استثناءات ، فلم يبق العموم على عمومهِ ؛ فقال " كل أمّي يدخلون الجنة إلا من أبى " قالوا ومن يأب يا رسول الله ؟ قال " من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى " ، بينما في هذا الحديث قال " كل بدعة ضلالة " ولم يستثن ، فلو كان في الأمر استثناء لاستثناءه الناصح الأمين عليه الصلاة والسلام كما استثنى في الحديث الآخر ، فلو كان في الأمر استثناء لقال " كل بدعة ضلالة إلا بدعة كانت حسنة أو بدعة في أمر طيب فلا بأس بها .. " ؛ فلم يستثن عليه الصلاة والسلام فقال " كل بدعة ضلالة " ، وكذلك في حديث عائشة لم يستثن عليه الصلاة والسلام ؛ قال " من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد " ؛ ولهذا البدع كلها ضلالة ، وأنت إذا قلت كل بدعة ضلالة ؛ قلت كلاماً ولفظاً قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فهذا لفظه عليه الصلاة والسلام وكلامه عليه الصلاة والسلام ؛ ولكن لو قلت " في الدين بدعة حسنة " أنت في هذه الحالة قلت كلاماً لا دليل عليه صادم للأدلة وفي الوقت نفسه تكون قد فتحت لنفسك ولغيرك باب الدخول

في ظلمات البدع والعياذ بالله .

قال : [هذا الحديث يدل بمنطوقه على أن كل عمل ليس عليه أمر الشارع هو مردود ويدل بمفهومه على أن كل عمل عليه أمره فهو غير مردود ، والمعنى أن من كان عمله جارياً تحت أحكام الشرع موافقاً لها فهو مقبول ، ومن كان خارجاً عن ذلك فهو مردود] .

شرح الشيخ :

هذا الحديث له منطوق وله مفهوم ؛ منطوق الحديث أن كل أمر ليس عليه أمر الشارع فهو مردود . ومفهوم الحديث أن كل عمل عليه أمر الشارع فهو غير مردود ، فهو مقبول وغير مردود على صاحبه .

قال : [تاسعاً مما يستفاد من الحديث :

أولاً : تحريم الابتداع في الدين .

ثانياً : أن العمل المبني على بدعة مردود على صاحبه .

ثالثاً : أن النهي يقتضي الفساد .

رابعاً : أن العمل الصالح إذا أُتي به على غير الوجه المشروع كالتنفل في وقت النهي لغير سبب ، وصيام يوم العيد ونحو ذلك ؛ فإنه باطل لا يعتد به .

خامساً : أن حكم الحاكم لا يغير ما في باطن الأمر لقول النبي صلى الله عليه وسلم " ليس عليه أمرنا " .

سادساً : أن الصلح الفاسد باطل ، والمأخوذ عليه مستحق الرد كما في حديث العسيف .

والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

..*

الدرس التاسع

الحديث السادس

عن أبي عبد الله النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " إن الحلال بيّن وإن الحرام بيّن وبينهما أمور مشتهيات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب " رواه البخاري ومسلم

شرح الشيخ :

هذا الحديث السادس من الأربعين للإمام النووي رحمه الله تعالى ، وهو من جوامع كلم النبي عليه الصلاة والسلام ومن الأحاديث التي عليها مدار هذا الدين ، وهو حديث جامع في بابه . باب الحلال والحرام . ، ومن المقرر لدى كل مسلم أن الحلال والحرام بيد الله ؛ فلا حلال إلا ما أحل ولا حرام إلا ما حرم ؛ فالأمر له جل وعلا { ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب } فأمروا الحلال والحرام بيد الله عز وجل وهو الذي عز شأنه يُحل ما يشاء ويُحرم ما يشاء ، والحكم حكمه جل وعلا { إن الحكم إلا لله } ، { أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله } .

وهذا الحديث يبين أقسام الأشياء من حيث الحل والحرم ، وأنها تنقسم إلى أقسام ثلاثة :

قسم حلال بيّن وقسم حرام بيّن وقسم مشتبه ، والقسم الثالث إشتباهه ليس اشتباهاً مطلقاً على جميع الناس ؛ وإنما هو مشتبه على كثير من الناس أي يخفى على كثير من الناس هل هو من الحلال أو من الحرام ، وأما الراسخون في العلم فإنه لا يشتبه عليهم .

وقد صدّر عليه الصلاة والسلام هذا الحديث بقوله " إن الحلال بيّن وإن الحرام بيّن " ؛ أي واضح ، والحلال : هو ما أحله الله جل وعلا ، والحرام هو ما حرمه الله سبحانه وتعالى ، وهذا أمر بيّن ؛ عندما تأتي نصوص الكتاب والسنة دالةً على إباحة أمرٍ أو حِلِّه أو جوازه ؛ فهذا حلال بيّن لكون حِلِّه قد جاء في الكتاب والسنة ، وما نُهي عنه في كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وحُرْم فعله أو تُوعَد على فعله أو لُعن فاعله أو هُدد بالنار أو بسخط الله جل وعلا ؛ فهو حرام بيّن . والقسم الثالث مما ذُكر في الحديث : " بينهما أمور مشتبهات " أي بين الحلال البيّن وبين الحرام البيّن أمورٌ مشتبهة ، وهذا الاشتباه الذي في بعض هذه الأمور ليس اشتباهاً مطلقاً وإنما هو اشتباه نسبي يخفى على الكثيرين وأهل العلم لا يخفى عليهم ؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام " وبينهما أمورٌ مشتبهات لا يعلمهن كثيرٌ من الناس " ، لم يقل لا يعلمهن الناس ، وإنما قال " لا يعلمهن كثيرٌ من الناس " ؛ وهذا يفيد أن الاشتباه ليس اشتباهاً مطلقاً وإنما هو اشتباه نسبي على الكثير أي يخفى حكمها على كثير من الناس ، أما من رسخت أقدامهم في العلم فإنه ليس بخاف عليهم ولا مشتبه .

ثم بيّن صلوات الله وسلامه عليه المنهج الذي ينبغي أن يكون عليه المسلم في المشتبه ؛ قال عليه الصلاة والسلام " فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه " اتقى الشبهات أي اجتنبها وابتعد عنها ؛ فإذا كان كذلك حاله مع الشبهات فإنه يكون قد كسب أمرين :

الإستبراء للدين : أي فيما بينه وبين الله .

الإستبراء للعرض : أي فيما بينه وبين الناس .

قال " ومن وقع في الشبهات فقد وقع في الحرام : لأن من استهان بأمر الشبهات واستمرأها

ولانت نفسه تجاهها وأقبل عليها ؛ خطأ بقدمه خطوات نحو الحرام ، بينما من تجنب الشبهات وحاذر من الوقوع فيها فإنها تكون بإذن الله حائزاً بينه وبين الحرام ؛ ولهذا قال :

" ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام " ، ثم ضرب مثلاً يوضح ذلك فقال " كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه " ؛ إذا كان الراعي يأتي ويقترّب بأغنامه إلى المكان المحمي الذي حماه إما سلطان أو والد أو مالك أو نحو ذلك ومنع أن ترعى فيه الأغنام ، فإذا حام حول الحمى - اقترب بأغنامه - إلى المكان المحمي فالأغنام توشك أن ترتع فيه لأنها أصبحت قريبة جداً ، جعلها صاحبها قريبة من المكان المحمي ؛ وبهذا أصبح حال الأغنام أنها توشك أن ترعى في الحمى . المكان الممنوع . ؛ وهكذا الشأن بالذي لا يبالي بالمشتبهات ويأخذ بالمشتبه فإذا دخل في المشتبه أصبح قريباً يوشك أن يرتع في الحرام .

ألا وإن لكل ملك حمى : كل ملك له سلطان وله ولاية ؛ له حمى ؛ يمنع أن يقترب أحد في ذلك المكان الذي حماه ، ويعتبر من دخل في حمى الملك فعل أمراً ممنوعاً وعرض نفسه للعقوبة " ألا وإن حمى الله محارمه " : حمى الله هي الأمور التي حرّمها الله على عباده ومنعهم من الدخول فيها ، هذا حمى أي مكان محذور اقترابه والدخول فيه . ومما يوضح هذا المعنى المثل الآخر الذي ضربه النبي عليه الصلاة والسلام للإسلام ؛ قال " إن الله ضرب مثلاً صراطاً مستقيماً وعلى جنبتي الصراط سوران وفي السورين أبواب وعلى الأبواب ستور مرخاة ، ومناد ينادي من أول الصراط يا عباد الله أدخلوا الصراط ولا تعودوا ، ومناد ينادي من جوف الصراط يا عبد الله لا تفتح الباب فإنك إن فتحتة تلجه " ثم بيّن ذلك قال :

" الصراط الإسلام ، والسوران حدود الله ، والأبواب التي عليها ستور مرخاة محارم الله . وهذا موضع الشاهد من الحديث . والمنادي الذي ينادي من أول الصراط كتاب الله ، والمنادي الذي ينادي من جوف الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم " ، فقوله في هذا الحديث والأبواب المرخاة محارم الله . التي عليها ستور مرخاة . هذا فيه أن المسلم ممنوع أن يدخل في أي

باب من أبواب الحرام ، وأيضاً ممنوع أن يحدث نفسه بفتح الباب على نفسه لأنه إن اقترب من الباب وفتح الباب ولو قليلاً ولج ؛ ولهذا الواعظ الذي في قلب كل مسلم يقول لا تفتح الباب فإنك إن فتحتة تلجه ، فإذا أخذ الإنسان بنفسه يتهاون فيقترب من الحرام ويدنو منه يفعل الأمور المتشابهة ويصل إلى حيث أبواب الحرام والممنوعات والمنهيات ؛ فإن نفسه لا تزال تتغفلت منه إلى أن يجد نفسه يوماً من الأيام والعياذ بالله متلطخاً بالحرام متوغلاً فيه ؛ ولهذا أرسل عليه الصلاة والسلام إلى اتقاء المتشابه ؛ وهذا أخذٌ للنفس بالحزم بمنعها من الحرام ومنعها من الوسائل والأسباب المفضية للإنسان إلى الوقوع في الحرام .

ثم ختم عليه الصلاة والسلام هذا الحديث ببيان أهمية إصلاح القلوب وتزكيتها وتنقيتها ، وأن القلب أساس والجوارح فرع عنه ومؤتمرة بأمره وصادرة عن أمره ؛ قال " ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب " ، وكل إنسان في نفسه مضغة صغيرة جداً لكنها خطيرة للغاية ، هذه المضغة إن صلحت صلح سائر الجسد وإن فسدت فسد سائر الجسد ؛ لأن الجسد تابعٌ ومنقاد كما يقول شيخ الإسلام " لا يمكن للجوارح أن تتخلف عن مرادات القلوب " ؛ بمعنى أن الذي يريد القلب يفعله البدن ولا بد ؛ لأن البدن مع القلب مؤتمرٌ، منقادٌ، مطيعٌ، ممتثلٌ ، لا يتخلف عن أي شيء يريد القلب ؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام " ألا إن في الجسد مضغة " يعني قطعة صغيرة " إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب " ، وهذا يبين لنا خطورة القلب ، وأن بصلاحه صلاح البدن وبفساده فساد البدن ، وقد تكاثرت عن النبي صلى الله عليه وسلم الدعوات بصلاح القلب و زكائه ؛ من قوله ودعاه صلى الله عليه وسلم " اللهم آت نفوسنا تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها " ، " اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع " ، " اللهم نق قلبي من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس " إلى غير ذلك من الدعوات .

فالقلب إذا صلح وطاب؛ طاب البدن ، وإذا فسد وخاب؛ خاب البدن ، ولهذا يروى عن

أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال " القلب ملك والأعضاء جنوده فإذا طاب الملك طاب الجند وإذا خاب الملك خاب الجند " مع أن القلب في هذا الباب أعظم من الملك لأن الملك قد يطيب ويفسد بعض الجند ، وقد يخيب ويطيب بعض الجند ؛ لكن القلب إذا طاب طابت الأعضاء وإذا فسد فسدت الأعضاء لأن الأعضاء تابعة له صلاحاً وفساداً .

فالحديث يفيد أهمية إصلاح القلوب والسعي إلى تنقيتها وإزالة السخائم والأمراض . كما في الدعاء المأثور " واسئل سخيمة صدري " وذكر صلاح القلب وفساد في هذا الباب - باب الحلال والحرام - ؛ فيه تنبيه إلى أن صيانة الإنسان نفسه من الولوج في الحرام والدخول فيه أو أن يحوم حول حماه ؛ هذا راجع إلى حال قلبه ؛ فإذا كان القلب ورعاً نزيهاً تقياً سليماً فإنه يبتعد عن الحرام وعن مما يفضي إليه ، وإذا كان القلب ممرضاً سقيماً فإنه لا يبالي ، وهذه المبالاة راجعة للقلب ؛ فإذا كان المرض في القلب قليلاً دخل في المتشابه ، وإذا زاد المرض في القلب دخل في الحرام فرجعت المسألة إلى أهمية إصلاح القلب وتنقيته ؛ فإذا صلح القلب ابتعد الإنسان عن الحرام وابتعد عن المتشابه ، وإذا دخل الفساد في القلب ؛ إن كان الفساد قليلاً لم يبالي بالمتشابهات ، وإذا كان الفساد في القلب كثيراً لا يبالي بالمحرمات ؛ فرجعت المسألة إلى القلوب وصلاحها ؛ فإن كانت صالحة صلحت الأبدان وإن كانت فاسدة فسدت الأبدان والعياذ بالله .

قال الشيخ عبد المحسن حفظه الله تعالى :

[أولاً قوله " إن الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما أمور مشتبها لا يعلمهن كثير من الناس " ؛ فيه تقسم الأشياء إلى ثلاثة أقسام : الأول الحلال البين كالحبوب والثمار وبهيمة الأنعام إذا لم تصل إلى الإنسان بطريق الحرام .

الثاني : الحرام البين كشرب الخمر وأكل الميتة ونكاح ذوات المحارم ؛ وهذان يعلمهما الخاص

والعام .

الثالث : المشتبهات المترددات بين الحل والحرمه ؛ فليست من الحلال البين ولا الحرام البين ، وهذه لا يعلمها كثير من الناس ، ويعلمها بعضهم .

شرح الشيخ :

في قول النبي عليه الصلاة والسلام في صدر هذا الحديث " إن الحلال بيّن وإن الحرام بيّن وبينهما أمورٌ مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس " ؛ فيه تقسيم واضح للأشياء من حيث الحل والحرمه إلى أقسام ثلاثة :

القسم الأول : الحل البين ؛ أي واضح وحله لا يخفى على الناس بل هو واضح مثل الحبوب والثمار وبهيمة الأنعام ؛ فهذه أمور واضحة وبينه لكل أحد ليس في كونها حلال أي خفاء أو اشتباه .

القسم الثاني : حرام بيّن ؛ أي حرمة واضحة للجميع وظاهرة وبينه ؛ مثل شرب الخمر وأكل أموال الناس بالباطل .

القسم الثالث : مشتبه ؛ ليس من الحرام البين أم الحلال البين ؛ وهذا القسم الثالث الاشتباه الذي فيه ليس اشتباهاً مطلقاً وإنما هو اشتباه نسبي ؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام " لا يعلمهن كثير من الناس " ..

قال : [ثانياً قوله " فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه " هذا يرجع إلى القسم الثالث وهو المشتبهات فيتجنبها الإنسان وفي ذلك السلامة لدينه فيما بينه وبين الله ، والسلامة لعرضه فيما بينه وبين الناس ، فلا يكون لهم سبيل إلى

النيل من عرضه بسبب ذلك ، وإذا تساهل في الوقوع في المشتبهات قد يجره ذلك إلى الوقوع في المحرمات الواضحة ، وقد ضرب النبي صلى الله عليه وسلم لذلك المثل بالراعي يرعى حول الحمى ؛ فإنه إذا كان بعيداً عن الحمى سلم من وقوع ماشيته في الحمى ، وإذا كان قريباً منه أوشك أن تقع ماشيته فيه وهو لا يشعر ، والمراد بالحمى ما يحمله الملوكة وغيرهم من الأراضي المخصصة ويمنعون غيرهم من قربها فالذي يرعى حولها يوشك أن يقع فيها فيعرض نفسه للعقوبة ، وحسى الله عز وجل المحارم التي حرمها ، فيجب على العبد الابتعاد عنها وعليه أن يتبعد عن المشتبهات التي قد تؤدي إليها] .

شرح الشيخ :

قول النبي عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث " فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه " ؛ رسم هنا عليه الصلاة والسلام وبيّن المنهج الذي ينبغي أن يكون عليه المسلم فيما يشتبه عليه ؛ قال " فمن اتقى الشبهات " ؛ أرشد عليه الصلاة والسلام إلى اتقاء الشبهات والبعد عنها واجتنابها وعدم الوقوع فيها ؛ هذا المراد باتقاء الشبهات بحيث يكون الإنسان بعيداً عنها . فإذا اتقى الشبهات تحقق له أمران : وهما الاستبراء للدين والاستبراء للعرض ؛ تحققت له البراءة في دينه فيما بينه وبين الله حيث لم يدخل في أمر يخشى أن يناله عليه يوم القيامة عقوبة من الله سبحانه وتعالى ، بينما إذا دخل في أمر مشتبّه معنى ذلك أنه دخل في أمر احتمال أن يكون حرام فيعاقب عليه ؛ فإذا تركه استبرأ لدينه أي حصلت له البراءة في دينه بحيث سلم من أمر يُخشى أن يكون حراماً فيُعاقب عليه يوم القيامة ، وأيضاً يكون حصل له بذلك البراءة ل عرضه ، والمراد ببراءة العرض بينه وبين الناس حتى لا تلوكه ألسن وحتى لا يتكلم فيه الناس وحتى لا يتكلم في عرضه فيكون بذلك استبرأ ل عرضه فحصلت له سلامتان؛ سلامة في الدين وسلامة في العرض " فقد استبرأ لدينه وعرضه " .

ثم ضرب عليه الصلاة والسلام مثلاً توضيحياً قال " كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن

يرتفع فيه ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه " ؛ فهذا مثال توضيحي ؛ مثل الراعي ، الشخص الذي يُتلى بالشبهات مثله مثل راعي الأغنام ، الذي يقترب بأغنامه من مكان محمي - حماه أحد الملوك أو أحد السلاطين - ومنع أحداً أن يرفع بأغنامه فيه ، فراعى الغنم إن اقترب من المكان المحمي ربما دخلت شاة أو شاتان بغير رغبة منه . انفلتت . ؛ لأنه أصبح قريباً من الممنوع ؛ فيتعرض للعقوبة ، ربما عاقبه السلطان عقوبة شديدة لأنه اقترب من المكان الممنوع ، وهكذا الذي يدخل في الشبهات مثله كمثل الذي لا يبالي بأغنامه فيأتي بها إلى مكان قريب من الأمكنة المحمية الممنوعة . وعادةً الملوك يأتون إلى بعض الأماكن المخصصة . الأرض الخصبة . فيمنعون من دخولها ، فتكون خاصة بهم ؛ فإذا جاء الراعي بأغنامه وجعلها ترعى في مكان قريب من المكان المحمي ؛ فرمى فلتت منه غنمة أو غنمتان أو أكثر فتعرض للعقوبة ، لكن إذا أخذ بأغنامه إلى مكان بعيد فإنه أخذ بنفسه إلى سبيل السلامة والأمان من المخاطرة ، فهذا مثال توضيحي رسمه النبي عليه السلام ليكون المسلم في ضوءه عالماً ما ينبغي أن يكون عليه تجاه الأمور المشتبهات ، وأن الواجب عليه تجاه المشتبه أن يكون بعيداً عنه .

قال : [ثالثاً قوله " ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسد فسد الجسد كله ألا وهي القلب " : المضغة القطعة من اللحم على قدر ما يمضغه الآكل ، وفي هذا بيان عظم شأن القلب في الجسد وأنه ملك الأعضاء وأنها تصلح بصلاحه وتفسد بفساده] .

شرح الشيخ :

هذا فيه بيان لخطورة القلب ، وأن القلب إن صلح ؛ صلح البدن ، وإن فسد ؛ فسد البدن ؛ لأن البدن مع القلب تابع ومنقاد ، فالقلب بمثابة الملك للأعضاء ، والأعضاء بمثابة

الجنود المطيعة المؤتمرة ، وقول النبي عليه الصلاة والسلام " ألا إن في الجسد مضغة " ؛ لاحظ أنه صلى الله عليه وسلم لم يقل " ألا إن في الجسد قلبٌ إن صلح ؛ صلح البدن وإن فسد ؛ فسد البدن " ؛ وإنما قال " ألا إن في الجسد مضغة " ، والمضغة هي القطعة الصغيرة من اللحم بقدر ما يمضغ بالفم ؛ إذاً قطعة صغيرة داخل البدن ، والبدن برمته تابع لهذه القطعة الصغيرة ، اليد القدم السمع البصر ... إلى غير ذلك من الحواس ؛ هذه كلها شأنها مع القلب التبعية ؛ فهذا يبين خطورة هذه المضغة ؛ ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام في حديث آخر " التقوى هاهنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات " ؛ أي أن التقوى إن وجدت في القلب فالبدن سيكون على التقوى تبعاً للقلب ، وإن لم توجد التقوى في القلب فالبدن أيضاً سيكون تابعاً للقلب على خلاف التقوى ، هذا معنى قوله عليه الصلاة والسلام " التقوى هاهنا " أي أن القلب إن صلح بتقوى الله جل وعلا صلحت الجوارح تبعاً له . وبعض الناس يفهم هذا الحديث فهماً خاطئاً يقول التقوى هاهنا ؛ يقولها إذا نُهي عن حرام أو أمر بواجب قال التقوى هاهنا ، وبعضهم يفسر المعنى يقول الكلام على القلب ، وبعضهم يزيد تركية لقلبه ويقول : الحمد لله أنا قلبي طيب ، أو يقول أنا قلبي أبيض أو يقول أنا قلبي نقي .. صافي ؛ فيخطئ في فهم كلام النبي صلى الله عليه وسلم ويحمل الحديث على غير معناه ومراده ، وكثيراً ما يقع مثل هذه التفسيرات لكلام النبي عليه الصلاة والسلام بأن يفسر الحديث على هوى يهواه الإنسان .

فقوله عليه الصلاة والسلام " التقوى هاهنا " ويشير إلى صدره ثلاث مرات ؛ تنبيه على أن القلب إذا تحقق فعلاً بتقوى الله سبحانه وتعالى فالبدن كله سيكون على التقوى ، أما إذا لم يكن القلب على تقوى الله سبحانه وتعالى فالجوارح ستكون تابعة له ، وعليه فإن قول النبي عليه الصلاة والسلام " التقوى هاهنا " يفيد أمراً خلاف الذي فهمه أولئك ؛ يفيد أن الفساد الذي يكون في ظاهر الإنسان بفعل محرم أو ترك واجب دليل على نقص التقوى وضعفها فيه ؛ لأنها لو كانت في القلب راسخة متمكنة لكانت الجوارح على السداد

والاستقامة ؛ هذا هو مراد النبي عليه الصلاة والسلام بقول التقوى هاهنا .

ومن فوائد الحديث أهمية العناية بالقلب وإصلاحه وتزكيتة والحرص على أن يكون قلب الإنسان قلباً سليماً .

قال : [رابعاً : قال النووي رحمه الله قوله صلى الله عليه وسلم " فمن وقع في الشبهات وقع في الحرم "]
يحتمل أمرين : أحدهما أن يقع في الحرام وهو يظن أنه ليس بحرام ، والثاني أن يكون المعنى قد قارب أن يقع في الحرام ، وكما قال أن المعاصي يريد الكفر لأن النفس إذا وقعت في المخالفة تدرجت من مفسدة إلى أخرى أكبر منها ، قيل وإليه الإشارة لقوله تعالى لم يقتلوا الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، يريد أنهم تدرجوا بالمعاصي إلى قتل الأنبياء ، وفي الحديث " لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده ويسرق الحبل فتقطع يده أي يتدرج من البيضة والحبل إلى السرقة] .

شرح الشيخ :

هنا ذكر الإمام النووي رحمه الله تعالى في تعليقه على هذا الحديث أن قول النبي عليه الصلاة والسلام " فمن وقع في الشبهات وقع في الحرام " يحتمل أمرين :

الأمر الأول : يحتمل أن يقع في الحرام وهو يظن أنه ليس بحرام ؛ لأن المشتبهات هي لا تخلو من أمرين ؛ إما حلال أو حرام ، لا يدري الإنسان أهو حلال أم حرام ؛ فقوله " وقع في الشبهات وقع في الحرام " يحتمل أن من وقع في الشبهات قد يقع في الحرام من حيث لا يدري أنه ليس بحرام .

الأمر الثاني : أن يكون المعنى قد قارب أن يقع في الحرام ، وهذا كما قيل : المعاصي يريد الكفر ؛ بمعنى أن من استبرأ معصية الله واستهان واستخف بهذا الأمر ومالت نفسه إليه ؛ ربما

تمادى في المعاصي إلى أن يقع في الكفر بالله سبحانه وتعالى ؛ قال رحمه الله " لأن النفس إذا وقعت في المخالفة تدرجت من مفسدة إلى أخرى أكبر منها " ؛ ولهذا لو يلاحظ حال كبار المجرمين العناد في الإجمام ؛ هل هؤلاء وصلوا إلى هذه الرتبة من العتو والتوغل في الإجمام فجأة ؟ أم أنهم وصلوا إليها عبر خطوات في الإجمام ؟ ولهذا تجد هؤلاء المجرمين الذين بلغوا مبلغاً خطيراً في الإجمام ؛ لهم بدايات ، وكان دخولهم في الإجمام عبر خطوات ، والله جل وعلا يقول {ولا تتبعوا خطوات الشياطين} ؛ لأن الشيطان يوصل الإنسان إلى الضلال المبين عبر خطواته ، يتدرج به في الباطل خطوة خطوة إلى أن يجعله موعلاً في الحرام أو الكفر بالله سبحانه وتعالى . قال " لان النفس إذا وقعت في المخالفة تدرجت من مفسدة إلى أخرى أكبر منها " ، قيل وإليه الإشارة إلى قوله تعالى {وقتلهم الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون} بغير حق أي بما عصوا ، عصيانهم كان بريداً وصلوا إلى هذه الرتبة من الضلال والفساد .. ؛ فالآية فيها شاهد إلى أن المعصية بريد الكفر . وأورد أيضاً رحمه الله قول النبي صلى الله عليه وسلم " لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده، ويسرق الحبل فتقطع يده " ومن المعلوم أن الحبل والبيضة لا تقطع بما اليد ؛ لكن المعنى أن السارق أول ما يبدأ بالسرقة يسرق أموراً يسيرة ، وتستمرئ نفسه السرقة فيتمادى في هذا الأمر إلى أن يسرق أموراً فتقطع بما يده ؛ وهذا فيه التنبيه إلى خطورة تدرج الإنسان في الباطل ، وأن نفس الإنسان ضعيفة إذا أدخلها خطوة في شيء محرم أو شيء مشتبه ؛ بعد أيام طالبتة بخطوة ثانية ؛ فإذا استجاب طالبتة بخطوة ثالثة وهكذا يخطو خطوات إلى أن يوغل في الحرام والباطل والعياذ بالله ، والحرام أول ما يبدأ يكون شبراً وكذلك البدعة . كما يقول شيخ الإسلام . ، ثم تكون ذراعاً ثم تمتد إلى ما شاء الله ، جاء في حديث بن مسعود رضي الله عنه قال خط النبي صلى الله عليه وسلم خطأً مستقيماً وخط على جنبتي الخطوط وقال :

" هذا سبيل الله وهذه سُبُل وعلى كل سبيل منها شيطان يدعو إليه " ؛ لاحظوا الآتي :

صراط مستقيم وعلى جنبتيه سبل ؛ هذه السُّبُل إذا دخل الإنسان في سبيل من هذه السبل

في أول دخوله تكون المسافة بين أحد هذه السبل والصراط قليلة ، إذا استمر في هذا السبيل المائل ومضى فيه تزيد المسافة ؛ وإذا زاد في هذه السبل زاد بعده عن صراط الله المستقيم ؛ فالمسلم مطالب أن يحفظ نفسه بالثبات على الصراط المستقيم والثبات عليه وأن لا تدخل في شيء من هذه السبل لأنه إن دخل فيها ابتعد رويداً رويداً عن صراط الله المستقيم ، ثم يتوغل والعياذ بالله في السبل التي تفضي بداخلها إلى نار جهنم .

قال : [النعمان بن بشير رضي الله عنهما من صغار الصحابة وقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمره ثمان سنوات وقد قال في رواية هذا الحديث سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ؛ وهو يدل على صحة تحمل الصغير المميز وأن ما تحمله في حال صغره وأداه في حال كبره فهو مقبول ومثله الكافر إذا تحمل في حال كفره وأدّى في حال إسلامه]
 . شرح الشيخ :

النعمان بن بشير رضي الله عنهما من صغار الصحابة ، والنبي عليه الصلاة والسلام توفي وعمر النعمان ثمان سنوات ، ويقول النعمان وهو يروي هذا الحديث : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ معنى ذلك أن النعمان سمع من النبي عليه الصلاة والسلام ربما كان عمره سبع سنوات أو ست سنوات ونصف أو نحو ذلك ، وضبط رضي الله عنه كما سمعه من النبي عليه الصلاة والسلام ، ورواه وسمع منه وتناقلته الأمة حديثاً عظيماً عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، والذي سمعه منه هذا الصحابي الصغير ؛ أنظر هذا الخير الذي حفظه هذا الصحابي المبارك رضي الله عنه وأرضاه في صغره ؛ وهذا فيه لفظة تربوية للصغار إذا أكرمهم الله سبحانه وتعالى بحضور مجالس العلم وعمرهم سبع سنوات أو ست أو ثمان .. ؛ لا يلعب عليهم الشيطان ويقول : أنت صغير ما الفائدة أن تحفظ ؛ بل عليه أن ينتبه وأن يحرص على ضبط العلم بحيث إذا كبر وكان في صغره حفظ كلمات في مجالس العلم يرويه

للناس ؛ يقول سمعت العالم الفلاني أو الشيخ الفلاني يقول هذا حرام ، أو سمعته يقول هذا حلال ، فإذا كان مميزاً ويضبط عليه أن يحفظ .. ، الآن مما يؤسف له أن حافظة الصغار ذهبت في توافه الأمور وحقير الأشياء ؛ تجد الصغار يُحَفِّظُونَ أموراً تافهة من وسائل الإعلام وغيرها ويحفظها ويضبطها وتبقى في محفوظاته ، لكن إذا اتجهت همه الصغير وأكرمهم الله سبحانه وتعالى بالجلوس في مجالس العلم وحرص على ضبط ذلك ؛ فإنه يكبر وهي معه ، وأذكر أحد الزملاء الأفاضل يقول : كنت صغيراً في المجلس النبوي فجلست في مجلس أحد أهل العلم فسمعته يروي الحديث " لعن الله من ذبح لغير الله لعن الله من لعن والديه لعن الله من لعن منار الأرض لعن الله من آوى محدثاً " ؛ يقول : أول مرة أسمع الحديث وأنا صغير فضبطت الأربع . من أول مرة سمعتها ضبطها . وأيضاً فهمت المعنى إلا قوله صلى الله عليه وسلم " لعن الله من غير منار الأرض " فما عرفتها ؛ فلما انتهى الدرس أتيت إليه وقلت له ما معنى منار الأرض ؟ يقول ولا تزال هذه الفائدة ثابتة عندي وأنا طفل صغير أخذتها من المسجد النبوي .

فالشاهد أن الصغير إذا أكرمه الله سبحانه وتعالى بحضور مجالس العلم ؛ يلقي باله ويحاول أن يقتنص الفائدة والاثنين والثلاثة قدر استطاعته ، ولا يقول إن هذا المجلس ليس لي فيه نصيب ؛ بل لك نصيب ؛ فانظر إلى هذا الحديث . حديث النعمان . حفظه للأمة ورواه صحابي وقتها كان صغيراً ؛ فوقت تحمله لهذا الحديث لم يبلغ ثمان سنوات ، تحمله صغيراً وأداه كبيراً . وأيضاً وقد يقع أن كافراً حال كفره تحمل . بمعنى أنه سمع وحفظ . لكنه لم يكن على الإسلام ، ثم هداه الله للإسلام فما تحمله حال كفره وأداه حال إسلامه يُقبل منه .

فالشاهد أن رواية النعمان بن بشير للحديث فيه لفظة تربوية لتوجيه الصغار بأن يكون انموذجاً لهم في الحرص على العلم وضبطه والعناية به .

قال : [سادساً مما يستفاد من الحديث :

أولاً : بيان تقسيم الأشياء في الشريعة إلى حلال بيّن وحرام بيّن ومشتبه متردد بينهما .

ثانياً : أن المشتبه لا يعلمه كثير من الناس وأن بعضهم يعلم حكمه بدليله .

ثالثاً : ترك مكيال المشتبه حتى يُعلم حُلُّه .

رابعاً : ضرب الأمثال لتقرير المعاني المعنوية لتشبيهها بالحسية .

خامساً : أن الإنسان إذا وقع في الأمور المشتبهة هان عليه أن يقع في الأمور الواضحة .

سادساً : بيان عظم شأن القلب ، وأن الأعضاء تابعة له تصلح بصلاحه وتفسد بفساده .

سابعاً : أن فساد الظاهر دليل على فساد الباطن .

ثامناً : أن في اتقاء الشبهات محافظة الإنسان على دينه من النقص وعرضه من العيب والسلب .

والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

* . * . *



شرح الأربعين النووية

لأبي زكريا يحيى بن شرف الحزامي النووي رحمه الله

من الدرس العاشر إلى الدرس الثاني عشر

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما الله تعالى

١٤٤٠/٠٥/٢٩ هـ

الدرس العاشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد ..

الحديث السابع

عن أبي رقية تميم بن أوس الداري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « الدين النصيحة قلنا لمن ؟ قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » رواه مسلم

الشرح..

هذا الحديث من الأحاديث العظيمة الجامعة لأمر الدين ؛ فهو من جوامع كلم الرسول صلوات الله و سلامه عليه ، وقد بيّن عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث العظيم مكانة النصيحة من الدين ومنزلتها منه ، وأن النصيحة لها من الدين المكانة العليا والمنزلة الرفيعة ؛ ولهذا صدرّ الحديث بقوله عليه الصلاة والسلام " الدين النصيحة " .

وكنا عرفنا فيما سبق في حديث جبريل المشهور أن الدين ثلاث مراتب: الإسلام والإيمان والإحسان لقوله عليه الصلاة والسلام في تمام الحديث « هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » فالدين يجمع تلك المراتب كما ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل ،

وهنا في هذا الحديث قال عليه الصلاة والسلام : " الدين النصيحة " ؛ فقلوه " الدين " أي بمراتبه . الإسلام والإيمان والإحسان . ؛ بمعنى أن النصيحة مطلوبة في الدين كله فما من أمر من أمور الدين ولا جانب من جوانبه سواء منها الأصول أو الفروع إلا والنصيحة مطلوبة فيه ولهذا قال عليه الصلاة والسلام " الدين النصيحة " بمعنى أن النصيحة أمر لا بد منه في الدين كله في أي جانب من جوانبه وأي مجال من مجالاته لا بد من النصيحة ، لا بد أن يكون العبد ناصحاً ولما قال عليه الصلاة والسلام هذه الكلمة الجامعة " الدين النصيحة " أدرك الصحابة رضي الله عنهم مكانة النصيحة من الدين ومنزلتها منه ؛ فاتجه منهم السؤال " لمن " ؟ أي عرفنا شأن النصيحة من الدين ؛ فلمن تكون النصيحة ؟

اتجه منهم السؤال إلى ذلك ،، وقول الصحابة رضي الله عنهم " لمن " ؛ هذا سؤال يدل على عظيم الرغبة في الخير وتمام الاستعداد للنصح ، فحال الصحابة في قولهم " لمن " حال من استعد للنصيحة وتحمياً للقيام بها ، ولم يبق عليه إلا أن يعرف مجالاتها ؛ ولهذا اتجه منهم السؤال إلى النبي عليه الصلاة والسلام بقولهم " لمن " أي لمن تكون ولمن تبذل " قالوا لمن " .

قال " لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم " : فذكر لهم عليه الصلاة والسلام أن النصيحة مطلوبة في ذلك كله لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ؛ فهذه خمسة مجالات لا بد للنصيحة فيها ، لا بد أن يكون العبد ناصحاً لله وأن يكون ناصحاً لرسوله ، و أن يكون ناصحاً لأئمة المسلمين وأن يكون ناصحاً لعامتهم ، باذلاً النصح للجميع ولكل حقه من النصيحة اللائقة بالمقام ، لكنها مطلوبة للجميع .

وأصل معنى هذه الكلمة إرادة الخير للمنصوح له وأيضاً القيام بالخير ؛ فالنصيحة قيامٌ بالخير للمنصوح له وأيضاً إرادة الخير له ؛ وهذا يدل على أن النصيحة تتطلب من الناصح نقاء القلب وصفاءه وسلامته ، وتتطلب منه أيضاً حسن العمل في حق المنصوح له كل بما يليق به ، فالنصيحة هي الدين وقوله عليه الصلاة والسلام " الدين النصيحة " ؛ فيه تعلية لشأن النصيحة وبيان لمكانتها العلية من الدين مثل قوله صلى الله عليه وسلم « الحج عرفة » ؛ فهذا يدل على أن عرفة من الحج وأنه ركن الحج الأعظم ، وكقوله عليه الصلاة والسلام « الدعاء هو العبادة » فهذا يبين مكان الدعاء من العبادة ، وقوله هنا " الدين النصيحة " يبين مكانة النصيحة من الدين وأن النصيحة أمر مطلوب في الدين كله نصحا لله ونصحا لكتابه ونصحا لرسوله ونصحا لأئمة الناس وعامتهم ، وسيأتي بيان ذلك كله

قال الشيخ عبد المحسن حفظه الله تعالى ورعاه :

[قوله « الدين النصيحة » هذه كلمة جامعة تدل على أهمية النصيحة من الدين وأنها أساسه وعماده ، ويدخل تحتها ما جاء في حديث جبريل من تفسير الرسول صلى الله عليه وسلم الإسلام والإيمان والإحسان ، وأنه سمي ذلك ديناً ، وقال هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم ، ويشبهه هذه الجملة قوله صلى الله عليه وسلم « الحج عرفة » ذلك لأنه الركن الأعظم في الحج الذي يفوت الحج

بفواته .

الشرح..

بدأ النبي عليه الصلاة والسلام الحديث بهذه الكلمة الجامعة " الدين النصيحة " ، وجاء في بعض الروايات أنه عليه الصلاة والسلام كرر هذه الكلمة ثلاثاً قال " الدين النصيحة .. الدين النصيحة .. الدين النصيحة " اهتماماً بالأمر وتأكيداً عليه . لان التكرار يدل على الاهتمام والتأكيد .

قوله عليه الصلاة والسلام " الدين النصيحة " : كلمة جامعة تدل على مكانة النصيحة من الدين ، وهي نضير قول النبي عليه الصلاة والسلام « الحج عرفة » ، وقوله عليه الصلاة والسلام « الدعاء هو العبادة » .

[ثانياً: جاء في مستخرج أبي عوانة أن النبي صلى الله عليه وسلم كرر هذه الجملة « الدين النصيحة » ثلاثاً ، وهي في صحيح مسلم بدون تكرار ، ولما سمع الصحابة هذه العناية والاهتمام بالنصيحة وأنها بهذه المنزلة العظيمة قالوا لمن يا رسول الله ؛ فأجابهم بالخمس المذكورة في الحديث ، وقد جاء عن جماعة من أهل العلم تفسير هذه الخمس ؛ ومن أحسن ذلك ما جاء عن أبي عمر بن الصلاح في كتابه " صيانة صحيح مسلم من الإخلال والغلط وحمائته من الإسقاط والسقط] .

الشرح..

هذا الحديث جاء في مستخرج أبي عوانة أن النبي صلى الله عليه وسلم كرر هذا اللفظ ثلاث مرات ؛ أي أنه قال " الدين النصيحة .. الدين النصيحة .. الدين النصيحة " اهتماماً ، وعرفنا فائدة التكرار وما فيه الاهتمام والتأكيد ، والصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم لما سمعوا اهتمام النبي وعناية بالنصيحة وتوجيهه إليها وبيان أن الدين النصيحة اتجهت همتهم وعزيمتهم ورغبتهم إلى القيام بالنصح الذي هو الدين ؛ فسألوا النبي عليه الصلاة والسلام قائلين لمن ؛ وكما قدمت قول الصحابة " لمن " هذا دليل على صدق الرغبة لديهم وتمام الحرص على فعل النصيحة وبذلها ، فهم أدركوا قيمتها ومكانتها وسألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن مجالاتها ؛ قالوا لمن يارسول الله أي لمن تُبذل ومن تُقدَّم ومن تكون ؛ فأجاب صلوات الله وسلامه عليه بالخمس المذكورة في الحديث أي قال : " لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين

وعامتهم " .

وفي بيان معنى النصح في هذه الخمس المذكورة في هذا الحديث ؛ لأهل العلم أقاويل عديدة ، وجاء عنهم في ذلك نقول مفيدة ؛ من أحسنها وأجودها وأجمعها ما نُقل عن أبي عمرو بن الصلاح رحمه الله تعالى كتابته " صيانة صحيح مسلم " وكتابه مطبوع وأيضاً كلامه هذا نقله بتمامه الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى في كتابه جامع العلوم والحكم ، ونقل أيضاً بعض النقول الأخرى عن علماء آخرين في بيان معنى النصيحة منهم محمد بن نصر المروزي وغيره .

والكلام الآتي المنقول عن أبي عمرو بن الصلاح كلام عظيم في بيان معنى النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم .

قال رحمه الله تعالى :

[والنصيحة كلمة جامعة تتضمن قيام الناصح للمنصوح له بوجوه الخير إرادةً وفعلاً ؛ فالنصيحة لله تبارك وتعالى توحيده ووصفه بصفات الكمال والجلال جمع وتنزيهه عما يضادها ويخالفها وتجنب معاصيه والقيام بطاعته ومحابه بوصف الإخلاص والحب فيه والبغض فيه وجهاد من كفر به تعالى وما ضاهى ذلك والدعاء إلى ذلك والحث عليه] .

الشرح..

قال ابن الصلاح رحمه الله في بيان معنى النصيحة قال: " هي قيام الناصح للمنصوح له بوجوه الخير إرادةً وفعلاً " وهذا يفيد أن النصيحة لا بد فيها من عمل القلب، ولا بد فيها أيضاً من عمل الجوارح ؛ بمعنى أن القلب لا بد أن يكون ناصحاً والجوارح أيضاً لا بد أن تكون ناصحة ، فليس النصح أمراً في القلب فقط ؛ بل النصح في القلب والجوارح ، وكما أن القلب ينصح فاليد أيضاً تنصح والعين تنصح واللسان ينصح ؛ فالنصح يكون بالقلب إرادةً ويكون بالجوارح فعلاً .

والنصح هو القيام بوجوه الخير أي أن يبذل الناصح الخير للمنصوح بوجوهه وأنواعه وأفراده قدر استطاعته ولا يكون النصح بالقلب فقط بل لا بد مع القلب أيضاً من الجوارح ؛ ولهذا قال رحمه الله " هو قيام الناصح للمنصوح له بوجوه الخير إرادةً وفعلاً "

إرادةً : أي في القلب . لأن الإرادة محلها القلب .

وفِعْلاً : أي بالجوارح ، باللسان بالعين والبصر واليد والقدم .. وكل بحسبه وفي مجاله .

ثم بيّن رحمه الله تعالى ما يتعلق بالنصح لله . كيف يكون . ؛ قال : والنصيحة لله تبارك وتعالى توحيده ووصفه بصفات الكمال والجلال ، توحيده .. أي في ربوبيته وأسماءه وصفاته وألوهيته ، توحيده في ربوبيته باعتقاد أنه وحده الخالق الرازق المنعم المتصرف المدبر لشؤون الخلائق ، وتوحيده بأسماءه وصفاته بإثباتها والإيمان بها وعدم جحدها أو تعطيلها وعدم تمثيل الله تبارك وتعالى بخلقه أو محاولة تكييف صفاته وتنزيهه تبارك وتعالى عما لا يليق به من النقائص ، وتوحيده تبارك وتعالى بالعبادة بإخلاص الدين له وإفراده جل وعلا بالعبادة والبراءة من الشرك والخلوص منه ؛ بهذا يكون العبد ناصحاً في باب التوحيد لله جل وعلا .

فالنصح لله توحيدُهُ ؛ وبهذا يُعلم أن المشرك ليس ناصحاً لله ، وأيضاً من ينسب شيئاً من خصائص الله في ربوبيته لغيره ليس ناصحاً لله كمن يدّعي في بعض المخلوقين أنهم يعلمون الغيب وأنهم يعلمون ما كان وكان ؛ هذا من خصائص الله فمن ادعى شيئاً من خصائص الله لغيره لا يكون ناصحاً لله تبارك وتعالى ، وكذلك من يدعي في شيء من المخلوقات أن لها تصرفاً في هذا الكون وتديراً ونحو ذلك من خصائص الله في ربوبيته ؛ فمن قال ذلك ليس ناصحاً لله تبارك وتعالى بل اتخذ مع الله الشريك . وكذلك من يعطل صفات الله أو يعطل شيئاً منها أو ينفيها ويجحدها أو يحرف معانيها ودلالاتها ، أو يحاول تكييف شيء من صفات الله أو يقيس الله تبارك وتعالى وتقدس بخلقه ؛ فهؤلاء كلهم ليسوا ناصحين لله تبارك وتعالى .

وكذلك من يصرف شيئاً من حقوق الله . التي هي العبادة بأنواعها . لغيره كأن يدعو غير الله أو يستغيث بغير الله أو يذبح لغير الله أو يصرف شيئاً من أنواع العبادة لغير الله ؛ فهؤلاء كلهم ليسوا ناصحين لله ، لم يحققوا النصيحة لله تبارك وتعالى ؛ لأن النصيحة لله لا تكون إلا بتوحيده ، ولا يكون من الناس ناصحاً لله إلا الموحد ، الموحد في الألوهية والربوبية والأسماء والصفات ، أما المشرك والجاحد والمعطل والممثل وغير هؤلاء من أرباب الضلال ؛ فهؤلاء كلهم ليسوا من أهل النصيحة وليسوا من النصيحة في شيء الله تبارك وتعالى

فالنصيحة لله إنما تكون بتوحيده وإفراده سبحانه وتعالى بما خلق الخلق لأجله وأوجدهم لتحقيقه

كما قال سبحانه وتعالى ﴿ وما خلقت الجنَّ والإنسَ إلا ليعبدون ﴾ فهو خلق الخلق ليعبدوه وليؤمنوا به سبحانه وتعالى وليقرؤا بكماله وجلاله وعظمته فمن صرف شيئا من حقوق الله أو خصائصه لغيره سبحانه وتعالى فقد خرج من النصيحة ولم يكن من أهلها ، لا يكون ناصحا لله .

فإذا الأمر الأول . الذي هو النصح لله . يكون أولاً بالتوحيد ، توحيد الله جل وعلا في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات .

قال " توحيده ووصفه بصفات الكمال والجلال " أي وصف الله بالكمال والجلال مما وصف تبارك وتعالى به نفسه ووصفه به رسوله صلوات الله وسلامه عليه ؛ فإذا وصف الله بصفات الكمال والجلال الثابتة في الكتاب والسنة هذا من النصح لله ، على خلاف ما يعتقده المعطلة ؛ المعطلة يزعمون أن النصح لله تبارك وتعالى يتطلب نفي صفاته الثابتة في الكتاب والسنة ؛ ولهذا في كتبهم يقررون نفي للصفات ظناً منهم أن هذا حقيقة النصح لله جل وعلا ، فينزّهون الله بزعمهم عن صفاته ، ينزهونه عن علوه الثابت في القرآن والسنة ، وينزهونه عن صفات كثيرة ثبتت له في كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ؛ هذا ليس من النصح في شيء ، النصح لله أن نصف الله تبارك وتعالى بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله عليه الصلاة والسلام ، ومن لم يكن كذلك بأن كان محرفاً أو كان معطلاً أو كان مُكَيِّفاً أو كان ممثلاً ؛ كل هؤلاء ما نصحوا لله وليسوا من أهل النصيحة لله تبارك وتعالى ؛ لأن حقيقة النصيحة لله أن ثبت الصفات كما جاءت وأن غمرها كما وردت إثباتاً بلا تكييف وتنزيهاً بلا تعطيل على حد قوله تبارك وتعالى ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ .

قال : " ووصفه بصفات الكمال والجلال " .. هكذا جاءت الكلمة هنا ، وهي موجودة في كتاب "صيانة صحيح مسلم" وعندما نقل الحافظ بن رجب رحمه الله تعالى هذا الكلام لم يذكر هذه الكلمة ؛ فلا أدري عن معناها أو مدلولها في هذا السياق ، لكنها ليست موجودة عند الحافظ بن رجب رحمه الله عندما نقل هذا النص عن ابن الصلاح رحمه الله تعالى ، وهي موجودة هكذا في كتاب الأصل ، وهي تحتاج إلى تحقيق ومراجعة .

ثم قال " وتنزيهه عما يضادها ويخالفها " .. تنزيهه أي الله سبحانه وتعالى ، تنزيهه عما يضادها أو يخالفها على حد قوله جل وعلا ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ ، وقوله تعالى ﴿ فلا تضربوا لله الأمثال ﴾

وقوله جل وعلا ﴿ هل تعلم له سمياً ﴾ وقوله جل وعلا ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً ﴾ وقوله جل وعلا ﴿ ولم يكن له كفواً أحد ﴾ فنثبت لله تبارك وتعالى صفات الكمال ونعوت الجلال وننزه الله تبارك وتعالى عما يضاد ذلك من النقائص ومما لا يليق به جل وعلا ، وأيضاً ننزهه تبارك وتعالى عن مماثلة المخلوقين .

ولهذا قال أهل العلم إن باب التنزيه يتناول جانبين : الجانب الأول تنزيه الله عن النقائص والعيوب ، والجانب الثاني تنزيهه تبارك وتعالى عن مماثلة المخلوقين .

قال : " وتجنب معاصيه " .. وهذا من النصيحة لله تبارك وتعالى ؛ لأنه سبحانه وتعالى خلقت لتكون عبداً مطيعاً لا لتكون إنساناً عاصياً ، فمن النصيحة له أن لا تعصيه سبحانه وتعالى ، وأن تجاهد نفسك على تجنب معاصيه والبعد عن كل أمر يسخطه سبحانه وتعالى ، وإذا انفلتت نفسك ووقعت في معصية وارتكبت ذنباً فبادر إلى التوبة والأوبة والرجوع إليه سبحانه وتعالى ، وقد قال عليه الصلاة والسلام « كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون » فيبادر العبد إلى التوبة النصوح كما قال الله سبحانه وتعالى ﴿ توبوا إلى الله توبة نصوحاً ﴾ فيتوب إلى الله توبة نصوحاً ؛ وهذا من النصح لله أن تتجنب الذنوب وتتحاشى من الوقوع فيها وإذا ابتلي العبد بشيء من الذنوب يبادر إلى التوبة النصوح من الذنب الذي وقع فيه أو من كل ذنب وقع فيه .

قال : " والقيام بطاعته و محابه بوصف الإخلاص " .. أي أن يقوم العبد الناصح بطاعة الله بفعل ما أمر سبحانه وتعالى وفعل ما يحب الله من عباده أن يفعلوه ، ويجاهد نفسه على فعل ذلك بوصف الإخلاص أي أن يقوم بالطاعة وفعل المحاب مخلصاً لله ، لا يفعل الطاعة رياءً ولا سمعة ولا يريد بها الدنيا وإنما يفعل الطاعة بوصف النصيحة كما قال جل وعلا ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾ وكما قال جل وعلا ﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾ فيفعل الطاعة والأمر التي يحبها الله سبحانه وتعالى بوصف الإخلاص أي يفعلها مخلصاً لله لأنه إذا فعل الشيء الذي يحبه الله وأمر عباده سبحانه وتعالى به على غير وصف الإخلاص لا يقبله الله منه ، كما في الحديث القدسي " أنا أغني الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه " .

قال : " والحب فيه والبغض فيه " .. أي في الله سبحانه وتعالى ، وهذا أوثق عرى الإيمان كما قال عليه الصلاة والسلام « أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله » ، وقال عليه الصلاة والسلام « من أحب لله

وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان » وقال عليه الصلاة والسلام « ثلاث من كن فيه وجد بحنّ حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما .. » الحديث .

قال : " وجهاد من كفر به تعالى " .. أيضاً مجاهدة الكفار وأرباب البدع وأهل الباطل بالسنن لمن قدر على ذلك وكان من أهل ذلك بالضوابط الشرعية أو باللسان من أهل العلم برد أباطيل الكفار وبيان زيغهم وضلالهم وكشف شبهاتهم وأباطيلهم ورد البدع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ هذا كله داخلٌ في النصيحة لله تبارك وتعالى .

قال : " وما ضاهى ذلك " .. أي من الأمور والأعمال التي هي من جملة النصيحة لله عز و جل .

قال : " والدعاء إلى ذلك والحث عليه " .. أي من النصيحة لله تبارك وتعالى أن تحث العباد إلى أن يكونوا ناصحين لله ؛ وهذا فيه التنبيه أن من أكرمه الله سبحانه وتعالى بأن يكون ناصحاً لله بأعماله هو ، القيام بها على الوجه الذي يرضيه لا يكفي ذلك بل لابد مع ذلك أن يحث العباد على أن يكونوا ناصحين لله جل وعلا كما قال سبحانه وتعالى ﴿ والعصر ﴾ إن الإنسان لفي خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ .

قال [والنصيحة لكتابته الإيمان به وتعظيمه وتنزيهه وتلاوته حق تلاوته والوقوف مع أوامره ونواهيه وتفهم علومه وأمثاله وتدبر آياته والدعاء إليه ودب تحريف الغالين وطعن الملحدين عنه] .

الشرح ..

ثم ذكر رحمه الله تعالى معنى النصيحة لكتاب الله جل و علا الذي هو القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ؛ فالنصيحة لهذا الكتاب العظيم كيف تكون ؟

قال رحمه الله : " والنصيحة لكتابته الإيمان به " .. كما قال الله جل وعلا ﴿ يا أيها الذين آمنوا آمِنُوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله ﴾ وقال جل وعلا ﴿ كل آمن بالله وملائكته وكتبه ﴾ وقال

جل وعلا ﴿ ولكن البرَّ من آمن بالله واليوم الآخرِ والملائكةِ والكتابِ ﴾ فالنصيحة للكتاب الإيمان به ، والإيمان به أي الإيمان بأنه وحى الله تبارك وتعالى وتنزيله وأنه كلامه سبحانه وتعالى وأن فيه الهداية للخلق وفيه بيان الحق وفيه الدعوة إلى الهدى وفيه سعادة البشرية وصلاحهم .

قال : " وتعظيمه وتنزيهه " .. " تعظيمه " أي بمعرفة فضل كتاب الله عز وجل ومكانته العظمى كما قال بعض السلف رحمهم الله ؛ قال " من أراد أن يعرف الفرق بين كلام الله وكلام المخلوقين فهو كالفرق بين الله وبين المخلوقين ، فلا بد من قدر كلام الله سبحانه وتعالى حق قدره ولا بد من تعظيم كلام الله سبحانه وتعالى يقول الله تعالى ﴿ ذلك ومن يُعَظِّمُ شعائرَ اللَّهِ فإنها من تقوى القلوب ﴾ فتعظيم كلام الله عز وجل المشتمل على الشعائر والهدى والحق والدين القويم وصلاح البشرية والإقرار بأنه كلام الله سبحانه وتعالى تكلم به هو جل وعلا سمعه منه جبريل ونزل به إلى محمد عليه الصلاة والسلام وقدره حق قدره ؛ هذا من النصيحة لكلام الله تبارك وتعالى .

" وتنزيهه " .. أيضاً كتاب الله عز وجل يجب أن ينزه ويصان عن كل ما لا يليق به ، ينزه عن الامتهان وينزه عن أن يُحتقر وينزه عن أن يعبث به عابث أو يحرفه محرف أو ينتقصه منتقص ، ينزه كلام الله تبارك وتعالى عن ذلك كله ويصان ، فكتاب الله جل وعلا من النصيحة له أن يعظم ومن النصيحة له أن ينزه ومعنى أن ينزه أي أن يصان عن كل أمر لا يليق بكلام الله تبارك وتعالى ؛ ولهذا حرام امتهان القرآن أو تحقير القرآن أو تعريض القرآن للامتهان ؛ حرام أشد الحرمة وأمر باطل ومنكر من العمل ؛ ولهذا اتخذ أربابُ السحر والعياذ بالله انتقاص القرآن وامتهانه باباً لمن أراد أن يتعلم لديهم السحر ، وعامة السحرة يجعلون من جملة أعمالهم في عقد السحر امتهان كتاب الله وامتهان آياته ويتقربون بهذا إلى الشياطين حتى تعينهم على باطلهم وضلالهم وما يريدون فعله من فساد .

فالشاهد أن كتاب الله جل وعلا يجب أن يُصان ويجب أن يُنزه عن كل ما لا يليق به ؛ ولهذا قال أهل العلم بعدم جواز تعليق التيممة من القرآن لأسباب كثيرة ذكروا منها أن في تعليق التيممة من القرآن امتهاناً للقرآن وتعريضاً للقرآن للامتهان والقرآن يجب أن يصان وينزه من أن يُمتنهن ؛ ولهذا يجب على العبد نصحاً لكتاب الله تبارك وتعالى أن لا يعرض كلام الله للامتهان والانتقاص ولو من غير قصد ، فأحياناً بعض الناس في بعض المساجد يمدُّ قدميه وأمام قدميه

مباشرة كتابُ الله سبحانه وتعالى هذا مما ينافي النصح ، أو يجعل فوق القرآن أمتعته بل ربما أشياء سيئة يجعلها فوق القرآن مثل أن يجعل جواله فوق القرآن ويكون الجوال مشتمل على أمور منكرة وباطلة ، فكتاب الله جل وعلا يجب أن يُحترم ويجب أن يُصان وأن تُعرف له منزلته ومكانته وقدره ؛ ولهذا أيضاً من النصح لكتاب الله تبارك وتعالى أن لا يمَس القرآن إلا طاهر ؛ فكل ذلكم من احترام القرآن وتنزيه القرآن وصيانة القرآن ؛ وهذا كله داخل في النصيحة لكلام الله سبحانه وتعالى ، وكذلك أيضاً ينزه من أن يرمى في الأرض أو أجزاء منه أو أوراق من المصحف ؛ فهذا أمرٌ لا بد منه تنزيهاً لكتاب الله ونصحاً له ، وبعض الناس لا يبالي بهذا الأمر ، وأحياناً توجد بعض من أوراق المصحف متساقطة في الأرض غير مبالٍ بهذا فهذا من الأمور التي يجب أن يُنتبه لها ، ومما أنبه عليه في هذا المقام ما يفعله بعض الناس من تعريض المصحف لحرارة الشمس في السيارة حتى يتمزق أو حتى يتلف تلفاً سريعاً ، فيضع المصحف في السيارة أمامه ويتركه أياماً ثم يتلف سريعاً ؛ فيجب أن يكون القرآن له قيمة عند حامله وصاحبه . يراعه ويصونه ويحافظ عليه . ولهذا بعض الناس يوفق في هذا الباب ويعتني بالمصحف عناية دقيقة فيبقى لأجيال كثيرة جداً ، وفي بعض البيوت ربما لا يستفيد منه إلا شخص واحد ثم يصبح بعد ذلك غير صالح بل قد تمزقت أوراقه.. إلى آخره ؛ فينبغي على عموم المسلمين أن ينصحوا لكتاب الله جل وعلا ، وأن تكون منهم عناية بهذا القرآن بكل ما تتطلبه النصيحة من معنى ومن ذلكم أيضاً ما جاء في قوله تعالى ﴿ إِنْ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ فمن عدم النصح للقرآن هجر القرآن سواءً هجر التلاوة أو هجر التدبر أو هجر العمل بالقرآن ؛ هذا كله يتنافى مع ما ينبغي أن يكون عليه المسلم من النصيحة لكتاب الله تبارك وتعالى .

قال : " وتلاوته حق تلاوته " .. أي من النصيحة للقرآن تلاوة القرآن حق التلاوة كما قال سبحانه وتعالى ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾

وقد بين العلماء رحمهم الله تعالى أن تلاوة القرآن حق التلاوة تكون بأمر ثلاثة :

- الأول : حسن القراءة للقرآن والمراجعة والحفظ والاستذكار .
- الجانب الثاني : التدبر للمعاني وعقل الدلالات قال الله تعالى ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ﴾ وقال تعالى ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ وقال ﴿

أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴿١﴾ وقال ﴿أفلم يدبروا القول﴾ فالجانب الآخر تدبر القرآن ومعرفة معانيه ودلالاته في ضوء ما نقل عن السلف الأولين من الصحابة والتابعين وفي ضوء ما كتبه الأئمة الراسخون والعلماء المحققين في كتب التفسير المعتمدة .

• والأمر الثالث : العمل بالقرآن ؛ فالعمل بالقرآن تلاوة للقرآن فليست التلاوة مجرد القراءة بل العمل بالقرآن يُعد تلاوة للقرآن ، وقد دل القرآن على أن العمل الذي هو اتباع القرآن والالتزام بأمره يسمى تلاوة كما في قوله تعالى ﴿ والقمر إذا تلاها ﴾ أي تبعها ، فلا يكون تالياً للقرآن إلا من اتبع القرآن لأن من معاني التلاوة في اللغة الاتباع . تلا فلانٌ فلاناً أي تبعه . فليست تلاوة القرآن بمجرد القراءة لحروف بل لا يكون تالياً للقرآن حقاً حتى يعمل بالقرآن ويتبع القرآن ؛ وهذا معنى قوله تعالى ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته ﴾ يتلونه حق تلاوته بالقراءة والحفظ وبالفهم والتدبر والعمل و الاتباع ؛ بهذه الأمور الثلاثة يكون العبد تالياً للقرآن ، أما مجرد القراءة وإتقان الحفظ هذا لا يكفي ، وكما قال بعض السلف " ما جلس أحدٌ مع هذا القرآن إلا قام منه إما بزيادة أو بنقصان " وشاهد ذلك في قوله عليه الصلاة والسلام « القرآن حجة لك أو عليك »

والقرآن يكون حجة للعبد إذا كان من أهله ومن العاملين به ، ويكون حجة عليه إذا لم يكن من العاملين به ، وأعظم مصيبة في هذا الباب أن يكون فيمن يحفظ القرآن من يشرك به . يقرأ الآيات التي فيها التوحيد والدعوة إلى إخلاص الدين لله ثم يقول مدد يا فلان أو الحقني يا فلان أو أنا عائذ بجنابك أو أنا طالب منك منكسر بجنابك .. - فهذا ليس من أهل القرآن ولا من الناصحين للقرآن ولو كان حافظاً للقرآن حفظاً متقناً ؛ فلا بد من العمل بكتاب الله سبحانه وتعالى ليكون الإنسان من أهله ؛ ولهذا قال البصري رحمه الله " أنزل القرآن ليُعمل به فاتخذ الناس قراءته عملاً " أحياناً يعطى بعض الطلاب مائة بالمائة في الحفظ ، يكتب له المحقق مائة بالمائة . المخارج والمدود .. إلى آخره كلها يأتي بما على أحسن وجه . فيأخذ الدرجة الكاملة ولكن إن نظرت في حقيقة أفعاله فهو لا يستحق إلا صفر في المائة ؛ يعني مثل : يجيد قراءة قول الله سبحانه وتعالى ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً ﴾ تجده يقرأ ذلك قراءةً صحيحة مرتلة تامة ولكنه عاق لوالديه ، من أهل العقوق ودائماً من أهل التأفف من الوالدين ولا يطيع والديه ، هل هو من أهل هذه الآية ؟ وهل هذه الآية أنزلت

لتقرأ بصوت عذب فقط وانتهى الأمر ؟ لا والله ؛ هذه أوامر وشرائع وأحكام فلا يكون الإنسان من أهل هذه الآيات إلا إذا حققها وعمل بها ؛ ولهذا نُقل عن الحسن البصري رحمه الله تعالى كلاماً يبيد فيه الألم والأسف على حال بعض القرّاء في زمانه وهو من علماء التابعين أدرك بعض أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام ؛ فيتكلم عن بعض القرّاء في زمانه يقول : يقول أحدهم " قرأت القرآن كله ولم أُسقط منه حرفاً وقد أسقطه والله كله " لا يُرى عليه القرآن لا في خلق ولا في عمل ، يعني إن نظرت إلى أخلاقه ليست أخلاق القرآن وإن نظرت إلى أعماله ليست أعمال القرآن ، لما وصفت عائشة رضي الله عنها خلق الرسول صلى الله عليه وسلم قالت " كان خلقه القرآن " ثم قال رحمه الله : " ماهؤلاء بالقرّاء وما هؤلاء بالعلماء وما هؤلاء بالورعة وإذا كانت القرّاء مثل هؤلاء لا كثر الله في الناس مثل هؤلاء " وهذا رواه عنه الأَجَرِّي في كتابه العظيم أخلاق حملة القرآن ، ورواه غيره من أهل العلم .

فمن تلاوة القرآن حق التلاوة أن يعمل بالقرآن بامثال الأوامر واجتناب النواهي وتصديق الأخبار .

قال " والوقوف مع أوامره ونواهيه " .. وهذا وإن كان داخلاً فيما سبق ؛ ذكره تأكيداً ، والوقوف مع أوامره ونواهيه أي يقف مع الأمر ليفعله ويكون من أهله ، ومع النهي ليجتنبه ولكي لا يكون من أهله ؛ يعرف الأوامر ليفعلها ويعرف النواهي ليجتنبها ، جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال " إذا سمعت الله يقول ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ فأرعها سمعك فإنه إما خيرٌ تؤمر به أو شرٌ تُنهى عنه " أما إذا كان الإنسان يمر على الأوامر والنواهي وكأنها لا تعنيه وكأنه ليس مخاطباً بها وكأن المطلوب فقط أن يمر على الحروف مرّاً سريعاً فهذا ليس من أهل النصيحة لكتاب الله جل وعلا .

وفي هذا المقام لا أنسى قصة مفيدة جداً مرت بي قبل سنوات طويلة قرابة العشرين سنة كنت أدرس في المرحلة المتوسطة فجاءني أحد الطلاب ومعه أوراق تزيد على المئتين ورقة . ملمومة ومدبسة ومضمومة ومكتوبة بخط جميل . طالب في المرحلة ثاني متوسط ، ومدد إليّ الأوراق مكتوب فيها : " الأوامر والنواهي في القرآن " وكان حافظاً للقرآن ، فلما مد لي قلت ما هذا ؟ قال هذي أشياء جمعها أريد أن تطلع عليها فظننت أنه في هذه السن المبكر بدأ يؤلّف ؛ فبدأت أنصحـه

فقلت له " ما أنصحك الآن أن تشتغل بالتأليف الآن اشتغل بالتعلم والتفقه ودراسة العلم ودع التأليف في مرحلة لاحقة إن شاء الله فيما بعد " فلما انتهيت قال لي " أنا أبين لك ما الذي فعلته ؛ فأنا أقرأ القرآن وأحفظ القرآن فتمر عليّ أوامر ونواهي ؛ فأردت أن أتفقه فيما يأمرني الله سبحانه وتعالى به وفيما ينهاني عنه لأفعل الأمر وأترك النهي ؛ ففعلت هذه الطريقة ، كلما يأتيني أمر في القرآن . في الصلاة في الزكاة في الصيام في البر .. إلى آخره . ؛ أجمعه وأجمع بعض الآيات المتعلقة بهذا الأمر مما يمر علي في القرآن ثم أرجع إلى تفسير ابن كثير وتفسير ابن سعدي وأنقل المعاني التي قالوها في هذه الآيات ، ثم بعد ذلك جمعت النواهي ؛ فهَمَّتُهُ وهو في هذه السن المبكر، همّة عالية في معرفة الأوامر والنواهي والتفقه فيها ليفعل المأمور ويترك المحذور .

فالمطلوب من العبد فعلاً هو هذا ؛ أن يقرأ القرآن ويتدبر القرآن فإذا وجد الأمر في كتاب الله فعله وإذا وجد النهي تركه ليكون بذلك من أهل القرآن الواقفين عند حدود كلام الله سبحانه وتعالى .

قال " وتفهم علومه وأمثاله " .. تفهم علوم القرآن ، والقرآن مليء بالعلوم النافعة المفيدة التي فيها صلاح القلوب و زكاء النفوس وسعادة البشرية .

"وتفهم أمثاله" نصّ على الأمثال التي ضربها الله في القرآن ، وهي تزيد على الأربعين مثلاً . كما ذكر ذلك ابن القيم رحمه الله . والله يقول ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ نقل ابن القيم عن بعض السلف أنه إذا قرأ مثلاً من أمثال القرآن ولم يعقل معناها بكى وقال " لست من العالمين " ؛ لأن الله قال ﴿ وما يعقلها إلا العالمون ﴾ فتفهم الأمثال وجُلُّ أمثال القرآن في تقرير التوحيد والتحذير من الشرك . وابن القيم رحمه الله اعتنى بأمثال القرآن عناية فريدة في كتابه " إعلام الموقعين " ، وجمعها وشرحها شرحاً ماتعاً نافعاً مفيداً .

قال " وتدبر آياته : تدبر آيات القرآن الكريم عملاً بقوله تعالى { أفلا يتدبرون القرآن } ؛ فيتدبر آيات الله ليعقل عن الله سبحانه وتعالى خطابه وليفهم كلامه سبحانه وتعالى .

" والدعاء إليه " : أي دعاء الناس إلى القرآن والعمل بالقرآن وليكونوا من أهل القرآن ؛ فهذا من النصيحة لكلام الله سبحانه وتعالى .

قال " ودبُّ تحريف الغالين وطعن الملحدين عنه " : أي عن كتاب الله عز وجل ، وهذا أمرٌ مطلوب من أهل العلم وأهل البصيرة ، أن يدبُّوا عن كتاب الله تحريف الغالين وانتحال المبطلين ؛ وهذا يقيض الله سبحانه وتعالى له في كل زمان عُذُولُهُ من أهل العلم وأهل الفضل ؛ يدبُّون عن كتاب الله عز وجل تحريف الغالين وطعن الملحدين .

وقال رحمه الله تعالى :

[والنصيحة لرسوله صلى الله عليه وسلم قريب من ذلك ؛ الإيمان به وبما جاء به، وتوقيره وتبجيله ، والتمسك بطاعته وإحياء سنته ، واستشارة علومه ونشرها ، كذا وفيما نقله عنه ابن رجب إستشارة علومها ونشرها ، ومعاداة من عاداه وعادها ، وموالاته من وآله ووالاها ، والتخلق بأخلاقه ، والتأدب بآدابه ، ومحبة آله وصحابه ونحو ذلك] .

الشرح..

ثم ذكر رحمه الله تعالى معنى النصيحة لرسوله صلى الله عليه وسلم ؛ قال : وهي قريب من ذلك ؛ أي قريب مما سبق أن بينه رحمه الله تعالى .

قال: والنصيحة لرسوله صلى الله عليه وسلم الإيمان به : ومر معنا سابقاً أن الإيمان به عليه الصلاة والسلام ركن من أركان الإيمان وأصل من أصول الدين . كما في حديث جبريل . وهذه الأصول جاءت في القراءان مثل قوله جل وعلا {ولكن البر من ءامن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين} ؛ فالإيمان بالرسول أصلٌ من أصول الإيمان ، فمن النصح للرسول عليه الصلاة والسلام الإيمان به ؛ أي الإيمان بأنه رسول مرسل من رب العالمين ، وأنه بلغ الرسالة ، وأنه أدى الأمانة ، ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين ، وما ترك خيراً إلا دل الأمة عليه ولا شراً إلا حذرهما منه صلوات الله وسلامه عليه ؛ فمن النصح له عليه الصلاة والسلام الإيمان به .

" وبما جاء به " وقد جاء عليه الصلاة والسلام بالكتاب والسنة {واذكرن ما يئلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة} ، جاء عليه الصلاة والسلام بالقرآن وجاء بالسنة النبوية المنقولة والمأثورة عنه عليه الصلاة والسلام ؛ فمن النصح له الإيمان بما جاء به ، أما من كذب أو جحد أو لم يؤمن بما جاء به أو بشيء مما

جاء به عليه الصلاة والسلام فإنه لا يكون ناصحاً للرسول الكريم عليه الصلاة والسلام .

قال : "وتوقيره وتبجليه " توقير الرسول عليه الصلاة والسلام هو احترامه ومعرفة قدره وحرمته ومكانته عليه الصلاة والسلام وتعظيمه التعظيم اللائق به صلوات الله وسلامه عليه دون غلو ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام حذر من الغلو أشد التحذير ؛ حذر من الغلو عموماً وحذر من الغلو فيه خصوصاً ولهذا قال « لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم وإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » ، وقال عليه الصلاة والسلام في سياق يتعلق بهذا الأمر " ما أحب أن تنزلوني فوق منزلتي التي أنزلي الله إياها " ؛ فحذر عليه الصلاة والسلام من الغلو ، ولهذا يجب أن يوقّر وأن يُحترم وأن تُعرف له حرمة وقدره عليه الصلاة والسلام ولا يكون ذلك حاملاً للإنسان إلى الغلو فيه ؛ لأن بعض الناس يهلك من جهة التعظيم ، أي يزيد في التعظيم على القدر المناسب فيقع في الغلو المذموم ؛ ولهذا ينقل عن أحد السلف . ولعله عبدالرحمن بن مهدي أو عبد الله المبارك . قال " وهل هلك من هلك إلا من جهة التعظيم " ؛ فتجد بعض الناس يريد أن يعظم الرسول ؛ فيعطيه من الصفات ومن الخصائص ما لا يليق إلا بالله فيقع في الهلاك ، وربما يقع في الكفر والشرك بالله سبحانه وتعالى ؛ لأن من أعطى مخلوقاً شيئاً من خصائص الله فقد اتخذ ذلك المخلوق شريكاً لله ؛ ولهذا لما سمع عليه الصلاة والسلام رجلاً يقول " ما شاء الله وشئت " غضب صلى الله عليه وسلم وقال " أجعلني لله نداً قل ما شاء الله وحده " ، ولما سمع الأنصارية تقول " وفيما رسول الله يعلم ما في غدٍ " غضب وقال " لا يعلم ما في غدٍ إلا الله " ، وينقل عنه في هذا الباب نقول ، ولما قال له الرجل " إني أستشفع بك على الله وأستشفع بالله عليك " ؛ غضب عليه الصلاة والسلام وقال " سبحان الله، الله أعظم من ذلك " ، فالأحاديث عنه في هذا المعنى كثيرة ؛ ولهذا من النصيحة للنبي عليه الصلاة والسلام أن يُعظّم وأن يُحترم وأن يُقدّر الاحترام والتقدير اللائق بمقامه لا أن يُعطى من باب التعظيم والاحترام شيئاً من حقوق الله أو شيئاً من خصائص الله ، قرأت مرة في مجلة أبياتاً في الثناء على النبي بدأ فيها بقوله :

هو الأول والآخر محمد هو الظاهر والباطن محمد

يا سبحان الله ! محمد عليه الصلاة والسلام كان في كل مرة إذا أوى إلى فراشه يقول : " اللهم

أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء ؛ اقض عني الدين وأغنني من الفقر " ، فهو عبدٌ فقير إلى الله سبحانه وتعالى ؛ فليس من تعظيم النبي عليه الصلاة والسلام في شيء أن يُعطى من خصائص الله أو أن يعطى من حقوق الله تبارك وتعالى ؛ فهذا شرك بالله وداخل فيما حرمه الله في قوله { فلا تضربوا لله الأمثال } ، وفي قوله { فلا تجعلوا لله أنداداً } ، وفي قوله { ولم يكن له كفواً أحد } ، وغيرها من الآيات ، وهو أمرٌ لا يرضاه الرسول عليه الصلاة والسلام بل أنكره عليه الصلاة والسلام أشد الإنكار وغضب ممن فعله أشد الغضب .

قال " وتوقيره وتبجيله والتمسك بطاعته " .. أن يكون متمسكاً ومحافظاً على طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وطاعته من طاعة الله { من يطع الرسول فقد أطاع الله } ، ومعصية الرسول عليه الصلاة والسلام من معصية الله لأنه مُبَلِّغ { وما على الرسول إلا البلاغ } ؛ فمن أطاعه فقد أطاع الله ومن عصاه فقد عصى الله ؛ ولهذا من النصيحة له عليه الصلاة والسلام أن يتمسك العبد الناصح بطاعته عليه الصلاة والسلام ، وقد جاء عنه في الحديث الصحيح أنه قال : " كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى قالوا ومن أبى يارسول الله ؟ قال من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى " فمن النصيحة له عليه الصلاة والسلام أن يطاع .

قال : " وإحياء سنته " : أيضاً هذا من النصيحة له عليه الصلاة والسلام أن يسعى العبد في إحياء السنة ، وكثيراً ما تُمات السنة في كثير من البلدان والأصقاع والمناطق ولا يكون عند الناس منها خبر ؛ فإحياء السنة حيث البلد الذي ماتت فيه السنة ؛ هذا من النصح للرسول عليه الصلاة والسلام أن يعمل الإنسان في بلده أو منطقته على إحياء السنن الثابتة الصحيحة عنه صلوات الله وسلامه عليه ، وليس من النصيحة له صلى الله عليه وسلم في شيء أن تُحيا البدع أو أن تُنشر البدع ، وبعض الناس في بعض المناطق يستमित في نشر البدعة ويستमित في رد السنة ، فإذا وجد شخصاً يريد أن يحيي سنة في بلده استمات في ردها . وخاصة إذا كانت هذه السنة الثابتة الصحيحة تخالف الذي هو عليه وتصادم الذي نشأ عليه . فتجده يحارب السنة ويعاديها ؛ فمن النصح له عليه الصلاة والسلام إحياء سنته ، وقد قال عليه الصلاة والسلام « من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة » ، وقال عليه الصلاة والسلام « الدال على الخير كفاعله » ؛ فإذا أحيا العبد سنة جهلت أو نُسيّت أو

دُرست في البلد وعمل بها الناس ؛ يُكتب له أجر جميع العاملين بها ، وأيضاً إذا عمل بعمل هؤلاء آخرون وآخرون إلى ما شاء الله ؛ كل ذلك يُكتب في حسناته ؛ ولهذا أعمال الأمة كلها في ميزان حسنات النبي عليه الصلاة والسلام لأنه الإمام الأول والهادي الأول والداعي الأول صلوات الله وسلامه عليه لهذه الأمة ، والصحابة رضي الله عنهم لهم من ذلك النصيب الأوفر ، تميم بن أوس الداري رضي الله عنه روى هذا الحديث فكتب له أجره وأجر من عمل به إلى أن تقوم الساعة ، ومجلسنا هذا داخل في ميزان حسناته وفي ميزان كل من نقل هذا الحديث وشرحه وبينه ووضحه للناس .

قال: " واستشارة علومه ونشرها " .. هكذا في كتابه رحمه الله . صيانة صحيح مسلم المطبوع . .

وفيما نقله عنه بن رجب قال : " استشارة علومها ونشرها " .. والمراد أن تُحيا علوم السنة النبوية وأن يُعمل على نشرها بين الناس بكل مجال ، وفي زماننا هذا تيسرت ولله الحمد مجالات كثيرة جداً لإحياء السنن ونشرها ، تيسرت تيسراً عظيماً من خلال الكتب والرسائل والمطويات ، ومن خلال الأشرطة الصوتية ، ومن خلال الرسائل . رسائل الجوال المحمول . وغيرها من الوسائل الكثيرة التي تهيأت الآن لنشر سنة النبي عليه الصلاة والسلام بين الناس .

قال : ومعاداة من عاداه وعادها وموالاته من والاه ووالاتها : بمعنى أن تُحب النبي عليه الصلاة والسلام وتواليه ، وتُحب سنته عليه الصلاة والسلام وتواليها وتوالي من وإلى السنة ، وأيضاً تعادي من عادى النبي عليه الصلاة والسلام وعادى سنته ، فيكون حبك في الله وبغضك في الله ، تحب الله عز وجل وتحب نبيه عليه الصلاة والسلام وتحب دينه وتحب سنته عليه الصلاة والسلام وتحب من أحبها ، وفي المقابل تُبغض من أبغض الدين أو أبغض سنة النبي عليه الصلاة والسلام أو عادها أو كان حرباً عليها فمن النصيحة له عليه الصلاة والسلام معاداة من عاداه وعادها ؛ من عاداه أي عادى النبي عليه الصلاة والسلام ، وعادها أي السنة ، وموالاته من والاه أي وإلى النبي ، وموالاته من والاه أي وإلى السنة .

قال " والتخلق بأخلاقه " .. أي مجاهدة النفس على التأدب بآداب الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، وقد قال عليه الصلاة والسلام " أقربكم مني منزلة يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً " أو كما قال عليه الصلاة والسلام ، قال " إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق " ، وجاء عنه

الأحاديث الكثيرة في بيان الأخلاق والآداب الكاملة ، و كان عليه الصلاة والسلام أحسن الناس أدباً وأكملهم خلقاً ، وليس في الأخلاق الفاضلة والآداب الكاملة خلق ولا أدب إلا والنبي صلى الله عليه وسلم حققه على أتم حال وأرفع مقام ، فكان صلوات الله وسلامه عليه أكمل الناس خلقاً وأدباً ، وقد أثنى عليه رب العالمين فقال {وإنك لعلی خلق عظیم} فذكر جل وعلا خلق النبي عليه الصلاة والسلام مبيناً لعظمة خلقه صلوات الله وسلامه عليه .

فمن النصيحة له عليه الصلاة والسلام أن يتأدب المسلم بآداب الرسول عليه الصلاة والسلام وأن يتخلق بأخلاقه .

وأهل العلم كتبوا في ذلك كتباً نافعة ؛ من أوسعها وأحسنها كتاب - الأدب المفرد للإمام البخاري رحمه الله تعالى - ؛ فقراءة هذا الكتاب أو غيره من كتب أهل العلم لمعرفة أخلاق الرسول عليه الصلاة والسلام وآدابه الكاملة من أجل أن يعمل بها العبد وأن يأتسي به عليه الصلاة والسلام في تلك الأخلاق ، هذا داخل في جملة النصيحة له عليه الصلاة والسلام .

قال " ومحنة آلِه وصحابته " .. هذا أيضاً من النصيحة له عليه الصلاة والسلام أن يكون محبة الناصح له محباً لأصحابه ولآل بيته الذين نصره وعزروه وآمنوا بالنور الذي أنزل عليه صلوات الله وسلامه عليه ؛ وبهذا يُعلم أن من كان في قلبه غلٌّ لأصحاب النبي عليه الصلاة والسلام فهو في الحقيقة ليس ناصحاً للنبي عليه الصلاة والسلام ، ولا أيضاً مراعيّاً لحقه صلوات الله وسلامه عليه ؛ لأن الصحابة هم أنصاره هم الذين عزروه ووقروه ، وهم أول من ءامن بالنور الذي أنزل عليه عليه الصلاة والسلام ، وهم الذين شهد الله لهم بالفضل والخيرية وأخبر عن رضاه عنهم ورضاهم عنه وعدَّهم سبحانه وتعالى في كتابه ؛ فمن كان في قلبه غلٌّ تجاه الصحابة أو يتحرك لسانه في الطعن في الصحابة أو في بعض الصحابة فهذا ليس من الناصحين لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، ولقد تكاثرت عنه الأحاديث في بيان فضل الصحابة ومكانتهم ورعاية حقهم والتحذير من الوقعة فيهم أو سبهم ، ومن ذلكم قوله عليه الصلاة والسلام « لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مُد أحدهم ولا نصيفه » ، وقال عليه الصلاة والسلام « إذا ذُكر أصحابي فأمسكوا » أي لا تخوضوا في الصحابة بشيء من السب أو الوقعة أو الطعن أو نحو ذلك ، فمن النصح للنبي صلوات الله

وسلامه عليه أن يُعرف للصحابة قدرهم ومكانتهم ، وأن يكون القلب سليماً تجاههم ، وأن يكون أيضاً اللسان سليماً كما قال الله جل وعلا {والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم} ، وفي الآية دلالة على أن أهل الإيمان حقاً وصدقاً هم الذين سلمت قلوبهم وألستهم تجاه الصحابة ، سلامة القلوب دَلَّ عليها قوله {ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا} وسلامة الألسنة في قوله {يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان} .

قال " ومحبة آل وصحابته " .. أيضاً محبة آل بيت النبي عليه الصلاة والسلام ومعرفة قدرهم وما أكرمهم الله جل وعلا به من الصحبة والقراية ، وقد أوصى عليه الصلاة والسلام بآل بيته وبحفظ حق آل البيت " أوصيكم الله في آل بيتي " ، وجاء عنه عليه الصلاة والسلام الأمر بحبهم ، وأن حبهم من حبه عليه الصلاة والسلام ، فمعرفة فضائل آل بيت النبي عليه الصلاة والسلام ومعرفة أقدارهم ومنازلهم ومكانتهم ؛ هذا كله داخل في النصح للنبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، وأهل السنة والجماعة هم أعظم الناس رعاية وقياماً بحقوق آل بيت النبي وحقوق أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام ، وهم أبعد الناس في هذا الباب عن الغلو والجفاء لأن هذا الباب زلَّ فيه طائفتان : طائفة غلت في آل بيت النبي وجفوا في حق الصحابة ، وطائفة أخرى غلو في بعض أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام وجفوا في حق آل بيته ، والحق قوام بين ذلك ، الحق هدى بين ضاللتين وحسنة بين سيئتين ، الحق المعرفة للجميع أقدارهم ومكانتهم دون غلو أو جفاء ودون إفراط أو تفريط .

قال رحمه الله تعالى : ونحو ذلك : أي من الأمور المتعلقة بالنصيحة للنبي الكريم عليه الصلاة والسلام .

وقال [والنصيحة لأئمة المسلمين أي لخلفائهم وقادتهم معاونتهم على الحق ، وطاعتهم فيه ، وتنبيههم وتذكيرهم برفق ولطف ، ومجانبة الخروج عليهم ، والدعاء لهم بالتوفيق ، وحثُّ الأغيار على ذلك] .

الشرح ..

ثم ذكر رحمه الله تعالى النصيحة للأئمة المسلمين ؛ بيّن أولاً ما المراد بالأئمة ؛ قال لخلفائهم وقادتهم ، ثم بين النصيحة لهؤلاء كيف تكون ؛

قال " معاونتهم على الحق وطاعتهم فيه " .. أي في الحق . ؛ أي إذا اتجهت همتهم ورغبتهم وعزيمتهم للعمل بالحق يعاونوهم عليه ويشدوا من أزرهم ، وإذا أمرهم بفعل شيء من الحق أطاعهم لأن عليه السمع والطاعة بالمعروف ؛ فإذا أمرهم بمعروف و بحق لزمه أن يطيعهم ؛ قال الله جل وعلا { يا أيها الذين ءامنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم } ؛ فأمر الله عز وجل بطاعة أولي الأمر إلا إذا أمروا بمعصية ؛ فإذا أمروا بمعصية فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

قال " وتنبيههم وتذكيرهم برفق ولطف " .. أن ينبه الولاة والخلفاء والقادة برفق ولطف ، وأن يكون أيضاً هذا التنبيه سراً ، كما دلت على ذلك بعض النصوص والآثار ، أن ينصحهم سراً بينه وبينهم برفق ولين لا بالتشهير ولا بالتعنيث ولا بالشوشرة وإثارة الفوضى وإنما ينصح لهم وينبهم برفق ولين ؛ فهذا من النصيحة لهم .

قال " ومجانبة الخروج عليهم " .. أن يحذر أشد الحذر من الخروج على ولاة الأمر ورفع السيف ونزع اليد من الطاعة والافتيات على ولي الأمر ؛ فهذا كله من الغش وليس من النصيحة في شيء ، قد قال عليه الصلاة والسلام « ثلاث لا يغفل عليهن قلب امرئ مسلم إخلاص العمل لله ولزوم جماعة المسلمين والنصيحة لولاة أمرهم » أو كما قال عليه الصلاة والسلام ؛ فالنصح لولاة الأمر هذا ينبغي على كل مسلم أن لا يكون في قلبه غل تجاه هذا الأمر بل ينبغي عليه أن تسمح نفسه وتلين لذلك ؛ ولذلك قال " مجانبية الخروج عليهم " أي أن يكون على حذر من أن يقع في هذا الأمر . أن ينكث البيعة أو أن يفتات على ولي الأمر أو أن ينزع اليد من الطاعة أو أن يرفع السيف . فهذا كله خلاف النصيحة المفروضة لولاة الأمر المنصوص عليها في هذا الحديث العظيم .

قال " والدعاء لهم بالتوفيق " .. أن تخصصهم بالدعاء أن يوفقهم الله ، أن يصلحهم الله ، أن يهديهم الله ، أن يسددهم أن يلهمهم الصواب ، أن يعيذهم من الانحراف والضلال ، أن يجنبهم بطانة السوء ، وأن يرزقهم البطانة الناصحة ؛ هذا كله من النصيحة لهم ؛ ولهذا نُقل عن

بعض السلف مثل الفضيل بن عياض أنه قال " لو كان لي دعوة مستجابة لجعلتها للإمام " ؛ يعني لو قيل لي لك دعوة واحدة مستجابة يقول لدعوت بها للإمام ، ما أخص نفسي بها ؛ لماذا ؟ قال عبد الله بن المبارك : " من يقدر على هذا إلا مثلك " ؛ يعني هذا أمر عظيم ما يقدر عليه أحد وإلا لو قيل لأحدنا لك دعوة مستجابة ؛ ففتحه همته لأشياء خاصة به هو إما دنيوية أو أخروية ، لكن أن يتجه الإنسان هذا الإتجاه العظيم بأن يدعو بالشيء الذي هو صلاح للأمة لأن صلاح الراعي يثمر صلاح الرعية وتنتفع الرعية غاية الانتفاع من صلاحه ، وفساده فساد الرعية ومضرة على الرعية ؛ ولهذا من النصيحة للإمام أن يُدعى له ؛ يُقال : اللهم اهده ، اللهم أصلحه ، اللهم وفقه ، اللهم سدد له ونحو ذلك من الدعوات النافعة ، ولهذا قال بعض السلف " إذا رأيت الرجل يدعو للسلطان فاعلم أنه صاحب سنة وإذا رأيته يدعو على السلطان فاعلم أنه صاحب بدعة " لأن من النصيحة الدعاء للسلطان ، الدعاء له أي بالهداية ، بالتوفيق .

لكن إذا وقع السلطان في ظلم ليس معنى أن تدعوا له أن تقول جزاه الله خيراً ، يعني يظلمك وتدعو له بهذا الدعاء ليس هذا المراد أو تقول بارك الله فيك ؛ وإنما تقول : اللهم اهده للصواب ، اللهم وفقه للبعد عن الظلم ، اللهم سدد في آراءه وأقواله وأعماله ؛ تدعو بهذه الدعوات التي فيها نفع للناس وللأمة وللناس عموماً ؛ فهذا مقتضى النصيحة .

قال " والدعاء لهم بالتوفيق وحث الأغيار على ذلك " .. أي أن تحث الناس على ذلك ؛ على أن يكونوا ناصحين لولاة الأمر غير غاشين لهم ، داعين لهم بالخير والتوفيق والسداد .

وقال [والنصيحة لعامة المسلمين ؛ وهم هاهنا من عدا أولي الأمر منهم ؛ إرشادهم إلى مصالحهم وتعليمهم أمور دينهم ودنياهم ، وستر عوراتهم ، وسد خلاصهم ، ونصرتهم على أعدائهم ، والذب عنهم ، ومجانبة الغش والحسد لهم ، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه ، وأن يكره لهم ما يكرهه لنفسه وما شابه ذلك] .

الشرح ..

ثم ذكر رحمه الله تعالى النصيحة لعامة المسلمين ، وبين أولاً من هم عامة المسلمين ؛ قال : وهم

ها هنا من عدا أولي الأمر منهم ؛ لأن أولي الأمر لهم من النصيحة شيء مخصوص ، خصهم النبي عليه الصلاة والسلام بشيء من النصيحة زائد على غيرهم وهو حق لهم ، وهو جزء من الدين الذي صَدَّر النبي عليه الصلاة والسلام الحديث به ، وعامة المسلمين هم من عدا أولي الأمر منهم .

ثم بيّن رحمه الله كيف تكون النصيحة لعامة المسلمين ؛

قال " إرشادهم إلى مصالحهم " .. أن يكون عاملاً على الدلالة على الخير ، هداية الناس إلى مصالحهم ومنافعهم الدينية والدنيوية .

قال " وتعليمهم أمور دينهم ودنياهم " .. أي أن هذا من النصيحة ؛ أن تسعى في تعليم الناس أمورهم الدينية والدنيوية ، ولا سيما إذا استشارك واستنصحك . ولا يكون تعليم لأمر الدين إلا بعلم { قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة } لأن من دعا بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح ؛ فمن النصيحة لهم أن تعلمهم إذا كنت ذا علم ، وإن لم تكن ذا علم فأجلهم إلى أهله ، إياك أن تعلمهم بدون علم لأنه جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال " من أُرشد إلى غير رشد فإنما إثمه على من أُرشده " ؛ فتتحمل إثم ما أُرشدته إليه بغير علم ، فإذا كان الإنسان على علم وبصيرة يعلم وإذا كان على غير علم يحيل إلى أهل العلم والفقهاء في دين الله تعالى

قال " وستر عوراتهم " .. أيضاً هذا من الأمور المطلوبة ، ليس من النصيحة أن يفضح الإنسان إخوانه أو يهتك أستارهم أو يفشي أسرارهم ؛ بل أن يستر عورات إخوانه إذا رأى عيباً أو زلة أو خطأ يستر عورة أخيه ولا يهتك ستره ولا يفضحه بين الناس ؛ فهذا ليس من النصيحة في شيء ، وكما أنه هو في نفسه لا يُحب أن تُهتك عورته وأن يُفشى سره ، وأن يشاع خطؤه في الناس ؛ فينبغي عليه أن يكون كذلك في تعامله مع الآخرين .

" وسد خلاقتهم " .. أي ما يكون عندهم من عوز أو حاجة أو نحو ذلك ؛ يسد ذلك بقدر استطاعته وبحسب وسعه .

" ونصرتهم على أعدائهم " .. قال عليه الصلاة والسلام " أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً " ،

ونصرة الأخ المظلوم واضحة ، ونصرة الظالم أي بكفه ومنعه عن الظلم .

قال " والذب عنهم " .. هذا أيضاً من النصيحة ؛ ذبك عن أخيك المسلم ، ودفاعك عنه ، ورفعك الغيبة عنه ، ومنعك من إيذائه أو الإضرار به ؛ هذا كله من النصيحة لإخوانك المسلمين .

قال " ومجانبة الغش والحسد لهم " .. قد قال عليه الصلاة والسلام " من غشنا فليس منا " ، وجاء عنه عليه الصلاة والسلام النهي عن الحسد قال " لا تحاسدوا " ، والحسد هو تمني زوال النعمة عن من أنعم الله سبحانه وتعالى عليه بالنعمة ، ولهذا قيل " الحاسد عدو نعمة الله على عباده " .

فمن النصيحة للإخوان وعموم المسلمين عدم الغش وعدم الحسد والبعد عن الخصال الأخرى التي جاء النهي عنها " لا تباغضوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا ولا تناجشوا وكونوا عباد الله إخواناً " ، يبتعد عن الغيبة والنميمة والاستهزاء وغير ذلك ؛ فهذا كله من النصيحة لعموم المسلمين .

قال " وأن يحب لهم ما يحب لنفسه ويكره لهم ما يكره لنفسه " .. لقوله صلى الله عليه وسلم " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " ، وسيأتي هذا الحديث عند المصنف رحمه الله تعالى .

قال " وما شابه ذلك " .. أي من الخصال والأمور الداخلة في النصيحة للمسلمين .

وبهذا ينتهي كلام الإمام ابن الصلاح رحمه الله تعالى ، وهو كلام عظيم في شرح الحديث وبيان مضامينه .

قال [ثالثاً : مما يُستفاد من الحديث :

الأول : بيان عظم شأن النصيحة ، وعظيم منزلتها من الدين .

ثانياً : بيان لمن تكون النصيحة .

ثالثاً : الحث على النصيحة للخمس المذكورة في الحديث .

رابعاً: حرص الصحابة على معرفة أمور الدين وذلك بسؤالهم لمن تكون النصيحة .

خامساً : أن الدين يُطلق على العمل بكونه سمي النصيحة ديناً [.

والله تعالى أعلم ، وصلى الله وسلّم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

..*

الدرس الحادي عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .
أما بعد ..

الحديث الثامن

عن بن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله تعالى »
رواه البخاري ومسلم
الشرح ..

أورد الإمام النووي هذا الحديث وهو الحديث الثامن من أحاديث الأربعين عن بن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله تعالى "

هذا الحديث العظيم يفيد مكانة كلمة التوحيد . لا إله إلا الله . ومكانة الشهادتين من الإسلام ، وأنهما أول واجب على المكلف وأول أمر يكون به الدخول في هذا الدين ، ولا دخول في الإسلام إلا بالشهادتين ؛ ولهذا أول ما يؤمر به المكلف ليكون مسلماً وليكون من أهل هذا

الدين أن يأتي بالشهادتين ، أن يشهد بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؛ ولهذا جاء في الحديث أن النبي عليه الصلاة والسلام لما بعث معاذاً إلى اليمن قال له « إنك تأتي قوماً أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله » فهذا يكون أول واجب على المكلف وبه يكون الدخول في الإسلام ولا دخول في الإسلام إلا بالنطق بالشهادتين ، وهذا أيضاً في بيان أن الشهادتين في هذا الدين بمثابة الأساس والأصل الذي يُبنى عليه الدين ويُؤسس .

وقوله عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث " أمرت أن أقاتل الناس " عندما يقول عليه الصلاة والسلام " أمرت " فالذي يأمره هو الله رب العالمين ، والصحابة رضي الله عنهم عندما يقولون أُمِرنا ؛ فالذي يأمرهم رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

" أمرت " .. أي أُمِرني رب العالمين .

" أن أقاتل الناس حتى " .. حتى هنا للغاية ؛ أي أن أقاتلهم إلى أن تحصل هذه الغاية ، والغاية هي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله فهذه الغاية التي تكون لأجلها المقاتلة ، فإذا حصل ذلك ارتفعت المقاتلة ولم تكن مطلوبة ؛ لأن الغاية التي شُرعت لأجلها حصلت وتحققت قال " حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله " .

وذكر هنا الشهادتين معا - شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . فهما متلازمتان لا تنفك إحداها عن الأخرى ، ولا قبول لـ لا إله إلا الله إلا بشهادة أن محمداً رسول الله ، وشهادة أن لا إله إلا الله هي توحيد الله جل وعلا وإخلاص الدين له ، وشهادة أن محمداً رسول الله فيها تجريد المتابعة للرسول عليه الصلاة والسلام ، طاعته فيما أمر وتصديقه فيما أخبر والانتفاء عما نهي عنه وزجر وأن لا يُعبد الله إلا بما شرع .

قال " حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وقيموا الصلاة " .. عطف إقامة الصلاة على الشهادتين ؛ وهذا يفيد أن الصلاة أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين ، وهي عمود الإسلام ، وهي أول ما يُسأل عنه المرء يوم القيامة .

ثم عطف عليها الزكاة " ويؤتوا الزكاة " والزكاة قرينة الصلاة في كتاب الله تعالى .

قال " حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وقيموا الصلاة فإذا فعلوا ذلك " .. " إذا فعلوا ذلك " .. أي أتوا بالشهادتين وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة .

" عصموا مني دماءهم وأموالهم " .. وهذا فيه أن المسلم معصوم الدم ، وأن دمه حرام ، قال عليه الصلاة والسلام « كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » وقال في حجة الوداع « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا » فالمسلم معصوم الدم ولا يحلّ قتل امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : التارك لدينه والشيء الزاني والمفارق للجماعة ، وإلا فالأصل حرمة دمه وعصمة دمه .

قال " عصموا مني دماءهم وأموالهم " .. أي أن دماءهم معصومة وأموالهم محرمة ؛ فلا يُعتدى على دمه ولا يُعتدى على ماله ؛ لأن دمه حرام وماله حرام .

قال "عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام " .. وهذا فيه أن الإسلام له حقوق ، والدخول في هذا الدين له متطلبات لا بد من الإتيان بها ، فإذا نطق بالشهادتين وأعلن دخوله في الدين وامتنع من أداء حقوق الإسلام يُقاتل ؛ يقاتل لامتناعه عن حقوق الإسلام .

وبهذه الجملة " إلا بحق الإسلام " .. استدل أبو بكر الصديق رضي الله عنه على مقاتلة مانعي الزكاة ؛ وقال " لو منعوني عقالا أو عناقاً كانوا يؤدونها لرسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه " أخذ ذلك من قوله " إلا بحق الإسلام " وهذا يدل أن الدخول في هذا الدين يتطلب حقوقاً فإذا امتنع منها الإنسان وأبى أن يؤديها فإنه يُقاتل ؛ يقاتل على ذلك ولهذا قال أبو بكر رضي الله عنه " لو منعوني عقالا أو عناقاً - في بعض الروايات - كانوا يؤدونها لرسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه " ، ولما باحثه عمر بن الخطاب رضي الله عنه في هذه المسألة وقال كيف تقاتلهم وهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؛ فقال أبوبكر رضي الله عنه " لو منعوني عقالا أو عناقاً كانوا يؤدونه لرسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه " ، واستدل على ذلك بالحديث لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال " إلا بحق الإسلام "

قال " وحسابهم على الله تعالى " .. أي أن من أظهر الإسلام وأدى حقوقه لنا ظاهره ، أما سريره فأمرها إلى الله ؛ نحن لنا الظاهر ولهذا ختم الحديث بقوله " وحسابهم على الله تعالى " لأنه ليس لنا إلا الظاهر والله تبارك وتعالى يتولى السرائر ، فإن كان الذي أظهر لنا الإسلام يبطن نفاقاً أو يبطن كفراً فنحن لنا ظاهره وحسابه على الله تعالى .

فهذا يفيد أن ليس لنا الحكم إلا على الظاهر أما البواطن والقلوب وما يسر الناس فهذا أمرهم بينهم وبين الله تعالى وحسابهم فيه على الله تعالى

قال الشيخ عبد المحسن البدر :

[قوله « أمرت » الأمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم هو الله لأنه لا أمر له غيره ، وإذا قال الصحابي أمرنا بكذا أو نُهيّا عن كذا فالأمر والنهي لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم] .

الشرح..

الأمر والنهي للصحابة هو رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه هو الواسطة المبلغ لهم دين الله تبارك وتعالى وهو يبلغ أمر الله ونهيه ، وإذا قال عليه الصلاة والسلام " أمرت " فالأمر له هو الله تبارك وتعالى لأنه لا أمر له غير الله عز وجل .

[ثانياً: لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم واستُخلف أبو بكر رضي الله عنه ارتد من ارتد من العرب وامتنع من امتنع عن دفع الزكاة ؛ عزم أبو بكر رضي الله عنه على قتالهم بناءً على أن من حق الشهادتين أداء الزكاة ، ولم يكن عنده الحديث بإضافة الصلاة والزكاة إلى الشهادتين كما في هذا الحديث ، فناظره عمر في ذلك ، وجاءت المناظرة بينهما في حديث أبي هريرة في صحيح مسلم قال " لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم استُخلف أبو بكر بعده وكفر من كفر من العرب قال عمر بن الخطاب لأبي بكر كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابهم على الله تعالى فقال أبو بكر والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال والله لو منعوني عقلاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه ، فقال عمر بن الخطاب فو الله ما هو إلا أن رأيت الله عز وجل قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق " .

قال الحافظ في الفتح : " وقد استبعد قومٌ صحته بأن الحديث لو كان عند ابن عمر لما ترك أباه ينازع أبا بكر في قتال مانعي الزكاة ، ولو كانوا يعرفونه لما كان أبو بكر يقر عمر بالاستدلال بقوله عليه الصلاة والسلام أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، وينتقل عن الاستدلال بهذا النص إلى القياس إذ قال لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة لأنها قرينتها في كتاب الله ، والجواب أنه لا يلزم من كون الحديث المذكور عند ابن عمر أن يكون استحضره في تلك الحالة ، ولو كان مستحضراً له فقد يحتمل أن لا يكون حضر المناظرة المذكورة ولا يمتنع أن يكون ذكرهما له بعد ولم يستدل أبو بكر في قتال مانعي الزكاة بالقياس فقط بل أخذه أيضاً من قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث الذي رواه إلا بحق الإسلام ؛ قال أبو بكر والزكاة حق الإسلام ، ولم ينفرد

بن عمر بالحديث المذكور بل رواه أبو هريرة أيضاً بزيادة الصلاة والزكاة فيه كما سيأتي الكلام عليه إن شاء الله تعالى في كتاب الزكاة .

وفي القصة دليل على أن السنة قد تخفى على بعض أكابر الصحابة ويطلع عليها أحادهم ولهذا لا يُلْتَفَت إلى الآراء ولو قوية مع وجود سنة تخالفها ، ولا يُقال كيف خفيت على فلان ، والله الموفق [.

الشرح..

لما توفي النبي عليه الصلاة والسلام واستخلف بعده أبو بكر الصديق رضي الله عنه وارتد من ارتد العرب ومنع من منع من الزكاة ؛ عمل أبوبكر رضي الله عنه على محاربة المرتدين وعلى مقاتلة مانعي الزكاة ، ولما شرع واتجه إلى هذا الأمر تكلم معه عمر بن الخطاب رضي الله عنه في هذه المسألة في مقاتلة مانعي الزكاة ، وناقشه في هذه المسألة وقال هم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأورد له الحديث ؛ قال إن النبي عليه الصلاة والسلام يقول « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه ، وحسابهم على الله تعالى » فاستدل عمر بهذا الحديث في مناقشته ومباحثته مع أبي بكر رضي الله عنه في هذه المسألة ، لكن أبا بكر رضي الله عنه كان ماضياً فيما عزم عليه ، ومستنداً في ذلك على الدليل ؛ لأنه لما ناظره عمر وباحثه في هذه المسألة استدل أبوبكر رضي الله عنه بقول النبي عليه الصلاة والسلام

« إلا بحق الإسلام » قال " والزكاة من حق الإسلام " وحق الإسلام نُصَّ عليه في الحديث ، ولم يكن عند أبي بكر وعمر وقتئذ الحديث بهذه الزيادة « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله وقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة » ولهذا كانت المباحثة في الحديث بدون هذه الزيادة ؛ ولهذا استشكل البعض هذه الزيادة . كما أورد ذلك الحافظ ابن حجر رحمه الله في كتابه فتح الباري . ، وقالوا لو كان عند ابن عمر لما ترك أباه ينازع أبا بكر في قتال مانعي الزكاة ؛ لأن الحديث صريح بمقاتلة من يمانع الزكاة « حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله وقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة » فالحديث صريح ونصٌّ على أمر الزكاة ؛ فقالوا لو كان كذلك لما ترك أباه ينازع أبا بكر في قتال مانعي الزكاة ، ولو كان عمر وأبو بكر رضي الله عنهما يعرفان هذه الزيادة لما احتاج أبا بكر رضي الله عنه أن يستدل بالقياس أو يستدل بقوله « إلا بحق الإسلام » وفي الحديث جملة صريحة هي نصٌّ في الباب ، ولكن الجواب عن هذا واضح مثل ما ذكر الحافظ رحمه الله . لا

يلزم من كون الحديث المذكور عند ابن عمر أن يكون استحضره في تلك الحالة ولو كان مستحضراً له فقد يحتمل أن لا يكون حضر المناظرة المذكورة ولا يمتنع أن يكون ذكرهما له بعد- . وإضافة إلى هذا أن الحديث لم ينفرد به ابن عمر ؛ بل رواه أيضاً بهذه الزيادة أبو هريرة رضي الله عنه وأرضاه ، وتكون هذه الزيادة خفيت على أبي بكر رضي الله عنه وخفيت على عمر مع مكانتهما العظمى ومنزلتهما من النبي عليه الصلاة والسلام ؛ ولهذا حصلت المناظرة وتقرير المسألة بدون هذه الزيادة الثابتة عن الرسول عليه الصلاة والسلام .

وهذا يُستفاد منه فائدة عظيمة نبه عليها الحافظ ابن حجر رحمه الله بقوله أن السنة قد تخفى على بعض أكابر الصحابة ويطلع عليها آحادهم ، وهذا نستفيد منه نحن فائدة عملية وهي أنه لا يلتفت إلى الآراء ولو قويت مع وجود سنة تخالفها

الآن بعض المتعصبة لبعض المذاهب إذا أُوردت لهم سنة صحيحة ثابتة عن الرسول عليه الصلاة والسلام لا يقبلها ويقول " لو كان هذا الأمر حق لما خفي على إمامنا " !!

الإمام مهما كان علماً وفقهاً وفضلاً ودراية بأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام لن يبلغ منزلة أبي بكر ومنزلة عمر رضي الله عنهما ومع ذلك خفيت عليهم هذه السنة وهذه الزيادة في الحديث وتناقشا في هذه المسألة بدون الزيادة وقررا الأمر بدون هذه الزيادة .. خفيت عليهم ؛ فالسنة قد تخفى على العالم ، وإذا خفيت عليه يجتهد في المسألة برأيه ، لكن إذا صحت السنة وثبت الدليل والحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فالواجب المصير إلى السنة ؛ وهذا الذي قرره الأئمة رحمهم الله ونصحوا به الأتباع ؛ فالإمام الشافعي رحمه الله يقول " إذا صح الحديث فهو مذهبي " ، والإمام أبو حنيفة رحمه الله يقول " لا يحل لأحد أن يعمل أو يأخذ بقولنا ما لم يعلم دليلنا عليه " ، والإمام مالك رحمه الله يقول " كلٌّ يؤخذ من قوله ويترك إلا صاحب هذا القبر " يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فالسنة إذا استبان للمسلم وظهرت بالدليل الصحيح الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس له أن يدعها لقول أحدٍ كائناً من كان ، وقول بعض الناس أو بعض المتعصبة أن هذه السنة لو كانت صحيحة أو ثابتة لما خفيت علينا ؛ هذا قول خاطئ ، وهذه القصة والواقعة تبين ذلك ، السنة قد تخفى على الصحابي ، قد تخفى على التابعي ، قد تخفى على إمام من أئمة المسلمين والفقهاء والمحدث .

فهذا يُستفاد منه عدم الأخذ بشيء من الآراء أو أقوال أهل العلم إذا ثبت السنة الصحيحة الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم .

[ثالثاً: يستثنى من عموم مقاتلة الناس حد الإتيان بما دُكر في الحديث أهل الكتاب إذا دفعوا الجزية بدلالة القرآن ، وغيرهم إذا دفعها بدلالة السنة على ذلك كما في حديث بريدة بن الحصين رضي الله عنه الطويل في صحيح مسلم وأوله " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أقر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً " الحديث

الشرح :

السنة دلت على أن من لم يقبل الشهادتين عندما يقاتل على الشهادتين فلم يقبلهما وامتنع من قبول الشهادتين ؛ دلت و دلّ أيضاً القرآن فيما يتعلق بأهل الكتاب أنهم إن أعطوا الجزية فإنهم لا يقاتلون ، يكف عن قتالهم حتى وإن لم ينطقوا بالشهادتين ، يعني لم تحصل هذه الغاية منهم ، ودفعوا الجزية للمسلمين عن يد وهم صاغرون ؛ فإنه يُكف عن قتالهم ، فإذا قوله « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله » يستثنى من ذلك م دلت عليه السنة وهي أنه إذا أعطى الجزية يكف عن قتاله .

[رابعاً: يكفي للدخول في الإسلام الشهادتان وهما أول واجب على المكلف ، ولا التفات لأقوال المتكلمين في الاعتماد على أمور أخرى كالنظر أو قصد النظر ، قال ابن دقيق العيد في شرح هذا الحديث : وفيه دلالة واضحة لمذهب المحققين والجماهير من السلف والخلف أن الإنسان إذا اعتقد دين الإسلام إعتقاداً جازماً لا تردد فيه كفاه ذلك ، ولا يجب عليه تعلم أدلة المتكلمين ومعرفة الله بها] .

الشرح ..

من فوائد هذا الحديث أن الشهادتين هما أول واجب على المكلف ، ويكفي في دخول الإسلام النطق بالشهادتين فهما أول واجب على المكلف ؛ وهذا واضح في قوله عليه الصلاة والسلام " حتى يشهدوا " فجعل أول واجب للدخول في الإسلام هو النطق بالشهادتين . وهذا فيه رد على المتكلمين الذين جعلوا أول واجب على المكلف هو النظر أو قصد النظر ، أو أقوال أخرى قريبة من هذا المعنى . وتكلفوا أيضاً في قضية النظر أو قصد النظر بذكر دلائل عقلية يتحقق بها النظر في ضوء مناهجهم وتقريراتهم ويجعلون ذلك أول واجب على المكلف أن يكون منه النظر

في ضوء الأدلة - أدلة المتكلمين - وهي أدلة متكلّفة فيها وعُورةٌ وفيها عنثٌ وصعوبة ، وفيها تشقيق للكلام وتطويل للعبارة ، وفيها شغل للعقول والأذهان ، بل فيها تشتيت للمُطالع والمتأمل ، ويلزمون بتلك الأدلة ويلزمون بذلك النظر، ويُعدّون تلك المقدمات التي يوردونها أمراً واجباً مطلوباً ويعدون ذلك أول واجب على المكلف ؛ وهذا من الخطأ .

والسنة جاءت صريحة بهذا الحديث وغيره أن أول واجب على المكلف هو شهادة أن لا إله إلا الله ، وأول ما يدعى إليه ليس النظر أو قصد النظر ؛ وإنما يدعى إلى الشهادتين ؛ قال عليه الصلاة والسلام « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا .. » « فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله » فهذا أول واجب على المكلف خلافاً لكلام المتكلمين المتكلفين أن أول واجب هو النظر أو القصد إلى النظر أو غير ذلك من التقريرات التي تُنقل عنهم مخالفة و مصادمة لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بل لأحاديث صحيحة كثيرة مقررة أن أول واجب على المكلف هو النطق بالشهادتين .

[خامساً : المقاتلة على منع الزكاة تكون لمن امتنع منها وقاتل عليها أما إذا لم يقاتل فإنها تؤخذ منه قهراً] .

الشرح ..

يعني لا يُصار إلى المقاتلة ابتداءً ولكن إذا مانع وامتنع وقاتل فعندئذ يُقاتل ، لكن إذا لم يحصل منه مقاتلة وامتنع من أداء الزكاة ؛ تؤخذ منه قهراً ، فإن قاتل قوتل .

إذاً المقاتلة لمانعي الزكاة لا يُصار إليها ابتداءً ، إن أمكن أن تؤخذ منه قهراً وبقوة السلطان أخذت منه ، وإن لم يتمكن من ذلك وامتنع من أدائها وقاتلوا لأجل ذلك يقاتلون .

[سادساً: قوله " وحسابهم على الله " أي أن من أظهر الإسلام وأتى بالشهادتين فإنه يُعصم ماله ودمه ، فإن كان صادقاً ظاهراً وباطناً نفعه ذلك عند الله وإن كان الباطن خلاف الباطن وكان أظهر ذلك نفاقاً فهو من أهل الدرك الأسفل من النار] .

الشرح ..

قوله عليه الصلاة والسلام " وحسابهم على الله " أي أن الله سبحانه وتعالى هو المجازي المحاسب الديان العليم سبحانه وتعالى بالبوطن والظواهر ، وبالأسرار والعلانية والسر والعلانية لا تخفى عليه سبحانه وتعالى خافية ، فالحساب على الله تبارك وتعالى .
وعليه فإن من أعلن الشهادتين وأظهر الإسلام ؛ إن كان باطنه على خلاف ذلك بمعنى أنه تظاهر بالإسلام أما باطنه على خلاف ذلك فليس له يوم القيامة إلا النار في الدرك الأسفل منها مخلداً فيها أبد الآباد ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرِكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ وإن كان هذا الذي أظهر من إعلان الإسلام والنطق بالشهادتين وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة صادقاً فيه من قلبه فأجره على ذلك على الله سبحانه وتعالى ، والناس في هذا الباب ليس لهم إلا الظاهر وأما الباطن والسريرة فهو إلى الله عز وجل ، لنا الظاهر والله يتولى السرائر .

[سابعاً : مما يستفاد من الحديث :

الأول : الأمر بالمقاتلة إلى حصول الشهادتين والصلاة والزكاة .

ثانياً : إطلاق الفعل على القول لقوله " فإذا فعلوا ذلك " وإما ذكر قبله الشهادتان وهما قول .

ثالثاً : إثبات الحساب على الأعمال يوم القيامة .

رابعاً : أن من امتنع عن دفع الزكاة قوتل منعها حتى يؤديها .

خامساً : أن من أظهر الإسلام قبل منه ووكل أمر باطنه إلى الله .

سادساً : التلازم بين الشهادتين وأنه لا بد منهما معاً .

سابعاً : بيان عظم شأن الصلاة والزكاة، والصلاة حق البدن والزكاة حق المال .

★ كثرت الأسئلة .. من الذي يُقاتل ؟

هذا الأمر ليس لعامة الناس وإنما هو لولاة الأمر ، ولي الأمر هو الذي يحمل السيف ويقيم الحدود ويقاتل ويعزر ، هذه ليست لعامة الناس ولو كانت لعامة الناس لعمت في الأرض الفوضى وانتشر الفساد

* . * . *

الحديث التاسع

عن أبي هريرة عبد الرحمن بن صخر رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم " رواه البخاري ومسلم

الشرح..

" ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم " هذا الحديث فيه رسم للمنهج الذي ينبغي أن يكون عليه المسلم تجاه الأوامر والنواهي ، قد قال الله تعالى في القرآن ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ فهذا فيه رسم للمنهج الذي ينبغي أن يكون عليه المسلم تجاه الأوامر والنواهي وأن شهادة المسلم بأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم تعني طاعته بفعل ما أمر والانتفاء عما نهى عنه وزجر ؛ ولهذا قيل في معنى شهادة أن محمداً رسول الله - وهو أحسن ما قيل في معناها - طاعته فيما أمر وتصديقه في ما أخبر والانتفاء عما نهى عنه وزجر وأن لا يُعبد الله إلا بما شرع ، فهو عليه الصلاة والسلام جاء بأوامر كثيرة وجاء أيضاً بنواهي كثيرة ، أمر بأشياء ونهى عن أشياء .

وفي هذا الحديث بيّن المنهج الذي ينبغي أن يكون عليه المسلم تجاه الأمر والنهي فقال "ما نهيتكم عنه فاجتنبوه" أي دعوه وتركوه وابتعدوا عنه ولا تفعلوه "ما نهيتكم عنه فاجتنبوه" والعطف بالفاء فيه تنبيه على ضرورة المبادرة والمصارعة وعدم التردد وأن الذي ينبغي على المسلم إذا سمع النهي أن يبادر - كما يفيدنا العطف بالفاء - " ما نهيتكم عنه فاجتنبوه" أي بدون تردد ولا تباطؤ ولا تأخر لأنه عليه الصلاة والسلام لا ينهى إلا عن شر ولا يمنع إلا من ضر وفساد ، وما بعث الله من نبي إلا كان عليه أن يدل أمته إلى خير ما يعلمه لهم ، وأن يحذرهم من شر ما يعلمه لهم ، فهو عليه الصلاة والسلام لا ينهى إلا عن شر ؛ ولهذا إذا بلغ المسلم النهي فعليه أن ينتهي وأن يبادر إلى الترك .

وقوله فاجتنبوه إختيار هذه اللفظة في هذا الموضع له دلالة ؛ لأن الاجتناب فيه ترك وزيادة ؛ بمعنى أن تترك الذي نهاك عنه النبي عليه الصلاة والسلام وتبتعد عنه ؛ أن تكون في جانب وهو في جانب آخر بعيد عنك ؛ مثل ما قال إمام الحنفاء إبراهيم عليه السلام في دعوته ﴿ واجنبي وبي أن نعبد الأصنام ﴾ " واجنبي " اختار هذا اللفظ أي اجعلني بعيداً عن الأصنام وعن عبادتها ، اجعلها في جانب بعيد عني وأنا في جانب بعيداً عنها .

هنا قال " فاجتنبوه " هذا فيه التنبيه على ترك الحرام وعدم مقاربتة ﴿ ولا تقربوا الزنا ﴾ ؛ فلا يفعل المسلم الحرام ولا يقترب منه ، بل يكون في جانب بعيد عنه ، ولعل هذا فيه إلماحة إلى البعد عن الحرام والبعد أيضاً عن الوسائل والأسباب المفضية إلى الحرام ، وما أدى إلى باطل فهو باطل ، وما أفضى إلى حرام فهو حرام .

" وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم " .. أمر عليه الصلاة والسلام بأوامر عديدة ، أمر بالصلاة ، بالصيام ، بالحج ، بالصدقة ، بالبر ، إلى آخر ذلك .

في الأوامر قال : " فاتوا منه ما استطعتم " : أي تفعل المأمور على قدر استطاعتك ، صلّ قائماً ، فإن لم تستطع فقاعداً ، فإن لم تستطع فعلى جنب . وقال تعالى في الحج ﴿ والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ﴾ .

ولا حظ هنا في الحديث أن النهي قال " فاجتنبوه " ولم يذكر الاستطاعة ؛ فلم يقل مثلاً " اجتنبوه إذا استطعتم " وفي الأمر قال " وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم " لماذا ؟ لأن النهي ترك والترك مستطاع ، أما الفعل قد يكون العبد مستطيع له وقد يكون غير مستطيع ؛ ولهذا علّق الفعل بالاستطاعة ، أما الترك فقال " فاجتنبوه " .

ثم ختم الحديث عليه الصلاة والسلام بالنهي عن كثرة السؤال والنهي عن الاختلاف ؛ قال " فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم " أي كان سبب هلاك من قبلنا في أمرين : الأمر الأول كثرة السؤال ، وكثرة الأسئلة في الغالب تدل على عدم الرغبة في العمل وعدم الحرص على العمل ، ومن عادة من لا يرغب أن يعمل يسأل ، حتى يلاحظ هذا في الطفل الصغير إذا أمر بشيء وهو ليس له رغبة أن يأتي به أو يفعله يُتعب بكثرة الأسئلة ، وكثرة أسئلته تُشعر بعدم الرغبة في العمل وتجده يسأل .. أحضر لي ماء .. تبغى ماء بكاس وإلا بإبريق ؟ .. لا بكاس .. من الثلاجة وإلا من الحنفية .. لا من الحنفية .. أجيئه كذا أو .. يبدأ يعطيك أسئلة حتى تقول خلاص ما أريد . ؛

معروف هذا من لا رغبة له بالعمل يبدأ يطرح أسئلة عديدة تشعر عدم الرغبة بينما الراغب في العمل أسئلته قليلة جداً ومتجهة إلى العمل ؛ الدين النصيحة ؛ لمن ؟ فهذا سؤال المتهيئ للعمل ؛ فهو مستعد للنصيحة لذا يسأل لمن ؛ لمن نقدمها ؟ .. ، أما الآخر فعندما يُقال له الدين النصيحة يقول: كيف ؟ ولماذا ؟ ولماذا لا يكون ... ؛ فيبدأ يسأل أسئلة تدل على عدم الرغبة ؛ ولهذا كثرة الأسئلة تُشعر بعدم الرغبة في العمل ، أما الراغب في العمل فهمته أعلى من ذلك

، ولهذا كثرة الأسئلة هلاك ، وقد أهلكك من كان قبلنا ، وهذا أمر يجب أن يحذر منه المسلم ، ولا يسأل إلا حين يحتاج إلى السؤال في فقه باب من أبواب دينه ، وهذا فيه تنبيه إلى أن السؤال ينبغي أن يكون عند السائل فقه فيه وإلا تبدأ تُطرح أسئلة تبذل الأوقات وتضيع الساعات ، ولا يكون ورائها طائل ولا ثمرة ، وكما أن طلب العلم عبادة تجب فيه صحة النية ؛ فطرح الأسئلة الدينية عبادة يجب أن تصحح فيها النية " مرنا بقول فصل نخبر به من ورائنا وندخل به الجنة " هذه نية صالحة في الأسئلة ، لكن شخص يأتي ويسأل ليرز نفسه بسؤاله ، أو يسأل ليعجز من أمامه بسؤاله ، أو يسأل ليضحك الحاضرين بسؤاله ، أو يسأل ليعترض أحياناً تُطرح أسئلة فيها اعتراض على رب العالمين في شرعه وحكمه سبحانه ، تُثلى عليه الآية فيقول : لماذا حكم الله بكذا ؟ ﴿ لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون ﴾ فمثل هذه السؤالات الاعتراضية والانتقادية على قضاء الله أو على شرعه ؛ هذه أسئلة باطلة وهي من أسباب الهلاك ، وكذلك السؤالات التي تُشعر بعدم الرغبة في العمل وعدم جديته فيه أو الأسئلة التي يُراد بها السخرية أو الاستهزاء ، أو غير ذلك ؛ هذه كلها هلاك .

فكثرة الأسئلة هلاك ؛ ولهذا يجب على المسلم أن يكون حذراً من ذلك ولا يسأل إلا إذا كانت الحاجة مقتضية ذلك ليعرف دينه ؛ قال تعالى ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ أما يسأل ليعبث أو يسأل ليشوش أو يسأل للسخرية أو يسأل لإحراج الآخرين ؛ فهذه كلها هلاك ومضرة على الإنسان ، فيجب عليه أن يتق الله سبحانه وتعالى وأن يتجنب ذلك وأن يكون حذراً منه .

" واختلافهم على أنبيائهم " .. " اختلافهم " تُروى بالرفع . اختلافٌ . ، وتُروى أيضاً بالخفض . اختلافهم . ، رواية الرفع تكون عطفاً على الكثرة . كثرةُ سؤالهم واختلافهم . ، ورواية الجر عطفاً على سؤالهم ، لكن الأقوى الرفع لأن الاختلاف على الأنبياء يضر قللاً أو كثر ؛ ولهذا الأقوى أن تُضبط بالرفع كثرة سؤالهم واختلافهم ، لكن إذا خفضت وقيل : كثرة سؤالهم واختلافهم صار المعنى منصباً على كثرة الاختلاف لا على وجود الاختلاف ، والمقصود والله أعلم وجود الاختلاف قللاً أو كثر لأنه مضرة على الإنسان .

قال الشيخ عبد المحسن العباد :

[مما يستفاد من هذا الحديث :

أولاً : إتفق الشيخان على إخراج هذا الحديث ، وهو بهذا اللفظ عند مسلم في كتاب الفضائل ، وقد جاء بيان سبب الحديث عنده في كتاب الحج عن أبي هريرة رضي الله عنه قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا » فقال رجل : أكلَّ عام يا رسول الله ؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم » ثم قال « ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه » .

الشرح..

هذا الحديث له قصة أوردها الإمام مسلم في كتابه الصحيح وهي أن الرسول عليه الصلاة والسلام خطب الناس وقال « يا أيها الناس إن الله قد فرض الله عليكم الحج فحجوا فقال رجل : أكلَّ عام يا رسول الله ؟ .. هل الله فرض علينا الحج كل عام ؟ فسكت النبي عليه الصلاة والسلام حتى قالها ثلاثاً .. يعني أعاد الرجل السؤال ثلاث مرات ، أكل عام يا رسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو قلت نعم لوجبت » يعني لكان واجب عليكم أن تحجوا كل عام وكانت فريضة الحج كل عام قال « لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم » يعني أن الحج كل عام أمر شاق و غير مستطاع لأكثر المسلمين

ثم قال « ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه »

ثانياً : قوله « ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم » فيه تقييد امتثال الأمر بالاستطاعة دون النهي وذلك أن النهي من باب التروك وهي مستطاعة ، فالإنسان مستطيع أن لا يفعل ، أما الأمر فقد قيّد بالاستطاعة لأنه تكليف بفعل وقد يستطاع ذلك الفعل وقد لا يستطاع ، فالمأمور يأتي بالمأمور به حسب استطاعته ، فمثلاً لما نُهي عن شرب الخمر والمنهي مستطيع عدم شربها ، والصلاة مأمور بها وهو يصليها على حسب استطاعته من قيام وإلا فعن جلوس وإلا فهو مضطجع ، وإما يوضحه في الحسيات ما لو قيل للإنسان لا تدخل من هذا الباب فإنه مستطيع أن لا يدخل لأنه ترك ، ولو قيل له إحمل هذه الصخرة فقد يستطيع حملها وقد لا يستطيع لأنه فعل] .

الشرح..

قوله في الحديث : " ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم : فرّق بين المنهي عنه والمأمور به ؛ المنهي عنه لم يقيد باستطاعة والمأمور به قُيّد بالاستطاعة ، والسبب أن النهي ترك والترك مُستطاع ، والأمر فعل - تكليف بفعل . والفعل قد يكون مستطاع وقد يكون غير مستطاع ؛ ولهذا قيد الأمر بالاستطاعة دون النهي لأن النهي ترك وهو مستطاع لكل أحد . والمثال الذي ذُكر في الخاتمة يوضح ذلك - يوضح الفرق بين الأمر والنهي . لو قيل لشخص لا تدخل مع هذا الباب ؛ فهذا أمر في استطاعته ؛ ولهذا لا يُحتاج أن يُقال "ما استطعت" لأنه من باب التروك والترك مستطاع ، لكن لو قيل لشخص : إحمل الحجر ؛ قد يكون الحجر ثقيلاً لا يستطيع حمله وقد يكون خفيفاً يستطيع حمله ؛ فيناسب الأمر أن يعلق بالاستطاعة أما الترك لا يحتاج لأن الترك مستطاع.

قال [ثالثاً ترك المنهيات باق على عموميه ولا يستثنى منه إلا ما تدعوا الضرورة إليه كأكل الميتة لحفظ النفس ودفع الغصة بشرب قليل من الخمر] .

الشرح..

ترك المنهيات الذي أفاده هذا الحديث بقوله " ما نهيتكم عنه فاجتنبوه " باق على عموميه ، وأن الواجب في المنهيات عموماً تركها واجتنابها والبعد عنها ، فهو باق على عموميه ، ولا يستثنى منه إلا ما تدعوا الضرورة إليه ؛ كما قال عز وجل ﴿إلا ما اضطرتم إليه﴾ فإذا اضطر الإنسان فالضرورة تبيح المحضورة - في حدود الضرورة . ومن الأمثلة على ذلك أكل الميتة لحفظ النفس ؛ فأكل الميتة محرم لا يحل للإنسان أن يأكل ميتة ؛ فأكل الميتة جائز لحفظ النفس ، يعني لم يجد طعاماً إلا ميتةً فيأكل بقدر ما يكون فيه حفظ نفسه من الموت والهلاك اضطراراً ، فهو يفعل هذا الأمر المحرم عليه فعله لكونه اضطر إليه ، وأيضاً شرب اليسير من الخمر ، شرب الخمر حرام لكن إذا كان إنسان يأكل طعاماً ووقف الطعام في حلقه واحتاج إلى سائل يدفع عنه الغصة . غصة الطعام . ولم يجد سائل إلا الخمر فيجوز له هنا اضطراراً أن يدفع هذه الغصة بالخمر وهو محرم عليه فيباح له ذلك عند الاضطرار وإلا المحرمات كلها باقية على المنع منها ولا يُنصّر إلى شيء من المحرمات إلا إذا وُجدت الضرورة ؛ فيُفعل في حدود الضرورة .

[رابعاً النهي الذي يجب اجتنابه ما كان للتحريم ، وما كان للكرهه يجوز فعله ، وتركه أولى من فعله] .

الشرح..

النهي الذي يجب اجتنابه ما كان للتحريم : والأصل في النهي التحريم ، لكن إذا جاء نهي وأريد به الكراهة . كراهة التنزيه . ؛ فهذا أمره مختلف عن الشيء الذي نهي عنه النبي صلى الله عليه وسلم تحريمه ، فما كان النهي عنه للكرهه . كراهة التنزيه . يجوز فعله ، والأولى تركه واجتنابه .

[خامساً المأمور به يأتي به المكلف على قدر طاقته ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ ، فإذا كان لا يستطيع الإتيان بالفعل على الهيئة الكاملة أتى به على ما دونها ، فإذا لم يستطع أن يصلي قائماً صلى جالساً ، وإذا لم يستطع الإتيان بالواجب كاملاً أتى بما يقدر عليه منه ، فإذا لم يكن عنده من الماء ما يكفي للوضوء توضأ بما عنده وتيمم بالباقي ، وإذا لم يستطع إخراج صاع لزكاة الفطر وقدر على إخراج بعضه أخرجه] .

شرح الشيخ :

هذا كله مستفاد من قوله في الحديث " وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم " ، فإذا استطاع أن يأتي بالمأمور كاملاً أتى به كاملاً ، وإن لم يستطع أن يأتي به كاملاً؛ أتى منه ما استطاع إليه لأن المطلوب أن يأتي بالمأمور بقدر الإمكان إليه ، فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها .

[سادساً قوله « فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم » المنهي عنه في الحديث ما كان من المسائل في زمنه يترتب عليه تحريم شيء على الناس بسبب مسألته ، وما يترتب عليه إيجاب شيء فيه مشقة كبيرة وقد لا يُستطاع كالحج كل عام والمنهي عنه بعد زمنه ما كان فيه تكلف وتنطع واشتغال به عما هو أهم منه] .

الشرح..

قوله في الحديث " كثرة سؤا لهم " .. الأسئلة التي يُنهى عنه في زمنه هي الأسئلة التي قد يترتب عليها تحريم شيء بسبب السؤال ، أو يترتب عليها إيجاب شيء فيه مشقة . مثل ما مرّ في الحديث قوله " لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم " . .

وكثرة الأسئلة التي يُنهى عنها بعد زمنه عليه الصلاة والسلام هي الأسئلة التي فيها تكلف أو تنطع أو اشتغال عما هو أهم ، والأسئلة التي يُنهى عنها كثيرة جداً ، السؤال الذي يطرحه السائل تنطعاً أو تكلفاً أو يسأله تضييعاً للأوقات وبعثرة للجهود أو يسأله ليبرز نفسه ويظهر نفسه أو أيضاً يسأل للإعتراض على أحكام الله الشرعية أو على قضاءه سبحانه وتعالى وقدره ؛ فهذه كلها أسئلة باطلة ومحرمة وداخلية في قوله عليه الصلاة والسلام « هلك المتنطعون » ، وداخلية أيضاً في هذا الحديث النهي عن كثرة الأسئلة .

والواجب على المسلم أن لا يسأل إلا السؤال الذي يترتب عليه فائدة عنده أو فائدة عند إخوانه المسلمين .

[سابعاً : قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم :

وقد انقسم الناس في هذا الباب أقساماً : فمن أتباع أهل الحديث من سد باب المسائل حتى قلّ فقهه وعلمه في حدود ما أنزل الله على رسوله ، وصار حامل فقه غير فقيه . ومن فقهاء أهل الرأي من توسع في توليد المسائل قبل وقوعها ما يقع في العادة منها وما لا يقع ، واشتغلوا بتكلف الجواب عن ذلك وكثرة الخصومات فيه والجدال عليه حتى يتولد من ذلك افتراق القلوب ويستقر فيها بسببه الأهواء والشحناء والعداوة والبغضاء ، ويقترن ذلك كثيراً بنية المغالبة وطلب العلوّ والمباهاة وصرف وجوه الناس ؛ وهذا مما ذمه العلماء الربانيون ، ودلت السنة على قبحه وتحريمه ، وأما فقهاء أهل الحديث العاملين به فإنه معظم همهم البحث عن معاني كتاب الله عز وجل وما يفسره من السنن الصحيحة ، وكلام الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وعن سنة رسوله الله صلى الله عليه وسلم ومعرفة صحيحها وسقيمها ، ثم التفقه فيها وتفهمها والوقوف على معانيها ، ثم معرفة كلام الصحابة والتابعين لهم بإحسان في أنواع العلوم من التفسير والحديث ومسائل الحلال والحرم وأصول السنة والزهد والرقائق وغير ذلك ، وهذا هو طريق الإمام أحمد ومن وافقه من علماء الحديث الربانيين ، وفي معرفة هذا شغل شاغل عن التشاغل بما أحدث من الرأي بما لا يُنتفع به ولا يقع ، وإنما يورث التجادل فيه الخصومات والجدال وكثرة القيل

والقال ، وكان الإمام أحمد كثيراً إذا سُئِلَ عن شيء من المسائل المولدات التي لا تقع يقول : دعونا عن هذه المسائل المحدثه..

إلى أن قال : ومن سلك طريقة طلب العلم على ما ذكرناه تمكن من فهم جواب الحوادث الواقعة غالباً لأن أصولها توجد في تلك الأصول المشار إليها، ولا بد أن يكون سلوك هذا الطريق خلف أئمة أهلك المجمع على هدايتهم ودرائتهم كالشافعي وأحمد وإسحاق وأبي عبيد ومن سلك مسلكهم ، فإن من ادعى سلوك هذا الطريق على غير طريقهم وقع في مفاوز ومهالك ، وأخذ بما لا يجوز الأخذ به ، وترك ما يجب العمل به ، وملاك الأمر كله أن يُقصد بذلك وجه الله والتقرب إليه بمعرفة ما أنزل على رسوله وسلوك طريقه والعمل بذلك ودعاء الخلق إليه ، ومن كان كذلك وفقه الله وسدده وألهمه رشده وعمله ما لم يكن يعلم ، وكان من العلماء الله الممدوحين في الكتاب في قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ ومن الراسخين في العلم .. إلى أن قال " وفي الجملة فإن من امتثل ما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث وانتهى عما نهى عنه ، وكان مشغولاً بذلك عن غيره حصل له النجاة في الدنيا والآخرة ، ومن خالف ذلك واشتغل بخواطره وما يستحسنه ؛ وقع فيما حذر منه النبي صلى الله عليه وسلم من حال أهل الكتاب الذين هلكوا بكثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم وعدم انقيادهم وطاعتهم لرسولهم] .

الشرح..

ذكر الحافظ بن رجب رحمه الله حال الناس في هذا الأمر فيما يتعلق بكثرة المسائل ؛ فذكر أن الناس في هذا الباب طرفان ووسط :

• طرف تركوا المسائل كلياً فلا يعتنون بالمسائل كلياً ؛ وهذا يترتب عليه قلة الفقه والعلم في حدود الله جل وعلا وما أنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الأسئلة مطلوبة ؛ فالله عز وجل يقول ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

• القسم الثاني : على الضد لهؤلاء ؛ توسعوا في المسائل، وتكلفوا أسئلة في أشياء مولدة غير واقعة ، وإنما يتكلفون أسئلة في أشياء غير موجودة أصلاً ، وهذا أوجد خصومات و جدالات وشحناء ..

• وآخرون هم وسط في هذا الباب : يعني ليس عندهم تفريط أولئك، و لا إفراط هؤلاء ؛ بل توسطوا في هذا الباب ، واتجهوا إلى السؤال في حدود الفائدة وحدود المنفعة .

ولخص رحمه الله ما ينبغي أن يكون عليه طالب العلم في هذا الباب بقوله : "وملاك الأمر كله أن يقصد بذلك وجه الله والتقرب إليه بمعرفة ما أنزل على رسول وسلوك طريقه والعمل بذلك ودعاء الخلق إليه ، ومن كان كذلك وفقه الله وسدده وألهمه رشده وعلمه ما لم يكن يعلم" ؛ فهذه الطريقة المحمودة التي تضبط للمسلم الباب في أمر السؤالات ، أن يقصد بذلك وجه الله والتقرب إليه بمعرفة ما أنزل على رسوله وسلوك طريقه والعمل بذلك ودعاء الخلق إليه فمن وُفق لذلك فقد وُفق للخير وأخذ بسبيل أهل العلم .

[ثامناً مما يستفاد من الحديث :

الأول : وجوب ترك كل ما حرمه الله ورسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثانياً : وجوب الإتيان بكل ما أوجبه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

ثالثاً : التحذير من الوقوع فيما وقع فيه أهل الكتاب مما كان سبباً في هلاكهم .

رابعاً : أنه لا يجب على الإنسان أكثر مما يستطيع .

خامساً : أن من عجز عن بعض المأمور كفاه أن يأتي بما قدر عليه منه .

سادساً : الاختصار في المسائل إلى ما يُحتاج إليه وترك التنطع والتكلف في المسائل]

والله تعالى أعلم ، وصلى الله وسلّم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين

..*

الدرس الثاني عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .
أما بعد ..

الحديث العاشر

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً ﴾ وقال تعالى ﴿ يا أيها الذين ءامنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يارب يارب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب له " » رواه مسلم

الشرح..

هذا الحديث العاشر من الأربعين للإمام النووي وهو من جوامع كلم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد جمع فيه صلوات الله وسلامه عليه جملة من آداب الدعاء وشروطه ، وذكر فيه عليه الصلاة والسلام جملة من موانع قبول الدعاء ؛ ولهذا فحريٌّ بكل مسلم يرجو أن يُجاب دعاءه وأن يتحقق رجاءه أن يتأمل في هذا الحديث العظيم ، وما ذكر فيه النبي عليه الصلاة والسلام من ضوابط مهمة ينبغي على المسلم أن يراعيها ليكون مستجاب الدعاء ،

وقد صدر النبي عليه الصلاة والسلام هذا الحديث بقوله " إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً " ؛ والطيب إسم من أسماء الله الحسنى قال الله تعالى ﴿ ولله الأسماء الحسنى ﴾ فمن أسماء الحسنى الطيب ، وهو اسم دال على صفة الطيب ، وأن الطيب وصفٌ له جل وعلا ، وأن الطيبات كلها له جل وعلا كما يقول المسلم في تشهده " التحيات لله والصلوات والطيبات " أي لله جل وعلا فالطيبات كلها لله ؛ إسمه جل وعلا الطيب وصفاته كلها طيب ، وأفعاله جل وعلا كلها طيب ، وشرعه طيب وحكمه جل وعلا طيب ، وهو جل وعلا طيب لا يقبل إلا طيباً ؛ لا يقبل من الأعمال

والنفقات إلا الطيب ؛ فالطيبات كلها لله جل وعلا ؛ ولهذا إذا عرف المسلم ربه جل وعلا بهذا الاسم وبهذه الصفة فإن من عبودية المسلم لله جل وعلا بهذا الاسم أن لا يفعل إلا الطيبات وأن لا يطعم إلا الطيبات لأن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وقد قال أهل العلم إن لكل اسم من أسماء الله جل وعلا عبودية تختص به .

وهذا الحديث ذكر فيه النبي عليه الصلاة والسلام اسم الله وذكر العبودية التي تختص به ؛ قال " إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً " أي لا يقبل من الأعمال والأقوال إلا الطيب ولا يرضى لعباده أن يطعموا ويأكلوا ويشربوا إلا من الطيب ، فالطيبُ اسمه والطيب صفته ، وهو جل وعلا لا يقبل إلا طيباً .

ومعنى اسمه جل وعلا الطيب أي المنزه ؛ لأنه من الطيب الذي هو التنزه والبراءة والسلامة من النقص والعيب فهو من أسماء التنزيه ؛ لأن أسماء الله تبارك وتعالى باعتبار ما تدل عليه من معاني تنقسم إلى أقسام ؛ ومن تلك الأقسام أسماء حسنى لله تدل على التنزيه مثل : القدوس والسلام والسبوح والطيب ؛ فالطيب من أسماء التنزيه دال على تنزه الله تبارك وتعالى وتقديسه سبحانه عن النقائص والعيوب وعن ما لا يليق به .

" لا يقبل إلا طيباً " .. هذا فيه أن العمل الذي يتقرب به المسلم إلى الله جل وعلا لا يكون مقبولاً إلا إذا كان طيباً ؛ فالله طيب لا يقبل إلا طيباً .

والطيب من الأعمال هو العمل الصالح الذي لا يبتغى به إلا وجه الله جل وعلا ، والطيب من المكاسب هو المال الذي أحله الله سبحانه وتعالى لعباده ، وأباحه لهم .

" وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً ﴾ وقال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ " ..

فأمر المرسلين وأمر المرسل إليهم بأكل الطيبات ؛ وهذا يتضمن ويفهم منه النهي عن أكل الخبيث وأن أكل الخبيث محرم لا يحل للمسلم أن يأكل خبيثاً ؛ فالمؤمن طيب لا يأكل إلا طيباً ولا يدخل في جوفه إلا طيباً ، لا يدخل في جوفه من الطعام والشراب ولا يضع على بدنه من اللباس إلا الطيب ، وكل طعام أو شراب أو لباس لا يكون طيباً فالمؤمن يتنزه عنه ويتحاشى من فعله ولا يطعم إلا طيباً ولا يشرب إلا طيباً ولا يغذي بدنه إلا بالطيب ولا يلبس إلا الطيب .

وفي قوله " إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين " .. فيه تنبيه إلى الاقتداء بالرسول والاهتداء بهديهم ؛ ﴿ أولئك الذين هداهم الله فبهداهم اقتده ﴾ ؛ فأولئك هم قدوة العالم وأسوة الناس ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ﴾ ؛ فذكر جل وعلا أولاً النموذج الأعلى والقدوة في هذا الباب ؛ وهم الرسل الذين على منهاجهم يسار .

فإن الله جل وعلا أمر الرسل بأكل الطيبات وأمر أتباع الرسل بأكل الطيبات ، وبعث الرسل ليحلوا لهم الطيبات ويحرموا عليهم الخبائث ؛ ولهذا يجب على كل أتباع الرسل أن يكونوا كذلك ، ويجب على أمة محمد عليه الصلاة والسلام أن يقتدوا به في ذلك ؛ فلا يطعموا إلا الطيبات ولا يشربوا إلا الطيبات وأن يبتعدوا عن كل خبيث .

" ثم ذكر الرجل " .. أي النبي عليه الصلاة والسلام " يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب " .. ذكر هنا عليه الصلاة والسلام أموراً أربعة كلها من أسباب إجابة الدعاء . يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب . فهذه كلها أسباب للإجابة

• السبب الأول : إطالة السفر ؛ فالسفر بذاته من أسباب الإجابة كما قال عليه الصلاة والسلام " ثلاثة لا ترد لهم دعوة .. " وذكر منها دعوة المسافر ؛ فالسفر مظنة إجابة الدعاء وإذا طال السفر كان الأمر أيضاً أعظم ، وهنا قال " يطيل السفر " أي يسافر سفرًا طويلاً ، ومن المعلوم أن السفر يحصل به انكسار العبد ، ويحصل به أيضاً رقة قلبه ، و تطامنه وتواضعه فهذا من أسباب الإجابة .

• ثم ذكر الصفة أو السبب الثاني لإجابة الدعاء ؛ قال " أشعث أغبر " .. وهذا فيه إشارة التواضع في اللباس والتطامن ؛ فهو بهذه الصفة - أشعث أغبر - أي لباسه وهيئته هيئة متواضعة ليس من أهل الخيلاء أو الكبر بل هو في هيئة متواضعة ، قال عليه الصلاة والسلام في حديث آخر " رُبَّ أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره " .
فهذه الهيئة هيئة متواضعة وهذا من أسباب الدعاء .

• ثم ذكر عليه الصلاة والسلام السبب الثالث قال " يمد يديه إلى السماء " .. ورفع اليدين من أسباب الإجابة كما قال عليه الصلاة والسلام في حديث سلمان « إن الله تعالى حيي كريم يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفراً خائبين » .

فرفع اليدين من أسباب الإجابة لأن مد اليدين نوع من الذل والافتقار والانكسار بين يدي الله جل وعلا وإظهار الفاقة والافتقار إليه والاحتياج إليه هيئة السائل المسكين المحتاج الفقير .

" يمد يديه إلى السماء " .. وهذا فيه الإيمان بعلو الله كما قال الله تعالى في سورة الملك ﴿ ءَأَمْنْتُمْ مِنْ فِي السَّمَاءِ ﴾ أي الله ، وفي حديث الجارية قال صلى الله عليه وسلم أين الله ؟ قالت في السماء ، وفي الحديث الآخر قال « ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » ؛ أي الله .

فمد اليدين إلى السماء أي مدهما إلى الله لأن الله فوق السماوات وفوق عرشه جل وعلا ، في القرآن الكريم قال الله تعالى ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ ، وقال تعالى ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ . فالعلو صفة ثابتة لله جل وعلا دل عليها القرآن ودلت عليها السنة وأجمع على إثباتها أهل العلم ودلت عليها الفطرة السليمة والعقول المستقيمة . فهي صفة ثابتة لله ، والآيات المقررة لهذه الصفة كثيرة ؛ قال تعالى ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ ، ﴿ وهو العلي العظيم ﴾ ، ﴿ الكبير المتعال ﴾ ، ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب ﴾ ، ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه ﴾ .. ؛ فالآيات المقررة والنصوص المقررة لعلو الله جل وعلا على خلقه كثيرة .

والذي لا يؤمن بعلو الله ولا يثبت علو الله ؛ ليس أمامه إلا عقيدتين فاسدتين باطلتين ضالتين ؛ فإما أن يقول : الله في كل مكان والعياذ بالله ؛ وهذه عقيدة من أفسد العقائد ، ليس فيها تعظيم لله ولا قدره سبحانه وتعالى حق قدره ، ولا يقول ذلك من حقق الإيمان باسم الله الطيب الذي الطيب وصفه فيقول الله في كل مكان ؟ والأمكنة فيها الطيب وفيها الخبيث ، فيها الحسن وفيها الفاسد ، فيها النظيف وفيها القذر ؛ فكيف يقول قائل الله في كل مكان ؟ فأين تنزيه الله سبحانه وتعالى ؟ وتقديسه جل وعلا ؟ فهذه عقيدة فاسدة ومصادمة للقرآن ؛ فالقرآن فيه مئات الآيات المقررة لعلو الله جل وعلا على خلقه .

والعقيدة الثانية : أن يقول - والعياذ بالله - أن الله لا فوق العالم ولا تحت ، ولا داخل العالم ولا خارجه ولا متصلاً به ولا منفصلاً عنه ؛ وهذا عدم ؛ ولهذا قال العلماء قديماً : المعطل يعبد عدماً .

والإيمان بعلو الله هو إيمان بالقرآن وإيمان بالسنة وبما أجمع عليه أهل العلم وبما دلت عليه الفطرة السليمة والعقل المستقيم ؛ ولهذا قال " يمد يديه إلى السماء " ، وفي حديث سلمان " إن الله حيي كريم يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه " ؛ لأن " رفع يديه " .. هذا إيمان بعلو الله ، وأما الذي يقول الله في كل مكان فما معنى رفع اليدين ؟

فرفع اليدين فيه إيمان بالعلو ؛ ولهذا إذا كان الأمر شدة وابتهاال - مثل صلاة الاستسقاء - يزيد الإنسان في رفع اليدين ويبالغ في الرفع كما كان يفعل ذلك النبي عليه الصلاة والسلام حتى يُرى بياض

إبطيه صلى الله عليه وسلم ، فقوله " يمد يديه إلى السماء " فيه إيمان بعلو الله سبحانه على خلقه علو يليق بجلاله وعظمته .

• السبب الرابع لإجابة الدعاء في هذا الحديث في قوله " يارب يارب " ؛ والحقيقة أن هذا فيه سببين للإجابة :

* الأول التوسل إلى الله بأسماءه الحسنى ؛ وهنا توسل إلى الله باسمه يا رب - الرب . ، وأكثر دعوات الأنبياء المذكورة في القرآن فيها التوسل إلى الله بهذا الاسم . يارب ، ربنا ، رب . . وهذا فيه الإيمان بربوبية الله لخلق ، وهي عامة وخاصة :

الربوبية العامة بالخلق والرزق والتدبير والإحياء والإماتة .. إلى غير ذلك . والربوبية الخاصة هي التربية على الإيمان والتوفيق للطاعة والهداية لهذا الدين والاصطفاء والاجتباء وهذه خاصة بعباد الله المؤمنين وأوليائه المقربين .

قد قال بعض أهل العلم إن سبب كثرة توسل الأنبياء إلى الله بهذا الاسم استشعاراً منهم للتربية الخاصة والاصطفاء والاجتباء الذي أكرمهم به الرب سبحانه وتعالى .

* السبب الآخر للإجابة : التكرار والإلحاح على الله ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً ﴾ ؛ فهنا تكرار وإلحاح . يارب يارب . يكرر الدعاء والمناجاة والسؤال والطلب .

فهذه كلها أسباب للإجابة فعلها هذا الرجل وهي :

الأول : إطالة السفر ، الثاني : كونه أشعث أغبر ، الثالث : أنه يمد يديه إلى السماء ، الرابع : أنه يتوسل إلى الله بأسماءه ، الخامس : أنه يلح ويكرر الطلب .

فهذه كلها أسباب لإجابة الدعاء ، فعلها وبذلها وتحققت من هذا الرجل ؛ ولكن النبي عليه الصلاة والسلام استبعد إجابة دعائه ؛ لماذا ؟ قال عليه الصلاة والسلام : " ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذّي بالحرام فأني يستجاب له " مع كون هذا الرجل تحققت له الأسباب الكثيرة لإجابة الدعاء استبعد النبي عليه الصلاة والسلام أن يستجاب له .. لم ؟ قال " ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذّي بالحرام » أي تربى جسمه ونمى على الحرام ، وفي حديث آخر قال عليه الصلاة والسلام " كلُّ جسد قام على السحت فالنار أولى به "

وغذّي بالحرام : أي تربى جسمه ونمى على الحرام .

" فأني يستجاب لذلك " .. هذا أراد به عليه الصلاة والسلام استبعاد الإجابة ، أي أن إجابة من كانت هذه حاله مستبعدة .

فإطابة المطعم والمشرب والملبس من أسباب الإجابة ، وعدم إطابة المطعم والمشرب والملبس من أسباب عدم الإجابة ؛ ولهذا استبعد النبي عليه الصلاة والسلام ذلك ، وقد جاء عن بعض السلف أنه قال " لا تستبطئ الإجابة وقد سددت طرقها بالذنوب " سواءً كان الذنب أكل حرام أو شرب حرام أو لبس حرام ، أو كان الذنب ترك واجب مما أوجبه أو افترضه الله عليك ، أو كان الذنب فعل شيء من المحرمات والكبائر ؛ فهذا كله من أسباب عدم الإجابة ؛ ولهذا قيل " أطب مطعمك تُحب دعوتك " .

فيحرص المسلم على الطيبات من المطاعم والمشارب والملابس ، ولا يغذي نفسه إلا بالطيب ؛ فهذا من أسباب الخير والفلاح ومن أسباب إجابة الدعاء وقبوله .
فهذا الحديث العظيم جمع فيه نبينا عليه الصلاة والسلام أسباباً لإجابة الدعاء وذكر فيه أيضاً موانع إجابة الدعاء ؛ وهذا يُستفاد منه أن لإجابة الدعاء أسباباً ولعدم إجابته أيضاً أسباب ، وذكر عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث من أسباب الإجابة ومن موانع الإجابة ؛ فهذا حديث من جوامع كلم نبينا صلوات الله وسلامه عليه .

قال الشيخ عبد المحسن العباد حفظه الله في شرح الحديث :
[الأول: قوله « إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً » يدل على أن من أسماء الله الطيب ، ويقبل من الأعمال ما كان موصوفاً بالطيب ، وهو عام في جميع الأعمال ومنها الكسب فلا يعمل المرء إلا صالحاً ولا يكتسب إلا طيباً ولا ينفق إلا من الطيب] .

الشرح..

قوله عليه الصلاة والسلام " إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً " ؛ يدل على أن الطيب اسم من أسماء الله الحسنى وأن الطيب صفة لله ، وإذا قلت في التحيات : التحيات لله والصلوات والطيبات ؛ عليك أن تحقق ذلك أي عندما تقول "الطيبات لله" عليك أن تحقق ذلك ، فالطيبات من الصلوات والدعوات والأذكار والصدقات والأعمال الصالحات ؛ كلها لله سبحانه وتعالى وحده ، وكذلك الطيبات لله أي أن أفعاله وأوصافه كلها طيبة ؛ فتقرر ذلك وتحقق الإيمان به والعبودية لله تبارك وتعالى بذلك ؛ فالله عز وجل فاسمه الطيب وصفاته كلها طيبة وأفعاله كلها طيبة ولا يقبل إلا طيباً ؛ أي لا يقبل من الأعمال إلا الطيب ، والعمل لا يكون طيباً إلا إذا كان لله خالصاً

وللسنة موافقاً ، إن لم يكن لله خالصاً فهو شرك لا يقبله الله ، وإذا لم يكن للسنة موافقاً فهو بدعة لا يقبله الله .

ويدخل في ذلك الكسب ، وعليه فإن المسلم ينبغي له أن يحرص أن تكون أعماله كلها صالحة ومكاسبه كلها طيبة ، وقد كان نبينا عليه الصلاة والسلام كل يوم بعد صلاة الصبح يدعو بهذا الدعاء : « اللهم إني أسألك علماً نافعاً ورزقاً طيباً وعملاً صالحاً » ؛ فهذه دعوة طيبة عظيمة نافعة يجدر بكل مسلم أن يواظب عليها كل يوم بعد صلاة الصبح .

[ثانياً قوله « وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين » فقال ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً ﴾ ، وقال ﴿ يا أيها الذين ءامنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ في الآيتين أمر المرسلين والمرسل إليهم بالأكل من الطيبات ، وكما أن المرسلين لا يأكلون إلا الطيب فإن على أتباعهم أن لا يأكلوا إلا طيباً] .

شرح الشيخ :

في قوله " إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين " ذكر هنا قدوة العباد في الخير وهم الرسل ، قادة الناس إلى كل خير وفضيلة " وما بعث الله من نبي إلا دعا أمته إلى خير ما يعلمه لهم وحذرهم من شر ما يعلمه لهم " ؛ فالأنبياء هم قدوة الناس ، وهم أئمة الهدى ، وهم الأسوة والقدوة في كل خير ؛ فذكر هنا القدوة فقال " إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين " ؛ وهذا فيه تنبيه للمسلم إذا أكلت الطيبات وحرصت على الطيبات ولم تتغذ إلا بالطيبات فقدوتك من ؟ الرسل ؛ فأنت سائر على منهاجهم ، أنت على طريقة صفوة الخلق وخيار عباد الله ، إذا كان المسلم لا يأكل إلا الطيبات ولا يطعم إلا الطيبات ولا يلبس إلا الطيبات ؛ فقدوته صفوة خلق الله وهم رسله . وإذا كان الإنسان والعياذ بالله يأكل الخبيث ويطعم الخبيث ويلبس الخبيث ؛ فقدوته من ؟ قدوته إبليس قدوته الشيطان قدوته شرار الخلق ؛

وإذا كان الرسل لا يأمرهم إلا بالطيبات فالشيطان لا يأمر أتباعه إلا بالخبائث ؛ ولهذا شرع لنا إذا دخل أحدنا إلى الخلاء أن يقول " اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث " فالشيطان خبيث وما يدعوا إليه الخبيث ، والرسل هم أهل الطيب ، وما يدعون إليه هو الطيبات ؛

فالذي لا يأكل ولا يشرب إلا الطيب مقتد بالأنبياء والمرسلين ، والذي لا يأكل إلا الخبيث فهو متشبه ومقتد بالشيطان وجنوده وأعوانه .

[ثالثاً قوله « ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب له » ؛ لما بيّن النبي صلى الله عليه وسلم أن الله لا يقبل إلا طيباً وأن المرسلين والمؤمنين أمروا بالأكل من الطيبات بيّن أن من الناس من يخالف هذا المسلك ، فلا يكون أكله طيباً ، بل يعتمد إلى اكتساب الحرام واستعماله في جميع شؤونه من مأكل وملبس وغذاء وأن ذلك من أسباب عدم قبول دعاءه مع كونه أتى بأسباب قبول الدعاء وهي في هذا الحديث أربعة : السفر مع إطلاته وكونه أشعث أغبر وكونه يمد يديه بالدعاء وكونه يناد الله بربوبيته مع إلحاحه على ربه بتكرار ذلك . ومعنى قوله فأنى يستجاب لذلك استبعاد حصول الإجابة لوجود الأسباب المانعة من قبول الدعاء] .

الشرح..

عرفنا أنه اجتمعت خمسة أسباب لإجابة الدعاء ؛ ومع توافر هذه الأسباب واجتماعها في هذا الرجل السفر مع إطلاته وكونه أشعث أغبر وكونه يمد يديه بالدعاء وكونه يناد الله بأسمائه و مع إلحاحه على ربه بالتكرار ؛ استبعد النبي عليه الصلاة والسلام أن يستجاب له ؛ لماذا ؟ قال " مطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يُستجاب له " : المطعم الحرام سواء كان محرماً في ذاته . مثل الميتة والخنزير ونحو ذلك ، أو كان محرماً بوسيلة الحصول عليه كأن يأخذ المال سرقة أو انتهاباً أو بالغش أو بالبيع المحرمة كالمراباة ، وهكذا أيضاً في المشرب سواء كان المشرب محرماً في ذاته . مثل الخمر . أو محرماً في وسيلة تحصيله كأن يسرق شيئاً من المشروبات أو يشتري شيئاً منها بمال حرام ، وكذلك الملبس الحرام سواء كان حراماً في ذاته ، مثل لبس الذهب والحرير للرجال أو إسبال الثياب وهذا أمر يغفل عنه كثير من المسلمين بسبب الجهل وقلة العلم مع أن الأحاديث في ذلك كثيرة جداً ؛ ومع ذلك ترى كثيراً من الرجال لا يبالي بذلك والسبب قلة العلم وقلة التبصير في بلدانهم بهدي النبي عليه الصلاة والسلام ، وجاء عنه عليه الصلاة والسلام أحاديث كثيرة في التحذير من الإسبال ، والإسبال هو أن ينزل رداء الإنسان أو ثوبه أو سرواله أو شيء من ملابسه عن الكعبين . أسفل الكعبين . ؛ قال عليه الصلاة والسلام « ما أسفل الكعبين من الإزار ففي النار » وقد رأينا بعض الصالحين والأفاضل ممن لم يبلغوا هذا الأمر ولم يسمعوا به عندما سمع السنة أمسك بثوبه

الذي كان طويلاً لريثما يذهب إلى الخياط لرفعه ؛ حرصاً على عدم المخالفة من حين بلغته السنة وهذا من أمارات الخير وشدة الرغبة والحرص للإقتداء والبعد عن الحرام .

وجاء في صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ثلاثة لا ينظر الله إليهم ولا يكلمهم ولا يزيكهم ولهم عذابٌ أليم .. وذكر منهم المسبل إزاره » ؛ فإسبال الإزار أمرٌ محرم ومنهني عنه نهي عنه النبي عليه الصلاة والسلام .

الصحابي الجليل عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما طعن في صلاة الفجر وهو يصلي ؛ جاءه غلام وقال له " هنيئاً لك يا أمير المؤمنين صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم واستشهدت في سبيل الله .. " ، وكان ثوب الغلام يلمس الأرض ، وعمر رضي الله عنه الدم يثعب من بطنه ويغمى عليه فيفيق ؛ فرأى ثوب الغلام يلامس الأرض فقال : " يا غلام ارفع ثوبك فإنه أتقى لربك وأنقى لثوبك " إذا رفعت ثوبك تكون قد اتقيت الله لأنك فعلت الشيء الذي أمرك الله به وأيضاً أنقى لثوبك إذا كان ثوبك يلمس الأرض ؛ فهذا عرضة لتلفه وعرضة لعدم حصوله على النقاء .

فإسبال الإزار أمر محرم وينبغي على الرجل أن يتقي الله سبحانه وتعالى - كما قال عمر - . وأن يحافظ على ما وجهه إليه النبي عليه الصلاة والسلام .

وكذلك فيما يتعلق باللباس المحرم الحذر من ألبسة الكفار التي هي من خصائصهم ؛ ومن ذلكم البناتيل الضيقة التي إذا لبسها الإنسان وصفت عورته وحجّمت عورته ، أما إذا كان البنطال واسع وفضفاض والقميص من فوقه فهذا لا بأس به ، لكن البنطال الضيق الذي إذا أراد صاحبه أن يلبسه يحتاج إلى وقت حتى يتمكن من لبسه من شدة ضيقه عليه فيصف العورة ويحجمها فهذا لا يجوز ، وبعضهم يأتي إلى المسجد بهذا البنطال ويكون القميص الذي يلبسه قصيراً ثم إذا سجد انحسر من خلفه وبدأ جزءاً من عورته ، ثم يسجد لله ويدعوه ويناجيه .. ، وعورته مكشوفة ..! كيف يفكر هؤلاء !

فالواجب على المسلم أن يتقي الله في لباسه ، لما يسجد أقرب ما يكون العبد إلى ربه وهو ساجد ثم هذا يسجد على هذه الصفة وعورته مكشوفة للذاهب والرائح !! جزء من عورته المغلظة مكشوف !! الجزء الأعلى من إلبته قد ينكشف ؛ فهذه والله مصيبة .. أقوله بهذا التفصيل لأنه شيء مؤلم يُرى أحيانا في المساجد ، فهذا أمر يجب أن نتقي الله عز وجل وأن نترى وأن نتأدب وأن نراعي في ألبستنا

ولهذا المسلم إذا احتاج إلى البنطال يلبس البنطال الواسع ويكون القميص الذي فوق البنطال طويلاً ؛ ففائدة القميص إذا كان طويلاً أنه أكثر سترًا وحشمة ، والناحية الأخرى إذا سجد يستر ويغطي .

فأمر اللباس ومراعاة آداب الشريعة فيه هذا أمر مطلوب ينبغي أن يراعيه المسلم ، ويلتحق بذلك أيضاً الحذر من التشبه بغير المسلمين فيما يتعلق بالشعر ؛ الآن تجد كثيراً من الشباب والشابات ليس له هم إلا النظر في طريقة قص الشعر وما يسمى بالموضات ومحاكاة الكفار ، وكل ما فعلوا من قبيح وذميم وُجد من تشبه بالكفار به ؛ قال عليه الصلاة والسلام " لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً شبراً ذراعاً ذراعاً حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه " ؛ ولهذا ترى في بعض الحالات . وهو نوع من التشبه المنهي عنه . ترى بعض الرجال يخالف هدي النبي عليه الصلاة والسلام فيما يتعلق باللحية والشارب فيطيل شاربه إطالة عجيبة ويخلق لحيته ؛ مع أن الثابت عنه عليه الصلاة والسلام عكس ذلك ؛ حيث قال "وفروا للحى وقصوا الشوارب " ؛ فتجده يفعل خلاف ما دعى إليه عليه الصلاة والسلام . وبعض الرجال ما يكتفي بالحلق ؛ بل يفعل ما يسمى بالخيط حتى يكون خده ناعماً والعياذ بالله !! عائشة رضي الله عنها كانت إذا أرادت أن تحلف تقول " والذي زين الرجال باللحى " ؛ فتجد بعضهم يبالغ وربما أيضاً بعض الرجال يأخذ من الأشياء التي تضعها النساء على خدها مما يحمر الخد ويصفره ويجمله فيضعه على خده ، وبعضهم يطيل الشارب إطالة ذميمة بحيث ينزل شاربه على فمه ويغطي فمه وينزل بشكل بشع من الجانبين وبشكل مؤذي وهذا خلاف الفطرة قال عليه الصلاة والسلام " خمسٌ من الفطرة " وذكر منها "قص الشارب" - فتجده يطيل شاربه إطالة سيئة جداً وهذا مؤذٍ لنفسه ومؤذٍ لغيره لأن إيذائه لنفسه ربما تتعجب منه تقول إذا أراد أن يأكل أو يشرب كيف يفعل ؟ .. إذا كان بيده ملعقة فيها الإيدام والشارب نازل على الفم كيف يشرب الإيدام ؟ يؤذي نفسه بهذا الشارب .. وربما يحتاج إلى ملعقتين ؛ ملعقة يشرب بها وملعقة يرفع بها شعر الشارب حتى تجد الملعقة طريقاً إلى فمه ، وعندما يريد أن يقبل طفله الصغير ؛ من لا يرحم لا يُرحم إذا أراد رحمه في صبيه الصغير أتى ليقبله ثم قبله على خده بهذا الشارب الغليظ الخشن ماذا سيقول الصغير ؟ هل هذه رحمه في حقه أم أذى ؟ الصغير يقول ليت الله أراحنا من هذه القبله ، يؤذي نفسه ويؤذي الآخرين ، أما زوجته فلا تسأل عن حالها مع هذا الزوج الذي بهذه الصفة وهذه الهيئة -

وهذا كله بسبب المجانبة والمخالفة للفطرة ، الفطرة والسنة لا تأتي إلا بخير لكن الشيطان إذا عبث في عقل الإنسان غيّر الأمور وجعل عنده القبيح حسناً والحسن قبيحاً والواجب على المسلم أن لا يتبع خطوات الشيطان وأن يبقى على الفطرة السليمة وعلى السنة القويمية ؛ هدي النبي الكريم عليه الصلاة والسلام .

وهنا في هذا المقام . مقام المطعم الحرام والمشرب الحرام . لا ننسى أن ننصح المبتلى بالدخان أن يتقي الله عز وجل وأن يتوقف عن تعاطيه ، فالدخان شر وبلاء وضر وأذى وإهلاك للنفس وإضاعة للمال وإضرار بالصحة وإيذاء للآخرين ومعونة للأعداء ؛ لأن أكثر شركات بيع الدخان شركات كافرة . من يهود وغيرهم . فالواجب على المدخن أن يتقي الله عز وجل وأن يتوقف عن التدخين تماماً ، ويُقي نفسه نقياً طيباً طاهراً نظيفاً بعيداً عن خبث الدخان والدخان من الخبائث وهو محرم بدلالة كتاب الله وسنة نبيه وقواعد الشريعة ؛ لأن هناك أدلة في الكتاب والسنة تدل بعمومها على حرمة . كما قرر ذلك أهل العلم والبصيرة بدين الله . فيترك هذا المؤذي ويتقي الله عز وجل في نفسه ويتقي الله عز وجل في إخوانه ، فبعض المدخنين ربما يطفئ سيجارته عند باب المسجد ، وهذا يحصل كثيراً في شهر رمضان في صلاة المغرب ثم يؤذى المسلم وهو ساجد بهذه الرائحة ، رائحة الدخان المؤذية المضرة ..

فهذا الحديث العظيم يربي المسلم على الفضائل والكمالات والخيرات حتى يصبح المسلم طيباً في طعامه ، طيباً في شرابه ، طيباً في لباسه ، طيباً في حياته ، طيباً في أعماله ، وتكون دعواته مستجابة ، وأعماله صالحة ومتقبلة ، وبعيداً عن سفاسف الأخلاق و رديء الأمور و سيئها ، فيكون في عالي المقامات ورفيعها .

ولننتبه إلى الخاتمة التي ختم بها النبي عليه الصلاة والسلام بها هذا الحديث ؛ قال " فأني يُستجاب لذلك " فهذا فيه تحذير شديد جداً من مثل هذه الأمور التي تضر بالإنسان وربما كانت مانعاً من أن يُقبل دعائه وأن يتحقق له رجاءه .

[رابعاً مما يستفاد من الحديث :

الأول : أن من أسماء الله الطيب ؛ ومعناه المنزه عن النقائص ، وأن من صفاته الطيب ، لأن أسماء الله كلها مشتقة ، وتدل على صفات مشتقة منها .

الثاني : أن على المسلم أن يأتي بالطيب من الأعمال والمكاسب .

- الثالث : أن الصدقة لا تُقبل إلا من مال حلال ، وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال " لا يقبل الله صلاة بغير طهور ولا صدقة من غلول " . رواه مسلم
- الرابع : تفضل الله على عباده بالنعم ، وأمرهم بأن يأكلوا من الطيبات .
- الخامس : أن أكل الحرام من أسباب عدم قبول الدعاء .
- السادس : أن من أسباب قبول الدعاء السفر ، وكون الداعي أشعث أغبر .
- السابع : أن من أسباب قبوله أيضاً رفع اليدين بالدعاء .
- الثامن : أن من أسبابه أيضاً التوسل بالأسماء .
- التاسع : أن من أسبابه الإلحاح على الله فيه .

والله تعالى أعلم ، وصلى الله وسلّم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين

* * *



شرح الأربعين النووية

لأبي زكريا يحيى بن شرف الحزامي النووي رحمه الله

من الدرس ١٣ إلى الدرس ١٥

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما الله تعالى

١٤٤٠/٠٦/٠٦ هـ

الدرس الثالثة عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .
أما بعد ..

الحديث الحادي عشر

عن أبي محمد الحسن بن علي بن أبي طالب سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم وريحانته رضي الله عنهما قال
: حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » .

رواه الترمذي والنسائي وقال الترمذي حديث حسن صحيح

الشرح ..

هذا الحديث رواه صحابي جليل من آل بيت النبي عليه الصلاة والسلام ، وله مكانة في قلب النبي صلى
الله عليه وسلم عظيمة ، وهو ابن بنته فاطمة رضي الله عنهما ، وكان له ولأخيه الحسين في قلب النبي عليه
الصلاة والسلام منزلة ومكانة ، وجاء عنه عليه الصلاة والسلام الحث على حبهما ، وأن حبهما من حبه عليه
الصلاة والسلام ، وأخبر أنهما سيذا شباب أهل الجنة ، وأخبر عليه الصلاة والسلام أنهما ريحانته كما جاء في
الحديث « هما ريحانتي في الدنيا »

ولهذا النووي رحمه الله تعالى لما أورد الحديث قال :

عن أبي محمد الحسن بن علي بن أبي طالب سبط رسول الله . سبطه أي ابن بنته لأن ابن البنت يقال له
سبط وابن الابن يقال له حفيد .

قال " وريحانته " .. فقله رحمه الله تعالى " وريحانته " أخذاً من الحديث الذي قال فيه عليه الصلاة والسلام " هما
ريحانتي في الدنيا " والريحان نوع من الشجر له رائحة طيبة وزكية وهو يريح القلب - فيه معنى
الراحة للنفس وفيه طيب النفس . فقله عليه الصلاة والسلام " هما ريحانتي في الدنيا " فيه معنى الراحة
والارتياح والسرور، وكان عليه الصلاة والسلام يُسر برؤيتهما ولقائهما ويأنس بذلك ويرتاح لذلك ؛

فهما له عليه الصلاة والسلام بمثابة الريحانة التي يرتاح من يشمها ويأنس بشمها ويجد ابتهاجاً وسروراً بذلك هكذا كانا عنده صلوات الله عليه ورضي الله عنهما .

وأهل السنة والجماعة قاطبة يحفظون لآل البيت حقهم ، ويعرفون لهم مكانتهم ، ويقدرونهم قدرهم ، وينزلونهم منازلهم بدون غلو ولا جفاء ، وبدون إفراط ولا تفريط ، وهم في آل البيت وسط بين من غلى وجفى ؛ لأن أناساً غلو في آل البيت وجعلوا لهم من الخصائص والصفات ما ليس إلا لله كالادعاء بأنهم يعلمون الغيب أو بصرف شيء من العبادة لهم ، أو غير ذلك من حقوق الله تعالى وخصائصه . وآخرون على الطرف النقيض من هؤلاء جفوا في آل البيت ، وانتقصوا آل البيت ، ولم يعرفوا لهم أقدارهم ولا مكانتهم ولا حقهم ؛ فصاروا بين أمرين : أناسٌ غلوا وأناسٌ جفوا ، والحق قوام بين ذلك ، الحق وسط بين سيئتين وهدى بين ضاللتين ، لا غلو ولا جفاء ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ﴾ وخير الأمور أوسطها لا تفريطها ولا إفراطها ؛ ولهذا فإن أهل السنة والجماعة قاطبة يحفظون لآل بيت النبي عليه الصلاة والسلام قدرهم ، ويعرفون لهم مكانتهم ، وينزلونهم منازلهم دون غلو أو جفاء ؛ فالغلو فيهم حرام و الجفاء فيهم حرام والحق قوام بين ذلك ؛

ولهذا من عقيدة أهل السنة والجماعة الثابتة في كتب الاعتقاد والمقررة في كتب الأصول محبة آل بيت النبي عليه الصلاة والسلام وتوقيرهم واحترامهم ومعرفة قدرهم وإنزالهم منازلهم ، والحذر في حقهم من غلو أو جفاء أو إفراط أو تفريط ، وهذه من نعمة الله ومنتته على أهل السنة والجماعة سلّمهم الله تبارك وتعالى من آفتين : من آفة الغلو وآفة الجفاء ، وكانوا في ذلك وسطاً عدولاً خياراً لا غلو عندهم ولا جفاء بخلاف من ضل و زل في هذا الباب إما بغلو أو جفاء .

ثم إن أهل الغلو في آل بيت النبي عليه الصلاة والسلام إذا رأوا من أهل السنة إنكاراً على صور الغلو التي تُفعل في حق آل البيت ؛ يعضّون ذلك نوعاً من الجفاء ، وهو في الحقيقة نوعٌ من إنزال آل البيت منازلهم ، والغالي إذا أنكر عليه غلوه عدّ إنكار غلوه نوعاً من الجفاء ، وسلّم الله تبارك وتعالى أهل السنة ووقاهم من الآفتين ، وأضرب على ذلك مثلاً للتوضيح فقط لإمام من أئمة أهل السنة وعلم من أعلام الإسلام نفع الله به تبارك وتعالى نفعاً عظيماً في نشر الاعتقاد وبيان التوحيد وإيضاح السنة ورد البدع والضلالات ؛ أعني شيخ الإسلام محمد بن

عبد الوهاب رحمه الله تعالى ؛ فهذا الإمام يرميه بعض خصومه وأعداءه بأنه يبغض آل بيت النبي عليه الصلاة والسلام مع أن من يقرأ كتبه ويطالع سيرته يجد فيها حباً عظيماً لآل بيت النبي عليه الصلاة والسلام ، ويجد فيها توقيراً واحتراماً لآل بيت النبي عليه الصلاة والسلام ، ويجد فيها إنزالاً لهم منازلهم وبعداً عن الغلو والجفاء ، ومن عظيم حبه لآل بيت النبي وشدة حبه لآل بيت النبي أنه سمى أولاده بأسماء آل بيت النبي ، جميع أولاده إلا واحداً ؛ فسمى الحسن والحسين وفاطمة وعلي وعبد الله وإبراهيم ؛ فهؤلاء كلهم من أسماء آل البيت ، وواحداً سماه عبد العزيز ، ومعروف أن أغلى ما يكون عند الإنسان أبنائه ، والتسمية تدل على ماذا ؟؟

هذه التسمية " الحسن والحسين وفاطمة وعلي وعبد الله وإبراهيم " تدل على ماذا ؟

تدل على بغض أو حب ؟ تدل على ولاء أم براء ؟ الأمر واضح ...

وهكذا أئمة الإسلام وعلماء الدين من أهل السنة على هذه الجادة ؛ يحبون آل البيت ويعرفون لهم أقدارهم ومنازلهم بدون غلو ولا إفراط ولا تفريط والحق قوام بين ذلك ..

قال " **وريجأته رضي الله عنهما** " .. أي الحسن والحسين

حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم " دع ما يريبك إلى ما لا يريبك " .. والحسن معدود في صغار الصحابة سناً ؛ وهذا فيه تحمل الصغير ؛ تحمله للحديث على صغره ، والحسن والنعمان وعدد من الصحابة تحملوا أحاديث سمعوها من النبي صلى الله عليه وسلم حال الصغر - ربما في السابعة أو السادسة أو الثامنة من أعمارهم . وهذا فيه لفظة تربوية لصغار السن إذا أكرمهم الله تبارك وتعالى بحضور مجالس العلم ينبغي عليه أولاً أن يحمد الله أن أكرمه بحضور مجالس العلم ، وثانياً يحرص على أن يضبط ما يلقي من العلم، ويحرص على أن يستقر العلم في قلبه حتى إذا كبر يجد حصيلة من العلم طيبة مستقرة في قلبه ضبطها في صغره وفي حداثة سنه ؛ وهذه تُعد من النعم العظيمة على الشاب أن يحمل من صغره علماً يستقر في قلبه ويجول في نفسه ويكبر معه ، بخلاف كثير من الصغار الذين ينشأون على جهل تام بالدين وعدم دراية به ، وشغل للأوقات كلها بالملهيات وتوافه الأمور خصوصاً في هذا الزمان كثرت الملهيات للصغار ..

فإذا تحركت الهمة في الصغير ، وجعل هؤلاء قدوة له . الحسن والحسين والنعمان وغيرهم من صغار الصحابة . وطاق سيرهم وأخبارهم واجتهد في التشبه بهم ؛ كان ذاك فيه أكمل فإن الأمر كما

قال أهل العلم : "من كان بهم أشبه كان إلى الخير أقرب" لأنهم أئمة الخير وهداة الخلق والقودة رضي الله عنهم وأرضاهم .

دع ما يريبك : أي اترك وابتعد واجتنب ..

ما يريبك : الأمر الذي يريبك ، من الريبة .

والريبة : أمر يكون في قلب الإنسان بحيث يكون القلب غير مرتاح ولا مطمئن ، فإذا أقدم الإنسان على أمر يجد قلبه مرتاباً منه قلقاً من فعله ليس مرتاحاً للقيام به ولا مطمئناً لذلك ؛ فالنبي عليه الصلاة والسلام يوجهه في مثل هذا الأمر إلى أن يدعه وأن يتركه ؛ فإياك أن تُقدم على الأمر الذي ترتاب نفسك منه ولا تطمئن نفسك إليه .

" دع ما يريبك " .. أي أمر يكون في قلبك ارتياب وعدم اطمئنان فلا تقربه . ولعل هذا الارتياب الذي يكون في القلب واعظ يفهمك الله به ، وقد مر في درس سابق قول النبي عليه الصلاة والسلام « إن الله ضرب مثلاً صراطاً مستقيماً وعلى جنبتي الصراط سوران وفي السوران أبواب وعلى الأبواب ستور مرخاة وفي أول الصراط داع يقول يا عباد الله ادخلوا الصراط ولا تعوجوا وداع من جوف الصراط يقول يا عبد الله لا تفتح الباب فإنك إن فتحتة تلجه » ثم بيّن ذلك فقال « الصراط الإسلام والسوران حدود الله والأبواب التي عليها الستور المرخاة محارم الله والداع الذي من أول الصراط كتاب الله والداع الذي من جوف الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم » فالله عز وجل أكرم المسلم بأن جعل في قلبه واعظاً ؛ ولهذا يلاحظ في نفسه أنه إذا مالت نفسه إلى شيء فيه حرمة أو فيه شبهة ينزعج القلب ويقلق ولا يرتاح وربما يقول لأخيه أو صاحبه " أحس قلبي يؤمني ، أحس وخز في قلبي ، أنا غير مطمئن " فهذا واعظ ووجوده نعمة من نعم الله على المسلم ، وهذا الواعظ إن دخل الإنسان - والعياذ بالله - في الحرام وتعمق في الباطل يتبلد عنده هذا الإحساس ويذهب هذا الواعظ ؛ لأن كثرة الإمساس يُذهب الإحساس ، فإذا تعمق في الحرام وتعمق في الباطل فهذا الواعظ يصبح لا وجود له ، وتجدد والعياذ بالله يصل إلى مرحلة يتوسع في الباطل ولا يجد في قلبه أي ألم بل يصل إلى حالة في الصباح يسفك دماء وفي المساء يطعم ولا كأنه فعل شيء ، وبعض الناس لو أنه أخطأ وهو في سيارته ومرت قطعة وما شعر بها وانكسرت أو ماتت ؛ يبقى أياماً قلقاً ومتألماً ، بينما الآخر الذي توغل في الباطل وتعمق في ظلمات المعاصي يسفك دماءً وفي الصباح يطعم ولا كأنه فعل شيئاً!!

فمن نعم الله سبحانه وتعالى على المسلم ومنته عليه أن جعل في قلبه واعظاً ، ولهذا المسلم إذا أقدم على أمر فيه شبهة تجده يحس بعدم ارتياح ويحس بارتياح من الأمر ، ولهذا بعض المستفتين يأتي إلى بعض أهل العلم ويسأل عن شيء يريد أن يفعله ولا يجد قلبه مرتاحاً وصدره منشراحاً له ..

فالشاهد أن النبي عليه الصلاة والسلام أوصى في مثل هذه الحالة إلى أن يجتنب الأمر فقال " دع ما يريبك " .. أي إذا أقدمت نفسك على أمر أنت في ريبة منه دعه وابحث عن أمر لا ريبة فيه ، إن كان طعاماً أو شراباً أو ذهاباً أو مجيئاً أو أخذاً أو بيعاً أو غير ذلك ؛ إذا كان في نفسك منه ريبة دعه .

وهذا نظير قول النبي عليه الصلاة والسلام في حديث النعمان بن بشير المتقدم "فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه" ، ولاحظ الموافقة الطريفة الجميلة ، من صغار الصحابة يرويان هذين الحديثين وهما من أعظم ما يروى في باب الورع واتقاء المشتبه ؛ وهذا يدل على المكانة العلية التي كان عليها صغار الصحابة من الفضل والنبل والحرص على الخير .

"فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه" فالشيء المشتبه ومثله الشيء الذي ترتب منه ؛ فهناك قال " فمن اتقى الشبهات " ، وهنا قال " دع ما يريبك " ؛ فالشيء الذي يشتبه الإنسان منه أو يرتاب ؛ القاعدة الشرعية في هذا الباب والذي تكون منه السلامة والنجاة أن تتركه .

وإذا تربى المسلم على هذا المنهج النبوي الكريم أصبح تركه لما يريبه واتقاءه للمشتبهات حاجزاً وحائلاً بينه وبين الحرام ؛ ولهذا مر معنا هناك أن النبي عليه الصلاة والسلام قال « فمن وقع في الشبهات وقع في الحرام » . على معنيين مر معنا من كلام النووي رحمه الله تعالى . .

فلهذا الأصل في المسلم أن يربي نفسه وأن يوطدها على تجنب المشتبه وترك الأمور التي يرتاب منها ، الشيء الذي يقع في قلبك منه ريبة .. إياك وإياك .. احذر وابتعد عنه إلا إذا حصل عندك اطمئنان وذهبت الريبة فلا حرج ، أما ما دامت الريبة قائمة مستقرة في القلب إياك وإياك واحذر من خطوات الشيطان ؛ لأن الشيطان يتدرج في الإنسان ليصل به إلى الحرام البيّن من خلال تسهيل الأمور التي في القلب منها ريبة ، والأمور التي فيها اشتباه لدى الإنسان يسهلها على قلبه ونفسه تدرجاً بالإنسان إلى أن يصل به إلى الحرام البين ، أما من

يكرمه الله سبحانه وتعالى باتقاء الشبهات وترك الأمور التي يرتاب منها فهذا يكون فيه بإذن الله سبحانه وتعالى حفظ للدين وصيانة للنفس وبعد عن الحرام .

قال " دع ما يريبك إلى ما لا يريبك " .. إن كنت مرتاباً في شيء فدعه وافعل الذي لا ترتاب منه والذي ليس في قلبك ريبة منه بل أنت مطمئن إليه ؛ فإذا أردت سلوك أحد طريقين أو فعل أحد أمرين أحدهما في قلبك منه ريبة والآخر لا ريبة في قلبك منه فافعل الذي ليس في قلبك ريبة منه ودع ما يريبك .

هذا حديث عظيم جداً في باب الورع بل إنه أساس رصين وقاعدة متينة في هذا الباب يسعد من أكرمه الله تبارك وتعالى بتطبيقها والسير في ضوءها .

قال الشيخ عبد المحسن العباد حفظه الله تعالى في شرح هذا الحديث :

[أولاً : هذا الحديث فيه ترك ما يرتاب المرء فيه ولا تطمئن إليه نفسه ، ويحدث قلقاً واضطراباً في النفس ، وأن يصير إلى ما يرتاح إليه قلبه وتطمئن إليه نفسه ، وهذا الحديث شبيه بما تقدم من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما « فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات فقد وقع في الحرام » وهما يدلان على أن المتقي ينبغي له أن لا يأكل المال الذي فيه شبهة كما يحرم عليه أحل الحرام] .

الشرح ..

قوله عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث " دع ما يريبك " .. فيه أمر بترك ما يرتاب المرء فيه ولا تطمئن إليه نفسه ويحدث قلقاً واضطراباً في النفس ، إذاً هذا معيار نبوي مبارك يحاول الإنسان أن يتشبث به ، فأمر يقدم عليه يجد أن قلبه ليس مطمئناً وأن نفسه ليست مرتاحة أو بداخله شيء عدم الاطمئنان ؛ فالتوجيه النبوي في مثل هذا أن تدعه .

" إلى ما لا يريبك " .. أي اذهب وافعل الأمر الذي يرتاح إليه قلبك ، وتجد أن قلبك مطمئن ليس فيه قلق أو اضطراب أو نحو ذلك ؛ هذا معنى قوله " دع ما يريبك إلى ما لا يريبك " .

وفيه شبهة بحديث النعمان بن بشير في قول النبي عليه الصلاة والسلام " فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات فقد وقع في الحرام " ؛ ومعنى اتقى الشبهات أي تركها وابتعد عنها ، يحصل له برأتان : براءة للدين أي بينه وبين الله وبراءة للعرض أي بينه وبين الناس ،

ووجه عليه الصلاة والسلام هناك في الأمر المشتبه أن يُتقى ، وهنا وجه في الأمر الذي يرتاب القلب ولا يطمئن إليه بأن يدعه الإنسان .

[ثانياً : قال ابن رجب رحمه الله تعالى في جامع العلوم والحكم : ومعنى هذا الحديث يرجع إلى الوقوف عند الشبهات واتقاءها ؛ فإن الحلال المحض لا يحصل للمؤمن في قلبه منه ريب ، والريب بمعنى القلق والاضطراب ، بل تسكن إليه النفس ويطمئن به القلب ، وأما المشتبهات فيحصل بها للقلوب القلق والاضطراب الموجب للشك] .

الشرح..

قرر بن رجب رحمه الله هنا أن معنى هذا الحديث « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » راجعٌ إلى معنى حديث النعمان بن بشير الذي فيه الوقوف عند الشبهات لقوله عليه الصلاة والسلام « فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه » فمعنى هذا الحديث راجعٌ إلى ذاك ، وأن المطلوب من كل مسلم هو أنه إذا أقدم على أمر فيه شبهة أو القلب مرتابٌ منه فعليه أن يدعه وأن يتركه وأن يتقيه وأن يكون منه على حذر لينال بذلك السلامة .

وقال أيضاً [وهاهنا أمرٌ ينبغي التفطن له وهو أن التدقيق في التوقف عن الشبهات إنما يصلح لمن استقامت أحواله كلها وتشابحت أعماله بالتقوى والورع ، وأما من يقع في انتهاك المحرمات الظاهرة ثم يريد أن يتورع عن شيء من دقائق الشبه فإنه لا يحتمل له ذلك ؛ بل يُنكر عليه كما قال بن عمر لمن سأله عن دم البعوض من أهل العراق " يسألوني عن دم البعوض وقد قتلوا الحسين وسمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول هم ريحانتي من الدنيا" .

الشرح..

هنا ينبه الحافظ ابن رجب رحمه الله إلى مفارقة عجيبة تكون في بعض الناس وهي أنه يدخل في أمور محرمة وهي من عظام الإثم وكبائر الذنوب ؛ يدخل فيها بدون مبالاة ، ويفعلها بدون ورع ، ويقدم عليها بدون أن يسأل ، وتكون عنده هينة ؛ ثم يأتي إلى دقائق من أمور الورع فيسأل عنها ؛

ومثال ذلك الذين سألوا ابن عمر رضي الله عنهما عن دم البعوض فتعجب منهم غاية العجب وقال " يسألوني عن دم البعوض وقد قتلوا الحسين وسمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول هم ريحانتي من الدنيا " .

فهذه مفارقة عجيبة توجد عند بعض الناس ؛ تجده يقدم على كبيرة من الكبائر ويسأل عن أمر من دقائق الورع ، أو تجده مضيق لفرائض من صلوات وغيرها ؛ ثم يأتي ويسأل عن شيء يتعلق بالنوافل ؛ أفعّل كذا أو كذا ؛ فمثل هذا يقال له قبل أن تسأل عن النوافل أدّ الفرائض ؛ يقول الله عز وجل في الحديث القدسي " ما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه " فالفرائض بما يُبدأ ، فتحصل أحياناً مفارقة عجيبة م بعض الناس بأن يبحث ببعض دقائق أمور الورع وهو يفرط في بعض فرائض أو يقدم على محرمات ؛ وكما قال ابن رجب رحمه الله تعالى " فمثل هذا لا يحتمل منه " أي مثل هذه الأسئلة لا تُحتمل ، نعم السؤال يكون محتملاً إذا من إنسان من أهل هذا المقام ، أما شخص مוגل في الحرام ويأتي يسأل عن دقائق من أمور الورع أو نحو ذلك ؛ فهذا السؤال غير وارد .

ومن وجه ليس مطابقاً لما هنا ولكن فيه شبه ؛ أحياناً بعض طلبة العلم يقفون على بحث لدى الأئمة السابقين ؛ أيهما أفضل الجلوس للعلم أو صلاة النافلة . فهذا بحث معروف عن أهل العلم السابقين . وبحث هذا إنما جاء عندهم لأن الوقت امتلأ وتزاحمت النوافل وقلّ الوقت عندهم فيسأل مثل هذا السؤال ؛ أي هل النافلة أولى أم طلب العلم ؟ أحياناً بعض الطلاب الآن نام عن صلاة الفجر وإذا أمسى يقول : أيهما أفضل طلب العلم أم النوافل ؟

فنقول له : لا ؛ الأفضل أنك تصلي الفجر جماعة مع المسلمين في المسجد ، وإذا كنت من أهل الصلوات الخمس تحافظ عليها ؛ بعد ذلك إذا ازدحم وقتك بالأعمال والنوافل إبحث عن هذه المسألة .

وبعض الأسئلة لا تُحتمل . مثلما قال ابن رجب رحمه الله تعالى . إذا كان السؤال مطروحاً من إنسان ليس من أهل هذا المقام ؛ يكون متهاوناً ببعض الفرائض أو متكاسلاً عنها ؛ ثم يبحث في دقائق النوافل والمفاضلة بين النوافل ، فقبل البحث في المفاضلة بين النوافل تُضبط الفرائض " ما تقرب عبدي إليّ بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه "

..

فهذه على كلّ لفظة جميلة ومفيدة من الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى وجه إلى التفطن لها.

قال : [ثالثاً : مما يستفاد من الحديث :

الأول : ترك ما فيه ريبة والأخذ مما لا ريبة فيه .
ثانياً : أن ترك ما يرتاب فيه ؛ فيه راحة للنفس وسلامتها من القلق .

..*

الحديث الثاني عشر

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه »
« حديث حسن رواه الترمذي وغيره هكذا

الشرح..

هذا الحديث من الأحاديث التي عُدت في جوامع الكلم ؛ فالفاظه وجيزة ، ودلالاته بليغة وعديدة ، قال « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » وصدرَ الحديث فيه دلالة على تفاوت أهل الإسلام في الإسلام ، وأن منهم من يحسن إسلامه ومنهم من هو دون ذلك ، ففيه دليل على أن الإيمان يزيد وينقص ويقوى ويضعف وأن أهل الإسلام يتفاوتون في الإسلام بحسب تفاوتهم في خصالهم وأعمالهم ولهذا قال هنا " من حسن إسلام المرء " .
وقوله " من حسن إسلام المرء " .. فيه دلالة على أن هذه درجة يبلغها مَنْ حَسَنَ إسلامه ، أما من كان إسلامه فيه ضعف ودينه فيه نقص قد لا يتأتى له ذلك ولا يتحقق منه ، وإنما يتحقق مَنْ حَسَنَ إسلامه وقوي .

" تركه ما لا يعنيه " .. أي ما لا يهمه من أمر الدين والدنيا من الأقوال والأفعال ، وهنا ينبغي أن ينتبه إلى قوله " ما لا يعنيه " ليس المراد بما لا يعنيه بمقياس الهوى أو ميولات النفس ورغباتها ؛ وإنما المراد بما لا يعنيه قياساً بضابط الشرع وليس بضابط رغبات النفس وميولها ، ربما أخطأ البعض في فهم هذا الحديث وظن أن المراد بقوله " ما لا يعنيه " أي ما لا تتجه إليه نفسه ولا يرغبه ولا تتجه عنايته له ويكون إنساناً مصاباً بهوى أو مصاباً بشهوة أو نحو ذلك ؛ فيقيس الأمور في ضوء ذلك ، وهذا من الخطأ في فهم هذا الحديث .

فقوله " ما لا يعنيه " .. المراد بذلك أي بضابط الشرع ؛ بدليل أنه قال " من حسن إسلام المرء " يعني إذا بلغ مبلغ الإحسان في إسلامه لا يفعل الأمر الذي لا يعنيه في إسلامه ودينه أو لا يعنيه في مصالحه المباحة ؛ وعليه فإن قوله " من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه " يدخل فيه ترك الحرام ، ويدخل فيه ترك الآثام ، ويدخل فيه ترك الشبهات ، ويدخل فيه ترك ما يرتاب المرء منه ، ويدخل فيه فضول النظر وفضول الكلام وفضول السماع ؛ فكل ذلك داخل في قوله عليه الصلاة والسلام " من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه " ؛ فهذا فيه دعوة للمسلم إلى النهوض بإسلامه وأن يقوى دينه وأن يصبح في رتبة حسنة من الدين والإسلام بحيث كل ما لا يعنيه في مصلحة دينه وما لا يعنيه في مصلحة دنياه من الفضول ومن المحرمات ومن الآثام ؛ كل ذلك يتركه .

ومن فوائد هذا الحديث العظيمة أن الترك عدّه النبي صلى الله عليه وسلم عملاً وعدّه إسلاماً ؛ فقال " من حسن إسلام المرء تركه " فترك المحرمات هذا عمل من أعمال المسلم الصالحة الداخلة في إسلامه وإيمانه ؛ فمن إسلامك وإيمانك تركك ما لا يعينك ؛ ولهذا كما أن الإيمان فعل الفرائض والمستحبات ؛ فإن الإيمان كذلك ترك المحرمات والمكروهات ولهذا قال عليه الصلاة والسلام « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ولا ينتهب ثبة يرفع الناس فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن » فعّدّ عليه الصلاة والسلام اجتناب هذه المحرمات من الإيمان ، فالإيمان كما أنه فعل الواجبات فهو أيضاً ترك المحرمات ، والإسلام كما أنه فعل الفرائض والواجبات فهو أيضاً ترك المحرمات والآثام ؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام " من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه " .

إذاً الحديث يدل على أن ترك الغش ، ترك الخيانة ، ترك الغدر ، ترك الكذب ، ترك النميمة ، ترك الغيبة .. إلى غير ذلك من الأمور ؛ كل ذلك يُعد جزءاً من إسلام المرء يُتاب عليه عند الله تبارك وتعالى مثلما يُتاب على فعل الواجبات ، فالترك يُعدّ طاعة كما أن فعل الواجبات يعدّ طاعة ، فطاعة الله عز وجل تجمع فعل المأمور وترك المحذور .

والترك يدخل في عمل المسلم إذا فعله بنية صالحة وطاعة لله وتقرباً إليه سبحانه وتعالى أما ترك الأمر لعدم قدرته عليه مع شدة رغبته فيه فهذا لا يُعد في عمله الصالح .

قال الشيخ عبد المحسن في شرح هذا الحديث :

[الأول : معنى هذا الحديث أن المسلم يترك ما لا يهمه من أمر الدين والدنيا في الأقوال والأفعال ، ومفهومه أنه يجتهد فيما يعنيه في ذلك] .

الشرح..

هذا الحديث يدل كما هو في ظاهره على أن من حسن إسلام المرء تركه لا يعنيه؛ أي ما لا يهمه من أمر الدين أو الدنيا ، سواءً في الأقوال أو في الأفعال ، ويُفهم من ذلك أن المسلم مطلوب منه في مقابل ذلك أن يجتهد في فعل ما يعنيه ، وحتى نفهم الحديث أكثر - لأنه كما أشرت ربما بعض الناس يسيء فهم هذا الحديث - ونضرب أمثلة للتقريب والتوضيح : الصلاة والصيام والحج والصدقة وبر الوالدين وصلة الأرحام .. هذه كلها مما يعني المسلم ؛ فالحديث يفيد أن الأمر الذي يعني المسلم في دينه أو أيضاً يعنيه في دنياه في طلب المباح من الرزق ونحو ذلك يحرص عليه ، كما في الحديث الآخر «أحرص على ما ينفعك واستعن بالله» فهذه فائدة في الحديث.

الفائدة الأخرى : منطوق الحديث وظاهر دلالته أن يترك المسلم الأشياء التي لا تعنيه ، فالمحرمات كلها برمتها لا تعني المسلم ، ليس منها وليست منه ولا من أهلها ، فمن حسن إسلامه تركها ، وكذلك فضول الكلام ، فضول النظر ، فضول السماع ؛ فهذا كله لا يعني المؤمن ؛ فمن حسن إسلامه ترك ذلك واجتنابه .

[ثانياً : قال ابن رجب رحمه الله تعالى في جامع العلوم والحكم :

ومعنى هذا الحديث أن من حسن إسلامه ترك ما لا يعنيه من قول وفعل ، واقتصر على ما يعنيه من الأقوال والأفعال ، ومعنى يعنيه أنه تتعلق عنايته به ، ويكون من مقصده ومطلوبه ، والعناية شدة الاهتمام بالشئ ، يقال عنه يعنيه إذا اهتم به وطلبه وليس المراد أنه يترك ما لا عناية له ولا إرادة بحكم الهوى وطلب النفس بل بحكم الشرع والإسلام ولهذا جعله من حسن الإسلام ، فإذا حسن إسلام المرء ترك ما لا يعنيه في الإسلام من الأقوال والأفعال فإن الإسلام يقتضي فعل الواجبات كما سبق ذكره في شرح حديث جبريل عليه السلام ، وإن الإسلام الكامل الممدوح يدخل فيه ترك المحرمات كما قال صلى الله عليه وسلم " المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده " ، وإذا حسن الإسلام اقتضى ترك ما لا يعنيه كله من المحرمات والمشتبهات

والمكروهات وفضول المباحات التي لا يُحتاج إليها ؛ فإن هذا كله لا يعني المسلم إذا كمل إسلامه وبلغ إلى درجة الإحسان وهو أن يعبد الله تعالى كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإن الله يراه ، فمن عبد الله على استحضار قربهِ ومشاهدته لقلبه أو على استحضار قرب الله منه وإطلاعه عليه فقد حسن إسلامه ولزم من ذلك أن يترك كل ما لا يعنيه في الإسلام ويشغل بما يعنيه فيه فإنه يتولد من هذين المقامين الاستحياء من الله وترك كل ما يستحيا منه] .

الشرح..

هذا كلام عظيم جداً للإمام الحافظ رحمه الله تعالى في كتابه جامع العلوم والحكم في بيان معنى هذا الحديث ومدلوله .

وذكره رحمه الله تعالى أن قوله ما لا يعنيه هو من العناية ، والعناية هي شدة الاهتمام بالشيء ؛ يقال عنه يعنيه إذا اهتم به وطلبه ؛ فقوله " من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه " أي اجتنابه الأمر الذي لا يهتم أو يحصل له عناية به واهتمام ، لكن نبه رحمه الله على قيد مهم وضابط لا بد من فهمه والعناية به قال : " وليس المراد أنه يترك ما لا عناية له ولا إرادة بحكم الهوى وطلب النفس " ليس هذا المراد ؛ وهذا الذي أشير إليه قبل قليل أن بعض الناس يخطيء في فهم الحديث ويظن أن المراد بما لا يعنيه بحكم الهوى وطلب النفس أو إرادتها ؛ يعني شيئاً ليس له رغبة فيه - بقطع النظر على الحكم الشرعي - ثم يقول " من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه " فهذا إنزال للحديث في غير منزله ، ووضع له في غير مكانته ، وهذا من المفارقات التي أشرنا إليها و تراه يقول " من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه " فيتترك أمراً لا رغبة فيه ثم يأتي وقت الصلاة ولا يصلي ؛ فهل طبق الحديث ؟ هل طبق قوله عليه الصلاة والسلام " من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه " ؟

أو مثلاً تجده يترك أمراً لا رغبة له فيه ويقول من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه ثم يرتكب أمراً محرماً ؛ فهل هو من أهل هذا الحديث ؟ فالتنبية هذا عظيم جداً فيقول الإمام بن رجب " ليس المراد أنه يترك ما لا عناية له ولا إرادة بحكم الهوى وطلب النفس " يعني ليس المقياس هوى الإنسان أو طلب نفسه

إذاً ماهو المقياس حتى نعرف أن الأمر يعنينا أو لا يعنينا ؟ قال " بل بحكم الشرع والإسلام " ما لا يعنيه بحكم الشرع أو الإسلام لا بحكم الهوى والنفس أو ميولاتها ؛ ولهذا جعله من حسن

الإسلام ، إذاً لابد أن يُقاس . هذا الذي عُدد من حسن الإسلام . ينبغي أن يُقاس بالإسلام نفسه ، لا يقاس بالأهواء ولا يقاس بميولات النفس ، ولو كان يُقاس بميولات النفس كما هو الفهم الخاطئ لكان اللفظ " من حسن ميولات النفس ترك الإنسان ما لا يعنيه " فالضابط ليس راجعاً إلى ميول النفس أو الهوى أو رغبة الإنسان نفسه وإما الأمر عائد إلى الإسلام نفسه ولهذا قال « من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه » فإذا تركه لما لا يعنيه يضبط بضابط الإسلام ولا يكون يضبط بضابط الأهواء أو الرغبات أو ميولات النفس ..

والإسلام كما أنه يقتضي فعل الواجبات فإنه يقتضي أيضاً ترك المحرمات ومن ذلك قول النبي عليه الصلاة والسلام « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » والمراد بالمسلم أي كامل الإسلام ، وهذا واضح مع الحديث الذي ساقه المؤلف . حديث أبي هريرة . فيهما أن حسن الإسلام يقتضي ترك المنهيات والبعد عن المحرمات ؛ ولهذا يقول الحافظ بن رجب " وإذا حسن الإسلام اقتضى ترك ما لا يعني كله من المحرمات والمشتبهات والمكروهات وفضول المباحات التي لا يحتاج إليها - فإن هذا كله لا يعني المسلم - فإذا وقع المسلم في شيء من هذه الأمور . مثل المشتبهات أو المحرمات أو المكروهات . نقص إسلامه بحسب ما وقع فيه من هذه الأشياء " .

قال : [ثالثاً: مما يستفاد من الحديث :

الأول : ترك الإنسان ما لا يعنيه في أمور الدين والدنيا .

ثانياً : اشتغال الإنسان بما يعنيه من أمور دينه ودنياه .

ثالثاً : أن في ترك ما لا يعنيه راحةً لنفسه وحفظاً لوقته وسلامةً لعرضه .

رابعاً : تفاوت الناس في الإسلام] .

..*

الحديث الثالث عشر

عن أبي حمزة أنس بن مالك رضي الله عنه خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » . رواه البخاري ومسلم

الشرح..

هذا الحديث أيضاً من الأحاديث التي هي من جوامع كلم النبي عليه الصلاة والسلام وهو من الأحاديث الدالة على كمال هذا الدين وعظمته وأنه دينٌ يجمع أهله على أحسن حال ويربط بينهم بأحسن رابطة ، فهو الدين الذي يؤلف بين القلوب ويجمع بين النفوس ، وهو الدين الذي يجمع المفترق - الأجناس المفترقة يجمعها الدين - فكيف بأهل الجنس الواحد . يقول تعالى ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين ءامنوا ﴾ الملائكة جنس آخر غير جنس البشر لكنهم يحبون أهل الإيمان ، وأهل الإيمان يحبونهم ، والرابطة هي الإيمان بين الجميع ، والبشر عندما يجتمعون على هذا الدين يجمعهم هذا الدين على الصفاء والنقاء وسلامة القلوب والتحاب في الله والتآخي في الله ؛ وهذا أمر لا يوجد إلا في هذا الدين ﴿ لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ﴾ فالدين هو الذي ألفت بين القلوب المتنافرة والنفوس المتعادية ، وأخوة الإيمان هي الأخوة الصادقة الباقية في الدنيا والآخرة ، وأما التآخي في أمر الدنيا فهو زائل إما في الدنيا أو في الآخرة قطعاً ، يقول تعالى ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾ وفي الآية الأخرى قال ﴿ وتقطعت بهم الأسباب ﴾ فمن جمال هذا الإسلام وعظمة هذا الدين أن جعل بين أهله رابطة هي أوثق الروابط ، ودعى الجميع إلى أن يحب بعضهم بعضاً وأن يحب المسلم لأخيه ما يحب لنفسه ، وعُدَّ هذا في الدين من واجبات الدين ومن واجبات الإيمان بحيث لو تركه أثم ونقص إيمانه الواجب ؛ ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث العظيم " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " أي من الخير .

وقوله " لا يؤمن " فيه نفي الإيمان ، ونفي الإيمان لا يأتي في أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام إلا عند ترك واجب من واجبات الإيمان ؛ فلا ينفي الإيمان بترك مستحب وإنما يُنفي بترك واجب ؛ ولهذا قال في صدره " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " ، فأفاد نفي

الإيمان في صدر هذا الحديث أن كون الإنسان لا يحب لأخيه ما يجب لنفسه هذا دليل على نقص إيمانه الواجب ، ويأثم بذلك .

قال " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " ولاحظ هنا أن المطلوب هو الحب - الذي هو في القلب . فالمطلوب من المسلم أن يحب لإخوانه المسلمين ما يحب لنفسه من الخير ، تحب لنفسك العلم أحبها لهم ، تحب لنفسك الصلاة والعبادة أحبها لهم ، إذا رأيت طلاب العلم افرح إذا رأيت إخوانك المسلمين افرح لذلك ، تحب لنفسك المال الطيب الرزق الحلال إذا أكرم الله أحد إخوانك المسلمين بمال طيب أحب له ذلك ، فكما أنك تحب لنفسك ذلك فأحبه لإخوانك ؛ ولهذا أمراض القلوب المتنوعة من الحسد والحقد وأمراض القلوب المتنوعة تنافي الإيمان الواجب وهي حال من لا يحب لأخيه ما يحب لنفسه ؛ فالحسود والحاقد ومن في قلبه غل وأمثال هؤلاء ؛ فهؤلاء لم يصلوا إلى تحقيق هذا الإيمان الواجب - وهو أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه .

فالمسلم من إيمانه الواجب الذي افترضه الله سبحانه وتعالى وأوجبه عليه أن يحب لإخوانه المسلمين ما يحب لنفسه ، أي شيء تحبه لنفسك من الخير إن أكرم الله به سبحانه وتعالى أحداً من إخوانك أحبه لهم ، وتمنى حصوله لإخوانك وأحب ذلك لإخوانك .

المطلوب في الحديث أمرٌ قلبي ؛ فليس المطلوب أمرٌ عملي - في الظاهر - يعني لم يطلب منك أن تقسم مالك بينك وبين إخوانك أو نحو ذلك من الأمور الظاهرة ؛ المطلوب منك وهو واجب من واجبات الإيمان وهو أن تصلح قلبك بحيث لا يكون في قلبك لإخوانك إلا الحب ، إن وقع في قلب إنسان حسد أو حقد أو غير ذلك من أمراض القلوب وعللها ؛ فهذا من نقص الإيمان الواجب .

فدعى عليه الصلاة والسلام إلى هذا الواجب وهو سلامة القلب تجاه الإخوان وعمارة للمحبة ، تحب إخوانك المسلمين وتحب لهم ما تحب لنفسك من الخير ؛ ولهذا إذا رأى الإنسان والعياذ بالله نفسه تتضايق وتنزعج من حصول نعمة لبعض الإخوان في الدين أو في الدنيا ؛ هذا أماره على نقص الإيمان الواجب لأن النبي عليه الصلاة والسلام قال " لا يؤمن أحدكم - أي الإيمان الواجب - حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " .

قال الشيخ عبد المحسن البدر حفظه الله :

[الأول : في هذا الحديث نفي كمال الإيمان الواجب عن المسلم حتى يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه وذلك في أمور الدنيا والآخرة ، ويدخل في ذلك أن يعامل الناس بمثل ما يحب أن يعاملوه به ، فقد جاء في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر بن العاص رضي الله عنهما في حديث طويل " فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه " قال الله عز وجل ﴿ ويلٌ للمطففين ﴾ الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون * وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ﴾ .

الشرح..

هذا الحديث نفى النبي عليه الصلاة والسلام فيه الإيمان الواجب عمن لم يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ولاحظ قوله " لأخيه " فهذا فيه إلانة للقلوب وتذكير بأن هناك جامع ورابط بين أهل الإيمان وهو الأخوة الدينية ، وأخوة الدين أعظم من أخوة النسب قال الله تعالى ﴿ إنما المؤمنون أخوة ﴾ وقال عليه الصلاة والسلام « وكونوا عباد الله إخواناً » .

الأخوة الدينية أعظم ؛ مثل ما قال بعض أهل العلم الأخوة الدينية أعظم من الأخوة الطينية ، الأخوة التي يجمع فيها دين واحد أعظم ، وثمرتها مباركة على أهلها في الدنيا والآخرة ، أما الأخوة الطينية - التي هي أخوة النسب - فقد يكون أحدهم من أهل الجنة والآخر من أهل النار والعياذ بالله لكن الأخوة الدين باقية لا تنقطع وأما أخوة النسب فالله سبحانه يقول ﴿ فإذا نفخ في الصور فلا أنساب ﴾ وقال ﴿ يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ أخوة الإيمان التي هي لله وبالله باقية ومستمرة ودائمة فذكر هنا أخيه تذكيراً بهذا المقام مقام الأخوة قال " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه " هذا تذكير بما تقتضيه هذه الأخوة من محبة بين الإخوان .

فقوله في الحديث " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " فيه نفي لكمال الإيمان الواجب .

وهنا ينبغي أن نعرف أن كمال الإيمان كمالان :

- الكمال الواجب : بفعل الواجبات وترك المحرمات .
- الكمال المستحب : بفعل المستحبات وترك المكروهات - المكروه كراهة التنزيه - تركه من كمال الإيمان المستحب ؛ ولهذا لا يأتي نفي الإيمان في أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام في ترك

مستحب أو فعل مكروه - كراهة التنزيه . وإنما يأتي نفي الإيمان إما في فعل محرم أو في ترك واجب

هذه قاعدة : لا يأتي في الإيمان في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم إلا في فعل محرم أو ترك واجب في مثل هذا يُنفى الإيمان « لا إيمان لمن لا أمانة له » ، « لا يزي الزاني حين يزني وهو مؤمن ، لا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن » ؛ فينفى الإيمان في ترك الواجبات وفي فعل المحرمات ، ولا يأتي في أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام نفي الإيمان في ترك مستحب أو في فعل مكروه .

فهذا نستفيد منه فائدة أن نفي الإيمان في هذا الحديث في قوله " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " دليل على أن عدم حب الإنسان لأخيه ما يحب لنفسه دليل على نقص إيمانه الواجب ، ويأثم بذلك .

وقوله " حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " أي من الخير في الأمور الدينية والدنيوية ، واحذر أشد الحذر أن ينزعج قلبك من خير أكرم الله سبحانه وتعالى به بعض إخوانك ؛ مثل أن يكون أحد إخوانك وُفق للعلم أو وفق للصلاة أو وفق للصيام أو وفق للأعمال الخير ؛ فكل هذا أحبه لإخوانك مثل ما تحب أن يكون لنفسك ؛ وهذا من كمال الإيمان الواجب .

وهذا يقتضي أن تحسن المعاملة مثل ما أنك تحب من إخوانك أن يعاملوك بالمعاملة الطيبة فأنت كذلك عاملهم بالمعاملة الطيبة ؛ وهذا نص عليه صلوات الله وسلامه عليه في حديث آخر في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر بن العاص رضي الله عنهما قال « فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤت إليه » وهذه قاعدة عظيمة في التعامل وقاعدة عظيمة جداً في حسن الخلق، وكثيراً ما أقول أن قول النبي عليه الصلاة والسلام « و ليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤت إليه » كثيراً ما أقول إن هذا أحسن ضابط في حسن الخلق ، ومن أروع ما يكون وأحسن ما يكون في ضبط حسن الخلق أن يأتي إلى الناس الذي يحب أن يؤت إليه ،

دائماً إذا تساءلت في نفسك في تعاملك مع أهلك أو أمك أو خالك أو جارك أو البائع أو المعلم أو غيرهم ؛ تساءلت ما هو حسن الخلق الذي يليق أن أعامله به ؟

حسن الخلق أن تأتي إليه الذي تحب أن يؤت إليه ؛ تريد أن تعامل والدك المعاملة الطيبة اعتبر نفسك أنت الوالد ؛ ماذا تريد من ابنك أن يعاملك به ؟ فهذا الذي تريد من ابنك أن تعامل به عامل به والدك .

وإذا أردت أن تعامل أخاك الكبير ؛ فقدّر نفسك أنك أنت الأخ الكبير ماذا تحب أن يعاملك أخوك الصغير ؛ هذا هو حسن الخلق .

إذا أردت أن تتعامل مع معلمك أو مع بائعاً أو غيرهم ؛ اعتبر نفسك أنك أنت هو .. ماذا تحب أن يعاملك به

فهذا ضابط من أحسن وأجمع ما يكون في حسن الخلق ؛ قال " وليأت إلى الناس الذي يجب أن يؤت إليه " .. الشيء الذي تحب أن تعامل به عامل الناس به .

ثم هنا ملحظ وهو : عامل الناس بما تحب أن تعامل به تقرباً إلى الله جل وعلا . وهذا الضابط إذا غُفّل عنه تضيع الأخلاق ؛ لأن الإنسان إذا عامل الناس بما يجب أن يعاملوه به في شيء يطلبه منهم مع الأيام يصدم بأشياء من تعاملات الناس فيتوقف عن الأخلاق ، وكثيراً ما توقف أناس عن الأخلاق الطيبة لأنهم قدموا تلك بأمر يطلبونه من الناس فلم يحصل ؛ فتركوا الأخلاق .

لكن المطلوب في باب الخلق أن تفعل الخلق تقرباً إلى الله عز وجل ؛ لأن الله عز وجل أمرك بذلك ، وقد سُئل عليه الصلاة والسلام عن أعظم شيء يدخل الناس الجنة قال «تقوى الله وحسن الخلق» وقال « أدناكم مني منزلة يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً » ؛ فالمسلم يفعل الأخلاق مع الناس حتى أيضاً مع الكفار ﴿ لا ينهاكم الله عن الذي لم يقاتلواكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴾ تأليفاً لقلوبهم وجذباً لنفوسهم إلى الدخول في الدين ، والله يقول لنبيه ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ .

فالشاهد أن حسن الخلق ينبغي أن يُبدل وأن يأتي الإنسان إلى الناس الشيء الذي يجب أن يؤتى إليه تقرباً إلى الله ؛ ولهذا لاحظ قال " من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر وليأت إلى الناس الذي يجب أن يؤت إليه " بمعنى أن هذه قرينة تنفعك يوم القيامة وتعلو بها درجاتك عند الله يوم القيامة .

فحافظ على هذا القرب تقرباً إلى الله سبحانه وتعالى ، ودائماً في كل الأبواب تأتي إلى الناس الشيء الذي تحب أن يؤت إليك ولا تنتظر منهم جزاءً ولا شكوراً ؛ انتظر الجزاء العظيم من الرب سبحانه وتعالى ﴿ إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً ﴾ . والآيات ﴿ ويلٌ للمطففين ﴾ الذين إذا اکتالوا على الناس يستوفون* وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ﴿ هل الذين توعدهم الله سبحانه وتعالى في هذه الآية حققوا المعنى الوارد في الحديث " أن يؤت إلى الناس الشيء الذي يحب أن يؤت إليه " .. ؟ فتجده إذا كان الحق له يطلبه وافيّاً ولا يرضى أن يُنقص منه شيء ، وإذا كان عليه يمتنع من أدائه والوفاء به ؛ فهذا الويل وهو العذاب الشديد.

قال الحافظ بن رجب رحمه الله تعالى في جامع العلوم والحكم :

[وحديث أنس يدل على أن المؤمن يسره ما يسر أخاه المؤمن ويريد لأخيه المؤمن ما يريده لنفسه من الخير ، وهذا كله إنما يأتي من كمال سلامة الصدر من الغل والغش والحسد فإن الحسد يقتضي أن يكره الحاسد أن يفوقه أحد في خير أو يساويه فيه لأنه يحب أن يمتاز على الناس بفضائله وينفرد بها عنهم، والإيمان يقتضي خلاف ذلك وهو أن يشركه المؤمنون كلهم فيما أعطاه الله من الخير من غير أن ينقص عليه منه شيء] .

الشرح..

هذا كلام متين وعظيم من الحافظ بن رجب رحمه الله تعالى في بيان هذا الحديث ؛ يقول :

" إن المؤمن يسره .. أي يفرح ويغتنب بالشيء الذي يفرح أخاه المؤمن . ويريد لأخيه المؤمن ما يريد لنفسه من الخير : هذا شأن المؤمن وهذه صفته . وهذا إنما يكون من كمال سلامة الصدر من الغل والغش والحسد : إذا كمل الصدر سلامة من الغل والغش والحسد يكون الإنسان بهذه المنزلة ، أما إذا مرض القلب والعياذ بالله بالحق أو مرض بالحسد أو الغل ؛ لا يصل إلى هذا الإيمان الواجب المذكور في حديث النبي عليه الصلاة والسلام لماذا ؟ قال :

" لأن الحسد يقتضي أن يكره الحاسد أن يفوقه أحد في خير أو يساويه فيه " ولهذا يقال الحاسد عدوٌ لنعمة الله ؛ لأن الحاسد إذا رأى النعمة عند غيره تمنى زوالها عن الغير سواءً

كانت النعمة دينية أو دنيوية ؛ فالحاسد إذا رأى النعمة عند الآخرين تمنى زوالها ؛ وهذا يناهض الإيمان الواجب الذي ذكره النبي ﷺ ، لماذا الحاسد يتمنى هذا التمني؟ قال : " لأنه يحب أن يمتاز على الناس بفضائل وينفرد بها عنهم " ولهذا إذا كان طالب علم ورأى أحد زملائه في الطلب حفظ أكثر منه ؛ انزعج قلبه وتضايق وتمنى أن يذهب هذا العلم الذي في قلب أخيه ، وإذا كان من أهل صيام ورأى شخصاً بدأ يصوم أكثر من صيامه تضايق!! والواجب أن تفرح وتسر بذلك لأن هذا عز للدين وقوة للمسلمين، لعل هذا الأخ الذي برز في العلم وفاق أقرانه يكون إماماً ينفع الله به ؛ فماذا يضرك ؟ هذا عز لدينك ، ورفعة لدينك . فوجود هذا الداء إنما يكون من نقص الإيمان - الحسد والغل والحقد - ؛ لأن الحاسد لا يحب أن يتميز عليه أحد ، وإذا حدث أن تميز عليه أحد بعلم أو بدين أو بمال أو غير ذلك ؛ انزعج قلبه تمام الانزعاج وتمنى أن تزول تلك النعمة .

قال : والإيمان يقتضي خلاف ذلك وهو أن يشركه المؤمنون كلهم فيما أعطاه الله من الخير من غير أن ينقص عليه منه شيء " يعني الشيء الذي عندك باق ؛ لكن أيضاً تمنى أن يشرك إخوانك المسلمون في العلم في العبادة في المال .. ؛ ويبقى حُفْكُ لك ، لكن قلبك يكون سليماً نقياً مع إخوانك المسلمين .

وقال رحمه الله تعالى :

[وفي الجملة ينبغي للمؤمن أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه ويكره لهم ما يكره لنفسه فإن رأى في أخيه المسلم نقصاً في دينه اجتهد في إصلاحه] .

الشرح..

وهذا أيضاً من الفوائد التي تُفهم من هذا الحديث ؛ فإذا رأيت في أخيك أمراً تكرهه لنفسك تناصحه فناصح أخيك وتمنى أن يذهب عنه هذا الأمر الذي تكرهه لنفسك ؛ مثل أن ترى أحد إخوانك مبتلى بمعصية أو مبتلى بذنوب ؛ فكن كارهاً لهذا الذنب لأخيك مبغضاً له ، ومن مقتضيات الأخوة الإيمانية أن تناصحه لعل الله سبحانه وتعالى يهديه على يديك ، وإذا كنت أخاً محباً رحيماً رفيقاً لطيفاً محسناً فإن كلامك يقع في القلوب موقعه ، والكلام الذي

يصدر من القلب يدخل إلى القلب ، فإذا كنت تحب أخاك ويحس بذلك منك فإن نصحك له ينفعه ، ويفيده بإذن الله تبارك وتعالى ؛ وهذا من ثمار الإيمان الصادق .

قال : [ثالثاً : مما يستفاد من الحديث :

الأول : أن يحب المسلم لأخيه المسلم ما يحب لنفسه ، ويكره له ما يكرهه لها .

ثانياً : الترغيب في ذلك بنفي كمال الإيمان الواجب عنه حتى يكون كذلك .

ثالثاً : أن المؤمنين يتفاوتون في الإيمان .

رابعاً : التعبير بأخيه فيه استعطافاً للمسلم بأن يحصل منه لأخيه ذلك .

سبحانك اللهم و بحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، اللهم صلّ وسلّم على عبدك ورسولك نبينا محمد و آله وصحبه

..*

الدرس الرابعة عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

أما بعد ..

الحديث الرابع عشر

عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة " . رواه البخاري
ومسلم

الشرح..

هذا الحديث فيه بيان حرمة دم المسلم وأن دم المسلم حرام ، حرم الله جل وعلا دمه ، ودمه لا يحل إلا في حالات معينة جاءت بها الشريعة ؛ منها هذه الثلاث في هذا الحديث - وهي أشدها وأعظمها . ومنها حالات دلت عليها نصوص أخرى تأتي الإشارة إلى شيء منها .

فالأصل في دم المسلم أنه حرام ؛ لا يحل الاعتداء عليه والعدوان على دمه ، وقد قال عليه الصلاة والسلام في خطبته العظيمة في حجة الوداع « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا » وقال أيضاً في حجة الوداع « ألا إنما هن أربع لا تشركوا بالله شيئاً ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا تزنوا ولا تسرقوا » حذر عليه الصلاة والسلام من

الاعتداء على الدماء أو الأعراض أو الأموال ؛ فالمسلم دمه حرام وعرضه مصون وماله محرم محترم لا يجوز الاعتداء عليه في شيء من ذلك .

فحديث ابن مسعود رضي الله عنه في بيان حرمة دم المسلم وأن إراقة دم المسلم ليس بالأمر الهين ؛ بل هو عند الله تبارك وتعالى عظيم ؛ فيجب على كل مسلم أن يعرف حرمة دماء المسلمين ، وحرمة الاعتداء عليهم سواء في الدماء أو الأموال أو الأعراض ، وأن هذا من عظام الذنوب وكبائر الآثام .

قوله : " لا يحل " أي يحرم .

" دم امرئ مسلم " أي قتله ؛ فلا يحل قتل المسلم وإراقة دمه وإزهاق روحه .

وقوله " امرئ مسلم " ذكر عليه الصلاة والسلام المرء المسلم لأن الرجال هم الأصل في الخطاب في كتاب الله جل وعلا وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه ؛ وإلا فالحكم يتناول الرجال والنساء على حد سواء ؛ لا يحل دم المرء المسلم ولا المرأة المسلمة ، فالحكم يتناولهما جميعاً .

قال " إلا في إحدى ثلاث "

• الأول " الثيب الزاني " الثيب هو من أكرمه الله عز وجل بالوطء في نكاح صحيح ، فمن عليه جل وعلا بهذا الأمر في سبيل مباح وطريق مأذون بها وذاق الأمر في حله .

فمن كان بهذه الصفة ، عرف هذه النعمة وساقها الله تبارك وتعالى له وحصل منه الوطء في نكاح صحيح ؛ يكون بذلك ثيباً وهو المحصن الذي أكرمه الله سبحانه وتعالى بأن أحسن نفسه بالنكاح ؛ فمن كان بهذه الصفة ووقع منه الزنا والعياذ بالله فهذا دمه أصبح حلالاً وليس حراماً وأصبح حكمه القتل وأن تُزهق روحه . وجاءت الشريعة بأن قتله يكون رمياً بالحجارة ، يرمى بالحجارة إلى أن يموت ، وسيأتي معنا أن فيما نسخ لفظه في القرآن وبقي حكمه هو " الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم " .

فهذا حكم الرجل والمرأة المحصنين إذا زنيا أن يرجما إلى الموت ، وقد قال أهل العلم في الحكمة من ذلك أن الزاني وكذا الزانية المحصن قد حصل من جميع بدنه الاستمتاع بهذا المحرم فاستحق بذلك أن يموت أو يُقتل هذه القتلة ؛ بأن يرمم بالحجارة إلى أن يموت ؛ وقد قال أهل العلم إن قتله بالحجارة لا يكون بحجار صغار بحيث يطول جداً تعذبه بها ، ولا أيضاً بحجارة كبيرة جداً تميته فوراً ؛ بل فيما هو وسط بين ذلك حتى يذوق بدنه ألم اللذة المحرمة التي وقع فيها وباشرها والتي حرمها الله تبارك وتعالى عليه ، لأن الأعراس في الشرع مصانة ولا يحل الاعتداء عليها، والزنا جريمة كبيرة في الشريعة يترتب عليها من المفساد والأخطار والأضرار الدينية والدنيوية والصحية ما لا حد له ؛ ولهذا جاءت الشريعة بمنع ذلك وردع فاعله أشد الردع ، وإيقاع النكال الشديد لفاعل ذلك .

وتفاوتت عقوبة الزنا بين المحصن والبكر- وهو غير المحصن من لم يتزوج رجلاً أم امرأة - ، والمحصن من تزوج ، ويكون محصناً بالزواج والنكاح الصحيح ولو طلق بعد ذلك فهو في عداد المحصنين ، الذين أكرمهم الله سبحانه وتعالى ومنّ عليهم باللذة في حلها وبابها الصحيح الذي أباحه الله سبحانه وتعالى لعباده ؛ إذا وقع بعد ذلك في هذا الحرام فإن عقوبته عند الله سبحانه وتعالى هي الرجم إلى أن يموت وإلى أن يلفظ أنفاسه .

وأما البكر وهو غير المحصن فإن عقوبته الجلد - مائة جلدة - . وتغريب سنة ؛ وهذا تأديب ونكال للزجر عن هذه المعصية العظيمة والآفة الخطيرة .

والزنا جريمة تتفاوت بحسب الفاعل وبحسب المفعول به وبحسب الزمان وبحسب الداعي قوة وضعفاً ؛ فهي جريمة تتفاوت ؛ ولهذا جاء في الحديث عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال « ثلاثة لا ينظر الله إليهم ولا يكلمهم ولا يزيكهم ولهم عذاب أليم .. وذكر منهم أشيمط زان »

والأشيمط هو الرجل المسن ؛ الشيخ الكبير ، وهذا جرمته أغلظ لأن داعي فعل هذا المحرم فيه أضعف من الشاب الذي في فورة شبابه وقوة نشاطه ؛ ففعله لهذه الجريمة مع ضعف

الداعي في قلبه وضعف الشهوة عنده ؛ دليل على فساد عظيم فيه وشر كبير ؛ ولهذا جاء في حقه هذا الوعيد .

ويتفاوت أيضاً بحسب المفعول به ؛ فالزنا بذوات المحارم والعياذ بالله أشنع وأفظع من الزنا بغير ذوات المحارم وكلّ حرام لكن الجريمة متفاوتة ، والزنا بذوات الجيرة أو محارم الجيران أعظم من بعيدة الدار ، وكلّ جريمة وحرام لكن هنا إضافة إلى انتهاك العرض المحرم إضاعة لحق الجار وعدوان على الجار؛ فتضاعفت الجريمة . والزنا بذوات المحارم إضافة إلى انتهاك العرض المحرم ، فيه اعتداء على ذوي القرابة وإضاعة لحق القرابة .

فهي جريمة متفاوتة ، وعندما تقع في البلد الفاضل أو في الزمان الفاضل كشهر رمضان ؛ في الأوقات الفاضلة فهذا أعظم وأشد .

والزنا آفة عظيمة إذا وجدت في مجتمع حلّ به الدمار من كل الجوانب ، وصار عرضة لكل آفة وبلاء وشر ؛ ولهذا لا يُستغرب أبداً أن جاءت الشريعة بهذه العقوبة الشديدة المغلظة في حق الزاني إن كان محصناً ففي الرجم حتى الموت وإن كان غير محصن ففي الجلد مائة جلدة وتعريب ع بلده عام كامل .

وهذه العقوبات من حدود أو تعزيرات ليست لأفراد الناس ؛ وإنما هي لولي الأمر فهو الذي يقيم الحدود ، أو من ينوبه ولي الأمر، وليست لعامة الناس ، ولو كان هذا الأمر بأيدي عامة الناس لعمت الفوضى في المجتمعات وانتشر الفساد ؛ لكن هذا أمرٌ لولي الأمر ولمن ينيبه ولي الأمر

وفي قصة الأجير الذي زنى بزوجة مستأجره وفي تمام القصة قال النبي صلى الله عليه وسلم

" قم يا أنيس إليها فإن اعترفت بذلك فارجمها " النبي عليه الصلاة والسلام ولي الأمر قال " قم إليها فارجمها " ؛ فإقامة هذه الحدود إنما تكون لولي الأمر هو الذي يقيمها .

وتثبت هذه الجريمة في حق الإنسان بحيث يقام عليه حد الرجم بطريقتين :

الطريق الأولى : أن يقر على نفسه بذلك ؛ فيذهب إلى ولي الأمر أو نائب ولي الأمر ويقر على نفسه بذلك ؛ فيقول أنا محصن وحصل مني الزنا وأريد أن أظهر مثل ما أقر ماعز والجهنية ، وأقام عليهما النبي صلى الله عليه وسلم الحد .

الطريق الثاني : أن يشهد أربعة رجال بأنهم رأوه يباشر المرأة ، ولا يكفي أن يشهدوا بأنهم رأوه خلا بها في مكان أو أغلق عليه وعليها الباب ؛ بل لا بد أن يشهد الأربعة جميعاً بأنهم رأوا ذكره في فرجها . بهذا التحديد . ؛ فإذا شهد أربعة رجال بأنهم رأوا ذلك ؛ حينئذ يقام عليه الحد ؛ وهذا - كما قال أهل العلم - صعبٌ جداً ، وهذا يبين لنا من جهة أخرى خطورة القذف بالزنا ، وأن قذف أحدٍ بالزنا أمر لا يستهان به ، ولا يتجرأ أحدٌ عليه إلا إذا كان بهذه الصفة . أربعة جميعاً رأوه معها على هذه الصفة .

وهذا كله أيضاً من الصيانة للمجتمع والناس والأعراض من أن يخوض فيها الخائضون ويتكلم فيها الأفَّاكون ، وتُرمى الأعراض بما هي بريئة منه ؛ ولهذا شدّد الشارع في ذلك صيانة للأعراض وحفظاً لها.

• " والنفس بالنفس " وهذا الأمر الثاني الذي يحل به الدم ؛ وهو القصاص ؛ عندما يقتل مسلمٌ مسلماً متعمداً ، أما قتل الخطأ فإنه لا يوجب القصاص ولا يوجب القتل ؛ وإنما فيه الكفارة والدية ، لكن قتل العمد بحيث يقتل مسلمٌ مسلماً عمداً وقاصداً ذلك ومتعمداً قتله ؛ فهذا عقوبته القتل قصاصاً ؛ قال الله تعالى ﴿ ولکم فی القصاص حياة ﴾ .

ولما كانت عقوبة القاتل المتعمد القصاص كان في ذلك حياةً للمجتمعات ودرءاً لهذه الجريمة وقد قيل قديماً " القتل أنفى للقتل " وكلام الحق سبحانه وتعالى أقوم وأعظم ﴿ ولکم فی القصاص حياة ﴾ فالحياة والأمان يستتب في المجتمعات بأن القاتل عمداً يُقتل لا يكفي أن يسجن ولو كان السجن مدى الحياة ، ولا يكفي أن يُغرم الغرامة المالية ؛ بل لا بد أن يُقتل وفي قتله

حياة للمجتمع لأن قتله رادع وزاجر ، كما يؤتى بالقاتل في وسط الناس ويطار رأسه من جسده أمام الناس ؛ يدرك الناس خطورة هذا الأمر ويدركون أن من يتجرأ على قتل غيره فإن هذا مصيره وهذه عقوبته ؛ ولهذا قال الله سبحانه وتعالى ﴿ ولکم فی القصاص حیاة ﴾ أي أن المجتمعات والناس يحيون حياة آمنة مطمئنة إذا أُقيم هذا الحد وأُحلت هذه العقوبة بالقاتل

وقتل القاتل المتعمد نعمة من نعم الله سبحانه وتعالى العظيمة التي يحصل فيها للناس الأمان في مجتمعاتهم والحياة مطمئنة والأمن على دمائهم ، قال " والنفس بالنفس " أي تقتل النفس " بالنفس " أي إذا قتل مسلم مسلماً عمداً فإنه يقتل قصاصاً

• " والتارك لدينه المفارق للجماعة " وهذا أعظم هؤلاء الثلاثة ذنباً وأكبرهم جرماً وهو المرتد والعياذ بالله عن الإسلام ، الخارج من الدين ، التارك للإسلام المرتد عنه .

وهذه جريمة هي أكبر الجرائم وأغلظها ؛ الكفر بالله سبحانه وتعالى سواءً كان كفراً أصلياً أو كفراً بردة عن الإسلام ، والعقوبة هنا لمن ارتد عن دينه ؛ من كان مسلماً عرف هذا الدين ثم ارتد بالخروج عن هذا الدين ؛ فهذا يُقتل ؛ وهل يُقتل باستتابة أو بدونها ؟ فيه خلاف بين أهل العلم ولبعض أهل العلم تفصيل في ذلك بالتفريق بين ما حصلت به ردة الإنسان ، وأن بعض الذي حصلت به الردة وانتقاض الدين لا يستتاب فيه وإنما يُقتل مباشرة ، وبعضه يُستتاب به .

فلا يستتاب فيما كان زندقة وكان أمراً دالاً على استتابة الشر والكفر والزندقة فيه ؛ وإنما يُقتل في مثل ذلك مباشرة .

" المفارق للجماعة " وهذا من عطف البيان ؛ لأن ترك الدين فيه مفارقة للجماعة ومن فارق الدين فارق الجماعة حتى لو قُدر أنه ببدنه بينهم ؛ فبمجرد انتقاض الدين وخروجه عن الإسلام يكون بذلك خرج من الجماعة ، وفي هذا أن المسلم لا يكون مع الجماعة - جماعة المسلمين - بمجرد البدن ، بل لا يكون معهم إلا إذا كان قلباً وقالباً ؛ مسلماً مثلهم يدين

بدين الإسلام ويخلص العبادة للملك العلام سبحانه وتعالى ، ويشهد أن لا إله إلا الله ويقيم الصلاة ؛ فإذا كان مسلماً فهو مع الجماعة ، وإذا ارتد وكفر بالله سبحانه وتعالى خرج من الجماعة وفارقها .

فقوله " المفارق للجماعة " من عطف البيان ؛ فإن كل مرتد عن دينه مفارق للجماعة .

قال الشيخ عبد المحسن العباد البدر حفظه الله تعالى :

[الأول قوله " الثيب الزاني " الثيب هو المحصن وحكمه الرجم كما ثبتت به السنة عن رسول الله ﷺ وكما دلت عليه آية الرجم التي نُسخت تلاوتها وبقي حكمها]

الشرح ..

الثيب الزاني هذا الأمر الأول الذي يحل به الدم والمراد بالثيب المحصن أي الذي حصل له الإحصان بنكاح صحيح وهذا حكمه الرجم كما ثبتت به السنة وذلكم في قوله عليه الصلاة والسلام أن الثيب يرمم وأن البكر يُجلد ويُعرب سنة . كما في صحيح مسلم من حديث عبادة .

وجاء عنه في هذا أحاديث صلوات الله وسلامه عليه ، وأيضاً جاءت أحاديث فيها إيقاع هذه العقوبة مثل قصة ماعز وقصة الجهنمية وقصة امرأة الأجير التي أمر فيها النبي عليه الصلاة والسلام أنيس بسؤالها فإن اعترفت فيرجمها .

فالرجم ثابت في أحاديث عديدة من أحاديث النبي ﷺ وأيضاً في الآية التي نُسخت تلاوتها وبقي حكمها وهي قوله سبحانه وتعالى { والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم } فهذه آية من كلام الله سبحانه ونُسخت تلاوة الآية ولكن حكمها لم يُنسخ ، " أي الشيخ والشيخة إذا زنيا فحكماهما الرجم " .

[ثانياً: قوله " والنفس بالنفس " أي القتل قصاصاً كما قال الله عز وجل ﴿ يا أيها الذين ءامنوا كُتِبَ عليكم القصاص في القتلى .. ﴾ الآية ، وقال ﴿ ولكم في القصاص حياة ﴾] .

الشرح ..

﴿ يا أيها الذين ءامنوا كُتِبَ عليكم القصاص في القتلى .. ﴾ ، ﴿ ولكم في القصاص حياة ﴾ هذا فيه أن المسلم إذا قتل مسلماً عمداً فالذي كتبه الله سبحانه وتعالى على الناس حكماً في هذا الباب القصاص ؛ أن يُقتل القاتل بالمقتول ، النفس بالنفس ؛ وهذا فيه حياة للمجتمعات وللناس كما قال في الآية الثانية ﴿ ولكم في القصاص حياة ﴾ .

[ثالثاً قوله التارك لدينه المفارق للجماعة ؛ والمراد به المرتد عن الإسلام لقوله صلى الله عليه وسلم " من بدّل دينه فاقتلوه " رواه البخاري .

الشرح ..

المراد بتارك الدين أي تارك الإسلام ؛ وهذا الحديث جاء في بعض ألفاظه عند مسلم وغيره " التارك للإسلام " فالتارك لدينه أي للدين الإسلامي الخفيف ممن كان مسلماً ثم ترك الدين بأن فعل شيئاً من نواقض الإسلام ، وشيئاً من موجبات الردة عن الدين ، وقد جاء في الحديث عنه عليه الصلاة والسلام " من بدل دينه فاقتلوه " أي من بدل دينه الإسلامي الخفيف بدين آخر يهودية كانت أو نصرانية أو مجوسية أو أي دين ؛ فحكمه القتل .

[رابعاً: ذكر الحافظ بن رجب رحمه الله تعالى قتل جماعة غير من ذُكر في الحديث وهم: القتل باللواط ومن أتى ذات محرم والساحر ومن وقع على بهيمة ومن ترك الصلاة وشارب الخمر في

المرّة الرابعة والسارق في المرّة الخامسة وقتل الآخر من الخليفتين المبايع لهما ومن شهر السلاح والجاسوس المسلم من تجسس للكفار على المسلمين] .

الشرح..

الحافظ بن رجب رحمه الله تعالى في كتابه جامع العلوم والحكم في شرحه لهذا الحديث ذكر جماعة آخرين يُقتلون غير من ذُكروا في هذا الحديث ؛ دلت الأدلة على أن حكمهم القتل ، وبعض أهل العلم . وقد أشار إلى ذلك الحافظ بن رجب . أعاد جميع الصور الثابتة إلى هذه الثلاثة المذكورة في هذا الحديث " الثيب الزاني والنفس بالنفس والمُرتد عن دينه المفارق للجماعة " لأنها إما مماثلة أو مقارنة لهذه الأمور المذكورة في هذا الحديث .

والحافظ بن رجب رحمه الله تعالى لما ذكر هؤلاء أيضاً ساق ما تيسر له من الأدلة وكلام أهل العلم في هؤلاء الذين يُقتلون والذين يحل دمهم بما فعلوه من أمور جعلت دمهم حلالاً وليس بحرام ؛ وذكر من هؤلاء القتل في اللواط ؛ وفي ذلك حديث يُرفع إلى النبي صلى الله عليه وسلم " اقتلوا الفاعل والمفعول به " وقد ذكر أهل العلم أن القتل في اللواط للفاعل والمفعول به لا يُفرق فيه بين محصن وغير محصن ؛ وإنما هو حكم لمن حصل منه ذلك بالغاً عاقلاً ؛ إذا حصل من البالغ العاقل فإن حكمه القتل فاعلاً أو مفعولاً به .

واللواط جريمة هي أخبث من الزنا وأشنع ، وقد ذكر أهل العلم . ومنهم ابن القيم رحمه الله تعالى . أن هذه الجريمة تأنف من فعلها الحيوانات ، لا يعرف أن حماراً انزوى على حمار أو تيساً على تيس أو كلباً على كلب ..

لكن الإنسان إذا مُسَخَّ عَقْلُهُ وفسدت فطرته والعياذ بالله لا يأنف من ذلك ولا يبالي أن يضع ذكره في ذلك الموضع ويباشر هذه الآفة الشنيعة الغليظة التي تأنف منها الحيوانات .

واللواط عقوبة فاعله وكذلك المفعول به القتل ، وقد اختلف أهل العلم في صفة قتله ؛ بعضهم قال يُقتل رجماً بالحجارة مثل الزاني المحصن ، وبعضهم قال يؤخذ إلى مكان شاهق كجبل عالٍ ونحوه ويُرمى من أعلاه ليموت ، وذكرت صفات أخرى ، وجهاهير أهل العلم على أن فاعل هذه الجريمة والمفعول به إذا كانا بالغين عاقلين لا فرق بين محصن وغير محصن أن حكمهم القتل .

" ومن أتى ذات محرم " وهذه أيضاً جريمة تستوجب القتل ، إذا أتى ذات محرم كالأخت والعممة والخالة ونحو ذلك من محارم الإنسان ؛ فحكمه القتل .

" والساحر " وهو كافر بالله ، ولا يكون الساحر ساحراً إلا بالكفر والسحر وجوده في المجتمعات آفة من أخطر الآفات وأشدّها فتكاً بالمجتمعات وضرراً على الناس ، وكم حصل في المجتمع من فرقة وتعاد بين الأزواج وتعاد بين الأصحاب وتنافر بين القلوب .. إلى غير ذلك من الأضرار بفعل السحرة الأشرار ؛ الساحر آفة وما يكون ساحراً إلا بالكفر بالله قال تعالى ﴿ وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتنّة فلا تكفر ﴾ .

وحد الساحر ضربة بالسيف فقد صح قتل الساحر عن جماعة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم

" ومن وقع على بهيمة " أي باشر الفاحشة فيها ؛ فحكمه القتل .

" ومن ترك الصلاة " الصحيح من أقوال أهل العلم أن تارك الصلاة كافراً بالله جل وعلا مرتد عن دينه ؛ قال عليه الصلاة والسلام « العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر » .

" وشارب الخمر في المرة الرابعة والسارق في المرة الخامسة " وهذا ذكر فيه حديث لم يثبت .

" وقتل الآخر من الخليفين المبايع لهما " إذا اجتمعت كلمة المسلمين على خليفة ونازعه الآخر؛ فجاء في الحديث فاقتلوا الآخر .

" ومن شهر السلاح " أي من نزع السلاح وأشهره على المسلمين ، صنيع الخوارج .

"والجاسوس المسلم إذا تجسس للكفار على المسلمين".

وهذا كله ساق فيه الحافظ بن رجب ما تيسر من أدلة وكلام لأهل العلم يمكن أن يُطالع في كتابه جامع العلوم والحكم .

قال : [ومما يستفاد من الحديث :

الأول : عصمة دم المسلم إلا إذا أتى بواحدة من هذه الثلاث .

ثانياً : أن حكم الزاني المحصن القتل رجماً بالحجارة .

ثالثاً : قتل القاتل عمداً قصاصاً إذا توفرت شروط القصاص .

رابعاً : قتل المرتد عن دين الإسلام سواء كان ذكراً أو أنثى .

سبحانك اللهم و بحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، اللهم صلّ وسلّم على عبدك ورسولك نبينا محمد و آله وصحبه.

..*

الدرس الخامسة عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم على آله وأصحابه أجمعين .
أما بعد ..

الحديث الخامس عشر

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه " رواه البخاري ومسلم

الشرح..

هذا الحديث الخامس عشر من الأربعين للإمام النووي رحمه الله تعالى ، وهو حديث عظيم من جوامع كلم النبي عليه الصلاة والسلام يرويه الصحابي الجليل أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه " .

وهذا الحديث يتكون من ثلاث جمل شرطية ؛ يُذكر في كل جملة الشرط وجوابه ، وكل جملة من هذه الجمل مبدوءة بقوله عليه الصلاة والسلام " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر " وهذا مقام ترغيب وحث على هذه الأعمال الجليلة وبيان فضلها وعظيم ثوابها عند الله تبارك وتعالى ، وبيان أنها من مقتضيات الإيمان وموجباته .

وذكر النبي عليه الصلاة والسلام في صدر هذا الحديث ثلاث مرّات " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر " لأن الله عز وجل هو المقصود بالعبادة والمقصود بالتقرب ، فجميع القربات تُفعل تقرباً إليه وطلباً لمرضاته ، وقياماً بما أمر به سبحانه وتعالى .

وذكر اليوم الآخر لأنه يوم الجزاء والحساب ، وأن الناس سيقفون بين يدي الله تبارك وتعالى وسيحاسبهم وهو جل وعلا الديان ، والعباد سيُعرضون يوم القيامة ، وتُعرض أعمالهم وهي محصاة عليهم ؛ ولهذا صَدَّر النبي عليه الصلاة والسلام الحديث بقوله " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر " لأن ما سيُذكر هو من مقتضيات الإيمان بالله واليوم الآخر .

وبناءً عليه فإن فعل المسلم لهذه الخصال المذكورة في الحديث وغيرها من خصال البر والخير يفعلها إيماناً بالله جل وعلا وإيماناً باليوم الآخر الذي هو يوم الثواب والجزاء ؛ وبهذه الصفة يكون العمل مشكوراً عند الله كما في سورة الإسراء ؛ قال الله تعالى ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ٥٠ ٥١ ٥٢ ٥٣ ٥٤ ٥٥ ٥٦ ٥٧ ٥٨ ٥٩ ٦٠ ٦١ ٦٢ ٦٣ ٦٤ ٦٥ ٦٦ ٦٧ ٦٨ ٦٩ ٧٠ ٧١ ٧٢ ٧٣ ٧٤ ٧٥ ٧٦ ٧٧ ٧٨ ٧٩ ٨٠ ٨١ ٨٢ ٨٣ ٨٤ ٨٥ ٨٦ ٨٧ ٨٨ ٨٩ ٩٠ ٩١ ٩٢ ٩٣ ٩٤ ٩٥ ٩٦ ٩٧ ٩٨ ٩٩ ١٠٠ ﴾ .

فحفظ اللسان وإكرام الجار وإكرام الضيف وغير ذلك من أبواب البر والإحسان إن فعلها المسلم متقرباً بها إلى الله جل وعلا طالباً ثوابه جل وعلا وجزاءه ؛ فإن سعيه هذا يكون مشكوراً عند الله مرضياً عنده سبحانه وتعالى ، أما إذا كان يفعل ذلك للدنيا ليس إلا ، لا يرجو بعمله ثواب الآخرة ؛ فإن سعيه لا يكون مشكوراً عند الله ، ولا يكون عمله في عداد الأعمال الصالحة التي يتاب عليها يوم القيامة ؛

ولهذا بدأ عليه الصلاة والسلام هذا الحديث مكرراً ذلك في كل جملة " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر " وهذا - كما قدمت - فيه حفز للنفوس المؤمنة وترغيب للإقبال على هذه الخصال العظيمة تديناً وتقرباً وطلباً لثواب الله عز وجل .

ذكر عليه الصلاة والسلام أول ما ذكر في هذا الحديث ما يتعلق بصيانة اللسان وحفظه فقال : " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت " وهذا فيه حفظ اللسان وصيانته وأن لا يتكلم المرء بلسانه إلا بكلام فيه خير ، أما الكلام الذي لا خير فيه أو الكلام الذي هو شر على صاحبه أو على غيره ؛ فهذا لا يجوز له أن يتكلم به ، بل يجب أن يصون لسانه عنه ، واللسان خطير غاية الخطورة ، وأكثر من يدخل النار يوم القيامة يدخلها بسبب اللسان ؛ كما في حديث معاذ عندما أخذ النبي عليه الصلاة والسلام بلسانه مخبراً معاذ بملاك الأمر ؛ أخذ عليه الصلاة والسلام بلسان نفسه وقال " كف عليك هذا " قال معاذ : أو إنا مؤخذون بما نتكلم به ؟ قال " ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكب الناس على وجوههم أو قال على مناخرهم إلا حصائدُ ألسنتهم " فاللسان خطير غاية الخطورة قال عمر رضي الله عنه : " من كثر كلامه كثرت سقطه ، ومن كثرت سقطه كثرت ذنوبه ، ومن كثرت ذنوبه فالنار أولى به " .

ومن يرخي للسانه الزمام ويطلق له العنان يتكلم متى شاء بما شاء بدون قيد أو ضابط يهلك نفسه ويحني عليها جناية بالغة ؛ ولهذا كما قال ابن مسعود رضي الله عنه " ليس هناك شيء أحوج إلى طول سجن من اللسان " ، فيحتاج الإنسان إلى أن يحبس لسانه وأن يمنعه وأن لا يتركه يتكلم إلا بالكلام الذي يُحمد والذي هو خير ، أما الكلام الذي هو على الإنسان لا له فمن الجناية على النفس أن يخوض الإنسان بلسانه بمثل هذا الكلام ، وأحياناً ربما تكون كلمة واحدة ، وربما لا يلقي لها صاحبها بالاً يهوي بها في النار سبعين خريفاً كما صح بذلك الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن " الرجل يتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالاً يهوي بها في النار سبعين خريفاً " كلمة ؛ فكيف بالكلمات الكثيرات ؟! وكيف بمن لسانه طليق في كل شيء بدون مبالاة وبدون حزم ولا زم بزمام الشرع وضوابط الشريعة ؟!! هذا يحني على نفسه جناية بالغة ، ولهذا جاء التوجيه النبوي في هذا الحديث العظيم المبارك بقوله " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت " واللام هنا للأمر ، وهذا يعني أن الكلمة يجب أن توزن قبل أن تخرج ، والكلمة إذا لم تخرج منك ملكتها ، فإذا خرجت ملكتك وأصبحت متحملاً تبعثها ، أما إذا لم تخرج فأنت تملك الكلمة قال تعالى ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ فالكلمة إذا تلفظ بها الإنسان وخرجت منه دخلت في عداد عمله ؛ إن كانت خيراً فهي في عداد عمله الصالح ، وإن كانت شراً فهي في عداد عمله السيئ وفي موازين سيئاته ، وكلام الإنسان يُكتب عليه أو له ؛ فالكلام إما لك أو عليك ؛ الكلام الذي يخرج من الإنسان إما للإنسان أو على الإنسان

ولهذا قال " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً . وهذا هو الذي للإنسان . أو ليصمت " أي ليكف عن الكلام مطلقاً ، لأنه إن تكلم في غير الخير صار الكلام عليه .

ومن خطورة اللسان البالغة أن اللسان مؤثرٌ في البدن كله ؛ اللسان يؤثر في البصر ، يؤثر في السمع ، يؤثر في اليد ، في القدم . وبدايات الجرائم والتعديات والمظالم بدايتها اللسان ، وقد صح عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال " إذا أصبح ابنُ آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان تقول اتق الله فينا فإنما نحن بك فإن استقمت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا " فالجوارح تتبع اللسان إن حفظ الإنسان لسانه فإن الجوارح تتأدب وتمضي على الأدب والسداد والاستقامة ، وإذا لم يحفظ لسانه فالجوارح تنفلت تبعاً للسان ؛ ولهذا كل يوم يصبح فيه العبد تكفر جوارحه لسانه قائلةً

اتق الله فينا فإنما نحن بك فإن استقمتم استقمنا وإن اعوججت اعوججنا ؛ فاللسان إذا كان على السداد صلحت الأعمال وإن كان على غير السداد فسدت الأعمال ؛ وهذا المعنى قد يُستفاد من قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين ءامنوا اتقوا الله وقلوا قولا سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ﴾ فإذا حافظ المرء على القول السديد والكلام الطيب المفيد فالجوارح تتبعه لذلك ؛ إذا كان لسان الإنسان محفوظاً بالذكر والثناء على الله وتلاوة القرآن والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك من أبواب الخير و البر ؛ فالجوارح تتبعه على ذلك . أما إذا كان اللسان والعياذ بالله فاحشاً بذيقاً سليطاً سيئاً ؛ فالجوارح ستكون معه على الفحش والبذاء والإيذاء والعدوان ونحو ذلك .

قوله " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت " .. هذا فيه توجيه إلى وزن الكلام قبل أن يُخرج " كما جاء في كلام الشافعي رحمه الله " بحيث يتأمل المرء الكلمة التي ستخرج منه ؛ إن كانت خيراً فتح لها المجال للخروج وتكلم ، وإن كانت بخلاف ذلك لم يسمح لها ويمنع لسانه من الكلام بها ؛ فيزن كلامه قبل أن يخرج ؛ وهذا داخل في كلام عمر رضي الله عنه " حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا وزنها قبل أن توزن " ؛ فيزن الكلمة قبل أن تكون في عداد عمله ؛ فإذا كانت كلمة متزنة طيبة سديدة مفيدة أخرجها وإلا جعلها حبيسة لا تخرج ؛ لأنها إذا خرجت أضرت به .

وأما مادام الكلام حبيس الصدر يتجلجل في صدر الإنسان ولا يخرج فلا يحاسب عليه ؛ " إن الله عفى عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم وتفعّل " ؛ فالكلام الذي يجول في صدر الإنسان ولو كان كلاماً سيئاً إذا كان لا يطبقه ولا ينطق به لا يحاسب عليه وعفى الله عنه ، والإنسان أحياناً يجول في صدره أشياء وكلمات ؛ فإذا منع نفسه من فعل ما يجول في نفسه من شر لم يحاسب عليه ؛ وهذا من الدواعي والدوافع إلى وزن الكلام وضبطه قبل أن يخرج ؛ لأنه ربما يكون هذا الكلام الذي يخرج الإنسان كلاماً ضاراً يترتب عليه عواقب وخيمة وأضرار ؛ قد يكون وقت الكلمة غير مبال بخطورة الكلمة فوجب عليه أن يكون بهذه الصفة " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت " أي يمتنع عن الكلام .

وجاء في حديث آخر أنه قال " من صمت نجا " وليس معنى " من صمت " أن يتعبد لله بالامتناع عن الكلام مطلقاً ويبقى الإنسان صامتاً أو يجعل صماته قرينة فلا يتكلم ليس هذا

المراد ولكن المراد أن الخيار كما في الحديث ؛ إما أن يقول خيراً أو يلزم الصمت أما الخيار الثالث يجتبه وهو أ يتكلم بشيء فيه ضرر عليه أو على الآخرين .

ثم ذكر عليه الصلاة والسلام في الجملة الثانية إكرام الجار قال : " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره .. والجار له حق عظيم في الشريعة ، ولا زال نبينا عليه الصلاة والسلام يوصي بالجار حتى قال " لازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه " أي سيجعل له نصيباً من الميراث . وقوله " لازال جبريل يوصيني بالجار " هذا يفيد أن الوصية بالجار جاءت عليه الصلاة والسلام متكررة ، وجاءه بها جبريل مرات يوصيه بالجار .

فالجار له مكانته وله حقه وواجب على جاره إكرامه والوفاء بحقوقه والحذر أشد الحذر من الاعتداء عليه أو أن يطاله بأذى فعلي أو قولي .

وقوله عليه الصلاة والسلام " فليكرم جاره " .. ذكر الإكرام ولم يذكر نوعاً معيناً من الإكرام ؛ ليشمل كل إكرام قولي أو فعلي ، فلم يقيد بنوع من الإكرام القولي أو الفعلي بأنواعه ؛ بل أطلقه عليه الصلاة والسلام ؛ وهذا هو المطلوب ، المطلوب أن يجتهد الإنسان في إكرام جاره بما استطاع من أنواع الإكرام بالقول وأنواع الإكرام بالفعل .

وإذا كان الجار قريباً مسلماً زادت الحقوق - جيرة وقربة وإسلام - .

وإذا كان الجار مسلماً فله حق الجوار والإسلام .

وإذا كان كافراً فله حق الجوار ؛ لأن إكرام الجار والإحسان إليه لا يختص بالمسلم ؛ ولهذا روى الإمام البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه ذبح شاة وقال أهديتم جارنا فلان ؟ قالوا : اليهودي أصلحك الله ؟ قال نعم ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه " وسنده جيد .

ولهذا قال أهل العلم - وهذا جاء في حديث يُرفع وفي سنده كلام - الجيران ثلاثة جار مسلم قريب وجار مسلم وجار ليس بمسلم الأول له ثلاثة حقوق حق الجوار وحق القرابة وحق الإسلام والثاني له حقان حق الجوار والإسلام والثالث له حق واحد وهو حق الجوار ، قد قال الله سبحانه وتعالى فيما يتعلق بالكافر ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴾ والنبي عليه الصلاة والسلام عاد الغلام النصراني في مرضه ودعاه إلى الإسلام فأجاب ومات في مرضه ذلك ومات مسلماً

فالشاهد أن الجار له حق بأن يحسن إليه جاره ويتلطف معه ، وأن يجتهد في الوفاء بحقوقه وأن يحسن القول معه وإليه ، أن يحسن الفعل وأن يحذر أشد الحذر من إيذاء الجار ؛ قال عليه الصلاة والسلام " والله لا يؤمن من لا يؤمن جاره بوائقه " لأن إيذاء الجار يتنافى مع الإيمان الواجب ؛ ولهذا جاء عنه عليه الصلاة والسلام نفي الإيمان في حق من لا يأمن جاره بوائقه ؛ يعني لا يأمن جاره من أذية منه أو عدوان ؛ فيحذر أشد الحذر من أن يحصل أي أذى منه إلى جاره ، يتعد عن ذلك ؛ لأن الجار له في الإسلام حق عظيم ؛ ولهذا العدوان على الجار جريمة أكبر من العدوان على بعيد الدار ؛ لأن هذا فيه إهدار لحق عظيم جاءت به الشريعة وهو حق الجوار ، وقد جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال " ألا أنبئكم بأكبر الكبائر .. " فذكر عليه الصلاة والسلام منها الشرك بالله عز وجل " أن تشرك بالله وهو خلقك .. " ثم ذكر في تمام الحديث " وأن تزاني حليلة جارك " ؛ خصَّ الجار بالذكر لأن العدوان على عرض الجار فيه جنائية من أعظم الجنايات وأبلغها ؛ لأن المفترض في الجار أن يكون مساعداً ومعاوناً على الصيانة والحماية لا أن يكون هو سبب الشر والأذى والانتهاك ، ولقد كان بعض أهل الجاهلية يمتدح نفسه بحفظه لعرض جاره ؛ كما يقول أحد شعراء أهل الجاهلية :

وأغض طربي إن بدت لي جارتني حتى يوارى جارتني مأواها

ولهذا صح عن النبي عليه الصلاة والسلام كما في الأدب المفرد وغيره أنه قال للصحابه يوماً - كما في حديث المقداد - " قال أخبروني عن الزنا قالوا حرام ، قال أخبروني عن الزنا قالوا حرام حرمه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، قال عليه الصلاة والسلام " لمن يزني الرجل بعشر نسوة أيسر من أن يزني بحليلة جاره - أو بزوجة جاره - " وهذا فيه تفاوت الزنا باعتبارات ، الزنا كبيرة من الكبائر وعظيمة من العظائم لكن الزنا بحليلة الجار وقريبة الجار أعظم وأخطر ، ثم قال " أخبروني عن السرقة " قالوا حرام حرمه الله ورسوله ؛ قال عليه الصلاة والسلام " لمن يسرق الرجل من عشرة بيوت أيسر من أن يسرق من بيت جاره "

فالجار له حق عظيم ؛ يجب على الجار أن يكرم جاره ، وأن يحسن إلى جاره وأن يقوم بحقوق جاره ، وأقل ما يكون في هذا الباب أن يكف أذاه وشره عن جاره ؛ فلا يحصل منه تجاه جاره أي أذى لا قليل ولا كثير ، ويجتهد أيضاً في تربية أولاده وأبنائه على احترام الجار والقيام بحقوق الجار ، وحفظ عورة الجار ، وعدم التلصص عليه أو التجسس أو غير ذلك من الأعمال المشينة المنكرة ، وقد مر معنا قول النبي عليه الصلاة والسلام " وأن تأتي الناس الشيء الذي تحب أن يؤت إليك " ؛ فكن لجارك كما تحب أن يكون جارك لك ؛ فكما أنك تحب أن تُكرم وأن

يُحسن إليك من قبل الجيران وتحب أن لا تؤذى وأن لا يُساء إليك من قبل الجيران ؛ فكن كذلك لجارك ، وإذا كان جارك مؤذياً لا تقابل الأذى بالأذى ولا العدوان بالعدوان ولا الظلم بالظلم ؛ ولكن ادفع بالتي هي أحسن ، وأحسن إلى جارك ما استطعت لتكون بإذن الله تبارك وتعالى صاحب العاقبة الحميدة والمثال الطيب في دنياك وأخراك .

ثم قال عليه الصلاة والسلام في الجملة الثالثة إكرام الضيف " ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه " .. الضيف له حقه في الإسلام ، وله مكانته ، وله قراه ، وله الحق بحسن الضيافة وحسن التلقي وحسن الاستقبال والقيام بحق الضيف ؛ هذا مما جاءت الشريعة بالحث عليه والحض عليه .

والضيافة في اليوم الأول للضيف حقٌ خاص ، كما سيأتي معنا قول النبي صلى الله عليه وسلم " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته ، قالوا وما جائزته يا رسول الله ؟ قال يوم وليلة والضيافة ثلاثة أيام " اليوم الأول للضيف حقٌ خاص والثلاثة الأيام الأول أيام ضيافة ؛ يضيف الجار ويكرمه مبيتاً وطعاماً بما تيسر ، وما وراء ذلك فهو صدقة عليه ، أما في الأيام الثلاثة الأولى واليوم الأول ؛ هذا أمرٌ متأكد وواجب ، وقد قال أهل العلم أن الوجوب هنا مختص بالمناطق التي ليس فيها مساكن للاستئجار والاكتراء ، وليس فيها أماكن يباع فيها الطعام ؛ فيصل الضيف إلى القرية وليس فيها مسكن يسكن فيه وليس فيها محلات يشتري منها طعاماً ففي مثل الحال فالضيافة واجبة ، أما إذا كانت الأمور متيسرة والمساكن متهيئة وأماكن الطعام متيسرة ؛ فتكون مستحبة لا واجبة وإنما تكون واجبة حيث لا يتوفر المأوى ولا يتوفر المطعم والغذاء .

قال الشيخ عبد المحسن العباد في شرح هذا الحديث :

[الأول: جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ذكر الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر في هذه الأمور الثلاثة ؛ لأن الإيمان بالله هو الأساس في كل شيء يجب الإيمان به ، فإن أي شيء يجب الإيمان به تابع للإيمان بالله ، وأما الإيمان باليوم الآخر ففيه تذكير بالمعاد والجزاء على الأعمال إن خيراً فخير وإن شراً فشر] .

الشرح..

تصدير الحديث بذكر الإيمان بالله واليوم الآخر ، وبالجمع بينهما :

- لأن الله جل وعلا هو المقصود المتقرب إليه بالأعمال والمطلوب رضاه بفعلها
- ولأن اليوم الآخر هو يوم الجزاء والحساب ؛ فإذا قام العبد بأعمال البر والخير والإحسان ؛ وجد ثوابها يوم القيامة ، ومن قام بأعمال الشر وجد عقابها يوم القيامة ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ .

[ثانياً : قوله " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت " ؛ هذه كلمة جامعة من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم مقتضاها وجوب حفظ اللسان من الكلام إلا في خير ، قال النووي في شرح هذا الحديث : قال الشافعي رحمه الله تعالى " معنى الحديث إذا أراد أن يتكلم فليفكر فإن ظهر أنه لا ضرر عليه تكلم وإن ضرر أن فيه ضرراً وشك فيه أمسك " ، وقال الإمام الجليل أبو محمد بن أبي زيد إمام المالكية بالمغرب في زمنه " جميع آداب الخير تتفرع من أربعة أحاديث قول النبي صلى الله عليه وسلم " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت " ، وقوله صلى الله عليه وسلم " من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه " ، وقوله صلى الله عليه وسلم للذي اختصر له الوصية " لا تغضب " ، وقوله صلى الله عليه وسلم " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " .

ونقل النووي عن بعضهم أنه قال " لو كنتم تشترون الكاغد للحفظه لسكنتم عن كثير من الكلام]

الشرح..

قول النبي عليه الصلاة والسلام في الجملة الأولى من هذا الحديث العظيم " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت " هذه الكلمة فيها حفظ اللسان وصيانه ، وأن الواجب على العبد قبل أن يتكلم أن يزن كلامه وأن يتأمل في كلمة الإمام الشافعي رحمه الله فإنها عظيمة في بيان معنى هذا الحديث . فقال الشافعي :

" إذا أراد أن يتكلم فليفكر فإن ظهر أنه لا ضرر عليه تكلم وإن ظهر أن فيه ضرراً وشك أمسك " . وهذه كلمة عظيمة جداً ؛ فكلام الإنسان الذي سيخرجه لا يخلو عندما يفكر فيه من ثلاثة أحوال :

الحالة الأولى : أن يتبين له أنه كلام نافع ، كلام طيب لا ضرر فيه فهذا لا حرج عليه أن يتكلم به .

الحالة الثانية : أن يعلم ويتبين له أن فيه ضرر ؛ فعليه أن يحجم عن هذا الكلام .

الحالة الثالثة : أن يشتبه الأمر عليه ويكون متردد - هل هذا الكلام ضار أم نافع . فهذا أيضاً عليه أن يحجم عنه .

وتأمل في كلام الشافعي " إن ظهر أنه لا ضرر عليه تكلم - هذي الحالة الأولى - ، وإن ظهر أن فيه ضرراً - هذي الحالة الثانية - ، أو شك - هذي الحالة الثالثة - " .

وهذا المعنى مستفاد من قوله عليه الصلاة والسلام " إن الحلال بيّن وإن الحرام بيّن وبينهما أمورٌ مشتبّهات " فالحلال البيّن لا حرج فيه والكلام الطيب البيّن لا حرج عليك أن تقوله ، والكلام الحرام البيّن لا يجوز للمسلم أن يتكلم فيه ، والكلام الذي يشتبه على الإنسان ويشك فيه قبل أن يتكلم - هل هو مفيد أم لا ، هل هو ضار أم لا - فيحصل عنده شك واشتباه ؛ فالواجب الإمساك . قال عليه الصلاة والسلام " فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه " .

فهذه كلمة عظيمة جداً عن الإمام الشافعي رحمه الله ينبغي أن تحفظ وأن يوزن الكلام قبل أن يخرج في ضوئها .

ثم هذا النقل الآخر عن الإمام الجليل أبي محمد بن أبي زيد القيرواني إمام المالكية بالمغرب في زمانه ، ويلقبه بعضهم بمالك الصغير ، كان إماماً فحلاً قوياً في العلم متمكناً ، وله كتاب أسماه " الرسالة " جعل بين يديه مقدمة في الاعتقاد ، مقدمة نفيسة جداً ونافعة ، واعتنى به أهل العلم وطلابه قديماً وحديثاً ، وهي مطبوعة مفردة بعنوان مقدمة ابن أبي زيد القيروان ، وأيضاً تُعرف بمقدمة الرسالة ، مقدمة في العقيدة نفيسة جداً لهذا الإمام .

وله كلمة هنا عظيمة في الأحاديث الجامعة للأخلاق والآداب ؛ يقول رحمه الله :

" جميع آداب الخير تنفر من أربعة أحاديث " جميع آداب الخير تنفر من أربعة أحاديث قول النبي صلى الله عليه وسلم " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت " ، وقوله صلى الله عليه وسلم " من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه " ، وقوله صلى الله عليه وسلم " لا يغضب " ، وقوله صلى الله عليه وسلم " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " .

هذه الأحاديث الأربعة كلها من أحاديث الأربعين للإمام النووي رحمه الله تعالى .

هذه الكلمة كلمة عظيمة من إمام جليل ، أؤكد أن هذه الكلمة ينبغي علينا جميعاً أن نحفظها وأن نُعنى بها ؛ لأن الإمام ابن أبي زيد رحمه الله بهذا النظر الثاقب والتأمل الدقيق في السنة الماثورة عن النبي عليه الصلاة والسلام في باب الآداب والأخلاق ؛ وجد بجميل تأمله وحسن نظره

أن أحاديث الآداب على كثرتها . ونعرف أن للإمام البخاري مجلداً كثيراً في الآداب . فالإمام بجميل نظره يقول أن أحاديث الآداب تجتمع في هذه الأربعة أحاديث ، والأحاديث الأخرى متفرعة عن هذه الأحاديث الأربعة ، والمعنى أنك إذا جمعت هذه الأحاديث وفهمتها وضبطتها واعتنيت بتطبيقها ؛ أتيت بمجامع الآداب ، وفعلاً بالتأمل الدقيق لهذه الأحاديث التي نص رحمه الله تعالى أنها جمعت الآداب وأن جميع أحاديث الآداب متفرعة عنها ؛ بالتأمل نجد فعلاً أن هذه الأحاديث جمعت الأدب المطلوب ، وأن الأدب المطلوب كله راجع إلى هذه الأحاديث الأربعة .

• الحديث الأول من هذه الأحاديث " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت " وهذا فيه أن من جوامع الآداب وأساسيات الآداب صيانة اللسان وحفظه ، ومن كان عاجزاً عن صيانة لسانه وحفظه لن يكون يوماً من أهل الأدب ولا من أهل الأخلاق ؛ لأن من مقومات الأدب وعُمد الأدب التي يقوم عليها صيانة اللسان ، والذي لا يتمكن من صيانة لسانه لن يكون يوماً خلوفاً مؤدباً .

إذا قرأت في كتب الآداب ما يتعلق بأدب اللسان . وهي أبواب كثيرة في كتب الآداب . وجدت أنها راجعة إلى هذا الحديث " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت " .

• الحديث الثاني : قوله عليه الصلاة والسلام " من حسن المرء تركه ما لا يعنيه " وهذا فيه أن من أساسيات الأدب حفظ الإنسان نفسه عن الفضول وعن أن يقحم الإنسان نفسه فيما لا يخصه ولا يعنيه ، والذي لديه فضول وتطلع للنظر في خصوصيات الآخرين ومرةً يسترق سمعاً ومرةً يسترق نظراً ؛ هذا لن يكون يوماً من أهل الأدب ؛ بل هو بهذه من أهل سوء الأدب وردئه ؛ ولهذا من أساسيات الأدب أن يطبق هذا الحديث " من حسن المرء تركه ما لا يعنيه " فمن أساس الأدب أن يتعد الإنسان عن الأمر الذي لا يعنيه ، لا يكون فضولياً ولا يدخل في شؤون الآخرين مستترا لهم بسمعه أو متتبعا لهم بنظره أو متلصصا أو متجسسا أو غير ذلك من الأعمال ؛ هذا كله من سوء الأدب .

• الحديث الثالث : قوله عليه الصلاة والسلام الذي اختصر له الوصية " لا تغضب " ، وسيأتي في الحديث القادمة شرحٌ موسع لهذا الحديث " لا تغضب " ، وهذا الحديث يُعد وصية جامعة ، بل بعض الصحابة قال " تأملت في هذا الحديث فوجدته جماع الخير " ؛ لأن الغضب أساس كل

شر قولي وفعلي ؛ ولهذا من أساسيات الأدب أن لا يغضب الإنسان ، وأن يملك نفسه عند الغضب ، ومن كان لا يملك نفسه عند الغضب لن يستطيع أن يكون مهذباً مخلوقاً ، وقد قيل في ذم الغضب " أوله جنون وآخره ندم " ؛ فالإنسان الذي يتحرك بانفعالات الغضب التي طرت عليه بأقوال أو أفعال هذا لن يكون يوماً مؤدباً بل يخرج منه من الأقوال والأفعال ما يتنافى مع الأدب ؛ ولهذا سيأتي أن الواجب على الإنسان إذا غضب أن يسكت . لا يتكلم نهائياً . وإذا كان معه من أغضبه لا يبقى مواجهاً له ؛ بل يجلس ؛ فإن سكن غضبه وإلا فليضطجع لأن انسياق الإنسان مع تفاعلاته بسبب الغضب يخرج عن حيز الأدب ونطاق الأخلاق القويمة السليمة ؛ ولهذا قوله " تغضب " وصية جامعة في باب الآداب والأخلاق ، ومن كان الغضب يسيطر عليه في أقواله وأفعاله لن يكون يوماً من أهل الآداب والأخلاق .

• والحديث الرابع : قوله عليه الصلاة والسلام " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " ؛ وهذا فيه إصلاح القلب وصيانة النفس وسلامة الصدر ؛ وهذا من أساسيات الأدب ؛ بمعنى أن يكون قلب الإنسان سليماً تجاه إخوانه المسلمين ، ليس فيه غل ولا حقد ولا سخائم ولا حسد ولا نحو ذلك من الأمراض ؛ لأن هذه الأمراض إذا وجدت في القلوب أفسدت الأخلاق وجعلت في الخلق رعونة وغلظة وغضاضة وشدة ، وتكون هي المتحكمة في خلق الإنسان والمسيطرة عليه ؛ ولهذا من أساسيات الأخلاق سلامة الصدر ، يكون سالم الصدر للمسلمين أما الإنسان الذي في صدره على إخوانه غل أو حقد أو حسد أو نحو ذلك ؛ هذا خرج بالذي هو في صدره عن حيز الخلق والأدب ؛ لأن من أساسيات الأدب وركائزه سلامة الصدر .

فتحصل من هذه الأحاديث الأربعة أن الأدب قوامه على أربعة أركان :

الأول : صيانة اللسان .

الثاني : البعد عن الفضول .

الثالث : عدم السير مع انفعالات النفس و رعونتها .

الرابع : سلامة القلب وسلامة الصدر .

ونقل النووي رحمه الله تعالى كلمة عن بعض أهل العلم قال " لو كنتم تشترون الكاغد " : يعني القرطاس .

" للحفظة " .. يعني للملائكة الذي يكتبون ما تقولون وما تتكلمون به ؛ فلو كنتم مكلفين بشراء الكاغد لهم بحيث أن الأوراق التي تمتلئ مع الملك يُطلب من الشخص الذي وُكل به هذا الملك أن يُحضر له أوراقاً جديدة .

" لسكنتم عن كثير من الكلام " .. وهذا فيه تنبيه إلى أن الإنسان الذي يُطلق لسانه الزمام سيفاجئ أن لسانه خرج منه كلام كثير ، وربما أن هذا الكلام الكثير عليه . حقيقة الإنسان قد يُفاجئ يوماً أنه خرج منه كلام كثير ، وربما جلُّه عليه لا له ؛ وهذه مصيبة وكرثة .. أحياناً يُفاجئ الإنسان الذي يحمل الجوال أن فاتورة الجوال مليئة بالمبلغ ؛ ثم يستغرب ويقول : أنا تكلمت بالجوال هذا الكلام وهذه الساعات !!؟

فهو عرفها لما ضبطت عليه ؛ في الوقت الفلاني نصف ساعة .. فيُفاجأ ويدهش .. وإذا كان الإنسان طلق اللسان بالكلام وكثير الكلام ويتكلم دائماً بغير ضابط وبدون قيد ؛ فهذه كارثة وسيُفاجئ يوماً من الأيام أن موازين أعماله مبسوط فيها أقوال وكلام كثير عليه لا له ، والله سبحانه وتعالى يقول ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ .

[ثالثاً: الخير اسم يقابله الشر ويأتي أيضاً خيراً أفعال تفضيل حُذفت منه الهمزة ، وقد جاء الجمع بينهما في قول الله عز وجل ﴿ يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ﴾] .

الشرح ..

الخير في قوله عليه الصلاة والسلام " فليقل خيراً " ؛ الخير هنا هي اسم مقابل للشر أو ضد الشر ، وهذه الكلمة تأتي مرة يراد بها ما يقابل الشر ، وثارة تأتي ويراد بها أفعال التفضيل - فلان خير من فلان - أي أفضل منه .

وقد جاء الجمع بينهما في آية واحدة وهي قوله سبحانه وتعالى ﴿ إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ﴾ فخيراً الأولى هي ضد الشر، وخيراً الثانية هي أفعال التفضيل.

[رابعاً: قوله " ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره " : حق الجار من الحقوق المؤكدة على جاره ، وقد جاءت أحاديث كثيرة في الترغيب في إكرام الجار والترهيب من إيذاءه

والحاق الضرر به ؛ ومنها حديث عائشة رضي الله عنها " مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه " رواه البخاري ومسلم ، وحديث " والله لا يؤمن والله لا يؤمن قالوا من يا رسول الله ؟ قال الذي لا يأمن جاره بوائقه " رواه البخاري ومسلم وإكرامه يكون بأن يصل إليه بره وأن تحصل له السلامة من شره .
والجيران ثلاثة :

جار مسلم ذو قرى له ثلاثة حقوق ؛ حق الجوار وحق القرابة وحق الإسلام .
وجار مسلم ليس بذى قرى له حق الجوار والإسلام .
وجار ليس بمسلم ولا ذى قرى له حق الجوار فقط .
وأولى الجيران بالإحسان من يكون أقربهم باباً لمشاهدته ما يدخل في بيت جاره فيتطلع إلى إحسانه إليه [.

الشرح..

قوله عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره " : هذا فيه بيان لحق الجار ، وأن حق الجار من الحقوق المؤكدة في الشريعة الإسلامية ؛ ولهذا جاءت أحاديث كثيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في الترغيب في إكرام الجار والترهيب من إيذائه وإلحاق الضرر والأذى به ؛ منها حديث عائشة " ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه " وهذا فيه أن الوصية بالجار كانت متكررة وعظيمة حتى ظن النبي صلى الله عليه وسلم أن الجار سيكون له نصيب من الميراث من كثرة ما يأتيه جبريل عليه السلام بالوصية بالجار .

وقال عليه الصلاة والسلام " والله لا يؤمن والله لا يؤمن " يقسم بالله ويكرر ذلك مرتين ؛ قالوا من يا رسول الله ؟ قال " الذي لا يأمن جاره بوائقه " ؛ أي أن جاره دائماً قلق منه ومتخوف من أذاه وعدوانه ، ولا يحس بارتياح ولا بسلامة من جهته ولا من طرفه .

ونفي الإيمان يدل على أن الأمر المذكور في الحديث من واجبات الدين ، وأن الواجب على الجار أن لا يؤذي جاره وأنه إذا آذى جاره نقص إيمانه الواجب لأذيته لجاره ؛ فهذا دليل على أن هذا الأمر من الكبائر .

وإكرام الجار . المطلوب في الحديث . هو إكرام أطلق ولم يُقيد بشيء ؛ فيتناول كل إكرام قولي أو فعلي ، ويكون متعاملاً مع جاره بالبر والرفق واللفظ والإحسان ، وبما تعنيه هذه الكلمة من معنى .

ولو قال قائل أريد ضابطاً في هذا الباب ؛ فالضابط في قوله صلى الله عليه وسلم " أن تأتي للناس الذي تحب أن يؤتى إليك " فماذا تحب أن يعاملك به جارك عامله به ؛ فإن كان أمراً لا ترضاه لنفسك فكذلك لا ترضاه لجارك ؛ لأن هذا هو حقيقة البر والإكرام والإحسان إلى الجار .

" وأن تحصل له السلامة من شره " .. إن لم تحصل السلامة وحصل الأذى كان الجار مرتكباً كبيراً في حق جاره وأمرأً عظيماً ، نفى النبي صلى الله عليه وسلم الإيمان الواجب عن من فعل ذلك .

والجيران ثلاثة : وهذا جاء فيه حديث يرفع إلى النبي عليه الصلاة والسلام وفيه كلام لكن من حيث المعنى صحيح ، وشواهد الشريعة ودلائلها على ذلك عديدة .

وأولى الجيران بالإحسان من يكون أقربهم باباً لما ثبت في صحيح البخاري عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت : قلت : يا رسول الله إن لي جارين فبأيهما أبدأ . أو أيهما أهدي . فقال عليه الصلاة والسلام " إلى أقربهما منك باباً " ؛ فإذا كان عند الإنسان كرامة أو ضيافة أو شيئاً يريد أن يهديه إلى جاره ، والشيء الذي عنده واحد ، وتخير إلى أي الجيران يبدأ ؛ قال : إلى أقربهم باباً ؛ فيعطي الأقرب لأنه الأولى بالصلة والإحسان ولأنه قريب من الباب ، وإذا أحضر الإنسان إلى بيته شيئاً جديداً ربما تقع عليه عين صغار الجيران أو الأولاد أو نحو ذلك . والنبي عليه الصلاة والسلام وجه في هذا الحديث إلى أن يهدي الأقرب باباً ، فإذا كان الشيء يكفي دارين فيعطى البابين الأقرب ، وهكذا يمضي في إحسانه .

ويحاول في الإحسان إلى الجيران وإكرام الجيران ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

[خامساً : قوله " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه " : إكرام الضيف من الحقوق التي للمسلمين على المسلمين ، وهو من مكارم الأخلاق ، وفي صحيح البخاري من حديث أبي شريح قال سمعت أذناي وأبصرت أذناي حينما تكلم النبي صلى الله عليه وسلم فقال " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته قيل وما جائزته يا رسول الله قال يوم وليلة والضيافة ثلاثة أيام وما وراء ذلك فهو صدقة عليه "] .

الشرح..

إكرام الضيف من الحقوق التي جاءت به الشريعة وأمر بها الإسلام .

قوله " فليكرم " اللام للأمر ؛ أمر عليه الصلاة والسلام بذلك . فالضيف له كرامته وله ضيافته وله قراه وله حسن الضيافة وحسن المعاملة وحسن الاستقبال .

وقوله " فليكرم " : يتناول كل معاني الإكرام القولية والفعلية.

الإكرام القولي بحسن الكلام وإلانة القول وجمال الترحيب وتنوع عبارات الاستقبال ، وكان من هديه عليه الصلاة والسلام الترحيب بالقادم ؛ فكثيراً ما يأتي عنه عليه الصلاة والسلام "مرحباً "

فالترحيب بالقادم وحسن الكلام معه . مرحباً ، أهلاً وسهلاً ، حللت بين إخوانك ، أنت بين أهلك - إسماعه مثل هذه الكلمات اللطيفة الطيبة تدخل السرور على قلبه والأنس على نفسه ؛ فهذا من إكرامه أن يكرم بالقول والكلام الحسن الطيب فمجرد الترحيب يكون أكرمه ، ولهذا من لم يتيسر له الإكرام بكل معانيه ودلالاته لا يفوت جوانب منه ؛ يرحب بالقادم بقوله أنت في بلدك، أنت بين إخوانك ، أهلاً ومرحباً بك ، سرّنا لقاءك نحمد الله على صحتك وعافيتك .. إلى غير ذلك من الكلام الذي يدخل السرور في قلبه ويفرح به ويحس بأن أخاه يحس به ويشعر به ؛ فهذا من الضيافة ، ليست الضيافة بمجرد الإطعام والكلام الطيب بل الضيافة أيضاً بالكلم الطيب وحسن الاستقبال وأيضاً كما يكون بضيافة الإنسان بحسن قراه مبيتاً وطعاماً وتفقداً لحاجته ومصالحه أو غير ذلك ؛ فهذا كله من الأمور التي جاءت بها الشريعة وحث عليها الإسلام وهو من محاسن الدين الإسلامي وجمال هذه الشريعة ، ولا يمكن ترى في الأديان أيّاً كانت مثل هذه الآداب القويمة والأخلاق العالية الرفيعة التي تدل على جمال هذا الدين وكماله وحسنه ، وممر معنا قول النبي عليه الصلاة والسلام " من حسن إسلام المرء " ؛ فالإسلام مليء بالمحاسن ، وكله جمال وكمال ، وهو دين الله سبحانه وتعالى ، وهو يحقق للناس الخير وحسن العائدة في الدنيا والآخرة .

وقد جاء عن أبي شريح رضي الله عنه قال : "سَمِعْتُ أُذُنَايَ وَأَبْصَرْتُ عَيْنَايَ حِينَ تَكَلَّمَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ" ، وهذا قاله تأكيداً وتثبيتاً ؛ قال " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته قيل وما جائزته يا رسول الله ؟ قال يومٌ وليلة " ؛ وهذا فيه أن الليلة الأولى واليوم الأول في الضيافة فيها من التأكيد والخصوصية ما ليس في الأيام الأخر ؛ لأن اليوم الأول والليلة الأولى جائزة الضيف ، وثلاثة أيام ضيافة ، وما زاد على ذلك صدقة ؛ فلاحظ التدرج :

اليوم الأول جائزة الضيف ؛ وفيه من الخصوصية ما ليس في غيره .

وثلاثة أيام ضيافة - بما فيها اليوم الأول - ؛ هذه أيام ضيافة .

وما زاد على ذلك فهو صدقة ؛ يعني انتهى الحق .
وهذه الضيافة الواجبة نصّ غير واحد من أهل العلم أن الوجوب وتعيُّن هذا الأمر إنما هو في القرى والمناطق التي ليس بها أماكن يستأجرها الضيف أو أماكن يشتري منها لينام وليطعم .
وقد يكون واجباً إذا كان هذا الضيف ليس عنده قدرة على السكنى أو الأجار ؛ فإن لم يُضَيَّف فسيكون في العراء وسيكون بدون طعام .

[سادساً: مما يُستفاد من الحديث :

- الأول : الترغيب في الكلام فيما هو خير .
- ثانياً : الترغيب في الصمت إذا لم يكن التكلم بخير .
- ثالثاً : التذكير عند الترهيب والترغيب باليوم الآخر لأن فيه الحساب على الأعمال .
- رابعاً : الترغيب في إكرام الجار والتحذير من إيذائه .
- خامساً : الحث على إكرام الضيف والإحسان إليه .

سبحانك اللهم و بحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، اللهم صلّ وسلّم على عبدك
ورسولك نبينا محمد و آله وصحبه

..*



شرح الأربعين النووية

لأبي زكريا يحيى بن شرف الحزامي النووي رحمه الله

من الدرس ١٦ إلى الدرس ١٨

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما الله تعالى

١٤٤٠/٠٦/١٣ هـ

الدرس السادس عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .
أما بعد ..

الحديث السادس عشر

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم أوصني قال " لا تغضب " فردد مراراً قال " لا
تغضب " . رواه البخاري
الشرح..

هذا الحديث فيه وصية من النبي عليه الصلاة والسلام وجيزة وجامعة ؛ فالرجل طلب من النبي عليه الصلاة والسلام أن
يوصيه فقال له صلى الله عليه وسلم " لا تغضب " ، فأعاد الرجل الطلب مراراً - يعيد على النبي صلى الله عليه وسلم قوله
أوصني - فيعيد عليه النبي عليه الصلاة والسلام الجواب نفسه - يقول لا تغضب - ؛ فهذا يفيد أن النهي عن
الغضب تُعد وصية من أجمع الوصايا وأهمها وأعظمها ؛ وذلك لأن الغضب الذي نهى عنه
النبي صلى الله عليه وسلم جماع الشر ومفتاحه ؛ ولهذا جاء في بعض الروايات بإسناد صحيح في مسند
الإمام أحمد وغيره عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال: قلت يا رسول الله أوصني قال لا
تغضب ، قال الرجل ففكرت حين قال النبي صلى الله عليه وسلم ما قال فإذا الغضب يجمع الشر كله .
فنهى النبي عليه الصلاة والسلام في هذه الوصية الجامعة عن الغضب نهياً عن أمر هو جماع الشر ومفتاح
الشر وبابه ؛ ولهذا جاء أيضاً عن جابر بن محمد قال : الغضب مفتاح كل شر وقيل لعبد الله
بن المبارك اجمع لنا حسن الخلق في كلمة قال ترك الغضب .

فهذه النقول تفيد أن الغضب جماع الشر ومفتاحه ، وتفيد أيضاً أن ترك الغضب جماع حسن
الخلق - كما في كلمة عبد الله بن المبارك . . وقد مرت تلك الكلمة العظيمة للإمام بن أبي زيد
القيرواني رحمه الله تعالى حيث قال " جميع آداب الخير تتفرع من أربعة أحاديث :

من قول النبي صلى الله عليه وسلم " من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه " ، وقوله عليه الصلاة والسلام " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت " ، وقوله عليه الصلاة والسلام " لا تغضب " ، وقوله عليه الصلاة والسلام " لا يؤمن أحدكم حتى لأخيه ما يحب لنفسه " .

وإذا تأملت في هذه الأحاديث الأربعة تجد أنها جمعت أصول الآداب وجوامع الآداب ؛ لأن الآداب ترجع إلى أصول أربعة اجتمعت في هذا الحديث :

- الأصل الأول : صيانة اللسان وسلامته . وهذا في حديث من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت . .
- الأصل الثاني : البعد عن الفضول وتجنب ما لا يعني . وهذا في حديث من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه . .
- الأصل الثالث : عدم الانسياق مع انفعالات النفس لا في جانب الأقوال ولا في جانب الأفعال . وهذا في حديث لا تغضب . .
- الأصل الرابع : سلامة القلب وسلامة الصدر . وهذا في قوله عليه الصلاة والسلام لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه . .

فهذه الأمور الأربعة التي دلت عليها هذه الأحاديث هي أركان الآداب وأعمدة الآداب ، والآداب كلها متفرعة عن هذه الأمور الأربعة ، فإذا أعان الله سبحانه وتعالى عبده ويسر له تحقيق ما دلت عليه هذه الأحاديث الأربعة ؛ فإنه بإذن الله سبحانه وتعالى يكون قد اجتمع فيه الأدب ؛ لأن بقية الآداب فروع ؛ فإذا صحت الأصول استقامت الفروع . وهذا الحديث - حديث لا تغضب - هو أحد هذه الأحاديث الأربعة ، وهي كلها من أحاديث الأربعين .

قول النبي عليه الصلاة والسلام مكرراً ذلك لمن طلب منه أن يوصيه " لا تغضب " ؛ يفيد أن هذه وصية جامعة ، وكلام الصحابي الذي أوصاه النبي عليه الصلاة والسلام بهذه الوصية عندما قال " فكرت حين قال النبي صلى الله عليه وسلم ما قال فإذا الغضب يجمع الشر كله " وشيء يجمع الشر كله لا خير أن يتحلى أو يتصف به الإنسان ؛ بل الخير كل الخير أن يجتنبه وأن يتعد عنه وأن لا يقع فيه .

والغضب داءٌ خطير وبلاء فتاك ، وهو غليان في الدم وانفعالات في النفس ، يترتب على وجوده في العبد رعونة شديدة في الأخلاق ، وفضاضة في التعامل وغلظة وسوء معاملة ، ويترتب عليه من الأقوال السيئة والألفاظ الغير منضبطة الشيء الكثير ، وأيضاً يترتب عليه

من الأفعال السيئة من ضرب أو لطم أو قتل أو غير ذلك من أنواع العدوان ، وكم حصل وحصل في ثورة الغضب من تعديات وظلم ندم عليها الغضبان أشد الندم .

وفي حالات الغضب يحدث قتل أحياناً يندم عليه فاعله ، يحصل أحياناً إضرار بالآخرين ، يحصل أحياناً طلاق وفراق بين الأزواج ، تحصل أمورٌ كثيرة جداً عندما يفور الغضب في الإنسان ؛ ولهذا من رأيت في وصف الغضب ووصف حال الغضبان قول أحدهم " الغضب أوله جنون وآخره ندم " أول الغضب جنون لأن الغضبان يصبح في هيئة غير لائقة أبداً في حركات جسمه وفي كلماته وفي هيئته ومنظره ... ، ولو أنه رأى صورة نفسه وهيئة نفسه وهو غضبان؛ لسأله أن يكون في مثل هذه الصفة ، ولما أعجبه هذا المنظر ؛ لأنه يصبح في انفعاله وفي حركاته وفي أقواله على هيئة مقاربة لهيئة المجنون ، يخترق بكلام لا ينضبط ، وأفعال لا تنضبط ؛ ولهذا قيل أوله جنون .

وآخره ندم : فإذا انطفأ الغضب وسكن ثم نظر بعد ذلك ؛ وإذا الشخص الذي أمامه مات . ذهب ضحية غضبه . ، أو الشخص الذي أمامه تكسر بعض بدنه ، يأتي شخص ويقول أغضبتني زوجتي واشتد غضبي منها فجمع يدي ضربتها على فمها وتكسرت أسنانها ، وأنا غضبان طلقتها .. ؛ فلاحظ حركة اليد وحركة اللسان ؛ ثم لما يسكن الغضب يندم على حركة يده ويندم على حركة لسانه ، بينما لو انتظر دقيقتين أو ثلاثة دقائق حتى تذهب ثورة الغضب ؛ يجد أن حركة يده وأيضاً حركة لسانه متزنة ، لكن إذا باشر قولاً أو باشر فعلاً وقت فورة الغضب لن يكون القول ولا الفعل منضبطاً ، وإذا تريت حتى ينتهي الغضب قال بإذن الله حقاً وفعل عدلاً ؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام " لا تغضب " .

وهذه وصية جامعة لأن ترك الغضب جماع الخير ، والانسحاق مع ثورة الغضب أضراره لا حد لها ، وكم تحصل من الجنايات سواء في البيوت أو في أوساط الناس ؛ كم تحصل من مصائب بسبب الغضب ...

يدخل ولي الأمر البيت ويغضب على أمر تافه أو على بعض التقصير من أهل البيت ثم يرتكب أشياء هو يندم لما ينتهي من ارتكابها إما أن يطلق زوجته ، كم من حالات طلاق كثيرة تحصل بسبب الغضب بل ربما جلّ حالات الطلاق تحصل في الغضب ما تحصل بالرضى ثم يندم الإنسان وأحيان تكون الطلقة الثالثة بدون رجعة إلا بزواج ثاني ويندم و

يأسف أسفا شديدا وهو الذي جنى على نفسه ، وكم من الصغار ؛ يغضب الأب على طفله الصغير ثم يفاجأ أنه في غضبه كسر يد ولده أو أدمى ولده أو عابَه عيبًا يبقى مستمرا معه مدّة حياته ، أذكر مرة في أحد المستشفيات قابلت رجل ويحمل ابنه معه عمره خمس سنوات ويده منطلقه من أصلها فسألته قلت : لا بأس يد الابن قال : نعوذ بالله من الغضب قلت : خير إن شاء الله قال: نائم وأقوله قوم وأعيد عليه أصحيه من النوم ما سمع فغضبت ومسكت يده وانملت ، حالات كثيرة تحصل بالبيوت مؤلمة جدا ومؤسفة ، أو الرجل يضرب زوجته في وجهها أو يجمع يده على أسنانها أو يمسك شيء قريب منه من كأس أو ماء حار .. وهو غضبان يفعل أشياء هي فعل المجانين لها قيل أوله جنون وآخره ندم يعني عندما يذهب الغضب ويسكن يندم ...

فهذه وصية جامعة نحتاج إليها كل يوم ؛ نحتاج إليها عندما ندخل البيت ، ونحتاج إليه عندما نلتقي بالإخوان ، ونحتاج إليها عندما نذهب إلى السوق للبيع والشراء أحيانا انفعال بين بائع ومشتري ربما أحدهما يقتل أو تحصل كارثة في ثورة الغضب .. أذكر قيل لي مرة أن شخصا تباع مع شخص وبقي له قليل من المبلغ يعي فلسات نسي البائع أن يعيدها عليه.. المشتري غضب وقال أنت حرامي ...وبدأ يكيل له الاتهامات وهذا البائع قابل الغضب بغضب وكان يجنبه خشبه أخذها وقال أنا الكذا ؟ وضرب رأس المشتري فمات ؛ هذي قصة واقعية من قصص كثيرة تحصل بالمجتمعات ، تحصل أمور مؤسفة جدا ومؤلمة ، يعي في ثورة غضب في دقائق تجد روح أزهقت أو جسم أعيب أو زوجة طلقت أو .. أو من أمور كثيرة جدا مؤلمة إما باللسان أو بيده أو بقدمه ؛ لهذا قال لا تغضب

وهنا نحتاج إلى أن نقف لتأمل في الوصية وأيضاً لنجاهد أنفسنا في تحقيقها ؛

أولاً : ما معنى قوله عليه الصلاة والسلام " لا تغضب " ؟ لأن الغضب انفعال في موقف معين يهجم على الإنسان ، يفعل في موقف معين ، فيجد أن دمه أصبح يغلي وأنه أصبح غضباناً ؛ فما معنى قول النبي عليه الصلاة والسلام " لا تغضب " ؟

هذا كما قال ابن رجب رحمه الله تعالى يحتمل أحد معنيين :

المعنى الأول : أن المراد أن قوله لا تغضب أن يمرن الإنسان نفسه على الأخلاق الفاضلة والآداب العالية مثل الحلم والأناة والصبر والتؤدة ونحو ذلك من الأخلاق الفاضلة ؛ يدرب

نفسه ويمرن نفسه عليها حتى إذا ما حصل منه غضب احتمله بآدابه العالية وأخلاقه الفاضلة ، فإذا حصل موقفاً مغضباً فإن الأخلاق الفاضلة التي هو متصف بها تحميه بإذن الله من آثار الغضب وتبعاته ؛ فيحتملها بأخلاقه ، وكما قال بعض السلف لما سُئل عن الغضب قال " ما فائدة سعة صدري إن لم أكظم فيه غضبي " ؛ فلما يكون عند الإنسان صبر وحلم وأناة وتؤدة تمرن عليها وتعود .

إذا جاءت المواقف المغضبة المؤلمة احتملها بالصبر بالحلم بالأناة بالتؤدة بعدم العجلة والتسرع. المعنى الثاني المحتمل من قوله عليه الصلاة والسلام " لا تغضب " ؛ أي لا تنساق مع دواعي الغضب ، ووقت الغضب امنع نفسك من أي كلمة ومن أي فعل ، لا تتكلم بكلمة ولا تفعل أي فعل وقت الغضب ؛ فوقت الغضب لا تتكلم بأي كلمة ولا تفعل أي فعل ، انتظر دقيقتين ثلاثة أربعة خمسة .. إلى أن يهدئ الغضب ؛ فإذا سكن حينئذ تكلم وافعل ، أما وقت الغضب امنع نفسك ؛ فهذا المعنى الثاني لقوله لا تغضب ، ويدل عليه قول النبي صلى الله عليه وسلم " ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب " ، الصرعة : الذي يصرع الآخرين ويغلب ، ويبادر للهجوم على الآخرين .

الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب : يعني يمسك لسانه وأفعاله عند الغضب ، يكون غضباناً غضباً شديداً لكنه مسيطر بإذن الله على لسانه ومسيطر على أفعاله ، أما الذي يندفع مع غضبه بلسان سيء وفعال سيئة هذا ليس شديداً " ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب " هذا الشديد الذي إذا غضب يملك نفسه وملاكك لنفسك عند الغضب يكون في جانبين :

جانب اللسان : تمنعه من الحديث نهائياً . ولا كلمة واحدة . إلا التعوذ بالله من الشيطان .

جانب الحركات : حركات البدن ؛ كلها تمنعها .

هذا جاء فيه تنصيحا حديثان صحيحان ثابتان عن الرسول صلى الله عليه وسلم :

الحديث الأول أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " إذا غضب أحدكم فليسكت " وكرر ذلك ثلاثاً ؛ يعني امنع نفسك من الكلام مطلقا وقت الغضب ؛ لأن الكلام الذي يصدر وقت الغضب كلام غير منضبط ، كلام بعقل طائش ونفس ثائرة .

الحديث الثاني : عند أبي داود في سننه والأول في مسند الإمام أحمد أن النبي ﷺ قال " إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس فإن ذهب عنه غضبه وإلا فليضطجع " ؛ لماذا ؟ لأنك إن بقيت قائماً أمام من أغضبك وجهاً لوجه ، والغضب يفور من داخلك ودمك يغلي وعقلك بدأ يطيش ، والذي أغضبك أمامك وجهاً لوجه ؛ ففي ثورة الغضب قد تتحرك اليد تحركاً أنت لا ترضاه ولا تقبله من نفسك لكنها حركة تتحرك في ثورة الغضب ، وربما تكون هذه الحركة قاتلة لمن أمامك أو متلفة لبعض حواسك ؛ فإذا جلس تباعدت عنه - هذا من جهة - ، ومن جهة ثانية أعطيت جسمك فرصة لتهدأ من ثورة الغضب بالجلوس لأن إذا جلس الإنسان حصل له بجلوسه نوع من الراحة فتبدأ ثورة الغضب تسكن ، فإذا حصل سكون بهذا القدر تكتفي به ، إن لم يحصل ولا زال الغضب يفور اضطجع - ثم على جنبك - ؛ وإذا اضطجعت تهدأ الأمور ، ولا بد مع هذا كله من التعوذ بالله من الشيطان الرجيم لأن الشيطان ينتهزها فرصة ثمينة بالنسبة له وقت الغضب لثقتل نفسٍ ينتهزها ليحصل طلاق وفراق ، ينتهزها ليترب عليه جنایات وعدوان ، يفرح به الشيطان ؛ ولهذا لابد من مباشرة من التعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، قد جاء في الصحيح عن سليمان بن سرد رضي الله عنه قال " استب رجلان عند رسول الله ﷺ وغضب أحدهما وظهر الغضب عليه وبدأ عليه الغضب وسب أحدهما الآخر فقال النبي ﷺ " إني أعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم " ، فذهبوا للرجل وهو على غضبه وقالوا إن النبي ﷺ قال كذا ؛ قال لست بمجنون " - يعني لا زال الغضب مسيطر - ، ولهذا يحتاج الغضبان أن يقاوم نفسه وأن يتعود حتى يذهب عنه الشيطان ولا ينتهز منه فرصة الغضب ، فإذا غضب أول ما يبدأ يقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ثم يبدأ بهذه السنن - يتعوذ بالله من الشيطان الرجيم ويسكت - حتى تنطفئ جمر الغضب ويجلس ، وإن سكن الغضب وإلا فليضطجع . إذا لم يتعوذ من الشيطان الرجيم وجلس أو اضطجع ربما جاءه الشيطان وقال له أما تستحي ؟ الرجل يفعل بك كذا وكذا ، ويحصل منه تجاهك كذا وكذا ؛ وتنام عنده ؟ أهذه رجولتك ... ، لكن إذا قلت أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ؛ انصرف عنك ؛ ﴿ وإما يزعجك من الشيطان نزع فاستعد بالله إنه هو السميع العليم ﴾ .

أعيد بتلخيص :

عندما يغضب الانسان ويجد نفسه ثار وغلا الدم من داخله وهاجت نفسه من أهل البيت أو ولد أو قريب أو غير ذلك إذا حصل ..

• أول ما يفعل يقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

• الخطوة الثانية بعد التعوذ يمنع نفسه من الحديث مطلقا - الكلمة تريد تخرج فيحبسها - يمنع نفسه من الحديث مطلقا وقت الغضب

• الخطوة الثالثة يجلس إن هدأ الغضب بجلوسه وإلا يضطجع على جنبه

فهذا أنفع علاج للغضب ، ومهما كان الغضب في الإنسان شديداً فإن هذا العلاج من أنفع ما يكون ، وكثيرون جربوا ونفعهم الله سبحانه وتعالى بذلك ؛ لأن بعض الناس تجده يوهم نفسه أن الغضب الذي فيه يختلف عن الغضب الذي في الآخرين ، وربما بعض الناس يقول نحن هكذا قبيلتنا أو هكذا أهل بلدنا نحن حارين دايماً غضب؛ فيوهم نفسه أن هذا أمرٌ لا سبيل له للخلاص منه وأنه أمرٌ لازم ولاصق به ، وأن هذا شيء موروث وشيء بيننا وكلنا .. ؛ فنقول أن النبي صلى الله عليه وسلم يقول " إنما العلم بالتعلم وإنما الحلم بالتحلم ومن يتحر الخير يعطه ومن يتوق الشر يوقه " إياك أن تستسلم بمثل هذه الكلمات أو لمثل هذه الأوهام ؛ بل خذ نفسك بالعلاج النبوي فترى العلاج المبارك عليك في حياتك .

فالعلاج إذا ما غضب الإنسان وفار هو :

أول ما يغضب الإنسان يستعيد بالله من الشيطان الرجيم - يقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

الخطوة الثانية : يمنع نفسه بعد الاستعاذة من أي كلمة إلى أن يذهب الغضب .

الخطوة الثالثة : يجلس إن سكن الغضب وإلا فليضطجع .

ومن جميل الدعاء المأثورة عن النبي عليه الصلاة والسلام - وكل دعاءه عظيم جميل - قوله كما في حديث عمار بن ياسر الذي كان يقوله عليه الصلاة والسلام في صلاته " اللهم إني أسألك كلمة الحق في الغضب والرضا " ؛ لأن كلمة الحق في الرضا سهلة لكن كلمة الحق في الغضب عزيزة إلا على من أكرمه الله سبحانه وتعالى بذلك .

قال الشيخ عبد المحسن :

[الأول : قال الحافظ في الفتح قال الخطابي " معنى قوله لا تغضب : اجتنب أسباب الغضب ولا تتعرض لما يجلبه وأما نفس الغضب فلا يتأتى النهي عنه لأنه أمرٌ طبيعي لا يزول من الجبلة] .

الشرح..

الخطابي يقول " معنى قوله لا تغضب : اجتنب أسباب الغضب ولا تتعرض لما يجلبه وأما نفس الغضب فلا يتأتى النهي عنه لأنه أمرٌ طبيعي لا يزول من الجبلة " وهذا معنى ثالث لـ "لا تغضب" ؛ يعني ابتعد عن الأسباب التي تغضبك ، أما منع الغضب أن يدخل على الإنسان فهذا أمرٌ لا يتأتى لأنه أمرٌ جُبل على الإنسان أن يهجم عليه الغضب هجوماً .

والمعنيان اللذان ذكرهما بن رجب وسبق الإشارة إليهم أقوى وأوضح في مدلول الحديث ، ولا يمنع أن يكون الحديث يجمع هذه المعاني كلها ؛ فيكون قوله لا تغضب .. أي ابتعد عن الأسباب التي تسوقك إلى الغضب ، ويكون أيضاً المراد : تحلى بالأخلاق التي تعينك على احتمال الغضب ، ويكون أيضاً المراد : لا تنساق مع دواعي الغضب ؛ فهذه معاني ثلاثة لا يمنع أن يكون الحديث يحتملها ويشتمل عليها .

وقال أيضاً [وقال ابن التين جمع صلى الله عليه وسلم في قوله " لا تغضب " خير الدنيا والآخرة ؛ لأن الغضب يؤول إلى التقاطع ومنع الرفق وربما آل إلى أن يؤذى المغضوب عليه فينتقص ذلك من الدين] .

الشرح..

هذه الكلمة فيها أن النبي عليه الصلاة والسلام جمع بهذه الكلمة خير الدنيا والآخرة ، وبين رحمه الله تعالى أن الغضب يؤول إلى التقاطع ومنع الرفق ؛ لأنه إذا أصبح الناس يتعاملون بموجب داع الغضب ؛ هذا يُذهب في المجتمعات الرفق واللين والحلم والأناة ويصبح الذي يعم في المجتمعات التقاطع والتدابير والتعادي ، وكم من أواصر تقطعت وأرحام تقطعت بسبب الغضب ، بل أحياناً يغضب أب من أخيه ويتعاديان بسبب ذلك الغضب ، وينسحب التعادي على الذرية وتجد ذريتهم في تعادٍ مستمر وكان سببه غضب....

[ثانياً : مدح الله الكاظمين للغيظ والعافين عن الناس ، وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه "ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب" رواه البخاري

الشرح..

جاء في القرآن قول الله سبحانه وتعالى ﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ﴾ ، مدحهم الله بهذه المدحة كظم الغيظ ، ومن كظم الغيظ ؛ أن غضب الإنسان يكظمه ويمنعه من الخروج لا قولاً ولا فعلاً ؛ بمعنى أن يملك نفسه حينما يغضب ؛ وهذا هو معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم "ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب" .

[وعلى المرء إذا غضب أن يكظم غيظه وأن يستعيز بالله من الشيطان الرجيم كما في البخاري] .

الشرح..

أي حديث سليمان بن سرد في قصة الرجلين الذين استبا عند النبي صلى الله عليه وسلم وقال صلى الله عليه وسلم في الحديث " إني أعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم " .

[وأن يجلس أو يضطجع كما في سنن أبي داود عن أبي ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع " وهو حديث صحيح رجاله رجال مسلم

الشرح..

ويضاف إلى هذا الحديث الذي مرّ وهو قوله صلى الله عليه وسلم " إذا غضب أحدكم فليسكت " ، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله تعالى .
وبمجموع ما مرّ معنا يتبين العلاج النافع الذي ينبغي أن يُباشره الإنسان وأن يفعله عند الغضب .

والوضوء عند الغضب جاء في حديث ضعيف لم يثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم ، لكن هذه الأمور الثلاثة كافية - التعوذ بالله من الشيطان والجلوس والسكوت - .

وإن لم يتعوذ الإنسان من الشيطان فالشيطان ينازعه في الجلوس وفي الاضطجاع - يقول للإنسان وينازعه ويقول له الرجل يغضبك ويفعل ويفعل ؛ ثم تنام وتضطجع عنده ؟ أين رجولتك ؟ ويثيره.. ، لكن إن قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ؛ ابتعد عنك الشيطان وتهياً له بإذن الله السكون والطمأنينة .

[مما يستفاد من الحديث :

الأول حرص الصحابة على الخير لطلب هذا الصحابي الوصية من النبي صلى الله عليه وسلم .

ثانياً : التحذير من أسباب الغضب والآثار المترتبة عليه .

ثالثاً : تكرار الوصية بالنهي عن الغضب دال على أهمية تلك الوصية .

سبحانك اللهم و بحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، اللهم صلّ وسلّم على عبدك
ورسولك نبينا محمد و آله وصحبه

..*

الدرس السابع عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .
أما بعد ..

الحديث السابع عشر

عن أبي يعلى شداد بن أوس الداري رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " إن الله كتب الإحسان
على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليجد أحدكم شفرته
وليُرح ذبيحته " رواه مسلم
الشرح..

قوله عليه الصلاة والسلام في صدر هذا الحديث " إن الله كتب الإحسان على كل شيء " :
هذا أصل جامع وقاعدة من قواعد هذا الدين الدالة على عظمته وجماله وحسنه ؛ فالله عز
وجل مما كتبه على عباده وأمرهم به وشرعهم له الإحسان ؛ فالله جل وعلا كتب الإحسان
على كل شيء .

الكتابة هنا المراد بها الكتابة الشرعية ، فمعنى كتب أي شرع وأذن لعباده ديناً وشرعاً . أمرهم
بالإحسان على كل شيء ؛ أي أن الأمر بالإحسان في كل شيء وفي كل المجالات و
الأبواب . فالكتابة هنا كتابة شرعية ؛ منها قول الله عز وجل ﴿ يا أيها الذين ءامنوا كتب عليكم
الصيام ﴾ ، وقوله ﴿ كتب عليكم القتال ﴾ ، ونحوها من الآيات ؛ لأن الكتابة في النصوص تارة
يُراد به الكتابة الكونية القدريّة مثل قوله جل وعلا ﴿ إن ذلك في كتاب ﴾ وقوله ﴿ كتب الله
لأغلبن أنا ورسلي ﴾ ، وتارة يراد الكتابة الشرعية الدينية كما في هذا الحديث ؛ فمعنى قوله إن
الله كتب الإحسان أي كتابة شرعية ؛ بمعنى أنه شرعه لعباده ، وأمر عباده به .
والإحسان أمرٌ مطلوب من المسلم في كل باب وفي كل مجال ؛ ولهذا قال " الإحسان على
كل شيء " .

فيجب على المسلم أن يكون متصفاً بالإحسان :

الإحسان في فعل الواجبات والقيام بالطاعات كما أمره الله سبحانه وتعالى بها .

والإحسان بالبعد عن النواهي والمحرمات .

والإحسان بالصبر على أقدار الله تعالى .

والإحسان إلى عباد الله بحسن التعامل وطيب المعاشرة ، بل الإحسان إلى بهيمة الأنعام كما مثل النبي ﷺ للإحسان بذلك ؛ لأنه ذكر في مقدمة الحديث قاعدة في الباب وهو أن الله كتب الإحسان على كل شيء .. ثم مثل عليه الصلاة والسلام بنوع من أنواع الإحسان الذي هو مطلوب من المسلم ؛ ولهذا قال " وإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته " ؛ هذا مثال للقاعدة الكلية ، فالقاعدة الكلية الجامعة في هذا الباب " أن الله أمر بالإحسان على كل شيء " وأن الإحسان مطلوب من المسلم في كل باب ومجال يحب الله جل وعلا الإحسان وهو تعالى مع المحسنين ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ .

وقد مر في حديث جبريل أن رتبة الإحسان أعلى الرتب في الدين ؛ قال عليه الصلاة والسلام عن الإحسان " أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك " ، وقال أيضاً " من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه " ؛ وهذا فيه أن الإحسان مطلوب منك في إسلامك وفي إيمانك وفي عبادتك لله وفي تعاملك مع الناس وفي الأخلاق الفاضلة والآداب الكاملة ؛ مطلوب منك في كل باب .

وذكر النبي ﷺ مثالا من أمثلة الإحسان المطلوبة وهو الإحسان إلى بهيمة الأنعام فقال " فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة " : القتلة والذبحة المراد بهما الهيئة - هيئة الذبح وهيئة القتل - ، والفرق بين القتل والذبح أن الذبح فيما يؤكل لحمه ، والقتل فيما سوى ذلك مما يُراد التخلص منه مثل لو أراد الإنسان الخلاص من ثعبان أو عقرب أو كلب مؤذ أو غير ذلك بالقتل مما يُباح قتله مثل قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث : " خمسٌ يُقتلن في الحل والحرم " ؛ فلا يقتلها إلا قتلة مريجة .

ولاحظ قوله عليه الصلاة والسلام " فأحسنوا " في الذبح والقتل ؛ فلم يحدد النبي ﷺ نوعا من الاحسان بل أطلق ؛ فالإطلاق هنا يفيد العموم ؛ فمعنى ذلك افعل من الإحسان ما استطعت إلى ذلك سبيلاً . فمثلاً لو أردت أن تقتل ثعباناً ، وأمامك عدة خيارات في طريقة

قتله ؛ فالحديث يعطيك قاعدة في الباب بأن تختار الأرفق والأحسن - إذا قتلتم فأحسنوا القتلة - .

كذلك في الذبح يحسن في الذبح ويجتهد في إراحة الذبيحة بدءاً من رحمة في قلبه تجاه هذا الذي يذبحه ثم بما تقتضيه هذه الرحمة من لطف ورق وإحسان . جاء في الأدب المفرد أن أحد الصحابة رضي الله عنهم قال للنبي عليه الصلاة والسلام يا رسول الله الشاة أذبحها وأرحمها قال عليه الصلاة والسلام " والشاة إذا رحمها رحمك الله " ؛ ولهذا أول ما يكون في الإحسان الرحمة ؛ رحمة تكون بقلب هذا الإنسان تجاه هذه البهيمة التي سخرها الله لك وأنعم عليك بها وجعلها لك طعاماً ورزقاً ، وسخر لك ذبحها ويسر لك أن تأكل منها وتطعم .. فهذه نعمة . فمطلوب من العبد أن يرحم - ومن لا يرحم لا يُرحم - ، ويذبحها وهو يرحمها ؛ فلا تفارك الرحمة مع الذبح مثلما ما قال هذا الصحابي " أذبحها وأرحمها " ؛ ولهذا الرحيم إذا ذبح تختلف صفة ذبحه عن الغليظ ؛ فالغليظ يباشر الذبح بشدة وغلظة بينما الرحيم تجده رفيقاً بالبهيمة يتلطف بها ويطبق هذه السنن .

" وليحد أحدكم شفرته " : يحد السكينة والآلة التي سيدبح بها بمبرد أو بحجر حتى تكون حادة تقطع بسرعة وتنتهي الدم بسرعة ولا تتأذى منها البهيمة وقت الذبح . وأيضاً جاء النهي من أن يحد شفرته أمام الشاة بل يحد شفرته بعيداً عن نظرها ، ويضعها على الأرض - يضجعها برفق ويمر السكين بسرعة ويريح الذبيحة ؛ " وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته " .

وهذا مثال في الإحسان وإلا صدر الحديث فيه قاعدة كلية في الباب وهي الإحسان على كل شيء كتبه الله .

كذلك في قتال القصاص وإقامة الحدود - التعزيرات - ؛ فعندما يُقتل أيضاً يُحسن في قتله ؛ ولهذا جاء القتل بالسيف لأن السيف يريح المقتول - في لحظة يفارق رأسه جسده - وهي أريح قتله ، لكن إذا كان القاتل الذي قُتل قصاصاً كان قتله فيه تمثيل بالمقتول ؛ فالجزاء يكون وفاقاً ؛ مثل اليهودي الذي رضح رأس المرأة بين حجرين ، أمر النبي عليه الصلاة والسلام أن يُقتل بهذه الصفة جزاءً وفاقاً ، ومثل الذين سمنوا عين الراعي وقتلوه وساقوا الإبل ؛ أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يمثل بهم نضير ما صنعوا في قصة العرانيين ؛ فأمر عليه الصلاة والسلام بذلك جزاءً وفاقاً ، والعقوبة من جنس العمل الذي قاموا به لكن يبقى الأصل وهو الإحسان .

ومر أيضاً قريباً رجم الزاني حتى الموت ؛ وهذا كما قال أهل العلم من الإحسان ؛ لأن الإحسان هو موافقة الشرع ، والشرع أمر بذلك ، والزاني المحصن لما كان تلذذه بهذا الذي حرمه الله عليه شاملاً لبدنه كله ، وبدنه كله ذاق من هذه اللذة المحرمة ؛ كان قتله بهذه العقوبة .

وهذا نوع من الإحسان لأن الله سبحانه وتعالى لا يأمر إلا بالعدل والإحسان ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ ؛ فهو جل وعلا محسن ومن أسمائه المحسن يحب الإحسان وكتب الإحسان على كل شيء . فاسمه جل وعلا المحسن وصفته جل وعلا الإحسان وشرعه كله حسن وجمال ، وكل ما يأمر به جل وعلا ماضٍ على وفق الإحسان ومقتضاه ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ .

قال الشيخ عبد المحسن العباد البدر :

[الأول : قوله صلى الله عليه وسلم " إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ " :

الإحسان ضد الإساءة . كتب : بمعنى شرع وأوجب ، فالكتابة دينية شرعية ، والإحسان فيها يكون عاماً للإنسان والحيوان] .

الشرح..

قوله في صدر الحديث : كتب أي شرع وأمر وأوصى بذلك فالكتابة هنا شرعية دينية كما قدمت الكتابة تأتي في النصوص ويراد بها الكونية القدرية ويأتي بها يراد بها الشرعية الدينية والذي كتبه الله كوناً وقدرًا لا بد أن يقع والذي كتبه شرعاً وديناً قد يقع وقد لا يقع ﴿ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامَ ﴾ من الناس من يصوم ومنهم من لا يقوم بهذه الطاعة ولا يفعلها كتب على الناس أن يحسنوا ؛ فمنهم من يحسن ومنهم من يسيء .. هذي كتابة شرعية ؛ لك الذي كتبه الله كوناً وقدرًا لا بد أن يقع مثلما ما جاء في الحديث " إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ " هذي كونية قدرية ، وفي الحديث الآخر أول ما خلق القلم قال له اكتب قال وما أكتب ؟ قال " اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة " .

والذي كتبه الله شرعاً وديناً قد يقع وقد لا يقع ؛ كتب عليكم الصيام : فمن الناس من يصوم ومنهم من لا يقوم بهذه الطاعة ولا يفعلها . كتب على الناس أن يحسنوا ؛ فمنهم من يحسن ومنهم من يسيء . .

[الثاني : ثم أمر الرسول ﷺ بإحسان القتلة والذبح وإحداذ الشفرة وإراحة الذبيحة ، وهذا مثال من أمثلة إيقاع الإحسان عند قتل الإنسان المستحق للقتل وذبح الحيوان ، وذلك بسلك أسهل الطرق التي يكون بها إزهاق النفس من غير تعذيب].

الشرح:

قوله " فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليُحد أحدكم شفرته وليُرح ذبيحته " : هذا مثال من الأمثلة المطلوبة في عموم قوله " إن الله كتب الإحسان على كل شيء " ؛ يعني من أمثلة ذلك الإحسان في القتل والإحسان في الذبح ، وهذا على سبيل التمثيل . وإلا الأمر كما في صدر الحديث الإحسان مطلوب في كل شيء وفي كل باب . والإحسان في الذبح أو الإحسان في القتل يكون بإراحة المقتول أو المذبوح وذلك بإزهاق روحه بأقرب طريق وأيسر سبيل دون تعريض له للعذاب .

[الثالث : قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم :

وهذا الحديث يدل على وجوب الإحسان في كل شيء من الأعمال لكن إحسان كل شيء بحسبه ؛ فالإحسان في الإتيان بالواجبات الظاهرة والباطنة : الإتيان بها على وجه كمال واجباتها فهذا القدر من الإحسان فيها واجب ، وأما الإحسان فيها بإكمال مستحباتها فليس بواجب ، والإحسان في ترك المحرمات الانتهاء عنها وترك ظاهرها وباطنها كما قال تعالى { وذروا ظاهر الإثم وباطنه } ؛ فهذا القدر من الإحسان فيها واجب ، وأما الإحسان في الصبر على المقدورات بأن يأتي بالصبر عليها على وجهه من غير تسخط ولا جزع ، والإحسان الواجب في معاملة الخلق ومعاشرتهم القيام بما أوجب الله من حقوق ذلك كله ، والإحسان الواجب في ولاية الخلق وسياستهم القيام بواجبات الولاية كلها ، والقدر الزائد

على الواجب في ذلك كله إحسان ليس بواجب ، والإحسان في قتل ما يجوز قتله من الناس والدواب إزهاق نفسه على أسرع الوجوه وأسهلها وأوحاها. يعني أسرعها. من غير زيادة في التعذيب فإنه إيلاام لا حاجة إليه ، وهذا النوع هو الذي ذكره النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث ، ولعله ذكره سبيل المثال أو لحاجته إلى بيانه في تلك الحال فقال " إذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة " ، والقتلة والذبحة بالكسر أي الهيئة و المعنى أحسنوا هيئة الذبح وهيئة القتل وهذا يدل على وجوب الإسراع في إزهاق النفوس التي يُباح إزهاقها على أسهل الوجوه [

الشرح..

كلام الحافظ بن رجب رحمه الله تعالى كلام عظيم في شرح قول النبي عليه الصلاة والسلام "إن الله كتب الإحسان على كل شيء" ، وبين رحمه الله تعالى أن هذه الجملة تدل على وجوب الإحسان ، والمراد بوجوبه أي القدر الواجب من الإحسان شرعاً - لأن من الإحسان ما هو مستحب ومنه ما هو واجب - ؛ فالإحسان المستحب يثاب عليه فاعله ولا يعاقب تاركه ، لكن الإحسان الواجب مفروض على الجميع ، ومن ترك الإحسان الواجب أثم وعُوقِبَ على تركه ؛ ولهذا فصل رحمه الله تعالى في هذا الباب وبين أن الإحسان في كل شيء بحسبه ؛ فذكر أولاً الإحسان في الواجبات الظاهرة والباطنة أي الأمور التي طلب الله سبحانه وتعالى من عباده فعلها على سبيل الوجوب ؛ قال : " الإتيان بها على وجه كمال واجباتها " بحيث يأتي بالواجب كما أمر - هذا الإحسان في المأمور من واجبات الدين وفرائض الإسلام - ، ما زاد على هذا القدر من الرغائب والمستحبات فإنه إحسان ولكنه إحسان مستحب وليس إحسان واجب بمعنى أن من فعله أثيب ومن لم يفعله لم يعاقب .

ثم ذكر الإحسان في ترك المحرمات ؛ قال : " وهو الانتهاء عنها وترك ظاهرها وباطنها كما قال جل وعلا {وذروا ظاهر الإثم وباطنه} " ؛ فهذا أمر واجب ؛ تجنب كل المحرمات وجميع الأمور التي نهى الله سبحانه وتعالى عباده عنها وحرّم عليهم فعلها .

وذكر الإحسان في الصبر على المقدورات إذا أصيب المرء بمصيبة في مال أو في نفس أو في ولد أو غير ذلك ؛ فعليه أن يحسن ، وإحسانه هو صبره على المصائب واحتساب ذلك عند الله جل وعلا ، وتفويض الأمر إليه سبحانه ؛ ولهذا لما ذكر الله جل وعلا أنواع المصائب في

سورة البقرة قال {وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون} فصبر الإنسان واسترجاعه وتفويضه الأمر إلى الله عندما يصاب إحسان مطلوب من العبد في باب الأمور المقدرة عليه المؤلمة له .

كذلك البعد عن الجزع والتسخط وشق الجيوب ولطم الخدود وغير ذلك من أعمال الجاهلية ؛ هذا كله من الإحسان عند المصيبة وفعل شيء من ذلك خلاف الإحسان .

فإذا الإحسان مطلوب من العبد عندما يصاب بمصيبة مطلوب منه أن يحسن ، وإحسانه يكون بصره وعدم جزعه وتسخطه، ويكون بتفويضه الأمر إلى الله وطلب الأجر والثواب منه سبحانه وتعالى، وأن يعوضه ويخلفه خيراً - اللهم أجربي في مصيبي واخلفني خيراً منها - هذا كله إحسان في هذا الباب .

وذكر الإحسان في المعاملة ، معاملة المخلوقين ومعاملة الناس ، وأن منه قدراً واجباً ومنه قدراً مستحباً ، قال " والإحسان الواجب في معاملة الخلق ومعاشرتهم القيام بما أوجب الله من حقوق ذلك كله " ؛ هذا قدر واجب ، أما ما زاد على هذا القدر الواجب فهو مستحب يثاب إن فعله ولا يعاقب على تركه .

قال " والإحسان الواجب في ولاية الخلق وسياستهم ممن ولاه الله الأمر ، هو القيام بواجبات الولاية كلها، والقدر الزائد على الواجب ذلك كله إحسان ليس بواجب " : بمعنى أن من فعله أثيب ومن لم يفعله لم يعاقب .

ثم ختم ذلك بقوله : " والإحسان في قتل ما يجوز قتله من الناس والدواب إزهاق نفسه على أسرع الوجوه وأسهلها " بأن يكون القتل سريعاً مريحاً ليس فيه تعذيب ، وأشار أن ذكر النبي عليه الصلاة والسلام لذلك لعله على سبيل المثال أو لكون الحاجة داعية ومقتضية إلى التنبيه على ذلك في هذا الباب .

[رابعاً : الإحسان في القتل مطلوب بدون تعذيب ولا تمثيل سواء كان في قتال الكفار أو القتل قصاصاً أو حداً إلا أنه عند القتل قصاصاً يُفعل بالقاتل كما فعل بالمقتول كما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم في قتل اليهودي الذي رضَّ رأس جارية بين حجرين " رواه البخاري ومسلم ، وكما في " قصة العرانيين " رواه البخاري ومسلم ، وأما ما جاء في حد الزاني المحصن وهو الرجم

فهو إما مستثنى من عموم هذا الحديث أو محمول على أن الإحسان يكون في موافقة الشرع ورجم المحصن منه] .

الشرح..

مما يدل عليه هذا الحديث في هذا المثال الذي ذكره عليه الصلاة والسلام أن الإحسان في القتل أمرٌ مطلوب بحيث من أذن له شرعاً في قتله قتلاً لا تعذيب فيه لعموم قوله " وإذا قتلتم فأحسنوا القتلة " ، فالأصل أن من أذن في قتله شرعاً يقتل قتلاً مريحاً لا تعذيب معه ، لكن إذا كان القاتل الذي أريد قتله قصاصاً حصل منه تمثيل في القتل وحصل منه تنكيل ؛ فإنه يجازى بالمثل مثل قصة اليهودي .

وأما ما يتعلق برجم الزاني فذكر أهل العلم حكمة في ذلك وهي أن بدنه الذي حصل منه تلذذ بالحرام استحق أن يُقتل على هذه الصفة ليدوق جميع البدن العذاب جزاءً له على هذه اللذة المحرمة التي ذاقها جميع بدنه .

[خامساً مما يستفاد من الحديث :

الأول : وجوب الإحسان في كل شيء .

الثاني : وجوب الإحسان عند القتل بسلوك أيسر سبيل لإزهاق النفس .

الثالث : وجوب الإحسان عند ذبح الحيوان كذلك .

الرابع : تفقد آلة الذبح قبل مباشرته لقوله صلى الله عليه وسلم " وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته " .

أيضاً أحب أن أشير إلى أمر يتعلق بما سبق وتكلمنا عنه في الحديث " لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث وذكر منهم الثيب الزاني ومّرّ هنا أيضاً عقوبة الثيب الزاني فبعض الناس يتساءل في هذا الباب .. هل له توبة ؟

من حصل منه الزنا أو حصل منه قتل أو حصل منه سرقة أو غير ذلك ؛ هل له توبة ؟
الجواب : التوبة بابها مفتوح من جميع الذنوب ، والله سبحانه وتعالى قال في سورة الزمر { قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم } ؛ فباب التوبة مفتوح ومن الذي يحول بين الإنسان وبين التوبة ، ولا يزال باب التوبة مفتوح ما لم يغرغر ؛ فإذا بدأت الروح تخرج فلا تفيده التوبة ، وما لم تطلع الشمس من مغربها

لا تفيد التوبة ، والتوبة بابٌ مفتوح ، ييسر رب العالمين يده بالليل ليتوب مسيءُ النهار وييسر يدهُ بالنهار ليتوب مسيءُ الليل ، والله عز وجل من أسماء الحسنى التواب، وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات جل وعلا .

والعبد إذا صدق مع الله في توبته وتاب توبةً نصوحاً صادقاً مع الله جل وعلا؛ قبل الله تعالى متابه وغفر ذنبه .

وجاء في الحديث عن النبي عليه الصلاة والسلام - وهو حسن بشواهد - أن دواوين الظلم يوم القيامة ثلاثة :

ديوان لا يغفره الله ، وديوان لا يتركه الله ، وديوان لا يعبأ الله به؛ أما الديوان الذي لا يغفره الله فهو ديوان الشرك فمن مات مشركاً فهذا لا مطمع له في المغفرة والرحمة البتة {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء} ؛ فمن مات على الشرك بالله فلا مطمع له في مغفرة الله ورحمته؛ بل ليس له إلا النار خالداً مخلداً فيها أبداً.

الديوان الثاني : ظلم العباد بعضهم لبعض ؛ وهذا كما في الحديث " لا يتركه الله " ؛ لأن الحقوق والمظالم تؤدي يوم القيامة ، ويؤخذ للمظلوم من ظالمه ؛ كما قال عليه الصلاة والسلام " لتؤدَّن الحقوق يوم القيامة " ، وجاء في الحديث القدسي أن الله جل وعلا يوم القيامة يقول :

" أنا الملك أنا الديان لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولا لأحد من أهل النار عليه مظلمة حتى أقتصها منه ولا ينبغي لأحد من أهل النار ولأحد من أهل الجنة عليه مظلمة حتى أقتصها منه " ، يوم القيامة يوم القصاص - تقتص المظالم - ويؤخذ للمظلوم من ظالمه ، وليس ثمة يوم القيامة إلا الحسنات ؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام " أتدرون من المفلس؟ قالوا المفلس من لا درهم له ولا دينار، قال المفلس الذي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وحج وصدقة ويأتي وقد شتم هذا وضرب هذا وأخذ مال هذا وسفك دم هذا فيؤخذ من حسناته فيعطون فإن فنيته حسناته أخذ من سيئاتهم فطرحته عليه وطرح في النار " ؛ ولهذا قال أهل العلم : التوبة من المظالم التي تتعلق بالناس لا بد من تحللهم منها أو إعادة الحقوق إلى أهلها أو أن يطلب منه العفو والسماح ؛ لأن هذا حق للإنسان ؛ فإذا كان عدوائه أخذ مالٍ بغير حق أو اغتصاب أرضٍ أو نحو ذلك؛ لا بد من إعادة الحقوق إلى أهلها ؛ لأنه إن لم يعدها في الدنيا اقتضت منه يوم القيامة حسنات ، ويوم القيامة ليس هناك دراهم ولا دنانير ، ليس هناك إلا الحسنات والسيئات .

والديوان الثالث : ديوان لا يعبأ الله به ؛ وهي الذنوب التي دون ذلك .

وعلى كل حال باب التوبة مفتوح ومهيأ مادامت روح العبد في جسده ، وباب التوبة مفتوح سواءً من حقوق الناس أو الحقوق التي تتعلق برب العالمين سبحانه وتعالى ، يتخلص من الحقوق ويتخلص من المظالم ، وفي بحقوق الرب سبحانه وتعالى كما أمر ، ويقوم بعبادته كما شرع ، ويتعد عن المحرمات ، ويحسن حاله بينه وبين الله تبارك وتعالى . ولو كان هذا الإحسان في لحظة أخيرة من حياته وتاب إلى الله توبة نصوحاً وصلحت حاله ؛ يغفر الله ذنوبه في حياته كلها ؛ كما في جاء في حديث يُرفع " أحسن فيما بقي يغفر لك ما قد مضى فإنك إن أسأت فيما بقي أخذت فيما بقي وفيما مضى " ؛ فالإنسان إذا أحسن فيما بقي من حياته ؛ غفر الله ما قد مضى ولو كان شطراً طويلاً وعمراً مديداً من حياته والعبرة بالخواتيم ، قد مرّ معنا قول النبي صلى الله عليه وسلم " وإن أحدكم لعمل بعمل أهل النار حتى لا يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها " .

فالواجب على العبد أن يستقبل ما بقي من عمره بالإحسان والصدق مع الله والتوبة النصوح ولا يدري هذا العبد متى يودع هذه الحياة ومتى يفارقها " إذا أصبحت فلا تنتظر المساء وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح " .

الحديث الثامن عشر

عن أبي ذر جندب بن جنادة وأبي عبد الرحمن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن " رواه الترمذي وقال حديث حسن وفي بعض النسخ حسن صحيح

الشرح ..

هذا الحديث يرويه صحابييان عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذا الحديث يتكون من جمل ثلاث وهو من جوامع كلم نبينا عليه الصلاة والسلام ومن جوامع الوصايا ؛ يتكون من جمل ثلاثة :

الأولى : اتق الله حيثما كنت

الثانية : أتبع السيئة الحسنة تمحها

الثالثة : خالق الناس بخلق حسن .

وقد جمع هذا الحديث بجملة الثلاث أصول المعاملة :

أولاً : المعاملة بينك وبين الناس ، وكيف تكون ، وعلى أي أساس تُبنى .

ثانياً : معاملتك لنفسك ؛ على أي أصل وأساس تُبنى .

ثالثاً : معاملتك مع الناس ؛ على أي أصل وعلى أي أساس تُبنى .

فجمع عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث أصول المعاملة - المعاملة مع الله والمعاملة مع النفس والمعاملة مع الخلق - وكل جملة من جمل هذا الحديث فيها بيان لأحد هذه الأصول الثلاثة .

الجملة الأولى : قال : " اتق الله حيث ما كنت " ؛ فالأصل الذي تُبنى عليه المعاملة مع الله هي تقوى الله جل وعلا ؛ وتقواه سبحانه وتعالى هي وصيته جل وعلا للأولين والآخرين من خلقه { ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله } ،

وهي وصية النبي صلى الله عليه وسلم لأئمة ، وهي وصية السلف الصالح فيما بينهم ، وهي أعظم الوصايا وأجلها ، وفي القرآن الكريم من ذكر التقوى وبيان مكانتها وعظيم ثوابها وآثارها على المتقين في الدنيا والآخرة آيات كثيرة جداً تدل على مكانة التقوى وعظيم شأنها

وتقوى الله جل وعلا هي أن تجعل بينك وبين ما تخشاه من عقاب الله وسخطه وقاية تقيك ؛ لأن الأصل في الواقي لغةً هو الشيء الذي يُتقى به ، هو الأمر الذي يستعمله الإنسان حامياً له من الشيء الذي يخشاه ؛ فالذي يخشى البرد الشديد يتقيه بالملابس الشتوية والذي يخشى حرارة الشمس يتقيها بالشمسية .. وهكذا ، والذي يخشى من سخط الله وعقابه ؛ بأي شيء يتقي ذلك ؟ هذه حقيقة التقوى ؛ أن تجعل بينك وبين ما تخشاه من سخط الله وعقابه وقاية تقيك . سأل رجلٌ أبا هريرة عن التقوى ؛ قال " هل سلكت طريقاً ذا شوك؟ قال نعم ؛ قال ما صنعت ؟ قال : إما أن أتجاوزهُ أو أن أقصر دونه أو أن أميل عنه ؛ قال : هذه التقوى " .

فتقوى الله أن تجعل بينك وبين ما تخشاه من عقاب الله وسخطه وقايةً تقيك وذلك بفعل المأمور وترك المحذور ؛ ولهذا قال أهل العلم " من أحسن ما عُرِفَتْ به التقوى قولُ طريقِ بن حبيب رحمه الله تعالى - وهو من علماء التابعين - ؛ قال : " تقوى الله العمل بطاعة الله على نور من الله رجاء ثواب الله وترك معصية الله على نور من الله خيفة عذاب الله " ؛ وهذا التعريف أثني عليه جماعة من أهل العلم منهم شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وابن رجب في جامع العلوم والحكم والذهبي في السير في ترجمة طلق .. وآخرين من أهل العلم ، وعدُّوه من أجمع ما قيل في تعريف التقوى .

فبين رحمه الله تعالى أن حقيقة التقوى هي :

أولاً : هي الفعل للمأمور والترك للمحضور ؛ أن تفعل المأمور وتترك المحضور .
وثانياً : أن تكون على علم بالأمرين ؛ ولهذا قال : على نور - في المأمور وفي المحضور - ، والنور المراد به العلم ؛ أن تكون على علم بالأمرين ؛ بالمأمور أن تفعله وفق ما أمرت به ، وأن تكون على علم بالمحضور لتتركه وتتقيه ؛ لأن من لا يعرف المحذور كيف يتقيه ؟ وكما قيل : كيف يتقي من لا يدري ما يتقي .

فإذاً لا بد من النور وهو العلم بالمأمور ليفعل وبالمحذور ليترك ؛ ولهذا كتب جماعة من أهل العلم في الكبائر كتباً مفردة منهم الإمام الذهبي ألف كتاباً اسمه الكبائر ؛ والكتاب من أوله إلى آخره عدُّ للكبائر - الكبيرة الأولى، الثانية، الثالثة، .. إلى آخره - ، والمسلم مطلوب منه أن يعرف الكبائر ليتركها ويتعد عنها ولكي لا يكون من أهلها ؛ ولهذا كتاب الكبائر للذهبي أو غيره من كتب أهل العلم في هذا الباب ؛ يُنصح المسلم أن يقرأه في حياته ولو مرة حتى يكون منها على حذر، ويكون منها على بعد ، يتعد عنها ويحذر منها .

والأمر الثالث في التعريف : قال في المأمور رجاء ثواب الله ، وفي المحذور خيفة عذاب الله ؛ وهذا فيه أن المسلم يجب أن يعيش بين الرجاء والخوف ، يفعل ما أمر به ويحْتَنِب ما نُهي عنه رجاءً للثواب ، وخوفاً من العقاب ، والرجاء والخوف مطلوب في البابين ، في الأوامر والنواهي ؛ فمطلوب منك أن تفعل المأمور راجياً خائفاً ، ومطلوب منك أن تجتنب النواهي راجياً خائفاً ؛ راجياً ثواب الله لمن ترك ما نُهي الله عنه، وخائفاً من عذاب الله تبارك وتعالى وأن يعذبك عليه إن فعلته ؛ فهذا تعريف جامع عرف به طلق بن حبيب للتقوى قال : " تقوى الله العمل بطاعة الله على نور من الله رجاء ثواب الله وترك معصية الله على نور من الله خيفة عذاب الله " .

ولما أوصى عليه الصلاة والسلام بالتقوى هنا قال : " اتق الله حيثما كنت " ؛ وهذا أصلٌ عظيم جامع في هذا الباب ، إتق الله حيثما كنت أي في الغيب والشهادة والسر والعلانية في الخلوة وغيرها .

إذا خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت ولكن قل عليّ رقيب

فلتكن متقياً لله عز وجل في الخلوة ، وأيضاً في الجلوة وفي الظهور ؛ تكون دائماً متقياً لله عز وجل ، في بلدك وفي غير بلدك ، فأحياناً الإنسان إذا كان في غير بلده قد تنقص عنده التقوى وتضعف ويقل عنده أيضاً جوانب من الأدب ؛ ولهذا يقولون : يا غريب كن أديب ؛ لأن الغريب في البلد يكون ما أحد يعرفه ؛ ولهذا يدع بعض الآداب بحجة أنه لا أحد يعرفه .

فالمسلم مطلوب منه أن يكون على التقوى أينما كان ، والنبي عليه الصلاة والسلام كما في طرق بعض هذا الحديث أوصى معاذاً عندما بعثه إلى اليمن وأبا ذر ؛ قال " اتق الله حيثما كنت " في المدينة أو في اليمن أو في أي بلد تذهب إليه ، تكون معك تقوى الله سبحانه وتعالى ، في سفرك براً وبحراً وفي الطائرة ؛ أينما تكون؛ تكون متقياً لله عز وجل . وتعجب عجباً عظيماً من أناس يكرمهم الله عز وجل بالانتقال من بلد إلى بلد بالطائرات ويكون بينه وبين الأرض مفاز ، والله عز وجل هو الذي أكرمه بهذه النعمة بالحمل بهذه الطائرة ؛ ثم تراه في الطائرة يعصي الله سبحانه وتعالى ولا يبالي ، ويرتكب في الطائرة ولا يبالي ، أو يرتكبها في البحر وقد أكرمه الله عز وجل بهذه الوسيلة من النقل .

فالواجب على المسلم أن يتقي الله في سفره وحله وترحاله ، جواً أو براً أو بحراً ، في بلده أو في أي بلد يكون ؛ اتق الله حيثما تكون لأنك أينما تكون فربُّ العالمين يراك ولا تخفى عليه منك خافية ، يعلم السر وأخفى ..

والعبد إذا استحضر تقوى الله سبحانه وتعالى أينما كان تحقق له بإذن الله البعد عن الذنوب وتجنب الآثام ، إذا حضرت التقوى في قلبه بعدت المعصية باذن الله ..

ولعلنا نذكر في هذا المقام قصة المرأة التي ذكر النبي صلى الله عليه وسلم خبرها مع الثلاثة الذي أووا إلى الغار وكان أحد هؤلاء الثلاثة صاحب مال ، وكانت له ابنة عم جميلة ، وكانت تأتيه تطلب منه حاجتها لفقرها ؛ فمنع من إعطائها إلا أن تمكنه من نفسها ؛ فأبت ، ولما اشتدت حاجتها واشتدت ضرورتها أتت إليه ومكنته من نفسها ؛ حتى إذا جلس بين شعبها الأربع . كما قال عليه الصلاة والسلام . ، هيات له تماماً ؛ فقالت له وهي في هذه الحال : إتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه ؛ فقام الرجل .

فتقوى الله عز وجل إذا حضرت فعلاً إلى القلب مهما كان الدافع والباعث فالتقوى بإذن الله عز وجل ينجو بها العبد من كل إثم وخطيئة ؛ ولهذا مطلوب من المسلم أن يكون دائماً مستصحباً لتقوى الله أينما كان ، ولا يزال العبد بخير ما دام محافظاً على تقوى الله عز وجل في كل مكان، ولهذا هذه وصية عظيمة تُبنى عليها أصول المعاملة مع الله وهي تقوى الله - هذا الأصل الأول.

الأصل الثاني ؛ قال : " وأتبع السيئة الحسنة تمحها " : هذا في معاملتك مع نفسك في هذه الحياة بتربيتها على الفضائل وتأديبها على الكمالات وأخذها وزمها بزمام الخير والفضيلة أن تكون بهذه الصفة ، أنت من بني آدم ، وبني آدم خطاء ، كما قال عليه الصلاة والسلام " كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون " ، أنت عرضة للخطأ والزلل والهفوة والتقصير ؛ لكن مَرّن نفسك ووطّدها وجاهدها على هذا الأساس الذي بيّنه صلى الله عليه وسلم بقوله " أتبع السيئة الحسنة تمحها " بمعنى أن تُقَبِّل نفسك على الحسنات ، وأن تجاهد نفسك على الإقبال من الطاعات ، وتحاول أن تستكثر منها ماؤمت في هذه الحياة ، وكل ما تهيأت لك فرصة لتقدم حسنة افعليها تفيدك ، وينفعك الله بها نفعاً عظيماً ، وربما كانت الحسنة صغيرة في عينك وتكون هي سبباً في دخولك الجنة ، قد تفعلها ولا تلقي لها بالاً وتكون سبباً لغفران ذنوبك ودخولك الجنة ، ذكر عليه الصلاة والسلام قصة امرأة بغيّ اشتد بها العطش فوجدت بئراً ونزلت وشربت حتى ذهب منها العطش ثم خرجت ورأت كلباً اشتد به العطش وكان يمص الثرى من شدة عطشه ؛ فوقع في قلبها رحمة لهذا الكلب ، ونزلت البئر ، ولم يكن معها إلا خفها ؛ فملئته ماءً وأمسكته بفمها ، وعرضت نفسها للخطر ، وصعدت وسقت الكلب ؛ فغفر الله لها .

فغفران الله سبحانه وتعالى لهذه المرأة راجع لشدة الإخلاص ؛ لأنها قامت بهذا العمل لا تبتغي به إلا وجه الله ، مخلصاً به ؛ ولهذا قليل العمل مع الإخلاص يعظم عند الله سبحانه وتعالى ، هذه المرأة لما قام في قلبها من الصدق والإخلاص لله تبارك وتعالى وهذه الرحمة العظيمة التي قامت في قلبها لهذا الكلب ؛ رحمها الله وغفر لها ، جاء في صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " مر رجل بغصن شجرة فيه شوك فقال والله لا أدع هذا في طريق المسلمين فيؤذيهم فنحاه فشكر الله عمله فادخله الجنة " ، وجاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " إذا تصدق أحدكم بعدل تمرة بكسب طيب أخذها الله يمينه ورباها له كما يربي أحدكم فلولة أو فسيلة حتى يوم القيامة مثل الجبل " .

لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق ، فأبواب الإحسان كثيرة أمامك ، وممرٌ معنا القاعدة في الإحسان في كل شيء ؛ فاجتهد أن تكون محسناً ، حريصاً على الحسنات ، مجتهداً في فعل الطاعات والقربات ، جاداً في النوافل والمستحبات ، مجتهداً في الإحسان إلى الناس ؛ فهذه الحسنات ينفعك الله سبحانه وتعالى بها نفعاً عظيماً ؛ لأنك بشر وتخطئ وعرضة للخطأ وربما تقع في ذنوب وزلات ؛ فأكثر من الحسنات .

قال " وأتبع السيئة الحسنة تمحها " : وهذا نضير قول الله سبحانه وتعالى {إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين} ، فالحسنة تُذهب السيئة ، والسيئة لا تخلص إلا أن تكون كبيرة من الكبائر أو تكون دون ذلك ؛ فإن كانت كبيرة فلا بد في تكفيرها من حسنة التوبة ، والتوبة حسنة عظيمة تجب ما قبلها ، ومن تاب تاب الله عليه ، والتوبة تخدم ما كان قبلها ، من تاب صادقاً من أي ذنب تاب الله عليه وغفر له ذنبه .

فالكبائر لا بد فيها من توبة قال تعالى { إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم } ، قال عليه الصلاة والسلام " الصلوات الخمس ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهما ما اجتنبت الكبائر " ؛ الصلوات الخمس هي أفضل الحسنات بعد التوحيد ، والصيام ركن من أركان الإسلام ومع ذلك قال عليه الصلاة والسلام " ما اجتنبت الكبائر " ،

فالكبيرة تكفرها حسنة التوبة ، أتبع السيئة بالحسنة تمحها إن كان الذي وقع فيها من السيئات كبيرة فليتب إلى الله عز وجل ، وتوبته هذه حسنة عظيمة ماحية لذنبه ، وإن كانت الذنوب من الصغائر ومن اللمم ؛ فهذه تكفرها الصلوات المكتوبة ويكفرها صيام رمضان . من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه ، من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه ، الوضوء يحط الخطايا ، الصلوات .. ذكر الله .. أنواع العبادات .. كل ذلك يحط الخطايا ؛ فيجتهد الإنسان بأن يكثر من الحسنات بأنواعها ، وكل ما تنهيا لك فرصة ابذلها ينفعك الله سبحانه وتعالى بها هذا معنى قوله " أتبع السيئة الحسنة تمحها " .

ثم الأمر الثالث والأصل الثالث ؛ قال : " وخالق الناس بخلق حسن " ؛ فوجه عليه الصلاة والسلام وأرشد إلى معاملة الناس بالأخلاق الحسنة ، والخلق الحسن هو الخلق الذي كان عليه سيد ولد عليه الصلاة والسلام ؛ قال تعالى {وإنك لعلی خلق عظیم} ؛ فالخلق الحسن هو خلقه صلوات الله وسلامه عليه ، والأدب الكامل هو أدبه ؛ ولهذا إذا أراد الإنسان أن يعرف كوامل الآداب وجوامع الأخلاق وحسن المعاملات فلينظر إلى هديه وسيرته وسنته صلوات الله وسلامه عليه ؛ فأدبه أكمل الأدب وخلقه أكمل الخلق في كل أبواب المعاملات برمتها ، وإنك لتعجب من بعض المسلمين إذا أراد أن يتحدث عن الأخلاق والآداب اتجه نحو الغرب الكافر ينقل ؛ قال العالم الفلاني كذا ، وقال البروفيسور الفلاني كذا .. وكأنه ليس بين يديه كتابٌ يتلى ، كتاب الله تعالى مشتمل على أكمل الآداب وأعظمها ، وكأنه ليس له قدوة صلوات الله وسلامه عليه بأتم الآداب وأكملها حتى إن

بعض المنتسبين إلى لإسلام يكتب في الآداب ولا ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا شيئاً لمماً يسيراً جداً ، وأكثر نقله عن الغرب ؛ فهذه من أعجب العجائب وأغرب الأمور فالأدب أدبه والخلق خلقه صلى الله عليه وسلم ولما سُئلت عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قالت " كان خلقه القرآن".

والمسلم مطلوب منه أن يخالق الناس بخلق حسن . الناس لم يخص . ؛ وهذا فيه أن التعامل بالخلق الحسن مطلوب مع الأبوين ، مع القرابة ، مع الأهل ، مع الأولاد ، مع الجيران ، مع عموم المسلمين ، أيضاً مع الكفار ؛ قد قال الله جل وعلا { لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين } ، فذكر جل وعلا ذلك فيما يتعلق بالكافر ، والنبي عليه الصلاة والسلام عامل الكفار معاملة حسنة كانت سبباً لهداية كثير منهم ودخولهم في هذا الدين ، وكان يأتي الرجل وليس على وجه الأرض أبغض إليه من الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ فما أن يرى خلقه الكريم وأدبه الرفيع إلا ويتحول من ساعته وليس على وجه الأرض أحب إليه منه عليه الصلاة والسلام ؛ وهذا معنى قوله { فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك } ، فالخلق الحسن مطلوب من المسلم أن يبذله ، وأن يجتهد ما استطاع في الإحسان إلى الناس ، وأحق الناس بالخلق الحسن والأدب الكريم الأبوان ؛ ولهذا من جميل صنيع الإمام البخاري رحمه الله تعالى في كتابه الأدب المفرد أول ما بدأ في باب بر الوالدين ؛ وهذه لفظة جميلة جداً كأنه يقول للقارئ : إقرأ الآداب الموجودة في الكتاب كلها وانتبه فإن أحق الناس به وأولاهم بها الأبوان ، وأول ما أورد قول النبي عليه الصلاة والسلام " من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال أمك ، قال ثم من ؟ قال أمك ، قال ثم من ؟ قال أمك ، قال ثم من ؟ قال أبوك " . وتجد بعض الناس ربما يحسن أن يتلطف من الزملاء لكن إذا جلس مع أمه لا يحسن أن يتأدب أو أن يعاملها بالأخلاق الفاضلة .

قال وخالق الناس بخلق حسن : وهذا أصل في هذا الباب ، وكل من الناس يُعامل بما يقتضيه المقام ، فالأدب مطلوب مع الجميع ، لكن الأدب مع الأبوين نوع ، الأدب مع الجيران نوع ، الأدب في البيع والشراء نوع ، الأدب في التعلم والتعليم نوع ، وهكذا ؛ ولهذا باب الآداب والأخلاق بابٌ واسع ورحب ورفيع ومن جمال هذه الشريعة وحسنها ، وقد قال عليه الصلاة والسلام " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " ، وجاء عنه في هذا المعنى أحاديث كثيرة جداً تدل على مكانة الخلق وعظيم ثوابه ، بل سُئل عليه الصلاة والسلام عن أعظم ما يدخل به الناس الجنة فقال " تقوى الله وحسن الخلق " ، والحديث - حديث معاذ وأبي ذر - جمع الخصلتين .

وحسن الخلق المطلوب من المسلم ضابطه : أن تأتي للناس الشيء الذي تحب أن يؤتى إليك وأن تعاملهم بحسب ما تحب أن يعاملوك به ؛ وهذا افترضه في كل باب ؛ فمثلاً : إن أردت أن تعامل أمك بالخلق الحسن وتساءلت بينك وبين نفسك : ما الخلق الحسن الذي ينبغي أن أعامل به الأم ؟ فقدرد في نفسك أنك أنت الأم ، وأنت الذي بذلت كذا وكذا ، واذكر أنواع الإحسان التي حصلت منها لك ؛ ماذا تريد أن يعاملك ابنك ؟ قدّر ذلك بنفسك ؛ فالذي تريده لنفسك في هذا المقام ابذله لوالدتك ؛ أن تأتي للناس الشيء الذي تحب أن يؤتى إليك..

هكذا أيضاً التعامل مع الجيران .. مع المعلمين .. مع الإخوان .. مع الأصدقاء .. إلى آخره ؛ فالخلق الحسن في كل باب أن تأتي للشيء الذي تحب أن يؤتى إليك ، وهذا أحسن ضابط في هذا الباب ؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام " من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر وليأت إلى الناس الشيء الذي يحب أن يؤتى إليه " ، وهذا نصير قوله عليه الصلاة والسلام لما سئل عن أعظم ما يدخل به الإنسان الجنة قال " تقوى الله وحسن الخلق " ، وينبغي على العبد في هذا الباب وفي كل باب من أبواب الدين أن يطلب العون من الله ؛ فالتوفيق بيده والهداية بيده سبحانه وتعالى ؛ ولهذا جاءت أدعية عن النبي عليه الصلاة والسلام يحسن بالمسلم أن يعتني بها ؛ مثل قوله صلى الله عليه وسلم " اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقي " ، وهو ثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم من غير تقييده بالنظر في المرأة ، كذلك قوله عليه الصلاة والسلام " اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأهواء والأدواء " ، كذلك قوله عليه الصلاة والسلام " اللهم اهديني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت " ، أحياناً تقرأ في الكتب وبمر عليك أخلاق جميلة وبينك وبين نفسك تقول ما أجمل هذه الأخلاق وأحسنها .. ؛ ثم تجد نفسك بعد ذلك لم تلتزم بها ؛ ولهذا المطلوب من الإنسان في هذا الباب أن يحرص على ما ينفعه وأن يستعين بالله ؛ فإذا سمعت باب من أبواب الخير فاحرص على أن تكون من أهله وجاهد نفسك على فعله واطلب من الله سبحانه وتعالى أن يعينك على ذلك .

قال الشيخ عبد المحسن العباد حفظه الله :

[الأول : هذا الحديث اشتمل بحمله الثلاث على ما هو مطلوب من المسلم لربه ولنفسه
ولغيره] .

الشرح..

أي أنه اشتمل على أصول ثلاثة في التعامل ؛ ما يجب عليه لنفسه ولربه ولغيره ؛ لربه في
الجملة الأولى ، ولنفسه في الثانية ، ولغيره في الجملة الثالثة .

[ثانياً قوله : " اتق الله حيثما كنت " : أصل التقوى في اللغة أن يجعل بينه وبين الذي يخافه
وقاية تقيه منه مثل اتخاذ النعال والخفاف للوقاية لما يكون في الأرض من ضرر ، وكاتخاذ
البيوت والخيام لاتقاء حرارة الشمس ونحو ذلك .

والتقوى في الشرع أن يجعل الإنسان بينه وبين غضب الله وقاية تقيه منه وذلك بفعل
المأمورات وترك المنهيات وتصديق الأخبار وعبادة الله وفقاً للشرع لا بالبدع والمحدثات .

وتقوى الله مطلوبة في جميع الأحوال والأماكن والأزمنة ، فيتقوى الله في السر والعلن، وبروزه
للناس واستتاره عنهم كما جاء في الحديث " إتق الله حيثما كنت " [الشرح..

قوله " اتق الله حيثما كنت " : هذا فيه الأمر بتقوى الله عز وجل أينما كان العبد وفي أي محل
حل ، وفي أي منطقة نزل ، في سره وعلنه ، في غيبه وشهادته ، في بروزه واستتاره ، أينما
كان يكون متقياً لله جل وعلا ، وتقوى الله هي أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من عقابه
وسخطه وقاية تقيه ؛ وذلك بفعل المأمور وترك المحذور ، ومن تقوى الله تصديق أخباره جل
وعلا ، وعبادته سبحانه وتعالى بما شرع لا بالأهواء والبدع ، والتقرب إلى الله عز وجل بالبدع
المحدثات ليس من تقوى الله ؛ ولهذا يُردُّ على المتقرب إلى الله بالبدع عمله ، وقد مر حديث
عائشة " من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد " ؛ أي مردود على صاحبه غير مقبول منه ،
فمن التقوى أن يلزم المرء نفسه بالشرعية ، وبما جاء عنه صلى الله عليه وسلم وأن يكون حذراً من البدع
والأهواء .

[قوله صلى الله عليه وسلم " وأتبع السيئة الحسنة تمحها " : عندما يفعل المرء سيئة فإنه يتوب منها والتوبة حسنة ، وهي تحب ما قبلها من الكبائر والصغائر ، ويكون أيضاً بفعل الحسنات فإنه تمح الصغائر ، وأما الكبائر فلا يمحوها إلا التوبة منها] .

الشرح..

قوله " وأتبع السيئة الحسنة تمحها " : يدخل في عموم ذلك حسنة التوبة ، وأن العبد إذا وقع في كبيرة من الكبائر عليه أن يتوب إلى الله عز وجل منها وتوبته منها إن كانت نصوحاً فهي حسنة ماحية لذنبه وسببٌ للغفران والنجاة من عذاب الله تبارك وتعالى ، والعبد مطلوب منه أن يتوب من الذنوب كلها ؛ وفي الدعاء " اللهم اغفر لي ذنبي كله ذقّه وجله ، أوله وآخره ، سره وعلمه " ، وفي الدعاء الآخر " اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت ، وما أسرفت وما أنت أعلم به مني أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت " ، فالمسلم المطلوب منه أن يستغفر الله جل وعلا من ذنوبه كلها وأن يتوب إلى الله سبحانه وتعالى من الذنوب ، والتوبة حسنة ماحية ، وأما الاستغفار فهو دعاء ، وطلب للمغفرة ، ولا يكفي في الكبيرة مجرد الاستغفار ؛ فلا بد من التوبة النصوح {توبوا إلى الله توبةً نصوحاً}.

[رابعاً: قوله صلى الله عليه وسلم "وخالق الناس بخلق حسن" فإنه مطلوب من الإنسان أن يعامل الناس جميعاً معاملة حسنة ، فيعاملهم بمثل ما يحب أن يعاملوه به لقوله صلى الله عليه وسلم "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه" ، وقوله صلى الله عليه وسلم " فمن أن أحب أن يرحل عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه " ، فقد وصف الله نبيه صلى الله عليه وسلم بأنه على خلق عظيم ، وجاء عن عائشة رضي الله عنها أن خلقه القرآن . رواه مسلم ؛ أي أنه يقوم بتطبيق ما فيه ، وجاء في السنة أحاديث كثيرة تدل على فضل حسن الخلق ، وتحث على التخلق بالأخلاق الحسنة ، وتحذر من الأخلاق السيئة] .

الشرح..

هذه الجملة الثالثة من الحديث وهي قوله عليه الصلاة والسلام " وخالق الناس بخلق حسن " ؛ وفيها بيان أن المسلم مطلوب منه ذلك ، وأن يكون تعامله مع الناس بالأخلاق الفاضلة والآداب الطيبة الكاملة التي جاءت في كتاب الله وثبتت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخلقه عليه الصلاة والسلام هو

أكمل الخلق وأدبه هو أكمل الأدب ، ومخالقة الناس بالخلق الحسن بمعرفة ما كان صلوات الله وسلامه عليه . ن
أخلاق وآداب ، وبمجاهدة النفس على التحلي بها والتأدب بالآداب التي كان عليها صلوات الله وسلامه

عليه .

وقول النبي عليه الصلاة والسلام " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " والحديث الآخر " وليأت إلى
الناس الذي يحب أن يؤتى إليه " ؛ هذان الحديثان يضبطان للمسلم حقيقة الخلق الحسن ، وأن
حقيقة الخلق الحسن تكون بأمرين :

الأمر الأول: سلامة الصدر . لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه - .
الأمر الثاني : بحسن المعاملة - أن تأتي للناس الشيء الذي تحب أن يؤتى إليك - .
فهذه حقيقة الخلق الحسن في التعامل مع الناس .

] خامساً: مما يستفاد من الحديث :

الأول : كمال نصح الرسول صلى الله عليه وسلم لأمته ومن ذلك ما اشتمل عليه هذا الحديث من
هذه الوصايا الثلاث العظيمة الجامعة .
الثاني : الأمر بتقوى الله في جميع الأحوال والأمكنة والأزمان .
الثالث : الحث على إتباع السيئات بالحسنات .
الرابع : أن الحسنات تمحو السيئات .
الخامس : الحث على مخالقة الناس بالأخلاق الحسنة .

سبحانك اللهم و بحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، اللهم صلّ وسلّم على عبدك
ورسولك نبينا محمد و آل وصحبه

..*

الدرس الثامن عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .
أما بعد ..

الحديث التاسع عشر

عن أبي العباس عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما قال كنت خلف النبي صلى الله عليه وسلم يوماً فقال لي " يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف "

رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح

وفي رواية غير الترمذي " احفظ الله تجده أمامك، تعرّف إلى الله في الرّخاء يعرفك في الشّدّة، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أن النصر مع الصبر، وأنّ الفرج مع الكرب، وأنّ مع العسر يسراً "

الشرح..

هذا الحديث حديث عظيم جامع في باب الاعتقاد والإيمان بالله عز وجل وحسن التوكل عليه سبحانه والثقة به وتفويض الأمور إليه ، واعتقاد أن الأمر كله بيده عطاءً ومنعاً وخفضاً ورفعاً وعزاً وهدايةً وضاللاً ؛ فالأمر كله بيد الله ، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، والأمور كلها بقضائه وقدره ، كتب جل وعلا مقادير الخلائق ، ورفعت الأقلام وجفت الصحف .

فهذا الحديث حديث جامع ينبغي على كل مسلم أن يُعنى به حفظاً وفهماً وعملاً ليسعد في دنياه وأخراه ، وكثير من الأخطاء والخلل الذي يقع فيه كثير من الناس ناشئ عن الجهل بمثل

هذا الحديث العظيم ونظائره من الأحاديث التي تُقرر أصول الاعتقاد ، وتبين أساس الدين ، وتربط الناس بالله تبارك وتعالى اعتقاداً وإقراراً وثقةً وإيماناً .

وهذا الحديث ينبغي أن يتعلمه الصغار والكبار على حدٍ سواء ، وأن يُعْنوا بمعرفته ، وينبغي على الآباء وأولياء الأمور والمعلمين في المدارس والمعتنن بالتربية ؛ ينبغي على هؤلاء جميعاً أن يعتنوا بإيصال هذه الكلمات التي اشتمل عليها هذا الحديث إلى الناشئة ذكوراً وإناثاً ، وأن يغرسوا فيهم هذا الغرس المبارك ، وأن يحرصوا على تنشأتهم نشأة الإيمان وحسن الصلة بالله تبارك وتعالى .

وانظر جمال البيان وحسن التوجيه وتمام النصيحة ، وانظر أيضاً بالغ اللطف وحسن التودد في خطاب النبي عليه الصلاة والسلام لابن عباس رضي الله عنهما ، وهو من غلمان الصحابة فيتوجه إليه النبي صلى الله عليه وسلم بهذا النصائح ؛

قال رضي الله عنه " كنت خلف النبي صلى الله عليه وسلم يوماً فقال لي يا غلام إني أعلمك كلمات " ..

وهذه الطريقة طريقة لطيفة جداً ونافعة في التعليم ولا سيما في تعليم الصغار ؛ فالصغير يحتاج منك قبل أن تبين له ؛ أن تشده إلى ما ستبينه له ، وأن تتلطف معه لطفاً يفتح به قلبه ، فالنبي عليه الصلاة والسلام بدأ معه بقوله " يا غلام إني أعلمك كلمات " ؛ مثل هذا لو أنك أردت أن تنصح صغيراً بنصيحة وقلت له " يا بني عندي لك كلمات " ، " أريد أن أذكر كلمات " ، " عندي لك نصيحة نافعة " ، " عندي لك وصية جامعة " ... ؛ فهذه التقديمة تهيئ قلب هذا الصغير لحسن السماع وتمام الاستيعاب .

قال " إني أعلمك كلمات " : أي فاحفظهن ، واعتني بهن واحرص على فهمهن وتطبيقهن حياتك تسعد في دنياك وأخراك .

أيضاً قوله " كلمات " : فيها تهيئة للمخاطب بأن ما سيذكر له جمل عديدة تحتاج إلى تركيز وانتباه حتى تُضبط وتُحفظ ؛ فهذا يعطي معنى طلب التركيز وحسن الانتباه وضبط ما يلقي من كلمات .

قال " احفظ الله يحفظك " : وهذه الكلمة الأولى والجملة الأولى ، ذكر عليه الصلاة والسلام مطلوباً وذكر أيضاً جزاء وثواب هذا المطلوب ؛ وهذا من حسن البيان وتمام الوعظ والنصيحة أن يُرغب الإنسان في الخير ، وأن تُذكر له الثمرة والثواب والعائد.

قال " يحفظك " : هذا فيه أن الجزء من جنس العمل ؛ وهذه قاعدة شرعية دل عليها القرآن والسنة ؛ { إن تنصروا الله ينصركم } ، { فاذكروني أذكركم } ، { أوفوا بعهدي أوف بعهدكم } ، " احفظ الله يحفظك " . فالجزء من جنس العمل { هل جزاء الإحسان إلا الإحسان } ؛ وهنا العمل المطلوب الحفظ - قال " احفظ الله " - .

" احفظ الله " : المراد بحفظ الله أي بحفظ حدوده ؛ قال تعالى { والحافظون لحدود الله } ؛ بحفظ أوامره ، بحفظ نواهيه ، بحفظ ما أمرك الله سبحانه وتعالى به ، والعناية بالعمل به وتطبيقه ، وأيضاً بالبعد عن ما نهاك الله سبحانه وتعالى عنه ؛ ولهذا الحفظ المطلوب هنا " احفظ الله " ؛ يكون في الأوامر ، تحفظه سبحانه في أوامره ؛ بأن تحرص على فعلها والقيام بها وتطبيقها ، وأيضاً يتناول الحفظ بالبعد عن النواهي والمحرمات وتركها والحذر من الوقوع فيها والمبادرة إلى التوبة النصوح ، ويكون أيضاً في المصائب بتلقيها بالصبر والرضا والعلم بأنها من عند الله تبارك وتعالى ، وأن ما أصاب من مصيبة فيأذنه جل وعلا فيرضى المؤمن ويسلم ، فالحفظ هنا في قوله " احفظ الله " يكون في جانب الأوامر وجانب النواهي وأيضاً في المصائب المؤلمة . ولهذا تجد آيات كثيرة وأحاديث عديدة فيها الأمر بمثل هذا الحفظ لحدود الله مثل قوله الله سبحانه وتعالى { حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى } ، وفي الحديث قال عليه الصلاة والسلام " لا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن " ، وفي الحديث ذكرت الصلاة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال " من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة يوم القيامة " ، وقال جل وعلا : { هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ } أي أن نُزِّلَ الكريم وثوابه العظيم أعده جل وعلا لكل أواب حفيظ ، وقيل في معنى الحفيظ في هذه الآية أي الذي حفظ أوامر الله فاعتنى بفعلها وتطبيقها والمحافظة عليها والاستقامة على طاعة الله جل وعلا ، وقيل المراد بالحفيظ أي الذي يحفظ ذنوبه ؛ وهذا أمرٌ ما أكثر ما يُعفل عنه أن يحفظ ذنوبه التي وقعت منه ليتوب من تلك الذنوب ؛ لأن الذنب إن نسيه وتركه ولم يتب إلى الله سبحانه وتعالى منه يجده يوم القيامة محصياً عليه ومكتوباً مدوناً { أحصاه الله ونسوه } ؛ فيحفظ ذنبه ليتوب منه توبة نصوحاً ؛ بأن يندم على فعله وأن يقلع عنه وأن يعزم على أن لا يعود إليه ثانية .

وأيضاً يتناول قوله " احفظ الله يحفظك " : يتناول حفظ الله بالابتعاد عن ما نهى الله عنه مثل ما قال عليه الصلاة والسلام " من حفظ ما بين فكيه وما بين فخذه دخل الجنة " ؛ حفظ لسانه وحفظ

فرجه ؛ والله يقول {والذين هم لفروجهم حافظون } أي حافظون لها عما حرم الله { إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون } ؛ ومن هذه الآية استدلل أهل العلم على حرمة الاستمناء ؛ لأن هذا مما وراء ذلك فهو من فعل العادين الذين لم يحفظوا فروجهم ؛ فمن الحفظ المطلوب هنا أن تحفظ الله بالبعد عن ما نهاك عنه وعدم ارتكاب المحرمات ، وفي الحديث قال عليه الصلاة والسلام " الاستحياء من الله أن تحفظ الرأس وما وعى والبطن وما حوى " ؛ فالرأس فيه السمع والبصر واللسان ؛ فحفظ الرأس وما وعى يكون بحفظ هذه الحواس عن الحرام ؛ فتغض بصرك وتصون لسانك وتحفظ سمعك عن كل أمر يسخط الله تبارك وتعالى ؛ فهذا مما هو داخل في حفظ الله ؛ فلا ينطق اللسان بحرام وباطل قال عليه الصلاة والسلام " وهل يكب الناس على وجوههم أو قال على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم " ، ويحفظ السمع من الباطل ، ويحفظ البصر من الباطل ، والبصر والسمع هما اللذان منهما ترد الواردات على القلب . المنفذ الذي ترد منه الواردات على القلب . من السمع ومن البصر ؛ فيحفظ سمعه ويحفظ بصره .

قال "وأن تحفظ البطن وما حوى " : وأعظم ما حواه البطن وجوف الإنسان القلب ؛ فيحفظ قلبه ويبعده عن كل الأمراض والأسقام التي تكتنف القلوب ، ويحرص على أن يكون قلبه قلباً سليماً يجتهد في صونه عن كل أمراض القلوب وأسقامها من غل أو حقد أو نفاق أو غير ذلك ويستعين بالله جل وعلا ويسأله تبارك وتعالى أن يصلح قلبه ، فهذا من حفظ البطن .

وكذلك يحفظه من أن يدخل في بطنه الحرام شرباً أو أكلاً ؛ فكل ذلكم داخل في عموم قوله احفظ الله؛ بالبعد عن المحرمات وعن الآثام وعن كل ما يسخط الله تبارك وتعالى . كذلك يدخل في الحفظ الصبر عندما يصاب الإنسان بالمصائب فيحفظ لسانه من التسخط ويده من لطم الخدود أو شق الجيوب وقلبه من الجزع ، ويكون صابراً راضياً محتسباً عالماً أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وأن الأمور كلها بقضاء الله تبارك وتعالى وقدره ؛ فهذا كله مما يتناوله قوله النبي صلى الله عليه وسلم "احفظ الله" ثم النتيجة : " يحفظك " قوله "يحفظك" تشمل أمرين :

الأمر الأول : يحفظك أي في دنياك بأن تُمتنع بهذه الحواس وأن تُكرم ؛ بأن تكون هذه الحواس باقية محفوظة سليمة تنتفع بها فيما فيه فلاحك وسعادتك في دنياك وأخراك.

" احفظ الله يحفظك " : يحفظك في سمعك ، يحفظك في بصرك ، يحفظك في لسانك ، يحفظك في قواك ، يحفظك في حواسك ؛ تبقى ممتعاً بها ؛ وهذا جزاء من جنس العمل ، وفي الدعاء المأثور : " ربنا متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقواتنا ما أبقيتنا واجعله الوارث منا " أي تمتعنا بهذه الحواس اجعله باقياً معنا مستمراً إلى الوفاة ؛ وهذه من ثمرة حفظ الله سبحانه وتعالى ؛ ولهذا يذكر أهل العلم . أخذاً من هذا الحديث وغيره وأخذاً من القاعدة أن الجزاء من جنس العمل . ؛ أن من حفظ عقله على سبيل المثال بالعلم وحفظ القرآن والفقه في الدين يكرمه الله سبحانه وتعالى ببقائه ممتعاً بعقله إلى أن يموت إلى آخر لحظة من حياته ولو تجاوز المائة ؛ ولهذا قيل العالم لا يخرف . لا يصاب بالخرف . . ، وإذا أُصيب العالم بشيء من ذلك الخرف ؛ تجده يتكلم في مسائل علمية تتردد على لسانه ؛ مثل أحد أهل العلم الأكابر . كما يذكر أحد أبناءه . في أيامه الأخيرة كان يتكلم كلاماً ربما لا يعيه لكن كل كلامه في أمور الدين وأمور العلم ؛ فيقول ابنه : " لم نسمع منه شيئاً إلا من هذا الباب " . . ؛ فهذا حفظ الله سبحانه وتعالى عليه عقله إلى آخر لحظة . . ، الإمام الجليل ابن باز رحمه الله عليه قبل وفاته بساعات قلائل أفتى بعدة فتاوى في الطلاق ، والطلاق مسائله دقيقة جداً !!

فإذا حفظ الإنسان عقله بالعلم والفقه والبصيرة والقرآن ؛ يكرمه الله سبحانه وتعالى في كبره بأن يحفظ عليه عقله . وكذلك إذا حفظ بصره وحفظ سمعه وحفظ حواسه ، يذكر بعض أهل العلم المتقدمين أن رجلاً من أهل العبادة وعمره جاوز المائة ، وكان على طرف سفينة فقفر قفزة شاب منها إلى الأرض ؛ فلاموه في ذلك فقال : " الحمد لله هذه أعضاء حفظناها في الصغر فحفظها الله علينا في الكبر ، فهذا كله داخل في الحفظ الديني .

والجانب الآخر ، الحفظ الديني : وهذا من ثواب الحسنة كما يقال الحسنة بعدها ؛ فإذا جاهدت نفسك على حفظ حواسك بفعل الخير والبعد عن الحرام حفظها الله لك بأن سدّدك ووفّقك وهداك وثبتك على الاستقامة بأن تمضي مستعملاً هذه الحواس في الخير وفيما يقرب إلى الله سبحانه وتعالى .

والعبد في هذا الباب لا بد له من حسن الصلة بالله جل وعلا وحسن التوجه إليه حتى يوفق للحفظ وحتى يُحفظ ؛ ولهذا كان عليه الصلاة والسلام كما في حديث ابن عمر لا يدع أن يقول إذا أصبح وإذا أمسى " اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك العفو العافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم آمن روعاتي واستر عوراتي اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي " ، ومن الدعاء المأثور كذلك " اللهم احفظني بالإسلام قائماً اللهم احفظني بالإسلام قاعداً اللهم احفظني بالإسلام راقداً ولا تشمت بي عدواً ولا حاسداً " ؛ فالعبد يجتهد في حفظ حدود الله جل وعلا فعلاً للمأمور وتركاً للمحذور وصبراً على المقدور ، ويستعين في ذلك كله بالله يطلب منه عوناً ومدة وتوفيقه سبحانه وتعالى .

وينال الثمرة بأن يحفظك في دنياك ، ويحفظك أيضاً في دينك ؛ ثم تأتي الثمرة يوم القيامة لهؤلاء الذين قاموا بهذا الحفظ لحدود الله كما قال جل وعلا { هذا ما توعدون لكل أبواب حفيظ من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد } .

" احفظ الله تجده تجاهك " : أعاد عليه الصلاة والسلام الوصية ثم ذكر ثمرة أخرى وما أعظم الثمار وأكثر العوائد التي يجنيها من حقق هذا الحفظ .

" تجده تجاهك " - وفي الرواية الآتية تجده أمامك - ؛ والمعنى تجده تجاهك أو أمامك حافظاً ومسداً ومؤيداً ومعيناً وناصرًا ، تجده أمامك بحفظه وتوفيقه وتسديده . ونضير هذا ما جاء في الحديث القدسي قال الله جل وعلا " ما تقرب عبدي إليّ بشيء أحبّ إليّ مما افترضته عليه ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي عليها ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه " ؛ فقله " كنت سمعه .. كنت بصره .. " : أي كان الله سبحانه وتعالى مسداً له في سمعه وفي بصره وفي يده وفي قدمه وفي سائر حواسه .

" إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله " : أي لا تتجه في سؤالك وطلبك إلا إلى الله سبحانه وتعالى ، والنبي عليه الصلاة والسلام عندما أوصى أصحابه رضي الله عنهم بذلك ونهاهم عن السؤال كان بعضهم إذا سقط سوطه وهو على بعيره لا يطلبه من أحد ؛ بل ينزل بنفسه ويأخذه من شدة لزومهم لوصية النبي عليه الصلاة والسلام ؛ وهذا الجانب جانب مستحب ومندوب إليه ، وأما سؤال المخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله ؛ فهذا شرك بالله عز وجل أو سؤال الميت المقبور أو سؤال

الغائب أو سؤال الحاضر فيما لا يقدر عليه إلا الله ؛ فهذا كله من الشرك بالله الناقل من الملة سواء سأل ميتاً أو سأل غائباً أو سأل حاضراً فيما لا يقدر عليه إلا الله هذا كله م الشرك بالله . وهنا قال " إذا سألت فاسأل الله " ؛ أي لا تتجه في سؤالك ورجبك إلا لله سبحانه وتعالى الذي بيده العطاء والمنع والخفض والرفع والبسط والعز والذل والغنى والفقر والهداية والضلال ؛ كل ذلك بيده تبارك وتعالى .

قال " وإذا استعنت فاستعن بالله " : أي لا تطلب العون على قضاء أي مصلحة من مصالحك الدينية أو الدنيوية إلا من الله جل وعلا لأنه وحده تبارك وتعالى المستعان ، وحده تبارك وتعالى الموفق ، والأمر بيده جل وعلا .

قال عليه الصلاة والسلام " يا معاذ إني أحبك فلا تدعن دُبر كل صلاة أن تقول " اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك " ؛ فالعون والتوفيق والهداية والسداد ؛ كل ذلكم بيد الله سبحانه وتعالى لا شريك له .

وقوله " إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله " : جمع بين الغاية وبين الوسيلة كما هو في قوله تبارك وتعالى {إياك نعبد وإياك نستعين} ؛ إياك نعبد : غاية ؛ قال تعالى {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون} . وقوله إياك نستعين : وسيلة ، فلا يمكن لك أن تحقق الغاية - التي هي العبادة - إلا بهذه الوسيلة وهي عون الله لك ، إذا لم يكن عونٌ من الله فلا تستطيع . كان الصحابة يقولون : لولا الله ما اهتدينا ولا صمنا ولا صلينا ؛ والله جل وعلا يقول {ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكي من يشاء} ، ويقول {ولكن الله حبيب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون فضلاً من الله ونعمة} .

إذاً قوله {إياك نعبد وإياك نستعين} جمعٌ بين الغاية التي هي العبادة ، والاستعانة التي هي الوسيلة ، وقوله إياك نعبد: تحقيق ل لا إله إلا الله .

وقوله إياك نستعين : تحقيق ل لا حول ولا قوة إلا بالله .

" إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله " أي لا تلجأ في سؤال أو استعانة لأحد من المخلوقات بل الجأ إلى الله وحده ، ومما يعينك على ذلك أن تعلم الآتي ذكره :

" واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك " الأمة أي جميع الناس لو اجتمعوا

على نفعك بشيء قلّ أو أكثر لا يستطيعون ولا يملكون لك نفعاً إلا بشيء كتبه الله لك، ان كان الله كتب لك ذلك النفع حصل وإلا لو اجتمع من على الأرض لينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لا يمكن { ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده }، { إن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو } عطاءً ومنعاً ، وخفضاً ورفعاً ، وخفضاً وبسطاً ، يقول تعالى { قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير } فلو اجتمع م عليها لنفع الانسان بشي لم يكتبه الله له لا يمكن أن يقع ، ولو اجتمع من عليها لإيقاع مضرة على الإنسان لم يكتبها الله عليه لا تقع ولو كادت له السماوات والأرض ومن فيهن لا يمكن أن تقع إن لم تكتب وإذا فهم المسلم هذا الأصل العظيم والأساس المتين قويت صلته بالله تبارك وتعالى وتوكله عليه ، وكان من أقوى الناس إيماناً ومن أصلحهم عقيدة ، لكن انحراف العقيدة وضعفها والتعلقات الباطلة للمخلوقين ممن لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً ناشتاً من هذا الخلل ، وعدم فهم هذا الأصل العظيم الذي بيّنه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله " واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك " .

" رفعت الأقلام وجفت الصحف " : أي بما هو كائن إلى يوم القيامة ، فالأمور مكتوبة ومقدرة؛ " إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة " وفي الحديث الآخر قال " أول ما خلق الله القلم قال له اكتب قال وما أكتب ؟ قال اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة " ؛ هذا معنى قوله رفعت الأقلام وجفت الصحف ؛ أي بمّ هو كائن إلى يوم القيامة ، وإذا آمن العبد هذا الإيمان ورسخ في قلبه هذا الاعتقاد ؛ أصبح افتقاره إلى الله وحده، والتجاءه إلى الله وحده، وتوكله على الله وحده، وسؤاله لله وحده، ورجاؤه من الله وحده، وخوفه من الله وحده، وطمعه بما عند الله وحده، والتجاءه إلى الله وحده ؛ فالعقيدة كلها تصلح ، لكن إذا اختل الإيمان بهذا الأصل العظيم وقع الخلل ، وأصبح يلتجئ بعض الناس إلى مقبور أو إلى شجر أو إلى حجر أو يتعلق بصدف أو ودع أو خرز أو غير ذلك من الالتجاءات الباطلة والضلالات العظيمة التي يقع فيها كثير من الناس بسبب الخلل في هذا الأصل العظيم ؛ ولهذا نصح عدد من أهل العلم بتدبر هذا الحديث ، وابن الجوزي رحمه الله - نقله عنه الإمام بن رجب في جامع العلوم والحكم - له كلام عظيم جداً في تعظيم هذا الحديث ،

وله في ذلك عبارة جميلة ؛ وفيها يقول : تدبرت هذا الحديث فكاد عقلي يطيش ..أو كلام قريب من هذا المعنى .

وفي رواية غير الترمذي - لهذا الحديث - قال " احفظ الله تجده أمامك " : والمعنى أنك تجده لك حافظاً معيناً مؤيداً موفقاً ، ويكون معك المعية الخاصة التي اختص بها جل وعلا عباده المؤمنين وأوليائه المقربين .

" تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة " : أي احرص على أن تكون على معرفة بالله عز وجل وصلة به في رخائك وفي صحتك وفي حال غناك وفي عافيتك وفي يسرك وفي ارتياحك ، فكن في مثل هذه الحال على صلة قوية بالله .

" يعرفك في الشدة " : عندما تصيبك وتشدد بك الكربات أو ينزل بك شيء من النوازل والمصائب أو نحو ذلك ؛ تجد الله سبحانه وتعالى معك حافظاً ومعيناً ومسدداً وموفقاً .

" واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك و ما أخطأك لم يكن ليصيبك " : هذا أصل عظيم في هذا الباب ينبغي على المسلم أن يعقله وأن يتدبره .

إذا أصيب الإنسان بمصيبة أو بأمر يكرهه ؛ فلما الجزع والتسخط وعدم الرضا ؟ لأن ما أصابك لم يكن ليخطئك و أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك لأن الأمور بقدر ، " كل شيء بقدر حتى العجز والكيس " كما قال عليه الصلاة والسلام . فالأمور كلها قدرها الله وكتبها سبحانه وتعالى في اللوح المحفوظ ؛ ولهذا في الحديث الآخر قال " احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن ولا وتقل لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا فإن لو تفتح عمل الشيطان ولكن قل قدر الله وما شاء فعل " . وهذا معنى قوله هنا "اعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك وما أصابك لم يكن ليخطئك " أي ما قدره الله يقع ؛ ولهذا قال بعض أهل العلم أخذاً من هذا الحديث ؛ قال : " الإيمان بالقضاء والقدر يطرد الهم والحزن " ؛ لأن الأمور المكتوبة والمقدرة لا بد أن تقع { ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه } قال علقمة : " هي المصيبة تصيب المسلم فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويُسَلِّم " .

فالمسلم على اعتقاد تام ويقين راسخ أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ؛ ولهذا لا تراه يتلقى المصيبة بجزع أو بتسخط ؛ بل لا تجده يتلقاها إلا بالصبر ، وإن

قوي إيمانه بهذا الباب تلقاها بالرضا ، وإن زاد الإيمان تلقاها بالشكر لله تبارك وتعالى ، واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك و ما أخطأك لم يكن ليصيبك .

والشيطان أحياناً يفتح على الإنسان عند المصاب أموراً كثيرة تضعف إيمانه بالقدر ؛ يُقدّر عليه حادث ؛ فيبدأ الشيطان يفتح عليه باب "لو" ؛ لو أنك ما جئت من هذا الطريق ، لو أنك ذهبت من الطريق الفلاني ، ولو .. ولو .. إلى أن يشغله بهذا - الذي هو عمل الشيطان - عن الإيمان بالقدر ؛ ولهذا أرشد عليه الصلاة والسلام أن يقال في مثل هذه الحال فوراً " قدّر الله وما شاء فعل " ، لماذا عندما تصاب يشرع أن تقول مباشرة قدّر الله وما شاء فعل ؟ .. حتى تستحضر هذا الأمر - أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك وما أصابك لم يكن ليصيبك . فإذا استحضرت هذا الأصل وقلت قدر الله وما شاء فعل ؛ حصل الإيمان ، حصل الصبر ، حصل الرضا .. ، ولم تقع في شيء من الجزع أو التسخط أو نحو ذلك من الأمور التي هي من أعمال الجاهلية .

واعلم أن النصر مع الصبر : انتبه لتكرر قوله عليه الصلاة والسلام " اعلم " ؛ وهذه كلمة تنبيه يؤتى بها بين يدي الأمور العظيمة التي يحتاج شد الانتباه إليها وحسن الإصغاء ؛ من ذلك قول الله تعالى { فاعلم أنه لا إله إلا الله } ؛ فيؤتى بها بين يدي الأمور العظام الجليلة المهمة حتى يشد الانتباه وينتهي الإنسان إلى حسن الاستماع .

" واعلم أن النصر مع الصبر " : أي أن الله عز وجل كتب حصول النصر وتحقيقه للصابرين ؛ لأن الله سبحانه وتعالى مع الصابرين حفظاً وتأييداً وتسديداً ونصراً ؛ ولهذا قال " واعلم أن النصر مع الصبر " فالذي يصبر ويحتسب يحمده العاقبة بإذن الله تبارك وتعالى .

وقوله " النصر مع الصبر " : النصر أوسع من أن يكون المراد به النصر على الأعداء في مقاتلتهم ؛ بل هذا يشمل ذلك ويشمل غيره لأن الباب أوسع من ذلك . فبالصبر والمجاهدة يتحقق للعبد الانتصار ، ينتصر على نفسه لأن النفس تحتاج إلى مجاهدة ، والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله { والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين } ، الشيطان يحتاج إلى مجاهدة بالبعد عن إغوائه وصدده عن سبيل الله ، بالاستعاذة بالله منه ؛ فباب المجاهدة باب واسع وكله يحتاج إلى صبر .

" وأن الفرج مع الكرب " : أي فرج الله وتيسيره عندما يحصل الكرب ويشد ؛ ولهذا قيل :
" ضيقي تنفرجي " ؛ فإذا ضاقت الأمور ، وربما ظن الإنسان أن الأمر أُغلق تماماً يأتي الفرج
من الله سبحانه وتعالى ؛ فإذا حصل الكرب واشتد فالفرج قريب .
وهذا فيه لفظة عظيمة للمؤمن أنه إذا اشتد به الكرب عليه أن لا يقنط ؛ بل عليه أن تقوى
ثقته بالله وظنه أن الفرج قريب { أمن يحجب المضر إذا دعاه ويكشف السوء } .
" وأن مع العسر يسراً " : وهذا نضير ما قبله ؛ فعندما تتعسر الأمور على الإنسان وتضيق
الأحوال ؛ يأتي التيسير منه تبارك وتعالى لعبده المؤمن .
فهذا الحديث تضمن واشتمل على مضامين عظيمة ، ودلالات عديدة مفيدة ، ينبغي أن
يعنى بها كل مسلم ، وينبغي أن يكون هناك تواصل وتعاون على حفظ هذا الحديث ونشره
بين الشباب والناشئة وشدهم إلى حفظ هذا الحديث ، والعمل بمضامينه .

قال ابن رجب رحمه الله تعالى :

[وهذا الحديث يتضمن وصايا عظيمة وقواعد كلية من أهم أمور الدين حتى قال بعض
العلماء . يقصد ابن الجوزي في أحد كتبه . تدبرت هذا الحديث فأدهشني وكدت أطيش فوا
أسفى من الجهل بهذا الحديث وقلة التفهم لمعناه] .

قال الشيخ عبد المحسن العباد البدر حفظه الله :

[الأول قوله " احفظ الله يحفظك " أي احفظ حدود الله بامتنال وأوامره واجتناب نواهيه
وتصديق الأخبار وعبادته وفقاً لما شرع لا بالأهواء والبدع يحفظك الله في أمور دينك ودنياك
جزاءً وفاقاً ، أي أن الجزاء من جنس العمل ؛ فالعمل حفظ والجزاء حفظ] .

الشرح..

المراد بقوله " احفظ الله يحفظك " أي بحفظ حدود الله ... ولهذا ينبغي أن يُعلم هنا أن من
يعبد الله بالبدع التي ما أنزل الله بها من سلطان ولا قام عليها دليل في الكتاب ولا في السنة ؛
هذا ليس مما تتناوله هذه الوصية بقوله " احفظ الله يحفظك " ؛ بل هذا من الضياع ليس من
حفظ حدود الله ، وأرباب البدع وأهل المحدثات مضيعون لحدود الله لأنهم أضاعوا شرع الله

بارتكاب البدع ؛ ولهذا قال الله سبحانه وتعالى { قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا } ؛ ولهذا من حفظ الله وحفظ حدوده؛ أن يكون التقرب إليه سبحانه وتعالى وفق هديه جل وعلا ووفق ما جاء عن رسوله صلى الله عليه وسلم .

وقوله "حفظ الله يحفظك" : العمل حفظ ، والجزاء حفظ ، وحفظ الله عز وجل لعبده ديني ودنيوي - كما سبق بيان ذلك وتقريره - .

[ثانياً : قوله " احفظ الله تجده تجاهك " : تجاهك بمعنى أمامك - كما في الرواية

الأخرى - " احفظ الله تجده أمامك " ؛ والمعنى تجده يحوطك ويرعاك في أمور دينك ودنياك

الشرح..

معنى قوله تجده تجاهك أو أمامك أي تجده موفقا مسددا معيا تجده معك معينا وناصرًا ثالثاً : قوله " إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله " ؛ هذا مطابق لقوله تعالى {إياك نعبد وإياك نستعين}؛ فإن سؤال الله دعاء، والدعاء هو العبادة ، والمعنى أن المسلم يعبد الله وحده ويسأله قضاء حاجته ، ويستعين به في جميع أموره الدينية والأخروية ، ويأخذ بالأسباب المشروعة، ويسأل الله أن ينفع بالأسباب كما قال صلى الله عليه وسلم " احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز " رواه مسلم [.

الشرح..

قوله " إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله " : في الجمع - كما تقدم ذكره - بين الغاية والوسيلة ؛ الغاية وهي العبادة ؛ لأن السؤال عبادة ، قد قال عليه الصلاة والسلام "الدعاء هو العبادة" ، والوسيلة هي عون الله تبارك وتعالى وتوفيقه ؛ ولهذا جمع بين الأمرين ، كما جمع بينهما في قوله {إياك نعبد وإياك نستعين}، وفي قوله {فاعبده وتوكل عليه} ، وفي قوله في الحديث " احرص على ما ينفعك واستعن بالله " .

[رابعاً : قوله " واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك " إلى قوله " رفعت الأقاليم وجفت

الصحف" بعد أن ذكر أن السؤال لله وحده والاستعانة بالله وحده ؛ أخبر أن كل شيء بيده ،

وأن لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع ، وأن كل شيء لا يخرج عن إرادته ومشئته ، وأن العباد لا يمكنهم أن ينفعوه بشيء لم يقدره الله ولا أن يضرروه بشيء لم يقدره الله ، وأن كل شيء يقع أو لا يقع سبق به القضاء والقدر ؛ ولهذا قال " رُفعت الأقلام وجفت الصحف " أي أن كل كائن قد فُرج منه وكتب ولا بد من وقوعه والمراد برفع الأقلام وجفاف الصحف الانتهاء من كل شيء مقدر بكتابته في اللوح المحفوظ فلا بد أن يقع وفقاً لما قُدر ، وهذه الجملة فيها إثبات الإيمان بالقدر ، وهو أحد أصول الإيمان الستة المبيّنة في حديث جبريل المشهور [.

الشرح..

قوله عليه الصلاة والسلام " واعلم أنّ الأُمَّة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلّا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضُرُّوك بشيء لم يضُرُّوك إلّا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفَّت الصُّحف " وهذا جاء بعد قوله " إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله " فلما ذكر هذا الأصل العظيم - بأن لا تسأل إلا الله وألا تستعين إلا به بمعنى أن عبادتك يكون توجّهك بها إلى الله وحده وطلب العون على ذلك يكون من الله وحده- ذكر أمراً يبنى عليه فقال " واعلم أنّ الأُمَّة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلّا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضُرُّوك بشيء لم يضُرُّوك إلّا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفَّت الصُّحف " وهذا يدعو العبد إلى أن يكون تعلقه وتوكله وتفويضه لأمره على الله سبحانه وتعالى وحده .

لا حظ وتأمل هنا فائدة ينفعك الله سبحانه وتعالى نفعاً عظيماً ، وتدرك بها الفرق بين أئمة الهدى وأئمة الضلال ، تدرك بها الفرق بين دعاة الحق ودعاة الباطل ، والحديث يعطيك ميزان دقيق جداً تميز به بين دعاة الحق ودعاة الباطل

عندما يتكلم بعض الناس عن بعض التعلقات الباطلة بالأشخاص وتقديسهم والتعلق بهم في باب السؤال أو الطلب أو الحاجة ، وجعلهم واسطة في العبادة والذكر ؛ أقول في هذا الباب إمام الأئمة وقدوة الخلق والأسوة للأمة { لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة } فهو الإمام الأعظم والقدوة والأسوة عليه الصلاة والسلام في كل أمور الدين عقيدةً وعبادةً وخلقاً ؛ تأمل وصيته لابن عباس ؛ هل ربطه عليه الصلاة والسلام بنفسه أم بريه ؟ قال عليه الصلاة والسلام " إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أنّ الأُمَّة - لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلّا بشيء قد كتبه الله لك ؛ "

فالشاهد أنه يدخل في ذلك الرسل . والله تعالى يقول لنبيه عليه الصلاة والسلام {وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين} ، ولما حرص على هداية عمه واجتهد في ذلك ومات على غير الإسلام ؛ أنزل الله قوله {إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء} ، وقال الله تعالى {ليس لك من الأمر شيء} ، وقال عليه الصلاة والسلام في إعلانه العام والخاص : " لا أغني عنكم من الله شيئاً " ، " يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئاً " .

" وإن اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء " : ينفعوك بشيء في الدين أو الدنيا أو الآخرة .

" وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء " : يضروك بشيء في الدين أو الدنيا أو الآخرة .

فلا حظ أن النبي عليه الصلاة والسلام ربطه بالله سبحانه وتعالى .

فأتباع النبي صلى الله عليه وسلم على جادته { قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني } هو عليه الصلاة والسلام وأتباعه دعاة إلى الله وليسوا دعاة إلى أنفسهم ؛ وهنا تدرك الفرق الدقيق العظيم بين دعاة الحق ودعاة الباطل ؛ دعاة الباطل من الطرقية وغيرهم يربطون الناس بأنفسهم ، ويدعون الناس إلى تعظيمهم ويدعون الناس إلى عبادة الله من خلال أشخاصهم وذواتهم أحياء وأمواتاً ، ويربطون المرادين بهم ؛ حتى إن شخصاً من هؤلاء من الله عليه بالتوبة والهداية يقول : " كنت مرتبطاً مع شيخ ، وكان يلقني الذكر ويقول : إذا أردت أن تذكر الله لا بد أن تستحضر شخصي وصورتي وإذا استحضرت شخصي تبدأ تذكر الله ، أما عدي فتجلس أمامي وتذكر الله من خلالي ..! ويقول : أردت السفر فجنث إليه ، وقلت له أي سأسافر الآن سافراً قد يطول ؛ قال له تعال إليّ غداً ؛ فجاءه من غد وأعطاه صورة له ؛ قال خذها معك وإذا أردت أن تذكر الله تنظر إلى الصورة وتذكر الله من خلالها .. ! " .

فهؤلاء دعاة الضلال الذين يربطون الناس بأشخاصهم .

وأحد هؤلاء الضلال يقول لأتباعه : لا عليكم يوم القيامة سأبصق على النار وستصبح حشيشاً أخضراً .. فمثل هؤلاء لا يَصِلُهُمُ بالله ؛ وإنما يصلهم بشخصه تعظيماً له واعتقاداً به وتبركاً وسؤالاً ورغباً ؛ حتى إن بعضهم يقول : إذا أصبت بهم أو كرب ؛ فقط تأتي وتجلس أمام الشيخ ولا تكلمه بشيء فهو يعلم ما في قلبك ، ويطلع على ما نفسك ... ، ومثل هذه القصص كثيرة جداً

مما يُذكر مثال على هذا المنوال أن أحدهم ذهب إلى بعض الشيوخ - هذه قصة قديمة ذكرت في أحد الكتب - وقال أريد الجنة ؛ يقول فسكت الشيخ ثم قال : أعطيك الجنة ببستانك . الرجل كان يملك بستاناً .

؛ فقال : قبلت ، قال : تكتب لي بذلك كتاباً ؛ فكتب له كتاباً : أني أنا فلان أعطيت فلاناً الجنة ، يحدها جنة المأوى ، ويحدها كذا وكذا ، بغلمانها وحورها وأنهارها وأشجارها، أخذ الورقة وأعطاه البستان ، وطلب من أولاده إذا مات أن يدفنوا معه هذه الورقة ؛ فهذا كله ضلال ، ويستغلون العوام والجهال وصغار الأحلام وسفهاء الأحلام ويضللوهم ، ويجعلونهم يتعلقون بهؤلاء لأنهم يربطون البركة ، يقولون أن البركة لا تنال إلا من الشيخ ، ويقعون في مظاهر من تقديس الأشخاص بسبب الإضاعة ، وأقول مثل هؤلاء العوام لو أنهم رزقوا بعالم ناصح حفظهم هذا الحديث ؛ ما انطلت عليهم كل هذه الأباطيل وكل هذا الركام من الضلال ، لو حفظوه وفهموه و وعوه كل أباطيل أولئك ما ينطلي منها شيء ، لكن يستغل أولئك جهل هؤلاء وعدم علمهم ، ويغرسون فيهم أن البركة في الشيخ وإذا أردت كذا فمن الشيخ ... ، وقد وصل الحال ببعضهم أن المرید ليلة زواجه يأتي بزوجه قبل أن تُفتض بكارتها ؛ يأتي بها إلى الشيخ ويلتمس منه أن يبارك له زوجته ؛ فيخلوا الشيخ بها ويفتض بكارتها من أجل البركة ، ثم تخرج من عنده وقد افتض بكارتها والتلميذ يرمي رأسه عند قدم الشيخ ويقبل قدمه على هذا الجميل العظيم والإحسان الكبير ، وربما أعطاه على ذلك مالا !!! .. فهذا الحديث يعطي معيار لكيف يميز الإنسان بين دعاة الحق ودعاة الباطل ؛ الذي يدعو الناس إلى تعظيم شخصه ويأتون له الأتباع بوساده ويضع عليها يده لأنها لو بقيت مرفوعة والعشرات يقبلونها تعب فيضعون له الوسادة حتى لا يتعب .. فيقبلون يده التماس للبركة وإن لم يتمكنوا من تقبيل يده قبلوا عصاه ؛ عصى الشيخ مباركة والبركة تشمل الشيخ وكل ما لامسه وهكذا يتعلق العوام مثل هذه التعلقات الباطلة .

إمام الأئمة والقدوة الأعظم وأسوة الناس إلى من يدعو ؟ يدعو إلى الله ؛ قال " إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك وإن اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف " ، أبو بكر الصديق لما مات محمد صلى الله عليه وسلم ماذا قال ؟ قال : " من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت " ، والله تعالى يقول في القرآن { وتوكل على الحي الذي لا يموت } .

[الخامس : قوله " تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة " المعنى أن من أخلص عمله لله في حاله رخاءه وسعته يجد الخير من الله ودفع الضر عنه في حال شدته وكرهه كما قال الله عز وجل {ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب} ، وقال {فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون} ، وكما في قصة الثلاثة الذين أواهم المبيت في الغار فانحدرت بهم صخرة وسدت بهم الغار ؛ وتوسلوا إلى الله عز وجل بأعمال لهم صالحة ، عملوها في حال رخائهم ، فتوسل أحدهم ببره والديه ، وتوسل الثاني بحفظه للأمانة وتنميتها وردها لصاحبها ، وتوسل الثالث بتركه الفاحشة من أجل الله بعد قدرته عليها ؛ فكشف الله ما بهم من كرب وأزال ما حل بهم من ضرر ؛ فتزحزحت الصخرة حتى تمكنوا من الخروج من ذلك الغار " رواه البخاري ومسلم] .

الشرح..

قوله " تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة " : معناه أن من أخلص لله وحسن إقباله على الله في رخاءه فإن الله سبحانه وتعالى يكون معه في حال شدته بالحفظ والتوفيق والتسديد ؛ وهذا الشواهدُ عليه كثيرة، ومنها هذه الشواهد التي استمعنا إليها

[سادساً قوله : " واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك وما أصابك لم يكن ليخطئك " : المعنى أن ما قدر الله سلامتك منه فإنه لا يحصل لك وما قدر حصوله لك فلا بد من وقوعه ، لأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وكل شيء قدر الله حصوله لا بد أن يوجد ولا يتخلف وكل شيء لم يقدر لك لا سبيل إلى حصولك عليه ووصولك إليه] .

الشرح..

لأن قضاء الله عز وجل لا راد له ، لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه ، فمشيئته جل وعلا نافذة وقدرته شاملة ، ولا يعجزه تبارك وتعالى شيء في الأرض ولا في السماء ، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وفي هذا المعنى يقول الشافعي رحمه الله في أبيات له :

ما شئتَ كان وإن لم أشأ	وما شئتُ إن لم تشأ لم يكن
خلقت العباد على ما علمت	وفي العلم يجري الفتى والمسن
على ذا مننت وهذا خذلت	وهذا أعنت وذا لم تعن

فمنهم شقيّ ومنهم سعيد ومنهم قبيح ومنهم حسن

ذلك كله بقضاء الله سبحانه وتعالى وقدره ، وأن ما قضاه جل وعلا وقدره لا بد أن يقع طبقاً لما قدر ، فلا راد لحكمه ولا معقب لقضائه سبحانه وتعالى .

[سابعاً قوله "واعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسراً" : في هذه الجمل الثلاث بيان حصول النصر مع الصبر والفرج مع الكرب واليسر مع العسر وأن الصبر ينتج عنه النصر بإذن الله وأن الكرب والشدة يكشفها الله بالفرج الذي يعقبها وأن العسر يعقبه اليسر من الله عز وجل] .

الشرح..

هذه الجمل الثلاث . وهي قوله عليه الصلاة والسلام "واعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع اليسر يسراً" في بيان أن هذه النتائج والثمار العظيمة لا بد فيها من بذل شيء ؛ وأسباب يقدمها العبد ؛ وهي كما في الحديث أن يصبر ، وإذا اشتد به الكرب أن يقوى رجاءه وثقته بالله سبحانه وتعالى ، وإذا تعسرت عليه الأمور يؤمّل الفرج والتيسير من الله جل وعلا ، ويكون على ثقة بالله ويكون متوكلاً على الله راجياً فيما عنده مؤملاً منه تبارك وتعالى التوفيق والتيسير والنصر ، والأمر كله بيد الله جل وعلا .

[ثامناً مما يستفاد من الحديث :

الأول: أن من حفظ حدود الله حفظه في دينه ودنياه .

ثانياً: أن من أضاع حدود الله لا يحصل له الحفظ من الله كما قال {نسوا الله فأنسيهم} .

الثالث: أن الجزاء من جنس العمل ، فالعمل حفظ والجزاء حفظ .

الرابع: أن العبد يخص ربه بالعبادة والاستعانة .

الخامس: الإيمان بالقدر .

السادس: أن العباد لا ينفعون ولا يضرّون إلا إذا كان النفع والضرر مقدرين من الله .

السابع : أنه لا يحصل لأحد نفعٌ إلا إذا كان مقدراً ولا يندفع عنه ضررٌ إلا إذا كان مقدراً ،

ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

الثامن : أن الصبر يعقبه النصر .

التاسع : أن الكرب يعقبه الفرج .

العاشر : أن العسر يعقبه اليسر .

الحادي عشر : تواضعه صلى الله عليه وسلم وملاطفته الصغار .

الثاني عشر : التقديم بين يدي ذكر الأمر المهم بما يحفز النفوس إليه لقوله صلى الله عليه

وسلم : " ألا أعلمك كلمات " .

سبحانك اللهم و بحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، اللهم صلّ وسلّم
على عبدك ورسولك نبينا محمد و آله وصحبه

..*



شرح الأربعين النووية

لأبي زكريا يحيى بن شرف الحزامي النووي رحمه الله

من الدرس ١٩ إلى الدرس ٢١

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما الله تعالى

١٤٤٠/٠٦/١٧ هـ

الدرس التاسع عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .
أما بعد ..

الحديث العشرون

عن أبي مسعود عقبة بن عمرو الأنصاري البصري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت "

رواه البخاري

الشرح..

هذا الحديث في بيان خلة عظيمة ، وخصلة مباركة ، وشعبة جلييلة من شعب الإيمان ؛ ألا وهو الحياء ؛ ذلكم الخلق العظيم الجليل الذي هو شعبة من شعب الإيمان وخصلة من خصاله العظام ، وقد صح عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال " الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من شعب الإيمان " .

والحياء مكانه القلب ؛ فهو عمل من أعمال القلوب وشعبة من شعب الإيمان القلبية ، وهذه الشعبة من الإيمان إذا وجدت في القلب ؛ استقامت الجوارح على الأخلاق الفاضلة ، والآداب الكاملة والمعاملات الحسنة الجميلة . وإذا نُزع الحياء من القلب ترتب على ذلك شر عظيم وفساد عريض .

والحياء خصلة متوارثة منذ القدم ، وجميع الأنبياء دعاة إلى هذه الخلة العظيمة والخصلة المباركة ، وهي خصلة عرفها الناس قديماً ودعا إليها جميع الأنبياء ؛ ولهذا جاء في الحديث أن النبي عليه الصلاة والسلام قال " إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت " أي من الأمور

أو الخصال التي أدركها الناس من كلام النبوة الأولى ؛ وقوله النبوة : دخول " ال " التعريف هنا تفيد العموم فالمراد نبوة جميع الأنبياء .

والمراد بـ"الأولى" أي التي سبقت نبوة نبينا عليه الصلاة والسلام ؛ وهذا شامل لكل نبوة قبله؛ فالأنبياء كلهم دعاة إلى هذه الخصلة .

ومما أدرك الناس من كلام الأنبياء السابقين ، أي من بقايا كلام الأنبياء التي بقيت محفوظة ومتداولة بين الناس " إذا لم تستح فاصنع ما شئت "

وهذا فيه بيان مكانة الحياء ، وفيه تأثير هذه الخصلة على الإنسان سواءً إن وُجدت أم لم توجد ، فوجودها فيه تأثير عليه بخير وعدم وجودها فيه تأثير عليه بشر ؛ ولهذا قول النبي عليه الصلاة والسلام " إذا لم تستح فاصنع ما شئت " يحتمل أحد معنيين :

الأول : معنى يُحمد في الإنسان والآخر معنى يُذم فيه الأول وهو الذي يحمد : معناه إذا لم يكن الأمر الذي ستفعله وتبشره مما يُستحيا منه فافعله ولا حرج ؛ فقوله " فاصنع ما شئت " فيه إباحة العمل وجواز فعله ما دام أنه لا يستحيا منه وليس من الخصال التي يُستحيا منها .

المعنى الآخر " فاصنع ما شئت " ؛ أي أن الحياء إذا نُزع من الإنسان ولم يوجد فيه فإنه سيفعل ويصنع ما شاء من الأعمال دون مبالاة ودون اهتمام ؛ وهذا المعنى مذموم في الإنسان ، والإنسان المنزوع منه الحياء لا يبالي بالأمور التي يفعلها فهو يفعل ما شاء دون وازع قلبي يردعه ويمنعه من فعل العمل .

والحديث عموماً يفيد فضل الحياء ، وعظم أثره على الإنسان وأنه خصلة كريمة اجتمع على الدعوة إليها جميع الأنبياء ، وأنه خصلة لها تأثيرها العظيم على الإنسان ؛ فإذا كان الإنسان من أهل الحياء فحياءه لا يأتيه إلا بخير - كما جاء في الحديث الآخر أن النبي عليه الصلاة والسلام رأى شخصاً يعظ أخاه في الحياء ؛ فقال " دعه فإن الحياء لا يأتي إلا بخير " ، وفي بعض الروايات " فإن الحياء خير كله " . وأما إذا نزع الحياء من الإنسان فإنه يهلك في أودية الضلال ويقع في دروب الباطل ، وإذا وجد فيه الحياء منعه بإذن الله عز وجل وأصبح من أهل الفضائل وأهل الأعمال الطيبة وأهل البعد عن الأعمال الذميمة القبيحة .

قال الشيخ عبد المحسن :

[الأول : الحديث يدل على أن الحياء ممدوح ، وكما هو في هذه الشريعة فهو في الشرائع السابقة وأنه من الأخلاق الكريمة التي توارثتها النبوات حتى انتهت إلى هذه الأمة ، والأمر فيه للإباحة والطلب إذا لم يكن المستحي منه ممنوعاً شرعاً ، وإن كان ممنوعاً فهو للتأديب أو أن مثل ذلك لا يحصل إلا ممن ذهب حياؤه أو قل ، قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم : قوله صلى الله عليه وسلم "إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى " يشير إلى أن هذا مأثور عن الأنبياء المتقدمين ، وأن الناس تداولوه بينهم وتوارثوه عنهم قرناً بعد قرن ؛ وهذا يدل على أن النبوة المتقدمة جاءت بهذا الكلام وأنه اشتهر بين الناس حتى وصل إلى أول هذه الأمة .. إلى أن قال وقوله " إذا لم تستح فاصنع ما شئت " في معناه قولان : أحدهما أنه ليس بمعنى الأمر أن يصنع ما شاء ؛ ولكنه على معنى الذم والنهي عنه ، وأهل هذه المقالة لهم طريقان : أحدهما أنه أمرٌ بمعنى التهديد والوعيد ، والمعنى : إذا لم يكن لك حياءٌ فاعمل ما شئت فإنه الله يجازيك عليه كقوله { اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير } ، وقوله { فاعبدوا ما شئتم من دونه } ؛ وهذا اختيار جماعة منهم أبو العباس . والطريق الثاني أنه أمرٌ ومعناه الخبر ، والمعنى أن من لم يستحي صنع ما شاء فإن المانع من فعل القبائح هو الحياء ، ومن لم يكن له حياءٌ انهمك في كل فحشاء ومنكر ، وما يمتنع من مثله من له حياءٌ على حد قوله صلى الله عليه وسلم " من كذب عليّ فليتبوأ مقعده من النار " ؛ فإن لفظه لفظ الأمر ومعناه الخبر ، وأن من كذب عليه تبوأ مقعده من النار ، وهذا اختيار أبي عبيد القاسم بن سلام رحمه الله وابن قتيبة ومحمد بن نصر المروزي وغيرهم ، وروى أبو داود عن الإمام أحمد ما يدل على مثل هذا القول .

والقول الثاني في معنى قوله " إذا لم تستح فاصنع ما شئت " : أنه أمرٌ بفعل ما يشاء على ظاهر لفظه ، والمعنى : إذا كان الذي تريد فعله مما لا يستحي من فعله لا من الله ولا من الناس لكونه من أفعال الطاعات أو من جميل الأخلاق والآداب المستحسنة فاصنع منه حينئذ ما شئت ، وهذا قول جماعة من الأئمة منهم : أبو إسحاق المروزي الشافعي وحكي مثله عن الإمام أحمد .

الشرح ..

هذا الحديث جاء في مساق بيان فضل الحياء وبيان عظمة هذه الخلة وأنها من الخصال التي اجتمع على الدعوة إليها جميع الأنبياء ، وأنها من الخصال التي توارثها الناس وتواردت بينهم و تناقلوها حتى أدركها أوائل هذه الأمة من بقايا ما ينقل عن الأنبياء مما بقي لم يزل لم يتغير ؛ وهذا فيه فضل الحياء وعظيم مكانته .

وقوله " إذا لم تستح فاصنع ما شئت " : هذه كما بين الحافظ بن رجب رحمه الله تعالى لأهل العلم في معناه قولان : أحدهم أنه ليس بمعنى الأمر أن يصنع ما شاء ولكنه على معنى الذم والنهي ؛ فقولُه فاصنع ما شئت نضير قوله جل وعلا { اعملوا ما شئتم } هذا تهديد .

إذاً قوله صلى الله عليه وسلم "إذا لم تستح فاصنع ما شئت" : لم يأت في مساق الأمر والإباحة ؛ وإنما جاء في مساق الذم والنهي . ومن يقولون ذلك لهم في فهم الحديث بهذا الاعتبار أو بهذا المعنى طريقتان :

الطريقة الأولى أن ذلك جاء في مقام التهديد والوعيد " إذا لم تستح فاصنع ما شئت " أي إذا لم تكن من أهل الحياء فاعمل من الأعمال ما شئت والله سيحاسبك ، والله سيعاقبك ؛ فيكون المقام مقام التهديد والوعيد ، وهذا له نضائر في القرآن كقوله سبحانه وتعالى { اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير } ، { اعبدوا ما شئتم من دونه } فهذا كله في مقام التهديد والوعيد .
الطريقة الثانية : أنه أمرٌ ومعناه الخبر " إذا لم تستح فاصنع ما شئت " : أي أن من لا يستحي سيصنع ما يشاء ولا يبالي فهو أمر بمعنى الخبر ؛ أي إخبار عن واقع من لا يستحي .

القول الثاني في معنى الحديث أنه أمرٌ بفعل ما يشاء . على ظاهر لفظه . فقولُه " فاصنع ما شئت " أمرٌ بفعل ما يشاء ، ويكون الأمر للإباحة والجواز ؛ معنى " فاصنع ما شئت " أي يجوز لك أن تصنع ما شئت من الأعمال ما دام أن الأمر لا يستحي منه ، لا من الله ولا من عباده ؛ أي أن الأمر أمامك واسع ، افعل ما شئت من الأعمال ما دامك بهذا الضابط - لا يستحي فيها لا من الله ولا من عباده . .

وقال رحمه الله تعالى :

[واعلم أن الحياء نوعان أحدهما ما كان خلقاً وجبلاً غير مكتسب ، وهو من أجل الأخلاق التي يمنحها الله العبدَ ويحبها عليها ولهذا قال صلى الله عليه وسلم " الحياء لا يأتي إلا بخير " ؛ فإنه يكف عن

ارتكاب القبائح ودناءة الأخلاق ، ويحث على استعمال مكارم الأخلاق ومعاليتها ، فهو من خصال الإيمان بهذا الاعتبار.

والثاني : ما كان مكتسباً من معرفة الله ومعرفة عظمتة وقربه من عباده واطلاعه عليهم وعلمه بخائنة الأعين وما تخفي الصدور ؛ فهذا من أعلى خصال الإيمان بل هو من أعلى درجات الإحسان ، وقد يتولد الحياء من الله من مطالعة نعمه ورؤية التقصير في شكرها ، فإذا سلب العبد الحياء المكتسب الغريزي لم يبق له من يعمل به من ارتكاب القبائح والأخلاق الدنيئة ، فصار كأنه لا إيمان له [.

الشرح..

هنا يبين الحافظ بن رجب رحمه الله تعالى أن الحياء نوعان : نوع غريزي وجبلي يطبع عليه العبد ويجبل عليه ، وينشأ من صغره ومن نعومة أظفاره وهو على الحياء ؛ فهذا يقال عنه حياء جبلي . يعني طبع عليه الإنسان ونشأ عليه . ولهذا أحياناً يوصف بعض الصغار منذ صغره بهذا لما يلاحظ عليه في محيط أهل وقربته من حياء شديد منذ نشأته . فالحياء جانب منه أو نوع منه جبلي يمن الله سبحانه وتعالى به على عبده ؛ قد قال عليه الصلاة والسلام لأشج عبد القيس " إن فيك خصلتان - أو خلتان - يحبهما الله ورسوله الحلم والحياء أو قال الأناة والحياء " .

وسأل هل هي مكتسبة أو جبله الله سبحانه وتعالى عليها ؛ قال " بل جبلك الله عليها " . فالحياء منه ما هو جِبَلِي ينشأ مع الإنسان، وتكون خصلةً طبع عليها الإنسان وينشأ على هذه الخصلة ، وهو أمرٌ يكون في القلب يكف عن ارتكاب القبائح ودناءة الأخلاق ، ويحث على استعمال مكارم الأخلاق ومعاليتها ؛ ويمكن أن نعطي تعريفاً جميلاً للحياء بحيث لو قيل ما هو الحياء ؟ نقول : الحياء خصلة قلبية يترتب عليها الكف عن ارتكاب القبائح ودناءة الأخلاق ، ويحث على استعمال مكارم الأخلاق ومعاليتها .

والنوع الثاني مكتسب : يكتسبه العبد ويحصله بالمجاهدة ، يجاهد نفسه على تقوية الحياء في قلبه ببذل الأسباب المعينة على ذلك ، وأعظم ما يعين على ذلك وأساسه معرفة الله جل وعلا ، ومعرفة عظمتة وقربه من عباده واطلاعه عليهم ، وعلمه بخائنة الأعين وما تخفي الصدور ؛ فالعبد إذا قوى في قلبه هذه المعرفة زاد حياؤه من الله جل وعلا ، وقد قال جل وعلا { إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ } ، فالعبد كلما كان بالله أعرف كان حياؤه منه أشد

وحبه له أعظم ومراقبته له أقوى ، وكفه عن معاصيه أقوى ، وحرصه على طاعته وما يقرب إليه سبحانه وتعالى . والعبد يستطيع بإذن الله أن يكتسب الحياء مثل ما مر معنا قول النبي صلى الله عليه وسلم "إنما العلم بالتعلم وإنما الحلم بالتحلم ومن يتحرى الخير يُعطه ومن يتوق الشر يوقه" ؛ فالعبد إذا تحرى لنفسه هذا الخلق وسأل الله سبحانه وتعالى العون على ذلك ، وبذل الأسباب من معرفة الله وعظمته وجلاله ؛ فإنه بإذن الله تبارك وتعالى يكون من أهل هذا الخلق العظيم الجليل .

وقد جاء في حديث رواه الترمذي - وهو حديث حسن - أن النبي عليه الصلاة والسلام قال " استحيوا من الله حق الحياء " فقالوا إنا لنستحي من الله ؛ قال " الحياء من الله أن تحفظ الرأس وما وعى والبطن وما حوى وأن تذكر الموت والبلى ومن أراد الآخرة لم تلعه . أو لم تشغله . زهرة الحياة الدنيا " فذكر أموراً أربعة صلوات الله وسلامه عليه بيّن فيها حقيقة الحياء من الله سبحانه وتعالى ، وأن الحياء منه ليس أمراً يدعيه الإنسان ادعاءً مجرداً ؛ لأنه من السهل على الإنسان أن يقول عن نفسه إنني أستحي من الله هذه كلمة سهلة أن يقولها بلسانه ؛ لكن تحقيق الحياء من الله وتتميم هذا المقام ؛ هذا يتطلب من العبد أموراً ، إذا فعلها حقق فعلاً الحياء من الله سبحانه وتعالى ، وقد جمعها النبي صلوات الله وسلامه عليه في هذا الحديث ؛ قال : " أن تحفظ الرأس وما وعى " : فهذا الأمر الأول ، والرأس هو أشرف ما في البدن ، وفيه السمع وفيه البصر وفيه اللسان كل هذه الحواس مجتمعة في الرأس ؛ وهذا فيه أن الحياء من الله يتطلب من الإنسان أن يحفظ سمعه وبصره ولسانه وأن يحفظ رأسه عموماً من كل أمرٍ يسخط الله ويغضبه .

أما الإنسان الذي لا يبالي ، يستمع إلى الحرام بأذنه ، وينظر إلى الحرام بعينه ، ويتكلم بلسانه بالحرام وهو على علم بأن الذي أعطاه اللسان وأعطاه السمع وأعطاه البصر يراه ويطلع عليه ويسمع كلامه ويرى مقامه وحركاته وسكناته ويبصره سبحانه وتعالى ؛ فأين حقيقة الحياء من الله جل وعلا ؟ أو أن تكون حاله أن يستخفي من الناس ولا يستخفي من الله ؛ أين حياؤه من الله سبحانه وتعالى ؟! يقول تعالى { يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول } .

فالحياء من الله يتطلب من العبد أن يجتهد في حفظ هذه الحواس ، وفي زماننا هذا . زمان الفتن الكثيرة العاصفة الجارفة . يحتاج المؤمن أن يقوي فعلاً في قلبه الحياء من الله عز وجل حتى يكون عنده ما يعينه بإذن الله تبارك وتعالى عن البعد عن هذه الآثام وهذه المحرمات وإلا في زماننا

هذا تهيأ لكثير من الناس خلوة فتحت على الكثير من الناس أبواباً من الإثم وأبواباً من الشر ؛ وهي الخلوة مع القنوات الفضائية والمواقع التي في شبكة الانترنت ؛ فيجلس الشاب أو الشابة في غرفة وحده ، ويغلق على نفسه الباب ويقول : لا أحد يراني - يعني من الناس . ويدخل في المواقع المتهتكة والإباحية، ومواقع الرذيلة والفساد ، ويطلق العنان لبصره للمحرمات فيشاهد ذلك العفن ، إلى أخس الناس وأحققرهم وأرذلهم ، ويستمتع بأذنه إلى الممارسات الباطلة والأعمال المشينة القبيحة ؛ ثم ماذا بعد هذا النظر وبعد هذا السماع ؟ ونحن نعلم أن بصر الإنسان وسمعه نافذتان إلى قلبه ؛ ولهذا قال جل وعلا {إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً} ، وأمراض القلوب تصل في الغالب الأعم من خلال السمع ومن خلال البصر ، ومعنى جلوس الإنسان أمام تلك المواقع والقنوات يشاهد تلك الآثام وتلك الأباطيل ؛ معنى ذلك أنه في طريق وخطوات لمرض قلبه وزيغته والعياذ بالله ، وفي خطوات للشيطان من خلاله يمرض القلب ، وحتى بعض الناس الذين هم في خير دخل عليه الشيطان من هذا المدخل وتورط في خطوات فتح لنفسه الباب فيها وكانت باب شر عليه ، لكن لو أن العبد إذا حصل منه مثل هذا الجلوس وإغلاق الباب ذكر اطلاع الله سبحانه وتعالى عليه ورؤيته سبحانه وتعالى له لكف ؛ ولهذا ذكر ابن رجب رحمه الله تعالى .. أن رجلاً أكره امرأة على نفسها وقال لها " غلقي الأبواب " فغلقت الأبواب ؛ قال لها : " غلقت جميع الأبواب ؟ قالت " نعم إلا باباً واحداً ما أغلقتة " قال " أي باب ؟ " ؛ قالت : " الباب الذي بيننا وبين الله " . وذكر رحمه الله تعالى أن رجلاً راود أعرابية في الصحراء وقال لها : " مما تخافين نحن في مكان لا يرانا إلا الكواكب " ؛ قالت : " وأين مكوكب الكواكب - أين مكوكبها . " ؛ ولهذا إذا أحضر الإنسان في قلبه رؤية الله له واطلاعه عليه وعلمه به وأنه سبحانه وتعالى لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء؛ النفس تحجم وتمتنع ويقع فيها فعلاً حياء من الله سبحانه وتعالى ؛ ولهذا يحتاج العبد في وسط هذه الفتن المتلاطمة والأمواج العاصفة أن يقوي في قلبه الحياء من الله سبحانه وتعالى ، وأن يكون الحياء حاضراً في قلبه حتى يكفه عن القبائح والرذائل ، وحتى يسوقه إلى الفضائل والكمالات ؛ بخلاف حال من نزع منهم الحياء فأصبحوا يصنعون ما شاؤوا من الأعمال ولا يبالون ولهذا قال في النقطة الأولى بيانه عليه الصلاة والسلام للحياء قال " أن تحفظ الرأس وما وعى " : يعني احفظ الرأس بجميع مكوناته وجميع محتوياته ،

وإياك أن تفعل شيئاً في الرأس وما وعى يسخط الله عليك جل وعلا ، ويكون سبباً لغضبه سبحانه وتعالى عليك .

" والبطن وما حوى " : وهذا فيه حفظ القلب ؛ لأن من أعظم محتويات باطن الإنسان قلبه ؛ فذكر عليه الصلاة والسلام فيما يشمل ما وعاه الرأس ، وما حواه البطن القلب ؛ وهذه الثلاث حُصت بالذكر في مواضع ثلاث من القرآن منها قوله تعالى {إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئلاً} ؛ يعني سُئِلَ عن سمعك وبصرك وفؤادك .

فمن الحياء من الله حفظ باطن الإنسان وسره ، ويدخل في قوله " ويحفظ البطن وما حوى " أي أن يدخل في بطنه شيء من الحرام كأكلي محرّم أو شربٍ محرّم .

" وأن تذكر الموت والبلى " : وهذا من الأمور العظيمة والمعينة على تحقيق الحياء ، أن تذكر الموت وأن روحك ستفارق جسدك وأن جسمك هذا سيبلَى وسيكون يوماً مدفوناً تحت التراب مرهوناً بعملك ؛ فتذكر ذلك ؛ فهذا مما يعينك عوناً عظيماً على الحياء ؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام " تذكروا هادم اللذات " فتذكر الإنسان للموت وما بعده يعينه على الحياء ؛ لماذا ؟ لأن هذا الأمر إذا كان منك على بال إن حدثتك نفسك يوماً بمعصية أو ترك فرض أو واجب فإنك ستقول لها : يا نفس لن تبقي في هذه الدنيا ، يا نفس إنك ستلقين الله جل وعلا وستحاسبين على العمل ؛ فكلما كان على ذكر للموت ساقه هذا إلى الفضائل والكمالات ؛ ولهذا قال سبحانه وتعالى عن من يُعْطَوْنَ كتابهم باليمين ؛ قال {فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرأوا كتابيه إني ظننت أني ملاق حسابه} أي أنني كنت في الدنيا اعتقد وأستحضر أنني سألقى الحساب ، ولا يزال العبد بخير مادام ذاكراً للحساب والمجازاة والوقوف بين يدي الله تبارك وتعالى .

والخصلة الرابعة : قال " ومن أراد الآخرة لم تلّه أو تشغله زهرة الدنيا " : فالذي أراد الآخرة بعمله لا تلّيه الدنيا ولا تقطعه في سيره إلى الله تبارك وتعالى {ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً} .

فهذا الحديث حديث عظيم جداً في بيان حقيقة الحياء من الله سبحانه وتعالى ، والحياء من الله هو أعظم الحياء الذي يُطلب من العبد أن يفعله ، وهو مقدم على الحياء من الناس .

[ثانياً : مما يستفاد من الحديث :

الأول : أن خلق الحياء من الأخلاق الكريمة الماثورة عن النبوات السابقة .

الثاني : الحث على الحياء والتنويه بفضله .

الثالث : أن فقد الحياء يوقع صاحبه في كل شر .

..*

الحديث الواحد والعشرون

عن أبي عمر وقيل أبي عمرة سفیان بن عبد الله رضي الله عنه قال قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك قال " قل آمنت بالله ثم استقم " رواه مسلم
الشرح..

هذا الحديث من جوامع كلمه صلوات الله وسلامه عليه ؛ بل إنه عليه الصلاة والسلام جمع في هذا الحديث الدين كله في كلمتين ، وسفيان رضي الله عنه سأل سؤالاً عظيماً ، وطلب أمراً جامعاً ؛ أراد رضي الله عنه أن يجمع له النبي أو أن يذكر له النبي صلى الله عليه وسلم جماع الخير والوصايا بحيث لا يحتاج إلى سؤال بعد ذلك ، أراد كلاماً جامعاً ؛ فما طوّل له الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ بل اختصر له الدين وبيانه في كلمتين اثنتين ؛ قال " قل آمنت بالله ثم استقم " :

وقد جمع النبي صلى الله عليه وسلم في هاتين الكلمتين الدين كله . عقيدةً وشريعةً . لأن الدين له جانبان : جانب الاعتقاد وجانب الشرائع ؛

فجانب الاعتقاد أوجزه عليه الصلاة والسلام بقوله " قل آمنت بالله " .

وجانب الشرائع أوجزه عليه الصلاة والسلام بقوله " ثم استقم " .

فبهاتين الكلمتين أوجز عليه الصلاة والسلام البيان للدين كله .

وقوله " قل آمنت بالله " أي قل ذلك بقلبك معتقداً ولسانك متلفظاً ؛ كما قال أهل العلم : القول إذا أُطلق في القرآن والسنة يشمل قول القلب واللسان ؛ يشمل قول القلب عقيدةً وإيماناً ، وقول اللسان نطقاً وتلفظاً مثل قول الله عز وجل { قولوا ءامنا بالله } ، وقوله جل وعلا { إن الذين قالوا ربنا الله } ، ونظائر ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح " قولوا لا إله إلا الله تفلحوا " ؛ فالقول إذا أُطلق يشمل قول القلب عقيدةً وقول اللسان نطقاً ، فقوله " قل آمنت بالله " أي قل ذلك بقلبك معتقداً ولسانك متلفظاً ؛ .

والإيمان بالله هو الإيمان بوحديته جل وعلا في ربوبيته وأسماءه وصفاته وألوهيته ؛ ولهذا قال أهل العلم : للإيمان بالله أركان ثلاثة لا يكون العبد مؤمناً بها إلا بالإيمان بها ؛ وهي الإيمان بوحديته الله في ربوبيته ، والإيمان بوحديته الله في أسمائه وصفاته ، والإيمان بوحديته الله جل وعلا في ألوهيته لأنه المعبود بحق ولا معبود بحق سواه ، وأن يصرف له وحده العبادة دون شريك .

والإيمان بالله يقتضي الإيمان بكل ما أمر سبحانه وتعالى عباده بالإيمان به من الإيمان بالكتب والإيمان بالرسول والإيمان باليوم الآخر والإيمان بالملائكة والإيمان بالقدر؛ فمن لم يؤمن بهذه أو بشيء منها فهو ليس مؤمناً بالله لأن الإيمان بالله سبحانه وتعالى هو إيمان به وبكل ما أمر جل وعلا عباده بالإيمان به ؛ وبهذا يُعلم أن العقيدة كلها دخلت تحت قوله " قل آمنت بالله " .

" ثم استقم " : وهذا فيه جانب الشريعة والعمل بالطاعات وفعل الأوامر واجتناب المحرمات .
" استقم " : أي كما أمرك الله بفعل الطاعات والعبادات واجتناب المحرمات والآثام .
الاستقامة : هي لزوم الصراط المستقيم ، والمحافظة على طاعة الله جل وعلا ، والبعد عن ما حرم الله جل وعلا على عباده ونهاهم عنه .

" ثم استقم " أي كن ماضياً بعد ذلك على الاستقامة إلى أن تموت .
فالدين له جانبان : جانب الاعتقاد وجانب الشريعة ، وكل منهما مطلوب من العبد ، وقد أوجزها عليه الصلاة والسلام بهاتين الكلمتين " قل آمنت بالله ثم استقم " .
فإذا حققت هذين المطلبين وأتيت بهذين المطلبين جمعت لنفسك الخير .

والاستقامة هنا تتطلب من العبد المحافظة على الفرائض والعناية بها والبعد عن المحرمات ؛ ولهذا إذا تحدث الناس عن استقامة بعض الأشخاص - عندما يقولون فلان مستقيم . ؛ وهذه الكلمة أولى من كلمة شائعة في هذا الزمان فيقولون : فلان ملتزم ، فالأولى أن يُقال مستقيم ؛ فإذا أراد الناس التحدث عن استقامة شخص قالوا: فلان مستقيم - أو بالعارة الدارجة فلان ملتزم - يصلي محافظ على الصلوات ، ما يترك الصيام ، بعيد عن المحرمات .. وهكذا يذكرون أفعالاً من الشرائع يذكرونها صفة للشخص المستقيم ..

أو يقولون : فلان غير مستقيم لا يصلي ، أو يقولون غير مستقيم يشرب الخمر ، أو يقولون غير مستقيم يفعل كذا وكذا - من المحرمات . فترك الشريعة تخلٍ عن الاستقامة ؛ فقلوه "استقم" : أي كما أمرت بفعل المأمورات وترك المحرمات ؛ فهذه حقيقة الاستقامة أن يمشي على الصراط المستقيم ولا يروغ روغان الثعلب كما جاء هذا المعنى عن بعض الصحابة ؛ ما يتلون مرةً هنا ومرةً هناك ؛ بل يمضي على الاستقامة بفعل المأمور وترك المحذور .

فقلوه عليه الصلاة والسلام " قل آمنت بالله ثم استقم " وصية جامعة أوجز فيها عليه الصلاة والسلام بيان الدين كله في كلمتين .

قال الشيخ عبد المحسن :

[أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد الناس حرصاً على معرفة الدين وهم أسبق إلى كل خير ، وهذا السؤال من سفيان بن عبد الله رضي الله عنه واضح في ذلك إذ سأل النبي صلى الله عليه وسلم هذا السؤال العظيم الذي يريد جوابه جامعاً واضحاً لا يحتاج فيه إلى أحدٍ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم] .

الشرح..

من الفوائد التي تستفاد من هذا السياق أن سؤال سفيان رضي الله عنه للنبي صلى الله عليه وسلم بقوله " قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك " ؛ هذا يدل على حرص الصحابة على الخير وشدة رغبتهم فيه وقوة اتجاههم إلى العمل وإلى ما ينالون به رضى الله سبحانه وتعالى ؛ فالسؤال يدل على همة عالية ورغبة صادقة في الخير ؛ ولهذا الناس يتفاوتون في الأسئلة ؛ فبعض الناس يُستشف من سؤاله رغبة صادقة في الخير ، وآخرون يُستشف من سؤالهم التفُّلت من الخير وعدم الحرص عليه ؛ ولهذا سؤال الحريص على الخير يختلف عن سؤال عدم الراغب ، وكلما علت همة الإنسان في الخير جاءت أسئلته رصينة متوائمة مع همته العالية ؛ وهذا يظهر في سؤال سفيان رضي الله عنه قال " قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك "

[ثانياً : أجاب النبي صلى الله عليه وسلم هذا الصحابي بجواب قليل اللفظ واسع المعنى ، وهو من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم ؛ فقال " قل آمنت بالله ثم استقم " ؛ فأمره بأن ينطق بلسانه بإيمانه بالله الشامل للإيمان به سبحانه وتعالى وبما جاء عنه في كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ويدخل في ذلك الأمور

الظاهرة والأمور الباطنة لأن الإيمان والإسلام من الألفاظ التي إذا جُمع بينهما في الذكر قُسم المعنى بينهما ، وصار للإيمان الأمور الباطنة وللإسلام الأمور الظاهرة ، وإذا أُفرد أحدهما عن الآخر كما هنا شمل الأمور الظاهرة والباطنة ، وبعد إيمانه ويقينه وثباته أمر بالاستقامة على هذا الحق والهدى والاستمرار على ذلك كما قال الله عز وجل { يا أيها الذين ءامنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون } أي دوموا على طاعة الله وطاعة رسوله حتى إذا وافاكم الأجل يوافيكم وأنتم على حال حسنة ، قد بين الله عز وجل في كتابه ثواب من آمن واستقام فقال { إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون } ، وقال { إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون } [.

الشرح..

جواب النبي صلى الله عليه وسلم لهذا الصحابي رضي الله عنه جواب وجيز من حيث اللفظ لكنه واسع من حيث المعنى ؛ وهذا مصداق لقوله عليه الصلاة والسلام " أُوتيت جوامع الكلم " معنى ذلك أنه صلى الله عليه وسلم يقول الألفاظ الوجيزة لكن المعاني التي تندرج تحت هذه الألفاظ والمضامين واسعة جداً ؛ فقوله " قل آمنت بالله ثم استقم " ؛ فتحت هذا اللفظ الوجيز دخل الدين كله عقيدةً في قوله " آمنت بالله " وشريعةً " ثم استقم " .

وهذا فيه لزوم الدين عقيدةً وشريعةً لأن الإيمان بالله هو إيمان به وبكل ما أمر جل وعلا عباده بالإيمان به من أمور الاعتقاد ، وقوله " ثم استقم " فيه لزوم الشريعة بفعل الأوامر واجتناب النواهي .

وقد جاء في القرآن في آيتين فيهما ثواب من كان كذلك { إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلاً من غفور رحيم } .

؛ قال تعالى { إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة } متى هذا التنزل ؟

قيل عند الموت ، وقيل في القبر ، وقيل في عرصات يوم القيامة . وقد ذكر ابن كثير في تفسيره ما محصله أنه لا مانع أن تكون الآية متناولة لذلك كله ، والملائكة التي تنزل هي ملائكة الرحمة تحمل البشارة بالخير لمن كانت هذه حاله .

{أن لا تخافوا ولا تحزنوا} نفى الخوف والحزن ، والخوف والحزن إذا اجتماعا فإن الخوف يتعلق بالأمر الذي يستقبلها الإنسان وهو قادم عليها ، والحزن يتعلق بالأمر الذي تاركها الإنسان ومفارقها ؛ فقلوه { لا تخافوا ولا تحزنوا } أي لا تخافوا مما أنتم قادمون عليه ، ولا تحزنوا على ما أنتم تاركون له ، فأنتم قادمون على خير وما تركتموه فهو في حفظ الله جل وعلا .

في الآية الأخرى {إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا} {وأبشروا بالجنة} أي أن الملائكة تبشرهم بالجنة ، وهذه البشارة تكون عند الموت عندما تأتي الملائكة لقبض روحه يُبشر ؛ ولهذا بعض أهل العلم يقول لعله لذلك يُرى بعض الموتى يموت وأساريره مبتهجة ويظهر عليه الفرح والسرور ؛ فلعل ذلك من هذه البشارة العظيمة التي سمعها وأخبر بها .

{التي كنتم توعدون} يبشر بذلك عند قبض روحه وفي قبره وفي عرصات يوم القيامة . فهذا كله ثواب وثمار الإيمان بالله جل وعلا والاستقامة على دينه وطاعته إلى أن يموت الإنسان .

وقوله صلى الله عليه وسلم " ثم استقم " أي على الطاعة والعبادة إلى الموت ؛ وهذا يوضح لنا المراد في قوله تعالى {يا أيها الذين ءامنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون} ، والإنسان لا يعلم متى يموت فيكون معنى الآية : استقم على طاعة الله إلى أن تموت فيتحقق منك ذلك الذي طُلب منك في الآية الكريمة .

[ثالثاً : مما يستفاد من الحديث :

الأول : حرص الصحابة على السؤال عن أمور دينهم .

الثاني : حسن السؤال من سفيان بن عبد الله رضي الله عنه الدال على كمال عقله ورغبته في الوصية الجامعة .

الثالث : الإيمان بالله وبما جاء في كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

الرابع : ملازمة الاستقامة على الحق والهدى حتى بلوغ الأجل .

..*

الحديث الثاني والعشرون

عن أبي عبد الله جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما أن رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال
أرأيت إذا صليت المكتوبات وصمت رمضان وأحللت الحلال وحرمت الحرام ولم أزد على
ذلك شيئاً أدخل الجنة ؟ قال " نعم " . رواه مسلم
ومعنى حرمت الحرام : اجتنبته .
ومعنى أحللت الحلال : فعلته معتقداً حله .

الشرح..

" فقال أرأيت " المراد بها أخبرني وأعلمني وبيّن لي .
" إذا صليت المكتوبات وصمت رمضان وأحللت الحلال وحرمت الحرام ولم أزد على ذلك شيئاً أدخل
الجنة ؟ " هل إذا فعلت ذلك أدخل الجنة ؟ هذا السؤال من الصحابي يدل على صدقة الرغبة
في الجنة والحرص عليها ، ويريد من النبي عليه الصلاة والسلام أن يبين له أن هذه الأمور
الجوامع العظيمة التي ذكرها في سؤاله إذا فعلها ولم يزد على ذلك ؛ هل يدخل الجنة ؟ تكون
الجنة له مضمونة إذا واطب ولزم هذه الأمور ؟
هذا يدل على الرغبة في الجنة والمعرفة في الأسباب الموصلة إليها .
" إذا صليت المكتوبات " الصلوات الخمس التي كتبها الله سبحانه وتعالى على عباده وافترضها
عليهم في كل يوم وليلة ؛ وهي صلاة الفجر ركعتين والظهر والعصر أربع والمغرب ثلاث
والعشاء أربع ركعات ؛ فهذه هي الصلوات المكتوبات ؛ قال تعالى { حافظوا على الصلوات
والصلاة الوسطى } وقال { إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً } فقوله " المكتوبات " : أي
التي كتبها الله على عباده .
فهذه الصلوات الخمس هي صلوات كتبها الله على عباده أي شرعها فرضاً لازماً على كل
مسلم ومسلمة .

" وصمت رمضان " أي حافظت على صيام شهر رمضان ؛ وصيام رمضان هو الإمساك في
نهار رمضان من طلوع الفجر إلى غروب الشمس تعبداً لله تبارك وتعالى عن المفطرات .
فإذا حافظت على ذلك ، على هذه الصلوات الخمس في أوقاتها كما أمرني الله جل وعلا
وكما بيّن لي رسوله عليه الصلاة والسلام ، وحافظت على صيام شهر رمضان .

" وأحللت الحلال وحرمت الحرام " قال النووي رحمه الله تعالى : معنى حرمت الحرام اجتنبته وأحللت الحلال أي فعلته معتقداً حله : والتعريف الذي ذكره تعريف جميل ونافع ؛ لكن يحتاج إلى زيادة مهمة ؛ وذلك في قوله : حرمت الحرام أي اجتنبته **معتقداً حرمة** ؛ لأن من يجتنب الحرام قد يجتنبه لعدم الرغبة فيه ، أو يجتنبه حفاظاً على صحته ، أو يجتنبه لكونه لا يميل إليه ، أو يجتنبه لأنه غير قادر عليه .. ؛ لكن إذا اجتنبه معتقداً حرمة ومتقرباً إلى الله سبحانه وتعالى بهذا الاجتناب ؛ دخل في عداد أعماله الصالحة وقرباته .

فقوله " حرمت الحرام " لا يكفي أن يقول اجتنبته بل لابد مع الاجتناب اعتقاد حرمة ؛ لأن الحرام هو ما حرمه الله ورسوله ومطلوب من المسلم أن يعتقد حرمة ما حرمه الله سبحانه وتعالى ورسوله ؛ ولهذا لو أن الإنسان اعتقد حلَّ ما حرمه الله ورسوله يكفر ولو لم يفعل ؛ فتحريم الحرام باعتقاد الحرمة واجتناب الحرام.

فهذا معنى قوله " حرمت الحرام " أي اعتقدت حرمة واجتنبته وابتعدت عنه ، وإن لم يعتقد الإنسان حرمة الحرام كفر ، وإن فعل الحرام فإنه يفسق ما لم يكن ذلك الحرام من الكفر الناقل من الملة .

" وأحللت الحلال " معناه أي فعلته معتقداً حله .

" ولم أزد على ذلك شيئاً أدخل الجنة قال النبي عليه الصلاة والسلام نعم " تدخل الجنة إذا فعلت هذا الذي ذكرت في سؤالك - صليت المكتوبات وصمت رمضان وأحللت الحلال واجتنبت الحرام - ولم تزد على ذلك شيئاً دخلت الجنة ..

وهنا قد يُستشكل عدم ذكر الزكاة - وهي فريضة - وكذلك عدم ذكر الحج ؛ فهذا أجاب عنه أهل العلم بأجوبة من أقربها ؛ ففيما يتعلق بالزكاة لعل النبي صلى الله عليه وسلم علم من حاله أنه ليس من أهل الزكاة ؛ لأن الزكاة مفروضة على الأغنياء وهو لا يملك نصاب الزكاة .

وفيما يتعلق بالحج فلعل النبي صلى الله عليه وسلم قال له ذلك قبل أن يُفرض الحج لأن الحج قُرِض في السنة التاسعة .

وبعض أهل العلم أجابوا عن ذلك بجواب آخر؛ وهو أن ذلك داخل تحت قوله " أحللت الحلال " .

فالشاهد أن هذه كلمات جامعة من اعتنى بها دخل الجنة ، وبهذا الحديث ونظائره يدرك المسلم أن دين الله جل وعلا دين يسر وسماحة كما قال عليه الصلاة والسلام " إن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا " ، وقال في الحديث الآخر

" بعثت بالحنيفية السمحة " ؛ فديننا دين سمح ودين يسر ؛ ولهذا ينبغي عند الحديث عن سماحة الدين ويسره أن يُنطلق في هذا الباب من فوائد الدين ، فالدين هو نفسه يسر ، لا أن يأتي الإنسان يتفلسف من واجبات الشريعة باسم التيسير أو يباشر أنواعاً من الحرام باسم التيسير .. ، من غرائب ما سمعت في إحدى الدول قالوا عندنا جماعة يصفون أنفسهم بأنهم من أهل التيسير وأنهم أهل تيسير ؛ قلت ماذا عندهم من التيسير ؟ قالوا : يقولون في الأسبوع نصلي مرتين لأن الدين يسر !!

فبعض الناس يأتي إلى باب التيسير ويفهمه فهماً أعوجاً ، ويكون حقيقة التيسير عنده التفلسف من الواجبات ومباشرة المحرمات ، وأصبحت كلمة التيسير كلمة كل صاحب باطل يدخل من خلالها ما شاء من ترك واجب أو فعل محرم ؛ ولهذا تأتي كثيراً على ألسنة العصاة ؛ عندما يُنهى عن الحرام يقول : الدين يسر ، أو يترك واجباً فيُسأل ويقول : الدين يسر .. ؛ إذا كنت صادقاً في قولك الدين يسر ؛ فافعل يسر الدين لا تتفلسف لماذا تقول الذي يسر ثم تتفلسف من هذا اليسر ؛ فهذا من التناقض .

فدين الله جل وعلا دين يسر ، وما جعل الله سبحانه وتعالى على عباده من حرج ، وفهم يسر الدين ينبغي أن يكون مضبوطاً بقواعد الشرع ، مثلما قال هذا الصحابي رضي الله عنه "صليت المكتوبات وصمت رمضان وأحللت الحلال وحرمت الحرام أأدخل الجنة ؟ قال نعم"

هذا من الأحاديث العظيمة الجامعة التي تبين للناس يسر هذا الدين ، وأن الواجب على المسلم أن يحافظ على أعمال الإسلام وفرائضه وواجباته وأن يبتعد عن المحرمات . والرتبة التي ذكرت في هذا الحديث والتي سأل عنها هذا الرجل ؛ هي رتبة المقتصد من عباد الله ؛ لأن أهل الإسلام أقسامهم ثلاثة وهذه الأقسام الثلاثة جاءت مبينة في آية واحدة: قال تعالى ﴿ثم أوردنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير جنات عدن يدخلونها﴾ فذكر جل وعلا أقساماً ثلاثة : الظالم لنفسه والمقتصد والسابق بالخيرات ؛

أما الظالم لنفسه فهو من ترك بعض الواجبات وفعل بعض المحرمات دون الكفر بالله ؛ فهذا ظالم لنفسه أي ظلمها إما بترك واجب أو بفعل محرم دون أن يصل إلى حد الكفر بالله .
والمقتصد : أي الذي اقتصر على فعل الواجبات وترك المحرمات ؛ مثل ما جاء في هذا السؤال الذي طرحه هذا الصحابي .. حد واجب ومن اقتصر عليه كان من المقتصدين .

وهذا الحديث يعتبر دليلاً على أن المقتصدين يدخلون الجنة بغير حساب ؛ يدخلون الجنة دخولاً أولاً دون حساب ؛ لأن الذي يحاسب ويكون عرضة لدخول النار الظالم لنفسه بترك واجب أو فعل محرم ، أما الذي فعل الواجبات وترك المحرمات فهذا يدخل الجنة بدون عذاب وبدون حساب لأنه أتى ما أوجب الله عليه وترك ما حرم الله عليه لكن النوافل والرغائب والمستحبات لم تنهض همته لفعلها ؛ وهي أمورٌ إن فعلها أثيب وعلت درجته عند الله ، وإن لم يفعلها لم يُعاقب .

والسابق بالخيرات : هو أعلى هؤلاء ؛ وهو من أضاف إلى فعله للواجبات وتركه للمحرمات المنافسة في الرغائب والمستحبات والبعد عن المكروهات ؛ فهذا بلغ رتبة السابق بالخيرات .
فإذاً الذي بُيِّن في هذا الحديث هو رتبة المقتصد ؛ والمقتصد هو الذي يفعل الواجب ويترك المحرم ، ومن فعل الواجب وترك المحرم فإنه يدخل الجنة .
" قال أدخل الجنة " أي أدخل الجنة ؟ استفهام . قال نعم ..

ولهذا يجب على الإنسان أن يتقي الله عز وجل وأن يهتم بالواجبات اهتماماً عظيماً وهي سهلة يسيرة ، وأن يتجنب المحرمات والكبائر ؛ فإذا وازب على الواجبات وترك المحرمات ؛ يوم القيامة يدخل الجنة بدون حساب ولا عذاب ، وإن كان الله أكرمه ونشطت نفسه وعلت همته لفعل الرغائب والمستحبات ؛ علت بذلك منزلته في الجنة { ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون } .

قال الشيخ عبد المحسن العباد :

[الأول : جاء في بعض طرق الحديث في صحيح مسلم تسمية الرجل السائل النعمان بن قَوْقَل .

الثاني : قول السائل معناه أخبرني إذا فعلت هذه الأمور أدخل الجنة ؟

يعني هذا السائل معنى سؤاله : هل إذا فعلت هذه الأمور المحددة التي ذكرتها في سؤالتي هل أدخل الجنة ؟ ، قال النبي صلى الله عليه وسلم نعم

الثالث : الأمور التي سأل عن دخوله الجنة إذا فعلها الصلاة والصيام وإحلال الحلال وتحريم الحرام وليس فيها ذكر الزكاة والحج ، فيحتمل أن الحج لم يُذكر لأنه لم يكن قد فرض ، ولم تُذكر الزكاة لاحتمال أن يكون فقيراً ليس عنده مال يُزكى ، ويحتمل أن تكون الزكاة والحج داخلين تحت إحلال الحلال وتحريم الحرام .

هنا جاء في سؤال السائل رضي الله عنه ذكر الصلاة والصيام وإحلال الحلال وتحريم الحرام الذي ورد في السؤال أمور أربعة وليس فيها الزكاة والحج مع أن الزكاة مفروضة والحج أيضاً فرضه الله على العبد مرة واحدة في العمر كله ، فما الجواب على ذلك قال أهل العلم الحج لم يُذكر لأنه لم يفرض وقت إذ ، ولم تُذكر الزكاة لاحتمال أن يكون الرجل فقيراً ليس عنده ما يُزكى أو ليس عنده مال يُزكى ويحتمل أن تكون الزكاة والحج داخلين تحت إحلال الحلال وتحريم الحرام

رابعاً : في الحديث فيه ذكر القيام بالواجبات وليس فيه ذكر المستحبات ، ومن كان كذلك فهو المقتصد في قوله تعالى ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ ﴾ ، وفعل الواجبات وترك المحرمات سبب لدخول الجنة ، لكن الإتيان بالنوافل مع الفرائض يكمل بها الفرائض إن لم يكن أتمها ؛ وجاء في ذلك حديث صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه ، وأيضاً فالنوافل كالسياج للفرائض ومن كان محافظاً عليها كان أشد محافظة على الفرائض ومن تساهل فيها قد يجره ذلك إلى الإخلال بالفرائض [.

الشرح..

هذا الحديث دُكرت فيه أمور الدين الواجبة التي من فعلها كان من المقتصدين ، والمقتصد هو الذي فعل الواجب وترك المحرم ؛ ولكن ينبغي هنا على العبد أن يُعوّد نفسه وأن يمرنها على الرغائب والمستحبات ؛ لأن لها فوائد عظيمة من أهمها :

أولاً : أن المستحبات تكون له سياجاً بإذن الله واقياً بالمحافظة على الفرض والبعد عن الحرام
ثانياً : أن فيها جبراً للنقص الذي قد يكون من الإنسان بفعله للفرائض ، والإنسان قد
يصلي وليس له من صلاته إلا ربعها إلا عشرها إلا خمسها .. كما جاء في ذلك الحديث عن
النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذا الذي صلى وليس له من صلاته إلا ربعها إلا عشرها ؛ أدى الفرض
لكن عمله فيه نقص ؛ فإذا أتى بالنوافل والرغائب والمستحبات كان فيها جبراً للنقص الذي
في المكتوبات ؛ ولهذا يشرع لنا بعد الصلاة بعد أن نسلم أن نقول مباشرة : أستغفر الله
أستغفر الله أستغفر الله - ثلاثاً . من الحكم في ذلك ما قاله أهل العلم أن في هذا الاستغفار
جبراً للنقص الذي يكون في الصلاة .

ثالثاً : لكونها سبباً في علو درجته يوم القيامة .

فهذه الأسباب الثلاثة تجعل الإنسان الحريص الناصح لنفسه يعتني بالمستحبات إضافة إلى
عنايته بالفرائض والواجبات .

[خامساً مما يستفاد من الحديث :

الأول : حرص الصحابة على المحافظة على الأعمال التي تدخل الجنة .

الثاني : أن الأعمال سبب في دخول الجنة .

الثالث : بيان أهمية الصلوات الخمس ، وقد جاء في الحديث أنها عمود الإسلام.

الرابع : بيان أهمية صيام رمضان .

الخامس : أن المسلم يُحلّ الحلال معتقداً حله ، ويجتنب الحرام معتقداً حرمة.

السادس : بيان بطلان قول من زعم من الصوفية أن الإنسان لا يعبد الله رغبةً في الجنة وخوفاً
من النار ؛ وقد قال عن خليله { واجعلي من ورثة جنة النعيم } .

الشرح..

هذه عقيدة موجودة عند بعض الضُّلَّال ؛ يقولون : نحن نعبد الله لا رغبةً في ثوابه ولا
خوفاً من عقابه ؛ بل نعبد الله حباً فيه لا رغبة في الثواب ولا خوف العقاب ؛ وهذه لو
سمعها الجاهل الذي لا بصيرة له في الدين ربما استحسناها ؛ ربما قال : هؤلاء على درجة عالية
من التدين ، عبادتهم لله فقط حباً في الله ، لا يريدون ثواباً ولا يخافون من عقابه .. ؛ لكنها

كلمة في ظاهرها وباطنها الضلال المحض والمخالفة لنهج النبيين وصراطهم المستقيم ، ونبينا ^{عليه} الصلوة والسلام لما قال ذلك الرجل " إني لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ " - يعني الأذكار التي تأتون بها والدعوات - ؛ قال " ماذا تقول ؟ " ، قال أقول : اللهم إني أسألك الجنة وأعوذ بك من النار ؛ قال النبي ^{صلى الله عليه وسلم} " ونحن حولها ندندن " ؛ يعني أعمالنا وطاعاتنا وعباداتنا وقرباتنا ؛ كل ذالكم دندنة حول الجنة والنار ، إبراهيم الخليل ^{عليه الصلوة والسلام} يقول في دعائه { واجعلي من ورثة جنة النعيم } ، قال ^{عليه الصلوة والسلام} لعائشة ^{رضي الله عنها} :

" عليك بكوامل الدعاء " ثم بينه لها ؛ وفيه : " اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل " ، وكان أكثر دعاء نبينا " اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار " ، وكثيراً ما يأتي في دعاءه سؤال الله تبارك وتعالى الجنة والاستعاذة به من النار .

وكلنا نعلم أن عبادة الأنبياء هي العبادة الصحيحة ، وأنهم أكمل الخلق عبادةً لله ؛ فإذا جاء أحد هؤلاء وقال : أنا أعبد الله حباً فيه ، لا رجاء فيه ولا خوفاً من عذابه ؛ نقول : هذا ضلال وانحراف عن دين الله ؛ الله تعالى يقول { أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً } ، وقال عن

الأنبياء { إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهبا } ؛ فهذا دين الأنبياء وطريقتهم وهذه طريقة الصالحين والكامل من عباد الله جمعوا بين الحب والرجاء والخوف ؛ ولهذا قال أهل العلم : التقرب إلى الله بالصلاة أو الصيام أو أي طاعة ؛ لا بد أن يُقام على أركان ثلاثة - يسميها أهل العلم أركان التعبد القلبية - لا بد أن تكون موجودة معك في كل طاعة ؛ وهي الحب والخوف والرجاء ؛ لماذا تصلي ؟ لأني أحب الله وأرجو ثوابه وأخاف من عقابه ، لماذا تصوم ؟ لأني أحب الله وأرجو ثوابه وأخاف عقابه ، لماذا تحج ؟ لأني أحب الله وأرجو ثوابه وأخاف من عقابه ؛

يقول تعالى { أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب } هنا الحب ، { ويرجون رحمته } هنا الرجاء ، { ويخافون عذابه } هنا الخوف ؛ وهذه الأركان الثلاثة اجتمعت في سورة الفاتحة في قولك { الحمد لله رب العالمين } هذا الحب - لأن الحمد هو الشناء مع الحب . ، { الرحمن الرحيم } فإذا قرأتها متأملاً متدبراً يحضر في قلبك الرجاء { ويرجون رحمته }

وإذا قرأت {مالك يوم الدين} قال تعالى {وما أدراك ما يوم الدين ثم ما أدراك ما يوم الدين يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله}؛ فإذا قلت {مالك يوم الدين} . أي يوم الجزاء والحساب والعقاب . ما الذي يتحرك في قلبك ؟ الخوف ،

بعدها قال {إياك نعبد} أي إياك نعبد يا الله بالحب الذي دلّ عليه قوله {الحمد لله رب العالمين} ، وبالرجاء الذي دلّ عليه قوله {الرحمن الرحيم} ، وبالخوف الذي دلّ عليه قوله {مالك يوم الدين} ، فالله عز وجل يُعبد حباً فيه ورجاءً لثوابه وخوفاً من عقابه .

ولهذا بعض العلماء الأولين يقول : من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق ، ومن عبد الله بالرجاء وحده فهو مرجئ ، ومن عبد الله بالخوف وحده فهو حروري . أي من الخوارج . ، من عبد الله بالخوف والرجاء فهو مؤمن موحد .

وهذا الحديث من الشواهد على بطلان هذه العقيدة الفاسدة التي يعتقدونها بعض الضلال أنهم يعبدون الله حباً فيه لا طمعاً في ثوابه ولا خوفاً من عقابه .

ولما وجدت هذه العقيدة عند هؤلاء الضلال أصبح عندهم استخفاف بأمر الجنة وأمر النار واستهانة بهما ، وعقيدته هذه تملي عليه عدم المبالاة من الجنة ، وعدم الاكتراث من النار وعدم الخوف ؛ فلما أصبحت عنده هذه العقيدة أفسدت عليه عمله وضيعته وأصبح أمر الجنة والنار شيء يستخف ويستهان به ؛ ولهذا بلغ بعض هؤلاء مبلغاً خطيراً في الزندقة والردة عن دين الله جل وعلا ، مثل أحدهم يقول لأتباعه لا عليكم يوم القيامة أبصق على النار تصبح حشيشاً أخضراً هذا استخفاف وليد مثل هذه العقائد الزائفة المنحرفة الباطلة ، فعبادة الله ل بد أن تقوم على هذه الأركان الثلاثة – الحب والرجاء والخوف – نعبد الله حباً فيه ورجاءً لثوابه وخوفاً منه على حد قوله جل وعلا {أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه} .

سبحانك اللهم و بحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، اللهم صلّ وسلّم على عبدك ورسولك نبينا محمد و آل وصحبه

..*

الدرس العشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .
أما بعد ..

الحديث الثالث والعشرون

عن أبي مالك الحارث بن عاصم الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الطهور
شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماء
والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل
الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها " رواه مسلم

الشرح..

هذا الحديث هو من الأحاديث العظيمة الجامعة ؛ بل هو من أجمع الأحاديث في باب
فضائل الأعمال ؛ حيث جمع فيه النبي صلى الله عليه وسلم جملة طيبة مباركة من أعمال الإسلام ، وبين
فضل كل ، وهو حديث وجيز وجامع لجملة من الأعمال مع ذكر فضائلها ، وما يكرم الله
تبارك وتعالى به أهلها ؛ فذكر عليه الصلاة والسلام الطهور ، وذكر الله جل وعلا الحمد والتسبيح ، وذكر
الصلاة والصدقة والصبر والعناية بكتاب الله جل وعلا ، ثم ختم ذلك ببيان أهمية الأعمال
والعناية بها جملة ، وأن الواجب على العبد أن يحفظ حياته بالأعمال الصالحة والطاعات
الزاكية المقربة إليه سبحانه وتعالى .

وهو يتكون من جمل عديدة :

الأولى : قوله عليه الصلاة والسلام " الطهور شطر الإيمان " : ولأهل العلم في معنى قوله الطهور قولان :
الأول : المراد بالطهور أي من الذنوب وعلى رأسها الشرك بالله ؛ ومنه قوله تعالى { وثيابك
فطهر } أي طهر نفسك من الشرك بالله عز وجل ومن الذنوب { والرجز فاهجر } ، { إن الله

يجب التواين ويجب المتطهرين { فتأتي الطهارة والتطهر ويراد بذلك الطهارة من الشرك ، والتنزه بالبعد عنه ، وعدم الوقوع فيه .

والقول الثاني (وهو الأقرب) : المراد بالطهور هو الوضوء الذي لا تصح الصلاة إلا به ؛ ولهذا جاء في بعض ألفاظ الحديث قوله " الوضوء شرط الإيمان " ، وجاء في بعضها قوله " إسباغ الوضوء شرط الإيمان " وهذا واضح أن قول النبي صلى الله عليه وسلم هنا المراد به الوضوء الذي لا تصح الصلاة إلا به ، فهو شرط من شروط قبولها .

والصلاة لا تصح إلا بالطهارة ، وهي رفع الحدث ؛ والعبادة - عموماً - لا تصح أيضاً إلا بالطهارة ؛ التي هي الطهارة من الشرك لأن الشرك إذا خالط العمل لم تُقبل العبادة ؛ فشأن الإخلاص في العبادة كشأن الطهارة في الصلاة ، كما أن الصلاة لا تقبل إلا بالطهارة ؛ فالعبادة لا تُقبل إلا بالطهارة من الشرك بالله جل وعلا ؛ وذلك بأن تكون العبادة خالصة لله جل وعلا لا يبتغى بها إلا الله .

عرفنا أن القول الأقرب في قوله " الطهور " أن المراد الوضوء وإسباغ الوضوء ؛ فإسباغ الوضوء والعناية به شرط الإيمان

وعلى المعنى الأول " الطهور شرط الإيمان " - أي الطهارة من الشرك والذنوب - ؛ فالمعنى ظاهر لأن الإيمان قسمان : فعل مأمور وترك محذور ؛ فإذا قيل " الطهور شرط الإيمان " أي ترك المحظورات والبعد عن الذنوب والتخلي عن الأنجاس وأحوال الذنوب ؛ فهذا شرط الإيمان - نصفه - لأن شرط الشيء نصفه .

وعلى المعنى الثاني وهو أن الطهور شرط الإيمان أي الوضوء قيل في ذلك أقوال :
منها أن المراد بالإيمان هنا الصلاة { وما كان الله ليضيع إيمانكم } أي صلاتكم ، والوضوء شرط الصلاة ، ومن صلى بلا وضوء لا صلاة له .

وقيل في معنى ذلك أقوال عديدة ساقها الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى في كتابه الحافل جامع العلوم والحكم .

وعلى كل فإن قوله " الطهور شرط الإيمان " فيه بيان واضح لفضيلة الوضوء في الإيمان ومكانته العلية من الدين وأنه عملٌ جليلٌ ، وطاعةٌ زكيةٌ يحبها الله سبحانه وتعالى من عباده ؛ فالله جل وعلا يحب التواين ويجب المتطهرين .

قال " والحمد لله تملأ الميزان " : وهذا فيه فضل الحمد .

والحمد هو الثناء على الله جل وعلا مع حبه جل وعز . وهو يُحمد على أسمائه الحسنى وصفاته العليا ، ويحمد تبارك وتعالى على نعمه التي لا تُعد ولا تستحصى ، والحمد كله لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً .

وهو أحد كلمات أربع هي أحب الكلام إلى الله سبحانه وتعالى ، كما قال صلى الله عليه وسلم " أحب الكلام إلى الله سبحانه الله والحمد لله و لا إله إلا الله والله أكبر " .

وهنا يخبر ^{عليه الصلاة والسلام} أن الحمد تملأ الميزان ؛ وهذا فيه إثبات الميزان ، وهو ميزان حقيقي ينصب يوم القيامة { ونضع الموازين القسط ليوم القيامة } وقوله " الحمد تملأ الميزان " : هذا يدل على المكانة العظيمة التي تكون للحمد في الميزان الذي يُنصب يوم القيامة . " الحمد تملأ الميزان " هذا يدل على ثقل الحمد في الوزن وكبر شأنه في الميزان ؛ كما جاء في الحديث الآخر قال ^{عليه الصلاة والسلام} " كلمتان خفيفتان على اللسان حبيبتان إلى الرحمن ثقيلتان في الميزان سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم " ففيه ثقل هذه الكلمة في الميزان .

وهذا فيه الحث على الإكثار من الحمد ، وأن يكون العبد دائماً حامداً لله تبارك وتعالى ليكون يوم القيامة من أهل الحمد ومن تثقل موازينهم بكثرة حمدهم لله جل وعلا . " و الحمد لله تملأ الميزان " والميزان المراد به ميزان حقيقي ينصب يوم القيامة ، له كفتان ؛ كفةٌ توضع فيها الحسنات وكفةٌ توضع فيها السيئات { فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون } وميزان يوم القيامة بمثاقيل الذر { فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره }

وقد جاء في حديث عبد الله بن عمر بن العاص أن النبي ^{صلى الله عليه وسلم} قال " يصاح برجل من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة وينشر له تسعة وتسعون سجلاً ؛ كلُّ سجل منها مدٌّ البصر ؛ فيقال أتنكر من هذا شيء ؟ فيقول : لا يارب ؛ فيقال : ألك حسنة ؟ فيهاب الرجل ويقول : لا ؛ فيخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله ؛ فيقول الرجل : ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ - أي ماذا تفيد هذه البطاقة مع هذه السجلات ! - قال : فتوضع البطاقة في كفة - أي من كفتي الميزان والسجلات في كفة - ؛ قال : فنثقلت البطاقة وطاشت السجلات ولا يتحمل مع اسم الله شيء " ؛ وهذا فيه ثقل لا إله إلا الله في الميزان ، وليس الاعتبار بمجرد قولها في الظاهر ، فالمنافق يقولها

ظاهراً وهو في الدرك الأسفل من النار ، بل الاعتبار بقولها عن صدق وعلم وعمل بما تقتضيه هذه الكلمة ، وإذا قُدِّرَ أن الإنسان صدق مع الله في قول لا إله إلا الله ، وقبلها صادقاً ملتزماً ما تقتضيه وتستوجبه فكان بذلك من أهلها ؛ ثم لم يتمكن من العمل ولقي الله سبحانه وتعالى ولم يتمكن منه ؛ كان لكلمته هذا الشأن العظيم ؛ ولهذا نرى في بعض الأحاديث الأخرى أن أناساً قالوا لا إله إلا الله ، ومع ذلك دخلوا النار ؛ إما دخولها مخلدين لأنهم أهل نفاق لم يقولوها إلا بالسنتهم فقط ، وإما دخولها للتطهير وهم عصاة الموحدين ممن يدخل النار ليُطَهَّرَ، قال عليه الصلاة والسلام " قال الله تعالى أخرجوا من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه أدنى مثقال ذرة من إيمان " .

فالشاهد أن هذه الكلمات الأربع ومن بينها كلمة الحمد ؛ كلمات عظيمة وجليلة القدر ، وحببية إلى الله سبحانه وتعالى وثقيلة في الوزن يوم القيامة ، وليست بشاقة على الإنسان لكن شأنها عند الله تبارك وتعالى عظيم ولا يزال العبد بخير في دنياه وأخراه مادام لسانه رطباً بذكر الله تسبيحاً وتحميداً وتهليلاً وتكبيراً .

قال " وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماء والأرض " : وكثيراً ما يأتي الحمد والتسبيح مقترنين في نصوص كثيرة سواءً مقترنين في جملتين أو مقترنين في جملة واحدة - سبحان الله والحمد لله أو سبحان الله وبحمده - .

والحمد فيه إثبات الكمال لله في أسمائه وصفاته وتفضله على عباده بالنعيم والمنن .

والتسبيح فيه تنزيه الله وتقديسه عما لا يليق به سبحانه وتعالى .

فجمع الحمد والتسبيح ما ينبغي على العباد في باب التوحيد العلمي ؛ لأن التوحيد العلمي يقوم على التنزيه والإثبات ؛ تنزيه الله عما لا يليق به ، وإثبات الكمال له سبحانه وتعالى في أسمائه وصفاته وأفعاله ، وسبحان الله والحمد لله جمعنا ذلك -التنزيه وإثبات الكمال لله جل وعلا -

فهما كلمتان عظيمتان وثقيلتان في الوزن يوم القيامة .

قوله : " تملآن أو تملأ " : هذا شك من الراوي هل هي تملآن - أي كلمتان - أو تملأ - أي إحدى الكلمتين - والمراد هنا الحمد لأنه أعلى وأعظم .

قال " تملأ أو تملأ ما بين السماء والأرض " : هذا فيه فضيلة حمد الله وتسبيحه ، وأن من فضل هذه الكلمة ومكانتها وشأنها أنها تملأ ما بين السماء والأرض ؛ وهذا فيه تنبيه أن هذه الكلمة وإن كانت في اللفظ قليلة لكنها في حقيقة أمرها كبيرة جداً وعظيمة للغاية ، وأكثر الناس لا يدركون عظمة هذه الكلمات ومكانتها ؛ فهنا يبين عليه الصلاة والسلام كبر شأن هذه الكلمات وعظم مكانتها ومنزلتها .

قال " والصلاة نور " : أي لصاحبها ؛ وهذا فيه مكانة الصلاة والمحافظة عليها ، وأنها نورٌ لصاحبها تضيء له طريقه ويُبصر من خلالها الحق والهدى وتكون عوناً له وسائقاً للاستقامة على طاعة الله كما قال تعالى {واستعينوا بالصبر والصلاة} ؛ فالصلاة نور لصاحبها .
وقد جاء في المسند وغيره بسند ثابت أن الصلاة ذُكرت عند النبي عليه الصلاة والسلام يوماً فقال " من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نورٌ ولا نجاة ولا برهانٌ يوم القيامة وحُشر مع قارون وفرعون وهامان وأمّية بن خلف " أي مع صناديد الكفر وأعمدة الباطل .

والشاهد قوله " من حافظ عليها كانت له نوراً " ؛ فالصلاة نور لصاحبها المحافظ عليها
فقوله هنا " والصلاة نور " أي نورٌ لصاحبها المحافظ عليها - كما يوضح ذلك الحديث الآخر
قال " من حافظ عليها كانت له نوراً " ثم قال " ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نورٌ " فالصلاة نور لصاحبها المحافظ عليها .

قال " الصلاة نور " .. ولم يقل نور في ماذا ؛ فماذا يفيد ؟ القاعدة عند أهل العلم أن الإطلاق يفيد التعميم ؛ فقوله " الصلاة نور " فيها تعميم ؛ فلم يقل الصلاة نورٌ في قلبه ، أو نورٌ في وجهه أو نورٌ له في طريقه أو نورٌ له في قبره إذا دُفن .. ؛ ليعم ذلك كله ؛ فالصلاة نورٌ له في قلبه ونور له في وجهه ونورٌ له في طريقه يُهدى إلى طريق الحق ويوق بإذن الله عز وجل من طريق الضلال وظلمات الباطل ، ونورٌ له في قبره ونور له يوم القيامة .

ف" الصلاة نور " هذا النور إنما يكون لأهلها المحافظين عليها ، وكما مر في الحديث " من حافظ عليها .. " ، وقوله تعالى {حافظوا على الصلوات و الصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين} .

فبالمحافظة على الصلاة والرعاية لها والعناية بها يتحقق للعبد هذا الموعود الكريم والفضل العظيم الذي ذكره النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث وفي غيره ؛

ففي الحديث الآخر قوله صلى الله عليه وسلم " كانت له نوراً وبرهاناً " : برهاناً أي دليلاً وشاهداً على صلاحه واستقامته وحسن إيمانه .

" ونجاة يوم القيامة " : من عذاب الله ؛ فالصلاة نجاة من عذاب الله وسخطه جل وعلا .
وترك الصلاة يفضي بالإنسان إلى النار قال تعالى { ما سلككم في سقر قالوا لم نك من المصلين } .

فقوله " والصلاة نور " : فيه بيان لفائدة الصلاة ومكانتها العظيمة ، وأن فائدة الصلاة فائدة عميمة تعود على العبد في دنياه وفي أخراه ؛ لأن معنى قوله " الصلاة نور " يدل على عموم الفضل المترتب على الصلاة وأنه يترتب عليها فضائل وآثار وثمار كثيرة في الدنيا والآخرة .
" والصدقة برهان " : البذل والنفقة في سبيل الله .

" برهان " : برهان على إيمان الشخص وسلامته من الشُّح {ومن يوق شُح نفسه فأولئك هم المفلحون} " الصدقة برهان" بذل الإنسان وإنفاقه في سبيل الله وسلامته من شُح النفس وبخلها ؛ هذا دليل وبرهان على الإيمان .

فقوله " الصدقة برهان " فيه فضيلة الصدقة وما يترتب عليها من الآثار الطيبة ، وأن فيها برهان على إيمان المتصدق ، وبرهان على سلامته من الشح والبخل ، وفيها دلالة على كرم نفسه وأنه من أهل السخاء والبذل ، ثم له ما أعده الله سبحانه وتعالى لعباده المنفقين المتصدقين .
" والصبر ضياء " : فيه فضيلة الصبر ومكانته العلية من الدين ؛ أي ضياء للإنسان في بصيرته وفي قلبه ، ودليل على قوة الإيمان في قلبه .

وقد دلت النصوص على أن الصبر المطلوب من العبد أنواعه ثلاثة :

- صبرٌ على طاعة الله .
 - صبر عن معصية الله .
 - صبر على أقدار الله المؤلمة .
- {فاصبر لحكم ربك} أي حكمه الشرعي جل وعلا ؛ فعله للأوامر ، وتركه للنواهي .
وأيضاً حكمه القضائي بما يقدره على عبده من مصائب وأمور قد تكون مؤلمة له .
فالصبر ثلاث أنواع ..

الصبر على الطاعة ؛ بإلزام النفس بها ، وأطرها على فعلها والمحافظة عليها .
والصبر عن المعصية ؛ بمنع النفس عن فعلها ، وكفها عن مقارفة الذنوب وارتكاب الآثام .

والصبر على أقدار الله تبارك وتعالى المؤلمة عندما يُصاب بأمور في ماله أو في نفسه أو في ولده أو في غير ذلك ؛ فيجب عليه أن يتلقى ذلك بالصبر .

ومن كان من أهل الصبر فاز بإذن الله تبارك وتعالى بثواب الصابرين ، والصابرون يوقون أجورهم يوم القيامة بغير حساب ؛ قال { وبشر الصابرين } أطلق الأمر ؛ أي بكل خير وفضل ورفعة في الدنيا والآخرة .

وعندما نطالع قصة يوسف عليه السلام وما اجتمع له في تلك القصة العجيبة من أنواع الصبر الثلاثة : الصبر على أقدار الله ؛ فحصلت له أقدار عظيمة ومهيبة ومر بمصاعب وتلقى ذلك كله بالصبر .

وتعرض عليه السلام إلى جانب الفتنة ؛ تهيأت له امرأة العزيز وتزيّنت وغلّقت الأبواب ودعته إلى نفسها ؛ قال { معاذ الله } هذا صبر ، واشترك معها النسوة ؛ وامتنع من ذلك كله صابراً ، وصبر مطيعاً لله ، داعياً إلى دينه ، باذلاً جهداً في ذلك ؛ وكانت العاقبة له في الدنيا والآخرة ؛ وفي تمام الآيات قال لإخوته : { إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين } .

فالصبر عاقبته حميدة ، الصبر على طلب العلم ، الصبر على العبادة ، الصبر بالبعد عن المعاصي والآثام وكف الأذى وغض البصر وحفظ الفرج ، الصبر على الأقدار { وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون } وقد قال شيخ الإسلام أخذاً من هذه الآية : " بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين " .

والصبر عمل قلبي يترتب عليه حفظ للقلب من الجزع ، وحفظ للجوارح من المعاصي ، ومحافظة للجوارح بلزوم الطاعات والعبادات المقربة إلى الله جل وعلا .

قال " والقرآن حجة لك أو عليك " : وهذا فيه مكانة القرآن ، وأن من يقرأ هذا القرآن لا يخلو من إحدى حالتين : إما أن يرفعه الله بالقرآن أو يضعه الله " إن الله يرفع بهذا القرآن أقواماً ويضع آخرين " ، ويقول بعض السلف " ما جلس أحدٌ مع هذا القرآن إلا قام منه إما بزيادة أو نقصان " ، يقول الله تعالى { وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين ءامنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون } ؛ ولهذا القرآن إما أن يكون حجة للإنسان أو حجة عليه ؛ هو حجة للإنسان إذا قرأه وتدبر آياته وعمل به بهذا يكون حجة له ، وأما إذا كان حظه من القرآن مجرد القراءة دون عمل بالقرآن ، ودون تحقيق لأوامر القرآن وانتهاء عما ينهى عنه القرآن ؛ فهذا القرآن حجة عليه لا له ،

ماذا يفيد الإنسان إذا قرأ القرآن أو حفظ القرآن ؟ وهو يستغيث بغير الله ؟ ويطلب المدد من غير الله ؟ ويلتجأ في عبادته إلى غير الله ؟ وقد نقض بفعاله مقصود القرآن الأعظم وغايته الكبرى وهو توحيد الله ؟ {أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون ينزل الملئكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاعبدون} فهذا مقصود القرآن ، وهذه الغاية من إنزال القرآن ؛ ولهذا القرآن إما حجة للإنسان أو عليه ؛ فإذا كان من أهل القرآن علماً وعملاً وتطبيقاً ؛ فهو حجة له ، وكان من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته ، وإلا فإن القرآن سيكون حجة عليه لا له ؛ مثل لو قرأ القرآن وحفظه للشهرة ؛ فهذا مقصوده ، أو ليقال فلان قارئ مجيد ، أو فلان صوته جميل ، وهم مدح الناس وثناؤهم عليه ؛ قد قال عليه الصلاة والسلام " أول من تسعر بهم النار يوم القيامة ثلاثة " وذكر منهم من قرأ القرآن ليقال قارئ ؛ فهذا حجة عليه ؛ فالقرآن فيه التوحيد وفيه الإخلاص وفيه ذم الرياء وفيه ذم إرادة الدنيا بالعمل وفيه الدعوة إلى العباداة والتقرب إلى الله سبحانه وتعالى ؛ وهذا مقصود إنزال القرآن ؛ كما قال البصري رحمه الله تعالى قال " أنزل القرآن ليُعمل به فاتخذ الناس قراءته عملاً " ؛ فمقصود القرآن العمل .

ثم ختم الحديث بقوله " كلُّ الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها.." كل الاس تغدو ؛ كلهم ماشين ؛ الجميع في الصباح يقوم ويمضي لأعماله ومهامه وغاياته ومقاصده ، والغدو هو الذهاب في الصباح الباكر ، ومن الناس الآن من لا يعرف الغدو فبالغدو عنده وقت نوم وكسل فهو لا يغدو أصلاً ؛ في الصباح خامد على فراشه لا يغدو ؛ الطير تغدو والبهائم تغدو والناس يغدون وهو هامد على فراشه ؛ هذه حاله باستمرار إلا اذا كان للإنسان ظرف بيوم الأمر يهون

وهذا الغدو الذهاب الباكر ؛ الناس في على قسمين :

قسم "بائع نفسه" ؛ أي لله ، "ومعتقها" من عقابه وسخطه ومن النار .

وقسم آخر : "موبق" أي مهلكها .

الناس يمشون في الصباح الباكر إلى مصالح كثيرة ؛ والمؤمن أول وأعظم ما يغدو إليه في الصباح صلاة الفجر جماعة مع المسلمين في المساجد ، هذا أول ما يغدو إليه المسلم يتوضأ في بيته ويتطهر ويخرج إلى بيت من بيوت الله ليصلي صلاة الفجر .

وصلاة الفجر - على وجه الخصوص - جاء في فضلها وفضل المحافظة عليها أحاديث كثيرة جداً ، وجاء أيضاً أحاديث في الوعيد على من يفرط في هذه الصلاة ويهملها ..

فأعظم شيء يغدو إليه العبد وهو أول شيء يغدو له في يومه صلاة الفجر ، ومن افتتح يومه بالغدو إلى صلاة الفجر فهو يوم مبارك ، مصحوب بالتوفيق والسداد والحفظ كما قال بعض السلف : " يومك مثل جملك إذا أمسكت أوله تبعك آخره " ؛ فإذا غدا الإنسان من أول اليوم لأداء هذه الصلاة فقد حاز الفضائل ، واجتمعت له الخيرات وتوكل له في يومه ؛ ولهذا يحسن بالمسلم أن يقرأ في فضائل صلاة الفجر والصلوات عموماً ليكون من المحافظين عليها .

وصلاة الفجر مجتمع فيها جميع هذه الفضائل المذكورة في هذا الحديث ؛ لأنك :

- تتطهر ؛ والوضوء شطر الإيمان .
 - في صلاة الفجر حمدٌ وتسبيحٌ لله جل وعلا في سجودك وركوعك ورفعك من الركوع ، وفي استفتاحك ، وفي قراءتك فيها حمدٌ وتسبيحٌ .
 - وهي صلاة " والصلاة نور " .
 - " والصدقة برهان " إذا كان المراد بها بذل المال والنفقة في سبيل الله فهذه الخصلة ليست موجودة في صلاة الفجر ، وإذا كان المراد بالصدقة بمعناها الواسع - كلُّ تكبيرة صدقة وكلُّ تهليل صدقة - ؛ فهذا موجود في صلاة الفجر .
 - " والصبر ضياء " لأن صلاة الفجر فيها صبر على طاعة الله سبحانه وتعالى ، وإذا كان البرد شديداً وصبر الإنسان على ما قد ينابه من تعب في وضوءه وفي مشيه للمسجد وفي نهوضه من فراشه ؛ فهذا كله صبر .
 - " القرآن حجة لك أو عليك " والله جل وعلا يقول { وَقرآن الفجر إنَّ قرآن الفجر كان مشهوداً } .
- فهذه الفضائل المذكورة في الحديث كلها مجتمعة في صلاة الفجر ؛ وبهذا تكون صلاة الفجر مع الجماعة تفتح لك باب الخير وباب الهداية وباب الإقبال على الفضائل .
- بخلاف المحروم والعياذ بالله الذي يبدأ يومه بالنوم عن صلاة الفجر فيُحرم من هذه الخيرات ، ويُحرم من هذه الفضائل ، ولا يُبارك له في يومه .

فهذه فائدة أرجو أن يكون فيها فائدة لنا جميعاً ، وأن تكون لنا سبباً للمحافظة على هذه الصلاة العظيمة - صلاة الفجر . وحث المفرطين والمضيعين على المحافظة على هذه الصلاة تعاوناً على البر والتقوى .

فمن الناس من يغدو في البر والإحسان والمصالح الدنيوية النافعة ، ومنهم من يغدو في الشر والفساد والإجرام ولهدم العقائد وتخريب الأديان وإضلال الناس ونشر البدع ؛ مثل من كان على نحلة فاسدة وعقيدة باطلة ؛ وكل يوم يذهب من الصباح الباكر يعلم الناس الباطل ويعلم الناس الضلال ، وينشر ذلك في الناس ؛ فهذا يهلك نفسه ويهلك غيره ؛ قال تعالى { ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء من يزرون } .

فالناس في الغدو قسمين :

قسم يغدو بائع نفسه إلى الله عز وجل ، ويشترى بذلك الجنة وثواب الله جل وعلا بالأعمال الصالحة والمصارعة للخيرات ومجاهدة النفس بالتقرب إلى سبحانه وتعالى بما يحبه و يرضاه .
والقسم الآخر : قسم يوبق نفسه : أي يهلكها ؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام في ذمه للكبائر : " اجتنبوا السبع الموبقات ، وسميت الكبائر موبقات لأنها تهلك صاحبها .
فلما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم الأعمال الصالحة ، وذكر فضائلها ؛ ختم الحديث بالإخبار عن أحوال الناس وأن هم على حالتين قسم يغدو في الصباح بائعاً نفسه إلى الله بالطهور ، بالصلاة ، بالتسبيح ، بالصدقة ، بالصبر .. إلى غير ذلك من الأعمال الصالحة .
وقسم آخر معرض عن ذلك كله ومقبل والعياذ بالله على الشر والفساد والإجرام ؛ فيهلك بذلك نفسه وتكون عاقبته الندم يوم القيامة .

قال الشيخ عبد المحسن :

[الأول : الطهور فُسر بترك الشرك والذنوب والمعاصي والتخلي عنها ، وفُسر بالوضوء للصلاة ، وفُسر الإيمان بالصلاة كما قال الله عز وجل { وما كان الله ليضيع إيمانكم } ؛ أي صلاتكم إلى بيت المقدس ، ويُرجح تفسير الطهور بالوضوء رواية الترمذي للحديث وفيه بدل الطهور الوضوء ، ورواية ابن ماجه بلفظ إسباغ الوضوء ، والشطر فُسر بالنصف ، وفُسر

بالجزء ، وُفسر بالجزء وإن لم يكن نصفاً ، وشرط الصلاة الوضوء كما جاء في الحديث "لا تقبل صلاة بغير طهور ولا صدقة من غلول" رواه مسلم .

والطهور بالضم اسم للفعل وهو التطهر ، وبالفتح اسم للماء الذي يُتطهر به ومثل ذلك لفظ الوضوء والسحور والوجور والسعوط] .

الشرح..

هذا بيان للجملة الأولى " الطهور شطر الإيمان " .. والطهور عند أهل العلم وعان منهم من قال الطهور .. أي الطهارة من الشرك والذنوب ومنهم من قال الطهور هو الوضوء وهو الأقرب لأن الحديث في بعض رواياته جاء مصرحاً بذلك.

والطهور بالضم - ضم الطاء - هو مباشرة العمل أي أداء العبد لهذا الفعل هو الطهارة ، وأما بالفتح - الطهور - فهو الماء الذي يُستعمل للطهارة .

[ثانياً : قوله "والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماء والأرض" : الميزان هو ميزان الأعمال ، وهو يدل على فضل التسبيح والتحميد ، والتسبيح هو تنزيه الله عن كل نقص ، والتحميد وصفه بكل كمال، وقوله "تملآن أو تملأ" يحتمل أن يكون ملء ما بين السماوات والأرض للتسبيح والتحميد معاً أو لأحدهما ، ويحتمل أن ملء ما بين السماء والأرض لهما معاً ، والخبر جاء على الشك من الراوي هل هو بالثنائية أو بدونها] .

الشرح..

الحمدُ والتسبيحُ جُمع فيهما ما يقوم عليه التوحيد العلمي ؛ لأن التوحيد العلمي يقوم على الإثبات بلا تمثيل والتنزيه بلا تعطيل ، والإثبات يدل عليه الحمد ، والتنزيه يدل عليه التسبيح ، وإذا أتى المسلم بهاتين الكلمتين وحافظ عليهما وفهم ما تدلان عليه من إثبات الكمال وتنزيه الله جل وعلا عن النقائص ؛ ترتب على ذلك خير عظيم في تحقيق الاعتقاد وتحديد الإيمان وترسيخه في القلب ، وأيضاً ترتب على ذلك الآثار والثمار والعوائد الكبيرة التي تُجنى من هذا الذكر العظيم الذي هو من أحب الكلام إلى الله عز وجل

[ثالثاً : قوله " والصلاة نور " يشمل النور في القلب ونور الوجه ونور الهداية والنور يوم القيامة] .

الشرح..

لأنه قال "نور" وأطلق ولم يقيد ، والقاعدة أن المتعلق إذا حُذف يفيد العموم ؛ فقال :
"الصلاة نور"؛ فلم يقل مثلاً " في وجهه " أو " في قبره " أو " في قلبه " أو " في حشره " ؛
فيفيد العموم لذلك كله.

[قوله " الصدقة برهان " : أي دليلٌ على إيمان صاحبها وصدقه؛ وذلك أن النفوس تشح بالمال ، فمن وقى شح نفسه وتصدق كان علامة على إيمانه ، ولأن المنافق قد يصلي رياءً ، ولا تسمح نفسه بإخراج الصدقة لبخله وحرصه على المال] .

الشرح..

.. والله تعالى يقول {ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون} .

[خامساً : قوله "والصبر الضياء " أي الصبر على الطاعات ولو شقت على النفوس وعن المعاصي ولو مالت إليها النفوس وعلى أقدار الله المؤلمة فلا يجزع ولا يتسخط ، وحصول ذلك من المسلم يدل على قوة إيمانه ونور بصيرته ؛ ولهذا وصف الصبر بأنه ضياء].

الشرح..

قوله " الصبر ضياء " أي الصبر بأنواعه الثلاث - الصبر على الطاعات والصبر عن المعاصي والصبر على أقدار الله المؤلمة - وإذا اجتمع الصبر في العبد على الأنواع الثلاثة كان ضياءً له ودليل على قوة إيمانه ، الصبر خصلة وعمل قلبي يصاحب المسلم في كل حياته ، ومنزلة من منازل السائرين إلى المتقربين إلى الله يستصحبها المسلم في كل حياته ؛ فالصبر يُحتاج إليه في الطاعات كلها لتُفعل ، والصبر تحتاج إليه في المعاصي لتُترك ، ويحتاج إليه عند الأقدار المؤلمة حتى لا يجزع العبد ولا

يتسخط ، يقول تعالى {ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه} قال بعض السلف : " هي المصيبة تصيب المسلم فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم " .

فالصبر خصلة وعمل يحتاج إليه المسلم وأن يستصحبه في حياته كلها ليؤدي الطاعات وليكف عن المعاصي ولئلا يجزع ويتسخط عندما يصاب بشيء الأقدار المؤلمة .

[سادساً: قوله " والقرآن حجة لك أو عليك " : أي أن القرآن إما أن حجة للإنسان إذا قام بما يوجب عليه وما هو مطلوب منها في القرآن من تصديق الأخبار وامتنال الأوامر واجتناب النواهي وتلاوته حق تلاوته ، وإما حجة عليه إذا أعرض عنه ولم يقم بما هو مطلوب منه ، ومثل هذا الحديث قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه " إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين "] .

الشرح...

القرآن إما حجة للإنسان أو حجة عليه ، هذا الحديث فيه إيقاظ للقلوب ، وإيقاظ لمن أكرمهم الله سبحانه وتعالى بمأدبة القرآن المباركة ، وجلسوا مع كتاب الله يقرؤونه ، وأمضوا فيه أوقاتاً تلاوة لكتاب الله عز وجل ؛ عليهم أن يحاسبوا أنفسهم دائماً في ضوء هذا الحديث - القرآن حجة لك أو عليك - فعليه أن يحاسب نفسه في ضوء هذا الحديث ؛ إن كان من أهل العمل به والتطبيق للمطلوب منه في القرآن ؛ فالقرآن حجة له ، وإن كان ليس كذلك ؛ بل معرض عن أحكام القرآن ، معرض عن أوامره ، مرتكب لما نُهي عنه في القرآن ؛ فالمقصد الذي أنزل القرآن من

أجله ليس موجوداً فيه ؛ فالقرآن أنزل ليعمل به ، إذا كان معرضاً ومتخلياً عن العمل بالقرآن الكريم كان القرآن حجة عله لا له .

فلو أخذ قارئ القرآن مثلاً ووقف يوماً يحاسب نفسه في هذا الباب وقال : كم في القرآن من آية لإقامة الصلاة والمحافظة عليها والوعيد على تركها والتهديد على التفريط فيها ؟ ثم نظر في حاله مع هذه الصلاة التي هي أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين ؛ هل هو يواظب عليها؟ هل هو من المحافظين ؟ هل يهتم لصلاته أكثر من اهتمامه لديناره ودرهمه أم الدينار والدرهم مقدمان عليها ؟ ما حاله مع هذه الصلاة ؟

إن كان فعلاً من المحافظين عليها المواظبين على أدائها وقلبه مهتم بها ومعلق بأدائها، كلما انقضت صلاة استقبال الأخرى ، وحرص على أدائها ؛ كان من أهل هذه الآيات الكثيرة في القرآن التي فيها الأمر بإقام الصلاة .

وإذا كان مضيقاً فما حظه من هذه الآيات ؟ إن كان حظه مجرد التلاوة لها والصوت الجميل ؛ فهذه الآيات حجة عليه لا له .

ينظر أيضاً في جانب الإخلاص في العمل لله جل وعلا ؛ كم في القرآن من آيات فيها الدعوة للإخلاص ؛ فإذا كانت نفسه تميل للمراءاة وتميل للسمعة وتميل للشهرة ؛ فأين حظه من آيات الإخلاص ؟ وهي كثيرة في كتاب الله جل وعلا .

وهكذا يحاسب نفسه ؛ فالقرآن حجة للإنسان الذي عمل بالقرآن وعمل بما طُلب منه أو حجة على من فرط في ذلك وضيع وأهمل .

[سابعاً : قوله " كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها " : معناه أن الناس يغدون ويسعون فينقسمون إلى قسمين : قسم يبيع نفسه على الله بفعل الطاعات واجتناب المعاصي ؛ فيعتقها بذلك من النار، ويبيعه عن إضلال الشيطان وإغوائه ، وقسم يوبقها بارتكاب الذنوب المعاصي وذلك بوقوعه في الشهوات المحرمة التي توصله إلى النار] .

الشرح..

معناه أن الناس كلهم يسعون وكلهم ماضون لأعمال لكن الأعمال التي هم ماضون فيها منقسمون فيها إلى قسمين : القسم الأول : الذي يعمل أعمالاً يكون بها نفسه على الله بفعل الأوامر وترك النواهي والتقرب إلى الله سبحانه وتعالى بما شرع ؛ وهذا فعل الإنسان الذي نفسه كريمة عليه وعزيزة عنده وغالية ؛ فيبيعه على الله جل وعلا بفعل الأوامر وترك النواهي .

القسم الآخر : ترخص نفسه عنده جداً فيبيعه والعياذ بالله على الشيطان ، أو يبيعه في دروب الضلال والضياع واللذات المحرمات التي يذوقها الإنسان في لحظة وتبقى من بعدها العواقب الأليمة والآثار المخزية ؛ يقول الشاعر :

تفنى اللذادة ممن نال صفوتها من الحرام ويبقى الخزي والعار

وتبقى عواقب سوء من مغبتها لا خير في لذة من بعدها النار

إذا كان الإنسان يبيع نفسه في سوق الهوى وفي سوق الخنى وفي سوق الفجور وفي سوق الضياع وفي سوق الضلال ؛ هذا نفسه رخصت عليه ؛ فباعها بأحقر وأخس ما يكون ، ودنسها ؛ ولهذا قال الله جل وعلا { قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها } أي غمسها في الرذيلة ، وأدخلها في الضلال والباطل والضياع ؛ فهذا نفسه ليست بغالية عنده ؛ ولهذا باعها بأخس الأثمان وأحقر الأعمال . والذي تشرف نفسه عنده وتكون عزيزة ؛ فلا يرضى أن يبيعها إلا على الله جل وعلا بفعل ما أمر به جل وعلا وترك ما نهي عنه وبالمحافظة على أوامره سبحانه والمصارعة للخيرات ؛ ولهذا بعض أهل الفضل والنبل اشتهروا وعُرفوا بين الناس بامتلاء أوقاتهم بالأعمال الصالحة حتى يُذكر في بعض تراجم الأولين من أهل العلم والفضل أن بعضهم لو قيل له أن ملك الموت بالباب لقبض روحك ؛ ليس عنده زيادة عمل ؛ فكل وقتة مليء ، بينما لو قيل للآخر أن ملك الموت بالباب فيقول : ليته ينتظر ، يعطيني فرصة ، يوجد أشياء أريد أفعلها ، فرطت في أشياء ..

فأكثر ما يهلك الناس طولُ الأمل ؛ ولهذا يتمادى به التسويف والتفريط إلى أن يفاجئ بمفارقته للحياة ومغادرته للعالم على تضييعه وتفريطه ؛ ولهذا من لطيف ومفيد ما يُذكر أن أحد أئمة السلف أراد أن يعظ رجلاً مفراطاً ؛ أخذه إلى المقابر ، وأشار له إلى بعض القبور وقال له : لو كنت في مكان هؤلاء ماذا تتمنى ؟ قال أتمنى أن يعيدني الله إلى الدنيا ثانية وأن أعمل صالحاً غير الذي كنتُ أعمل ؛ قال له أنت الآن فيما تتمناه اعمل صالحاً . والكيس من عباد الله من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني .

[ثامناً : مما يستفاد من الحديث :

الأول : بيان فضل الطهور .

الثاني : بيان فضل التحميد والتسبيح .

الثالث : إثبات الميزان ووزن الأعمال .

الرابع : فضل الصلاة وأنها نورٌ في الدنيا والآخرة .

الخامس : فضل الصدقة وأنها علامة على إيمان صاحبها .

السادس : فضل الصبر وأنه ضياء للصابرين .

السابع : الحث على العناية بالقرآن تعلماً وتدبراً وعملاً ليكون حجة للإنسان .

الثامن : التحذير من الإخلال بما يجب نحو القرآن لئلا يكون حجة عليه .

التاسع : الحث على كل عمل صالح يعتق الإنسان نفسه به من خزي الدنيا وعذاب الآخرة .

العاشر : التحذير من كل عمل سيء يجعل صاحبه من أولياء الشيطان ويفضي بصاحبه إلى النار

الشرح..

جميع هذه الفوائد المستنبطة والمستفادة من هذا الحديث تدلنا إلى أن هذا الحديث من أحاديث الفضائل - فضائل الأعمال - وهذا باب في السنة الصحيحة كفاية فيه وغنية ، والذي ينبغي على من اتجهت همته إلى وعظ الناس وترغيبهم في الفضائل أن يُعنى بما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ففيما صح عنه كفاية وغنية ، وأما الأشياء التي لم تصح ولم تثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم فالذي ينبغي على العبد أن يجتنبها وخاصة المكذوبات والموضوعات في هذا الباب وهي كثيرة جداً ، وجماعة من القصاص والوعاظ الأولين دخلوا مدخلاً قبيحاً وكذبوا أحاديث عديدة على النبي صلى الله عليه وسلم في باب الفضائل ، وربما كان قصدهم ترغيب الناس في الفضائل ؛ فيذكرون فضائل لأعمال بعضها أعمال من أصلها ثابتة وبعضها أعمال لا أصل لها ؛ ثم قالوا: نحن نكذب له ولا نكذب عليه ؛ أي أننا نكذب في أشياء نساعد فيها لبيان الدين !!

وهذا الكلام من لوازمه الطعن في بيانه عليه الصلاة والسلام ونصحه وذكره للترغيب والترهيب مع أننا نعتقد أنه عليه الصلاة والسلام بين الدين كله بما في ذلك جانب الترغيب والترهيب أتم بيان ، ويسع العبد في دعوته وترغيبه وترهيبه ما وسع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من الحق المبين والهدى الثابت عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

فمثل هذا الحديث وأمثاله من أحاديث فضائل الأعمال يعتني المسلم بحفظها ويعتني بنشرها وبيان معانيها للناس على جادة النبي صلى الله عليه وسلم القويمة وجادة صحابته الكرام ، وأما الأشياء

الضعيفة والواهية والموضوعة فالذي ينبغي على المسلم أن يكون منها على حذر وفيما صح
كفاية وعُنية .

سبحانك اللهم و بحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، اللهم صلّ وسلّم على عبدك
ورسولك نبينا محمد و آله وصحبه

..*

الدرس الحادي والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .
أما بعد ..

الحديث الرابع والعشرون

عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن ربه عز وجل أنه قال " يا عبادي
إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ، يا عبادي كلكم ضال إلا من
هديته فاستهدوني أهدكم ، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم ، يا
عبادي كللكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم ، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل
والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم ،، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري
فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا
على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم
وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي
شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني
فأعطيت كل واحد مسأله ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أُدخل البحر
، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن
وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه " رواه مسلم

الشرح..

هذا حديث قدسي ؛ والحديث القدسي هو الحديث الذي يقول فيه النبي صلى الله عليه وسلم " قال الله
تعالى " ، أو يرويه الصحابي بقوله " عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه " ، أو نحو ذلك من
العبارات .

وهو من كلام الله جل وعلا لأن هذه الكلمات لا يقولها النبي إلا ناقلاً ؛ فقلوه يا عبادي ..
يا عبادي .. يا عبادي .. ؛ هذا كله كلام الله عز وجل .

وهو حديث فيه دلالة على عظمة الله جل وعلا وكماله وجلاله وتنزهه تبارك وتعالى عما لا يليق بجلاله العظيم وكماله سبحانه وتعالى ، ويدل أيضاً على عظم فضله جل وعلا ومنه على عباده ، ويدل أيضاً على أن الأمور كلها بيد الله ، الطعام والشراب والغذاء والهداية والفلاح ؛ كل ذلك بيده .

ويدل أيضاً على أنه تبارك وتعالى غني عن العباد وعن طاعتهم ، وأنه سبحانه وتعالى لا تنفعه طاعة من أطاع ولا تضره معصية من عصى ، ويدل أيضاً على كمال فضله وسعة جوده سبحانه وتعالى وأنه لا يتعاضمه حاجة أن يعطيها أو ذنب أن يغفره ؛ فالذي يريد من خيرات الدنيا والآخرة فليسأله جل وعلا ، ومن يريد إقالة عثرة أو غفران ذنب فليسأله جل وعلا ، لا يتعاضمه شيء مهما عظمت الحاجة ومهما كبر الذنب .

ويدل أيضاً على أنه سبحانه وتعالى أحصى على العباد أعمالهم وما قدموه في هذه الحياة وأنه يوفيههم بذلك يوم القيامة ..

إلى غير ذلك من المضامين العظيمة والدلائل المباركة المتعلقة بالاعتقاد والعمل .
فهو حديث قدسي جامع لأبواب الخير عقيدةً وعبادةً .

وهو يتكون من عشر جمل مبدوءة بهذا النداء . يا عبادي - ، أو هو متكون من عشر نداءات -
يا عبادي - عشر مرات تكررت في هذا الحديث ، والنبي صلى الله عليه وسلم نقل الكلام كما بلغه ربه جل وعلا . فأني وقع سيقون في قلب المؤمن الصادق عندما يسمع هذا النقل العظيم الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يقول فيه رب العزة سبحانه وتعالى " يا عبادي .. يا عبادي .. يا عبادي .. متكررةً على الأسماع في هذا الحديث المبارك عشر مرات ؟

وهنا يفتح قلب المؤمن وتتهياً أحاسيسه ومشاعره لحسن الاستماع لما يرد في هذا الحديث من المضامين المباركة والأمور الجليلة ، ولا شك أن كل مرة ترد هذه الكلمة في الحديث - يا عبادي - لا شك أن لها شأنًا في قلوب أهل الإيمان ومكانة في قلوب الصادقين .

قال فيما يرويه ع ربه .. " يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا " : فهو سبحانه وتعالى حرم الظلم على نفسه فلا يفعله سبحانه ، ولا يقع منه جل وعلا ؛ {وما ربك بظلام للعبيد} ، {ولا يظلم ربك أحداً} ؛ فالظلم لا يقع منه جل وعلا ولا يفعله سبحانه . والظلم وضع الشيء في غير موقعه ، وهو نقيض العدل وضده ، والله سبحانه وتعالى عدل ؛ عدل في أحكامه الكونية القدرية ، وعدل في جزاءه سبحانه وتعالى ، وشرعه كله عدل . والظلم منزّه عنه جل وعلا ، والظلم نقص ، والعدل كمال ؛ فالله جل وعلا منزّه عن الظلم متصف بالعدل .

قال " وجعلته بينكم محرماً " : أي فيما شرعت وكتبته بين العباد ؛ شرعاً وديناً الظلم محرم بينهم؛ ولهذا جاءت النصوص الكثيرة في تحريم الظلم والتحذير منه ، وبيان سوء مغيبته وخطر عاقبته .

قال " فلا تظالموا " : أي لا يظلم بعضكم بعضاً ؛ فالظلم ظلمات يوم القيامة ، والظالم عقابه عند الله جل وعلا أليم ، وعاقبته وخيمة .

ثم قال " يا عبادي كلّم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم " : أي أن الهداية والصالح والتوفيق بيده جل وعلا ، والمهتدي من عباد الله من هداه الله ، يقول الله تعالى {أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء} .

قال " كلّم ضال " : ضالٌّ عن طريق الاستقامة ، وعن سبيل الهداية ، وعن علوم الشريعة ، وعن حقائق الدين وتفصيل الإيمان .

قال " إلا من هديته " : من كتبت له هداية لمعرفة الدين وتفصيله وشرائعه وأحكامه ؛ ولهذا قال جل وعلا لنبيه عليه الصلاة والسلام {وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان} ، وقال في الآية الأخرى {ووجدك ضالاً فهدى} ؛ أي ضالاً عن تفصيل الشرائع والأحكام .

فالهداية إلى تفصيل الدين وحقائق الإيمان وشرائع الإسلام ؛ هذا لا يكون ولا يقع لأحد إلا إذا منّ عليه الله سبحانه وتعالى بذلك ، ولا يمكن لبشر أن يحصل من ذلك على شيء لا لنفسه ولا لغيره إلا إذا كتب الله جل وعلا ذلك ؛ ولهذا قال الله جل وعلا لنبيه عليه الصلاة والسلام {إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء} ، وقال {وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين} ؛ فأمر الهداية بيد الله سواءً هداية الإنسان لنفسه إلى الصراط المستقيم أو هدايته لغيره ؛ كله

بيد الله جل وعلا؛ وهذا معنى قوله "كلكم ضال - وهذا من صيغ العموم - إلا من هديته " ؛ أي إلا من كتبت له هدايةً وصلاً واستقامة .

ولا يتنافى هذا الحديث مع قوله عليه الصلاة والسلام " كل مولود يولد على الفطرة " ، وكذلك قوله جل وعلا في الحديث القدسي " خلقت عبادي حنفاء فأتتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم " ؛ فالعبد مع كونه مولوداً على الفطرة؛ هدايته إلى الصراط المستقيم وحقائق الإيمان وتفاصيل الشرائع والبعد عن ظلمات الجهل والباطل {والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً} ؛ هذا كله لا يتحقق لعبد إلا إذا كتبه الله سبحانه وتعالى له .

" فاستهدوني أهدكم " : أي اطلبوا مني الهداية ؛ فالسين للطلب .

أطلبوا الهداية من الهداية بيده وهو الله سبحانه وتعالى .

" أهدكم " : أوفقكم لها وأيسركم لها ؛ وهذا فيه أهمية سؤال الله جل وعلا الهداية ، وفيه دلالة على أن سؤال الله تبارك وتعالى الهداية هو أهم سؤال وأعظمه ؛ فإن سؤال الله الهداية هو سؤاله لأعظم مطلب وأجل مقصد ؛ ولهذا كان هذا السؤال فرضاً على المسلمين في اليوم واللييلة سبعة عشرة مرة ؛ قال تعالى {اهدنا الصراط المستقيم} .

ولهذا كثر في دعاء النبي عليه الصلاة والسلام سؤال الله الهداية فعلاً وتوجيهاً ؛ جاء في دعواته هو الشريفة ، وجاء أيضاً فيما علمه الصحابة رضي الله عنهم من دعاء يدعوا الله به قال له علي رضي الله عنه قال " سل الله الهداية والسداد " ،

وفي دعاء القنوت لحديث الحسن قال " اللهم اهديني فيمن هديت " ،

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في استفتاح صلاة الليل " اللهم اهديني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم " .

وكان إذا خرج من بيته يقول " اللهم إني أعوذ بك أن أضل أو أُضل " ،

وكان يقول في دعائه كما في الصحيحين " اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت أعوذُ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني " ،

وكان من أكثر دعائه " يامقلب القلوب ثبت قلبي إلى دينك " ؛ إلى غير ذلك مما صح وثبت

عنه صلوات الله وسلامه عليه .

فسؤال الله جل وعلا الهداية هو أعظم مطلب وأجل مقصد ؛ ولهذا ينبغي على العبد أن يكثر من هذا الدعاء وأن يُعنى به .

ثم تأمل هنا قول ربنا جل وعلا "استهدوني أهدكم" وهذا فيه أن الله جل وعلا سميع الدعاء وأنه قريب من العباد وأنه مجيب من دعاه ولا يخيب من ناداه ؛

قال "استهدوني أهدكم" ولهذا كان عمر رضي الله عنه يقول " لا أحمل هم الإجابة ولكن أحمل هم الدعاء " لأن الله عز وجل وعد بأن يجيب من دعاه ، وأن يحقق رجاء من ناداه ؛ قال تعالى {وقال ربكم ادعوني أستجب لكم} ، وقال {وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان} ، وهذا المعنى ظاهر في الحديث "استهدوني أهدكم" ؛ ولهذا ما أحرى العبد وأجدره بأن يكون دائماً وأبداً ملحاً على الله بسؤال الهداية قائلاً : اهدنا الصراط المستقيم ، أو : اللهم إني أسألك الهدى والسداد ، أو كما في الحديث الآخر : اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفة والغنى ، أو غير ذلك من الصيغ .

وهنا قال : "استهدوني" : أي اطلبوا مني الهداية ، ولم يذكر المتعلق فيعُم ؛ ولهذا قوله : اهدنا أو اللهم إني أسألك الهدى والسداد ؛ هذا يتناول الهداية لكل خير ، الهداية للجنة والهداية للصرط المستقيم ، والهداية للعلم النافع ، والهداية للقيام بالعمل الصالح ، والهداية للثبات على هذا الدين والسلامة من الضلال .. إلى غير ذلك ؛ فهذا يتناول ذلك كله .

فالشاهد أن هذه دعوة عظيمة ومطلب جليل ينبغي على المسلم أن يعنى به ، ويسأل الله الهداية وهو معتقد ومقرّ ومؤمن أن هدايته بيد ربه ، لا يملك هو هداية نفسه ولا يملك نجاتها ولا سلامتها من الزيغ والضلال ؛ فهذا بيد الله ؛ فيلح على الله بالدعاء ويُتبع الدعاء بذل السبب ؛ كما قال عليه الصلاة والسلام " احرص على ما ينفعك واستعن بالله " .

قال في الجملة الثالثة " يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم " : وهذا فيه أن الله هو وحده هو الرزاق ، وأن الرزق بيده والنعمة بيده ؛ فهو جل وعلا الذي بيده الرزق {وما من دابة إلا على الله رزقها} ، {فابتغوا عند الله الرزق} .

فالرزق كله بيد الله جل وعلا ، وهو المتفضل على العباد المتكفل بأقواتهم وأرزاقهم وشرابهم وطعامهم وغذائهم ؛ ولهذا قال "كلكم جائع إلا من أطعمته" ؛ أي إلا من مننت عليه بالطعام

والغذاء وإلا يبقى جائعاً ؛ وهذا فيه أن كل طعام يطعمه العبد فهو بتيسير الله جل وعلا ورزقه في الناس والدواب ، أرزاق العباد بيد الله وهو المتفضل بها سبحانه وتعالى .

قال " فاستطعموني أطعمكم " : أي اطلبوا مني ذلك ؛ ولهذا كان من هدي نبينا عليه الصلاة والسلام كل يوم بعد صلاة الصبح يقول : " اللهم إني أسألك علماً نافعاً ورزقاً طيباً وعملاً متقبلاً " ، فرزق العباد بيد الله جل وعلا ؛ وهذا يفيد المسلم فائدة عظيمة وهي البعد عن الحرام وأكل المحرمات أو الوقوع في جلب الأموال من طرق محرمة، لماذا يفعل العبد ذلك ورزقه بيد الله ؟ أطلبه منه جل وعلا وابذل السبب المباح المشروع { فابتغوا عند الله الرزق } ، { فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه } وكم هي واسعة وكثيرة أبواب الرزق المباحة بتوفيق الله جل وعلا ومنه لعباده .

قال " فاستطعموني أطعمكم " : وفي الحديث دلالة على باب الشكر ؛ فما يكون عندك من طعام أو شراب أو غذاء أو كساء هذه منة الله عليك ؛ فكن لله حامداً وشاكراً لله على نعمائه ؛ وقد كان من هدي نبينا عليه الصلاة والسلام حمد الله إذا فرغ من الطعام بصيغ عديدة ثبتت عنه ، وقال عليه الصلاة والسلام " إن الله ليرضى عن عبده أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها " وكان عليه الصلاة والسلام كما ثبت في الصحيح إذا أوى إلى فراشه لينام قال " الحمد الذي أطعنا وسقانا وكفانا وآوانا وكن من لا كافي له ولا مؤوي " ؛ فالعبد ينبغي عليه دائماً أن يذكر نعمة الله عليه في الطعام والشراب والكساء والمأوى ، وأن يكون حامداً شاكراً لله جل وعلا .

قال " يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم " : هذا اللباس الذي يوارى به العبد سواته ، ويلبسه متجماً ومتزيناً به ؛ هذا منة من الله وفضل منه سبحانه وتعالى ، سخر للعباد وسائل كثيرة ومجالات عديدة يتخذون منها اللباس ؛ من أصوافها ومن أوبارها ومن أشعارها .. ؛ فأكرم الله جل وعلا العباد باللباس بأنواعه ، ولباس للشتاء ، ولباس للصيف ولباس للبرد ولباس للحر ؛ هذا كله من فضل الله جل وعلا .

ولهذا على العبد أن يدعو الله ويسأله سبحانه وتعالى حاجته من لباس أو غير ذلك حتى ولو انقطع شسُع نعله يسأل الله ، كل حاجتك عند الله سبحانه وتعالى ويده .

" أكسكم " : أي أمنُ عليكم بالكساء - وهو اللباس - ؛ وهذا فيه أهمية الدعاء لذلك ، ومن الدعوات الماثورة عن نبينا عليه الصلاة والسلام " اللهم آمّن روعاتي واستر عوراتي " ؛ وهذا جاء مطلقاً غير مقيد

بوقت ، وجاء مقيداً في أذكار الصباح والمساء ؛ ويدخل في عموم قوله "واستر عوراتي" المنه في اللباس الذي يتجمل به المرء ويستتر به عورته ؛ فهذه منه الله سبحانه وتعالى وفضله على عباده .

ثم قال " يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار ... " : أي أخطأؤكم كثيرة وعديدة منها ما يقع بالليل ومنها ما يقع بالنهار ، كلكم تذنبون كما جاء في الحديث أن النبي عليه الصلاة والسلام قال " كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون " ، قال هنا " يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار ... " والعبد عرضة للخطأ والزلل والهفوة، لكن المؤمن يعلم دائماً وأبداً أن ربه توابٌ غفورٌ رحيم ؛ ولهذا يسارع المؤمن بالتوبة والإنابة إلى الله جل وعلا وطلب غفران الذنوب ؛ ولهذا قال :

" وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم " : وقوله " أنا أغفر الذنوب جميعاً " فيه طردٌ للقنوط واليأس الذي ربما يستولي على بعض الناس أو يمليه لهم الشيطان عندما تكثر منهم الذنوب ، فإذا تحرك في قلبه شيءٌ من الإقبال على الله والرغبة في التوبة ؛ أوهمه الشيطان أو نفسه الأمارة بالسوء أن حجم ذنوبه كبير وعددها كثير ، فربما استولى عليه قنوطه ولهذا قال هنا " وأنا أغفر الذنوب جميعاً " : يعني مهما عظمت ومهما كثرت فلا تقنط ؛ ولهذا قال جل وعلا في سورة الزمر { قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم } أي بالمعاصي والذنوب فكثرت منهم وتعددت { لا تقنطوا من رحمة الله } لا يستولي عليكم قنوط مهما كان حجم الذنب ومهما كانت كثرت { إن الله يغفر الذنوب جميعاً } أي في حق من تاب منها وأتاب إلى الله سبحانه وتعالى ؛ ولهذا لا تعارض بين هذه الآية وقول الله جل وعلا في الآية الأخرى { إن الله لا يغفر أن يشرك به } فالمراد هنا أي في حق من مات على ذلك ، من مات مشركاً ؛ أما مادام الإنسان حي فإن باب التوبة أمامه مفتوح من أي ذنب مهما عظم الذنب وكبر الجرم ، فهو سبحانه وتعالى " ييسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار وييسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل " .

" فاستغفروني أغفر لكم " : أي اطلبوا مني المغفرة ؛ أغفر لكم الذنوب بسترها والتجاوز عنها ؛ فهو جل وعلا غفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ، ومن استغفر الله جل وعلا وطلب منه الغفران غفر له ، ومن أسماه سبحانه وتعالى الغفور والغفار ؛ فهذا فيه أولاً ضعف العبد وأنه عرضة للزلل والوقوع في الذنب ، وفيه عظم من الله سبحانه وتعالى وفضله على العباد بغفران الذنوب والتجاوز عن الزلات وأن العبد المؤمن إذا علم أن له رباً يغفر الذنب ويتجاوز عن الذنب وطلب منه المغفرة لا يرده الله سبحانه وتعالى بل يغفر له .

ثم قال " يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني " : وهذا فيه غناه جل وعلا عن العباد؛ { يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد }؛ فالله سبحانه وتعالى غني عن العباد وعن طاعتهم وعن عباداتهم وعن استغفارهم وعن توبتهم وعن ركوعهم وسجودهم .. إلى غير ذلك ؛ غني عن ذلك كله لا تنفعه طاعة من أطاعه ، ولا تضره سبحانه وتعالى معصية من عصاه ؛ فالعباد لم يبلغوا نفعه ولم يبلغوا ضره ، وكل ما يقع من العباد من أفعال خير وبر وإحسان وكرم وغير ذلك من أبواب الخير ؛ كل ذلك لا ينفعه جل وعلا ولا يزيد في ملكه ؛ لأنه غني عن العباد وعن طاعتهم وعن عباداتهم . وكذلك ما يقع من العباد من مساوئ وشنائع وكفر وضلال وفجور ؛ هذا كله لا يضره سبحانه وتعالى شيئا . فقلوه جل وعلا " يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني " ؛ هذا فيه كمال غنى الله جل وعلا عن العباد وأنه سبحانه وتعالى لا تنفعه طاعة من أطاع ولا تضره معصية من عصاه { من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها } أما الله سبحانه وتعالى فلا تنفعه طاعة الطائعين ولا تضره معصية العاصين .

ثم قال " يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا " : وهذا فيه تقرير لما سبق وهو أن العباد لن يبلغوا ضره ولن يبلغوا نفعه ، ولو أنهم كانوا جميعاً على الطاعة والهداية والاستقامة لا ينفعه شيئا ، ولو أنهم كانوا جميعاً على الفجور والظلم والكفر لا يضره شيئا جل وعلا .

فهذا فيه أنه سبحانه وتعالى لا يزيد ملكه طاعة من أطاع ، ولا ينقص أيضاً ملكه معصية من عصى ، ، فطاعة الطائعين وصلاح الصالحين واستقامة المستقيمين هذه لا تزيد ملك الله شيئا ، وأيضاً كفر الكافرين وضلال الضالين وفجور الفاجرين أيضاً لا ينقص ذلك من ملكه شيئا ، قال " لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا " يعني لو أن الأولين والآخرين من الثقلين - الجن والإنس - كانوا جميعاً في التقوى على حال أتقى رجل منهم ما زاد ذلك في ملك الله شيئا ؛ وأتقى رجل هو سيد ولد آدم صلوات الله ، وكذلك عكس ذلك لو كانوا جميعاً من الثقلين - الجن والإنس وسلامه عليه " إن أخشاكم وأتقاكم لله أنا " ، وكذلك عكس ذلك لو كانوا جميعاً من الثقلين - الجن والإنس

— عل أفجر قلب رجل مهم ؛ أي حالهم واحدة حال أفجر رجل منهم أيضا لا ينقص ذلك ملك الله شيئا ، هذا فيه أن الله سبحانه وتعالى لا يزيد ملكه طاعة من أطاع ولا يُقص ملكه معصية من عصى ، بل طاعة الطائعين تنفعهم وعصيان العاصين يضرهم كما قال الله { من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها }

ثم قال " يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسأله ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المحيط إذا أُدخل البحر " : وهذا فيه بيان سعة خزائنه وأن خزائنه ملاء لا يغيظها نفقة مهما كانت النفقة ومهما كان العطاء ، ولو أن العباد الأولين منهم والآخريين ، الإنس والجن قاموا في صعيد واحدة في أرض واحدة في وقت واحد بلحظة واحدة وسألوه ، كل سأل حاجته ورغبته وأعطاهم جميعا ما سألوه ، وتأمل أيضا ماذا ستكون المسائل تنوعا وتعددا وكثرة وأعطاهم جميعا ما سألوا ما نقص ذلك من ملكه إلا كما ينقص المحيط - الابرة - إذا أُدخل البحر؛ أي عندما تُغمس الإبرة في البحر ؛ فهي لا تحمل شيئا ولا ترى عليها أثرا ؛ فهذا فيه أنه لا ينقص من ملكه سبحانه وتعالى شيئا مهما كان العطاء ، وهو جل وعلا عطائه كلام ومنعه كلام {إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون} وهذا فيه سعة خزائن الله وأن خزائنه ملاءى ولا يغيظ خزائنه شيء مها كان العطاء والمن والتفضل .

وهذا فيه دلالة من جهة أخرى على كمال سمع الله وإن لم يُنص عليه في الحديث لكن يدل عليه ، وأن العباد كلهم لو قاموا في صعيد واحد - كما يدل على ذلك هذا الحديث - وكلهم سألوه أجمعون في لحظة واحدة ، وكل سأل بلغته ولهجته، وكل سأل حاجته ؛ لسمعهم تبارك وتعالى أجمعين دون أن يختلط عليه صوت بصوت ، ولا حاجة بحاجة ولا لغة بلغة كما قالت عائشة رضي الله عنها " الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات "

ثم قال " يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها " : أحصيها لكم في هذه الحياة الدنيا ؛ فكل ما يقوم به الإنسان محصى عليه من أعمال خير وصلاح أو أعمال شر وفساد .

" أوفيكم إياها " : أي تجدوها وافية كاملة يوم القيامة ، لم ينقص منها شيء .

" فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه " : من وجد يوم القيامة في صحائف أعماله خيراً وصلاً وطاعةً وعبادةً ؛ فليحمد الله الذي هداه ووفقه وأعانه وسدده وثبته .

" ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه " : لأنه جنى على نفسه بتفريطه وتضييعه وعدم إقبال على الله دعاءً ورجاءً وخوفاً ورهباً ، وعدم إقباله على الله بفعل الأسباب التي تقربه إلى الله عز وجل وينال بها ثوابه وينجو بها من عقابه .

الشاهد أن هذا الحديث حديث قدسي عظيم جامع لأبواب عظيمة من أبواب الإيمان والخير والبر والطاعة ، ويفتح للعباد باباً واسعاً في حسن الصلة بالله والإقبال على الله والتوكل عليه والطمع فيما عنده وحسن سؤاله ودعائه ورجائه .

قال الشيخ عبد المحسن العباد :

[الأول : قوله عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه :

هذا من الأحاديث القدسية، وهذه العبارة من العبارات التي يُعبر بها عن الحديث القدسي ، مثلها عبارة " قال الله عز وجل فيما يرويه عنه رسوله صلى الله عليه وسلم " والحديث القدسي هو ما يسنده رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ربه تعالى ويضيفه إليه ، ويشتمل على ضمائر المتكلم التي تعود إليه سبحانه وتعالى] .

الشرح..

الحديث القدسي هو الذي يأتي بمثل هذه الصيغة إما أن يقول الصحابي " عن النبي صلى الله عليه وسلم " قال الله تعالى أو يقول الصحابي عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه أنه قال " و الحديث القدسي لفظه ومعناه من الله جل وعلا ، وهذه الكلمات - كما قدّمت - من مثله يا عبادي يا عبادي .. ؛ هذه لا يقولها النبي عليه الصلاة والسلام ولا غيره ؛ فلا يقولها إلا الله .

والضمائر في قوله : حرمتُ ، جعلتُهُ ، هديتُهُ .. ؛ هذه الضمائر عائدة إلى الله سبحانه وتعالى وهي تُؤكد المعنى الذي أشرتُ إليه وهو أن هذا كله كلام الله سبحانه وتعالى لفظاً ومعنى ، فالذي يقول "يا عبادي" هو الله ، والذي بيده الهداية "من هديته" ، "من أطعمته" ، " من كسوته " .. إلى آخره هذا كله كلام الله سبحانه وتعالى هو المتكلم به ، لكن قوله

"ياعبادي" الإضافة هنا . إضافة العباد إلى الله ممن وفقهم إلى العمل بهذه النداءات وبهذه الأوامر؛ لهم شرف عظيم ومكانة عليّة كما قال الله {وعباد الرحمن}.

[ثانياً : قول الله سبحانه وتعالى "يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا" : الظلم وضع الشيء في غير موضعه قد حرمه الله على نفسه ومنع منه مع قدرته عليه وعلى كل شيء ، فلا يقع منه الظلم أبداً لكمال عدله سبحانه وتعالى ، قال الله عز وجل {وما الله يريد ظلماً للعباد} ، وقال {وماربك بظلام للبيد} ، وقال {إن الله لا يظلم الناس شيئاً} ، وقال {إن الله لا يظلم مثقال ذرة} ، وقال {ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً} أي لا يخاف نقصاً من حسناته ولا زيادة في سيئاته أو تحميله سيئات غيره ، ونفي الظلم عن الله عز وجل في هذه الآيات متضمن إثبات كمال عدله سبحانه . قال ابن رجب رحمه الله تعالى في جامع العلوم والحكم :

وكونه خلق أفعال العباد وفيها الظلم لا يقتضي وصفه بالظلم سبحانه وتعالى كما أنه لا يوصف بسائر القبائح التي يفعلها العباد وهي خلقه وتقديره ؛ فإنه لا يوصف إلا بأفعاله ، لا يوصف بأفعال عباده فإن أفعال عباده مخلوقاته ومفعولاته، وهو لا يوصف بشيء منها إنما يوصف بما قام به من صفاته وأفعاله، والله أعلم .

وقد حرم الله تعالى على عباده الظلم فلا يظلم أحد نفسه ولا يظلم غيره [.

الشرح..

قوله جل وعلا " يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا " فيه أنه جل وعلا حرم الظلم على نفسه ، وهو جل وعلا قدير على ذلك لا يعجزه شيء لكنه حرمه على نفسه أي منعها منه ؛ فلا يفعل ذلك ولا يقع منه سبحانه وتعالى الظلم ؛ ولهذا جاءت الآيات الكثيرة بالإخبار عنه سبحانه وتعالى بأنه لا يظلم العباد شيئاً ولا يخاف العباد عنده سبحانه وتعالى ظلماً ولا هضماً لكمال عدله سبحانه وتعالى . ونفي الظلم يتضمن ثبوت كمال العدل ؛ لأن قاعدة أهل السنة في باب النفي أن ما ينفي عن الله في الكتاب والسنة ليس نفيّاً صرفاً ؛ وإنما هو نفي متضمن ثبوت كمال ضد المنفي ؛ فنفي الظلم عنه سبحانه وتعالى يتضمن ثبوت كمال العدل له جل وعلا فهو حرم الظلم على نفسه وجعله بين العباد محرماً ونهاهم عنه قال " فلا تظالموا " ولهذا لا يجوز للإنسان أن يظلم نفسه ولا أن يظلم

وهي تشمل جميع أنواع الهداية في الدنيا والآخرة ، الهداية إلى العلم وإلى العمل وإلى الثبات وإلى الموت على الحق والهدى والتثبيت عند السؤال ودخول الجنة .. ؛ فكل هذا يتناوله قوله "فاستهدوني أهدكم" وهذا الحديث ليس بينه وبين قول الله جل وعلا في الحديث القدسي "خلقت عبادي حنفاء - وفي رواية مسلمين - فأتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم" هذا ليس معارض كما بيّن ذلك أهل العلم...

[الرابع : قوله "يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم" في هاتين الجملتين بيان شدة افتقار العباد إلى رهم وحاجتهم إليه في تحصيل أرزاقهم وكسوتهم ، وأن عليهم أن يسألوه سبحانه وتعالى طعامهم وكسوتهم] .
الشرح..

قوله " يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم " هذا فيه فقر العباد لله جل وعلا من كل وجه وأنهم فقراء إلى الله سبحانه في طعامهم وشرابهم ولباسهم وسائر شؤونهم و أن حاجاتهم كلها بيد الله وأن عليهم على العباد أن يطلبوا ذلك من الله بالدعاء وبذل الأسباب التي شرعها.

[الخامس قوله " يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم ": أوجب الله عز وجل على العباد امتثال الأوامر واجتناب المنهيات ، والعباد يحصل منهم التقصير في أداء ما وجب عليهم والوقوع في شيء مما تُهوا عنه وطريق السلامة من ذلك رجوعهم إلى الله وتوبتهم من ذنوبهم وسؤال الله عز وجل أن يغفرها لهم ، وفي الحديث " كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون " . حديث حسن أخرجه بن ماجه وغيره .
الشرح..

" يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار " فيه ضعف الإنسان وأنه عرضة للخطأ والزلل والوقوع بالذنوب والتقصير وفيه أيضا طرد للقنوط لهذا قال " وأنا أغفر الذنوب جميعاً " مهما يقع فيه الإنسان من زلل لا يقنط ولا ييأس بل عليه أن يتوب والله سبحانه وتعالى يغفر الذنوب جميعاً والله قال " فاستغفروني أغفر لكم " أي اطلبوا مني المغفرة

[السادس: قوله " يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني " قال ابن رجب رحمه الله: يعني أن العباد لا يقدر أن يوصلوا نفعاً ولا ضراً ، فإن الله تعالى في نفسه غني حميد لا حاجة له بطاعة العباد ولا يعود نفعها إليه ؛ وإنما هم ينتفعون بها ، ولا يتضرر بمعاصيهم وإنما هم يتضررون بها ؛ قال الله تعالى ﴿ ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر إنهم لن يضروا الله شيئاً ﴾ ، وقال ﴿ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ﴾ .

الشرح ..

قوله " يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني " فهذا فيه كمال غنى الله سبحانه وتعالى عن العباد ، وأن غناه ذاتي ، كما أن فقر العباد إلى الله فقر ذاتي ؛ فهو غني جل وعلا عن العباد من كل وجه ، لا يمكن للعباد أن يبلغوا نفعه بشيء ولا أن يبلغوا ضره بشيء ؛ فهو غني عنهم ، وهم فقراء إليه سبحانه وتعالى من كل وجه ؛ لا غنى لهم عنه طرفه عين .

فهذه الجملة فيها إثبات كمال غنى الله ، وأن طاعات العباد لا تنفعه ، وأن معاصيهم وفجورهم أيضاً لا تضر الله شيئاً .

• وفي الحديث الآخر قال تعالى " يؤذيني بن آدم يسب الدهر وأنا الدهر أقلب الليل والنهار " ؛ فيوجد فرق بين الضر والإيذاء ؛ فهذه الكلمات - سب الدهر أو نحو ذلك - ؛ فهذا كلام يغضب الله سبحانه وتعالى ويسخطه ولا يرضاه من عباده ويمقت ويمقت سبحانه وتعالى فعله وفاعله ، أما الضر فالله لا يضره سب الدهر ولا سبه جل وعلا ولا سب دينه .. ؛ فهذا كله لا يضر الله شيئاً ، ما يفعله العباد من عدوان وعصيان وفجور هذا كله لا يضر الله سبحانه وتعالى شيئاً ؛ لكن قوله " يؤذيني بن آدم " هذه كلمات تسخط الله جل وعلا وتغضبه .

[السابع قوله " يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك من ملكي شيئاً يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً " : في هاتين الجملتين بيان كمال ملك الله عز وجل

وكمال غناه عن خلقه ، وأن العباد لو كانوا كلهم على أتقى ما يكون أو أفجر ما يكون لم يزد ذلك في ملكه شيئاً ولم ينقص شيئاً وأن تقوى كل إنسان إنما تكون نافعة لذلك المتقي وفجور كل فاجر إنما يكون ضرره عليه] .

الشرح ..

هذه الجملة " يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك من ملكي شيئاً يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً " فيهما كمال غنى الله سبحانه وتعالى عن العباد ، وأن طاعات الطائعين وتقوى المتقين لا تنفعه ، وأن عصيان العاصين وفجور الفاجرين لا يضره سبحانه وتعالى .

[ثامناً : قوله " يا عبادي لو أن أولكم وآخركم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسأله ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المحيط إلى أدخل البحر " هذا يدل على كمال غنى الله سبحانه وتعالى وافتقار عباده إليه ، وأن الإنس والجن لو اجتمعوا أولهم وآخرهم وسأل كل ما يريد ، وحقق الله لهم ذلك ؛ لم ينقص ذلك مما عند الله إلا كما ينقص المحيط إذا أدخل البحر ، والمعنى أنه لا يحصل نقص أصلاً لأن ما يعلق بالمحيط وهو الإبرة من الماء لا يُعتبر شيئاً لا في الوزن لا في العين] .

الشرح ..

وهذا أيضاً فيه كمال غنى الله جل وعلا وافتقار العباد إليه وأن خزائن الله سبحانه وتعالى ملئى لا ينقصها شيء مهما كان العطاء كبيراً أو كثرةً ؛ ولهذا قال " فأعطيت كل واحد مسأله مانقص مما عندي إلا كما أنقص المحيط إذا أدخل البحر " .

وعطاؤه كلام ومنعه كلام كما قال سبحانه وتعالى { إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون } فالذي يريد أن يعطيه العباد يقول له كن فيكون كما أخبر سبحانه وتعالى لان مشيئته نافذة ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء

[تاسعاً : قوله " يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه " : الناس في هذه الحياة مكلفون بامتنال الأوامر

واجتناب النواهي ، وكل ما يحصل منهم من عمل خيراً أو شراً فهو محصى عليهم وسيجد كل أمامه ما قدم إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، قال الله عز وجل { فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره } ، فمن قدم خيراً وجد ثوابه أمامه ، والثواب من فضل الله على العبد ، وفعل الخير في الدنيا هو من توفيق الله عز وجل للعبد فله الفضل أولاً وآخر ، ومن وجد أمامه غير الخير فإنما أتى العبد من قبل نفسه ومعصيته لربه وجنائته على نفسه ، فإذا وجد أمامه العذاب فلا يلومن إلا نفسه] .

الشرح..

في ختام الحديث القدسي قال " يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه " وهذا فيه تنبيه للعبد وتحذير وأن العبد إذا سعى في هذه الحياة بالأعمال الصالحات والطاعات الزاكيات وابتعد عن المعاصي والآثام ؛ فسيجد يوم القيامة ثواب ذلك وأجره ، وعمله بالطاعات توفيق الله ومنته عليه ، وثوابه له جل وعلا له على ذلك يوم القيامة هو أيضاً من توفيق الله ؛ فليحمد الله على التوفيق للطاعة ، وليحمد الله على الثواب الذي منَّ عليه تبارك وتعالى به ؛ ولهذا أهل الجنة يحمدون الله عز وجل على ذلك المنِّ في الجنة { وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله } ؛ فهذهمنة الله سبحانه وتعالى عليهم ؛ ولهذا قال " فمن وجد خيراً فليحمد الله " يعني يوم القيامة ؛ ولهذا أهل الجنة كلهم يحمدون الله ، يدخلون الجنة حامدين لله سبحانه وتعالى على ما منَّ عليهم به في الحياة الدنيا من الهداية والاستقامة ، وعلى ما منَّ عليهم به يوم القيامة من النجاة من النار ودخول إلى الجنة والفوز بالفوز العظيم ؛ هذا كله منة الله سبحانه وتعالى وفضله ، ومن وجد يوم القيامة في صحيفة أعماله غير ذلك مما يوجب سخط الله ودخول النار ؛ فلا يلومن إلا نفسه ؛ لأنه فرط وضع وأهل وتمادى في الضلال والغى ، ولم يُقبل على الله دعاءً ورجاءً وسؤالاً ورغباً ورهباً ؛ إلى أن مات على هذه الحال فكان بذلك قد جنى على نفسه ؛ وبهذا لا يلومن إلا نفسه .

[عاشراً : مما يستفاد من الحديث :

الأول : أن من الأحاديث ما يرويه الرسول صلى الله عليه وسلم عن ربه يشتمل على ضمائر المتكلم ترجع إلى عز وجل ويقال له الحديث القدسي .

الثاني : تحريم الله الظلم على نفسه وتنزيهه عنه مع إثبات كمال ضده وهو العدل .

الثالث : تحريم الله الظلم على العباد لأنفسهم ولغيرهم .

الرابع : شدة حاجة العباد إلى سؤال ربهم الهدى والطعام والكسوة وغير ذلك من أمور دينهم ودنياهم .

الخامس : أن الله يحب من عباده أن يسألوه كل ما يحتاجون إليه من أمور الدنيا والدين .

السادس : كمال ملك الله عز وجل ، وأن العباد لا يبلغوا نفعه وضره ؛ بل يعود نفعهم وضرهم إلى أنفسهم.

السابع : أن العباد لا يسلمون من الخطأ ، وأن عليهم التوبة من ذلك والاستغفار .

الثامن : أن التقوى والفجور يكونان في القلوب لقوله " على أتقى قلب رجل " ، " على أفجر قلب رجل " .

وهذا نظير ما سبق وهو قوله صلى الله عليه وسلم " ألا إن في الجسد مضغة "

التاسع : أن ملك الله لا تزيده طاعة المطيعين ولا تنقصه معاصي العاصين .

العاشر : كمال غنى الله وكمال ملكه وأنه لو أعطى عباده أولهم وآخرهم كلّ ما سألوه لم ينقص من ملك الله وخزائنه شيئاً .

الحادي عشر : حثُّ العباد على الطاعة ، وتحذيرهم من المعصية ، وأن كل ذلك محصى عليهم .

الثاني عشر : أن من وفقه الله لطريق الخير ظفر بسعادة الدنيا والآخرة والفضل لله

للتوفيق لسلوك سبيل الهدى والحصول الثواب على ذلك .

الثالث عشر : أن من فرط وأساء العمل ظفر بالخسران وندم حيث لا ينفع الندم.

سبحانك اللهم و بحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، اللهم صلّ وسلّم على عبدك ورسولك نبينا محمد و آله وصحبه

..*



شرح الأربعين النووية

لأبي زكريا يحيى بن شرف الحزامي النووي رحمه الله

من الدرس ٢٢ إلى الدرس ٢٤

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما الله تعالى

١٤٤٠/٠٦/٢٤ هـ

الدرس الثاني والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .
أما بعد ..

الحديث الخامس والعشرون

عن أبي ذر رضي الله عنه أيضاً أن ناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم ذهب
أهل الدثور بالأجور يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ويتصدقون بفضول أموالهم قال
" أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون إن في كل تسيحة صدقة وكل تكبيرة صدقة وكل
تحميدة صدقة وكل تهليلة صدقة وأمر بالمعروف صدقة ونهي عن المنكر صدقة وفي بضع
أحدكم صدقة " قالوا يارسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال " رأيتم لو
وضعها في حرام أكان عليه وزر فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر " رواه مسلم
الشرح..

هذا حديث داخل في الأحاديث المتعلقة بفضائل الأعمال والترغيب في الخيرات والأعمال
الصالحات وأنواع البر والصدقات ، وأن الصدقة أعم من أن تكون بالمال بل كما صح عن
النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال " كل معروف صدقة " فالصدقة أوسع من أن تكون بالمال فكل معروف
يبدله العبد صدقة ، وعباداته وذكره الله وتسبيحه وتهليله وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ..
إلى غير ذلك من أمور البر وأبواب الإحسان ؛ كل ذلك من الصدقات
" ذهب أهل الدثور بالأجور " : المراد بأهل الدثور أي أهل الأموال ، الأغنياء .
والمراد بذهابهم بالأجور أن عندهم أموال يتصدقون بها على الفقراء ، وينفقون منها في أبواب
الخير ومجالات البر والإحسان ، وهم يشتركون مع الفقراء في الصلاة والصيام ؛ لكنهم يزيدون
على الفقراء بوجود أموال زائدة عندهم ينفقونها في سبيل الله .

" ناساً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم " : هؤلاء الصحابة شكوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم من باب الحرص على الخير والرغبة في التنافس فيه والمصارعة إليه ؛ فهذا من الدلائل على شدة حرص الصحابة رضي الله عنهم على الخير والفوز برضا الله سبحانه وتعالى .

" . ويتصدقون بفضول أموالهم " : هذا أمرٌ امتاز به الأغنياء واختصوا به ولا يتمكن من فعله الفقراء لأن الفقير ليس عنده مال ، والغني عنده فضل مال زائد عن حاجته فهو ينفق في سبيل الله على الفقراء المحتاجين في أبواب البر والإحسان فيفوز بثواب المنفقين الباذلين في سبيل الله تبارك وتعالى .

" بفضول أموالهم " : أي بالزائد من الأموال والفائض من الأموال .
" أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون " : بين عليه الصلاة والسلام أن الصدقة مفهومها أوسع من أن تكون صدقة بالمال فقط .

" إن بكل تسبيحة صدقة وكل تكبيرة صدقة وكل تحميدة صدقة وكل تهليلة صدقة وأمر بمعروف صدقة ونهي عن منكر صدقة وفي بضع أحدكم صدقة " : هذه كلها صدقات وليس لها علاقة أو صلة بالمال ، وهي صدقات متعددة وقاصرة ؛ فالتسبيح والتهليل والذكر صدقات قاصرة لأن العبد كلما سبح وكلما هلل وكلما ذكر الله جل وعلا ؛ تصدق على نفسه بهذا الذكر الذي يرفعه عند الله سبحانه وتعالى .

وإذا أمر بالمعروف ونهى عن المنكر وأعان على الخير فهذه صدقة متعددة ؛ أي نفعها يطاله والآخرين .

وذكر عليه الصلاة والسلام في أول هذه الصدقات الكلمات الأربع التي هي أحب الكلام إلى الله - سبحانه الله والحمد لله و لا إله إلا الله والله أكبر - وهذا فيه التنبيه إلى أن الفقير عنده فرصة عظيمة أن يشغل وقته بهذه الكلمات الأربع التي هي أحب الكلام إلى الله فيفوز بأعظم الصدقات وأحب الأعمال إلى الله جل وعلا؛ يقول عليه الصلاة والسلام "لئن أقول سبحان الله والحمد لله و لا إله إلا الله والله أكبر أحب إلي مما طلعت عليه الشمس " ؛ يعني خير من الدنيا وما فيها .

فهذا فيه أن الفقير عنده فرصة عظيمة أن يكثر من هذه الكلمات مع أنه أشغل كثير من الفقراء الآن بسبب دعاة الضلال بأذكار محدثة ودعوات مبتدعة وأمور مخترعة ؛ شغلهم بها عن أحب الكلام إلى الله جل وعلا ، تجدهم يُشغلون في الصباح بأذكار لا أصل لها ولا أساس وأرقام بالآلاف ..؛ فيُشغلون بمحدثات الأمور والمبتدعات التي هي مردودة على

أصحابها عن أحب الكلام إلى الله سبحانه وتعالى وأحب الكلام إلى الله أربع كلمات - سبحان الله والحمد لله و لا إله إلا الله والله أكبر - ولهذا تجد بعض هؤلاء العوام لا يقولون هذه الكلمات إلا قليلا والكلمات التي أحدثت لهم يشغلون أوقاتهم طويلا بالذكر بها وهي ليست من العمل الذي يقبله الله جل وعلا من عباده .

قال " إن بكل تسبيحة صدقة وكل تكبيرة صدقة وكل تحميدة صدقة وكل تهليلة صدقة " " بكل تسبيحة صدقة " : أي قول سبحان الله ، والتسبيح هو تنزيه الله وتقديسه عن كل ما لا يليق به سبحانه وتعالى .

" بكل تحميدة صدقة " : أي قول الحمد لله ، والحمد هو الثناء على الله بكماله سبحانه وتعالى في أسمائه وصفاته ولنعمه جل وعلا على عباده مع حبه جل وعلا .

" بكل تكبيرة صدقة " : التكبير هو تعظيم الله واعتقاد بأنه سبحانه وتعالى لا أكبر منه .

" بكل تهليلة صدقة " : التهليل فيه توحيد الله ، وإخلاص الدين له جل وعلا .

لا إله إلا الله : فيها البراءة من الشرك وإخلاص العبادة لله تبارك وتعالى .

" وأمر بمعروف صدقة ونهي عن المنكر صدقة " : هذه من الصدقات المتاحة للإنسان :

أن يأمر بالمعروف ، أن يدل إخوانه على الخير ، أن يتعاون معهم على البر والتقوى ، أن يذكر الغافل ، أن يبصر الجاهل ، ويحث على الخير وأعمال البر ؛ هذه كلها صدقات ، ومن دعى إلى الهدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص من أجورهم شيئا .

" ونهي عن المنكر صدقة " : .: وسيأتي حديث " من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلمه وذلك أضعف الإيمان " ؛ وهذه درجات التغيير .

" وفي بضع أحدكم صدقة .. " : هذا فيه أن قضاء الإنسان شهوته في الطريق المشروع المباح مع أهله ؛ هذا يُعد صدقة ، وهو من الصدقات المتعدية ؛ لأن فيه صدقة على نفسه وصدقة على أهله ، فهذه صدقة تُكتب له في جملة صدقاته وحسناته وأعمال بره إتيانه لأهله .

الصحابة عجبوا لهذا الأمر فقالوا " أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ " : يكون للإنسان في إتيانه لشهوته أجر

قال عليه الصلاة والسلام " رأيتم لو وضعها في حرام " : يعني هذه الشهوة لو وضعها في حرام

" أكان عليه وزر قالوا نعم " : عليه وزر

قال عليه الصلاة والسلام " فكذاك إذا وضعها في الحلال كان له أجر " : وهذا قياس يُسمى القياس العكسي ؛ فقياس بالنبي صلى الله عليه وسلم هذا على هذا ؛ أي كما أنه يؤزر إذا وضع شهوته في الحرام فإنه كذلك يؤجر إذا وضعها في الحلال .

فالإنسان إذا أتى أهله واضعاً شهوته في الحلال والمباح ، معفى لنفسه ولأهله ، وطالباً للولد وكثرة النسل ؛ فهذا كله باب صدقته متعدية يؤجره الله سبحانه وتعالى عليها ويثيبه عليها . وهذا الذي ذكره النبي عليه الصلاة والسلام مثال للصدقات وإلا فباب الصدقة باب واسع جداً ؛ فكل أعمال البر وكل أنواع المعروف هي صدقة من العبد ، فباب الصدقة واسع .

قال الشيخ عبد المحسن بن حمد العباد البدر :

[الأول : أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أحرص الناس على كل خير وأسبغهم إلى كل خير ، يتنافسون في الأعمال الصالحة ، ويجب بعضهم أن يلحق في الأجر بمن سبقه منهم ؛ ولهذا ذكر جماعة من فقهاء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مشاركتهم للأغنياء بالصلاة والصيام ، وكون الأغنياء تميزوا عليهم بالصدقة بفضول أموالهم ، وقد أرشدهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى أن هناك أنواعاً من الصدقات يقدر الفقراء على الإتيان بها كالأذكار والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر] .

الشرح ..

هذا الحديث من الشواهد والدلائل على شدة حرص الصحابة رضي الله عنهم على الخير والبر والتنافس في الأعمال الصالحات ، وهنا لما ذكروا الأموال التي عند الأغنياء لم يذكروا الأموال من أجل الدنيا ؛ وإنما ذكروا تميز الأغنياء بشيء يتعلق بالآخرة ؛ فهذا يدل

على حرص الصحابة عموماً - فقراءهم وأغنياءهم على الخير - وحرص الصحابة على التنافس فيه ، وفقراء الصحابة لما جاءوا للنبي عليه الصلاة والسلام يشكون له الحال كانت نظرتهم أخروية ليست دنيوية ، وكان اهتمامهم أخروياً وليس دنيوياً ؛ ولهذا كان سؤالهم متعلقاً بأمر الآخرة - بالصدقات والفوز بالثواب والتنافس في الخيرات - وأيضاً أغنياء الصحابة الذين يملكون الأموال ؛ أيضاً همتهم أخروية ؛ ولهذا جاء في بعض طرق الحديث أن الأغنياء لما سمعوا بكلام النبي صلى الله عليه وسلم أيضاً انفسوا في التسبيح والتحميد والتهليل ..؛ فجاء الفقراء إلى النبي عليه الصلاة والسلام وذكروا له الحال ؛ قال : " هذا فضل الله يؤتيه من يشاء " فالكل كانت همته وحرصه على الدار الآخرة والاهتمام لها ؛

وهذا فيه المكانة العلية لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم ، وتسابقهم إلى الخيرات ومسارعهم إليها .

[ثانياً : الصدقات التي أرشد النبي صلى الله عليه وسلم الفقراء إلى الإتيان بها تنقسم إلى قسمين :

قسم يقتصر نفعه عليهم وهو التسبيح والتكبير والتحميد والتهليل .

وقسم آخر يكون نفعه لهم ولغيرهم ؛ وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجماع] .

الشرح ..

في الحديث بين النبي صلى الله عليه وسلم للفقراء أن مفهوم الصدقة أوسع من أن تكون بالمال فقط وذكر لهم أمثله للصدقات - التسبيح والتهليل والتحميد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجماع - هذه كلها صدقات فبين لهم أن باب الصدقة واسع والأمثلة التي ذكر النبي عليه الصلاة والسلام للصدقات من تأملها وجدها تقسم لقسمين - صدقات قاصرة وصدقات متعددة - الصدقة القاصرة نفعها يختص بالإنسان الذي قام بها مثل التسبيح والتحميد وأنواع الذكر ، وصدقات متعددة أي يتعدا نفعها للآخرين فيستفيد منها من فعلها ويستفيد منها الآخرون مثل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإتيان الرجل أهله وإعانة المحتاج .. فالصدقة كما أنه من عنده فضل مال ينفق كذلك من عنده قوة بجسمه يستطيع أن يتصدق بهذه القوة بينما ضعيف البدن لا يستطيع أن يتصدق فمثلاً قوي الجسم يرى شخصاً يريد أن يحمل متاعاً فيتصدق عليه ويحمل متاعه ..

أيضاً قوي البصر ، وعنده شخص ضعيف البصر أو لا يحسن أن يقرأ ؛ فقال له : اقرأ لي هذا الكتاب ؛ فيستطيع أن يتصدق عليه ببصره ؛ فيقرأ له كتابه ..

أو عنده علم وفقه ؛ فيتصدق عليه بالعلم فيبصره .

أو مثلاً عنده خبرة في علم معين ؛ فيتصدق عليه بإرشاده ودلالته إلى الطريق السليم ..

وهكذا ؛ فباب الصدقة باب واسع جداً ، والنبي عليه الصلاة والسلام أعطى في هذا الباب قاعدة بما صح عنه في صحيح مسلم ؛ قال " كل معروف صدقة " .

[ثالثاً : أن ما يأتيه الإنسان من المباحات التي فيها حقٌ لنفسه تكون قربةً بالنية الصالحة مثل قضاء الإنسان شهوته إذا قصد بذلك إعفاف نفسه وإعفاف أهله وتحصيل الأولاد] .

الشرح ..

عموم المباحات إذا صحبتها النية الصالحة تتحول إلى قربات ؛ مثل لو أن شخصاً نام ومن نيته القوة والنشاط وتجدده للطاعة وأعمال الخير .

وأكل الطعام وشرب الشراب ليتقوى بأكله على طاعة الله .

وأيضاً إتيانه لأهله .. ؛ فكل المباحات إذا فعلها الإنسان وعنده نية صالحة تتحول إلى قربة ، ومثل إذا تعلم العلوم الدنيوية التي يحتاج إليها الناس ؛ مثل تعلم الطب لينفع إخوانه ويكون سبباً لتنفيس الكربات والآلام والأوجاع ؛ فإذا نوى نية صالحة ؛ فمثل هذه الأمور كلها تدخل في باب القربات التي يُثاب عليها عند الله سبحانه وتعالى .

[رابعاً : مما يستفاد من الحديث :

الأول : حرص الصحابة على فعل الأعمال الصالحة ، والتنافس في الخيرات .

ثانياً : أن الصدقة لا تقتصر على الصدقة بالمال وإن كانت أصلاً في ذلك .

ثالثاً : الحث على التسييح والتكبير والتحميد والتهليل ، وأن ذلك صدقة من المسلم على نفسه .

رابعاً : أن من عجز عن فعل شيء من الطاعات لعدم قدرته عليه ؛ فإنه يكسر من الطاعات التي يقدر عليه .

خامساً : الحث على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأنه صدقة من المسلم على نفسه وعلى غيره .

سادساً : أن قضاء الإنسان شهوته بنية صالحة يكون صدقةً منه على نفسه وعلى غيره .

سابعاً : مراجعة العالم فيما قاله للتثبت فيه .

ثامناً : إثبات القياس فإن النبي صلى الله عليه وسلم شبه ثبوت الأجر لمن قضى شهوته في الحلال بحصول الإثم لمن قضاها بالحرام ، والذي في الحديث من قبيل قياس العكس .

الحديث السادس والعشرون

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "كل سُلامى من الناس عليه صدقة ، كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين اثنين صدقة، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة ، وتميط الأذى عن الطريق صدقة " رواه البخاري ومسلم

الشرح..

هذا الحديث هو كذلك من الأحاديث المتعلقة بفضائل الأعمال والرغائب والحث على القيام بأبواب البر والإحسان ، وأن ذلك من الصدقات المطلوبة من المسلم شكراً لله تبارك وتعالى على ما منَّ به على عبده بهذا الجسم وهذه الصحة وهذه العافية وهذه القوة ، وأن نعم الله سبحانه وتعالى تتطلب من العباد شكر المنعم ؛ وشكر المنعم جل وعلا سببٌ لزيادة النعمة والرفعة عند الله {وَإِذْ تَأْذِنُ رِبْكَمُ لِنَّ شُكْرَكُمْ لِأَزِيدَنَكُمْ} ، والشكر كما أنه يكون بالحمد والثناء على الله وبالقلب باعتراف بنعمة الله ؛ فإنه كذلك يكون بالأعمال الصالحة واستعمال الجوارح فيما يقرب إلى الله ؛ قال تعالى {اعملوا آل داود شكراً}.

وهذه القوة التي منَّ الله سبحانه وتعالى على العبد بها تتطلب من العبد شكراً لله على ذلك بأن يعمل الصالحات وأن يقوم بأبواب البر المتنوعات ؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث : " كل سلامى من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس " : والسلامى هي المفاصل ، والإنسان عنده ثلاثمائة وستون مفصلاً - كما جاء بذلك الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في صحيح مسلم وغيره ؛ وهذه المفاصل منَّ الله سبحانه وتعالى بها على العبد وليَّنها له وسهَّلَ له تحركها لينهض ويقوم ويتحرك ويياشر أعماله ومصالحه .

فهذه نعمة عظيمة إذا أصبح الإنسان ونهض من فراشه ، ووجد هذه المفاصل الكثيرة في بدنه تتحرك ؛ وبذلك تتحقق مصالح العبد ؛ فهذه نعمة عظيمة من نعم الله سبحانه وتعالى على عبده ؛ ولهذا إذا تعطلت هذه المفاصل عن الحركة لا يستطيع الإنسان أن يياشر أي مصلحة

من مصالحه ؛ فيتعطل عن الأعمال والمصالح التي يرغب أن يقوم بها ؛ ولهذا يجب على الإنسان أن يذكر نعمة الله سبحانه وتعالى عليه وفضله عليه .

أذكر مرة ذهبت لأحد المستشفيات ودخلت قسم يسمى قسم الحروق - نسأل الله العافية للجميع والشفاء لمرضى المسلمين - فدخلت غرفة وإذا فيها شاب عمره عشرين سنة وأصيب بحريق شمل بدنه كله وكان جالسا ممدود القدمين واليدين وليس في جسمه شيء يتحرك ، قلت له كم لك على هذه الحال؟ - ممتد الجسم متصلب تقريبا - ، قال لي أكثر من سنة ، وكان أمامه مصحف مثبت ويقرأ فيه ، قلت : ماذا تصنع قال: أنتظر إذا مر أحد قلت له يقلب صفحة المصحف حتى أنتقل لصفحة أخرى ؛ حتى تقلب صفحة المصحف ما يتمك من تحريكها ، فهذه المفاصل التي تتحرك نعمة عظيمة جدا ، ورأيت شابا لا يتحرك فيه إلا رأسه وكان في المجلس جلوس فقال : عندكم نعمة عظيمة ما تشعرون بقيمتها ، قال: إذا احتاج وجهك شيء تريد أن تحكه بيدك تحرك يدك وتحك وهذه نعمة ما تشعرون بها - لأنه من رقبته إلى أسفل بدنه ما يتحرك شيء- .. فهذه المفاصل والحواس نعمة لينها رب العالمين وسهلها ويسر لعباد التحرك بها ، وهذه المفاصل وعددها ثلاثمائة وستون ؛ إذا الصدقات التي على المفاصل ثلاثمائة وستون ؛ كل يوم تطلع فيه الشمس ؛ لأنك كل يوم تصبح ؛ تصبح بعافية وبمفاصل متحركة وبنشاط ؛ فكل يوم تطلع فيه الشمس يحتاج منك أن تقدم صدقات شكراً لله على نعمة هذه المفاصل ولينها وتيسر الحركة بها ؛ فتصبح شاكراً لله عاملاً بطاعته سبحانه وتعالى ، مستعملاً لهذه الحواس والقوى والمفاصل في طاعة الله وفيما يقرب إلى الله سبحانه وتعالى .

" كل سُلامى من الناس عليه صدقة ، كل يوم تطلع فيه الشمس " : يعني كل يوم تطلع فيه الشمس يحتاج أن تأتي بصدقات على عد المفاصل ثلاث مائة وستون
ثم ذكر عليه الصلاة والسلام أنواعاً من الصدقات .

قال " تعدل بين اثنين صدقة " : أي تحكم بينهما بعدل أو تنصف بينهما في معاملة ، ويدخل في جملة ذلك العدل بين الأولاد ، والعدل عموماً ؛ فهذا صدقة من العبد يقوم بها تُكتب في عداد صدقاته المطلوبة منه كل يوم .

"وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة " : وهذه الصدقة بما أعطاك الله من قوة في جسمك؛ الإنسان القوي يستطيع أن يتصدق بالقوة التي أعطاه الله سبحانه وتعالى ؛ مثل أن يكون ضعيف لا يستطيع الركوب فتعينه على الركوب أو عنده متاع لا يستطيع حمله ، وأنت قوي تستطيع أن تحمل متاعه ؛ فتحمل متاعه على دابته ؛ فهذه صدقة . والدابة في زماننا السيارات ؛ والسيارات يحتاج في كثير من الحالات من إخوانه أن يتصدقوا عليه ؛ مثل أحياناً يحتاج أن تُدفع السيارة ويشاركه عددٌ في دفعها حتى تشتغل ؛ فعملية الدفع صدقة من الصدقات .. ، أو يساعده على تشغيل السيارة ، أو مثلاً إذا تعطل أحد الإطارات فيحتاج إلى مساعدة ، وإذا كان عنده خبرة بأمر السيارة وأعطائها ؛ يستطيع أن يتصدق بخبرته على أخيه .. فهذه كلها أبواب صدقات يقدمها العبد

قال " والكلمة الطيبة صدقة " : لَمَّا تلقى أخاك بوجه طليق، بكلام حسن طيب ، ينشرح له صدره ويسر له خاطره ويأنس به هذا نوع من الصدقة ؛ ولهذا في جملة صدقاتك إذا جلست مجلساً مع بعض إخوانك وتكلمت معهم بكلام مباح أردت به أن تزيل الوحشة في المجلس وأن تؤنس إخوانك وأن يحصل تقارب وأنس بين الإخوان ؛ فهذه من جملة الصدقات - مالم يرتكب الإنسان إثماً وحراماً - هذه صدقة.

قال " وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة " : قال عليه الصلاة والسلام " بني سلمة دياركم تكتب آثاركم " فخطى الإنسان إلى لمساجد كل خطوة يخطوها إلى المسجد تكتب له إن كانت مائة . إن كانت ألف إن كانت ألفين كل خطوة تكتب له صدقة

قال " وتميط الأذى عن الطريق صدقة " : مثل الشوك أو الزجاج أو المسامير التي تُعطل إطارات السيارات فهذه صدقة ، مسمار تخاف أن يعلق بأحد إطارات المسلمين فيتعطل فتحمله وتبعده عن الطريق هذه صدقة منك لإخوانك ، وقد جاء في صحيح مسلم أن رجلاً مرَّ بغصن شجرة ذي شوك فقال " والله لا أدع هذا في طريق المسلمين فيؤذيهم ؛ فنحاه ؛ فشكر الله عمله فأدخله الجنة " .

فباب الصدقة بابٌ واسع ، وأبواب البر متنوعة وهذه التي ذكرها عليه الصلاة والسلام أمثلة لبيان تنوع الصدقات وتنوع مجالاتها .

قال الشيخ عبد المحسن :

[الأول : قوله " كل سلامي من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس " : السلامي المفاصل ؛ وهي ستون وثلاثمائة جاء تفسيرها بذلك في صحيح مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها ، والمعنى أن كل يوم تطلع فيه الشمس فعلى جميع تلك السلامي صدقة لذلك اليوم ، ثم ذكر بعد ذلك أمثلةً تحصل به الصدقة ، وهي فعلية وقولية ، وقاصرة ومتعدية ، وجاء في صحيح مسلم من حديث أبي ذر رضي الله عنه " ويجزئ من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى " ؛ وذلك أن صلاة هاتين الركعتين يحصل بهما تحرك المفاصل في هذه العبادة وهي الصلاة ؛ فتكون مجزية عن الصدقات في هذا اليوم]

الشرح ..

قوله صلى الله عليه وسلم " كل سلامي من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس " : هذا معناه أن كل يوم تطلع فيه الشمس فعلى جميع تلك المفاصل في ذلك اليوم ؛ بمعنى أنه مع تجدد تلك الأيام يتجدد فعل الصدقات شكراً لله تبارك وتعالى على نعمته بهذه المفاصل .

ثم ذكر النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث أمثلة مما تحصل به الصدقة وهي فعلية وقولية وقاصرة ومتعدية ؛ فعلية مثل الخطى إلى المساجد ، وقولية مثل الكلمة الطيبة ، وقاصرة مثل التسبيح والتحميد والتهليل وأيضاً المشي إلى المساجد ، ومتعدية مثل أن تعين الرجل في دابته أو ترفع متاعه .

وقد جاء في صحيح مسلم من حديث أبي ذر أنه قال " ويجزئ من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى " يعني يجئ من هذه الصدقات المتنوعة ركعتا يركعهما من الضحى ولعل الحكمة في ذلك أن الصلاة وهي صدقة من الإنسان على نفسه تتحرك فيها جميع المفاصل ؛ فإذا حرك جميع المفاصل في ركعتي الضحى أجزأته عن ذلك كله ؛ وهذا فيه فضل صلاة الضحى وأنه يترتب عليها هذا الفضل العظيم ، وهذا الشكر لله تبارك وتعالى على نعمته سبحانه وتعالى على عبده بهذه المفاصل العديدة في بدنه .

[ثانياً : كل قرينة يأتي به الإنسان سواء كانت قولية أو فعلية فهي صدقة ، وما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث هو من قبيل التمثيل لا الحصر ، فالعدل بين الاثنين يكون بالحكم أو الصلح بين متنازعين بالعدل ، وهو قولي متعد .

وإعانة الرجل في حمله على دابته أو حمل متاعه عليه هو فعلي متعد .
وقول " الكلمة الطيبة " يدخل تحته كل كلام طيب من الذكر والدعاء والقراءة والتعلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك ، وهو قولي قاصر ومتعد .
وكل خطوة يمشيها المسلم إلى الصلاة صدقة من المسلم على نفسه ، وهو فعلي قاصر ، وإمالة الأذى عن الطريق من شوك أو حجر أو زجاج وغير ذلك ، وهو فعلي متعد]
الشرح..

هذا بيان للقربات والصدقات التي ذكرها النبي عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث ، وأنها تنقسم إلى قولية وفعلية ، وكذلك إلى قاصرة ومتعدية .

فقوله " تعدل بين اثنين صدقة " : هذا يكون في الحكم والصلح بين متنازعين بالعدل ؛ وهذا قولي متعد - أي إلى الآخرين - والعدل يكون بالحكم ويكون بالصلح ؛ فإذا دخل إنسانٌ مصلحاً بين متنازعين أو مختصمين أو أصلح بين رجل وأهله أو نحو لك ؛ كان ذلك صدقة منه عليهم .

ولا ينبغي له أن يدخل في الصلح إلا إذا كان عالماً بأسبابه ووسائله ؛ لأن بعض الناس يدخل وعنده نية طيبة في الصلح ولا يحسن ، وربما جاء بأمور تزيد الخلاف وتزيد الشقة بين الإخوان ؛ فإما أن يتكلم بكلام يؤلف ويقرب أو يحجم ويكتفي بالدعاء لإخوانه ، ودعائه لهم صدقة .

وقوله " وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها " : هذا فعلي متعد لأن نفعه يتعدى إلى الآخرين .

وقوله " والكلمة الطيبة صدقة " : هذا يدخل تحته كل الكلام الطيب من الذكر والدعاء وقراءة القرآن وتعليم العلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك .

وهو قولي قاصر ومتعد : يعني الكلمة الطيبة قد تكون قاصرة - مثل تسبيح الإنسان وتحليله - ، وقد تكون متعددة - مثل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - .
وقوله " وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة " : هذا فعلي قاصر .
وقوله " وتميط الأذى عن الطريق صدقة " : هذا فعلي متعدٍ .
فإذا تأملنا في هذه الأمثلة التي ذكرها عليه الصلاة والسلام ذكر فيها أنواع الصدقات القولية والفعلية المتعدية والقاصرة ، وما ذكر فيه إشارة ودلالة على ما لم يُذكر فالذي ذكر هو مجرد مثال .

[ثالثاً : مما يستفاد من الحديث :

الأول : أن على كل سلامى من الإنسان كل يوم صدقة سواء كانت قاصرة أو متعددة
الثاني : الحث على الإصلاح بين المتنازعين بالعدل .
إن تمكن من ذلك وإلا لا يدخل نفسه في أمر يترتب عليه زيادة خلاف بين المتنازعين إن كان يتمكن من العدل والحد من الخصومة والخلاف الذي بينهم وإلا يكتفي بالدعاء لهم
الثالث : حث المسلم على إعانة غيره بما يحتاج إليه كحمله على دابته أو حمل متاعٍ عليها .
الرابع : الترغيب في كل كلام طيب من ذكر وقراءة وتعليم ودعوة وغير ذلك .
الخامس : فضل المشي إلى المساجد ، وقد جاء في حديث آخر " أنه يُكتب له ممشاه في ذهابه وإيابه " رواه مسلم .
هنا " بكل خطوة تمشيها إلى الصلاة " لكن ثبت في صحيح مسلم " الذهاب والإياب " فتكتب له خطواته إلى المسجد ذاهبا وراجعا

سادساً: فضل إمطة الأذى عن الطريق ، وقد جاء في حديث آخر أنه من شعب الإيمان
رواه مسلم [.

سبحانك اللهم و بحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، اللهم صلّ وسلّم على عبدك ورسولك نبينا محمد و آلّه وصحبّه

* . * . *

الدرس الثالث والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .
أما بعد ..

الحديث السابع والعشرون

عن النواس بن سمعان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " البر حسن الخلق والإثم ما حاك في النفس
وكرهت أن يطلع عليه الناس " رواه مسلم .

وعن وابصة بن معبد رضي الله عنه قال أتيت رسول صلى الله عليه وسلم فقال : " جئت تسأل عن البر والإثم ؟ قلت
نعم ؛ قال : استفت قلبك البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب والإثم ما حاك في
النفس وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك "

حديث حسن رواه في مسندي الإمام أحمد بن حنبل والدارمي بإسناد حسن

الشرح ..

حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه وكذلك حديث وابصة ؛ هو في باب الخلق والأدب ولزوم
خصال البر والبعد عن الإثم وعن كل ما لا تطمئن إليه النفس ولا يرتاح إليه القلب ، وأن
المؤمن ينبغي له أن يعيش ورعاً وبعيداً عن الأمور المشتبهات وعن الأشياء التي تحيك في
صدره فلا يطمئن إليها ، ولا يرتاح لفعالها .

وقد مرَّ بعض الأحاديث المقررة لمثل هذا المعنى كقوله عليه الصلاة والسلام " فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ
لدينه وعرضه " ، وقوله صلى الله عليه وسلم " دع ما يريبك إلى ما لا يريبك " .

وهنا قال " البر حسن الخلق والإثم ما حاك في النفس وكرهت أن يطلع عليه الناس " :

" البر " : هذه في أصلها كلمة تجمع أمور الدين عقيدة وعبادة ؛ كما هو واضح في آية البر
من سورة البقرة ؛ قال تعالى { ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من ءامن

بالله واليوم الآخر و الملائكة والكتب والنبين } ؛ هذه عقائد مكانها القلب ، ذكرها الله سبحانه وتعالى في خصال البر وأوصاف أهله .

ثم ذكر جل وعلا أعمال البر وأوصاف أهل البر العملية بعد أن ذكر جل وعلا أوصافهم العقدية الإيمانية ؛ قال {وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون} فهذه الآية يسميها جماعة من أهل العلم آية البر ؛ لأنها جمعت خصال البر التي في القلب والتي أيضاً في الظاهر ، جمعت خصال البر الباطنة والظاهرة؛ الباطنة وهي عقائد الإيمان في قوله {ولكن البر من ءامن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والنبين} والظاهرة التي هي شرائع الإسلام وأعمال الدين ؛ وذلك في قوله تعالى {وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى .. } إلى تمامها .

والآية تدل أن البر وصفٌ يجمع الدين كله - عقيدةً وشريعة - فعقائد الدين من الإيمان بالله والملائكة والكتب والرسول واليوم الآخر .. ؛ هذه كلها بر ، وأعمال الدين وشرائع الإسلام من صلاة وصدقة وصيام وإحسان وغير ذلك ؛ هذه أيضاً خصال وأعمال بر ؛ فالدين كله بر .

وقوله صلى الله عليه وسلم " البر حسن الخلق " : هو من قبيل قوله صلى الله عليه وسلم "الحج عرفة" ، ومن قبيل قوله صلى الله عليه وسلم " الدين النصيحة " ، ومن قبيل قوله صلى الله عليه وسلم " الدعاء هو العبادة " ؛ فهنا قال " البر حسن الخلق " : ونحن عرفنا أن البر يشمل الدين كله ؛ فقولته صلى الله عليه وسلم " البر حسن الخلق "

• فإذا كان المراد بحسن الخلق أي لزوم آداب الشريعة بحسن المعاشرة وطيب النفس والسماحة وغير ذلك من الخصال الطيبة ؛ فهذا جانب من جوانب الدين ، ويكون قوله صلى الله عليه وسلم " البر حسن الخلق" فيه اهتمام بهذا الجانب وتعلية لشأنه وبيان مكانة الأخلاق في دين الله ومنزلتها من دين الله تبارك وتعالى .

• وإذا أُريد بالخلق الدين - ويأتي في تفسير أهل العلم من الصحابة ومن تبعهم بإحسان لبعض النصوص المتعلقة بالأخلاق - يفسرونها بالدين ؛ كقوله تعالى {وإنك لعلی خلق عظیم} ؛ قال بعض المفسرين من الصحابة وغيرهم : الخلق الدين ، ومعنى { على خلق عظيم} أي على دين عظيم .

وكذلك قوله " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " أي يتمم دين الله بالأدب مع الله والأدب مع عباده فهذا كله داخل في باب الخلق ، كما أن الأدب مطلوب مع الناس فالأدب مع الله وهو المقدم . والذي يتخذ مع الله الأنداد ويجعل معه الشركاء ، ويصرف أنواعاً من العبادة لغير الله ؛ فهذا خرج عن نطاق الأدب مع الله ، أين الأدب وأين الخلق في شخصٍ خلّقه الله ومنّ عليه بالقوى والحواس والصحة والعافية ، ثم يتجه في رغباته ودعائه وذله وخضوعه إلى عبد لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً ولا منعاً ولا عطاءً ، فضلاً عن أن يملك شيئاً من ذلك لغيره !! ولهذا المشرك الذي اتخذ الأنداد خرج عن الخلق ، وخرج عن ما قاله النبي ﷺ "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" أي خلق عند من تفسد عقيدته ويخرج عن الإخلاص وإفراد العبادة لله تبارك وتعالى ؟!

أقول ذلك لأن أقواماً ساء فهمهم لحديث النبي ﷺ " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " فأرادوا من خلال هذا الحديث التقليل من شأن العقيدة والانتقاص من شأن التوحيد ، وأن الأهمية هي في الخلق والأدب .

وهذا من عدم فهم كلام رسول الله ﷺ لأن مُحتل العقيدة ناقض التوحيد المشرك بالله سبحانه وتعالى خرج بشركه ونقضه لتوحيده عن الخلق العظيم الذي بُعث به النبي ﷺ ، ولما قال تعالى {وإنك لعلی خلق عظیم} ، ووصفت عائشة رضي الله عنها خلقه لما سُئلت عن خلقه ماذا قالت ؟ قالت : " كان خلقه القرآن " يعني الائتمار بالقرآن والانتفاء عما نُهي عنه القرآن والتصديق بما في القرآن ؛ ويأتي في مقدمة ما في القرآن الكريم الاعتقاد والنهي عن الشرك . فالذي ينقض التوحيد خرج عن الخلق العظيم الذي بُعث به النبي ﷺ ؛ ولهذا باب الأخلاق وباب الآداب أوسع من أن يكون مجرد المعاملة مع الناس باللطف وحسن المعاشرة ؛ فهذا جانب من الأدب ؛ ولهذا لما ذكر بن القيم رحمه الله تعالى منزلة الأدب في كتابه -المستطاب مدارج السالكين - ؛

ذكر أن الأدب ثلاث مراتب : الأدب مع الله والأدب مع رسول الله ﷺ والأدب مع عباده الله . وأعظم الأدب الأدب مع الله جل وعلا قال ﷺ "استحيوا من الله حق الحياء" ؛ الحياء من الله أدب مع الله ؛ قال ﷺ "الحياء من الله أن تحفظ الرأس وما وعى والبطن وما حوى .. إلى آخر حديثه ﷺ .

الأدب مع الله يكون بالإقرار بربوبيته ؛ بتفرد الخلق والرزق والإنعام والإيجاد .

الأدب مع الله يكون بالإيمان بأسمائه وصفاته وعظمته وجلاله وكماله ، وعدم تحريف شيء منها أو تعطيل شيء منها ، أو تشبيه الله تعالى وتقدس بخلقه .

والأدب مع الله أن يُفرد بالعبادة وأن يُخص بالذل والخضوع والانكسار .

هذا كله أدب مع الله جل وعلا وهو أعلى الأدب ، وإذا افتقد لا قيمة لما يوجد عند الإنسان من معاملات طيبة مع الناس ؛ إذا فسد أدب الإنسان وخلقه ودينه مع ربه جل وعلا ما قيمة المعاملة الطيبة مع الناس وقد أضاع الأدب مع رب الناس ورب العالمين جل وعلا؟ ولهذا الأدب مع الله جل وعلا يكون بتوحيده وإخلاص الدين له جل وعلا .

أما من يشرك بالله فهو سيئ الأدب مع ربه ، وسوء أدبه هو أشنع سوء الأدب وأخطره ؛ قد قال الله سبحانه وتعالى عن المشركين الظانين بالله ظن السوء { الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء } .

فالشاهد أن حسن الخلق قد يُراد به مجرد المعاشرة والمعاملة ، وقد يراد به حسن الدين عقيدةً وعبادةً وخلقاً .

قال " والإثم " : أي ما يَأْثَمُ به العبد ، ويكون بفعله مستحقاً للعقاب من الله جل وعلا .
" ما حاك في النفس وكرهت أن يطلع عليه الناس " : هذا ضابط يجده المسلم الصادق في قلبه و " حاك في النفس " أي تردد في الصدر ، أو لم يرتح العبد لفعله ولم ينشرح صدره للقيام به ووجد نفسه غير مطمئن له .

" وكرهت أن يطلع عليه الناس " : قام في قلبه خوف من أن يطلع عليه الناس ؛ فالشيء الذي يتردد في الصدر بحيث لا يكون صدر المؤمن مطمئناً له ولا منشراحاً له ويخشى أن يطلع عليه الناس وهو يفعل هذا العمل ؛ فهذا إثم .

لأن أمور البر وخصال الخير والإحسان ؛ الصدر ينشرح لها ويلتذ بفعلها ويتهيج بالقيام بها ، ولا يخشى من الناس لو اطلعوا عليه يفعل هذا العمل أو يقوم به ؛ لا يخشى منهم لأنه يقوم بعمل صالح وعمل من أعمال البر ؛ بينما أمور الإثم فإن الإنسان الذي في قلبه حياء وفي قلبه أدب يمتنع عنها إن خشي إطلاع الناس عليها .

فالشاهد أن هذا ميزانٌ أكرم الله سبحانه وتعالى به عبده المؤمن إذا أقدمت نفسه على ما لا يُحمد من الخصال فإن صدره لا يرتاح ولا يطمئن لفعل الأمر ويكون متخوفاً من مثل هذا

العمل أن يُطلع عليه ، أو لا يجب أن يُرى وهو يفعل مثل هذا العمل ، وهذا ضابط يجده المسلم في قلبه .

وهذا يذكرنا بما مرَّ من قول النبي عليه الصلاة والسلام " إن الله ضرب مثلاً صراطاً مستقيماً " ؛ وذكر في الحديث الواعظ الذي في جوف الصراط الذي يقول " يا عبد الله لا تفتح الباب فإنك إن فتحتَه تلجَه " ثم بيّن ذلك فقال " وهو واعظ الله في قلب كل مسلم " ، وهو من حديث النّوّاس بن سمعان رضي الله عنه .

فالمسلم صادق الإسلام إن أقدمت نفسه على مالا يحمده أو ما يشتبه في فعله لا يرتاح ولا يطمئن ، بينما إذا تمادى الإنسان في الغي والعصيان وارتكاب المحرمات يتبلد فيه هذا الإحساس ؛ ولهذا هذا الضابط في حق المسلم المحافظ على إسلامه وعلى دينه والمبتعد عن الآثام ، لكن الذي أوغل في الحرام وتمادى في الباطل واستمرّ الباطل استمرّ وتوغل فيه ، يصل بعضهم إلى درجة أنه يفعل الإثم ولا يحيك في صدره شيء ، ويفعل الإثم ولا يبالي لو اطلع عليه الناس لأن إحساسه تبلد ورقّ دينه وضعف إيمانه ضعفاً شديداً إن لم يصل بعضهم إلى مرحلة ذهاب الإيمان ؛ فمثل هذا لا يقع في نفسه هذا المعنى أن يحز في نفسه أو يخشى أن يطلع عليه الناس .

فإذا جاءك إنسان متمادٍ في المعاصي والمحرمات والإجرام و ترك الطاعات وقال لك : ما الإثم ؟ فلا يناسب أن تقول له : الإثم ما حاك في صدرك وخشيت أن يطلع عليه الناس ؛ فشأنه آخر ، أصبح في حال - نسأل الله لنا العافية أجمعين وأن يهدي ضال المسلمين - أصبح في حال لا يشعر بهذا الشعور ولا يحس بهذا الإحساس ، وكثرة الإمساس يُذهب الإحساس ؛ فهذا الميزان (إن صحت العبارة) متعطل عنده .

فهذا يُعرّف له الإثم بتعريف آخر ، وللكلام معه مجال آخر وباب آخر ، وكما يُقال : لكل مقام مقال .

قال " جئت تسأل عن البر والإثم " : قبل أن يتلکم وابصة قال له عليه الصلاة والسلام ذلك ؛ وهذا كما ذكر أهل العلم محمول على علم سابق من النبي صلى الله عليه وسلم باهتمام وابصة بهذا الأمر وبحثه عن هذا الموضوع فيكون عنده علم سابق بتحري وابصة عن هذا السؤال ، قد يكون طرح السؤال على بعض الصحابة أو نحو ذلك ..

قال " قلت نعم " : أي نعم جئت أسأل عن البر والإثم
قال : " استفت قلبك البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب "
قوله " واطمأن إليه القلب " : الأقرب أنه بمعنى ما اطمأنت إليه النفس فيكون ذكره للتأكيد ؛
مثل أن تقول لشخص : أن يكون قلبك مرتاح ، نفسك مطمئنة .
" البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب " والمعنى أنك لا تشعر في قلبك تجاهه بأي قلق
أو ارتياب أو عدم اطمئنان .

" الإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر " : الشيء الذي تجد قلبك غير مرتاح له ولا مطمئن ،
متردد في صدرك ، وتجد نفسك تقدم رجل وتؤخر أخرى ، وأحياناً بعض الأمور تجد نفسك
تقدم رجل وتؤخر اثنتين - من شدة عدم ارتياحك للأمر وعدم اطمئنانك إليه - فمثل هذه الأمور
التي بهذه الصفة تجنبها وابتعد عنها نضير ما سبق من قوله صلى الله عليه وسلم " فمن اتقى الشبهات فقد
استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام " .

قال " وإن أفتاك الناس وأفتوك " : أي وإن قال لك بعض الناس لا بأس ؛ مثل أن يسأل أحد
العوام فيسأل زميلاً له لا فقه له ؛ فيقول : ما رأيك أفعل كذا ؟ يقول له لا بأس ، أو يجاب
بغير مستند ، أما الأمر الذي يُفتى فيه الإنسان بالدليل الواضح والبرهان البين من كتاب الله
وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فهو مرد النزاع والمعول في الأمور والمرجع .

قال " وإن أفتاك الناس وأفتوك " : أي وإن قال لك بعض زملائك أو بعض رفقاءك لا بأس
بالأمر ولا حرج .. ؛ لا تفعل ذلك ، لكن إن كان الأمر بالدليل الواضح والحجة البينة من
كلام الله وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام ؛ فهذا هو المعول والمعتمد .

وبعض الناس قد يكون عنده جرأة في هذا الباب ممن لا فقه له في دين الله ، حتى إن بعض
العوام ينقل عن عوام آخرين أنهم يفتونه في أمرٍ قول أهل العلم واضح في الحكم عليه بالحرمة
، ويقول له ذلك العامي : افعل وذنبك على رقبتى !

وقول هذا - وذنبك عند رقبتى - هذه جعلها مقام الدليل عند أهل العلم ، ولما كان لا يحسن
دليلاً تغاضى عن ذلك بهذه الكلمة - افعل وذنبك على رقبتى .. أو يقول ما جاك عليّ ... ؛
وهذا من أعظم المحرمات وأشنع الآثام ؛ ألا وهو القول على الله سبحانه وتعالى بلا علم {وأن
تقولوا على الله ما لا تعلمون} .

وأيضاً قوله صلى الله عليه وسلم " استفت قلبك " ؛ لمن تُقال ؟ قالها النبي عليه الصلاة والسلام لوابصة ؛ فمن كان في مثل مقام وابصة ، حريصاً على الخير وورعاً ومتقياً لله وبأله مشغول يريد أن يعرف البر ويعرف الإثم ؛ فمن كان في مثل هذا المقام يُعرّف له البر والإثم بهذا التعريف ، لكن الشخص الذي تمادى في المحرمات إذا سأل عن الإثم فليس من المناسب أن يُقال له "استفت قلبك" ؛ فما الذي ورطه في هذه الجرائم إلا قلبه المريض ، وإن استفتى قلبه زاد غيأً وضلالاً وضياعاً ، وهو لم يقع في هذه الأعمال المنكرات والشنائع المتعددة إلا لمرض قلبه فلو قلت له " استفت قلبك " . فمعنى ذلك أنه يزداد

فقلوله صلى الله عليه وسلم "استفت قلبك" : هو في مقام الورع الذي يسأل عن البر وعن الإثم ويتحاشى الحرام ويحرص على أمور البر ، ويخاف الله سبحانه وتعالى ؛ يقال له مثل هذا ، أما الشخص الضائع في المحرمات المبتلى بأنواع الآثام فهذا مجاله وبابه آخر ؛ لأن لو لم يفهم مقصد النبي عليه الصلاة والسلام ومراده ربما جنح بعض العصاة إلى أنواع من المعصاي ربما يبنون على ذلك ، وأحياناً يُسمع من بعض الجهال استدلالات للحديث في غير بابها وحمل لها على غير مرادها ومقصودها ويكون بذلك متبعاً لهواه وليس متبعاً لهدى الله جل وعلا .

قال الشيخ عبد المحسن العباد في شرح الحديث :

[الأول : حديث النواس رواه مسلم ، وحديث وابصة رواه أحمد والدارمي وفي إسناده مقال لكن له شواهد بأسانيد جيدة ذكرها الحافظ بن رجب في جامع العلوم والحكم ، وهو في الجملة مماثل لحديث النواس بن سمعان رضي الله عنه] .

الشرح..

... حديث وابصة بن معبد في معناه في الجملة مماثل لما دلّ عليه حديث النواس بن سمعان

رضي الله عنه •

[ثانياً : البر كلمة جامعة تشمل الأمور الباطنة التي في القلب والأمور الظاهرة التي تكون على اللسان والجوارح ، وآية { ليس البر أن تولوا وجوهكم } واضحة الدلالة على ذلك ؛ فإن أولها مشتمل على الباطنة ، وآخرها مشتمل على الأمور الظاهرة ، ويُطلق البر على خصوص بر

الوالدين لا سيما إذا قُرُن بالصلة فإنه يراد بهما بر الوالدين وصلة الأرحام ، ويأتي البر مقروناً بالتقوى كما في قول الله عز وجل {وتعاونوا على البر والتقوى} ؛ فعند اجتماعهما كما في هذه الآية يُفسر البر بفعل الطاعات، والتقوى بترك المنهيات ، فإذا أُفرد أحدهما عن الآخر في الذكر شمل المعنيين جميعاً ؛ وهذا نضير الإسلام والإيمان ، والفقير والمسكين] .

الشرح..

البر كلمة جامعة تجمع الدين كله -عقيدة وعبادة - تجمعها في أمور الباطنة التي في القلب والظاهرة على الجوارح ومن الشواهد على ذلك آية البر في سورة البقرة ..، وإذا قرن البر بالتقوى كما في بعض الآيات {وتعاونوا على البر والتقوى} يكون البر بفعل الطاعات، والتقوى بتجنب المعاصي فالبر فعل الطاعة والتقرب إلى الله بما شرع والتقوى تجنب ما نهى الله عباده عنه ، هذا إذا جُمعا في نص واحد ، وما ذكره الشيخ هو على قاعدة إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا ؛ فالبر والتقوى إذا اجتمعا في الذكر افترقا في المعنى ، وإذا افترقا في الذكر - يعني ذكر كل منهما مفرداً عن الآخر - شمل معنى الآخر .

[ثالثاً : جاء في حديث النواس رضي الله عنه "البر حسن الخلق" ؛ وحسن الخلق يحتمل أن يكون المراد به خصوص الخلق الكريم المعروف بهذا الاسم ، ويكون تفسير البر به لأهميته وعظيم شأنه ؛ وهو نضير الدين النصيحة والحج عرفة ، ويمكن أن يُراد به العموم والشمول لكل ما هو خير؛ ويدل عليه وصف أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لخلق الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه القرآن ؛ والمعنى أنه يتأدب بآدابه ، ويمتثل أوامره ويجتنب نواهيه].

الشرح..

قوله في الحديث "البر حسن الخلق" : هذه تحتمل أحد معنيين :
إما أن يراد بحسن الخلق خصوص الخلق الكريم والمعاملة الطيبة . مثل طلاقة الوجه وحسن المعاشرة وطيب التعامل مع الناس . ، ويكون تفسير البر بهذا الخلق الذي هو التعامل مع الناس ؛ فيه اهتمام بجانب الخلق والأدب ، وبيان لعظيم شأنه .
والاحتمال الآخر : أن المراد بحسن الخلق هو العموم والشمول لكل ما هو خير ؛ مثل ما قالت عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم "كان خلقه القرآن" ؛ ومعنى ذلك التأدب بآداب القرآن

وامتثال الأوامر واجتناب النواهي ؛ ولهذا قال بعض الصحابة وبعض المفسرين من بعدهم في قوله {وإنك لعلی خلق عظیم} أي على دين قويم - يُطالع في هذا كُتب التفسير بالمأثور- ؛ فالخلق قد يراد به الدين عموماً ، وقد يُراد به خصوص المعاملة الطيبة ؛ فإذا كان المراد به المعاملة الطيبة فيكون ذكر النبي ﷺ لهذا من باب الاهتمام بالمعاملة الطيبة وأن لها مكانة عظيمة من البر ، وإذا كان المراد بحسن الخلق الدين كله فالأمر واضح ؛ يكون قوله "البر حسن الخلق" مثل ما جاء في آية البر ؛ شاملة الدين كله .

[رابعاً : قوله " والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس " : من الإثم ما يكون واضحاً جلياً ، ومنه ما يحوك في الصدر ولا تطمئن إليه النفس ، ويكره الإنسان أن يطلع عليه الناس ؛ لأنه مما يُستحيا من فعله فيخشى صاحبه ألسنة الناس في نيلهم منه وهو شبيه بما جاء في الأحاديث الثلاثة الماضية :

" فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه " ، و " دع ما يريبك إلى ما لا يريبك " ، و " إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت " .

والإثم يُراد به عموم المعاصي ، الواضحة والمشتبهة ، ويأتي مقترناً بالعدوان كما في قوله عز وجل {ولا تعاونوا على الإثم والعدوان} ؛ فيُفسر العدوان بالاعتداء والظلم ، فيدخل فيه الاعتداء على الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم .

الشرح..

الإثم يكون في الأمور الواضحة الجليّة ، ويكون أيضاً في الأمور المشتبهة الخفية ، وقد مر حديث النعمان " إن الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما أمور مشتبهات " ، وقد أرشد عليه الصلاة والسلام إلى تجنب المشتبه ؛ وقال "فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام" .

الإثم الواضح والحرام البيّن يجتنبه الإنسان المؤمن .

والإثم الذي ليس بواضح بل هو مشتبه ؛ هو الذي يحوك في الصدر ، ولا تطمئن إليه النفس ، ويكره الإنسان أن يطلع عليه الناس ؛ ومثل هذا التوجيه النبوي في مثله أن يُتقى ويُجتنب ويُبتعد عنه ؛ كما يدل على ذلك حديث النواس والأحاديث الثلاثة الماضية.

من جانب آخر: الإثم قد يأتي مفرداً وقد يأتي مقترناً بالعدوان كما في قوله {ولا تعاونوا على الإثم والعدوان} ؛ فإذا جاء مفرداً شمل كل ما يأتى به الإنسان ، وإذا اقترن بالعدوان فُسر العدوان بالاعتداء والظلم على الآخرين بالدماء أو الأموال أو الأعراس ، والإثم فيما سوى ذلك ؛ فيكون أيضاً داخلاً في قاعدة " إذا اجتمعوا افترقا وإذا افترقا اجتمعوا " .

[خامساً: فُسر البر في حديث وابصة بما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب ، ولا يظهر لي فرق بينهما فقد تكون الجملة الثانية مؤكدةً للجملة الثانية باتفاقهما في المعنى ، وفُسر فيه الإثم بما يقابل ذلك ؛ وهو بمعنى ما فُسر به الإثم في حديث النواس] .

الشرح..

في حديث وابصة بن معبد رضي الله عنه فسر النبي صلى الله عليه وسلم البر بما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب ، وهما كلمتان الأقرب أنهما بمعنى واحد وأتى بهما بهذا اللفظ المقارب تأكيداً على الأمر وتوضيحاً له . وفُسر فيه الإثم بما يُقابل ذلك ؛ أي بما يقابل ما يتعلق بالبر - البر ما اطمأنت إليه النفس والإثم فُسر بما يقابل ذلك ، بما حاك في النفس وتردد في الصدر ؛ يعني لم تطمئن إليه - ؛ فأرجع الأمر في معرفة البر والإثم إلى الصدر ؛ فإن كان الصدر مطمئناً مرتاحاً فهذا بر ، وإن كان الصدر غير مطمئن ولا مرتاح فهذا إثم ، وما ورد في حديث وابصة وفي حديث النواس إنما يكون في حق المسلم الذي من عادته التورع عن الحرام ، أما الشخص الذي أوغل في الحرام وتمادى في الباطل فلا يقال في حقه مثل هذا .

[سادساً : قوله في حديث وابصة " استفت قلبك " وفي آخره " وإن أفتاك الناس وأفتوك " : يدل على أن ما كان فيه شبهة وريبة ولا يطمئن إليه القلب أن السلامة في تركه ولو حصل إفتاء الناس به؛ والمقصود أن من كان من أهل الإيمان يخاف الله ويتقيه فإنه لا يُقدم على الشيء الذي يطمئن إليه قلبه ، وقد يكون الإفتاء ممن لا علم عنده ، وقد يكون ممن عنده علم ولكن ليس في المسألة دليل بين يعوّل عليه بالفعل ، أما إذا كان في المسألة دليل من الكتاب والسنة فالمتعين المصير إليه واستفتاء القلب لا يكون من أهل الفجور والمعاصي ؛ فإن

من أولئك من قد يجاهر بالمعاصي ولا يستحي من الله ولا من خلقه ، فمثل أولئك يقعون في الحرام البين ومن باب أولى المشتبه [.

الشرح ..

هذا فيه توضيح مهم جداً لمراد الحديث ومراد النبي ﷺ بقوله "استفت قلبك" ؛ وهنا في هذا السياق فيه التنبيه على أمرين :

الأول : قوله "استفت قلبك" ؛ من الذي يُقال له استفت قلبك ؟ وأيضا التنبيه الآخر يتعلق " إن أفتاك الناس "

ففيما يتعلق بقوله "استفت قلبك" ، هذا في حق من؟ ، قال : المقصود أن من كان من أهل الإيمان يخاف الله ويتقيه ، ويتورع عن الحرام ويخاف من الوقوع في الحرام ؛ هو الذي يقال له استفت قلبك ؛ لأن الواعظ يعمل عنده ، والوازع الديني متحرك في قلبه .

ثم قال : استفتاء القلب لا يكون من أهل الفجور والمعاصي ؛ يعني لا يقال للفاجر استفت قلبك ؛ لأن أولئك يجاهرون بالمعاصي ولا يستحيون من الله ولا من عباده ، والفاجر فاجر قلبه والعياذ بالله وأصبح لا يستحي من الله ولا يستحي من خلق الله ؛ فهذا لا يقال له أبداً استفت قلبك ؛ وبهذا نعلم أن الفتوى يُنظر فيها إلى حال المستفتي ؛ إذا سأل سائل ما الإثم؟ فالجواب يختلف في هذه الحالة للإنسان الورع ، والإنسان الفاجر ؛ فالورع له جواب والفاجر له جواب ؛ كلٌّ له جواب يتناسب مع حاله ؛ هذا له جواب يتناسب مع ورعه ، وجوابه لا يصلح للفاجر ، والفاجر له جواب يتناسب مع فجوره ؛ ولهذا ابن عمر رضي الله عنهما لَمَّا سأل بعض الناس عن دم البعوض قال كلمته المعروفة : " يستفتون عن دم البعوض وقد أراقوا دم الحسين " !! فالشاهد أن معرفة حال السائل له أهميته في الجواب الذي يجاب به السائل .

التنبيه الآخر قوله : " أفتاك الناس وأفتوك " : ما المراد بالناس هنا ؟ ولعل قوله ﷺ في الحديث "أفتاك الناس" فيها التنبيه إلى أن الفتوى المعنية هنا ليست الفتوى الصادرة من أربابها ؛ فما قال " إن أفتاك أهل العلم " أو قال " أفتاك أهل البصيرة " أو قال " أفتاك أهل الذكر " ..

قال "وإن أفتاك الناس وأفتوك" : يعني وإن كان الناس قالوا لك : لا حرج ، لا بأس ، في ذمتي .. ، بعض العوام سهلة على لسانه ، فما يحسن معرفة الأدلة والنصوص وكلام أهل العلم ، ويتجرأ على دين ويقول "في ذمتي" أو "في رقبتي" أو "أنا المسؤول" ..

ولهذا قد يكون الإفتاء الذي يحصل من الناس إفتاء ممن لا علم عنده ، وقد يكون ممن عنده علم ولكن ليس في المسألة دليل بيّن يُعوّل عليه في الفعل ، أما إذا كان الذي أفتاك عالم راسخ بالدليل ؛ فالدليل هو الذي يجب المصير إليه .

فقلوه عليه الصلاة والسلام "إن أفتاك الناس" المراد بها واضح ؛ الشيء الذي لا يطمئن القلب إليه وإن قال الناس لا حرج أو لا عليك أو نحو ذلك ؛ عليه أن يمتنع منه عملاً بهذا الحديث ، وبقوله "دع ما يريبك" ، وبقوله "فمن اتقى الشبهات" ونظائر مما جاء عن الرسول عليه الصلاة والسلام .

ومن خلال هذا الحديث والأحاديث التي مضت بمعناه نعرف معنى الورع المطلوب : فحديث "من اتقى الشبهات" ، وحديث "دع ما يريبك إلى ما لا يريبك" ، وقلوه صلى الله عليه وسلم "الإثم ماحك في النفس وتردد في الصدر" وحديث "إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت" ؛ فهذه الأحاديث ونظائرها توضح لنا الورع الذي ينبغي أن يكون عليه المسلم ، والورع حقيقته ترك ما يضر في الآخرة ،

والورع هو الذي يتجنب الأمور الذي تضره يوم القيامة .
وهذه الأحاديث توضح لنا أن الورع تحقيقه يكون بتحقيق أمرين :
الأول : البعد عن الحرام البيّن باجتنابه وتركه وعدم الوقوع فيه .

الثاني : البعد عن الأمور المشتبهة . كما في حديث النعمان . ، وبالبعد عن الأمور التي تريب في الإنسان . كما في حديث دع ما يريبك . ، وبالبعد عن الأمور التي يُستحيا من فعلها . لحديث إن مما أدرك الناس ... ، وبالبعد عن الأمور التي تحيك في الصدر ويخشى أن يطلع عليه الناس . لحديثي النواس ووابصة رضي الله عنهما - ؛ فالبعد عن ذلك كله ورع ، الورع يكون بأمرين : البعد عن الحرام البيّن وأيضاً البعد ع المشتبه أو الذي يتردد في النفس أو يستحي أن يراه الناس عليه إن فعله ؛ هذا تركه من الورع .

ولهذا يُروى أن أبا يوسف - تلميذ أبي حنيفة رحمه الله وغفر الله لهما - قيل له : ألفت لنا كتاباً في الورع ؛ فقال رحمته الله تعالى : " لقد ألفت كتاباً في البيوع " - وهذا من جميل الجواب وسديد البيان - ومراده أن الذي أراد أن يتورع يفقه أبواب البيوع ، لا يدخل في السوق يبيع ويشترى وهو لا يفقه البيوع المحرمة والبيوع المنهي عنها .. ؛ ثم يأتي بعد عشرين أو خمسة عشر سنة ويقول لبعض أهل العلم : أنا كنت أتعامل بكذا وكذا ؛ فما الحكم ؟ لا ؛ قبل أن تدخل

السوق تفقه البيوع ثم تباع ، الأصل في البيع الحل ؛ لكن انظر ما نهى الله عنه واعرفه . أما أن يدخل الإنسان السوق ويبيع ويشترى ؛ فهذا ليس ورع ؛ فالورع يكون بمعرفة ما نهى الله عنه وما حرمه الله ؛ ولهذا قال "ألفت كتاباً في البيوع " ؛ يعني إذا أرت أن تتورع فافراً ما ورد في البيوع وميّز بين الحلال والحرام وعندئذ تباع وتشترى وأنت تعرف الشيء الذي نهى الله سبحانه وتعالى عنه ، أما الذي يبيع ويشترى ولا يسأل هذا ليس عنده ورع وليس من أهل الورع ، ويكون تفكيره منصباً إلى حجم الربح ؛ يعني إذا سأل في الموضوع يقول : ما نسبة الأرباح ما يفكر بالحكم الشرعي ؛ فإذا كان الربح خمسين في المائة أو أكثر لم يمتنع ، أما إذا كان نسبة الربح قليلة امتنع .. ، وإذا امتنع من البيع لا يكون امتناعه بسبب شرعي ؛ فالناحية الشرعية تركها جانباً ؛ فهذا ليس ورعاً وليس من أهل الورع ..

وليس المطلوب في الباب أن تضبط مسائل البيوع عموماً وتتعمق في دقائق هذه المسائل ، لكن الأمور التي تريد أن تتعامل بها تفقه فيها ولو بقراءة بعض المختصرات ؛ مثل رسالة للشيوخ الفوزان ، صغيرة ونافعة جداً سمها: البيوع المنهي عنها ؛ نافعة جداً . وإذا اشتبه في أمر يتركه حتى يستبين له أنه حلال بيّن ؛ والقاعدة الشرعية في هذا الباب اتقاء الشبهات .

ولما خالف كثير من الناس هذا الميزان الشرعي القويم ، وتركوا هذه الأحاديث - أحاديث الورع المذكورة - ودخلوا في البيوع بدون مبالاة وبدون اهتمام حصل لهم مضار دينية ودنيوية ومالية وصحية ، وخاصة في مجال ما يسمى في زماننا هذا الأسهم ؛ أصبح كثير من الناس إذا أعلن عن بعض الأسهم ؛ السؤال المنصب وأول ما يسأل عن نسبة الأرباح ، أما الناحية الشرعية مستبعدة ؛ وأصبحت صحة كثير من هؤلاء مرتبطة بالأسهم ؛ فإذا انخفضت نسبة الأسهم زادت نسبة السكر في الدم وارتفع الضغط ، وإذا زادت حصل ارتياح .. إلى درجة أن بعضهم خرجت روحه !!

ولهذا أقول : كم نحتاج أن نقرأ هذه الأحاديث مرات عديدة ؛ حديث " من اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه " نكرره ، نقرأ حديث " الإثم ما حاك في النفس " ، نقرأ حديث " دع ما يريبك إلى ما لا يريبك " ، حديث " إن مما أدرك الناس " ، ونحو هذه الأحاديث في الورع ؛ نداوي أنفسنا بالسنة ؛ فالضعف الذي حصل عندنا في جانب الورع نداويه بالسنة وبهذه

الأحاديث ، نعالج أنفسنا بكلام الرسول عليه الصلاة والسلام حتى يعتدل الإنسان ويستقيم على سنة النبي صلى الله عليه وسلم بدل أن يدخل في منزلقات ومتاهات وورطات لا يحمد عاقبتها لا في دنياه ولا في أخره .

[سابعاً : ما جاء في حديث وابصة من إخبار النبي صلى الله عليه وسلم له بالذي جاء يسأل عنه قبل أن ييذي سؤاله محمول . والله أعلم . على علم سابق للنبي صلى الله عليه وسلم لاهتمام هذا الصحابي بمعرفة البر والإثم ؛ فلعله حصل له مراجعة النبي صلى الله عليه وسلم من قبل في شيء من ذلك] .

الشرح..

يعني قول النبي صلى الله عليه وسلم لوابصة " جئت تسأل ع البر والإثم " هذا محمول على أن النبي عليه الصلاة والسلام علم سابقاً عن وابصة حرصه على هذا الأمر إما بسؤال سابق منه للنبي عليه الصلاة والسلام أو لكونه عُلِمَ منه أنه ذكر هذا الموضوع لبعض الصحابة وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فعليه قال النبي: جئت تسأل عن كذا قبل أن يتكلم

[ثامناً : مما يستفاد من الحديث :

الأول : بيان عظم شان حسن الخلق .

الثاني : أن البر والإثم من الكلمات الجامعة .

الثالث : أن المسلم يقدم في أمور دينه على فعل ما هو واضح الحل دون ما هو مشتبّه .

الرابع : أن المؤمن الذي يخاف الله لا يفعل ما لا يطمئن إليه قلبه ولو أفتي به ما لم يكن أمراً واضحاً في الشرع كالرخص .

الخامس : حرص الصحابة رضي الله عنهم على معرفة الحلال والحرام والبر والإثم .

سبحانك اللهم و بحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، اللهم صلّ وسلّم على عبدك ورسولك نبينا محمد و آله وصحبه

..*

الدرس الرابع والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .
أما بعد ..

الحديث الثامن والعشرون

عن أبي نجيح العرياض بن سارية رضي الله عنه قال : وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة بليغة وجلت
منها القلوب وذرفت منها العيون فقلنا يارسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا قال أوصيكم
بتقوى الله عز وجل والسمع والطاعة وإن تأمر عليك عبد فإنه من يعش منكم فسيروا
اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ وإياكم
ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة "
رواه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن صحيح

الشرح..

هذا الحديث فيه بيان أهمية السنة والتمسك بها والمحافظة عليها والحذر من محدثات الأمور
ومن البدع المخترعة التي ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان ، وفيه تحذير النبي صلى الله عليه وسلم
الأمّة من الاختلاف وأسبابه وموجباته ، وحثه صلى الله عليه وسلم الأمّة على لزوم ما يكون به اجتماعهم
وإتلافهم وهو لزوم السنة ومجانبة البدعة .

وقد وصف العرياض بن سارية رضي الله عنه موعظة النبي عليه الصلاة والسلام بأنها موعظة مؤثرة جداً ، ووصفها
بصفات ثلاث :

الصفة الأولى : أنها موعظة بليغة ؛ أي جاءت بألفاظ جزلة وعبارات حسنة ، وكلمات
عظيمة.

الصفة الثانية : أن القلوب وجلت ؛ أي أن هذه الموعظة كانت مؤثرة للقلوب ؛ فحصل
للقلوب وجل ، والوجل هو الخوف ؛ ومن صفات أهل الإيمان وجل قلوبهم عند ذكر الله
وتخويفهم به سبحانه وتعالى {إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم}

والصفة الثالثة : أن العيون ذرفت بسماع هذه الموعظة ؛ وهذا فيه بيان تأثير وعظ النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه رضي الله عنهم .

والموعظة هي النصح الذي يصحبه ترغيب وترهيب ؛ فإذا نصح وبيّن مع ترغيب وترهيب بذكر الثواب والعقاب وذكر الجنة والنار وذكر الثمار والأضرار ؛ فهذا يقال له "وعظ" ، والنبي عليه الصلاة والسلام كان يتخول أصحابه بالموعظة ، ويكون لها الأثر البالغ على قلوبهم ونفوسهم . والناس بين وقت وآخر يحتاجون إلى من يعظهم ويذكرهم بالله ، ويذكرهم بالجنة وبالنار ، ويذكرهم بالثواب والعقاب ؛ حتى تلين القلوب وتقبل على الله تبارك وتعالى طاعةً لأمره واجتناباً لنهيهِ سبحانه وتعالى .

" ذرفت منها العيون " : أي دمعت .

" فقلنا يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا " : أي كأن هذا الوعظ الذي سمعناه وأثر فينا هذا التأثير كأنها موعظة مودع ، و المودع هو الذي عزم على السفر وأخذ يودع أصحابه ، والمودع الذي له مكانة عند أصحابه ومنزلة في نفوسهم كلامه فيهم عند الوداع له شأن وله مكانة ، وعادة وصية المودع تكون جامعة لأهم المطالب وأعظم المقاصد التي يريد المودع أن يتركهم عليها ، ويرغب منهم أن يحافظوا عليها ؛ فعادة وصية المودع تكون جامعة يحاول المودع أن يأتي لهم في وصيته بمجامع الأمور ومهمات الأشياء .

ولهذا ينبغي أن نعلم أن هذه المقدمة من العرياض بن سارية هي في الحقيقة توطئة لبيان أهمية الوصية التي أوصاهم النبي صلى الله عليه وسلم وبيان عظم شأنها، وأنها وصية عظيمة جليلة ينبغي على كل مسلم أن يحافظ عليها وأن يعنى بها .

" فأوصنا " : لم يقل العرياض : - قلنا لرسول الله أوصنا فقال أوصيكم بتقوى الله- ؛ بل جاء بهذا الموقف الذي حصل والموعظة التي وعظهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بها وأحسوا كأنها موعظة مودع ؛ فطلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يوصيهم .

وقولهم " فأوصنا " مرادهم بذلك : اجمع لنا الوصية في كلمات ؛ لأن الموقف والسياق يدل على هذا الأمر ؛ لأنهم سمعوا من النبي عليه الصلاة والسلام موعظة وصفوها كأنها وصية مودع ؛ فهذا التأثير والإحساس في هذا الموقف جعلهم يطلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم وصية تجمع لهم أمهات الخير ، وتجمع لهم أبوابه ومفاتيحه .

"أوصيكم بتقوى الله عز وجل " : بدأ بها في هذه الوصية الجامعة ؛ فأفاد هذا البدء أن الوصية بالتقوى هي جماع الوصايا وأهمها ، وهي وصية الله جل وعلا للأولين والآخرين من خلقه كما قال سبحانه وتعالى { ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله } وهي وصية الأنبياء لأمتهم ، ووصية نبينا صلى الله عليه وسلم لأمته ، ووصية السلف الصالح فيما بينهم ، وهي وصية متكررة على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكثيراً ما كان يوصي بتقوى الله ، وقد مر معنا في حديث معاذ وأبي ذر قوله صلى الله عليه وسلم " اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن " فبدأ هناك بالتقوى كما بدأ بها هنا ، وكما كان يبدأ بها عليه الصلاة والسلام وصاياها .

فهذا يفيد أن الوصية بتقوى الله تبارك وتعالى هي جماع الوصايا وزمام الخير وأساس الفلاح . والتقوى حقيقتها أن يجعل الإنسان بين ما يخشاه ويخافه وقاية تقيه ، وتقوى الله عز وجل أن يجعل العبد بين ما يخشاه ويخافه من سخط الله وعقابه وقاية تقيه ؛ وذلك بفعل المأمور وترك المحذور ؛ كما قال طلق رحمه الله تعالى : " تقوى الله العمل بطاعة الله على نور من الله رجاء ثواب الله وترك معصية الله على نور من الله خيفة عذاب الله " .

"أوصيكم بتقوى الله عز وجل " وقوله هنا " عز وجل " فيه تذكير بعظمة الله وجلاله وكماله وأنه العزيز القاهر الذي لا يُغلب وأنه جل وعلا الذي له الجلال والكمال والكبرياء والعظمة ؛ وهذا فيه من الفائدة أن معرفة الله جل وعلا بأسمائه وصفاته أكبر عون لتحقيق تقوى الله جل وعلا ؛ مثل لو قلت لشخص : اتق الله العظيم الجليل ، اتق الله الكبير المتعال ، اتق الله الذي يعلم السر وأخفى ؛ فمعرفة الله جل وعلا أكبر عون لتحقيق التقوى كما قال الله سبحانه وتعالى { إنما يخشى الله من عباده العلماء } .

"والسمع والطاعة " : أي وأوصيكم بالسمع والطاعة ؛ أي للأمراء ولولاة الأمر .
"والسمع " أي لكلامهم ولما يقولون " والطاعة " لأوامرهم ؛ أي تفعل وتطيع له فيما يأمر .
وهذا شيء أمر به الله جل وعلا وأمر به النبي صلى الله عليه وسلم في أحاديث كثيرة ؛ قال تعالى { يا أيها الذين ءامنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم } ، وجاء عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الباب أحاديث كثيرة جداً ؛ بل جاء في بعض أحاديثه عليه الصلاة والسلام ذكر هذا الأمر مضموماً إلى فرائض الإسلام كقوله في حجة الوداع " اعبدوا ربكم وصلوا خمسكم وصوموا شهركم وأدوا زكاة مالكم

وأطيعوا إذا أمركم تدخلوا جنة ربكم" فذكر عليه الصلاة والسلام طاعة ولي الأمر مضمومة إلى هذه الفرائض مما يدل على مكانة طاعة ولاية الأمر في الدين .

والسبب في ذلك أن طاعة ولاية الأمر سببٌ لانتظام أحوال المسلمين وتحقيق مصالحهم ودرء الشر والمفاسد والأخطار عنهم ؛ لأن الناس لا يصلح أمرهم إلا بجماعة واجتماع ، ولا جماعة إلا بأمير ولا أمير إلا بسمع وطاعة ؛ فهذه أمور منتظمة ومترابطة ؛ ولهذا فإن السمع والطاعة لولي الأمر سببٌ لصلاح الناس وانتظام أحوالهم وزوال الأخطار والشرور عنهم ، وتحقيق الأمن والسلامة لهم ، إذا كان هناك ولاية وجماعة وإمرة تُقام وتُبنى المساجد وتُقام دور العلم وتتحقق أنواع المصالح والخيرات .

وإذا كان أمرُ الناس فوضى لا ينتظمهم جماعة ولا ينضوون تحت أمير فإن الشر فيهم يستشري والفساد يعظم وتُراق الدماء وتُنتهك الأعراض وتُستلب الأموال ويتسلط القوي على الضعيف لكن إذا كانوا تحت ولاية وإمرة ومجتمعين بسمع وطاعة فإنهم بذلك يتحقق لهم الخير ويدراً عنهم بإذن الله الشر .

ولهذا كثرت عن النبي صلى الله عليه وسلم الأحاديث في هذا الباب ، وعدَّ صلوات الله وسلامه عليه طاعة الأمير من طاعته عليه الصلاة والسلام ؛ لأنه هو الذي أمر بذلك ؛ فمن أطاع الأمير فقد أطاع الرسول ، ومن أطاع الرسول صلى الله عليه وسلم فقد أطاع الله .

والأمير كما بيّن نبينا عليه الصلاة والسلام له الطاعة في المعروف ؛ قال صلى الله عليه وسلم " إنما الطاعة في المعروف، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق" . فإذا أمر الأمير بمعصية كأن يقول للناس اشربوا الخمر ، أو افعلوا الزنا ، أو يقول لهم لا تصلوا .. أو نحو ذلك ؛ فلا طاعة له . أما إذا أمر بالأمور التي تنظم أحوال الناس وترتب شؤونهم و يلتئم بها أمرهم وتتحقق مصالحهم ؛ فيجب على الجميع أن يطيعوه ؛ وهذا هو المعروف الذي نصَّ عليه النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث " إنما الطاعة في المعروف " .

وفي الآية الكريمة قال { يا أيها الذين ءامنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم } ولم يقل { وأطيعوا أولي الأمر } ؛ وهذا فيه التنبيه - كما قال أهل العلم - إلى أن ولي الأمر ليس له الطاعة المطلقة وإنما له الطاعة في المعروف ، أما إذا أمر بمعصية فلا طاعة له .

" وإن تأمر عليكم عبدٌ " : أي استبد وتسלט وأصبح له الأمر ، وقوله عبد : يَحْتَمِلُ أموراً ذكرها أهل العلم منها المبالغة في تأكيد هذا الأمر وتثبيتته حتى لو افترض وفُدِّر أن الذي صار له الولاية واستتب له الأمر عبدٌ فاسمعوا وأطيعوا ، مع اتفاق أهل العلم أن العبد لا تكون له ولاية وليس أهلاً لها ؛ لكن لو فُدِّر أن عبداً استتب له الأمر وأصبح بيده الزمام ففي هذه الحال قال اسمعوا وأطيعوا ، وهناك احتمالات أخرى ذكرها أهل العلم سيأتي معنا شيءٌ منها بإذن الله تبارك وتعالى .

" فإنه من يعيش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً " : من تطول به الحياة ، وال "سين" للتحقيق ؛ وهذا من آيات نبوته ؛ فإنه عليه الصلاة والسلام أخبر بأمر سيقع ووقع طبقاً لما أخبر ؛ فإن الصحابة رضي الله عنهم الذين طال بهم العمر وعاشوا بعده وقتاً رأوا هذا الذي ذكره النبي صلى الله عليه وسلم . والاختلاف والبدع نشأت في أواخر زمن الصحابة ، وتحديدًا في منتصف خلافة علي رضي الله عنه في السنة السابعة والثلاثين تقريباً أو في حدودها ، بدأت البدع تظهر ، وبدأت تبرز فنشأ في الناس عددٌ من البدع ؛ ولهذا فإن بعض الصحابة الذين أدركوا نشأة البدع وحدوثها ؛ نُقل عنهم نقول كثيرة في ذم البدع - مثل عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر - لأنهم شاهدوا حدوثها ونشأتها بخلاف الصحابة الذين ماتوا قبل ذلك ولم يشاهدوا البدع ، ولكل مقام مقال ؛ من رأى البدع لا بد أنه سيُنقل عنه النقول العديدة في ذمها ، ومن لم يرها فما يُنقل عنه في ذلك سيكون قليلاً .

" فسيرى اختلافاً كثيراً " : أي الاختلاف ليس بالقليل وأيضاً هو اختلاف متنوع - العقائد والعبادات - سيقع الناس في بدع عقدية وعملية .

الناصح عندما يسمع هذا الكلام - فإنه من يعيش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً - ما السؤال الذي يجول في قلبه ؟ السؤال هو : ما الحل ؟ ما المخرج ؟ ما سبيل النجاة ؟ فهذا هو السؤال الذي يطرح نفسه في مثل هذا المقام .

وأجاب النبي عليه الصلاة والسلام على هذا السؤال دون أن يُسأل ؛ وهذا من تمام نصحه وحسن بيانه صلوات الله

وسلامه عليه •

" فعليكم بسنتي.. " إلى تمام الحديث : فهذا هو المخرج وهذا هو الحل وهذا هو سبيل النجاة .

" وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة " حدد النبي عليه الصلاة والسلام هنا سبيل النجاة والسلامة من هذا الاختلاف بأمرين لا بد منهما ولا نجاة إلا بتحقيقهما :

الأول : لزوم السنة "فعليكم بسنتي" : أي الزموها وتمسكوا بها وحافظوا عليها وأكد على هذا الأمر تأكيداً عظيماً ؛ قال : " تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ " : والنواجذ هي الأضراس وهذا فيه بيان الاهتمام بهذا الأمر ، والشيء الذي يُعَضُّ عليها بالأضراس هو الشيء الثمين الذي له مكانة عند صاحبه ومنزلة .

فأوصى عليه الصلاة والسلام بالزوم بسنته وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، والمراد بهم الأربعة الذين تولوا الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين كانت خلافتهم خلافة راشدة وهم : أبوبكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين .

وقد جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " خلافة النبوة ثلاثون سنة " ، وهذه الخلافة هي المعنية هنا في هذا الحديث بقوله صلى الله عليه وسلم " وسنة الخلفاء الراشدين المهديين " ، ولا حظ وصفه عليه الصلاة والسلام لهؤلاء الأربعة - أبوبكر وعمر وعثمان وعلي - بالرشاد والهداية ؛ قال " الراشدين المهديين " وانتبه لهذا الوصف ، والراشد ضد الغاوي، والمهتدي ضد الضال ؛ فوصفهم بوصفين ..

الرشاد ضد الغواية والهداية ضد الضلال ؛ وبهذين الوصفين العظيمين وصف الله جل وعلا نبيه عليه الصلاة والسلام في سورة النجم ؛ قال تعالى { ما ضل صاحبكم وما غوى } نفى الضلال فيه إثبات الهداية ونفي الغواية فيه إثبات الرشاد .

والراشد هو من صلح عمله ، والمهتدي هو من صلح علمه ؛ فقوله " الراشدين المهديين " فيه إثبات صلاح العلم والعمل ؛ فعملهم رشاد وعلومهم هداية . هذه حالهم رضي الله عنهم وأرضاهم صلاح في العلم والعمل .

وذكر هؤلاء بهذا الوصف في هذا المقام تأكيداً لما وجه إليه النبي صلى الله عليه وسلم وهو الأخذ بسنتهم علماً وعملاً ؛ لأن هؤلاء الذين أوصى صلى الله عليه وسلم بالأخذ بسنتهم علماً وعملاً هم أهل رشاد وهداية ؛ بهذا شهد لهم صلى الله عليه وسلم وهم على صلاح في العلم والعمل ؛ فهذا فيه التأكيد للأخذ بسنتهم وهديتهم وطريقتهم رضي الله عنهم وأرضاهم .

قال " فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ... " وإضافة سنتهم إلى سنته فيه بيان لمكانة الطريقة التي هم عليها والهدي الذين هم متمسكون به رضي الله عنهم وأرضاهم .

" وإياكم ومحدثات الأمور " : وهذا هو الأمر الثاني الذي تتحقق به النجاة ؛ وهو الحذر من البدع والمحدثات .

والمراد بـ " الأمور " هي الأمور التي تتعلق بالدين كما يوضح ذلك حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " من أحدث في أمرنا أي ديننا ؛ كأن يُحدث الإنسان عبادة لا أصل لها ، أو ذكراً لا أصل له ، أو نوعاً من القرى لا أصل لها ؛ فهذا الذي يشمل قول النبي صلى الله عليه وسلم " إياكم ومحدثات الأمور " أي الأمور المتعلقة بالدين لأن دين الله تام وكامل ولا مجال للاختراع والاستحسان .

أما محدثات الأمور الدنيوية فلا علاقة لها بالحديث ؛ مثل المخترعات الحديثة العصرية المتنوعة.

" فإن كل بدعة ضلالة " : أي لا تغتروا بها حتى وإن رآها الناس حسنة ، وقد جاء عن بن عمر بسند ثابت أنه قال " كل بدعة ضلالة وإن رآها الناس حسنة " ، وكثيراً هي البدع التي يراها الناس حسنة ويستجودونها ويستحسنونها وتميل لها نفوسهم ويرونها عملاً عظيماً ، بل يبلغ ببعض الناس الجنوح عن الحق بأن يستحسن بعض البدع أكثر من استحسانه للفرائض ؛ ولهذا تراه في سلوكه يحافظ على البدع ما لا يحافظ على الفرائض ، ويعظم البدع ما لا يعظم الفرائض ، ويدافع عن البدع ما لا يدافع عن الفرائض . وهذه رزية ومصيبة عظيمة يتلى بها بعض الناس ، ينشأ على بدعة وتعظم في قلبه فيصبح منافحاً مدافعاً عنها معظماً لها ، وفي المقابل تراه متهاوناً في فرائض الإسلام وواجبات الدين .

" فإن كل بدعة ضلالة " : لا يغتر الإنسان بأي بدعة ، وأي حدث في دين الله ؛ لأن دين الله كامل { اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً } الكامل التام لا يحتاج إلى أن يُكمل وأن يضاف إليه أشياء ؛ ولهذا قال مالك رحمه الله تعالى : من قال أن في الدين بدعة حسنة فقد زعم أن محمداً صلى الله عليه وسلم خان الرسالة لأن الله يقول { اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً } فما لم يكن ديناً زمن محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه فلن يكون ديناً إلى أن تقوم الساعة .

ولهذا لا يغتر المسلم بقول بعض الناس : بدعة حسنة في الدين ، أو بتقسيم بعض الناس البدع إلى أقسام : بدعة حسنة وبدعة واجبة وبدعة محرمة وبدعة مكروهة وبدعة مباحة ؛ فهذا التقسيم باطل ولا أصل له ؛

البدع قسم واحد وهو : كل بدعة ضلالة ،

وإذا قال إنسان عن أمر من الأمور أنه بدعة حسنة ؛ فعلى ضوء قول النبي صلى الله عليه وسلم "كل بدعة ضلالة" فماذا تقولون له ؟ يُقال له : هذا الأمر الذي تقول عنه أنه بدعة حسنة لا يمكن أن يكون كذلك ؛ فهو أحد شيئين : إما أنه بدعة أو أنه حسنة ، أما أن يكون بدعة حسنة فما تجتمع هذه لأن النبي عليه الصلاة والسلام قال "كل بدعة ضلالة" فلا يمكن أن يجمع ويمزج بين الأمرين ، إما أن يكون بدعةً فلا يكون حسنةً ، أو يكون حسنةً فلا يكون بدعةً ، ومعنى أن يكون حسنةً فلا يكون بدعةً يعني أن يكون الأمر الذي ادعى أنه بدعة ليس بدعة ؛ أمرٌ جاء في الشرع وثبتت به السنة فلا يكون بدعة .

أما أن تجتمع هاتان الكلمتان فغير صحيح ؛ يعني أن يكون بدعة في الدين وفي الوقت نفسه حسنة فهذا لا يمكن ؛ لماذا ؟ لأنه لو قيل بإمكان ذلك فهذا فيه ما قاله الإمام مالك رحمه الله تعالى "من قال أن في الدين بدعة حسنة فقد زعم أن محمداً صلى الله عليه وسلم خان الرسالة" ؛ فمعنى هذا الكلام أن هناك أموراً من الدين ومن الشرع لم يبينها النبي عليه الصلاة والسلام وبينها هؤلاء الذين أحدثوها واخترعوها ؛ وهذا طعن في بيانه وطعن في نصحه عليه الصلاة والسلام .

ولهذا على المسلم أن يُعنى بهذه الوصية وبهذه القاعدة الكلية - كل بدعة ضلالة - ؛ فليس هناك بدعة حسنة ، حتى وإن استحسنتها الناس فهي ضلالة .

قال الشيخ عبد المحسن العباد :

[قول العرياض رحمته الله "وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظةً بليغة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون" : الموعظة ما كان من الكلام فيه ترغيب وترهيب يؤثر على النفوس ويبلغ القلوب فتتوجّل من مخافة الله ، وقد وصف العرياض رحمته الله هذه الموعظة بهذه الصفات الثلاث التي هي البلاغة ووجل القلب وذرف العيون . قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم : والبلاغة في الموعظة مستحسنة لأنها أقرب إلى قبول القلوب واستجلابها ، والبلاغة هي التوصل إلى إفهام المعاني

المقصودة وإيصالها إلى قلوب السامعين بأحسن صورة من الألفاظ الدالة عليها وأفصحها وأحلاها للأسماع وأوقعها للقلوب ، وقد وصف الله المؤمنين بوجل قلوبهم وذرف عيونهم عند ذكر الله قال الله عز وجل { إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون } ، وقال { وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع } .

الشرح..

تصدير العرياض رضي الله عنه هذا الحديث بقوله "وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة بليغة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون": هذا فيه توطئة لبيان أهمية الوصية الآتية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقوله رضي الله عنه "موعظة بليغة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون" : بيان لقوة تأثير هذه الموعظة التي سمعوها من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن حصل لقلوبهم الوجل ولعيونهم الدمع تأثيراً بكلامه عليه الصلاة والسلام ، وكأنهم أحسوا أن هذا الوعظ وعظ مودع ؛ فطلبوا وصية جامعة فأوصاهم عليه الصلاة والسلام بهذه الوصية الجامعة ؛

ولهذا لا يناسب أن يغيب عن أذهاننا هذا المقصد الذي قدّم العرياض بن سارية هذه المقدمة لأجله حتى ندرك قيمة الوصية العظيمة التي اشتمل عليها هذا الحديث وبينها النبي صلى الله عليه وسلم في هذا السياق المبارك .

[ثانياً : قوله " قلنا يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا " : أي أن هذه الوصية تشبه موعظة المودع ؛ لذا فقد طلب الصحابة الكرام وهم الحريصون على كل خير وصية جامعة يعهد بها إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمسكون بها ويعولون عليها لأن الوصية عند الوداع لها وقع في النفوس ولعل هذه الموعظة كان فيها ما يُشعر بالتوديع لذا طلبوا هذه الوصية]

الشرح..

الوصية عند الوداع لها وقع في النفوس ولها مكانة ، وعادة تكون جامعة ؛ لأن المودع الذي يغادر رفقته وأصحابه وإخوانه يجمع لهم مهمات الوصايا ومهمات الأمور ؛ ولهذا في خطبة الوداع وفي الخطب التي سُمعت من النبي عليه الصلاة والسلام في الوداع جمع عليه الصلاة والسلام جماع الوصايا وجماع أبواب الخير في كلماته العظيمة التي ألقاها على مسامع الناس في حجة الوداع ؛ لأن الحجة التي ودّع

فيها الناس ؛ وقال فيها " لعلني لا ألقاكم بعد عامي هذا " ؛ فكانت وصاياه جوامع وفي مهمات الأمور .

فوصية المودع عادة تكون وصية جامعة مشتملة على مهمات الأمور وعظيم المقاصد والغايات .

[ثالثاً: قوله " أوصيكم بتقوى الله " : تقوى الله عز وجل أن يجعل المرء بينه وبين غضب الله وقاية تقيه منه وذلك بفعل الطاعات واجتناب المعاصي وتصديق الأخبار ، وهي وصية الله للأولين والآخرين كما قال الله عز وجل { ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله } وهي سبب كل خير وفلاح في الدنيا والآخرة ، ويأتي الأمر بتقوى الله في كثير من الآيات لا سيما الآيات المبدوءة بـ " يا أيها الذين ءامنوا " ، وكذلك في وصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه .

الشرح..

الوصية بالتقوى هي أعظم الوصايا ومن أحسن ما عُرِّفت به قول طلق " تقوى الله العمل بطاعة الله على نورٍ من الله رجاء ثواب الله ، وترك معصية الله على نور الله خيفة عذاب الله "

[رابعاً : قوله " والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد " : وهي وصية بالسمع والطاعة لولاة الأمر في غير معصية الله ، ولو كان الأمير عبداً ، وقد أجمع العلماء على أن العبد ليس أهلاً للخلافة ، ويُحمل ما جاء في هذا الحديث وغيره من الأحاديث في معناه على المبالغة في لزوم السمع والطاعة للعبد إذا كان خليفة وإن كان ذلك لا يقع ، أو أن ذلك يُحمل على تولية الخليفة عبداً على قرية أو جماعة أو أنه كان عند التولية حراً ، وأطلق عليه عبداً باعتبار ما كان ، أو أن العبد تغلب على الناس بشوكته واستقرت الأمور واستتب الأمن بما في منازعته من حصول ما هو أنكر من ولايته] .

الشرح..

قوله " والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد " : فيه ذكر السمع والطاعة لولاة الأمر عقب الوصية بتقوى الله جل وعلا ؛ وهذا فيه بيان عظم اهتمام النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الوصية - التي هي بمثابة وصية مودع . بأمر السمع والطاعة لولاة الأمر وتأكيده على هذا الأمر ؛ لأنه أمرٌ في

غاية الأهمية وإن استهانت به بعض النفوس لغلبة الشبهات وكثرة الأهواء ، وأصبحوا لا يبالون بهذا الأمر ، بل أصبح بعض الناس إذا قُرئ عليه بعض الأحاديث التي تتعلق بالسمع والطاعة اشمئز قلبه وكأنه يسمع قولاً منكراً أو كلاماً سيئاً ، مع أن الذي يسمعه هو كلام الرسول عليه الصلاة والسلام ، وبعضهم ربما طوى الكلام !

وعندما نطالع كتاب صحيح مسلم وأبوابه نجد كتاباً في الصلاة ، كتاباً في الصيام ، كتاباً في الحج .. كتاباً في الإمارة ؛ وكتاب الإمارة مليء بالأحاديث التي في هذا الباب ؛ فبعض الناس بسبب غلبة الشبهات وكثرة الأهواء لا يطيق أن يسمع الأحاديث التي في السمع والطاعة ، وإذا سمع تذكيراً بذلك نفر واشمئز من ذلك ؛ وهذا سببه مرض القلب وإلا من الذي ينفر من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا من أصابه قلبه المرض ؛ فأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم ليس فيها إلا الخير والصلاح والفلاح والسعادة للناس ؛ ولهذا يجب على المسلم أن يوطّد قلبه على لزوم السنة ؛ فالسنة بركة ، ومن أَمَر السنة على نفسه نطق بالحكمة ، يجعل السنة حاكماً على نفسه - لا يجعل الأهواء حاكمة على نفسه - .

" وإن تأمر عليكم عبد " : أهل العلم اتفقوا أن العبد ليس أهلاً للخلافة والولاية ؛ فما معنى قوله عليه الصلاة والسلام " وإن تأمر عليكم عبد "

أهل العلم ذكروا في ذلك احتمالات منها أن ذلك على سبيل المبالغة بالتأكيد على لزوم السمع والطاعة وإن كان ذلك لا يقع .

ومن الاحتمالات لو أن الخليفة ولّى عبداً على قرية أو على مدينة .. ، وذكر أهل العلم في هذا احتمالات عديدة .

والشاهد هو أن من استتب له الأمر وكانت له الولاية فيجب أن يُسمع له ويطاع في المعروف .

[خامساً : " فإنه من يعيش منكم فسرى اختلافاً كثيراً " : هذا من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم حيث أخبر عن أمر مستقبل وقع طبقاً لما أخبر به صلى الله عليه وسلم ، فإن الذين طالت أعمارهم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أدركوا اختلافاً كثيراً ومخالفة لما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وذلك بظهور بعض فرق الضلال كالقدرية والخوارج وغيرهم] .

الشرح..

قوله " فإنه من يعيش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً " : هذا من دلائل النبوة ؛ ولهذا من عاش من الصحابة وطال عمره أدرك نشأة البدع وبدء حدوثها كبدعة القدرية الذين قالوا بنفي القدر ، ومراً معنا من حديث جبريل عندما جاء نقرأ إلى ابن عمر رضي الله عنهما وقالوا له " إن قوماً قبلنا يقولون لا قدر " ، وأعلن رضي الله عنه البراءة منهم ؛ فأدرك نشأة بدعة القدرية .

والخوارج خرجوا على علي رضي الله عنه وناصروه العداء وكفروه رضي الله عنه وأرضاه فأدرك من عاش من الصحابة نشأة البدع من بدعة القدرية والخوارج وكذلك بدء عقيدة الروافض وغيرها من البدع التي بدأت تنشأ ؛ فأدرك الصحابة رضي الله عنهم بدء هذه البدع وحاربوها وذكرها ضلال أهلها ومخالفتهم للحق والهدى ولدين الله تبارك وتعالى .

[سادساً : قوله " فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ " : لما أخبر صلى الله عليه وسلم حصول التفرق وكثرته أرشد إلى طريق السلامة والنجاة وذلك بالتمسك بسنته وسنة خلفاء الراشدين ، وخلفائه الراشدون هم أبوبكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم ، وقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم خلافتهم بأنها خلافة نبوة كما جاء في حديث سفينة رضي الله عنه " خلافة النبوة ثلاثون سنة ثم يؤت الله الملك أو ملكه من يشاء " رواه أبو داود وغيره وهو حديث صحيح أورده الألباني رحمته في السلسلة الصحيحة ونقل تصحيحه عن تسعة من العلماء .

قال ابن رجب رحمته والسنة هي الطريقة المسلوكة ويشمل ذلك التمسك بما كان عليه هو وخلفائه الراشدون من الاعتقادات والأعمال والأقوال ، وهذه هي السنة الكاملة ولهذا كان السلف قديماً لا يطلقون اسم السنة إلا على ما يشمل ذلك كله ، وروي معنى ذلك عن الحسن والأوزاعي والفضيل بن عياض وكثير من العلماء المتأخرين يخص اسم السنة بم يتعلق بالاعتقادات لأنها أصل الدين والمخالف فيها على خطر عظيم ، وقد حث رسول الله صلى الله عليه وسلم على التمسك بسنته وسنة خلفاء الراشدين بقوله " فعليكم " وهي اسم فعل أمر ، ثم أرشد إلى شدة التمسك بها بقوله " عضوا عليها بالنواجذ " ، والنواجذ هي الأضراس وذلك مبالغة في شدة التمسك بها [.

الشرح ..

قوله صلى الله عليه وسلم "فعليكم بسنتي" : المراد بالسنة هنا هو هديه عليه الصلاة والسلام جميعاً - في العقيدة والعبادة والسلوك - ، ليس المراد بالسنة جانب العمليات فقط ؛ بل المراد بالسنة العقيدة والعبادة والسلوك ، ومثل ما قال بن رجب : الطريقة المسلوكة أي التي كان عليها صلوات الله وسلامه عليه في العقيدة والعبادة والسلوك .

فالذي يكون على السنة هو الذي يكون على هدي النبي صلى الله عليه وسلم عقيدةً وعبادةً وسلوكاً . وهذا خلاف حال من يختار له في كل باب من هذه الأبواب مسلكاً ؛ فيقول : أنا في العقيدة كذا ، وفي العبادة كذا ، وفي السلوك كذا .. ؛ فهذا من الأمور التي حذر منها النبي صلى الله عليه وسلم ومن التفرق في الدين ، والواجب على المسلم أن يكون على السنة عقيدةً وعبادةً وسلوكاً ، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم .

[سابعاً : قوله " وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة " في رواية أبي داود " وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة " محدثات الأمور ما أحدث وابتدع في الدين مما لم يكن له أصل فيه ، وهو يرجع إلى الاختلاف والتفرق المذموم الذي ذكره النبي صلى الله عليه وسلم في قوله " فإنه من يعيش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً " ، وقد وصف النبي صلى الله عليه وسلم كل البدع بأنها ضلال فلا يكون شيء من البدع حسناً لعموم قوله صلى الله عليه وسلم " وكل بدعة ضلالة " قد روى محمد بن نصر في كتابه السنة بإسنادٍ صحيح عن عمر رضي الله عنه قال " كل بدعة ضلالة وإن رآها الناس حسنة " ، وذكر الشاطبي في الاعتصام عن بن الماجشون قال سمعت مالكا يقول " من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمداً خان الرسالة لأن الله تعالى يقول { اليوم أكملت لكم دينكم } فما لم يكن يومئذ ديناً فلا يكون اليوم ديناً " ، وقال أبو عثمان النيسابوري " من أتمر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة ومن أتمر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة " أنظر حلية الأولياء .

وأما الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه " من سنَّ في الإسلام سنةً حسنةً فله أجره وأجر من عمل بها " فهو محمول على القدوة الحسنة في الخير كما هو واضح من سبب الحديث وهو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حثَّ على الصدقة ؛ فأتى رجل من الأنصار بصرة كبيرة فتابعه الناس على الصدقة فعند ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال ،

وهو محمول أيضاً على من أظهر سنة رسول الله ﷺ وأحيائها كما حصل من عمر رضي الله عنه في جمع الناس على صلاة التراويح في رمضان ؛ فإنه إظهار لسنة ﷺ لأنه ﷺ صلى الله عليه وسلم صلى الناس قيام رمضان في بعض الليالي وتركه خشية أن يُفرض عليهم كما في صحيح البخاري ، فلما توفي الرسول ﷺ ذهب ما كان يُخشى من الفرض بانقطاع التشريع بوفاة ﷺ صلى الله عليه وسلم فبقي الاستحباب ، فأظهره عمر رضي الله عنه وهو أيضاً من سنة الخلفاء الراشدين ، وما جاء عنه رضي الله عنه من قوله " نعم البدعة" كما في صحيح البخاري ؛ يريد إظهار صلاة التراويح ، يُراد به البدعة اللغوية ، ومثل ذلك زيادة عثمان رضي الله عنه الأذان يوم الجمعة وقد وافقه عليه الصحابة رضي الله عنه ؛ فهو من سنة الخلفاء الراشدين ، وما جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه بدعة فهو محمول إن صح على البدعة اللغوية] .

الشرح..

المراد بـ " محدثات الأمور" ما أحدث وابتدع في الدين مما لم يكن له أصل فيه ؛ وهذا أمرٌ ذمه النبي ﷺ ، والذم عام وشامل لا يستثنى منه شيء ؛ فكل بدعة ضلالة ، ولو كان شيء من هذا يُستثنى لاستثناه النبي عليه الصلاة والسلام نصحاً للأمة ، لو كان في هذا العموم شيء يستثنى لاستثناه عليه الصلاة والسلام ولجاء قوله "كل بدعة ضلالة إلا بدعة حسنة أو أمراً حسناً أو نحو ذلك " ، مثل ما استثنى عليه الصلاة والسلام في قوله "كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبي " ، فإذا كان في العموم استثناء فالنصح يقتضي ذلك ، والنبي ﷺ أطلق ولم يستثنى ؛ فقال "كل بدعة ضلالة" فكيف يتجرأ إنسان ويستثنى من هذا الذي أطلقه النبي ﷺ ؟

والبدعة : الأمر الذي أحدث في الدين مما ليس له أصل ، وفي هذا المقام قد يشبه من أحدث أو استحسنوا البدع المحدثه قد يُشبهون ببعض النصوص التي لا تدل على مرادهم ؛ مثل قوله عليه الصلاة والسلام "من سن في الإسلام سنة حسنة" ؛ فهذا محمول عند أهل العلم على القدوة الحسنة في الخير ؛ كأن يكون رأيهم مقصرين في بعض السنن فشجعهم عليها وسبقهم إلى فعلها وعملوا به يكون بذلك سن فيهم سنة حسنة . أما الذي يدلهم على بدعة هذا لم يسن فيهم سنة حسنة بل سن فيهم ضلالة .

وكذلك قول عمر "نعم البدعة" في صلاة التراويح على إمام واحد ، والأمر الذي جمعهم عليه له أصله وأساسه من سنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ؛ فيكون قوله "نعم البدعة" محمول على إظهار السنة ، فمن حمله على اختراع البدعة فهو مجانب للصواب .
وهكذا ما يتعلق به من يستحسنون البدع ؛ كله لا متعلق لهم به ، والأمر كما قال الصحابي الجليل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما "كل بدعة ضلالة وإن رآها الناس حسنة " ؛ يعني لا عبرة باستحسان الناس للبدعة ؛ فالبدعة كلها ضلال .

[ثامناً مما يستفاد من الحديث :

أولاً : استحباب الموعظة والتذكير في بعض الأحيان لما في ذلك من التأثير على القلوب .

ثانياً : حرص الصحابة رضي الله عنهم على الخير لطلبهم الوصية منه صلى الله عليه وسلم .

ثالثاً : أن أهم ما يوصى به تقوى الله عز وجل وهي طاعته بامثال أمره واجتناب نهيهِ .

رابعاً : أن من أهم ما يوصى به السمع والطاعة لولاة الأمور لما في ذلك من المنافع الدنيوية والأخروية للمسلمين .

خامساً : المبالغة في الحث على لزوم السمع والطاعة ولو كان الأمير عبداً .

سادساً : إخبار النبي صلى الله عليه وسلم عن وجود الاختلاف الكبير في أمته ثم حصوله كما أخبر من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم .

سابعاً : أن طريق السلامة عند الاختلاف في الدين لزوم سنته صلى الله عليه وسلم وسنة الخلفاء الراشدين .

ثامناً : بيان فضل الخلفاء الراشدين وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم وأنهم راشدون مهديون .

تاسعاً : التحذير من كل ما أحدث في الدين مما لم يكن له أصل فيه .

عاشراً : أن البدع كلها ضلال فلا يكون شيء منها حسناً .

الحادي عشر : الجمع بين الترغيب والترهيب لقوله في الترغيب فعليكم وفي الترهب وإياكم .

الثاني عشر : بيان أهمية الوصية بتقوى الله والسمع والطاعة لولاة الأمور واتباع السنن وترك البدع لكون النبي صلى الله عليه وسلم أوصى الصحابة بها بعد قوله عن موعظته كأنها موعظة مودع فأوصنا .

[

سبحانك اللهم و بحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، اللهم صلّ وسلّم على عبدك
ورسولك نبينا محمد و آله وصحبه

..*



شرح الأربعين النووية

لأبي زكريا يحيى بن شرف الحزامي النووي رحمه الله

من الدرس ٢٥ إلى الدرس ٢٧

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما الله تعالى

١٤٤٠/٠٧/٠١ هـ

الدرس الخامس والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .
أما بعد ..

الحديث التاسع والعشرون

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار ؛ قال " لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله تعالى عليه ، تعبد الله لا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت " ثم قال : " ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جنة والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار وصلاة الرجل في جوف الليل " ثم تلا { تتجافى جنوبهم عن المضاجع } حتى بلغ { يعملون } ، ثم قال : " ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟ " قلت بلى يا رسول الله ؛ قال : " رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد " ، ثم قال " ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ " قلت بلى يا رسول الله ؛ فأخذ بلسانه وقال " كف عليك هذا " قلت يا نبي الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال " ثكلتك أمك وهل يكب الناس في النار على وجوههم - أو قال على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم " رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح

الشرح..

هذا الحديث من أعظم الأحاديث الجامعة في موجبات الجنة والنجاة من النار ؛ حيث إن معاذاً رضي الله عنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم هذا السؤال العظيم " أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار " . وهذا فيه الدلالة على عظم حرص الصحابة على موجبات الخير، وأسباب الفلاح، والنجاة من النار وسخط الله جل وعلا ؛ فسأل سؤال حريص على الخير راغب فيه ، سأل سؤال صاحب همة عالية وعزم أكيد على العمل بما يُوجَّه عليه ويُدَلُّ عليه ؛ فقال رضي الله عنه " أخبرني بعمل

يدخلني الجنة ويباعدني من النار " ؛ فسأل أن يدلّه النبي عليه الصلاة والسلام على الأعمال التي تكون بها النجاة من النار ويكون بها دخول الجنة .

وقوله رضي الله عنه " بعملٍ " : هذا مفرد مضاف ؛ فهو يفيد أنه يسأل عن عموم الأعمال لا عن عمل واحد ؛ ولهذا أجابه النبي عليه الصلاة والسلام بأعمال عديدة توجب دخول الجنة والنجاة من النار ؛ فقوله " بعملٍ " : يسأل عن أعمال التي يكون بها النجاة من النار ودخول الجنة ؛ ولهذا ذكر له النبي أموراً عديدة يُنال بها ذلك كما سيأتي في حديثه عليه الصلاة والسلام .

وقوله " بعملٍ يدخلني الجنة ويباعدني عن النار " : يدل على أن الصحابة رضي الله عنهم حريصون على هذا الأمر ؛ يعملون الأعمال الصالحات والطاعات الزاكيات وأنواع القربات من أجل دخول الجنة والنجاة من النار ؛ فهذا لهم مقصد ؛ ولهذا يسألون من جهة ، ويدعون الله تبارك وتعالى من جهة بأن يدخلهم الجنة ويوفقهم لها وما قرب إليها من العمل، وأن يعيذهم من النار وما قرب إليها من العمل ، ويبذلون الأسباب التي تُنال بها الجنة وتكون بها النجاة من النار ؛ فالجنة دخولها لهم مقصد وكذلك النجاة من النار ؛ وهذا يذكرنا بقصة الأعرابي

الذي قال للنبي عليه الصلاة والسلام : " إني لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ " : يقصد الأذكار والدعوات التي يُعنى بها ويُعنى بها معاذ وغيره من الصحابة ؛ أي الكلام الذي تقولونه ويقولونه معاذ ؛ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم "ماذا تقول؟" ، قال أقول : اللهم إني أسألك الجنة وأعوذ بك من النار ؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم " حولها ندندن " ؛ يعني أنا ومعاذ وعموم الصحابة حولها ندندن . ومعاذ رضي الله عنه خصّه بالذكر فقال النبي صلى الله عليه وسلم " حولها ندندن " ؛ حتى يشمل الصحابة بما فيهم معاذ رضي الله عنه .

ومن هذا الحرص ومن هذا المنطلق جاء هذا السؤال العظيم عن معاذ رضي الله عنه .
مثل قول وفد عبد القيس عندما جاءوا للنبي عليه الصلاة والسلام قالوا : " مرنا بقول فصل نخبر به من وراءنا وندخل به الجنة " .

وكثيراً ما يأتي مثل هذا في سؤالات الصحابة رضي الله عنهم ، فدخول الجنة والمباعدة من النار مقصدٌ يسعون حثيثاً لنيله وتحقيقه .

وإذا علمنا هذا علمنا الضلال المبين والانحراف الشديد الذي عليه بعض الطريقة من أصحاب بعض الطرق الفاسدة الذين يقولون : نحن نعبد الله حباً فيه لا طلباً لثوابه ولا خوفاً من عقابه ، لا نريد جنة ولا نخاف من النار.. ؛ وهذا الكلام لو سمعه جاهل ربما اغتر به ، وظن أن هذا من تحقيق المحبة ، بينما حقيقة هذا الكلام انحراف في الدين ، وزيف عن صراط

الله المستقيم ، وعن نهج الأنبياء المرسلين والأولياء الصالحين ؛ فالأنبياء كلهم يعملون حباً لله وطلباً للدخول إلى الجنة والنجاة من النار ؛ إبراهيم عليه السلام يقول { واجعلي من ورثة جنة النعيم } وهكذا عموم الأنبياء ، ونبينا عليه الصلاة والسلام يقول - كما مر - " حولها ندندن " وفي دعواته عليه الصلاة والسلام المأثورة عنه كثيراً ما يأتي سؤال الله الجنة والنجاة من النار ، وأولياء الله المقربين ؛ دخول الجنة والمباعدة عن النار مقصداً من مقاصدهم في التقرب والعبادة ؛ وهذا هو السبيل القويم والصراط المستقيم . أما من يقول أنا أعبد الله حباً فيه لا طمعاً في ثوابه ولا خوفاً من عقابه ؛ فهذا نهج انحرافٍ وزيفٍ عن سبيل الأنبياء والصالحين من عباد الله .

قال " لقد سألت عن عظيم " : هذا أيضاً فيه تأكيد لما سبق ؛ وهو أنه من أراد بعمله دخول الجنة والنجاة من النار فقد أراد أمراً عظيماً ؛ فقلوه عليه الصلاة والسلام " لقد سألت عن عظيم " فيه إشادة بهذا الذي سأل عنه معاذ رضي الله عنه ، وتنويه بمكانة السؤال وعظم شأنه ؛ فالذي سألت عنه ليس أمراً هيناً بل هو أمرٌ عظيم وأمرٌ جليل ينبغي أن تتظافر الهمم والعزائم لتحقيقه ونيله . قال " وإنه ليسير على من يسره الله تعالى عليه " : أيضاً يتضمن هذا الكلام أن الذي تُنال به الجنة ويُباعده به عن النار أمرٌ عظيم لكن الله تبارك وتعالى ييسره لمن وفقهم جل وعلا من عباده لأن يكونوا من أهل الجنة والمباعدة عن النار والفضل بيد الله جل وعلا والله يؤتية من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، والتيسير بيد الله جل وعلا ، وفي القرآن قال تعالى { فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى } فالتيسير بيده .

وقوله " من يسره الله عليه " : يفيد فائدة مهمة جداً في هذا الباب وهي أنك قبل أن تقرأ الأعمال الآتية تعلم أن تيسير فعلها أو تيسر فعلها لك إنما هو بيد الله ؛ فابدأ أعمالك كلها بطلب العون والتيسير منه ؛ لأنك لا تستطيع أن تقوم بهذه الأعمال أو غيرها من الأعمال إلا إذا يسرها الله لك وأعانك على فعلها ؛ ولهذا جاء في حديث آخر لمعاذ رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له " يا معاذ إني أحبك فلا تدعن دبر كل صلاة أن تقول اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك " ؛ فأنت في كل عمل وفي كل طاعة وفي كل عبادة وفي كل سبب يوجب دخول الجنة والمباعدة من النار بحاجة إلى عون الله ؛ فقلوه " على من يسره الله تعالى " يؤكد العناية بالاستعانة والالتجاء إلى الله سبحانه وتعالى بطلب التوفيق والهداية والسداد والعون على العبادات والأذكار وأنواع الطاعات .

ثم بيّن عليه الصلاة والسلام ذلك قال : " تعبد الله لا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت " ؛ فذكر له عليه الصلاة والسلام فرائض الإسلام ومبانيه العظام ، وقد مر معنا من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، و مر في حديث جبريل ..

فهذه الأمور الخمسة هي مباني الإسلام وهي الأساس في دخول الجنة والنجاة من النار ؛ ولهذا جاء في قصة الرجل الأعرابي الذي ذكر له النبي عليه الصلاة والسلام هذه الأمور الخمسة فأمسك بيده وقال " والله لا أزيد على ذلك ولا أنقص " فقال النبي صلى الله عليه وسلم "أفلح إن صدق" أو قال "دخل الجنة إن صدق" فمن صدق مع الله جل وعلا وأتى بهذه الأمور الخمس أتى بفرائض الإسلام واستحق دخول الجنة بتوفيق الله سبحانه وتعالى وفضله .

فهذه الفرائض التي افترضها الله سبحانه وتعالى على عباده ، وما عاداها من نوافل أو رغائب ؛ إن فعلها أثيب وإن لم يفعلها لم يُعاقب . هذا في باب الأعمال . ويلزم أن يُضم إلى ذلك ترك النواهي والمحرمات لأن المحرمات موجبة لسخط الله تبارك وتعالى وعقابه ؛ ولهذا مر معنا في الحديث السابق الرجل الذي قال للنبي صلى الله عليه وسلم "أرأيت إذا صليت المكتوبات وصمت رمضان وأحللت الحرام وحرمت الحرام أددخل الجنة ؟ قال نعم " فلا بد من الابتعاد عن الأمور التي حرمها الله سبحانه وتعالى على عباده ونهى عباده عنها .

قال " تعبد الله لا تشرك به شيئاً " : في حديث ابن عمر وفي حديث جبريل قال : " تشهد أن لا إله إلا الله " ، وهنا ذكر الشهادة بمعناها قال : " تعبد الله لا تشرك به شيئاً " وهذا هو معنى أشهد أن لا إله إلا الله ؛ فذكرها هنا بالمعنى ؛ ولهذا حديث معاذ يُعَدُّ تفسيراً لـ لا إله إلا الله ؛ فلو قال قائل : ما معنى لا إله إلا الله ؟ فقال المجيب : تعبد الله لا تشرك به شيئاً ؛ لكان الجواب وافياً ؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام ذكر هنا لا إله إلا الله بمعناها .

تعبد الله لا تشرك به شيئاً : تفرد الله سبحانه وتعالى بالعبادة، وتبرأ من الشرك كُلِّهِ صغيره وكبيره ، دقيقه وجليله .

قال " وتقيم الصلاة " : أي المكتوبة ؛ وهي خمس صلوات افترضها الله سبحانه وتعالى على عباده في اليوم والليلة .

" وتؤتي الزكاة " : أي الزكاة المفروضة ، والزكاة قرينة الصلاة في كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام ، وهي مفروضة على الأغنياء الذين بلغ ما لهم النصاب ، الذي يلزم من بلغ ماله النصاب أن

يخرج القدر المعلوم المبين في الشريعة ، وهو قدر يسير من شيء كثير من الله سبحانه وتعالى به على عبده ، وسميت زكاة لأن فيها تزكية لصاحبها ووقاية من شح النفس ، ولأن فيها تزكية لماله وبركة فيه .

قال " وتصوم رمضان " : وهو شهر واحد في كل عام افترضه الله سبحانه وتعالى على عباده .
قال " وتحج البيت " : وهو فرض في العمر كله مرة واحدة كما قال عليه الصلاة والسلام " الحج مرة فمن زاد فهو تطوع " .

لما ذكر عليه الصلاة والسلام هذه الفرائض وبها أجاب صلى الله عليه وسلم على سؤال معاذ رضي الله عنه ؛ انتقل إلى ذكر أبواب الخير التي تكون بها الرفعة في الجنة وعلو المنازل ؛ ويكون عليه الصلاة والسلام أجاب معاذاً رضي الله عنه بسؤاله الذي سأل عنه وأيضاً بالرفعة في الجنة ببلوغ عالي المنازل ورفيع الدرجات .

فالذي ذكره أولاً وهو الخمس هذا هو الذي يدخل الجنة ويباعد من النار وما سيأتي بعد قوله " ألا أدلك على أبواب الخير " أي التي يكون بها الرفعة وعلو المنازل { ولكل درجات مما عملوا } فهذه أمور ترتفع بها الدرجات وتعلو بها المنازل في الجنة أما الذي يوجب دخول الجنة والمباعدة م النار هذه الفرائض الخمس التي لم فعلها ولم يزد عليها ولم يقص دخل الجنة ومن زاد عن ذلك فهو تطوع ونفل ومستحب ترتفع به درجات العبد عند الله سبحانه ولهذا صدر الحديث عن ذلك صلى الله عليه وسلم " ألا أدلك على أبواب الخير " : أي مما ينال به رفيع الدرجات وعالي المنازل في الجنات .

" ألا أدلك " : هذا في التشويق والترغيب والحث على الخير .

" الصومُ جنة " : المراد بالصوم هنا النوافل - صيام التطوع - ؛ لأن صيام الفريضة ذكره أولاً عليه الصلاة والسلام .
وهنا رغب عليه الصلاة والسلام بقوله " الصوم جنة " بصيام النافلة ، مثل صيام الاثنين والخميس ، وصيام ثلاثة أيام من كل شهر ، وصيام يوم التاسع والعاشر من شهر الله المحرم ، وصيام يوم عرفة لغير الحاج ، وغير ذلك من صيام التطوع الذي جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحث على الصيام ورغب فيه .

" الصوم جنة " : أي الصوم وقاية ، ولم يذكر وقاية من ماذا ؛ وهذا يدل على أن الصيام وقاية من الذنوب والمعاصي كما يدل لذلك قوله عليه الصلاة والسلام " فمن لم يستطع . أي النكاح . فعليه بالصيام فإنه له وجاء " أي وقاية .

وأيضاً وقاية من النار كما يدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام "من صام يوماً في سبيل الله باعده الله عن النار سبعين خريفاً" .

وكلما زاد العبد من الصيام - صيام النفل - زاد حظُّه من هذه الجُنة ومن هذا الوافي من الذنوب لأن الصيام صبر ومنع للنفس وتدريب لها وتمرين على الامتناع ، والمعاصي تحتاج إلى صبر ، والصيام مدرسة عظيمة في الصبر ، يربي الإنسان على الصبر على الطاعة والصبر عن المعصية والصبر على أقدار الله المؤلمة ؛ ولهذا سَمِيَ نبينا عليه الصلاة والسلام شهرَ رمضان بشهر الصبر " صيام شهر الصبر وثلاثة أيام من كل شهر يُذهبن وحر الصدر " .

قال " والصدقة تطفئ الخطيئة كما يُطفئ الماء النار " : المراد بالصدقة أي النافلة ، صدقة التطوع ، أما الصدقة التي هي الزكاة المفروضة فمرت معنا ؛ لكن المراد هنا الصدقة التي هي التطوع بحيث يحرص العبد على البذل والإنفاق في سبيل الله وفي وجوه الخير تقرباً إلى الله سبحانه وتعالى وطلباً لثوابه .

ثم ذكر عليه الصلاة والسلام أثر الصدقة العظيم فقال: " الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار " ؛ وهذا مثال للتوضيح ؛ يعني إذا أردت أن تعرف مدى إطفاء الصدقة للخطيئة فانظر إلى الماء إذا صُبَّ على النار ماذا يصنع به ؟ لا يبقى لها أثراً ؛ فكذلك الصدقة فهي تطفئ الخطيئة ؛ وهذا فيه بيان الأثر العظيم للصدقات والنفقات والبذل في سبيل الله في تكفير الخطايا وتكفير الذنوب .

والخطيئة التي تُطفأ بالصدقة هي الصغيرة وأما كبائر الإثم فتحتاج إلى توبة من الذنب { إن تجتنبوا كبائر من تُنهون عنه تُكفر عنكم سيئاتكم } وقال عليه الصلاة والسلام " الصلوات الخمس ورمضان إلى رمضان والجمعة إلى الجمعة مكفرات لما بينهما ما اجْتُنِبَت الكبائر " لاحظ هذه فرائض ، والفريضة أعظم في تكفير الذنوب من النافلة لكن اشترط عليه الصلاة والسلام اجتناب الكبائر ؛ فالكبيرة تحتاج إلى توبة .

" وصلاة الرجل في جوف الليل " : وهي نافلة وأمر مستحب لكنها داخلة في أبواب الخير العظيمة كما قدم نبينا عليه الصلاة والسلام بذلك "ألا أدلك على أبواب الخير" ؛ فالنافلة في جوف الليل من أعظم أبواب الخير ومن أعظم أسباب القرب من الله جل وعلا . قد قال عليه الصلاة والسلام "ينزل ربنا إلى السماء الدنيا كل ليلة في ثلث الليل الآخر" ؛ ولهذا فإن وقت ثلث الليل الآخر من أحرى أوقات الإجابة للدعاء ، ووقت عظيم للتفعل والتقرب إلى الله عز وجل بالصلاة والذكر والاستغفار .

ثم تلا قول الله تعالى ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون فلا تعلم نفسٌ ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون ﴾ عليه الصلاة والسلام ولا حظ هنا كل نفلٍ ذكره أتبعه بما يُرَغَّب فيه ويحث على فعله ؛ فحث على نافلة الصيام وذكر ما يرغب في فعلها وهو أنه جنة ، وذكر عليه الصلاة والسلام نافلة الصدقة وذكر ما يرغب في فعلها وهي أنها تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار ، وذكر نافلة الصلاة في جوف الليل وذكر ما يرغب فيها وهو قول الله جل وعلا ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون فلا تعلم نفسٌ ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون ﴾ وهذا فيه أن النعيم الذي أعده الله سبحانه وتعالى لهم هو نعيم لم تره عين ولم تسمع به أذن قط .

فهنا رَغِبَ عليه الصلاة والسلام في ثلاث خصال وثلاث أعمال من أبواب الخير : صيام النفل وصدقة النفل وصلاة النفل في جوف الليل .

ثم قال " ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ، قلت بلى يا رسول الله " : ثلاثة أمور سيخبره النبي صلى الله عليه وسلم بها وقدم بهذه المقدمة " ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه " والمراد برأس الأمر أي الدين ؛ أي الأمر العظيم الذي خُلِقَ الخلق لأجله وأوجدوا لتحقيقه . وقد مر معنا قوله عليه الصلاة والسلام " من أحدث في أمرنا " أي ديننا ، وقوله أيضاً " وإياكم ومحدثات الأمور " أي الأمور التي في الدين .

فهنا ينبه الرسول صلى الله عليه وسلم أن الدين له رأس وله عمود وله ذروة سنام ، وذروة السنام أعلاه وأرفعه

قال " رأس الأمر الإسلام " : الإسلام هو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك والبراءة منه ومن أهله . فرأس الأمر وأساسه أن يكون العبد موحداً مخلصاً لله تبارك وتعالى منقاداً له مطيعاً بريئاً من الشرك بعيداً عنه ؛ فهذا هو الأساس الذي يُبنى عليه دين الله تبارك وتعالى ولهذا قال : " رأس الأمر الإسلام " ؛ أي أن يكون العبد مستسلماً لله مخلصاً له منقاداً بعيداً عن الشرك .

قال " وعموده الصلاة " : وهذا فيه بيان المكانة العظيمة للصلاة المكتوبة من الدين .

فذكر أولاً رأس الأمر وهو توحيد الله وإخلاص الدين له ؛ ثم ذكر بعد ذلك أعظم فرائض الدين بعد التوحيد وهو الصلاة قال " وعموده الصلاة " وفي هذا بيان لمكانة الصلاة من الدين وهي بمثابة العماد ، وقد قيل :

والبيت لا يُبنى إلا بأعمدةٍ ولا عماد إذا لم ترسَ أوتادُ

الخيمة لا تقوم إلا على عماد في وسطها وإذا سقط العماد سقطت الخيمة ؛ وهذا فيه بيان النبي ﷺ للصلاة وأنها في الدين بمثابة العمود الذي لا تقوم الخيمة إلا عليه ؛ ولهذا جاءت أدلة وأحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ وفي كتاب الله تدل على كفر تارك الصلاة ؛ لأن العمود الذي يُبنى عليه الدين سقط عنده وليس موجوداً .

فتارك الصلاة كافر كما جاءت بذلك الأحاديث الكثيرة عن رسول الله ﷺ - وكما دلّ عليه هذا الحديث - وكما دل على ذلك القرآن الكريم ، وعندما يُسأل أهل النار يوم القيامة عن سبب دخولها { ما سلككم في سقر } قالوا لم نكُ من المصلين } .

قال " وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله " : وهذا فيه بيان مكانة الجهاد في سبيل الله من الدين وأن له المكانة العلية والمنزلة الرفيعة فيه .

والجهاد ليس من أركان الإسلام ، مثل ما جاء في حديث ابن عمر ؛ قيل له ألا تجاهد ؟ قال " بني الإسلام على خمس " لكن الجهاد بمراتبه له منزلة عليّة من الدين :

- مجاهدة النفس على طاعة الله .
- ومجاهدة الشيطان .
- ومجاهدة النفس الأمارّة بالسوء .
- ومجاهدة أهل الضلال .
- ومجاهدة الكفار .

فهذا يبين لنا الجهاد بمفهومه الواسع وأن تحقق الدين وحصول الرفعة لأهله وحصول الرفعة للمجاهد لنفسه وللشيطان ؛ لا يكون إلا بالجهاد ؛ ولهذا قال ﷺ " ذروة سنامه " ولا يبلغ الإنسان الدرجة العلية في دين الله تبارك وتعالى إلا بالجهاد قال تعالى { والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا } لا يبلغ العبد المنزلة العلية والرتبة الرفيعة إلا بالجهاد ، بلوغها متوقف على الجهاد والمجاهدة بأنواعه ومرتباته ؛ يبدأ أول ما يبدأ بمجاهدة نفسه على طاعة الله

والعناية بالفرائض ، وهذه الصلوات تحتاج من العبد أن يجاهد نفسه على فعلها ، وإذا لم ينتصر على نفسه في فعل الصلوات ؛ ليس مؤهلاً لأن ينتصر على العدو لأن نفسه لم ينتصر عليها لتقوم بأداء الفرائض والقيام بواجبات الدين والأمر التي خُلق لأجلها ، من لم يستطع أن يجاهد نفسه على القيام لصلاة الفجر وغيرها من الصلوات ليس مؤهلاً لمجاهدة الأعداء لأن نفسه لم يجاهدها ؛ ولهذا الجهاد هو الذي ينال به العبد أرفع الدرجات وعالي المنازل ولهذا قال " ذروة سنامه الجهاد " وهذا في التنبيه إلى أن العبد لا يبلغ المنازل العلية والرتب الرفيعة في الدين وفي الجنة يوم القيامة إلا بالجهاد .

قال " ألا أخبرك بملاك ذلك كله " : أي ألا أخبرك بأمر يجمع ذلك ، وبضبطه يتيسر لك ذلك وكل خير وملاك الأمر زمامه وجماعه .

" قلت بلى يا رسول الله فأخذ بلسانه " : أي أخذ النبي عليه الصلاة والسلام بلسان نفسه .
" وقال كُفَّ عليك هذا " : أي احفظ لسانك ، وصنه .

" قلت يا نبي الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به " : يعني هل نحن مؤاخذون فيما نتكلم ونقول ؟
ويكتب علينا ؟

فقال " ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو قال على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم " : وهذا يدل على خطورة اللسان ، وأن اللسان إما أن يكون لصاحبه ملاك خير إذا صان وحفظ لسانه أو أن يكون لصاحبه والعياذ بالله باب شر .

وقول النبي صلى الله عليه وسلم " بملاك ذلك " يدل على الخطورة الشديدة للسان ، وأن الإنسان إن حفظ لسانه حفظ أعماله ، وإن ضيَّع لسانه ضيَّع أعماله ؛ يدل لذلك قول النبي عليه الصلاة والسلام " إذا أصبح بن آدم فإن الأعضاء كلها تُكفَّرُ اللسان تقول اتق الله فينا فإنما نحن بك " - أي تابعين لك في الخير وفي الشر - " فإن استقمتم استقمنا وإن اعوججت اعوججنا " فهذا يبين الخطورة الشديدة للسان ؛ ولهذا قال لمعاذ عليه الصلاة والسلام " كف عليك هذا " أي احفظ لسانك ، وقد مر معنا قريباً قول نبينا عليه

الصلاة والسلام " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت " ؛ وهذا يوضح معنى قوله " كف عليك هذا " ؛ فمعنى " كف " إما أن تتكلم به في أمر هو خير أو تمنعه من الكلام مطلقاً ، وقد مر معنا في هذا الباب كلمة عظيمة جداً للإمام الشافعي رحمه الله تعالى وفيها بين رحمه الله تعالى أن الإنسان إذا أراد أن يتكلم ينظر في الكلام الذي يود أن يقوله فإذا وجده خيراً تكلم ، وإذا وجده شراً امتنع أو إذا لم يتبين له أيضاً يمتنع .

فلا يتكلم إلا بما يتيقن من الكلام أنه خير ومباح وما سوى ذلك يمتنع عنه .
قال "كُفَّ عليك هذا" : الكف هو المنع ؛ وهذا فيه دلالة على أن اللسان يحتاج إلى أن يُمنع ، أن يُكف ، وكان بعض الصحابة يقول : " ليس هناك شيء أحوج إلى طول سجن من اللسان " .
فلا يسمح له أن يتكلم إلا بالأمر الذي تحقق أنه خير وفائدة .
قال " وهل يكب الناس في الناس على وجوههم أو قال على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم " : وهذا فيه أن أكثر ما يدخل به الناس النار هو حصائد اللسان .

قال : الشيخ عبد المحسن :

[الأول : قوله " قلت يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار " : يدل على حرص الصحابة على الخير ومعرفة الأعمال التي بها حصول الجنة والسلامة من النار ، ويدل على وجود الجنة والنار ، وأن أولياء الله يعملون الصالحات ليظفروا بالجنة ويسلموا من النار ، وهذا بخلاف ما يقوله بعض الصوفية أنهم لا يعبدون الله رغبةً في جنته وخوفاً من ناره ؛ وهو باطل لحرص الصحابة على معرفة الأعمال الموصلة إلى الجنة والمباعدة من النار ، وقد قال الله تعالى لخليله { واجعلي من ورثة جنة النعيم } ، ويدل أيضاً على أن الأعمال الصالحة سببٌ في دخول الجنة ، وقد جاء في ذلك آيات كثيرة منها قول الله عز وجل { وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون } ، وقوله { إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاءً بما كانوا يعملون } ، وذلك لا ينافي ما جاء في الحديث " لن يدخل أحدكم بعمله الجنة قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته منه " رواه البخاري ومسلم ، فإن الباء في الحديث للمعاوضة وفي الآيات للسببية ، ودخول الجنات ليس عوضاً عن الأعمال ؛ وإنما الأعمال الصالحات أسبابٌ لها ، والله عز وجل تفضل بالتوفيق للسبب وهو العمل الصالح وتفضل بالجزاء الذي هو دخول الجنة ؛ فرجع الفضل في السبب والمسبب إلى الله سبحانه وتعالى] .

الشرح ..

هذه أربع فوائد مستفادة من قوله " قلت يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار "

فالفائدة الأولى حرص الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم على الخير ومعرفة أعمال الخير والبر .
والفائدة الثانية : أن في هذا دليل على وجود الجنة والنار ، وأنهما مخلوقتان موجودتان .
والحديث تدل عليه دلائل كثيرة في القرآن والسنة مثل قول الله عز وجل عن الجنة { أعدت للمتقين } أي هيئت وخلقت وأوجدت ، وكذلك النار .
الفائدة الثالثة : الرد على من يقول نحن نعبد الله لا خوفاً من عقابه ولا رغبة في ثوابه فإن أولياء الله يعملون رغبة لدخول الجنة والنجاة من النار..
الفائدة الرابعة : في هذا دلالة على أن الأعمال الصالحة سبب في دخول الجنة ؛ ولهذا سأل معاذ رضي الله عنه عن عمل يدخله الجنة أي يكون سبباً لدخولها .

وكون العمل سبباً لدخول الجنة كما يدل عليه هذا الحديث ويدل عليه قوله تعالى { وتلك الجنة التي أورتهموها بما كنتم تعملون } ، وقوله { أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاءً بما كانوا يعملون } نظائر ذلك من الآيات ؛ فالباء هنا هي باء السبب وليست باء المعاوضة ؛ ولهذا لا تنافي بين هذه الآيات وبين قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث "لن يدخل أحدكم بعمله الجنة" ؛ فليس الباء في قوله "بعمله" باء السبب ؛ وإنما باء المعاوضة ؛ أي أن العمل مهما عظم وكبر ليس أمراً يكون معاوضاً لدخول الجنة ؛ لكن العمل يكون سبباً لدخول الجنة وبفضله ومنته سبحانه وتعالى على عباده .

فهناك فرق بين { جزاءً بما كانوا يعملون } هذه باء السببية والباء في قوله "لن يدخل أحدكم بعمله الجنة" أي على سبيل المعاوضة

[ثانياً : قوله " لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله تعالى عليه " : فيه بيان عظيم منزلة هذا السؤال وأهميته والتشجيع على مثله حيث وصف الرسول صلى الله عليه وسلم المسؤول عنه فيه بأنه عظيم ، ومع عظمه ومشقة الإتيان به فقد أتبعه النبي صلى الله عليه وسلم بما يبين سهولته ويسره على من يسره الله عليه ، وهو يدل على أن المسلم يصبر على الطاعات ولو شقت على النفوس لأن عاقبة الصبر حميدة وقد قال الله عز وجل { ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً } ، وقال صلى الله عليه وسلم " حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات " . رواه البخاري ومسلم] .

الشرح..

النبي عليه الصلاة والسلام استعمل مع أصحابه أرفع طرق التعليم ووسائله ، واستعمل كل أسلوب نافع ومفيد في التمكين للعلم والتثقيت له والتشويق لفهمه ؛ فكان صلى الله عليه وسلم خير معلم ، ومن نهجه المبارك عليه الصلاة والسلام في التعليم وأساليبه العظيمة في تقريره وتثبيته هذه الطريقة لما سأله معاذ قال "لقد سألت عن عظيم" ؛ وهذا فيه فائدة للسائل إذا كان سؤاله عظيماً أو مفيداً أو نافعاً فيذكر له ذلك ؛ لماذا ؟ لأنه هو يستفيد ؛ لأن السؤال الذي طرحه له قيمته وله أهميته وله مكانته ؛ فيحرص في سؤالاته الآتية أن تكون أسئلته بمستوى هذا السؤال ، وأيضاً السامعين لذلك ينفعهم بأن ينهضوا بسؤالاتهم إلى هذا المستوى ؛ فهذا فيه أسلوب تشجيع وتقوية للسائل ورفع همم الآخرين ؛ مثل لو سأل سائل ، وكان السؤال على قدر من الأهمية ؛ فقال العالم قبل الإجابة : هذا سؤال جيد ، هذا سؤال مفيد، هذا سؤال نافع ، جزى الله السائل خيراً على هذا السؤال ، أو نحو ذلك من الكلمات ؛ فلا شك أنها تفيد جداً .

قال " وإنه ليسير " : بيّن عليه الصلاة والسلام أنه يسير حتى لا يأخذ الإنسان في ذهنه مأخذاً بعيداً عندما يسمع أنه عظيم فيستصعب الأمر ؛ فقال عليه الصلاة والسلام " وإنه ليسير على من يسره الله تعالى عليه " وبهذه الجملة نبه على أمرين :

الأمر الأول : تَبَّه على طلب التيسير من الله واللجوء إلى الله سبحانه وتعالى في ذلك ؛ لأن التيسير بيده .

الأمر الثاني : تَبَّه على بذل الأسباب بمعرفة هذه الأعمال والخصال وفعلها ومجاهدة النفس على فعلها لينال هذا الأمر وهو دخول الجنة والنجاة من النار .

وإذا واجه الإنسان شيئاً من المشاق في العمل يذكر أن الشيء الذي يطلبه بهذا العمل أمرٌ عظيم جداً ، يريد الجنة وهي غالية ، ويريد النجاة من النار وهي خطيرة جداً وألمها شديد وعقابها عظيم ، والجنة حُفَّت بالمكاره ؛ ولهذا إذا شقَّ على الإنسان العمل عليه أن يعتني بالأمرين ؛ يسأل الله التيسير ويجاهد نفسه على العمل لأن أمامه مطلباً عظيماً ومقصداً جليلاً وهو دخول الجنة والنجاة من النار ، وذكر الجنة والنار يحفز العبد .

ومما يُذكر في هذا المقام ويُتناقل في الأخبار ولم أقف على شيء يدل على صحته وإنما سمعته يُتناقل أن أحد الأشخاص يوماً صلى مع الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله عليه وهو جالس في مُصلاه بعد الفجر يقول فسمعت الشيخ يقول " يا محمد النار " . والشيخ ما كان يحسب أن أحداً قريباً منه ..

فإذا ذكر الإنسان النار والله عز وجل يقول { وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً } ثم ننجي الذين اتقوا { إذا كنت على يقين من المرور على النار و وُزود النار وفي شك من النجاة ؛ فمثل هذه الأمور تعين العبد وتسهل عليه المصاعب والمشاق ؛ فالجنة حُفَّت بالمكاره والنار حُفَّت بالشهوات ، الشهوات التي تطلبها نفسُ العبد تفضي به إلى النار ، والأمور التي قد تشق على الإنسان وتحتاج منه إلى شيء من المجاهدة هي التي ينال بها ثواب الله عز وجل وتكون بها نجاته ، ورأس الأمر في هذا الباب تقوى الله ولهذا قال الله { ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً }

[ثالثاً قوله " تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت " بيّن النبي صلى الله عليه وسلم أن أهم شيء يُتقرب به إلى الله ويحصل به الظفر بالجنة والسلامة من النار أداء الفرائض ؛ وهي في هذا الحديث أركان الإسلام الخمسة التي جاءت في حديث جبريل وحديث ابن عمر رضي الله عنهما "بني الإسلام على خمس" وقد جاء في الحديث القدسي "وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه " .

وقوله "وتعبد الله ولا تشرك به شيئاً" مشتمل على بيان حق الله وهو إخلاص العبادة لله ، ويدخل في ذلك شهادة أن محمداً رسول الله ؛ لأن عبادة الله لا تُعرف إلا بتصديقه صلى الله عليه وسلم ، والعمل بما جاء به وكل عمل يُتقرب إلى الله لا ينفع صاحبه إلا إذا كان خالصاً لله ومبنياً على اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والشهادتان متلازمتان ؛ لا بد مع شهادة أن لا إله إلا الله من شهادة أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد ذُكرت في الحديث هذه الأركان مرتبةً حسب أهميتها ، وقُدمت الصلاة لكونها صلةً وثيقة بين العبد وبين ربه لتكررها في اليوم والليلة خمسة مرات ، وذكر بعدها الزكاة لأنها لا تأتي في العام إلا مرة واحدة ، ونفعها يحصل لدافع الزكاة والمدفوعة إليه ثم بعد ذلك الصيام لتكرره في كل عام ، وبعده الحج لأنه لا يجب في العمر إلا مرة واحدة] .

الشرح..

هذه الجملة وهي قوله " تعبد الله " إلى قوله " وتحج البيت " ؛ ذكر فيها الفرائض ، ثم أتبع ذلك بذكر النوافل والרגائب لقوله " ألا أدلك على أبواب الخير " إلى آخره ؛ ولهذا يحسن بالعبد ويكمل به أن يستحضر هنا قول الله تعالى في الحديث القدسي " ما تقرب إليَّ عبدي بشيء

أحب إليَّ مما افترضته عليه ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه " فبدأ أولاً بالفرائض عنايةً واهتماماً ومحافظةً ومواظبةً ؛ ثم بعد ذلك يأتي بالنوافل لا أن يحافظ على النوافل ويضيع الفرائض أو الواجبات .

والفرائض هي هذه التي ذكرها النبي ﷺ أولاً : إخلاص الدين لله " تعبد الله ولا تشرك به شيئاً " ؛ وهذا يتضمن شهادة أن لا إله إلا الله لأن عبادة الله بالإخلاص لا تُعرف إلا بتصديق النبي ﷺ والعمل بما جاء به ؛ فتضمن قوله " تعبد الله ولا تشرك به شيئاً " شهادة أن محمداً رسول الله ﷺ .

وذكر النبي ﷺ هذه الفرائض حسب أهميتها ؛ فبدأ بالشهادة أولاً ثم الصلاة ثم الزكاة ثم الصيام ثم الحج فذكرها عليه الصلاة والسلام مرتبةً حسب أهميتها .

[رابعاً: قوله " ألا أدلك على أبواب الخير الصوم جنة والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار وصلاة الرجل في جوف الليل ثم تلا { تتجافى جنوبهم عن المضاجع } حتى بلغ { يعملون } " : لما بين ﷺ الفرائض التي هي سببٌ في دخول الجنة والسلامة من النار ؛ أرشد ﷺ إلى جملة من النوافل التي يتحصل للمسلم بها زيادة الإيمان وزيادة الثواب وتكفير الذنوب ؛ وهي الصدقة والصيام وقيام الليل ، وقال عن الصوم " الصوم جنة " والجنة هي الوقاية ، والصوم وقاية في الدنيا والآخرة ؛ فهو وقاية في الدنيا من الوقوع في المعاصي ؛ فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ " يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أحسن للفرج وأغض للبصر ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء " رواه البخاري ومسلم ، وهو وقاية في الآخرة من دخول النار وقد جاء في الحديث " من صام يوماً في سبيل الله بعَدَ الله وجهه عن النار سبعين خريفاً " رواه البخاري . وقوله " والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار " فيه بيان عظم شأن الصدقة النافلة وأن الله تعالى يحطُّ بها الخطايا ويطفئها بها كما يطفئ الماء النار ، والخطايا هي الصغائر وكذلك الكبائر مع التوبة منها ، وتشبيه النبي ﷺ إطفاء الصدقة للخطايا بإطفاء الماء النار يدل على زوال الخطايا كلها ، فإن المشاهدة في الماء إذا وقع على النار فإنه يزيلها حتى لا يبقى لها وجود .

وقوله "وصلاة الرجل في جوف الليل" هذا هو الأمر الثالث من أبواب الخير التي يُتقرب إلى الله عز وجل بها وقد تلا رسول الله ﷺ عند ذلك قوله تعالى {تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون فلا تعلم نفسٌ ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون} وقد أخبر النبي ﷺ أن أفضل الصلاة بعد المكتوبة صلاة الليل ، وقد مهد النبي ﷺ لبيان أبواب الخير هذه بالاستفهام ، وذكر في قوله لمعاذ " ألا أدلك على أبواب الخير " لما في ذلك من لفت نظر معاذ إلى أهمية ما يلقي عليه ليتهاً لذلك ويستعد لوعي كل ما يُلقى عليه] .

الشرح..

قوله عليه الصلاة والسلام " ألا أدلك على أبواب الخير " : هذا من حسن التعليم . أي قوله " ألا أدلك " - ولهذا كان في مثل هذا الأسلوب تشويقاً وتهئيةً للنفس لسماع ذلك .
وذكر أموراً ثلاثة ؛ ذكر صيام النفل وصدقة النفل وصلاة النفل خاصة صلاة الليل " والصلاة في جوف الليل " ؛ وتخصيص النبي ﷺ لهذه النوافل الثلاث بالذكر في هذا المقام يدل على أن هذه النوافل المخصوصة بالذكر هنا هي من جماع أبواب الخير المطلوبة من العبد استحباباً لا وجوباً ؛ ففيها بيان لمكانة هذه النوافل الثلاث .

والنافلة ينبغي أن يحرص عليها العبد وأن يعتني بها إضافة إلى عنايته بالفرائض ، وقد مر سابقاً الإشارة إلى ثلاث فوائد يستفيد منها من يحافظ على النافلة .

- فالنوافل تجبر النقص الذي قد يحصل في الفريضة
- أنها تكون سياجاً ؛ وإذا حافظ على النوافل إضافةً إلى محافظته على الفرائض أصبح بإذن الله تبارك وتعالى معه أمر يحميه من التفريط في الفريضة وإضاعته
- والأمر الثالث أن فعله للنوافل فيه الرفعة في الدرجات وعلو المنازل في الجنات ؛ ولهذا لما ذكر النبي ﷺ لمعاذ الفرائض أتبع ذلك بذكر النوافل وذكر له أهم النوافل وأعظمها وهي صلاة النافلة وصيام النافلة وصدقة النافلة .

[خامساً : قوله " ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه قلت : بلى يا رسول الله ؛ قال : رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد " المراد بالأمر الشأن الذي هو أعظم الشؤون وهو الدين الذي بُعث به رسول الله ﷺ رأسه الإسلام وهو عام يشمل الصلاة والجهاد وغيرهما ، وقد ذكر الصلاة ووصفها بأنها عمود الإسلام ، شبه ذلك بالبناء الذي يقوم على

أعمدته ، وهي أهم العبادات البدنية القاصر نفعها على صاحبها ثم ذكر الجهاد الذي يشمل جهاد النفس وجهاد الكفار من كفار ومنافقين ووضّفه بأنه ذروة سنام الإسلام وذلك أن في الجهاد قوة المسلمين وظهور دينهم وعلوه على غيره من الأديان .

سادساً : قوله : " ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ قلت بلى يا رسول الله ، فأخذ بلسانه ثم قال " كف عليك هذا " ، قلت يا نبي الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال " ثكلتك أمك وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو قال على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم " : في هذا بيان خطر اللسان وأنه الذي يوقع في المهالك وأن ملاك الخير في حفظه حتى لا يصدر منه إلا ما هو خير حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم " من يضمن لي ما بين لحييه ورجليه أضمن له الجنة "

رواه البخاري ،

وقال صلى الله عليه وسلم " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت " قال ابن رجب في شرح هذا الحديث في جامع العلوم والحكم " هذا يدل على أن كف اللسان و ضبطه وحبسه هو أصل الخير كله ، وأن من ملك لسانه فقد ملك أمره وأحكمه وضبطه " . وقال : " والمراد بحصائد الألسنة جزاء الكلام المحرّم وعقوباته ، فإن الإسلام يزرع بقوله وعمله الحسنات والسيئات ثم يحصد يوم القيامة ما زرع فمن زرع خيراً من قول أو عمل حصد الكرامة ، ومن زرع شراً من قول أو عمل حصد غداً الندامة وظاهر حديث معاذ يدل على أن أكثر ما يدخل به الناس النار النطق بألسنتهم فإن معصية النطق يدخل فيها الشرك وهو أعظم الذنوب عند الله عز وجل ، ويدخل فيها القول على الله بغير علم وهو قرين الشرك ، ويدخل فيها شهادة الزور التي عدلت الإشراك بالله عز وجل ، ويدخل فيها السحر والقذف وغير ذلك من الكبائر والصغائر كالكذب والغيبة والنميمة وسائر المعاصي الفعلية لا يخلو غالباً من قوله يقتترن بها يكون معيناً عليها .

وقوله " ثكلتك أمك " : قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله تعالى في شرح هذا الحديث " أي فقدتك حتى كانت ثكلى من فقدك " وهذه الجملة لا يراد بها معناها ؛ وإنما يُراد بها الحث والإغراء على فهم ما يُقال ، بل إن ما جاء من ذلك في هذا الحديث وما يماثله يكون من قبيل الدعاء لمن أضيف إليه ، ويدل له الحديث في صحيح مسلم عن أنس رضي الله عنه وفيه قول الرسول صلى الله عليه وسلم " يا أم سليم أما تعلمين أن شرطي على ربي أي اشتطت على ربي فقلت إنما أنا بشر أَرْضَى كما يَرْضَى البشر

وأغضب كما يغضب البشر فأبما أحد دعوت عليه من أمتي بدعوة ليس لها بأهل أن يجعلها له طهوراً
وزكاةً وقربةً يقربه بها منه يوم القيامة " ، من دقة الإمام مسلم رحمه الله وحسن ترتيبه صحيحه أنه أورد
عقب هذا الحديث حديث ابن عباس رضي الله عنهما في قوله في معاوية رضي الله عنه " لا أشبع الله بطنه " فيكون
دعاءً له وليس دعاءً عليه .

سابعاً : مما يستفاد من الحديث :

الأول : حرص الصحابة رضي الله عنهم عن الخير ومعرفة ما يوصل إلى الجنة ويباعد عن النار .

ثانياً : أن الجنة والنار موجودتان وهما باقيتان لا تفنيان .

ثالثاً : أن عبادة الله يُرجى فيها دخول الجنة والسلامة من النار وليس كما يقول بعض
الصوفية إن الله لا يُعبد رغبةً في جنته ولا خوفاً من ناره .

رابعاً : بيان أهمية العمل المسؤول عنه وأنه عظيم .

خامساً : أن الطريق الموصول إلى النجاة شاق وسلوكه يحصل بتيسير الله .

سادساً : أن أهم شيء كُلف به الثقلان عبادة الله عز وجل وقد أنزلت الكتب وأرسلت
الرسول لذلك .

سابعاً : أن عبادة الله لا تعتبر إلا إذا بُنيت على الشهادتين ، وهما متلازمتان ، ولا يُقبل
العمل إلا إذا كان خالصاً لله ومطابقاً لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثامناً : بيان عظم شأن أركان الإسلام حيث دل النبي صلى الله عليه وسلم معاذاً عليها من بين الفرائض التي
فرضها الله .

تاسعاً : أن هذه الفرائض مرتبة في أهميتها حسب ترتيبها في هذا الحديث .

عاشراً : الحث على الإتيان بالنوافل مع الإتيان بالفرائض .

الحادي عشر : أن من أهم ما يُتقرب به إلى الله بعد أداء الفرائض الصدقة والصوم وقيام الليل

الثاني عشر : بيان عظم شأن الصلاة وأنها عمود الإسلام .

الثالث عشر : بيان فضل الجهاد وأنه ذروة سنام الإسلام .

الرابع عشر : بيان خطورة اللسان وأنه يُفضي إلى المهالك ويوقع في النار .

سبحانك اللهم و بحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، اللهم صلّ وسلّم على عبدك
ورسولك نبينا محمد و آله وصحبه.

..*

الدرس السادس والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .
أما بعد ..

الحديث الثلاثون

عن أبي ثعلبة الخشني جرثوم بن ناشر رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "إن الله تعالى فرض
فرائض فلا تضيعوها وحدّ حدوداً فلا تعتدوها وحرم أشياء فلا تنتهكوها وسكت عن أشياء
رحمةً لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها "

حديث حسن رواه الدارقطني وغيره

الشرح..

هذا الحديث العظيم هو من جوامع الكلم ، وكما ذكر بعض أهل العلم المتقدمين أن هذا
الحديث جمع فيه النبي صلى الله عليه وسلم الدين كله في أربع كلمات ، جمع فيها الدين كله والأحكام
عموماً ؛ لأن الأحكام الواردة عن الله جل وعلا أقسامها أربع وهي : الفرائض والمحارم
والحدود والمسكوت عنه ، وقد جمع النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث هذه الأقسام الأربعة بأوجز
عبارة وأوضح بيان .

وقوله عليه الصلاة والسلام " إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها " :

المراد بالفرائض واجبات الدين والأمر المتعيّنة والمفروضة على العباد كالصلاة المكتوبة ،
كالزكاة المفروضة ، كصيام رمضان وكالحج في العمر مرة واحدة .. ؛ فهذه فرائض فرضها الله
سبحانه وتعالى على عباده وكتبها عليهم ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم هنا : " فلا تضيعوها " أي لا
تضيعوا شيئاً من الفرائض بل حافظوا عليها ، قال تعالى { حافظوا على الصلوات والصلاة
الوسطى } حافظوا على أداء الزكاة ، حافظوا على صيام رمضان ، حافظوا على هذه الفرائض
التي افترضها الله سبحانه وتعالى عليكم .

فقوله " إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها " أي أوجب عليكم أمورا وعبادات فحافظوا عليها محافظة تامة ولا تضيعوا شيئاً منها ؛ هذا هو القسم الأول .

القسم الثاني : قال عليه الصلاة والسلام : " وَحَدَّ حُدُوداً فَلَا تَعْتَدُوهَا " : والمراد بالحدود هنا أي حدود الله سبحانه وتعالى التي نهى عباده أن يتجاوزوها وأن ينتقلوا منها إلى ما لم يأذن به الله ، فالحدود أي المأذون به شرعاً سواء أذن به استحباباً أو إباحةً أو وجوباً .

وقوله " فلا تعتدوها " : أي لا تتجاوزوها إلى الشيء المنهي عنه والمحرم عليكم إتيانه .

ولعل مما يوضح ذلك حديث النواس بن سمعان الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم :

" إن الله ضرب مثلاً صراطاً مستقيماً وعلى جنبتي الصراط سوران وفي السورين أبواب وعلى الأبواب ستور مرخاة وداع من أول الصراط يقول يا عباد الله ادخلوا الصراط ولا تعوجوا وداع من جوف الصراط يقول يا عبد الله لا تفتح الباب فإنك إن فتحتة تلجه " ، ثم بين ذلك ؛ قال : " أما الصراط فهو الإسلام ، وأما السوران فحدود الله - وهذا موضع الشاهد من الحديث . - ، والذي يوجد خارج السورين هو المحارم " فمعنى قوله " إن الله حدَّ حدوداً فلا تعتدوها " أي لا تخرجوا من حدود المأذون به المشروع إلى الحد المحرم .

فمعنى قوله " إن الله حد حدوداً " : أي أذن لكم في شرعه بأمور ؛ منها ما هو واجب ومنها ما هو مستحب ومنها مندوب ؛ فتكونون في هذه الحدود التي أذن الله سبحانه وتعالى لكم بها ، وأما ما تجاوز ذلك فهو حرام ؛ ولهذا قال هنا " فلا تعتدوها " أي : لا تنتقلوا عنها إلى الشيء الذي حرمه الله ونهاكم عنه ، ولهذا في حديث النواس قال : " وفي السورين أبواب وعلى الأبواب ستور مرخاة " ثم بين ذلك قال والأبواب محارم الله فالذي يدخل في شيء من هذه الأبواب يخرج من الحدود قال " إن الله حد حدوداً " فإذا فتح هذه الأبواب - أبواب الحرام - فإنه خرج من الحدود التي نهاه الله سبحانه وتعالى أن يتجاوزها .

" وحرّم أشياء فلا تنتهكوها " : أي نهاكم ومنعكم من فعلها ، والله سبحانه وتعالى لا ينهى عباده عن شيء ولا يجرمه عليهم إلا لما فيه من الضرر عليهم في دنياهم وأخراهم .

" فلا تنتهكوها " : وانتهاكها هو ارتكابها وفعلها ؛ أي لا تدخلوا في شيء من هذه المحرمات التي نهاكم الله سبحانه وتعالى عنها .

وهذا يتناول عموم المحرمات وأخطرها الشرك ثم القتل والزنا والسرقة وغير ذلك من المحرمات التي حرمها الله سبحانه وتعالى على عباده .

" وسكت عن أشياء رحمة لكم " : أي لطفاً وتفضلاً ومنأً من الله سبحانه وتعالى على عباده .
" غير نسيان " : كما قال عز وجل { وما كان ربك نسياً } ، فهو سبحانه وتعالى منزّه عن ذلك غير نسيان { لا يضل ربي ولا ينسى } .

" رحمة بكم " : هذه الأشياء التي سكت عنها ؛ سكت عنها رحمةً للعباد غير نسيان ، والمطلوب من العباد في مثل هذا ألا يبحثوا عنها ، وهذا في زمن النبي عليه الصلاة والسلام يتناول الأمور التي سكت الله جل وعلا عن بيانها ؛ ولهذا أمثلة : مثل فريضة الحج ؛ قال عليه الصلاة والسلام " إن الله فرض عليكم الحج فحجوا " فأحد الصحابة قال أفي كل عام ؟ قال عليه الصلاة والسلام " لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم " ؛ فيدخل في قوله سكت عن أشياء مثل هذا ؛ يعني الأشياء التي يُخشى أن يُسأل عنها فتُفرض على العباد ، وتكون واجباً على العباد .

فالذي سكت الله عنه سكوته عنه تبارك وتعالى هو عن غير نسيان ؛ وإنما هو رحمة للعباد فعلى العباد أن لا يبحثوا عن ذلك ؛ ولهذا قال " لا تبحثوا عنها " ، والسكوت هنا - المضاف إلى الله سبحانه وتعالى - المراد عدم ذكر حكم في الأمر لا بإيجاب ولا بتحريم ؛ أي الذي لم يأت فيه حكم ؛ لم يقل أنها واجبة أو محرمة .

" لا تسألوا عنها " : لا تقولوا مثلاً : هل هي واجبة ؟ هل المطلوب أن نفعل هذا مرة فقط أو أكثر ..

وأيضاً بعد زمانه عليه الصلاة والسلام يتناول هذا ذم أنواع الأسئلة المبنية على التكلف والتنطع ، والمبنية على الخوض في أحكام الله سبحانه وتعالى أو القول على الله بغير علم { لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون } فكل ذلك مما يُنهى عنه ويُذم من الأسئلة .
فهذه أربع كلمات في هذا الحديث أتت على الدين كله بأقسامه الأربعة .

قال الشيخ عبد المحسن العباد في شرح الحديث :

[الأول : الحديث حسنه النووي ، ومن قبله أبوبكر في السمعاني كما قال ابن رجب ، وفي سنده انقطاع لكن ذكر ابن رجب ما يشهد لمعناه فقال : وقد روي معنى هذا الحديث

مرفوعاً من وجوه آخر ، خرجه البزار في مسنده والحاكم من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " ما أحل الله في كتابه فهو حلال ، وما حرم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عفو ، فاقبلوا من الله عافيته فإن الله لم يكن لينسى شيئاً ثم تلا هذه الآية {وما كان ربك نسياً} ، وقال الحاكم صحيح الإسناد ، وقال البزار : إسناده صالح .

الثاني : قال الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم : فحديث أبي ثعلبة قُسم فيه أحكام الله أربعة أقسام فرائض ومحارم وحدود ومسكوت عنه ؛ وذلك يجمع أحكام الدين كلها ، قال أبو بكر السمعاني : هذا الحديث أصل كبير من أصول الدين ، قال : وحكي عن بعضهم أنه قال : ليس في أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حديث واحد أجمع بانفراده لأصول العلم وفروعه من حديث أبي ثعلبة ، قال : وحكي عن وافلة المزني أنه قال : جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الدين في أربع كلمات ، ثم ذكر حديث أبي ثعلبة ، قال ابن السمعاني : فمن عمل بهذا الحديث فقد حاز الثواب وأمن العقاب لأن من أدى الفرائض واجتنب المحارم ووقف عند الحدود وترك البحث عما غاب عنه فقد استوفى أقسام الفضل وأوفى حقوق الدين لأن الشرائع لا تخرج عن هذه الأنواع المذكورة في هذا الحديث . انتهى] .

الشرح..

هذه الكلمات لأربعة من أهل العلم في التنويه بهذا الحديث وبيان مكانته العظيمة ، الأولى قول ابن رجب : " فحديث أبي ثعلبة قُسم فيه أحكام الله أربعة أقسام : فرائض ومحارم وحدود ومسكوت عنه " ؛ الثانية قول السمعاني : " هذا الحديث أصل كبير من أصول الدين " ، الثالثة لأحد أهل العلم قال : " ليس في أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حديث واحد أجمع بانفراده لأصول العلم وفروعه من حديث أبي ثعلبة " ، والرابعة قول المزني : " جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الدين في أربع كلمات ، ثم ذكر حديث أبي ثعلبة " .

ثم ختم بقول ابن السمعاني : " فمن عمل بهذا الحديث فقد حاز الثواب وأمن العقاب " ، ويبيّن ذلك فقال : " لأن من أدى الفرائض واجتنب المحارم ووقف عند الحدود وترك البحث عما غاب عنه فقد استوفى أقسام الفضل وأوفى حقوق الدين لأن الشرائع لا تخرج عن هذه الأنواع المذكورة في هذا الحديث " .

[ثالثاً : قوله "إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها" : أي أوجب أشياء وجعل فرضها حتماً لازماً كالصلاة والزكاة والصيام والحج ، فيجب على كل مسلم الإتيان بها كما أمر الله دون ترك لها أو حصول إخلال في فعلها] .

الشرح..

هذا القسم الأول من الأقسام الأربعة ؛ وهو الفرائض " إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها " أي أوجب عليكم أشياء وجعلها فرضاً ختماً لازماً متعيناً والواجب على العبد مع الفرائض هو الامتثال والمواظبة وعدم تضييعها

[رابعاً : قوله "وحد حدوداً فلا تعتدوها" أي شرع أموراً هي واجبة أو مستحبة أو مباحة ؛ فلا يتجاوز تلك الحدود إلى غيرها فيقع في أمر حرام وذلك كالمواريث التي بينها الله عز وجل في كتابه ؛ فلا يجوز لأحد أن يتعدها وأن يأتي بقسمة تخالفها ، وتأتي الحدود مراداً بها ما حرم الله فيكون الواجب على المسلم أن لا يقربها كما قال الله عز وجل {تلك حدود الله فلا تقربوها} .

الشرح..

هذا القسم الثاني وهو الحدود " وحد حدوداً فلا تعتدوها " ؛ والحدود يوضحها ما يأتي بعدها فإذا قال {تلك حدود الله فلا تقربوها} فالمراد بالحدود المحرمات التي نهى الله سبحانه وتعالى عنها ، وإذا قال "حدّ حدوداً فلا تعتدوها" أي فلا تجاوزوها إلى الشيء الذي منع منه وحرم على عباده فعله ؛ ولهذا فإن الحدود في هذه القسمة الرباعية هنا المراد بها الشيء المأذون به ، الذي أذن الله سبحانه وتعالى لعباده بفعله سواء كان هذا الإذن إيجاباً أو استحباباً أو إباحة ، ومعنى فلا تعتدوها أي فلا تذهبوا إلى خارج هذه الحدود من الأمور الممنوعة المحرمة المنهي عنها ؛ بل كونوا في حدود المأذون به سواءً إباحةً أو استحباباً أو وجوباً لكن إياكم أن تتعدوا ذلك إلى ما حرمه الله .

[خامساً : قوله "وحرم أشياء فلا تنتهكوها": أي أن ما حرمه الله لا يجوز للمسلمين أن يقعوا فيه ؛ بل يتعين عليهم تركه كما قال صلى الله عليه وسلم " ما نهيتكم عنه فاجتنبوه "] .

الشرح..

وهذا القسم الثالث: وهو المحرمات التي حرمها الله سبحانه وتعالى على عباده ؛ فالواجب على العباد تجاه المحرمات أن لا ينتهكوها وأن لا يقربوها وأن لا يفعلوا شيئاً منها ، ونضير ذلك قوله عليه الصلاة والسلام "ما نهيتكم عنه فاجتنبوه " ، ولهذا نضائر من ذلك قوله تعالى {وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا} .

فالواجب على العباد تجاه المحرمات أن لا يقربوها وأن لا ينتهكوها وأن لا يفعلوا شيئاً منها .

[سادساً : قوله " وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها " : أي هناك أمور لم يأت النص عليها بالكتاب والسنة فلا يُشتغل بالبحث عنها والسؤال عنها وذلك مثل السؤال عن الحج في كل عام الذي أنكره رسول الله صلى الله عليه وسلم على السائل وقال " ذروني ما تركتكم فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم " ،

وكالسؤال عن الشيء الذي لم يُحرم فيترتب عليه التحريم بسبب السؤال كما ثبت بيان خطورته في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعد زمنه صلى الله عليه وسلم لا يُسأل الأسئلة التي فيه تنطع وتكلف ، والمعنى سكت عن أشياء فلم يفرضها ولم يوجبها ولم يحرمها ، فلا يُسأل عنها ، وقد قال الله تعالى { يا أيها الذين ءامنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم عفا الله عنها والله غفورٌ حلِيم قد سألتهم قومٌ من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين } قال ابن رجب رحمته الله : وأما المسكوت عنه فهو ما لم يُذكر حكمه بتحليل ولا إيجاب ولا تحريم فيكون معفواً عنه لا حرج على فاعله ، وعلى هذا دلت هذه الأحاديث المذكورة هاهنا كحديث أبي ثعلبة وغيره] .

الشرح..

هذا القسم الرابع من هذه الأقسام وهو المسكوت عنه ، وقد بينه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله "وسكت عن أشياء" ، والمراد بسكت عنها أي لم يذكر فيها حكماً ؛ ومثل هذا عفو من الله سبحانه وتعالى - ليس عن نسيان - .

ومثل هذا الأمر الذي هو عفو ورحمة للعباد الواجب على العباد أن لا يسألوا عنه ، وفي زمانه عليه الصلاة والسلام يدخل تحت هذا المنهي عنه الأسئلة التي يُخشى أن يترتب على سؤالها حكمٌ قد لا يستطيعها العباد " ذروني ما تركتكم .. " فمثل هذه الأسئلة تهلك الاس .

وبعد زمانه عليه الصلاة والسلام يدخل في هذا الأسئلة المبنية على التنطع والتكلف ؛ فتجد الإنسان لا يفكر في السؤال عن واجبات الدين التي افترضها الله سبحانه وتعالى عليه ، ولا يفكر في السؤال عن المحرمات التي منعها الله سبحانه وتعالى من فعلها ؛ ثم يشغل نفسه بأسئلة وتنطعات يثير أسئلة من هذا القبيل معرضاً عن ما يجب عليه معرفته إلى أمور البحث فيها هو من قبيل التنطع والتكلف؛ وهذا نهي عنه صلوات الله وسلامه عليه .

إذاً الأصل المسكوت عنه من الأحكام أن لا يسأل عنه ، والأسئلة تكون في الذي فرضه الله أو في الذي حرمه الله أو في الذي حده الله لعباده .

أما الشيء الذي سكت الله تبارك وتعالى عنه فعلى العبد أن يكون على علم راسخ بأن الله جل وعلا لا يضل ولا ينسى وأن دينه سبحانه وتعالى كامل وأن سكوته عن ذلك رحمة للعباد

وإضافة السكوت إلى الله سبحانه وتعالى تكون بإمرار هذا الحديث كما جاء ، وإثبات المعنى الذي دلّ عليه الحديث ، والمعنى الذي دلّ عليه الحديث ظاهر وواضح ؛ فقال سكت عن أشياء ؛ أي لم يذكر فيها حكماً لا إيجاب ولا تحريم ولا تحليل ؛ فثبت الحديث كما جاء ويؤمر كما ورد على المعنى الظاهر المتبادر من الحديث .

[سابعاً : مما يستفاد من الحديث :

الأول : أن من شريعة الله ما هو فرض لازم يجب فعله وعدم إضاعته .

ثانياً : أنه يجب الوقوف عند الواجبات والمستحبات والمباحات ؛ فلا تُتجاوز إلى المحرمات .

ثالثاً : أن كل ما حرمه الله يتعين على المسلم تركه والابتعاد عنه .

رابعاً : أن ما لم يأت فيه تحريم ولا تحليل فهو عفو لا يُسأل عنه .

الشرح..

هذه أربع فوائد مستفادة من كل كلمة من هذه الكلمات ، وإذا تأملنا هذه الكلمات الأربع الواردة في الحديث نجد أن النبي عليه الصلاة والسلام ذكر أقسام أحكام الله جل وعلا وذكرها أربعة أقسام، وأيضاً ختم كل قسم من هذه الأقسام بالواجب نحوه ؛ فالفرائض لا تُضيّع ، والحدود لا يعتديها العبد ولا يتجاوزها ، والمحرمات لا ينتهكها ولا يقربها ، والمسكوت عنه لا يبحث

عنه ، وإذا أتى العبد بهذه الأمور الأربعة كما أُمر فإنه يكون كما قال ابنُ السمعاني رحمه الله تعالى ؛
يكون قد حاز الثواب وأمن العقاب وأوفى حقوق الدين .

سبحانك اللهم و بحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، اللهم صلّ وسلّم على عبدك
ورسولك نبينا محمد و آله وصحبه

* * *

الدرس السابع والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .
أما بعد ..

الحديث الواحد والثلاثون

عن أبي العباس سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال : جاء رجلٌ إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله دُلني على عمل إذا عملته أحبني الله وأحبني الناس فقال " ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس " .

حديث حسن رواه ابن ماجه وغيره بأسانيد حسنة

الشرح..

هذا الحديث فيه دلالة على ما سبق الإشارة إليه غير مرة ألا وهو حرص أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم على الخير وشدة عنايتهم به وكثرة سؤالهم عنه ؛ وهذه الأسئلة دالة على صدق الرغبة وقوة العزيمة لأفعال الخير وأعمال البر .

وسؤال الرجل في حديث سهل رضي الله عنه عن عملٍ من أعمال الخير وباب من أبواب البر ينال به محبة الله سبحانه وتعالى وينال به محبة الناس ، ونيل محبة الله جل وعلا هي أعظم مقصد وأجل غاية ، ومن أحبه الله فاز بسعادة الدنيا والآخرة ، ومن أحبه الله ألقى في قلوب الناس محبته ؛ ولهذا جاء في الحديث أن النبي عليه الصلاة والسلام قال " إن الله إذا أحب عبده نادى جبريل إني أحب فلاناً فأحبه فيحبه جبريل ثم ينادي في أهل السماء إن الله يحب فلاناً فأحبه فيحبه أهل السماء ثم يطرح له القبول في الأرض " وأيضاً دلّ القرآن على هذا المعنى ؛ قال سبحانه وتعالى {إن الذين ءامنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً} أي مودةً ومحبةً في قلوب الناس .

فالشاهد أن محبة الله تبارك وتعالى هي أجلّ مقصد وأعظم غاية ، وإذا فاز بها العبد فاز بسعادة الدنيا والآخرة ، وهذا الصحابي رضي الله عنه طلب من النبي عليه الصلاة والسلام أن يرشده وأن يدلّه على عمل ينال به محبة الله جل وعلا وينال به محبة الناس

فقال عليه الصلاة والسلام " ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس " فدلّه صلوات الله وسلامه عليه إلى الزهد ، خصلة عظيمة وخلة مباركة ينال بها ما طلب .

أن يزهد في الدنيا فينال بذلك محبة الله جل وعلا ، وأن يزهد فيما عند الناس فينال بذلك محبة الناس .

وقوله عليه الصلاة والسلام " ازهد في الدنيا " : أي لا تكن الدنيا أكبر همك ولا مبلغ علمك ، فليس فيها النهي عن أخذ الإنسان نصيبه وحاجته وحظه من الحياة الدنيا من مال أو مركب أو ملبس أو منكح أو غير ذلك ؛ وإنما حقيقة الزهد في الدنيا أن لا تكون شاغلةً عن المقصد الأعظم والغاية الكبرى التي خلّق الخلق لأجلها وأوجدوا لتحقيقها ؛ ولهذا فإن أحسن ما قيل في الزهد في الدنيا أن لا تشغل عن الله والدار الآخرة .

فليس المراد بالزهد في الدنيا تركها وعدم الاستفادة من شيء من النعيم الذي في الدنيا أو أخذ الإنسان حظه ونصيبه منها ، ليس في الحديث حثٌّ على ترك التجارة وطلب الرزق والسعي في المعاش واكتساب المال .. ؛ لأن المراد بالزهد في الدنيا أن لا تكون شاغلة له عن الله والدار الآخرة ، كما يقول عليه الصلاة والسلام في الدعاء المأثور عنه : " اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا " . فأمّا إذا اشتغل الإنسان بتجارة أو عمل أو مصلحة أو غير ذلك مما يُحصّل به ربحاً ويكتسب به مالاً ؛ هذا لا يتنافى مع الزهد .

ولا يتنافى مع الزهد أيضاً أن يكون ثوب الإنسان حسناً أو مركوبه طيباً أو بيته واسعاً .. فالزهد في الدنيا أن لا تشغل عن الله تبارك وتعالى والدار الآخرة .

ولهذا قد يكون الإنسان ذا مال كثير وهو زاهد ، لم يشغله ماله عن الله والدار الآخرة وقد يكون الإنسان ذا مال قليل وليس بزاهد ؛ حيث شغله ماله القليل عن الله تبارك وتعالى والدار الآخرة ؛ ولهذا حقيقة الزهد في الدنيا أن لا تشغل الدنيا الإنسان عن الله والدار الآخرة .

وثمة فرق بين الزهد والورع ؛ فالورع هو ترك ما يضر في الآخرة أو كذلك ما يُخشى أن يضر في الآخرة كما يبين ذلك حديث النعمان " إن الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما أمورٌ مشتبّهات " فالورع ترك المحرمات و ترك المشتبهات ؛ لأن الحرام والمشتبه يضر في الآخرة فتركه هو الورع . فالورع هو الذي يتجنب الحرام والأمور المشتبهات .

والزهد : ترك ما يشغل عن الآخرة أو مالا ينفع في الآخرة ؛ فيعمل عمل الآخرة لا تعوقه الدنيا عن عمل الآخرة ، فإذا عاقت الدنيا عن عمل الآخرة خرج عن الزهد . أما كونه أصبح ذا مال كثير أو مركب حسن أو لباس طيب أو نحو ذلك ؛ فهذا لا يتنافى مع الزهد ؛ فليست حقيقة الزهد التبدل في اللباس وأن يقصد الإنسان لبساً مرقعاً من الثياب وعنده سعة في المال و سعة في الرزق ، وأحياناً قد يتبدل بعض الناس في لباسه ويلبس لباساً متواضعاً وهيئة رثة ، ويكون كما يُقال " الحية تحت القش " ؛ فلا يكون فيه إلا تظاهراً بهذه الأمور ، وأما الذي بينه وبين الله سبحانه وتعالى فأمرٌ آخر ؛ وهذا من أخطر ما يكون ؛ ولهذا إذا عرف المسلم حقيقة الزهد وحقيقة الورع وأتى به على وجهه الصحيح ؛ يطلب به ثواب الله .

ولهذا نستفيد من هذا الحديث فائدة مهمة ربما بعض الناس يغفل عنها في هذا الباب ؛ قال : " ازهد في الدنيا يحبك الله " : هذا فيه تنبيه وهو أن الزهد في الدنيا لا يكون قرينةً إلا إذا طلب به محبة الله وأرد به وجه الله سبحانه وتعالى ؛ ولهذا من يضيع الفرائض ويضيع الواجبات لا يكون زاهداً وإن لبس المرقع من الثياب ؛ لأنه مشغول عن الآخرة وضيع الفرائض والواجبات ؛

ولهذا حقيقة الزهد أن لا تشغل الدنيا الإنسان عن الله والدار الآخرة ، وحقيقة الورع أن يتجنب الإنسان الأمور التي تضره في الآخرة ويعاقب ويحاسب عليها في الآخرة .

وتحت مفاهيم مغلوطة للزهد دخلت على الناس أباطيل وبدع وخرافات ، بل ضل كثير من العوام بسبب من يتظاهر بالزهد والورع ، ثم تحت هذا التظاهر بالزهد ينشر عقيدة باطلة أو أفعالاً محدثة أو أموراً منكراً أو يتظاهر بالزهد ليعظم ويُقال ورع وزاهد ، وليكون له حاشية وأتباع ؛ فهذا لا ينفعه عند الله لأن الذي ينفعه عند الله ما طلب به العابد ثواب الله قال {ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً}

أما الذي يأتي بأعمال وهو يريد بها الشهرة أو السمعة أو المدح أو يريد بها التعظيم أو نحو ذلك ؛ فهذا ليس من عمل الآخرة ؛ عمل الآخرة هو الذي يريد به الله سبحانه وتعالى ؛ ولهذا نلاحظ الصدق والرغبة من هذا الصحابي حيث قال "دلي على عمل إذا عملته أحبني الله" يعني هو يريد محبة الله والتقرب إليه سبحانه وتعالى فقال له عليه الصلاة والسلام "ازهد في الدنيا يحبك الله" ، وهذا الجواب منه عليه الصلاة والسلام لهذا الصحابي بما يتناسب مع حاله وإلا بعض الناس لو طرحوا السؤال نفسه لاحتاج المقام إلى أن يُجاب بجواب آخر ؛ فمثلاً لو كان شخصٌ يُعرف بالبدع والأهواء وقال بما أنال محبة الله ؛ قل له قال الله تعالى {قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله} تنال محبة الله بالسنة وترك البدع والمحدثات ، بالتقرب إليه سبحانه وتعالى بما شرع وبما أمر ، وهذه علامة على صدق المحبة أن يكون العبد متبعاً للرسول عليه الصلاة والسلام ؛ فالذي يدّعي محبة الله ومحبة رسوله لا بد من البينة ؛ والبينة ذكرها الله جل وعلا في قوله {قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم} بأن يكون متبعاً للرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

"وازهد فيما عند الناس يحبك الناس" : أي إذا أردت أن تكسب محبة الناس فكن زاهداً فيما في أيديهم وفي الأشياء التي عندهم وفي الأمور التي يمتلكونها ، لا تكن متطلعاً ومتشوقاً لما في أيدي الناس، وإياك أن تُعَرِّض أو تُلَمِّح أو تُصِرَّح بالرغبة بما في أيديهم لأن هذا مما يجعلهم لا يميلون إليك وربما نفرت نفوسهم منك أو وقع في قلوبهم شيءٌ من البغضاء لك لأن غالب الناس وعامة الناس شحيح بماله ولا يريد أن يزاحم في ماله ؛ فإذا وجد شخصاً يزاحمه في ماله أو يطلبه شيئاً من ماله أو يُعَرِّض أو يُلَمِّح نفر عنه وأبغضه ولم يحرص على مرافقته ولا مصاحبته ؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام "ازهد فيما عند الناس يحبك الناس" . أغلى ما عند الناس هو ما لهم فإذا وجدوه ليس مبالٍ ولا متشوّفٍ ولا متطلع لما بأيديهم أحبوه ، بينما إذا وجدوه بعكس ذلك سواءً كان مُصِرِّحاً أو مُلَمِّحاً فإن نفوسهم تنفر منه ، وأحياناً التطلع لما في أيدي الناس يكون بالمطالبة والتصريح ؛ يصرح له عند ملاقاته أعطني كذا .. قاسمني في كذا أو اجعل لي نصيباً من كذا أو يلمح كأن يقول ساعتك جميلة و يا ليت عندي مثلها ...

قال الشيخ عبد المحسن :

[الأول : أصحاب رسول الله ﷺ أحرص الناس على كل خير وأسبق الناس إلى كل خير ، وقد حرص هذا الصحابي على معرفة ما يجلب له محبة الله ومحبة الناس فسأل النبي ﷺ هذا السؤال .

الثاني : قوله " ازهد في الدنيا يحبك الله " : بيّن رسول الله ﷺ أن محبة الله عز وجل تحصل بالزهد في الدنيا ، وأحسن ما قيل في بيان الزهد في الدنيا : ترك الإنسان كل ما يشغله عن الله كما نقله الحافظ بن رجب في شرح جامع العلوم والحكم ، عن أبي سليمان الداراني قال وقال أبو سليمان الداراني اختلفوا علينا في الزهد بالعراق ؛ فمنهم من قال الزهد " في ترك لقاء الناس " ، ومنهم من قال " في ترك الشهوات " ، ومنهم من قال " في ترك الشَّبَع " ، وكلامهم قريبٌ بعضه من بعض . قال : وأنا أذهب إلى أن الزهد " في ترك ما يشغلك عن الله عز وجل " ، وهذا الذي قاله أبو سليمان حسن؛ وهو يجمع جميع معاني الزهد وأقسامه وأنواعه [.

الشرح..

هذا أحسن ما قيل في بيان المراد من الزهد وإلا قيل في المراد به أقاويل كثيرة جداً ، وكثيرٌ مما قيل أقاويل لا تصح ومعاني لا تستقيم وربما أمور تعارض الشريعة وتنافي الأدلة ، وبعض ما قيل فيه معاني متقاربة ربما كان الخلاف فيها في العبارة ، لكن أحسن ما قيل في ذلك هو " ترك الإنسان كل ما يشغله عن الله " ليس ترك الدنيا أو التخلي عنها أو التقشف أو نحو ذلك ؛ وإنما أن يترك الإنسان في هذه الدنيا كل ما يشغله عن الله لأنه لم يُخلق للدنيا خُلُق للآخرة ؛ خُلُق لعبادة الله وليفوز بثواب الآخرة . فحقيقة الزهد أن لا تشغله هذه الدنيا عما خُلِق له ؛ ولهذا كما قيل في كلام بعض المتقدمين - ما معناه - ؛ قال : " لا يشغلك ما خُلِق لك عما خُلقت له " الدنيا خُلقت لك وسخرها الله سبحانه وتعالى لك فلا تشغلك عما خُلقت أنت له ؛ وأنت لم تُخلق للدنيا ؛ خُلقت للآخرة ولثوابها وللفوز برضا الله ، خُلقت لعبادة الله جل وعلا فتفوز بثواب الآخرة فلا تشغلك الدنيا .

وهذا المعنى - وهو قولهم " لا يشغلك ما خُلِق لك عما خُلقت له " يدل عليه قول الله تعالى { يا أيها الذين ءامنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون } .

[ثالثاً : قوله "وازهد فيما عند الناس يحبك الناس" : الناس حريصون على المال والمتاع في الحياة الدنيا والغالب عليهم إمساك ما في أيديهم وعدم الجود به ، قال الله تعالى {فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون} ، ولا يعجبهم من يطمع فيما عندهم أو يتطلع إليه ، فإذا استغنى الإنسان عنهم نال إعجابهم وظفر بمحبتهم ، وإذا ظفر بمحبتهم سلم من شرهم .

الشرح..

قوله "وازهد فيما عند الناس يحبك الناس" هذا فيه أن الناس لا يعجبهم من يتطلع إلى ما في أيديهم ويريد أن يزاحمهم في ذلك ومن حصل منه ذلك نفروا عنه وربما أبغضوه فإذا أعرض عما بأيديهم وزهد فيه كسب محبتهم

رابعاً : مما يستفاد من الحديث :

الأول : حرص الصحابة رضي الله عنهم على ما يجلب لهم محبة الله ومحبة الناس .

ثانياً : إثبات صفة المحبة لله عز وجل [.

ثالثاً : أن الخير للعبد في محبة الله إياه .

رابعاً : أن مما يجلب محبة الله الزهد في الدنيا .

خامساً : أن زهد المرء فيما في أيدي الناس سبب في محبته إياه فيُحصِّل خيرهم ويسلم من شرهم .

الشرح..

في الحديث أثبت عليه الصلاة والسلام صفة المحبة لله جل وعلا ، وأيضاً ذكر في الحديث نفسه حب الناس - يحبك الناس . ، والصفة إذا أُضيفت إلى الله جل وعلا فإنها تخصه عز وجل وتليق به ، والله عز وجل {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير} وقال تعالى {هل تعلم له سمياً} ، وقال {ولم يكن له كفواً أحد} ، فالله عز وجل لا مثيل له لا في أسمائه ولا في صفاته ولا في أفعاله ، فإذا أُضيف الصفة إليه أثبتت له على وجه الكمال اللائق بوجهه وعظمته سبحانه دون أن يُقاس بخلقه أو يُشَبَّه بمخلوقاته ؛ فهو جل وعلا منزّه عن ذلك ؛ ولذلك من عقيدة أهل السنة أن الله سبحانه وتعالى يُحِب ؛ وهذه المحبة صفة ثابتة تليق بجلاله وكماله سبحانه ، ولا تُقاس بمحبته المخلوق ؛ لأن الصفة التي تُضاف إلى المخلوق تليق بنقصه وضعفه وكونه مخلوقاً

، والصفة التي تضاف إلى الله تليق بجلاله وكماله سبحانه وتعالى ؛ وبهذا يُعلم أن طريقة أهل السنة والجماعة هي خير الطرق وأقومها سبيلاً ، وما سواها من طرق في هذا الباب ومسالك فهي طرق ضلال سواءً من يحرف الصفات عن معانيها أو يعطلها بنفيها وجحدها أو يمثلها بصفات المخلوقين أو يحاول تكييفها ؛ فهذا كله باطل ، والحق في الصفات : إثبات بلا تمثيل وتنزيه بلا تعطيل على حد قوله تعالى { ليس كمثله شيء وهو السميع البصير } .

..*

الحديث الثاني والثلاثون

عن أبي سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " لا ضرر ولا ضرار "

حديث حسن رواه بن ماجه والدار قطني وغيرهما مسنداً ورواه مالك في الموطأ مرسلاً عن عمر بن يحيى عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم فأسقط أبا سعيد وله طرق يقوي بعضها بعضاً

الشرح..

هذا الحديث يُعد قاعدة عظيمة من قواعد الشريعة ؛ بل هو من جمال هذه الشريعة وكمالها وحسنها وبهائها وعظمة هذا الدين .

فهذه قاعدة كلية جامعة " لا ضرر ولا ضرار " ، وقوله عليه الصلاة والسلام " لا ضرر ولا ضرار " : خبرٌ بمعنى النهي ، يعني نُهي عن الإضرار والمضارة ، سواء فعل الإنسان ذلك متعمداً يريد بذلك الإضرار ، أو فعله لا يريد بذلك الإضرار ووقع ؛

ولهذا لأهل العلم - كما سيأتي - أقوال في معنى " لا ضرر ولا ضرار " لكن من أوضح ذلك أن الضرر هو الذي يفعله الإنسان ولم يقصد أصلاً به أن يُضر الآخر ؛ فإذا حصل بفعله الضرر فالضرر مرفوع - يُرفع الضرر - ، والضرار هو الذي يفعله الإنسان قاصداً الضرر بصاحبه أو بجاره ؛ ومثل أهل العلم لذلك : لو أن إنساناً مع جاره عنده حديقة ملاصقة لبית الجار ، وأخذ يسقي الحديقة ، ثم صار الماء يدخل على بيت الجار ويؤذيه - وهو لم يقصد ذلك - فطالما أن الأمر وصل إلى حد الضرر بالجار فيجب رفع الضرر وأن يعالج هذا الأمر بحيث يضع

أموراً أو حواجز أو أشياء بحيث لا يتضرر الجار منه ؛ فهو عندما سقى حديقته لم يقصد إيذاء جاره ؛ فهنا يقال له "لا ضرار" حتى لو قال أني أسقي حديقتي وليس لي قصد ولا غرض في أذية الجار ؛ فيقال له الآن ترتب على هذه المصلحة التي تحصلها أنت مضرة على جارك ؛ والضرر مرفوع فيجب أن يُزال الضرر ويُرفع ؛ فإذا أن يوقف السقي أو يضع حواجز وموانع حتى لا يحصل الضرر لجاره ؛ فهذا يتناول قوله "لا ضرر"

والضرار أن يتقصد المضرة لجاره ؛ مثل أن يطلق الماء عمداً في فتحة من الفتحات يدخل على بيت الجار ، أو يأتي بمطور مزعج ويقربه من الجار ويفتح الصوت حتى ما ينام ، أو مثل ما يفعله بعض الناس من إيذاء لجيرانهم المستقيمين ؛ كأن يفتح الموسيقى والأغاني ويؤدي بها جاره ؛ فهذا إضرار .

والشريعة جاءت برفع ذلك كله قالت "لا ضرر ولا ضرار" سواء كان الإنسان قاصداً لذلك أو حصل الضرر بدون قصد ؛ ولهذا لا يسوغ للإنسان أن يقول "أنا ما قصدت مضرتك وهذا بيتي ولا قصدت مضرتك .." بل الواجب رفع الضرر والمضارة .

والضرر يُرفع والمضارة أيضاً تُرفع لكن فاعلها يُعاقب ويستحق التعزير ، الذي يتعمد ويتقصد الإيذاء ؛ فهذا يستحق التعزير من ولاية الأمر حتى ينقطع مثل هذا الأذى والإضرار بالجيران . وسبق أن مرَّ معنا ما يفيد بهذا الباب قول النبي صلى الله عليه وسلم " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه" والحديث الآخر " أن تأتي للناس الذي تحب أن يؤتى إليك " فكل أحد لا يريد أن يقع ضرر ولا ضرار ، لا يجب أن يؤذى قصداً أو بغير قصد ؛ فكذلك فليعامل الآخرين بمثل هذه المعاملة .

قال الشيخ عبد المحسن :

[الأول : هذا الحديث مشتمل على قاعدة من قواعد الشريعة وهي رفع الضرر و الضرار وهو خبر بمعنى النهي عن الضرر والضرار ، والضرر قد يحصل من الإنسان بقصد أو بغير قصد ، والضرار يكون مع القصد .

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى في جامع العلوم والحكم : واختلفوا هل بين اللفظتين - أعني الضرر والضرار - فرق أم لا ؟ فمنهم من قال : هما بمعنى واحد على وجه التأكيد ، والمشهور أن

بينهما فرقاً ، ثم قيل : إن الضرر هو الإسم والضرار الفعل ، فالمعنى أن الضرر نفسه منتفي في الشرع وإدخال الضرر بغير حق كذلك ، وقيل الضرر أن يدخل على غيره ضرراً بما ينتفع هو به ، والضرار أن يدخل على غيره ضرراً بما لا منفعة له به كمن منع ما لا يضره ويتضرر به الممنوع ، ورجح هذا القول طائفة منهم ابن عبد البر وابن الصلاح .

وقيل الضرر أن يضر بمن لا يضره ، والضرار أن يضر بمن قد أضر به على وجه غير جائز ، وبكل حال فالنبي صلى الله عليه وسلم إنما نفى الضرر والضرار بغير حق ، فأما إدخال الضرر على أحد بحق إما لكونه تعدى حدود الله فيعاقب بقدر جرمته أو كونه ظلم نفسه وغيره فيطلب المظلوم مقابلته بالعدل ؛ فهذا غير مراد قطعاً وإنما المراد إلحاق الضرر بغير حق وهذا على نوعين :

أحدهما : أن لا يكون في ذلك غرض سوى الضرر بذلك الغير فهذا لا ريب في قبحه وتحريمه ، وقد ورد في القرآن النهي عن المضارة في مواضع ؛ منها في الوصية لمن بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار { ...

.. إلى أن قال : والنوع الثاني : أن يكون له غرض آخر صحيح مثل أن يتصرف في ملكه بما فيه مصلحة له فيتعدى ذلك إلى ضرر غيره أو يمنع غيره من الانتفاع بملكه توفيراً له فيتضرر الممنوع بذلك]

الشرح..

أشار الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى في خاتم الحديث إلى ضابط مهم في هذا الباب وهو أن الضرر الذي جاء ذمّه في الحديث هو الضرر الذي يقع بغير حق أما إذا كان الضرر نوع من العقوبة أو التعزيز أو نحو ذلك فهذا لا يتناوله الحديث ، والعقوبات الشرعية قد يحصل لمن عوقب بما شيء من المضرة لكنها هي منفعة له ولغيره .

فالشاهد أن " لا ضرر ولا ضرار " أي بغير حق ، وأشار رحمه الله تعالى أنه يدخل تحت ذلك نوعان :

النوع الأول : أن لا يكون في ذلك غرض سوى الضرر ؛ إيذاء الآخرين وإلحاق المضرة بهم .
والنوع الثاني : أن يكون له غرض صحيح ، منفعة أو مصلحة ويترتب عليها مضرة بالآخرين ؛ فسواءً هذا أو ذاك فالحديث يتناول ذلك .

فالضرر يُرفع سواءً كان حصل من شخصٍ لا يترتب على فعله مصلحة له وإنما أراد المضرة فقط ، أو حصل من شخص يترتب على فعله لهذا الأمر المضر بالآخرين منفعة له ؛ فكل منهما لا يجوز لقوله عليه الصلاة والسلام " لا ضرر ولا ضرار " .

[ثانياً : مما يستفاد من الحديث :

أولاً : بيان كمال الشريعة وحسنها في رفع الضرر والإضرار .

ثانياً: أن على المسلم أن لا يضر غيره ولا يضره .

الشرح..

هذا الحديث من الدلائل على كمال هذه الشريعة وحسنها ؛ وهذه قاعدة عظيمة نافعة جداً إذا حققها المسلم أو حققتها المجتمعات المسلمة صلحت أحوال الناس فهي قاعدة جامعة يترتب عليها صلاح المجتمعات.

..*

الحديث الثالث والثلاثون

عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "لو يُعطى الناس بدعواهم لادعى رجال أموال قوم ودماءهم لكن البينة على المدعي واليمين على من أنكر".

حديث حسن رواه البيهقي وغيره هكذا ، وبعضه في الصحيحين

الشرح..

هذا الحديث أصل من أصول الأحكام ، وأساس يُبنى عليه كثير من أمور القضاء وحل الإشكالات والدعاوى التي تقوم بين الناس وتقع بين المتخاصمين ؛ فهذا يُعتبر أصل عظيم وجامع يُرجع إليه في كثير من الخصومات ، ويُحل به كثير من المنازعات التي تقع بين المتخاصمين .

قال " لو يُعطى الناس بدعواهم " : أي لو كان كل إنسان ادعى على شيء بأنه هو له وأُعطي بمجرد دعواه ؛ لترتب على ذلك فساد عريض بينه عليه الصلاة والسلام بقوله " لادعى رجال أموال قوم ودماءهم " ؛ فلو كان الأمر بهذه الصفة أصبح كل إنسان - ذمته ضعيفة وإيمانه ضعيف - إن رأى

شيئاً قال هذا لي ؛ إن رأى دابة أو بيتاً قال هذا لي ورثته كابراً عن كابر ؛ فلو كانت بالدعاوى أصبح كل من رأى شيء ادّعاه له وادّعى أنه شيء يمتلكه وأنه من خصوصياته لكن لا يعطى الناس بمجرد الدعاوى..

فلو كان الناس يُعطون بمجرد الدعاوى لضاعت أموال الناس وأخذها أصحاب الذمم الرخيصة والضعيفة بمجرد الدعاوى ؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام " لو يعطى الناس بدعواهم لادعى رجال أموال قوم ودماءهم " يعني هذا أمرٌ يفشو في الناس من أصحاب الذمم الضعيفة يدعون أموال الآخرين .

قال " لكن البينة على المدعي واليمين على من أنكر " : هذه قاعدة في فض الخصومات وحل الإشكالات

قال " لكن البينة على المدعي " : أي الذي يدعي أن شيئاً ما له مما يمتلكه غيره ؛ عليه أن يأتي بالبينة ، عليه أن يأتي بالشهود أو الإثباتات أو القرائن التي تدل على أن هذا له .
" واليمين على من أنكر " : والمقصود بمن أنكر أي المدّعى عليه ؛ فالمدعى عليه يطالب باليمين .

فالحديث يُعدُّ قاعدة عظيمة وأصل عظيم يُرجع إليه في القضاء والأحكام وفي فض الخصومات .

وكما أن الحديث يفيد في فض الإشكالات والخصومات المتعلقة بأمر الدنيا فإنه كذلك يمكن أن يُستفاد منه ضابطاً وفائدة فيما يتعلق بثواب الآخرة والدعاوى التي تُدعى فيما يتعلق بالآخرة ، فيقال " البينة على المدعي " فمن ادعى محبة الله أو ادعى محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فمجرد الدعوى لا تكفي ، والدعاوى إذا لم يقم عليها بينات فأهلها أدياء ؛ فإذا ادعى أنه يحب الله أو يحب الرسول عليه الصلاة والسلام أو يحب الدين الإسلامي فليقم من نفسه بينة تدل على صدق ذلك ، والبينة مقررة في القراءان ؛ يقول الله تعالى { قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم } قال الحافظ بن كثير : هذه الآية حاكمة على كل من ادعى محبة الله بأن دعواه كاذبة مالم يلتزم النهج النبوي وطريقة النبي عليه الصلاة والسلام ، وإلا لو كانت الأمور بمجرد الدعاوى فإخوان القردة والخنازير يقولون نحن أبناء الله وأحباؤه ، ويقولون لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً .

فالدعوى سهلة ويسيرة على كل إنسان ، لكن الدعوى ليس لها قيمة إذا لم يقيم عليها بينة ، وفي باب الإيمان وطلب ثواب الآخرة ؛ البينة هي اتباع الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام والسير على منهاجه .

قال الشيخ عبد المحسن العباد :

[الأول : حديث ابن عباس رضي الله عنهما هذا أخرجه البخاري ومسلم وأكثره في الصحيحين ، والذي ليس فيهما البينة على المدعي ، لكن ثبتت هذه الجملة فيهما في حديث الأشعث بن قيس عند البخاري ومسلم في قصة له مع ابن عم له قال له النبي صلى الله عليه وسلم "بينته أو يمينه" .

ثانياً : قال بن دقيق العيد رحمه الله في شرح الأربعين :

وهذا الحديث أصل من أصول الأحكام وأعظم مرجع عند التنازع والخصام ، ويقتضي أن لا يُحكم لأحد بدعواه وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم فيه أنه لو أُجيب كل مدعٍ على غيره شيئاً لادعى ذلك إلى ادعاء أموال الناس ودماءهم ، لكن النبي صلى الله عليه وسلم أوضح ما يكون فيه الفصل بين الناس في ذلك وهو طلب البينة من المدعي ؛ وهي كل ما يبين الحق ويدل عليه من شهود أو قرائن أو غيرها ، فإذا أتى بالبينة قُضي بها على المدعى عليه ، وإن لم تُوجد البينة طُلب من المدعى عليه اليمين فإن حلف برئت ساحته وإن نكل عن اليمين قُضي عليه بالنكول ، وألزم بما ادعاه عليه خصمه .

قال النووي في شرح الأربعين : " إنما كانت البينة على المدعي لأنه يدعي خلاف الظاهر والأصل براءة الذمة " ، ثم ذكر أنه يُستثنى مسائل كثيرة يُقبل فيها قول المدعي بلا بينة منها دعوى الأب حاجته إلى الإعفاف ، ودعوى السفية التوقان إلى النكاح مع القرينة ، ودعوى خروج المرأة من العدة بالأقراء ووضع الحمل ، ودعوى الطفل البلوغ بالاحتلام ، ودعوى المودع تلف الوديعة أو ضياعها بسرقة ونحوها ، والمدعي هو الطالب الذي لو سكت ترك ، والمدعى عليه هو المطلوب الذي لو سكت لم يُترك .

قال ابن المنذر كما في جامع العلوم والحكم : " أجمع أهل العلم على أن البينة على المدعي واليمين على المدعى عليه " ، قال "ومعنى قوله البينة على المدعي يعني يستحق بها ما ادعى لأنها واجبة عليه يؤخذ بها ، ومعنى قوله اليمين على المدعى عليه أي يبرأ بها لأنها واجبة عليه يؤخذ بها على كل حال] .

الشرح..

هنا أولاً بيان لأهمية هذه القاعدة ومكانتها لهذا النقل عن ابن دقيق العيد قال "وهذا الحديث أصلٌ من أصول الأحكام وأعظم مرجع عند التنازع والخصام ، ويقتضي أن لا يحكم لأحد بدعواه " ، ثم بعد ذلك بيان وتوضيح لقوله عليه الصلاة والسلام "البينة على المدعي واليمين على من أنكر" ، ومرر معنا هنا شرحٌ للبينة ماذا يُراد بها ؛ قال : " البينة ما يُبين الحق ويُدين عليه من شهود أو قرائن أو غيرها فإذا أتى المدعي بالبينة فُضيَ بها على المدعى عليه " ؛ إذا كانت هناك أمور وإثباتات وأشياء واضحة فيُقتضى بهذه البينات على المدعى عليه وإن لم توجد البينة ادعى بدون أن يكون عنده بينة ؛ يطلب من المدعى عليه اليمين ؛ يقال له احلف لأن هذا الأمر لك وليس كما ادعى أنه له ، فإذا لم توجد البينة طُلب من المدعى عليه اليمين فإن حلف برأت ساحته ، وإن نكل عن اليمين وامتنع عنها فُضيَ عليه بالنكول ، وأُلزم بما ادعاه عليه خصمه .

فهذه قاعدة عظيمة في حل الخصومات ، ويُعد مرجعاً عند التنازع والخصام .

[ثالثاً : وكما أن المدعي عليه البينة فيما يدعيه من الأمور الدنيوية فإن على المدعي البينة في الأمور الأخروية ؛ فمن ادعى محبة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم يكون صادقاً في دعواه إذا اتبع الرسول صلى الله عليه وسلم كما قال الله عز وجل {قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم} ، قال ابن كثير في تفسير هذه الآية : هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله كما ثبت في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال " من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد " ؛ ولهذا قال {إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله} ؛ أي يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه وهو محبته إياكم وهو أعظم من الأول كما قال بعض العلماء الحكماء :

"ليس الشأن أن تُحب وإنما الشأن أن تُحب" ، وقال الحسن البصري وغيره من السلف : "زعم قومٌ أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية" .

الشرح..

كما أن الحديث " البينة على المدعي " يستفاد منه في الدعاوى المتعلقة بالأموال الدنيوية فكذلك يمكن أن يستفاد منه بالدعاوى المتعلقة بالأموال الأخروية مثل أن يدعي الشخص أنه يحب الله فلا بد من البينة والبينة في قوله {قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله} ولهذا يسمي بعض أهل العلم هذه الآية ؛ آية المحنة أي من كان يدعي محبة الله فليمتحن نفسه في ضوء هذه الآية ؛ هل هو من أهل الإلتباع أم لا ؛ فإن كان متبعاً فهذا دليلٌ على صدق المحبة .

وهنا نقل عظيم عن الحافظ ابن كثير قرر فيه على أن " الآية حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب في نفس الأمر حتى يتبع الشرع الحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله .." ، ونقل الحافظ ابن كثير عن بعض العلماء الحكماء أنه قال "ليس الشأن أن تُحب وإنما الشأن أن تُحب" ومعنى قوله " ليس الشأن أن تُحب " : أي أن تدعي المحبة . ومعنى قولهم " وإنما الشأن أن تُحب " : أي أن تنال محبة الله . ومحبة الله سبحانه وتعالى لا تُنال بمجرد الدعاوى .

رابعاً : مما يستفاد من الحديث :

- الأول : اشتمال الشريعة على حفظ أموال الناس ودماهم .
- الثاني : بيان الرسول صلى الله عليه وسلم الطرق التي يُفصل فيها بين المتخاصمين .
- الثالث : إذا لم يُقر المدعى عليه فإن على المدعي إقامة البينة على دعواه .
- الرابع : إذا لم تُقم البينة حُلف المدعى عليه وبرئت ساحته وإن لم يحلف قُضي عليه بالنكول **الشرح..**

ثالثاً " إذا لم يُقر المدعى عليه " يعني لم يقر بأن دعوى الخصم صحيحة حينئذٍ تُطلب البينة ، أما في بدء الأمر إذا ادعى عليه وهو أقر بأن دعواه صحيحة لا يحتاج الأمر إلى البينة ، لكن إذا لم يُقر وقال أنه غير صادق في دعواه يُقال للمدعي حينئذٍ هات البينة فإن على المدعي إقامة البينة على دعواه ، وإذا لم تقم البينة ولم يأت بالبينة حُلف المدعى عليه فإذا حلف برأت ساحته ، وإن لم يحلف قُضي عليه بالنكول أي عن اليمين .

سبحانك اللهم و بحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، اللهم صلّ وسلّم على عبدك
ورسولك نبينا محمد و آله وصحبه

..*



شرح الأربعين النووية

لأبي زكريا يحيى بن شرف الحزامي النووي رحمه الله

من الدرس ٢٨ إلى الدرس ٣٠

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما الله تعالى

١٤٤٠/٠٧/٠٨ هـ

الدرس الثامن والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .
أما بعد ..

الحديث الرابع والثلاثون

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "من رأى منكم منكراً فليغيره
بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان "
رواه مسلم

الشرح..

هذا الحديث العظيم هو من جوامع كلم الرسول الكريم ﷺ ، وهو في باب عظيم من
الدين وجانب رفيع من جوانبه وهو جانب إنكار المنكر .
وإنكار المنكر مع الأمر بالمعروف هو من خيرية هذه الأمة { كنتم خير أمة أخرجت للناس
تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر } وهو سبب صلاح المجتمع ، وسبب فلاح الناس وسعادتهم
في دنياهم وأخراهم ، بل هو يُعد صمام أمان للمجتمع من الشرور والبلايا والفتن ، ولا تزال
الأمة بخير مادامت محافظة على هذه الخصلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهي من
أسباب كثرة الخير في المجتمع وانحسار الشر ، بينما إذا قل في المجتمع الأمر بالمعروف
الناهون عن المنكر ؛ ضعف في المجتمع جانب الخير وكثرت الشرور والفتن ؛ ولهذا من نعم الله
سبحانه وتعالى على المجتمع أن يكون فيه أمرون بالمعروف ناهون عن المنكر ، وهو من
أسباب سعادة الناس وفلاحهم في الدنيا والآخرة .

وهذا الحديث بيّن فيه النبي ﷺ مراتب تغيير المنكر ، وأن مراتب التغيير الثلاثة التي ذكرها
عليه الصلاة والسلام كلها من الإيمان ، وكلها من خصاله وشعبه ؛ فقلوه عليه الصلاة والسلام في آخر الحديث "وذلك
أضعف الإيمان" هذا يفيد أن التغيير بمراتبه الثلاث من الإيمان لكن أضعف شيء في الإيمان هو

التغيير في القلب ؛ ولهذا ينبغي أن يفهم أن مراد النبي عليه الصلاة والسلام بقوله " وذلك أضعف الإيمان " أي في هذا الباب وهو باب التغيير ؛ لأن رتب الإيمان في جانب تغيير المنكر ثلاث رتب ، وأضعف هذه الرتب رتبة التغيير بالقلب ، وأعلى منها التغيير باللسان ، وأعلى منه التغيير باليد .

فأضعف هذه الرتب هي رتبة التغيير بالقلب ؛ ولهذا في الحديث الآخر قال " فمن جاهدكم بيده فهو مؤمن ومن جاهدكم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدكم بقلبه فهو مؤمن وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل " فقلوه " وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل " أي في هذا الباب وهو باب تغيير المنكر ، إذ إن مراتب التغيير الداخلة في شعب الإيمان وخصاله ثلاث وهي التغيير باليد وهو أرفع الأنواع ، ثم التغيير باللسان ، ثم التغيير بالقلب وهو أضعفها .

والمراد بالتغيير بالقلب هو كراهية المنكر ، وأن يكون قلب العبد مبغضاً له كارهاً له غير محب له يتمنى زواله وعدم وجوده ؛ ولهذا لا يستقيم مجالسة أرباب المنكرات ومؤانستهم والأنس بالجلوس معهم وهم يفعلون المنكر ويقول أنا كاره له بالقلب !

فالكراهية تقتضي نفور الإنسان من المنكر وبغضه له وعدم ارتياحه لوجوده وتجنّبه لزواله وهذه أضعف الرتب التي هي مراتب التغيير الداخلة في مسمى الإيمان فهذا أضعفها .

" وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل " : أي ليس وراء ذلك التغيير بهذه الرتب الثلاث مرتبة تدخل في شعب الإيمان .

قال " من رأى منكم منكراً فليغيره بيده " : المراد من اطلع أو علم بالمنكر ، وليس من شرط ذلك رؤيته بالعين ؛ فلو لم يره وسمع به ، أو لم يكن مبصراً وعلم به ؛ فإن الإنسان مطالب بالتغيير قدر استطاعته ..

وقد جعل النبي عليه الصلاة والسلام مراتب تغيير المنكر في هذا الحديث ثلاث مراتب ؛ وبدأ بالأرفع شأناً ثم الأقل ثم الأقل ؛ فبدأ أولاً بالتغيير باليد وذلك بأن يمنع الإنسان بيده وجود المنكر أو أن يتلف الآلات . آلات اللهو المحرمة مثلاً . التي يفعل بها المنكر .

وهذا التغيير الذي هو باليد ليس لكل أحد وإنما لمن كان هذا الأمر باستطاعته ؛ وهذا من صلاحيات ولي الأمر لأنه هو الذي بيده السلطة سواء ولي الأمر أو من يُنييه ولي الأمر ، أو في ولاية الإنسان الخاصة مثل بيت الإنسان الذي هو ولي فيه وله سلطة فيمنع ولده إذا أحضر شيئاً من المنكرات أتلفها لأن له سلطة في بيته ، لكن التغيير باليد من عموم الناس

لأفراد المجتمع هذا من أسباب شيوع الفوضى وانتشار الشر وكثرة العدوان ، ولا تنتظم مصالح الناس بذلك ، لكن من كانت له ولاية أو أُنابه الوالي في هذا الباب فإنه إذا غيّر بيده لا يجزؤ أحد أن يمانع أو يترتب على ذلك مفسد لأن التغيير باليد حصل ممن بيده السلطة أو ممن أُنابه من بيده الولاية والسلطة .

فإذا كان الإنسان باستطاعته أن يغير بيده فعل وأيضاً يراعى في هذا الباب قاعدة الشريعة في جلب المصالح ودرء المفسد ؛ فإذا كان التغيير باليد يترتب عليه منكرٌ أكبر وشرٌ أعظم لا يجوز أن يغير ، وإذا كان يترتب عليه وجود منكر مماثل له أيضاً لا يغير .

قال " فإن لم يستطع فبلسانه " : أي إذا لم يكن باستطاعته التغيير باليد ينكر بلسانه ويبين لمن يفعل المنكر بأن هذا منكر وأنه محرم ، ويبين له عدم جواز ذلك ويذكره بالآيات والنصوص مرغباً ومرهباً ، ويكون أيضاً رفيقاً في إنكاره ، مثل ما قال بعض أهل العلم " لا يغير المنكر بالمنكر " وإنما يغير بالرفق وباللين وبالكلمة الحسنى وبالوعظ وبالتذكير بآيات الله .

ويدخل تحت التغيير باللسان الكتب العلمية التي يكتبها أهل العلم والبصيرة بدين الله نهيًا عن المحرمات والمنكرات ، وكذلك فتاوى أهل العلم التي فيها النهي عن المحرم والنهي عن المنكر ، وكذلك بالخطب والمواعظ والمحاضرات والدروس العلمية ، ذكر المنكر على وجه التحذير منه وبيان خطورته وبيان أضراره وذكر الدلائل على ذلك ؛ فهذا داخل تحت قوله عليه الصلاة والسلام " فمن لم يستطع فبلسانه " ؛ فالتغيير بالقلم هو من التغيير باللسان ، بالكتابة المشتملة على النصح والبيان وذكر الدليل من أهل العلم والبصيرة بدين الله تبارك وتعالى .

ولهذا نرى الأئمة الأكابر كتبوا كتباً في المناهي وفي الكبائر وفي المحرمات إجمالاً وتفصيلاً ، نصحاً للناس وتحذيراً من المنكرات وبياناً لأخطارها .

قال " فإن لم يستطع فبقلبه " : والتغيير بالقلب هو بكراهية المنكر وأن يكون القلب مبغضاً لوجوده متمنياً لزواله .

" وذلك أضعف الإيمان " : وهذا من الدلائل الواضحة الصريحة في أن الإيمان يزيد وينقص ويقوى ويضعف ، يزيد بفعل الطاعات وينقص بارتكاب المعاصي والخطيئات ، يزيد ويتفاوت أهله فيه بحسب قيامهم بشعب الإيمان ، وينقص بحسب تقصيرهم فيها ؛

ولهذا ذكر عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث ضعف الإيمان فقال " وذلك أضعف الإيمان " فهذا دليل واضح على أن الإيمان يزيد وينقص ، والزيادة جاء التصريح بها في القرآن في آيات عديدة منها قوله تعالى { وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين ءامنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون } ، وقال جل وعلا { إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم ءاياته زادتهم إيماناً وعلى ربحهم يتوكلون } والآيات في هذا المعنى عديدة .

والسنة جاءت مصرحة بالنقص والضعف؛ كما في هذا الحديث وكما في الصحيحين في قوله عليه الصلاة والسلام " ما رأيت من ناقصات عقل ودين " ، وقوله " المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير " ، والأحاديث في هذا المعنى كثيرة .

وجاء عن عمير بن حبيب الخضري رضي الله عنه أنه قال " الإيمان يزيد وينقص قيل وما زيادته ونقصانه ؟ قال إذا ذكرنا الله وسبحناه وحمدناه زاد وإذا غفلنا نقص "؛ فالإيمان له أسباب تزيده وتقويه وله أسباب تضعفه وتنقصه وتوهيه .

وتغيير المنكر باليد واللسان كما أنه يُعد زيادة إيمان في من قام بذلك فهو أيضاً يُعد سبباً لصلاح أمور الإيمان في المجتمع لأن من أسباب زيادة الإيمان في المجتمع وانحسار المنكرات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ فإذا وُجد في المجتمع آمر بالمعروف ناهي عن المنكر كان ذلك من أسباب صلاح المجتمع .

وهنا أيضاً نلاحظ أن هذه الوظيفة - وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - هي وظيفة وعمل كَلَّف به النبي صلى الله عليه وسلم كل مسلم ، كلٌ حسب استطاعته { لا يكلف الله نفساً إلا وسعها } لكن لا بد أن يكون عند المسلم حظ من ذلك ، هذه وظيفة وعمل كَلَّف به النبي صلى الله عليه وسلم كل مسلم كلٌ حسب استطاعته . .

وإذا قال قائل : كيف يُجمع المرء بين هذا الحديث وبين الحديث المتقدم "من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه " ؟ لأن بعض أصحاب المنكرات إذا أنكر عليهم منكر قال له "من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه " وإن لم يذكر الحديث قال ما معناه كأن يقول له : هذا ما يعنيك ، هذا يخصني ولا يعنيك ...

والجواب : لا تعارض بين الحديثين ، وقد سبق أن مرَّ معنا معنى الحديث وأن المراد بقوله عليه الصلاة والسلام "من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه " أي بضابط الإسلام لا بضابط الهوى ؛ لا مُحْكماً فيه الهوى وإنما المُحْكَم فيه الإسلام ، ومما جاء به الإسلام التوجيه إلى الأمر بالمعروف والنهي

عن المنكر ، فكل مسلم يعنيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ فهو داخل فيما يعني المسلم وليس هو مما لا يعني المسلم بل كل مسلم يعنيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بدليل قوله صلى الله عليه وسلم "من رأى منكم منكراً فليغيره بيده الحديث "

قال الشيخ عبد المحسن العباد في شرح الحديث :

[الأول : هذا الحديث مشتمل على درجات إنكار المنكر وأن من قدر على التغيير باليد تعين عليه ذلك وهذا يكون من السلطان ونوابه في الولايات العامة ويكون أيضاً من صاحب البيت في أهل بيته في الولايات الخاصة ورؤية المنكر يحتمل أن يكون المراد منها الرؤية البصرية أو ما يشملها ويشمل الرؤية العلمية ، فإذا لم يكن من أهل التغيير باليد انتقل إلى التغيير باللسان حيث يكون قادراً عليه وإلا فقد بقي عليه التغيير بالقلب وهو أضعف الإيمان وتغيير المنكر بالقلب يكون بكرهه المنكر وحصول الأثر على القلب بسبب ذلك ولا تنافي بين ما جاء في هذا الحديث من الأمر بتغيير المنكر وقول الله عز وجل { يا أيها الذين ءامنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم } ؛ فإن المعنى إذا قمتم بما هو مطلوب منكم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد أدبتم ما عليكم ولا يضركم بعد ذلك ضلال من ضل إذا اهتديتم ، ولشيخنا الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله عند الكلام على هذه الآية في أضواء البيان تحقيقات جيدة في مسائل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من المناسب الرجوع إليه للاستفادة منها] .

الشرح..

هذا الحديث مشتمل على درجات إنكار المنكر وأن من قدر على الانكار باليد تعين عليه ذلك ومن المعلوم أن الذي عنده القدرة على التغيير باليد بدون أن يترتب على ذلك مفسد ولي الأمر أو من ينوبه ولي الأمر في ذلك وكذلك في الولايات الخاصة مثل الإنسان في بيته بمنع وجود المنكرات في البيت وإتلاف ما وجد منها في البيت حفاظاً على مصلحة البيت وبعده عن المنكرات وأسباب غضب الله تعالى

فإذا لم يستطع ذلك انتقل إلى التغيير باللسان إذا كان قادراً على ذلك أما إذا لم يكن عنده قدرة على التغيير باللسان فإنه ينتقل إلى ما بعده وهو التغيير بالقلب وهو أضعف مراتب الإيمان

و هذا الحديث ليس بينه وبين قوله تعالى { يا أيها الذين ءامنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم } تعارض ؛ لأن المراد بالآية إذا قمتم بما هو مطلوبٌ منكم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد أدبتم ما عليكم ولا يضركم من ضل بعد ذلك ؛ ولهذا قال تعالى في آية أخرى في سورة الأنفال { واتقوا فتنةً لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة } لأن المنكرات بدون سعيٍ في التغيير كلٌ حسب استطاعته في التغيير ؛ هذا يؤدي إلى فتنة لا تختص بضررها الذين ظلموا بل تعم الجميع

والنبي عليه الصلاة والسلام ضرب في السنة لهذا مثلاً ؛ وهي قصة السفينة عندما يكون في أعلاها أناس وفي أسفلها أناس ؛ فلو أن الذين في أسفلها قالوا : بدل أن كل ما احتجنا إلى الماء نصعد إلى أعلى السفينة ثم نسحب الماء من أعلاها بإنزال دلو أو نحوه في الماء ؛ نخرق لنا خرقاً في أسفلها ويأتينا الماء من قريب بدون أن نتعب ، فالذين في أعلى السفلى إن تركوهم هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعاً؛

وهذا مثلاً عظيمٌ جداً في بيان الثمرة العظيمة المباركة التي تترتب على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وما يكون بذلك من صلاحٍ في المجتمعات ، وأن المجتمع الذي يقل فيه هذا الباب - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - تشيع فيه المنكرات ويعظم فيه الشر ويكثر فيه الفساد ، ثم قد يصاب المجتمع بفتنة وعقوبة تشمل الجميع ، تشمل الأخضر واليابس ، ولهذا يحتاج المجتمع ليبقى صلاحه ولينحسر الفساد والشر فيه أن يوجد فيه من يقوم بذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتغيير المنكر .

[ثانياً : مما يستفاد من الحديث :

الأول : وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأن به صلاح العباد والبلاد .

الثاني: أن تغيير المنكر يكون على درجات من قدر على شيء منها تعيّن عليه ذلك.

ثالثاً : التفاوت في الإيمان وأن منهم القوي والضعيف والأضعف .

..*

الحديث الخامس والثلاثون

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبيع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخواناً ، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يكذبه ولا يحقره ، التقوى ها هنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات بحسب امرئٍ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه "

رواه مسلم

الشرح ..

هذا الحديث من أجمع الأحاديث وأعظمها شأنًا في باب تحقيق الأخوة الإيمانية والقيام بمقتضاياتها وموجباتها ، وقد قال الله جل وعلا في القرآن الكريم { إنما المؤمنون إخوة } ، وفي هذا الحديث قال عليه الصلاة والسلام " وكونوا عباد الله إخواناً " . فالإيمان يُثمر في أهله أخوةً وتآخياً وتآلفاً وحباً عظيماً وصلّة وثيقة لا يمكن أن تتحقق بين الناس بأي رابطة أخرى أيّاً كانت . فالإيمان إذا وُجد في المجتمع صحيحاً قوياً قوياً أوجد في أهله رابطةً وثيقة وصلّة عميقة ، وحباً في الله جل وعلا .

وهذه الرابطة بين أهل الإيمان هي رابطة مستمرة غير منقطعة في الدنيا والآخرة ، أما الصّلات في غير الله فهي منقطعة مهما كانت قوتها { الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوٌ إلا المتقين } وقال جل وعلا { وتقطعت بهم الأسباب } أي أسباب الأخوة والصلّة ؛ ولهذا كل علاقة وكل تآخٍ مآله إلى التصرم والانقطاع إلا التآخي في الله . الأخوة الإيمانية هي أعظم صلة ، والرابطة الإيمان هي أعظم رابطة ، وهي أعظم من رابطة النسب وأوثق ؛ ولهذا قال الله سبحانه وتعالى { فإذا نُفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذٍ ولا يتساءلون } ، وقال في الحديث " ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه " .

فالأخوة الدينية لها ثمرات عظيمة ونافعة وكبيرة في الدنيا والآخرة ، وأخوة النسب إن لم يكن معها الدين فهي منقطعة وزائلة إما أن تزول في الدنيا أو تزول في الآخرة ؛ ولهذا فإن الأخوة

في الدين أرفع وأعلى من الأخوة في النسب وقد قال تعالى { لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادُّون من حادَّ الله ورسوله ولو كانوا ءابائهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم } فإذا انتفت الأخوة الدينية انتفى التأخي حتى ولو كان أخاً للإنسان من النسب ولزم وجود البغض وعدم الحب ولو كان شقيقاً للإنسان ؛ ولهذا قال أهل العلم "الأخوة الدينية أعظم من الأخوة الطينية" . وهذه الأخوة الدينية لها مقتضيات ولها موجبات وكلما قويت هذه الأخوة قويت مقتضياتها وكلما ضعفت ضعفت مقتضياتها ؛ ولهذا في سورة الحجرات لما ذكر الله عز وجل الأخوة الإيمانية ذكر جملةً من مقتضياتها قال { إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون } يا أيها الذين ءامنوا لا يسخر قومٌ من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساءً من نساءٍ عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون يا أيها الذين ءامنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله توابٌ رحيمٌ لاحظ لَمَّا ذكر الأخوة ذكر المقتضيات ؛ لا يسخر ، لا تنابزوا ، لا يغتب بعضكم ، اجتنبوا كثيراً من الظن ، لا تجسسوا... ؛ هذه كلها مقتضيات الأخوة ؛ فهي جل وعلا عن الأمور التي تُضعف الأخوة وتنقصها وربما تؤدي إلى ذهابها ؛ ولهذا الأخوة الإيمانية إذا قويت في العبد وتحققت فإن هذه المقتضيات التي ذكرها الله عز وجل لا بد أن توجد ، فإن لم توجد هذه المقتضيات فهذا أمانة ضعف الإيمان ودليل نقصه .

نضير هذه الآيات هذا الحديث ؛ ذكر النبي ﷺ الأخوة ؛ قال "كونوا عباد الله إخواناً" ، وأيضاً ذكر مقتضياتها كما في الآية ؛ قال ﷺ " لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً " ؛ ثم قال " المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره .. " ؛ فهذه كلها مقتضيات الأخوة ، يجب على المسلم أن يحققها طاعةً لله جل وعلا وطلباً لمرضاته سبحانه . وهذه التي دُكرت في الآيات ودُكرت في هذا الحديث أمثلة لمقتضيات الأخوة وليس حصراً لها ؛ لكن فيه بيان أمثلة وأمور جامعة ترجع إليها الأمور الأخرى ؛ ولهذا يجب على المسلم أن يهتم بأمر الأخوة الإيمانية ويُعنى بها ، ويسعى جهده في تحقيق مقتضياتها تقويةً لإيمانه وطاعةً لربه تبارك وتعالى ، ولا ينبغي للإنسان أن يُجاري أحوال الناس ، وهذه من الآفات في كثير من المجتمعات ؛ تجد الإنسان يطغى ويغلب عليه مسaire المجتمع ومجاراته ، وبعض الناس ربما يلتمس لنفسه مبرراً في بقاءه على خصال مذمومة شرعاً نهي الله عنها أو نهي عنها رسوله ﷺ

وسلام بقوله أن هذا عمّ في المجتمع وانتشر ولو تركته لكنت وحيداً في المجتمع .. أو نحو ذلك ؛ وهذا من الخطأ ؛ بل يجب على المسلم أن يحقق مقتضيات الأخوة الإيمانية في مجتمعه وإن قصّر فيها الناس ، ويفعل ذلك طاعة لله وطلباً لمرضاته ، ليس الشرع في هذا الباب أن يكيل الإنسان الصاع صاعين ؛ الشرع جاء باحتمال الأذى ، ودفع الشر ، والدرة بالتي هي أحسن ، وأن لا يكون من الإنسان شر وأذى تجاه الآخرين حتى وإن كانوا هم على خلاف ذلك ، وعندما يحدث عند الإنسان خلل في هذا الباب يحرم من حقوق الأخوة ومقتضياتها شيئاً كثيراً ؛ وهذا أكّد عليه لأنه يُعد خلل في كثير من المجتمعات ؛
فمثلاً لو أن شخصاً أكثر من مرة حصل له أن عُشّ في البيع في أكثر من مرة ؛ فيقول له أحدهم: لقد غشوك عشرات المرات ؛ فما المشكلة إذا غشيت أنت مرة واحدة ؟!
فتبدأ النفس تُسهّل المحرمات والمنكرات والمخالفات وخوارم الأخوة مجارة للمجتمع ومسايرة له ؛ وهذا من الغلط .

فالواجب على المسلم أن يحقق الأخوة الإيمانية ومقتضياتها وإن أخلّ بها الآخرون ، فإذا أدبت ماعليك سلمت من الإثم وفزت بالثواب ، والذي لك تجده عند الله سبحانه وتعالى ، أما إذا شارك الإنسان الناس ولو كان المجتمع بأسره ؛ إن شاركهم في هذه المخالفات بآء بالإثم كما بآءوا هم به ؛ ولهذا يجب على الإنسان أن يحقق مقتضيات الأخوة الإيمانية وإن قصّر فيها الآخرون ؛ ولنفرض أن إنساناً في مجتمع يكتر فيه الحسد ؛ لا عليه ؛ بل هو في نفسه يتجنب الحسد طاعة لله وبعداً عن هذا الأمر المحرم المنهي عنه ، ولا عليه من وجود حسد بكثرة في مجتمعه ، ولن يضره شيء إلا شيء كتبه الله له ، ولا يقابل السوء بسوء ، ولا يقابل المنكر بالمنكر ، ولا يقابل الشر بالشر ؛ بل يكف عن ما نهاه الله عنه وإن لم يكن كثيراً من مجتمعه على هذا الحال وإن لم يتق الله الناس فيه فاتق الله أنت فيهم ، ولازم تقوى الله سبحانه وتعالى ، ولا تبأشر المخالفات مع المجتمع لكثرة ما يفعل أهل المجتمع من مخالفات ؛ ولهذا يأتي هذا الحديث مؤكداً على ما به صلاح المجتمع واستقامة أحوال الناس ، وأن الواجب على كل مسلم في خاصة نفسه أن يحقق هذه الخصال التي هي مقتضيات الأخوة الإيمانية ، ولا يلتفت إلى حال المجتمع هل هم كذلك فأعاملهم بمثل هذه المعاملة أم هم ليسوا كذلك فلا تعاملهم بها ، فهذا من الخطأ ، وهذا من أكبر أسباب المخالفات التي تكثر في المجتمعات

؛ تجدد الإنسان إن كثر في المجتمع الكذب صار من أهله مداراة لأهله ، إن كثر الغش صار من أهله مداراة ومسايرة لحاله .. ، وإذا كان المجتمع كله بهذا التفكير فمتى يصلح المجتمع ومتى يوجد القدوات الذين على أيديهم يكون الصلاح ويكونون أسباب هداية المجتمع ؟

هذا جانب مهم يجب مراعاته بين يدي قراءة هذا الحديث فالإنسان يقرأ هذا الحديث يصلح نفسه بتحقيق هذه الخصال المباركة العظيمة ، ويطلب بتحقيق ذلك ثواب الله سبحانه وتعالى ولا يلتفت إلى حال مجتمعه هل هم على ذلك أم لا ؛ بل هو يفعل هذه الأمور ويحقق ما طُلب منه في هذا الحديث طاعةً لله وطلباً لثوابه سبحانه وتعالى .

قال عليه الصلاة والسلام " لا تحاسدوا " : والخطاب في الحديث لأهل الإيمان مبيناً فيه صلوات الله وسلامه عليه مقتضيات الإيمان وحقوقه ومتطلباته .

" لا تحاسدوا " : أي لا يحسد بعضكم بعضاً ، والحسد أمرٌ في القلب ، وقد يترتب عليه آثارٌ وتوابع له في الجسد وإلا أصله ومنبعه القلب .

والحسد هو تمني زوال النعمة عن الآخرين ؛ ولهذا قيل عن الحاسد أنه عدوُّ نعمة الله على عباده ؛ فإذا رأى نعمةً أنعم الله بها سبحانه وتعالى على عبد من عباده تمني زوالها . وبعض أهل العلم يرى أن الحسد معناه أوسع من هذا ؛ أوسع من تمني زوالها ، بل يعدون كراهية النعمة للآخرين حسداً وإن لم يتمنى زوالها ؛ يعني إذا رأى في أحد إخوانه نعمةً أنعم الله بها عليه ؛ كره ذلك

والذي يكره النعمة التي أنعم الله بها سبحانه وتعالى على الآخرين ؛ فيه عداوة لنعمة الله على عباده والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، ولا ضير عليك وليس بحسد أن تتمنى أن يكون لك مثله أو أحسن منه وأفضل ؛ فلا ضير عليك ؛ فهذه غبطة لا بأس به ، وقد جاء في الحديث قال " لا حسد إلا في اثنتين " والمراد لا غبطة .

وإذا زاد على ذلك - على الحسد - زاد الإثم بحسب ما زاد على ذلك ، فإذا ترتب على تمني زوال النعمة الذي امتلأ به قلبه مباشرة الأسباب التي يكون بها زوال النعمة ؛ فهذه المباشرة للأسباب كل ما زاد منها زاد إثمه في هذا الباب ، وزادت عقوبته عند الله سبحانه وتعالى .

والحسد يكون في أمور الدين ويكون في أمور الدنيا ؛ قد يحسد الإنسان الآخر على صيامه وعلى صلواته ، قد يحسده على طلب العلم ، قد يحسده على المال ، وقد يحسده على تجارته ، قد يحسده على حذقه ونباهته ..

وغالباً ما يقع الحسد بين الأقران في الشيء الواحد ؛ إذا كانوا عملوا في تجارة أو في صناعة ما؛ ثم برز أحدهم أقرانه في ذلك وفاقهم . كانوا يمشون سوياً ثم فتح الله لأحدهم باب رزق فاقهم فيه . فإن لم يُسَلِّمهم الله سبحانه وتعالى تمتلئ قلوبهم حسداً لهذا الشخص ..

كذلك طلب العلم ؛ قد يقع بين طلبة العلم حسد في هذا الباب ؛ مثل شخص ما كان له اهتمام بطلب العلم ، ثم يأخذه شخص ويرغبه ويحثه على الطلب ، ويقبل على الطلب ؛ وإذا به يفوق هذا الذي دله على طلب العلم ويسبقه سبقاً بعيداً ، والفضل بيد الله سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء .. ؛ فإن لم يسلمه الله جل وعلا حسده على هذا الذي فاقه فيه ؛ ولهذا الغالب أن الحسد يقع بين الأقران ؛ فما ترى نجاراً - مثلاً - يحسد طالب علم ، أو طالب يحسد نجاراً ، لأن هذا في مجال وهذا في مجال ، لكن نجار يحسد نجار ، وطالب علم يحسد طالب علم ، فغالباً يتولد الحسد في النفوس إذا ضعف الإيمان بين الأقران والمتماثلين في المجال الواحد أو الباب الواحد فينشأ الحسد .

ولهذا يحتاج المسلم إلى أن يروض قلبه على عدم كراهية نعمة الله ؛ فالفضل فضل الله يؤتيه من يشاء ، فيروّض نفسه على عدم الكراهية ، فاقني هذا في العلم وتفوّق في الحفظ والطلب ؛ فالمقام الإيماني يقتضي الفرح والسرور ؛ فهذا كان معرضاً عن الدين وأصبح طالب علم جيد ؛ فالمقام يقتضي الفرح بذلك لعله يكون إماماً من أئمة المسلمين ، لعل الله سبحانه وتعالى ينفع به العباد ؛ فلم أملأ قلبي بكراهية لما هو عليه ؟ وسبحان الله حتى يتبين الأمر بشكل أوضح: فهذا الشخص الذي فاق صاحبه و كان ضائعاً وكان لا يشتغل بالعلم لو قيل للإنسان : هب أن هذا الشخص على ضياعه السابق ماذا تتمنى له ؟ الجواب : أتمنى أن يكون طالب علم ، ولو قيل لك هل تتمنى أن يكون طالب علم قوي ؟ الجواب نعم ، لكن لما وُجد وجاءت المقارنة وفاقه يدخل أحياناً ويتسرب الحسد إلى القلب .

فيحتاج المسلم أن يُعوّد نفسه على الرضا بما قسم الله سبحانه وتعالى والقناعة بذلك ، وأن يستشعر أن الفضل بيد الله والمنة لله سبحانه وتعالى وهو المان المتفضل ؛ فلم أحسد

الشخص على إيمانه وصلاحه ؟ لما أحسده على طلبه للعلم وفلاحه فيه ؟ لما أحسده على نفعه للناس وإفادته للآخرين ؟ ولما أحسد هذا على ما أنعم الله به عليه من مال وما ينفق في وجوه الخير والبر ؟ وما هي الثمرة التي أرجوها بذلك عندما أملأ قلبي حسداً أو كراهية لذلك ؟ فليس هناك ثمرة ؛ بل هي نارٌ تغلي في قلب الحاسد ولا ثمرة له ؛ ولهذا شُبِّه الحاسد بالنار ؛ تأكلُ بعضها بعضاً إن لم تجد ما تأكله ؛ فتجد هذه السقائم والأمراض التي في قلب الحاسد تعطل هو في نفسه عن الخير وعن أبوابه ولم يستفد في ذلك ، بينما إذا كان سليم الصدر تجاه إخوانه فرحاً لهم بالخير ، حامداً لله سبحانه وتعالى على ماتفضل به عليهم ، ولا مانع أن أتمنى أن أكون أفضل من الآخرين وليس هذا من الحسد ، لا مانع أن يتمنى الإنسان أنه أفضل أو يتمنى أن ولده أفضل من ولد فلان لكن إن فاق ولد فلا ولدي وسبقه لماذا أجعل في قلبي كراهية ولماذا أتمنى عن ابنه أن يزول هذا الذي عنده ، ما الثمرة التي أرجوها في الدنيا والآخرة ؟ هب أن الذي تمنيته في ذلك الابن أن يزول عنه زال ؛ ما الذي حصلته ؟ وما الذي استفدته ؟ لا دين ولا دنيا ولا آخرة غير أنه إثم على الإنسان .

فالحسد مرض خطير وداء فتاك إذا وُجد في الإنسان أضرب به ، وربما كان آفة في المجتمع ، وكم من إنسان قتل آخر وأراق دمه حسداً له ، وكم من آخر اعتدى على غيره بماله حسداً له ، كم من الجنايات التي هي ثمرة للحسد وأثر من آثاره .

والحسد من أخص صفات اليهود - شر الناس - ، وقد نعتهم الله بأنهم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ؛ فلماذا ينقل الإنسان نفسه نقلةً بعيدة ؟ يجعل نفسه في موضع يكون فيه عدواً لنعمة الله تبارك وتعالى ، ومنساقاً وراء ما يمليه عليه الشيطان ؛ الشيطان حسد بني آدم على ما أنعم الله سبحانه وتعالى به عليهم ، وحسد أباهم آدم على ما أنعم الله سبحانه وتعالى به عليه ؛ ولهذا الحسد فيه شبه من الشيطان وشبه بأعداء الدين ، فيحتاج المسلم أن يجاهد نفسه على البعد من هذه الآفة .

قال " ولا تناجشوا " : النجش هو الزيادة في السلعة لتنفيـع شخص أو إضرار بآخر ؛ فإذا كان يزيد في السلعة وليس له غرض في الشراء لكن لكون السلعة لأحد أصدقائه وزملائه فيزيد فيها ليكون ربح صديقه أكثر ، أو يزيد في السلعة وليس له غرض في الشراء ولكنه يريد أن يضر بأحد الذين أرادوا شراء هذه السلعة ؛ فهذا محرم وهو من نقص الإيمان وضعفه ؛ وإلا

هؤلاء كلهم إخوانك وكلهم لهم عليك حقوق ؛ فلماذا تُنقَعُ آخر وتضر بآخر ؟ فكلهم إخوانٌ لك {إنما المؤمنون إخوة} " وكونوا عباد الله إخواناً " يجمعك وإياهم الإسلام ؛ فلماذا هذا النجش ؟ ولهذا وجوده نقص في الإيمان وضعف فيه .

قال " ولا تباغضوا " : أي لا تفعلوا ما يوجد البغضة بينكم ، والبغضة لا توجد إلا إذا وجدت أسبابها ؛ ولهذا نهى النبي ﷺ عن التباغض نهى عن أسباب التباغض وموجباته ، وإذا تفكر المسلم يجد أن وجود البغضة بين المسلمين من ورائها أسباب وعوامل ودوافع ، والنهي عن الشيء نهى عن أسبابه ووسائله وعوامله ؛ ولهذا فإن نهى النبي ﷺ عن التباغض هو نهى عن فعل كل أمر يفضي بالناس إلى التباغض ؛ ولهذا يدخل تحت قوله " لا تباغضوا " النهي عن أمور كثيرة ، بل هو يشمل كل أمر يفضي بالناس إلى التباغض ، أن يبغض بعضهم بعضاً .

ولهذا نقل النووي في شرحه لهذا الحديث عن بعض أهل العلم أنه قال : " في هذا الحديث نهى عن البدعة " لأن وجودها يوجد البغضة ؛ ولهذا قال أهل العلم عن البدعة أنها تفرّق كما أن السنة تجمع وتؤلف ، إذا شاقَّ الإنسان وجانبه واشتغل بمحدثات الأمور والبدع ؛ فيترتب على ذلك أن أهل الحق والسنة لن يرضوا بذلك ، ولن يقرأوها عليه وسيقولون أن هذا خطأ ؛ فإن لم ينشر صدره لقبول ما يبينونه له من الحق والسنة وجدت هذه البغضة ، وتجدد هو نفسه يبغض أهل السنة وأهل الحق وينفر منهم ، وسبب هذا البغض الذي قام في قلبه لأهل الحق وأهل السنة هو فعله للبدعة وارتكابه لها ؛ ولهذا نهى ﷺ عن التباغض هو نهى عن فعل كل أمر يفضي بالناس إلى وجود التباغض بينهم ، يشمل النهي عن العدوان على الآخرين والإضرار بهم والاعتداء عليهم والنيل من أعراضهم والهمز واللمز والسخرية بالآخرين ، قال لا يسخر قوم من قوم ثم قال ولا نساءً من نساء ، قال ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنازروا بالألقاب ، إذا وجدت السخرية والهمز واللمز من بعض الناس تجاه الآخرين ما الذي يترتب على ذلك ؟ ألفة ومحبة أم بغض وعداوة ؟ قوله " ولا تباغضوا " فيه النهي عن كل أمر يفضي إلى وجود البغضاء بين المسلمين ؛ فكل أمر يؤدي للبغضاء ابتعد عنه

قال " ولا تدابروا " : هذا فيه النهي عن إعراض الأخ عن أخيه وأن يعطيه قفاه وظهره فيبقى الأخ وأخاه متقاطعين متهاجرين متدابرين ، وقد جاء في أحاديث كثيرة النهي عن ذلك وأن

المسلم لا يحق له أن يهجر أخاه فوق ثلاث ، إذا كان بينهم خلاف وسوء تفاهم في أمور دنيوية أو إشكالات خاصة بينهم ؛ لا يجوز له أن يهجر أخاه فوق ثلاث ، وكم يقع بين الإخوان تهاجر يدوم سنوات يقوِّيه الشيطان في نفوسهم عند أمر تافه ، وأمر حقير لا يؤبه به فيمضون على التدابر ، وربما انسحب هذا التدابر على الذرية .

" ولا يبيع بعضكم على بيع بعض " : هذا أيضاً من الأمور التي توجد العداوة والبغضاء بين المسلمين ، وهذا له صور كثيرة ؛ مثل لو أن شخصاً اشترى سلعةً ودفع ثمنها واستلمها ، ثم رآها في يده آخرٌ وقال : بكم اشتريتها ؟ قال بخمسين ؛ فقال له : رجعها وأنا أبيعها لك بأربعين أو رجعها وأنا أشتري لك بنفس الثمن أحسن منها ؛ فهذا بيعٌ على بيع أخيه . فإذا مضت المعاملة بهذه الطريقة بين الناس وُجد التعادي ، وأصبح كل يكيد للآخر ، ويحدث شر بين أصحاب المحلات التجارية إذا أخلُّوا بهذه الخصلة حدث بينهم شرٌ وعدوان لا يعلم به إلا الله سبحانه وتعالى وتجد التاجر يكيد للآخر .. ؛ ولهذا وضع النبي ﷺ مثل هذه القواعد والأصول والضوابط حتى تقطع دابر العداوات والبغضاء والشر بين المسلمين .

قال " وكونوا عباد الله إخواناً " : وهذا الأصل الجامع لجميع ذلك ؛ يعني لما ذكر تلك الأمثلة لأمر نهي عنها عليه الصلاة والسلام لأن وجودها تؤثر في الأخوة ؛ ذكر الأصل لهذا الباب وهو تحقيق الأخوة الإيمانية ؛ أي ليحقق كلٌ منكم مع إخوانه ما تقتضيه هذه الأخوة ، فمن لم يحقق ماتقتضيه الأخوة فإن أخوته تضعف بحسب ذلك ، ولهذا الأخوة الإيمانية تزيد وتنقص وتقوى وتضعف بحسب حال المسلم مع هذه الخصال ، فإن كان محققاً بما أمر به في الشرع فهذا من علامة كمال أخوته الإيمانية ، وإذا قصّر في ذلك فهذا من علامات ضعفها ونقصها .

قال " المسلم أخو المسلم " : أي أن الإسلام يوجد تآخي بين أهله وألفة بين أهله ، وإخوة الإسلام هي أعظم أخوة وهي أقوى من أخوة النسب في أثرها الديني والأخروي . " المسلم أخو المسلم " أي يجمعه به أخوة الإسلام والتآخي في الله جل وعلا ، وأوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله .

قال " لا يظلمه " : لا يقع من المسلم المحقق لإسلامه المتمم له لا يقع منه ظلم لأخيه المسلم ، والمراد بالمسلم هنا المسلم الذي كَمَلَ إسلامه - ومَرَّ معنا سابقاً : " من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه " - .

" لا يظلمه " فإذا ظلمه فظلمه له من نقص إسلامه وضعف دينه ، " لا يظلمه " لا يقع منه ظلم له لا في شخصه ولا في ماله ولا في عرضه .

والظلم يتناول أموراً كثيرة وهو وضع الشيء في غير موضعه ، كالإساءة للآخرين والاعتداء على الأموال أو الأعراض أو على الدماء أو على الحقوق أو غير ذلك . فهذا كله داخل في الظلم ، والظلم ظلمات يوم القيامة .

قال " ولا يخذله " : خذلان المسلم لأخيه من ضعف الإسلام ونقص الدين . والخذلان هو أن لا ينصر أخاه و لا يعينه حيث يكون قادراً على نصرته ؛ كأن ينتهك عرض أخيه في مجلسه ، ثم لا ينصره في ذلك ولا يدب عنه فهذا من خذلانه لأخيه ؛ والمسلم لا يخذل أخاه المسلم ؛ بل يقوم بما يقتضيه الإسلام وتقتضيه الأخوة الدينية بالانتصار لأخيك والدب عن عرضه .

قال " ولا يكذبه " : المسلم يتجنب التعامل بالكذب مع أخيه ومعاملته بغير الصدق ، ولا يعامله بمعاملة فيها كذب وهو مؤتمنه على ذلك وواثق به لدينه أو لصلاحه .

قال " ولا يحقره " : أي ينتقص من أخيه ويزدري أخاه ويُحَقِّر من شأنه ويقع فيه ذماً أو انتقاصاً ، وكون الإنسان يحقر أخاه الإنسان ؛ هذا مبني على كبر في الإنسان وهذا أيضاً من نقص في الإيمان وضعف في الدين .

قال " التقوى هاهنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات " : تأكيداً للأمر .

ومراد به بالتقوى هاهنا أي أن التقوى مكانها القلب

وقد مر معنا عند المصنف رحمه الله تعالى حديثان يفيدان ذلك ؛ وهما قوله عليه الصلاة والسلام " ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب " وقوله عليه الصلاة والسلام " يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً .. " ومضت الإشارة أن أساس التقوى وأساس الفجور القلب .

قوله " التقوى ها هنا " وكم من مرة ضرب إنسان على صدره وقال التقوى هاهنا معملاً الحديث على غير بابهِ ؟!

يُقال لبعضهم لماذا ترتكب كذا من المعاصي فيضرب على صدره ويقول التقوى هاهنا أو يقول : العبرة بالقلب !

فمثل هؤلاء لم يفهموا الحديث ، ولم يفهموا مقصود النبي ﷺ بقوله "التقوى هاهنا" ، وإلا لو قرأوا الحديث بتمامه : "لا تحاسدوا لا تناجشوا لا تدابروا .. إلى آخره " لمّا نهي عن هذه الخصال الذميمة وبيّن منافاتها للأخوة الإيمانية ؛ أشار إلى منبع الصلاح في هذه الأمور كلها وقال "التقوى هاهنا" ، فإذا كان الإنسان يبيع على بيع أخيه أو يقع في النجش ويقال له : لماذا تمارس هذا العمل المحرم ؟ قال : التقوى هاهنا ! لو قيل له : اتق الله لماذا تفعل هذا الأمر المحرم المنهي عنه ؟ قال : التقوى هاهنا ! يظلم أخاه في دمه أو ماله أو عرضه وإذا نُهي عن ذلك ضرب على صدره وقال : التقوى هاهنا ! هل هذا فهم الحديث ؟ لا .

مراد النبي ﷺ بقوله "التقوى هاهنا" : أي مكانة القلب وعظم أثره على الجوارح إذا صلح بتقوى الله ، وأن تقوى الله عز وجل إذا عُمر به القلب الجوارح تصلح ، فالذي يتق الله حقاً لا يقع في هذه الأعمال المنهي عنها ، ولا يقع في غيرها لصلاح قلبه بالتقوى ، مثل قوله عليه الصلاة والسلام "ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب" . فإذا صلح القلب بالتقوى صلحت الجوارح تبعاً له ، وإذا فسد القلب بالفجور والعياذ بالله فسدت الجوارح تبعاً له ، ولهذا لا يستقيم أبداً أن يغالط الإنسان نفسه فيبقى على المعصية والإثم وإذا نُهي عن ذلك قال التقوى هاهنا ، وبعضهم يقول : الكلام على القلب ، وبعضهم يبالغ ويقول : الحمد لله أنا قلبي أبيض!

وهذه تزكية مخالفة لقوله تعالى { فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى } لا تزكي نفسك لكن عليك أن تسعى في صلاح نفسك ؛ في صلاح قلبك وفي صلاح جوارحك ، أما أن تغشى المنكرات وتفعل المحرمات ثم مع ذلك تقول : التقوى هاهنا وأنا قلبي طيب ؟ هذه مغالطة لنفسك وتزكية لنفسك تضر بك ، ولها أثرٌ سيئ على الإنسان لأنه سيبقى مستمراً في المنكرات وهو لا يزال متوهماً صلاح وسلامة قلبه .

ولهذا فإن قوله عليه الصلاة والسلام "التقوى هاهنا" ويشير إلى صدره فيه التنبيه إلى أهمية إصلاح القلوب وأن صلاح الإنسان بهذه الأمور المذكورة في الحديث وفي غيرها راجعٌ إلى صلاح القلب ، وأن ما يقع من الإنسان من فساد سببه ما يقع في القلب من فساد ، وكلما قويّ الصلاح في القلب صلحت الجوارح تبعاً ..

قال " بحسب امرئٍ من الشر أن يحقر أخاه المسلم " : أي يكفيه فعلاً للشر وارتكاباً له أن يكون بهذه الحال أي أن يحقر أخاه المسلم ، أن يكون بهذه الصفة الذميمة بأن يزدريه أو ينتقصه .. قال " كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه " : وهذه قاعدة جامعة في الباب . وهذا المعنى قرره عليه الصلاة والسلام في حجة الوداع أكثر من مرة ، في يوم عرفة وفي يوم النحر ؛ قال عليه الصلاة والسلام " إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم " وقرر هذا المعنى في حجة الوداع بلفظة أخرى ؛ قال عليه الصلاة والسلام " ألا إنما هن أربع لا تشركوا بالله شيئاً ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا تزنوا ولا تسرقوا " فقولوه :

" لا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق " : نهي عن الاعتداء بالدماء .
" ولا تزنوا " : نهي عن الاعتداء على الأعراض .
" ولا تسرقوا " : نهي عن الاعتداء على الأموال ؛ وهو نضير قوله " إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم " .
فهذه أمور محرمة على المسلم أن يعتدي بأي نوع من الاعتداء على مال أخيه أو على دم أخيه أو على عرض أخيه ، والأخوة الإسلامية تقتضي بُعد المسلم عن ذلك تمام البعد ، وأن لا يعتدي على أحد من إخوانه لا في دمه ولا في ماله ولا في عرضه .
قال " وكل المسلم " : اتبه لقوله " وكل المسلم " أي بما يشمل هذه اللفظة ، المسلم يتناول جميع حقوقه ، وجميع الاعتبارات التي يجب أن تُرعى وتُحفظ له .
هذا الحديث العظيم من أجمع الأحاديث في مقتضيات الأخوة الإيمانية وموجباتها ، وقد حذر عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث من خصال عديدة ؛ فعل الإنسان لها وارتكابه لها نقصٌ في أُخُوَّتِهِ الإيمانية .

قال الشيخ عبد المحسن العباد

[الأول : قوله " لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبيع بعضكم على بيع بعض الحسدُ يكون في الأمور الدنيوية والأخروية، ويدخل تحته كراهة الحاسد النعمة التي أنعم الله بها على غيره، ويدخل فيه تمّي زوال هذه النعمة عنه، وسواء تمّي انتقالها إليه أو عدم انتقالها،

وَأَمَّا إِذَا تَمَنَّى مِثْلَ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَى غَيْرِهِ دُونَ كِرَاهِيَةِ حَصُولِهَا لِغَيْرِهِ، وَدُونَ تَمَنِّي زَوَالِهَا عَنْهُ، فَهَذَا هُوَ الْغِبْطَةُ، وَلَيْسَ بِمَذْمُومٍ [.

الشرح..

هذا فيه توضيح لمعنى الحسد وبيان لحقيقته ، وأن الحسد يدخل فيه أمران :

الأول : كراهة الحاسد النعمة التي أنعم الله بها على غيره ، وهذا المعنى نص عليه عدد من أهل العلم منهم شيخ الإسلام ابن تيمية .

فالكراهة وإن لم يكن معها تمنى زوال النعمة نوع من الحسد .

الأمر الثاني : تمنى زوال هذه النعمة ؛ فهذا حسد - سواءً تمنى انتقالها إلى أو بانتقالها إلى غيره - .

[وَالتَّجَشُّ: أَنْ يَزِيدَ فِي ثَمَنِ السِّلْعَةِ عِنْدَ الْمُنَادَاةِ عَلَيْهَا، وَهُوَ لَا يَرِيدُ شَرَاءَهَا، بَلْ يَرِيدُ نَفْعَ الْبَائِعِ بِزِيَادَةِ الثَّمَنِ لَهُ، أَوْ الْإِضْرَارَ بِالْمُشْتَرِي بِزِيَادَةِ الثَّمَنِ عَلَيْهِ، وَالتَّبَاغُضُ هُوَ تَعَاظِي أَسْبَابِ الْبَغْضَاءِ وَالْإِتْيَانِ بِمَا يَجْلِبُهَا، وَالتَّدَابُرُ الْمَقَاطَعَةُ وَالتَّهَاجُرُ؛ فَلَا يَحِبُّ أَنْ يَلْقَى أَخَاهُ بَلْ يُوَلِّي كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ دُبْرَهُ بِسَبَبِ مَا يَكُونُ بَيْنَهُمَا مِنْ تَبَاغُضٍ، وَالْبَيْعُ عَلَى بَيْعٍ غَيْرِهِ أَنْ يَتْبَاعِ اثْنَانِ سِلْعَةً وَهُمَا فِي مَدَّةِ الْخِيَارِ، فَيَأْتِي آخَرُ إِلَى الْمُشْتَرِي فَيَقُولُ لَهُ : أَتَرَكَ هَذِهِ السِّلْعَةَ وَأَنَا أَبِيعُكَ سِلْعَةً مِثْلَهَا أَوْ أَحْسَنَ مِنْهَا بِثَمَنِ أَرْخَصَ مِمَّا اشْتَرَيْتَ بِهِ ، وَهَذَا الْعَمَلُ يَسَبِّبُ التَّبَاغُضَ .

ثانياً : قوله: " وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَكْذِبُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، بِحَسَبِ أَمْرٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ " بعد نهيته صلى الله عليه وسلم

عن أمور محرّمة، فيها التباغض بين المسلمين وتعاطي أسبابه، أرشد صلى الله عليه وسلم إلى ما هو مطلوب من المسلمين أن يكونوا عليه، وهو أن يكونوا إخوة متحابين متآلفين، يرفق بعضهم ببعض، ويحسن بعضهم إلى بعض، بإيصال النفع إليه ودفع الضرر عنه ، وأكّد ذلك بقوله : " المسلم أخو المسلم " أي: أنّ مقتضى الأخوة أن يحبّ لغيره ما يحبّ لنفسه ويكره له ما يكره لها، فلا يظلم غيره بأن يعتدي عليه أو يلحق أيّ ضرر به ، ولا يخذله عند حاجته إلى نصرته وهو قادر على أن ينصره ، ولا يحدّثه بحديث هو كاذب فيه ، ولا يحقره بأن يستهين به

ويستصغره ، ثم بيّن صلى الله عليه وسلم قبح احتقار المسلم أخاه بقوله : " بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم " أي: يكفيه من الشر احتقار أخيه لو لم يكن عنده شرٌ غيره، ووسّط صلى الله عليه وسلم بين النهي عن الاحتقار وبين عظم شرّه قوله صلى الله عليه وسلم " التقوى هاهنا " مشيراً إلى صدره ثلاث مرّات ، أي إلى القلب ؛ لبيان أنّ العبرة بما يقوم في القلوب من الإيمان والتقوى ، وأنّه قد يكون قلبٌ من احتقر معموراً بالتقوى ، ويكون قلبٌ من احتقره وتكبّر عليه بخلاف ذلك ، وأمّا ما يقوله بعضٌ من يقع في المعاصي الظاهرة إذا نبّه على شيء منها أشار إلى صدره، وقال : " التقوى هاهنا " فيقال له: إنّ التقوى إذا صارت في القلب ظهر أثرها على الجوارح بالاستقامة وترك المعصية، وقد قال صلى الله عليه وسلم : " ألا إنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلّهُ وإذا فسدت فسد الجسد كلّهُ ، ألا وهي القلب " ، وقال: " إنّ الله لا ينظر إلى صوَرِكُمْ وأموالِكُمْ، ولكن ينظر إلى قلوبِكُمْ وأعمالِكُمْ " رواه مسلم ، وجاء عن بعض السلف أنّه قال : " ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، ولكن ما قر في القلوب وصدّقته الأعمال " .

الشرح..

قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث " ولا يحقره " ثم بعد ذلك قال " بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم " يعني آخر ما ذكر في الأمور التي ينهى عنها قوله " ولا يحقره " ثم بعد ذلك قال " بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم " أي يكفيه شراً أن تكون فيه هذه الخصلة أن يحقر أخاه المسلم ؛ وهنا نكتة جميلة وفائدة نفيسة وهي أن النبي صلى الله عليه وسلم قوله " التقوى هاهنا " بين قوله عليه الصلاة والسلام " ولا يحقره " وقوله " بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم " ؛ فوسّط عليه الصلاة والسلام بين نهي أن يحقر أخاه المسلم ، وبين عظم شأن من كان كذلك بقوله " بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم " وسّط بين ذلك بقوله " التقوى هاهنا " ؛ وهنا فيه تنبيه لمن يحقر أخاه المسلم إلى أن هذا الذي تحقره قد يكون قام في قلبه من التقوى والصلاح وزكاء القلب أمراً لا تدانيه ولا تقاربه ، فقد تحقره وتنتقصه وتزدريه وهو عند الله عظيم ، وفي الحديث يقول عليه الصلاة والسلام " رب أشعث أغبر ذي طمرين مدفوع بالأبواب " ما معنى " مدفوع بالأبواب " يعني لا يأبه الناسُ به وإذا لقوه عند أبواب دفعوه ، " ذي طمرين " يعني ثيابه بالية لو أقسم على الله لأبره ؛ أي أن له مكانة عظيمة عند الله سبحانه وتعالى .

فقوله " التقوى هاهنا " فيه تنبيه عظيم في هذا الباب ؛ لا تحتقر أخاك المسلم ، وأحياناً بعض الناس - والعياذ بالله - يحتقر الآخر لمظهره ، أو لشيء في خلقته إما عرج أو عور أو شيء من هذا القبيل أو نقص في بعض الصحة أو عدم إفصاح في الكلام و العبارة أو غير ذلك من أمور قد يحقره ويرى نفسه أعلى منه ويزدرية وينتقصه ؛ فيقول عليه الصلاة والسلام " التقوى ها هنا " .

فهذا تنبيه مهم في هذا الباب ؛ إذا أدرك المسلم أن التقوى مكانها القلب لماذا يزدرى أخاه المسلم ؟ قد يزدرية وهو عند الله عظيم وله رتبة عالية في الجنة ؛ فلماذا يزدرية ؛ ولهذا قال "التقوى هاهنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات بحسب امرئٍ من الشر أن يحقر أخاه المسلم" فلو لم يكن فيه شر إلا هذه الخصلة كفى به شراً ؛ لأنه قد يحتقر شخصاً أو أشخاصاً لهم مكانة رفيعة وعلية عند الله سبحانه وتعالى .

[ثالثاً : قوله: "كلُّ المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه" : يحرم الاعتداء على النفس بالقتل أو ما دونه، والاعتداء على المال بالسرقة والغصب وغير ذلك، والاعتداء على العرض بالسبِّ والشتم والغيبة والنميمة وغير ذلك، وقد أكَّد النَّبِيُّ ﷺ تحريم هذه الثلاثة في حجة الوداع، قارناً حرمتها بجرمة الزمان والمكان، حيث قال ﷺ " إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحَرَمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا".]

الشرح..

هذا الذي ختم به عليه الصلاة والسلام الحديث وهو قوله "كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه" يُعد قاعدة عظيمة ومتينة في هذا الباب وجامعة، وأن الواجب على المسلم تجاه إخوانه المسلمين أن يحترم دماءهم وأموالهم وأعراضهم ؛ فلا يعتدي على شيء منها بأي شيء من الاعتداء ؛ هذه قاعدة جامعة في هذا الباب ، وأن الأخوة الإيمانية تقتضي احترام المسلم لأخيه المسلم في دمه وماله وعرضه ، فلا يعتدي على دمه بإراقته ولا أيضاً في عرضه سواء بانتهاك العرض بالفحش والقذف أو غير ذلك من أنواع الاعتداء على الأعراض ، ولا يعتدي على أموال الآخرين بالسلب والنهب والسرقة فهذا كله حرام والمسلم محترم في نفسه وماله وعرضه فلا يعتدى على شيء من ذلك..

[رابعاً : مما يستفاد من الحديث :

الأول : تحريم التحاسد والتناجش والبيع على بيع أخيه، وكذا الشراء على شرائه، وكذا كل ما يجلب العداوة والبغضاء بين المسلمين.

أي أن هذا الحديث ذكر أمثلة وإلا فإن كل أمر يجلب العداوة ويوجد البغضاء بين المسلمين فإنه يحرم على المسلم فعله لعموم قوله في هذا الحديث "ولاتباعوا" .

ثانياً : النهي عن تعاطي أسباب البغضاء، وكذا كل ما يترتب على ذلك من تقاطع وتهاجر بين المسلمين.

ثالثاً : حث المسلمين جميعاً على أن يكونوا إخوة متحابين متآلفين.

هذا مستفاد من قوله : " وكونوا عباد الله إخوانا " هذا فيه حث على أن يكون المسلمين متحابين متآلفين متحابين

رابعاً : أن الأخوة بين المسلمين تقتضي إيصال الخير إليهم ودفع الضرر عنهم.
خامساً : أنه يحرم على المسلم لأخيه ظلمه وخذلانه واحتقاره والكذب عليه.

سادساً : بيان خطورة احتقار المسلم لأخيه، وأن ذلك كافٍ للمحتقر من الشر، وإن لم يكن عنده شرٌّ سواه.

يعني لو لم يكن فيه من الشر إلا هذه الخصلة أن يحقر أخاه المسلم فكفى به شراً أن يكون بهذه الصفة

سابعاً : أن الميزان في التفاضل بين الناس التقوى، كما قال الله عز وجل: { إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ } .

ثامناً : أن التقوى محلها القلب، كما في هذا الحديث، وكما في قوله تعالى: { ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ } .

تاسعاً : أن التقوى في القلوب تظهر آثارها على الجوارح وبصلاح القلوب يصلح بقية

الجسد.

عاشراً : تحريم الاعتداء على المسلمين في دمائهم وأموالهم وأعراضهم] .

سبحانك اللهم و بحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، اللهم صلّ وسلّم على عبدك
ورسولك نبينا محمد و آله وصحبه

..*

الدرس التاسع والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .
أما بعد ..

الحديث السادس والثلاثون

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " مَنْ نَفَسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسِّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارِسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ ، وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ ، وَمَنْ بَطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ "

رواه مسلم بهذا اللفظ.

الشرح..

هذا الحديث العظيم من جوامع كلم النبي صلى الله عليه وسلم في الحث على الخير وأبواب البر المتنوعة وأبواب الإحسان ، وأن الجزاء من جنس العمل {هل جزاء الإحسان إلا الإحسان} ، فالذي يحسن إلى عباد الله يحسن الله جل وعلا إليه ، والذي يرحمهم يرحمه الله جل وعلا " ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء " ، والذي يعمل على بذل العون لهم يعينه الله " والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه " ، والذي يسعى في مصالحهم وحاجاتهم وتنفيس كرباتهم ؛ فالجزاء في ذلك كله من جنس العمل ، وأيضاً في مقابل ذلك الإساءة إلى الناس وتتبع عورات الناس ونحو ذلك من الأعمال المحرمة أو الفعال المشينة ؛ فإن ذلك أيضاً يلقي عليه فاعله عقوبته جزاءً وفاقاً ، قال تعالى {ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوء} .

ولهذا فإن هذا الحديث من الأحاديث العظيمة في باب الترغيب في الخير وبذل العون والمساعدة للناس وعطفهم ورحمتهم والإحسان إليهم إلى غير ذلك من أبواب البر المتنوعة ومجالاته المتعددة .

وقد ذكر الإمام النووي رحمه الله تعالى هذا الحديث عقب الحديث السابق " لا تحاسدوا " ، وبين الحديثين إشتراك من حيث أنما ذكر فيهما كله من مقتضيات الأخوة الإيمانية والرابطة الدينية ، فإن مقتضى هذه الأخوة أن لا يلحق الأخ من أخيه ضرر أو إيذاء " لا تحاسدوا ولا تناجشوا ... الحديث " ومن مقتضى الأخوة الإيمانية أن يبذل الأخ لأخيه من إحسانه وعطفه ورحمته ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

وختم عليه الصلاة والسلام هذا الحديث ببيان فضل العلم والاجتماع على طلبه وتذاكره ومداينة مسائله ، وأن ذلك سبيل إلى الجنة وأنه يترتب على ذلك فضائل عديدة ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث .

ثم ختم الحديث بفضل العمل ومكانته في الشريعة ، فهو حديث من جوامع كلم الرسول صلى الله عليه وسلم في باب الخير والبر والإحسان .

وقد بدأه عليه الصلاة والسلام بقوله " من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا " : الكربة المراد به الضائقة والشدة التي تلحق الإنسان إما في ماله أو في صحته أو في غير ذلك من شؤونه ؛ فمن نفس عن أخيه كربةً سواءً كان هذا التنفيس بدلالة وتوجيه ، أو كان هذا التنفيس ببذل مال أو كان هذا التنفيس بدلالة إلى علاج ، أو غير ذلك .

قال " نفّس الله عنه كربةً من كرب يوم القيامة " : ويوم القيامة يومٌ فيه أهوال وكُربٌ وشدائد يلقاها الناس ، وتشتد عليهم الأمور فيما يعاينونه ويستقبلونه من أهوال في ذلك اليوم ، فمن نفّس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة .

وقوله "كرب يوم القيامة" : هذا فيه دلالة على أن يوم القيامة فيه كرب تواجهه الناس ، وأن ما يقدمونه في هذه الحياة من أعمال الخير والبر والإحسان يجازون عليها يوم القيامة بأن تُنْقَسَ عنهم كربات يوم القيامة - تنفيسٌ بتنفيس - .

"ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة" : بأن يكون عليه دين أو في ذمته مال للغير وأصابه إعسار لا يستطيع أن يسدد الدين

والتيسير عليه بحالتين :

- إما أن يُنظره إلى ميسرة : يقول له صاحب المال لا عليك ، متى ما تيسر عليك سدّد ؛ فهذا فيه تنفيس على المعسر ، نَقَسَ عليه بأن أخر قضاء الدين الذي حلّ قضاؤه .
- أو أن يعفو عنه . وهذا أعلى وأرفع . يعفو عنه ويسامحه ويجعله في حل من السداد .

قال "يسر الله عليه في الدنيا والآخرة" : فالتيسير على المعسر ينمّر تيسيراً في الدنيا وتيسيراً في الآخرة؛ فقد يواجه أموراً تتعسر عليه فييسرها الله له جزاءً لتيسيره على إخوانه ، وأيضاً ييسر الله عليه يوم القيامة فيما يلقيه الناس من أهوال وشدائد .

قال "ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة" : أي وَقَفَ على زلةٍ أو هفوةٍ أو عملٍ لا يسرُ فاعله إنكشافه واطلاعُ الناس عليه ؛ فستره ولم يخبر بما رآه عليه أو بما وقف عليه من حاله ، فجزاء هذا الستر سترٌ كما قال عليه الصلاة والسلام "من ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة" لأن هذا الذي وقف من غيره على عيب هو أيضاً عرضة يوم من الأيام للوقوع في الخطأ والعيب "كل بني آدم خطاء" وكما أنه يحب لنفسه إن وقف أحدٌ على عيبه أن يستره وأن لا يهتك ستره فليعامل الآخرين بما يحب أن يعامل به ، وكما أن حاله يحب أن يُستر فيما لو وقف أحدٌ على عيب من عيوبه فكذلك إذا وقف على عيب لأحد إخوانه فليستر عيبه ولا يهتك ستره ، وإذا ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة بحيث لا يهتك ستره بين الناس في الدنيا وأيضاً يوم القيامة لا يفضحه الله جل وعلا بعيوبه على رؤوس الأشهاد ، وفي الحديث يأتي الله جل وعلا بعبده المؤمن، ويضع عليه كفته، ويقره بذنوبه ثم يقول : " سترتها عليك في الدنيا

وأنا أغفرها لك اليوم " والمسلم يتطلع أن ينال الستر في الدنيا والآخرة ، ولهذا عليه أن يبذل الأسباب التي ينال بها ذلك ؛ ومن الأسباب أن يستر عيوب الآخرين ولا يهتك ستر غيره إلا إذا كان العيب الذي وقف عليه من شخص مُصر على المحرم أو يُخشى على الآخرين من أمره ؛ فإن هذا الأمر يُنظر إليه بحسب قاعدة الشريعة في جلب المصالح ودرء المفاسد .

مقابل ذلك من يحرص - والعياذ بالله - على تتبع عيوب الآخرين وهفواتهم وزلاتهم ، وإذا وقف على شيء من ذلك فرح به وسعى في نشره وإذاعته بين الناس ؛ فهذا عقوبته من جنس عمله كما صح في الحديث في مسند الإمام أحمد عن أبي برزة رضي الله عنه أن النبي عليه الصلاة والسلام قال " يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لاتغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف بيته " حديث صحيح رواه الإمام أحمد وأبو داود وغيرهما .

فهذا بابٌ ينبغي أن يحرص عليه المسلم ؛ يحرص على ستر عيوب إخوانه ، ولا بد أن تقع عينه على هفوة أو زلة لإخوانه أو يقع سمعه على شيء من ذلك ؛ فليستر إخوانه كما يحب هو أن يُستر ، وكل بني آدم خطاء ، ولا يحرص على تتبع عورات الآخرين ، وإذا وصل الإنسان إلى مرحلة يفرح فيها بالعثور على عثرة إخوانه وزلة إخوانه فهذا نوع مرض في القلب وضعف في الأخوة الإيمانية ، وقد مر معنا قول النبي صلى الله عليه وسلم " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " فكما أنه يحب أن يُستر وأن لا يُهتك ستره فليعامل غيره بما يحب أن يُعامل به .

ثم قال " والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه " : وهذا من جوامع الكلم في باب البر والإحسان ومساعدة الآخرين .

" ما كان العبد في عون أخيه " في أي مجال سواء استشارة أو مناصحة أو دلالة أو غير ذلك من وجوه العون ، العون لإخوانه بالمال أو بالتوجيه والدلالة إلى الخير أو بالدعاء لهم بالهداية والتوفيق كلما كان العبد أحرص على نفع عباد الله وإيصال الخير لهم كلما كان ذلك سبباً لمجازاته بمثل ذلك ، وكلما كان حريصاً على هداية الناس ومساعدتهم ومعاونتهم حقق الله جل وعلا له في حياته من أبواب الهداية والتوفيق والتيسير ما لا يحتسبه ولا يخطر له على بال ،

والأمر بيد الله سبحانه وتعالى " والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه " وكفى بها منقبةً وفضيلة لعبد الله المؤمن أن يكون يفوز بعون الله له ، ومن كان الله في عونه كفاه الله كل شر ووقفه لكل خير {أليس الله بكاف عبده} .

ثم قال " ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة " :

" سلك طريقاً " أي سار في طريق طلب العلم سواءً بالذهاب إلى أهل العلم أو بالجلوس في حلق أهل العلم أو بحفظ العلوم الشرعية والتفقه فيها أو باقتناء الكتب النافعة المفيدة والإفادة منها أو غير ذلك من المسالك والأبواب التي يكون بها طلب العلم وتحصيله .

" سهَّل الله به طريقاً إلى الجنة " وهذا فيه فضل العلم وفضل سلوك طلب العلم وأن طلب العلم سبيل إلى الجنة ، والجنة لا تُدخل بعد رحمة الله تبارك وتعالى إلا بالعمل الصالح ، والعمل الصالح لا يُعرف إلا بالعلم النافع ؛ ولهذا كان العلم قبل القول والعمل كما قال الله سبحانه وتعالى {فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات} فبدأ بالعلم قبل القول والعمل ؛ لأن القول السديد والعمل الصالح لا يمكن أن يُعرف إلا بالعلم النافع ولهذا كان العلم مقدماً على القول والعمل ، ومن عمل بلا علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح كما قال ذلك عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، ولهذا يحتاج العبد الذي يريد لنفسه الجنة والفوز برضا الله تبارك وتعالى يحتاج إلى العلم ، وأول ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم {اقرأ} وقال تعالى {وقل رب زدني علماً} .

فالعلم يأخذ بصاحبه إلى الأعمال الصالحة والطاعات الزاكية ، يعرف من خلاله الثواب والعقاب والترغيب والترهيب ، وعمل أهل الجنة وعمل أهل النار ، يعرف فيه فرائض الإسلام وواجبات الدين ومستحباته ورغائبه ، ويعرف من خلاله المحرمات والآثام والكبائر والمكروهات ، ولا يزال العلم يضيء له طريق الخير ودروب الصلاح ، ولا يزال بسلوك العلم يترقى في رتب الخير ومنازله ولهذا قال "من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهَّل الله له به طريقاً إلى الجنة "

وتسهيل طريق الجنة لطالب العلم واضح في العلم من جهات كثيرة ؛ لأن العلم به تُعرف الفضائل ، وبه تُعرف الزواجر والعقوبات ، وبه تُعرف الأعمال الصالحات ، وبه يميز الإنسان بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والسنة والبدعة ، وبه يعرف المنكرات والمحرمات ، وبه يعرف العقوبات ؛ كل هذه الأمور إنما تُعرف بالعلم ؛ ولهذا إذا شاع الجهل في مجتمع من المجتمعات ؛ عمّت فيه المنكرات وكثرت الشرور وقلت فيه الطاعات ، وكثرت البدع وفشا السحر والضلال وأنواع الظلمات ، وإذا سطع نور العلم في البلد انحسرت هذه الأباطيل وعمّ فيه الخير ؛ وبهذا يُعرف أيضاً مكانة أهل العلم وعظم أثرهم على البلدان التي يكونون فيها ؛ وقد قيل قديماً لولا تسخير الله للعلماء لكان الناس مثل البهائم أي لا يعرفون شيئاً ، لا من الفرائض ولا من الواجبات ولا من الثواب ولا من العقوبات ..

لكن إذا سخر الله سبحانه وتعالى لأهل البلد عالماً ينير لهم الطريق ويدلهم إلى الحق ويحذرهم من الضلال والباطل فإن الخير يشيع في البلد ، والباطل ينحسر كما قال الله سبحانه {وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً} ولهذا كان متأكداً على أهل القرى والمدن التي يفسو فيها الجهل ويكثر الضلال والبدع أن ينتدب بعض الأخيار في التفرغ لطلب العلم والتزود من معينه {فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم} .

فالعلم نور وضياء لصاحبه ، والعالم في مجتمعه نورٌ لنفسه ونورٌ لغيره ، ومثل العالم مثل رجل مع قوم في أرض مظلمة معتمة بالظلام وفيها الحفر وفيها الهوام والحشرات وفيها الأشواك ، ثم أمسك مصباحاً ومشى أمامهم قائلاً من هنا الطريق ، فإذا مشوا معه في هذا النور . نور العلم . فإنهم يأمنون بإذن الله من العثرة ومن الزلة ويكونون على هدى مستقيم وطريق قويم ؛ فالعلم نورٌ وضياء وهو سبيل إلى الجنة .

قال " وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفّتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده " : هذه أربعة فضائل عظيمة للغاية يظفر بها من أكرمهم الله سبحانه وتعالى بالجلوس في بيت من بيوت الله ليتفقه في دينه وفي كتاب الله جلال وعلا ؛ قال

" وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله و يتدارسونه بينهم " فيجمعون بين القراءة والفهم والتدبر لكلام الله سبحانه وتعالى قال الله تعالى { كُتِبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ } وقال تعالى { أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ } وقال تعالى { أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ } فإذا اجتمعوا على تلاوة القرآن ومدارسة القرآن ومذاكرة معانيه ومضامينه ودلالاته متدبرين متفقهين بنية العمل بالقرآن فإنهم بذلك يكونون تالين لكتاب الله حق التلاوة لأن ذلك إنما يكون بالقراءة والتدبر والعمل ، فإذا كان هذا شأنهم مجتمعين في بيت من بيوت الله على قراءة القرآن ومدارسته والتفقه فازوا بهذه الثمار العظيمة والآثار المباركة التي ذكرها النبي ﷺ في هذا الحديث .

الأولى : " نزلت عليهم السكينة " والسكينة أمرٌ وأنسٌ وراحةٌ في القلب ، ينزله الله جل وعلا مناً وتفضلاً منه على من حصل منهم هذا الاجتماع ، ينزلها الله سبحانه وتعالى على قلوب المجتمعين في بيوت الله على مدارسة القرآن والتفقه في معانيه ودلالاته .

يحصل بذلك لقلوبهم طمأنينة وسكوناً وراحةً كما قال الله تبارك وتعالى { أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ } فيطمئن القلب ويزول عنه اضطرابه وقلقه ويزول عن القلب تشوشه ، ويصبح القلب ساكناً ومطمئناً .

الثاني : قال " وغشيتهم الرحمة " أي رحمة الله سبحانه وتعالى ، ومعنى غشيتهم أي عمتهم وشملتهم ، فيفوزون بهذا الفضل العظيم بأن تغشاهم رحمة الله سبحانه وتعالى . والمؤمن عندما يدخل المسجد ويسمي عند الدخول يسأل الله عز وجل أن يفتح له أبواب الرحمة ، وهذا يقوله عند باب المسجد عندما يدخل ، وهذا فيه أن في المسجد أبواب الرحمة ، وأن في المسجد مجالات عظيمة يفوز فيها العبد برحمة الله جل وعلا وأعظم ذلك الصلاة المكتوبة ، ومن ذلكم الجلوس في المساجد تفقهاً في الدين ومدارسة للقرآن الكريم ومذاكرة لسنة النبي ﷺ

• الله وسلامه عليه

الثالث : " وحفتهم الملائكة " أي تحفهم بأجنحتها وتحف المكان الذي هم مجتمعون فيه ، وهذا نستفيد منه فائدة أن أثر الإيمان بالملائكة وهو إيمان بأمر غيبي على سلوك العبد وعمله ، والمؤمن يزيده هذا الإيمان حرصاً على الخير ورغبة فيه ، وطالب العلم إذا استشعر أن المجلس

محفوظ بالملائكة الكرام الطيبين الطاهرين الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون يُسرُّ بذلك ويسعد بهذا الأثر المبارك ، وقد جاء في الحديث الآخر " إن لله ملائكة فضلاء يجوبون فإذا وجدوا مجلس ذكر قالوا هلم حاجتنا ثم حفوه وأحاطوا به "

وهذا أمرٌ وإن كان من يجلس في حلقة العلم لا يراه إلا أن المؤمن منه على يقين بخبر الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه ومثله قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث الآخر " وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع " .

وقد ذكر بعض أهل العلم عقوبات معجلة لمن يسخر من مثل ذلك - عياداً بالله - أو يتهمهم بمثل هذه الأحاديث - لكونه لا يرى - ، مخرجاً بذلك نفسه عن أخص صفات أهل الإيمان وهو الإيمان بالغيب { هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب } ومن ذلكم ما ذكره بعض أهل العلم أن رجلاً من هؤلاء الساخرين المستهزئين صنع لنفسه حذاءً في أسفله مسامير وأخذ يمشي ، وكان منظره غريباً ؛ وأخذ يمشي بجوار بعض طلاب العلم ؛ فسأله بعض الناس قالوا ما تصنع يا فلان ؟ فقال ساخراً مستهزئاً : أظأ أجنحة الملائكة ؛ فتسمرت من حينه قدماءه . وهذه عقوبة معجلة ، ومن سلم منها لم يسلم من العقوبة المؤجلة يوم القيامة للساخرين المستهزئين المتهمكين بكلام الله وكلام رسوله صلوات الله وسلامه عليه .

وعلى كلٍ فهذه فضيلة عظيمة ومنة كبيرة ينعم بها طالب العلم في مجلس العلم أن ملائكة الرحمة تحف المكان الذي هم فيه .

الرابع : " وذكرهم الله فيمن عنده " وهذه فضيلة عظيمة ومنة كبرى يفوزون بها .

" ذكرهم الله " كفى فضلاً وشرفاً ونعمة لطالب العلم أن يفوز بهذا الفضل العظيم ، وأن رب العالمين جل وعلا الغني الحميد يذكره عنده في الملأ الأعلى ، عند الملائكة الكرام الأطهار البررة ، ونضير هذا ما جاء في صحيح مسلم عن معاوية رضي الله عنه قال " بين نحن جلوس في المسجد حلقة نتذاكر إذ خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال " ما أجلسكم ؟ قلنا جلسنا نذكر الله وما من الله علينا به أو نذكر الإسلام وما من الله علينا به فقال عليه الصلاة والسلام ما أجلسكم إلا ذلك ؟ - يستحلفهم بالله - قلنا

والله ما أجلسنا إلا ذلك ، قال عليه الصلاة والسلام أما والله إني لم أستحلفكم تهمه لكم ولكن أتاني جبريل آنفاً فأخبرني أن الله يباهي بكم ملائكته " .

فهذا فضلٌ عظيم جداً وكفى به فضلاً ونبلاً وشرفاً لمن يكرمه الله سبحانه وتعالى ويمن عليه بالجلوس في بيوت الله لمداينة القرآن والفقه في دين الله ومذاكرة أمور الإسلام .

" وذكرهم الله فيمن عنده " : أي ذكره الله جل وعلا في الملائكة وأثنى على عبده في الملائكة والملا الأعلى .

" ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه " : وهذه الخاتمة التي ذكرها النبي عليه الصلاة والسلام عقب ذكره للعلم وفضله والجلوس في حلقه ومجالسه ؛ ذكره عليه الصلاة والسلام لهذا الفضل فيه التنبيه على مقصود العلم والغاية من مجالسه ، كما قال علي رضي الله عنه " يهتف بالعلم العمل فإن أجابه وإلا ارتحل " ، فالعلم مقصوده العمل ، وإذا كان من يطلب العلم يطلبه ولا همة له في العمل ولا عزيمة عنده عليه ولا رغبة له فيه ؛ فعلمه وبأل عليه ، وحجة عليه ، وقد مر معنا قول النبي عليه الصلاة والسلام " القرآن حجة لك أو عليك " وقوله عليه الصلاة والسلام " إن الله يرفع بهذا القرآن أقواماً ويضع آخرين " والحديثان في صحيح مسلم .

فالعمل مقصود العلم والمسلم يتعلم ليعمل ، والله جل وعلا بعث نبيه عليه الصلاة والسلام بالأمرين - بالعلم والعمل - كما قال تعالى { هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق } الهدى هو العلم النافع ودين الحق هو العمل الصالح وبهما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم وكلاهما مطلوب ، وإذا جمع العبد بينهما كان من المنعم عليهم ، وإذا أخل بالعلم كان من الضالين ، وإذا أخل بالعمل كان من المغضوب عليهم ؛ قال الله تعالى { اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين } .

فالمنعم عليهم من جمعوا بين العلم والعمل ، والضال من عمل بلا علم ، والمغضوب عليه من عنده علم لا يعمل به ؛ ولهذا ختم النبي عليه الصلاة والسلام الحديث ببيان فضل العمل ومكانته

قال " ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه " : يعني لو كان نسيباً وشريفاً النسب إذا بطأ به عمله ؛ فنسبه لا يسرع به ليفوز بالثواب وينجو من العقاب ؛ قال الله تعالى { فإذا نفخ في الصور فلا

أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون .

قال الشيخ عبد المحسن العباد :

[الأول : قوله " مَنْ نَفَسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ " :
الكُرْبَةُ هي الشدَّة والضيق، وتنفيسها إزالتها، والجزاء على تنفيس كربة في الدنيا أن ينقَس عنه
كُرْبَةٌ مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، والجزاء من جنس العمل، ولا شكَّ أَنَّ الجزاء فيه أعظم؛ لشدَّة
كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وعظم الفائدة للمكروب في تنفيسها] .

الشرح..

قوله صلوات الله وسلامه عليه في الجملة من الحديث " من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة " : أي أن التنفيس بتنفيس ، الجزاء من جنس العمل ، والجزاء - الذي هو التنفيس يوم القيامة - أعظم لأنه كرب يوم القيامة أمرها مهين وشأنها عسير ، وإذا حصل له التنفيس في ذلك اليوم العظيم فلا شك أن الأمر أكبر وأجل من التنفيس الذي يكون للإنسان في الحياة الدنيا .

[الثاني : قوله " وَمَنْ يَسِّرْ عَلَى مُعْسِرٍ يَسِّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ " ، وهذا أيضاً الجزاء فيه من جنس العمل، والعمل هو التيسير على المعسر، وذلك بإعانتته على إزالة عُسرته، فإن كان مَدِيناً ساعده بإعطائه ما يقضي به دينه، وإن كان الدَّيْن له أنظره إن لم يُبرئه منه ، والإبراء خيرٌ من الإنظار لقول الله عزَّ وجلَّ: { وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } ، وقد بيَّن صلوات الله وسلامه عليه أَنَّ الجزاء على التيسير تيسيرٌ يحصل في الدنيا والآخرة] .

الشرح..

المعسر من عليه دين وفي ذمته للناس حقوق ولكنه عاجز وغير قادر على الوفاء والسداد فصار معسراً

والتييسير عليه إما أن يكون من صاحب الدين نفسه ؛ وهذا له حالتان : إما أن يصبر ويقول له متى تيسرت لك الأمور تسدد ، أو يعفيه من الدين كله أو جزء منه .

أو يكون التيسير من شخص آخر بإعائه على قضاء الدين أو بسداده عنه .

فهذا كله من التيسير والثواب عند الله تبارك وتعالى والجزاء من جنس العمل .

[الثالث : قوله: "وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ" ، وهذا أيضاً العمل فيه ستر في الدنيا، والجزاء عليه سترٌ في الدنيا والآخرة، والسترُ هو إخفاء العيب وعدم إظهاره، فَمَنْ كان معروفاً بالاستقامة وحصل منه الوقوع في المعصية نوصِّحْ وستر عليه، وَمَنْ كان معروفاً بالفساد والإجرام، فَإِنَّ السَّيْرَ عليه قد يَهْوَنَ عليه إجرامه، فيستمر عليه ويتمادى فيه، فالمصلحةُ في مثل هذا عدم الستر عليه؛ ليحصل له العقوبة التي تزجره عن العَوْدِ إلى إجرامه وعدوانه] .

الشرح..

ستر العيب الذي قد يقع من الإنسان أمرٌ يطلبه كل إنسان لنفسه ويحب لنفسه ذلك ؛ ولهذا من الدعاء المأثور الذي يستحب للمسلم أن يواظب عليه في صباحه ومساءه : " اللهم استر عوراتي وآمن روعاتي.. " فهذا أمرٌ يطلبه المسلم لنفسه .

والعورات هي ما يسوؤه انكشافه من أمره وحاله ولا يسره ذلك ، والإنسان عرضة لفعل أمور وأعمال لا يسره أن يُطلع عليها ، فإن وقعت عليها عين أو سمعت بها أذن لا يجب ممن وقعت عينه على عيبه أو سمع به أن يذيعه ؛ فإذا عامل الآخرين بما يجب أن يعامل به فستر ما يقع عليه ويقف عليه من عيوبهم ستره الله جل وعلا في الدنيا والآخرة ، والجزاء من جنس العمل .

وكما بيَّن أهل العلم يستثنى من ذلك إذا كان العيب الذي وقف عليه إفساد بالناس وإضرار بهم وجناية على الآخرين ؛ فهذا السكوت عنه يترتب عليه تمادي الشخص في باطله

واستمراره في جنائياته وتعدياته ؛ فمثل هذا وبناءً على قاعدة الشريعة درء المفسد ورفع الضرر عن الآخرين والعدوان عليهم؛ الواجب هنا بيان ذلك لمن بيده الأمر حتى يُوقف ويمنع

[رابعاً : قوله : " والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه " ، هذا فيه الحثُّ على إعانة المسلم أخاه المسلم، وأنه كلما حصل منه العون لإخوانه فإنه يحصل بذلك عون الله وتسديده، وهي كلمة جامعة من جوامع كلم الرسول صلى الله عليه وسلم .

الشرح..

قوله صلوات الله وسلامه عليه " والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه " : هذه الكلمة من جوامع الكلم ، عمّت جميع أبواب النفع للناس وإيصال الخير لهم ؛ فمادام العبد ساعياً في عون الآخرين ومصلحهم وحاجتهم فالله جل وعلا في عونه ، ومن كان الله في عونه كفاه الله ويسّر له أموره وأعانه في مصالحه وأعماله وحاجاته .

ولهذا يذكر كثيرٌ من الناس أن يحصل منه معاونته لأحد إخوانه ثم يجد نفسه يوماً من الأيام في مثل الموقف الذي كان فيه أخوه فيجد من يعينه - ربما إعانة أحسن من إعانتة لأخيه - ؛ فالله جل وعلا ييسر له أموره من حيث لا يحتسب ؛ فطالما أن العبد يعمل على عون أخيه وإيصال الخير لإخوانه فالله في عونه.

وهذا الباب - باب الجزاء من جنس العمل في الإحسان والإساءة - بابٌ واسع دلت عليه دلائل كثيرة في القرآن والسنة ، وللشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله في مجموع خطبه ؛ خطبه بليغة وجامع في هذا الباب ، وساق فيها جملة طيبة من الأمور التي هي مندرجة تحت هذا الباب مما دُكر في هذا الحديث ودُكر في أحاديث ونصوص أخرى وردت في هذا الباب ، وهي في مجموع خطبه رحمه الله مجموعة في مجلد واحد، وهي خطب قصيرة لكنها جامعة ونافعة للغاية ، منها خطبة بعنوان: الجزاء من جنس العمل .

[خامساً : قوله: " وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ " ، فيه الحثُّ على طلب العلم الشرعيّ وسلوك الطرق الموصلة إلى تحصيله، سواء كان ذلك بالسفر لطلبه؛ أو بالأخذ بأسباب تحصيله، من اقتناء الكتب المفيدة وقراءتها والاستفادة منها، وملازمة العلماء والأخذ عنهم وغير ذلك، والجزاء على ذلك من الله تسهيل الطريق التي يصل بها طالب العلم إلى الجنة، وذلك يكون بإعانتته على تحصيل ما قصد، فيكون بذلك محصلاً للعلم، ويكون أيضاً بإعانتته على العمل بما علمه من أحكام الشريعة، وذلك يفضي به إلى دخول الجنة.

الشرح..

هذا فيه أن من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة ، والتيسير هنا تناول تيسير الطلب وتيسير العمل ، والله عز وجل ييسر لعبده هذا وهذا (ولقد يسرنا القرآن للذكر) فييسر له القراءة وييسر له الحفظ وييسر له الفهم وييسر له العمل ، وكلما أقبل على هذا الباب بلغه الله سبحانه وتعالى ما قصد من العلم وما يترتب على العلم من عمل ، وما يترتب على ذلك من ثواب في الدنيا والآخرة.

[سادساً : قوله: " وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفّتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده"

بيوتُ الله هي المساجد، وإضافتها إلى الله إضافة تشريف، والمساجد هي أحبُّ البلاد إلى الله؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: " أحبُّ البلاد إلى الله مساجدها، وأبغض البلاد إلى الله أسواقها " رواه مسلم .

وفيه الحثُّ على الاجتماع في المساجد لتلاوة القرآن وتدارسه، ويكون ذلك بقراءة أحد المجتمعين والباقيون يسمعون، وبقراءتهم بالتناوب ليقوم بعضهم بعضاً في القراءة، ويستفيد كلُّ واحد منهم من غيره ما يحصِّل به إجادة القراءة وتدارك الخطأ إن وُجد، وإذا كان فيهم عالم بتفسيره علّمهم، وإن كانوا من أهل العلم فيه تدارسوا معانيه، ورجعوا في ذلك إلى كتب التفسير في الرواية والدراية المبنية على ما كان عليه سلف هذه الأمة، والجزاء على الاجتماع في المساجد لتلاوة القرآن وتدارسه أربعة أمور، هي: نزول السكينة عليهم والطمأنينة، وأنَّ

الرحمة تغشاهم، أي تشملهم وتغطيهم، وأن الملائكة تحفهم أي: تحيط بهم، وأن الله تعالى يذكرهم عند الملائكة]

الشرح..

هذه الجملة " وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله " هذا فيه بيان فضل الاجتماع في بيوت الله على مدارس القرآن وقراءته ومذاكرة معانيه على الوصف الذي مرر معنا وأن هذا يثمر ثمرات عظيمة ذكرها النبي ﷺ في قوله "إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده " .

وفي إضافة البيوت - التي هي المساجد - إلى الله تشریف للمساجد وبيان فضلها ومكانتها عند الله جل وعلا ، فالإضافة هنا تقتضي التشریف ، وقد صح في الحديث عن النبي ﷺ أن المساجد أحب البقاع إلى الله سبحانه وتعالى .

[سابعاً : قوله: " وَمَنْ بَطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يَسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ " المعنى: مَنْ أَخَّرَهُ عَمَلُهُ عَنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ لَمْ يَسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ إِلَى دُخُولِ الْجَنَّةِ ؛ لِأَنَّ الْمُعْتَبَرَ فِي ذَلِكَ الْإِيمَانَ وَالتَّقْوَى، كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: { إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ } قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم : " معناه أَنَّ الْعَمَلَ هُوَ الَّذِي يَبْلُغُ بِالْعَبْدِ دَرَجَاتِ الْآخِرَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:

{ لِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا } فَمَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ أَنْ يَبْلُغَ بِهِ الْمَنَازِلَ الْعَالِيَةَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى لَمْ يَسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ فَيَبْلُغُهُ تِلْكَ الدَّرَجَاتُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ رَتَّبَ الْجَزَاءَ عَلَى الْأَعْمَالِ لَا عَلَى الْأَنْسَابِ كَمَا قَالَ تَعَالَى { فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ } إِلَى أَنْ قَالَ: وفي هذا المعنى يقول بعضهم:

لعمرك ما الإنسان إلا بدينه فلا تترك التقوى اتكالا على النسب
لقد رفع الإسلام سلمان فارس وقد وضع الشرك النسيب أبا لهب [.

الشرح..

ختم النبي ﷺ هذا الحديث المبارك بقوله "من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه" ؛ فيه بيان لمكانة العمل ، وأن العمل مقصود العلم ، وأيضاً فيه بيان أن ثواب الآخرة ودخول الجنة إنما يكون بالعمل والإيمان والتقوى والطاعة ، وقد مر معنا قوله تعالى { ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون } وفي الحديث " لن يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة" والأحاديث في هذا كثيرة .

فقوله "من بطأ به عمله" : أي أخره عمله بسبب أنه لا يعمل ، فلو كان ذا نسب لم يسرع به نسبه؛ أي نسبه لا يرفعه إذا كان عمله قد بطأ به وأخره ، وهذا فيه تنبيه وهو أن الإنسان عليه أن لا يغتر لا بنسب ولا بجاه ولا بمكانة ولا بغير ذلك من الأمور ؛ لأن الذي يبطئ به عمله أي يؤخره عن الجنة والفوز بثواب الآخرة النسب لا يسرع به والأمر الأخرى أيضاً لا تسرع به . كالجاه والمكانة والرئاسة والسلطان . فكل هذه لا تسرع به .

وهذا المعنى واضح في الآية الكريمة { فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون } ولهذا أورد ابن رجب رحمه الله في هذا المقام بيتين فيهما تعبير بليغ عن هذا المعنى وهي قول بعضهم :

لعمرك ما الإنسان إلاً بدينه : يعني لا بشيء آخر لا بنسبه ولا بجاهه ولا برئاسته ولا بمكانته فلا تترك التقوى اتكالا على النسب : إذا كان لك نسب شريف وفاضل فلا تتكل عليه وتترك التقوى ، والله سبحانه وتعالى يقول { يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم } وفي حجة الوداع قال عليه الصلاة والسلام "كلكم من آدم وآدم من تراب ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأسود على أحمري ولا لأحمري على أسود إلا بالتقوى" .

ولهذا يقول في البيت الثاني :

لقد رفع الإسلام سلمان فارس وقد وضع الشرك النسيب أبا لهب .

سلمان رضي الله عنه رجل من فارس رفعه الله المكانة العلية بالإسلام ، وأبو لهب معروف نسبه وقربته للنبي ﷺ لكن الشرك وضعه (تبت يدا أبي لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى نارا ذات لهب)

[ثامناً : ممّا يُستفاد من الحديث :

أولاً : الترغيب في تنفيس الكرب في الدنيا، وأنّ الله تعالى ينقّس بها كرب يوم القيامة.

ثانياً : أنّ الجزاء من جنس العمل، فالعمل تنفيس كربة، والجزاء تنفيس كربة.

ثالثاً: الترغيب في التيسير على المعسرّين، وأنّ الجزاء عليه تيسير في الدنيا والآخرة.

رابعاً : الترغيب في ستر العيوب حين تكون المصلحة في سترها، وأنّ الجزاء عليها ستر في الدنيا والآخرة.

خامساً: الحثُّ على إعانة المسلم أخاه المسلم، وأنّه كلّما حصل منه العون لإخوانه فإنّه يحصل بذلك عون الله وتسديده.

سادساً: بيان فضل طلب العلم الشرعي.

سابعاً: فضل الاجتماع في المساجد لتلاوة القرآن وتدارسه.

ثامناً : أنّ الإيمان والعمل الصالح سبب دخول الجنّة وبلوغ الدرجات العالية عند الله عزّ وجلّ.

تاسعاً : أنّ شرف النّسب بدون عمل صالح لا يفيد صاحبه عند الله.

سبحانك اللهم و بحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، اللهم صلّ وسلّم على عبدك
ورسولك نبينا محمد و آله وصحبه

* * *

الدرس الثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .
أما بعد ..

الحديث السابع والثلاثون

عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى قال: " إِنَّ اللَّهَ
كُتِبَ الْحَسَنَاتُ وَالسَّيِّئَاتُ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً
كَامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمَلُهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضَعَفَ إِلَى أَضْعَافٍ
كَثِيرَةٍ، وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمَلُهَا كَتَبَهَا اللَّهُ
سَيِّئَةً وَاحِدَةً " رواه البخاري ومسلم في صحيحهما بهذه الحروف .

الشرح..

هذا الحديث حديثٌ قدسي نضير حديث أبي ذر رضي الله عنه المتقدم ، ونضير حديث أنس بن
مالك الآتي في آخر الأربعين " يا ابن آدم إنك ما دعوتني .. الحديث " ، وفي حديث ابن عباس
هذا وحديث أبي ذر المتقدم ؛ صيغة الرواية للحديث : عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال فيما يرويه عن
ربه وصيغة الرواية في حديث أنس الآتي : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قال الله تعالى .
فهاتان صيغتان لرواية الحديث القدسي ، وبهما يُعرف أن الحديث حديثٌ قدسي ، والحديث
القدسي الكلامُ فيه كلامُ الله ، لفظه ومعناه من الله تعالى ؛ ولهذا الكلامُ الذي يرد في
الحديث القدسي مثل قوله " يا عبادي " وغير ذلك مما يأتي في الأحاديث القدسية من خطابات
لا تكون إلا من الله ، ولا يمكن أن تقع من الرسول الملكي أو الرسول البشري ؛ بل هي كلام
الله تبارك وتعالى ، فالحديث القدسي هو كلام الله جل وعلا لفظه ومعناه ، والنبي صلى الله عليه وسلم
يرويه عن الله تعالى .

وهذا الحديث حديثٌ قدسي عظيم في بيان كمال فضل الله وكمال عدله جل وعلا ؛ كمال فضله بالإنعام بوافر الثواب وجزيل الأجر وعظيم الإكرام لعباده المؤمنين ، وكمال عدله بمعاقبة العاصي ؛ فهو جل وعلا لا يجازي على السيئة إلا بالمثل ، جزاءً سيئةً بمثلها ولا يضاعف له عدد العقوبات وأنواع العقوبات على السيئة ، وإنما يجازي على السيئة بعقوبة واحدة مثل ما يأتي في الحديث . كُتبت له سيئة واحدة - بينما الحسنة تُكتب له حسنات إذا عملها .

فباب الحسنات كما هو واضح في الحديث يظهر فيه كمال فضل الله على عباده الطائعين المحسنين ، وباب السيئات يظهر فيه كمال عدل الله وأنه جل وعلا لا يكتب على المسيء إلا ما فعل ، ويعاقبه في حدود معصيته وحدود ذنبه إن لم يعف عنه تبارك وتعالى والأمر بمشيئته كما قال جل وعلا { إن الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء } .

فالحديث فيه بيان كمال فضل الله وكمال عدله ؛ كمال فضله في باب الحسنات والثواب ، وكمال عدله في باب السيئات والعقاب ، وأنه جل وعلا لا يظلم أحداً ولا يخاف أحداً عنده جل وعلا ظلماً ولا هضمًا .

قال فيما يرويه عن ربه " إن الله كتب الحسنات والسيئات " ثم بيّن ذلك : هذا إجمال في أول الحديث وتفصيل الإجمال يأتي في الحديث نفسه ؛ ولهذا قال "ثم بيّن ذلك" ، وهذا كما قال أهل العلم يؤخذ منه فائدة في باب التعليم وهي أن الإجمال أولاً بين يدي التفصيل نافع للمتعلم ومفيد له ، وأمكن له في الفائدة وضبطها ؛ ولهذا في هذا الحديث أجمل الأمر في الأول ثم فُصل ؛

أجمل في قوله "إن الله كتب الحسنات والسيئات" ما تفصيل هذه الكتابة ؟ يأتي بيان ذلك في الحديث ؛ ولهذا قال " ثم بيّن ذلك " .

والكتابة هنا كتابة الحسنات والسيئات فعلاً وعقوبة مقدرة لها في اللوح المحفوظ ، " كتب ذلك " أي في اللوح المحفوظ ؛ فيكون المعنى أن الله جل وعلا كتب في اللوح المحفوظ الحسنات والسيئات أي فعل الناس لها ، وأيضاً كتب العقوبة في اللوح المحفوظ على التفصيل الذي ورد وبيّن في هذا الحديث ،

أو أن الكتابة - كتابة الملك - لحسنات العبد وسيئاته كما سيأتي في الحديث الذي في صحيح البخاري يقول الله "إذا أراد عبي أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها فإن عملها فاكذبوها له بمثلها وإن تركها من أجلي فاكذبوها له حسنة" .

فيحتمل هذا وهذا ، ولا يمنع أن يكون متناولاً لذلك كله ؛ لأن كتابة الملائكة ليست خارجة عن الكتابة التي كُتبت في اللوح المحفوظ ، والذي كُتب في اللوح المحفوظ تقدير عام ، والذي يكتبه الملك تفاصيل ذلك التقدير فهي داخلة فيه وليست خارجة ؛ فلا يمنع أن يكون الحديث متناولاً لهذا وهذا .

بيّن التفصيل الذي يأتي في الحديث أن كتابة الحسنات والسيئات متناولة لكتابتها وقوعاً من العبد ومتناولة لثوابها إن كانت حسنة أو عقوبتها إن كانت سيئة ، فالله جل وعلا كتب ذلك كله فيما يتعلق بوقوعها من العبد وفعل العبد لها جاء في الحديث "إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة" ، وكتابة المثوبة أو العقوبة على ذلك أمرٌ فُصِّل في البيان الآتي في الحديث .

قال "ثم بيّن ذلك" : هذا بيان بعد إجمال ، وهذا من حسن التعليم و البيان ؛ أن يُجمل ذكر العلم أولاً ثم يُفصّل ليكون أمكن في ضبطه وفهمه وإتقانه .
قال "فمن همّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنه حسنة كاملة" هذا الأمر الأول .
"وإن همّ بما فعلها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة" هذا الأمر الثاني .

"وإن همّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة" هذا الأمر الثالث .
"وإن همّ بما فعلها كتبها الله سيئة واحدة" الأمر الرابع .
فهذا هو بيان الإجمال الذي صُدّر به الحديث بقوله "إن الله كتب الحسنات والسيئات" ، ففُصِّلَت هذه الكتابة إلى أربعة أقسام فيما يتعلق بالحسنات وفيما يتعلق بالسيئات .
وفي هذه الأقسام الأربعة يظهر كمال فضل الله في باب الحسنات وكمال عدله في باب السيئات ..

وألفاظ الحديث لها أهمية بالغة في تقرير هذا الأمر وبيانه ؛ أعني بيان كمال فضل الله وكمال عدله ؛ ولهذا ينبغي أن يُنتبه لألفاظ الحديث ؛ - كتبت حسنة كاملة كتبت سيئة واحدة - هذه الألفاظ لها مدلول عظيم جداً ولهذا الإمام النووي رحمه الله تعالى من أجل أن يُشعر بأهمية الألفاظ وعظيم مكانتها ودلالاتها على هذا الباب العظيم قال : " رواه البخاري ومسلم في صحيحهما بهذه الحروف " ؛ فلماذا قال ذلك مع أن الأحاديث التي مضت بالحروف نقلها ؛ فلماذا نص هنا وقال بهذه الحروف ؟ لينبه على المعنى العظيم ، وعندما تقرأ مثلاً " كتبتها الله عنده حسنة كاملة " ، أو تقرأ في السيئة " كتبتها الله سيئة واحدة " ؛ فهذه الحروف لها أهميتها في بيان كمال الفضل وبيان كمال العدل . فالنوّي رحمه الله أراد أن ينبه على مكانة هذه الحروف ودلالاتها العظيمة على بيان فضل الله وكمال عدله سبحانه وتعالى

ولم يكتف بهذا بل إنه سطر كلمات رائعات رحمه الله عقب هذا الحديث ؛ قال رحمه الله تعالى :

" فانظر يا أخي وفقنا الله وإياك إلى عظم لطف الله تعالى وتأمل هذه الألفاظ وقوله "عنده" ؛ إشارة إلى الاعتناء بها ، وقوله "كاملة" للتوكيد وشدة الاعتناء بها ، وقال في السيئة التي همّ بها ثم تركها كتبها الله عنده حسنة كاملة ؛ فأكدّها بكاملة ، وإن عملها كتبها الله سيئة واحدة ؛ فأكدّ تقليلها بواحدة ولم يؤكّدها بكاملة ؛ فله الحمد والمنة سبحانه لا نحصى ثناءً عليه ، وبالله التوفيق .

الشرح ..

هنا أراد الإمام النووي رحمه الله تعالى أن ينبه طالب العلم عند قراءته لهذا الحديث العظيم لينتبه إلى مدلولات ألفاظه ، وأن ألفاظه ولا سيما المؤكّدات التي وردت في تمام هذه الجمل لها مدلولها العظيم في بيان كمال فضل الله في باب الحسنات ، وكمال عدل الله تبارك وتعالى في باب المعاصي والسيئات .

الأمر الأول في هذه الأمور الأربعة

قال " فمن همّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة " : المراد بالهمّ عزم القلب على فعلها لا مجرد حديث النفس ؛ وإنما حصل عنده عزم في قلبه أن يعمل الحسنة ، لكن حال بينه وبينها أمرٌ أو حائلٌ أو مانعٌ ؛ مثل شخص عزم أن يصوم يوم الإثنين وعقد العزم على

ذلك ورثب نفسه على هذا الأمر ؛ لقيه بعد العشاء أحد زملائه وقال له غداً عندي مناسبة وأرغب أن تشاركنا في الغداء فلبّي له ؛ فثُكِّب له حسنة إذا كان عزم على ذلك .

وكذلك إذا حال بينه وبين الأشياء التي عزم عليها مرضٌ أو سفر ؛ كُتِب له ما كان يعمل صحيحاً مقيماً ؛ فإذا كان العبد عازماً على الحسنة ولم يتمكن من فعلها ولم يتيسر له فعلها قال " كُتِبَت له حسنة " ؛ فلم يقل " واحدة " وإنما أكَّد كتابتها بقوله " كاملة " تأكيداً وبيانا أن الحسنة تُكْتَب له حسنة لا نقص فيها .

وهذا المقام مقام بيان فضل الله سبحانه وتعالى وأنه إذا حصل عنده نية وعزم على فعل العمل ثم لم يتيسر له القيام به لأمرٍ منعه من ذلك أو حال بينه وبين فعل ذلك ؛ فإنها تُكْتَب له حسنة كاملة ؛ وهذا يدل على كمال فضل الله سبحانه وتعالى على عباده .

قال " وإن همَّ بها فعملها كتبها الله عنده " : يعني حصل عنده هم وتبع الهم عمل ، أيضاً انتبه لكلمة " عنده " ففيها تشريف وتعلية .

" كتبها الله عنده عشر حسنات " ويقول الله تعالى { من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها } .

" إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة " : وهذا فيه أن باب التضعيف لكتابة الحسنات والمثوبة عليها باب مضاعفة ، وانظر التضعيف والانتقال من عشر إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة . وهنا ينبغي للعابد أن يذكر في هذا المقام كرم الله سبحانه وتعالى وعظيم فضله على عباده المحسنين ، وفي الحديث " أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء " .

والمعطي هو الله جل وعلا الكريم الوهاب المحسن المنعم جل وعلا .

فباب الحسنات والطاعات المثوبة فيه وسعة الأجر والمثوبة بابٌ لآخر له ،

في صحيح البخاري " إذا تصدق العبد بعدل ثمرة من كسب طيب والله لا يقبل إلا طيباً تقبلها الله منه يمينه ورباها له كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله حتى يجدها يوم القيامة مثل الجبل " ؛ هذا المثل يدركه من له عناية بالخيّل وحب لتربية الخيل ، وكيف أن الخيل إذا أنتجت فلواً أو فصيلاً صغيراً كيف أن صاحبه يتعاهده معاهدة عجيبة ويعتني به عناية عظيمة جداً ..

فعدل ثمرة من كسب طيب تنمو وتضاعف وتُرَبَّى لصاحبها حتى يجدها يوم القيامة مثل الجبل ؛ فباب الحسنات باب مضاعفة وباب كرم وفضل ومن وعطاء ؛ يظهر فيه كمال فضل الله سبحانه وتعالى على عباده المؤمنين ، وما أعد لهم من عظيم المثوبة وواسع الأجر وجزيل

الإنعام ، والتضعيف هنا للحسنات إلى أضعاف ؛ أيضاً دلت النصوص أن ثمة إعتبارات تلحق العمل تزيد في المضاعفة - إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة - من ذلكم شرف الزمان وفي الحديث " ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من هذه العشر " . أي العشر الأول من ذي الحجة . ، أيضاً شرف المكان ، وفي الحديث فالصلاة في هذا المسجد بألف ، والصلاة في عموم المساجد بخمس وعشرين ، فهذا تضعيف بسبب فضل المكان ، وفي مكة بمائة ألف ، تضعيف بفضل المكان وشرفه .

أيضاً ما يكون عليه العبد من قوة الإخلاص والصلة بالله والصدق معه ؛ فقليل العمل بإخلاص قوي وثقة كاملة وصدق مع الله يُضاعف إلى ما شاء الله مما لا يخطر ببال ولا يدور في خيال {فلا تعلم نفسٌ ما أُخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون} . فالعمل يُضاعف أضعاف كثيرة وهذا باب فضل والله سبحانه وتعالى واسع الفضل عظيم المن جزيل العطاء جل وعلا .

قال " وإن همَّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنةً كاملة " : أيضاً هذا باب فضل فأكدته بقوله كاملة ؛ تنبيهاً بهذا التأكيد أن العبد بتركه للسيئة يُعد هذا الترك حسنةً تُكتب له كاملة ؛ وهذا مما يبين لنا أن الترك يُعد عملاً ؛ وقد مر معنا حديث صريح في هذا المعنى وهو قوله صلى الله عليه وسلم " من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه " فالحديث فيه دلالة صريحة على أن الترك إسلام ، والإسلام عمل " وترك ما لا يعنيه " المراد به بضابط الشرع ؛ فيتناول ترك المحرمات والبعد عن الآثام ؛ فهذه كلها لا تعني المسلم بحكم الشرع لأن الله سبحانه وتعالى نهى عنها وحرمها عليه ومنعه من فعلها .

فعَدَّ صلوات الله وسلامه عليه الترك إسلاماً وعملاً .

وهذا الحديث أيضاً فيه شاهد لهذا المعنى وهو أن الترك يُعد عملاً يُكتب للعبد ؛ ولهذا قال هنا " وإن همَّ بسيئة فلم يعملها " : أي تركها .

" كتبها الله عنده حسنةً كاملة " : في لفظ للحديث : " فإن عملها فاكتبوها له بمثلها (أي السيئة)

وإن تركها من أجلي فاكتبوها له حسنة " ؛ فالترك عملٌ .

وقوله " لأجلي " : وهي لفظة ثابتة في صحيح البخاري وفي بعض روايات الحديث قال " من جرأني " بمعنى لأجلي ؛ فهذا قيد لا بد منه في هذا الباب لئلا يكتب له حسنة ؛ لأن من هم

بسيئة ولم يعملها لعجزه عن فعلها ؛ مثل شخص أراد أن يسرق وبدأ يعمل للسرقة ثم وجد أن المكان الذي سيسرقه فيه حراسة فتوقف عن السرقة وتركها ولم يسرق ؛ فهذا همّ بسيئة ولم يعملها ؛ فهل تُكتب له حسنة ؟ لا ، الأمر واضح .

أو آخر أراد أن يسرق وجاء بسلم وتبين له أن السلم قصير وترك السرقة لأنه ما عنده إمكانية ليواصل العمل ؛ فلا تُكتب له حسنة ؛

فالذي ترك المعصية لعجز أو لعدم قدرة ؛ فهؤلاء لا تكتب لهم حسنة ؛ بل إذا كان باشر العمل لفعل المعصية لكن العمل لم يتم ؛ فتُكتب سيئة عليه لمباشرة العمل ؛ لكن إذا لم يباشر العمل ؛ كأن يكون همّ أن يسرق وهو في بيته ثم ألغى الفكرة وهو جالس في بيته لم يتركها خوفاً من الله وإنما ألغى الفكرة ؛ فهذا لا تكتب عليه ولا له ؛ لكن بالمباشرة والعمل على ذلك فهذا يكون فعل أمراً استحق عليه العقوبة وباشر المعصية لكنها لم تتم له ، حال بينه وبينها مانع ؛ ويوضح لنا ذلك الحديث في الصحيح - في البخاري وغيره - ذكر فيه النبي عليه الصلاة والسلام " إذا التقى المسلمان بسييفيهما فالقاتل والمقتول في النار ، قالوا يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال لأنه كان حريصاً على قتل صاحبه " فأخذ على هذا الحرص الذي لم تتحقق واقعياً نتيجته .

قال " وإن همّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة " : لا حظ في باب الحسنات يقول "عنده" ؛ وهذه اللفظة نبه عليها النووي حتى يُنتبه إلى ورودها في باب الفضل ، مثل ما جاء في الحديث الآخر القدسي " مرضت فلم تعدني وجعت فلم تطعمني قال مرض عبدي فلان ولو عدته لوجدتني عنده " فقلوه "عنده" يدل على التشريف والفضل والإنعام وعظيم كرامة الله سبحانه وتعالى ومِنّه .

قال " وإن همّ بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة " : لم يذكر هنا "عنده" لأنها تأتي في مقام التشريف والفضل والإكرام ، ولم يقل أيضاً " كاملة " لأن ذكر الكمال في باب الحسنات حتى لا يُتوهم أن فيها شيء من النقص ؛ بل تُكتب سيئة واحدة ، وهذا فيه دلالة على كمال عدل الله سبحانه وتعالى {ولا يظلم ربك أحداً} .

قال الشيخ عبد المحسن العباد في شرح الحديث :

[أولاً : قوله: “ إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، ثُمَّ بَيَّنَّ ذَلِكَ ... ” إلخ، يُحتمل أن يكون المراد بالكتابة تقدير الله عزَّ وجلَّ للأعمال والجزاء عليها على هذا التفصيل، ويُحتمل أن يُراد به كتابة الملائكة للحسنات والسيِّئات بأمر الله عزَّ وجلَّ، كما قال سبحانه { مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ } ويدلُّ لهذا ما جاء في حديث أبي هريرة في كتاب التوحيد من صحيح البخاري: “ إذا أراد عبدي أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها، فإن عملها فكتبوها له بمثلها، وإن تركها من أجلي فكتبوها له حسنة ” ولا تنافي بين الكتابتين؛ فإنَّ كلاً منهما حاصل] .

الشرح ..

" ولا تنافي بين الكتابتين " أي الكتابة التي تكون في اللوح المحفوظ وكتابة الملك فإن كل منهما حاصل ؛ فالله كتب في اللوح المحفوظ المقادير والحسنات والسيئات والملائكة تكتب { مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ } وهذه الرواية للحديث في صحيح البخاري - هذا اللفظ - يوضح ويبين الحديث الذي ساقه الإمام النووي رحمه الله ولا سيما في قوله " وإن تركها من أجلي فكتبوها له حسنة " فهذا فيه أن قوله في حديث أبي هريرة الذي ساقه المصنف " وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة " مقيد بما جاء في الأحاديث الأخرى وهو قوله " من أجلي " لم يعملها لأجل الله ؛ أراد أن يعمل السيئة فذكر الله جل وعلا وامتنع عنها فهذا تكتب له حسنة ، أما إذا تركها لعجزه عنها أو أسباب أخرى مع حرصه عليها فهذا لا يدخل في الحديث ..

[ثانياً : قوله “ فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمَلُهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضَعَفَ، إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ ” أَكَّدَ كِتَابَةَ الْحَسَنَةِ إِذَا هَمَّ بِهَا وَلَمْ يَعْمَلْهَا بِأَنَّهَا كَامِلَةٌ؛ لِئَلَّا يُتَوَهَّمْ نَقْصَانُهَا؛ لِأَنَّهَا فِي الْهَمِّ لَا فِي الْعَمَلِ، وَبَيَّنَّ أَنَّ الْمَضَاعِفَةَ فِي الْفِعْلِ إِلَى عَشْرَةِ أَضْعَافٍ، وَإِلَى مَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ، وَذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَإِحْسَانِهِ إِلَى عِبَادِهِ، وَفِيهِ مَضَاعِفَةُ الْجَزَاءِ عَلَى الْعَمَلِ،

دون الجزاء على الهَمِّ، وهو واضح، وأمّا حديث: " نِيَّةُ الْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ " فهو ضعيف، ذكر ذلك الحافظ في الفتح ، وانظر السلسلة الضعيفة للألباني .

الشرح..

قوله "فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة" : أكّد هنا كتابة الحسنة إذا هم بها ولم يعملها بقوله "كاملة" ولم يقل "واحدة" ؛ لأن هذا المقام مقام فضل وإكرام وإنعام ؛ فأكّد بقوله كاملة لئلا يُتوهّم النقص .

وهذه الحسنة كُتبت له بمجرد الهَمِّ ، الذي هو العزم على الفعل ، فُكُتبت له حسنة كاملة دون أن يقع منه فعل ، لكن لو حصل الفعل ووقع من العبد فهناك بابٌ آخر في الثواب وهو التضعيف إلى عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة . وهذا نستفيد منه فائدة أن المضاعفة على العمل أعظم من المضاعفة على الهَمِّ بدون العمل ؛ فإذا همّ وعمل تأتت هذه المضاعفات وأما إذا هم ولم عمل تكتب له حسنة واحدة.

وفي هذا المقام نُذكر بحديث مشتهر على ألسن العوام كثيراً لكنه ضعيف لم يثبت عن النبي ﷺ ؛ وهو "نية المؤمن خيرٌ من عمله" وإذا نظرت إلى هذا اللفظ - نية المؤمن خير من عمله - في ضوء هذا الحديث الصحيح تجد أن عمل المؤمن الصالح مضاعف إلى عشر إلى سبعمائة إلى أضعاف كثرة ، والنية التي لم يتبعها عمل تُكتب حسنة كاملة ولم يُذكر التضعيف

فقوله " نية المؤمن خيرٌ من عمله " إن كان المراد بهذا اللفظ هكذا على الإطلاق فهذا الكلام غير صحيح وغير مستقيم والحديث يرده ، والعمل - عمل المؤمن - قائم على نية ، ومر معنا حديث " إنما الأعمال بالنيات " أي معتبرة بنياتها ، فإذا كان عملٌ بلا نية فهذا لا يدخل في ميزان حسنات الإنسان ولا يدخل في أعماله الصالحات لأن الأعمال معتبرة بنياتها ، فقوله " نية المؤمن خير من عمله " ما المراد بعمله؟ هل المراد بعمله القائم على النية ؟ إن قالوا نعم فيقال : كيف يقال إن نية المؤمن خير من عمله الذي هو قائم على نية صالحة ؟

وإن كان المراد بلا نية ، العمل بلا نية صالحة ، أي العلم الذي هو رياء أو غير ذلك فهذا شيء آخر ؛ النية الصالحة بدون عمل خير منه .

وأخذ بعضهم هذا الحديث " نية المؤمن خير من عمله " أخذه بعضهم متكناً عليه للتهاون في الأعمال وتجده يتهاون في العمل قائلاً : نية المؤمن خير من عمله !! فالحديث ضعيف والمبني عليه ضعيف .

[ثالثاً : قوله “ وإن همَّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، وإن همَّ بما فعلها كتبها الله سيئة واحدة ” وُصفت الحسنة على ترك المعصية المهموم بها بأنها كاملة ؛ لئلاً يُتَوَهَّم نقصانها، وُوصفت السيئة المعمولة بواحدة؛ لئلاً يُتَوَهَّم زيادتها، وهذا من فضل الله وعدله، والثواب على ترك السيئة التي همَّ بها يحصل إذا كان تركها من أجل الله، أمّا إذا كان حريصاً على فعل السيئة وقلبه متعلّق بها، وهو مُصمِّم على فعلها لو قدر على ذلك، فهو مؤاخِذٌ على ذلك، قال ابن كثير في تفسيره عند تفسير قوله تعالى من سورة الأنعام { مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرٌ أَمْثَلِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ } “ واعلم أنّ تارك السيئة الذي لا يعملها على ثلاثة أقسام : تارة يتركها لله فهذا تُكتب له حسنة على كَفِّه عنها الله تعالى وهذا عمل ونيّة ، ولهذا جاء أنّه يُكتب له حسنة، كما جاء في بعض ألفاظ الصحيح " فإنّه تركها من جرائي " أي: من أجلي، وتارة يتركها نسياناً وذهولاً عنها فهذا لا له ولا عليه لأنّه لم يَنْوِ خيراً ولا فَعَلَ شراً، وتارة يتركها عَجْزاً وكسلاً عنها بعد السعي في أسبابها والتلبّس بما يقرب منها فهذا بمنزلة فاعلها، كما جاء في الحديث الصحيح عن النَّبِيِّ ﷺ أنّه قال: " إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار، قالوا: يا رسول الله! هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: إنّهُ كان حريصاً على قتل صاحبه “] .

الشرح..

قوله " وإن همَّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة وإن همَّ بما فعلها كتبها الله سيئة واحدة " : تنبه هنا للفرق بين قوله "كاملة" وبين قوله "واحدة" ؛ كاملة في باب الفضل وواحدة في

باب العدل ، ووصفت الحسنة على ترك المعصية المهموم بها بأنها كاملة وهذا باب فضل لئلا يُتوهم نقصانها ؛ فقوله كاملة لدفع توهم النقصان ، ووُصفت السيئة المعمولة بواحدة لئلا يُتوهم زيادتها - كما في قوله تعالى {من عمل سيئةً فلا يجرى إلا مثلها} فباب العقوبة باب عدل ، وباب المثوبة باب فضل .

ثم جاء التنبيه على ترك السيئة أنه مضبوط بكونها من أجل الله ، أما إن تركها عجزاً مع الحرص عليها فإنها لا تُكتب له حسنة . وابن كثير رحمه الله له تفصيل نافع جداً عند قوله تعالى {من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون}؛ ذكر فيه أن تارك السيئة الذي لم يعملها على ثلاثة أقسام :

القسم الأول : يتركها لله ؛ فهذا الذي تُكتب له حسنة لأنه كفَّ عنها لله ؛ قال : وهذا عملٌ ونية ، أين العمل ؟ العمل هو الترك ، ومر معنا "وإن تركها من أجلي" فلاحظ كلمة "تركها من أجلي" فهذه الكلمة تدل على عمل ونية ، الترك : عمل ، والنية : من أجلي ؛ ولهذا قال ابن كثير : وهذا عملٌ ونية ، فالترك يُعدُّ عملاً .

ولهذا جاء أنه يُكتب له حسنة كاملة كما جاء في بعض ألفاظ الصحيح "فإنه تركها من جرائي" .

القسم الثاني : وتارةً يتركها نسياناً وذهولاً عنها فهذا لا لهُ ولا عليه ، لا تكتب له حسنة ولا تكتب عليه سيئة ؛ لأنه لم ينو خيراً فيثاب عليه ولم يفعل شراً فيُعاقب عليه .

القسم الثالث : يتركها عجزاً وكسلاً عنها بعد السعي في أسبابه والتلبس بما يقرب منها ؛ فهذا وجد معه حرص على العمل وسعى في أسبابه والتلبس فيما يقرب منه لكنه لم يتمكن من فعله ؛ فهذا يُكتب عليه لما جاء في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال " إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار " فالمقتول أُخذ بالحرص على قتله .

فهذا يدل على أن من أخذ بأسباب المعصية وحرص على فعلها واجتهد ولكنه لم يتمكن فهذا يُعاقب عليها كما هو واضح في هذا الحديث .

[رابعاً : ممّا يُستفاد من الحديث :

أولاً : إثبات كتابة الحسنات والسيّئات.

ثانياً : أنّ من فضل الله عزّ وجلّ مضاعفة ثواب الحسنات.

ثالثاً : من عدل الله عزّ وجلّ ألاّ يُزاد في السيّئات .

رابعاً : أنّ الله يُثيب على الهِمّ بالحسنة إذا لم يعملها بكتابتها حسنة كاملة.

خامساً : أنّ من همّ بسيّئة وتركها من أجل الله يكتب له بتركها حسنة كاملة.

" من أجَلَ اللهُ " هذا قيد

سادساً : الترغيب في فعل الحسنات والترهيب من فعل السيّئات.

سبحانك اللهم و بحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، اللهم صلّ وسلّم على عبدك
ورسولك نبينا محمد و آله وصحبه

* * *



شرح الأربعين النووية

لأبي زكريا يحيى بن شرف الحزامي النووي رحمه الله

من الدرس ٣١ إلى الدرس ٣٣

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما الله تعالى

١٥/٧/١٤٤٠ هـ

الدرس الحادي والثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .
أما بعد ..

الحديث الثامن والثلاثون

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ
أَذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتَهُ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ
بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أَحْبَبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي
يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَلَنْ سَأَلَنِي لِأَعْظِيَّتِهِ، وَلَنْ اسْتَعَاذَنِي لِأَعِيدَتِهِ " رواه
البخاري

الشرح..

هذا حديثٌ قدسي عظيم في بيان أولياء الله جل وعلا المقربين عنده ، وبيان ما أعده لهم جل
وعلا من الثواب العظيم والنزل الكريم ، وبيان أنه جل وعلا آذن بالحرب من آذى أولياءه ؛
وهذا فيه بيان لعظيم مكانة أولياء الله عند الله جل وعلا ؛ وفي هذا تنبيه إلى أهمية تولي
الأولياء وحبهم ، وعدم معاداتهم أو أذيتهم بأي شيء من الأذى لعظيم مكانتهم عند الله
جل وعلا ، وفيه بيان حقيقة الولي ومن هم أولياء الله تبارك وتعالى حقاً وصدقاً ، وفيه بيان
أن أولياء الله تبارك وتعالى على رتبتين وعلى درجتين جاء بيانُهُما في هذا الحديث العظيم
القدسي المبارك ، إلى غير ذلك من الفوائد العظيمة التي نقف عليها من خلال هذا الحديث .

قال " من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب " : أي أعلمته بأنني مُحاربٌ له ، ومن آذنه الله
بالحرب فقد خاب وخسر في الدنيا والآخرة ، كما أن من آذنه الله بالنصر فقد فاز في الدنيا

والآخرة ، والله جل وعلا ينصر أنبياءه وأوليائه ، ويؤيدهم بحفظه وتأييده ، ويكلؤهم سبحانه وتعالى بعونه وتوفيقه ؛ فهم في حفظ الله جل وعلا .

ومعاداة الولي تكون ببغضه ، وأن يكون القلب منطوياً على كراهته وعدم محبته وإرادة الإيذاء له وإلحاق شيء من الضرر به ، وقد يصحب هذه العداوة أذى وعدوان وتسلط وبهتان ، فتكون ظلمات بعضها فوق بعض .

" من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب " بين جل وعلا في هذه الجملة فضل الأولياء وعظيم مكانتهم عند الله تبارك وتعالى ،

ثم بعد ذلك بيّن من هم أولياء الله ؛ فقال :

قال " وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحبّ إليّ مما افترضته عليه ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه " : وهذا فيه بيان أن أولياء الله تعالى على درجتين :

الدرجة الأولى : مُبَيَّنّة في قوله " وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحبّ إليّ مما افترضته عليه " فهذه الدرجة الأولى ؛ وهي التقرب إلى الله جل وعلا بالفرائض .

الدرجة الثانية : التقرب إلى الله بالنوافل وذلك في قوله " ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل " أي بعد عنايته بالفرائض والمحافظة عليها، وهذه الدرجة أعلى من الدرجة الأولى لأنه اجتمع فيها ما في الدرجة الأولى وزاد العناية بالنوافل والرغائب والمستحبات ، والبعد عن دقائق المكروهات .

ولهذا أولياء الله على درجتين ، وكلّ من الدرجتين مبنيّ على التقرب إلى الله جل وعلا بما يحب ؛ فهذه حقيقة الولاية التقرب إلى الله سبحانه وتعالى بما يحب ، وأعظم شيء يتقرب به العبد إلى الله جل وعلا الفرائض التي افترضها وأوجبها عليهم ، ثم بعد ذلك يحب جل وعلا التقرب إليه بالنوافل .

وبهذا البيان البيّن في الحديث يسقط ادعاء الولاية ، وهم كثر في قديم الزمان وحديثه ، اليهود الذين هم أشد الناس كفراً وظلماً وطغياناً يقولون عن أنفسهم { نحن أبناء الله وأحباؤه } هذا ادعاء أنهم أولياء الله لكنهم من أبعد الناس عن التقرب إلى الله ومن أكثر الأمم والخلائق جفاءً وتقصيراً وبعداً عن طاعة الله ؛ ومع ذلك يقولون { نحن أبناء الله وأحباؤه } ويقولون { لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً .. } وهذا تحقيق لقول النبي ﷺ " لتبعن سنن من كان قبلكم شبراً

شبراً ذراعاً ذراعاً حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه" قالوا اليهود والنصارى؟ قال "فمن"؛ أي من القوم غير هؤلاء .

أيضاً وُجد في أمة محمد عليه الصلاة والسلام من يدعي لنفسه الولاية وهو من أبعد الناس عن التقرب إلى الله ومن أكثر الناس إضاعة للفرائض ودخولاً في الآثام والحرام ، بل إن الأمر بلغ ببعض هؤلاء الزائغين الضلال أن ادعى أن تركه للفرائض وفعله للمحرمات من خصائص ولايته ومن الأمور التي هي ثمرة عظيم مكانته عند الله بزعمه وادعائه ؛ ولهذا لا يتحاشى بعض هؤلاء الضلال أن يقول عن نفسه أو عن شيخه أن التكليف سقطت عنه ليس مأموراً بفعل فرض ولا منهيّاً عن فعل محرم ، ويعدون هذه سمة للولاية ومن خصائص أولياء الله؛ وهذا من أعظم البهتان والافتراء والكذب على الله وعلى دينه وعلى شرعه وعلى مقام الولاية ؛ ولهذا قال الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم {ألا إن أولياء الله لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون} الذين ءامنوا وكانوا يتقون { فنعتهم الله بنعتين : الإيمان والتقوى

واجتماع الإيمان والتقوى في هذا السياق وفي نظائره من سياقات القرآن والسنة هو جمعٌ بين فعل الأوامر وترك النواهي ؛ لأن الإيمان إذا جُمع مع التقوى أصبح الإيمان في جانب الاعتقاد وفعل المأمور ، والتقوى في جانب ترك الحرام والبعد عن المحذور ؛ فدل قوله الله جل وعلا { الذين ءامنوا وكانوا يتقون } على أن أولياء الله هم أهل الإيمان والتقوى ؛ أهل الإيمان به وبكل ما أمر جل وعلا بالإيمان به ؛ بفعل الفرائض وترك المحرمات .. ؛فهؤلاء هم أولياء الله .

أما من يدعي الولاية لنفسه مع إضاعة للفرائض وارتكاب للمحرمات ؛ فهو ليس من أولياء الله ، وليس هذا الذي يفعله مما أمره الله به ؛ بل هو مما يأمر به الشيطان ، ومن كان كذلك لا يكون ولياً لله بل هو ولياً للشيطان ، ولا يكون من حزب الله وإنما هو من حزب الشيطان ؛ لأن ولي الله هو الذي يتقرب إلى الله سبحانه وتعالى بما شرع ، يتقرب إلى الله بالإيمان به وبتقواه سبحانه وتعالى ، يتقرب إليه بفعل الفرائض والواجبات وترك المحرمات ، وإن زاد في مقام الولاية اعتنى بالرغائب والمستحبات ، أما الادعاء فهو يسير فما أيسر أن يدعي مدعٍ مثل هذا أو دونه أو أعظم منه ، والدعاوى إذا لم يقيم عليها بينات أهلها أدعياء ؛ وقد مر معنا في أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام قوله "البينة على المدعي" ؛ فمن ادعى دعوى فعليه أن يأتي بالبينة عليه، ومن ادعى لنفسه أنه ولي أو أنه بلغ رتبة الولاية أو أنا من الخاصة .. ؛ فهذه

دعوى تحتاج إلى بينة ، والبينة مبينة في القرآن ؛ قال تعالى {قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم} البينة أن يكون لازماً هدي النبي عليه الصلاة والسلام ، أما أن يأتي بدجل وخرافات وشعوذات وأنواع من الضلالات ؛ ثم يزعم لنفسه أنه من أولياء الله وهو مخالف لهدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنى له أن يكون لله ولياً .

وهذا بابٌ يحتاج فيه المسلم الناصح أن يقف على جادة الصواب وطريق الحق حتى لا يؤخذ به إلى أودية الضلال وأبواب الباطل باسم الولاية المدعاة من أقوام ، وكم أُضِلَّ أقوام عن جادة الصواب باسم الولاية ، وقد قال نبينا عليه الصلاة والسلام "إن أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلين" وإن القلب المؤمن الصادق في إيمانه مع ربه تبارك وتعالى ليألم أشد الألم ويأسف أشد الأسف على ضياع يقع في مناطق عديدة باسم الولاية وأنواع من الأباطيل ترتكب باسم الولاية يجمعها إضاعة الفرائض وفعل المحرمات ، وكلها تُرتكب باسم الولاية المزعومة المدعاة .

والمقام لا يحتمل تفصيلاً طويلاً ؛ لكني أضرب بعض الأمثلة ليتضح الأمر :

في باب الإيمان والتقرب إلى الله سبحانه وتعالى بما شرع وفعل ما أمر جل وعلا يتخلى هؤلاء عن الفرائض وواجبات الدين باسم الولاية ؛ ولهذا يبقى من يُدَّعى أنه ولي حين تُقام الصلاة المفروضة في مكانه لا يصلي ! وربما في المسجد تُقام الجماعة ويبقى هو في سارية المسجد .. ، وإذا سُئل عنه قيل هذا من أولياء الله سقطت عنه التكاليف والفرائض !! ولا يؤدّون الحج ؛ بل يزعمون أن مقام الولي أرفع من أن يذهب إلى البيت العتيق ليطوف بالبيت العتيق ؛ فيقولون أن شأنه أعظم !!

أعظم من من ! قاتلهم الله أنى يؤفكون ، وأنبياء الله جل وعلا ورسله يتتابعون على بيت الله العتيق يطوفون به ، ونبينا عليه الصلاة والسلام طاف بالبيت مرات وكرات وهو سيد الأولياء والمتقين وخير ولد آدم أجمعين صلى الله عليه وسلم يطوف بالبيت خاضعاً دليلاً منكسراً معظماً لربه سبحانه وتعالى .

ثم هؤلاء يقولون : الولي مقامه أعلى من ذلك ؛ ولهذا بعضهم لم يتورع من التصريح بأن مقام الولي أرفع من مقام النبي ؛ يقولون :

فويق الرسول ودون الولي

مقام النبوة في برزخ

ويقولون أن الولي مقامه أرفع بأن يطوف بالبيت ؛ بل البيت يطوف بالولي !! ولهذا ينصون على هذا في كتبهم ويقررونه في مجالسهم ؛ فيقولون : الكعبة تذهب وتطوف بالأولياء ، وفي أحد كتب الفقه المشهورة في أبواب الصلاة ؛ عُقدت مسألة مبنية على هذه الخرافة الباطلة : قال صاحب الكتاب :

مسألة : إذا ذهبت الكعبة تطوف بالأولياء إلى أين يصلي الناس؟

قال : اختلفوا في المسألة على قولين :

القول الأول : يصلون إلى مكان الكعبة الأصلي باعتبار أن الناس لا يدروا أين ذهبت الكعبة ، وإذا كُلفوا بالصلاة إلى أين ذهبت الكعبة ؛ هذا تكليف بما لا يُطاق والله لا يكلف نفساً إلا وسعها .

القول الثاني : يلزمهم التحري ؛ فلا بد أن يبحثوا عنها . في الهند أو في أفريقيا أو في !!! فيتحررون ويصلون إلى جهتها ، ويحتاج إلى أن يُنبه الناس بعد الأذان فيقال للناس أن الكعبة في جهة أفريقيا أو أنها في جهة الهند ..!

هذا العبث بالدين والفرائض وبواجبات الله تبارك وتعالى ؛ تُرتكب باسم الولاية .

ولاحظ قوله في الحديث القدسي "ما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه" فهذه الفرائض جعلها هؤلاء موضع عبث بالدين ، لا يمكن أن يكون صفة لولي أبداً ؛ فالولي من أبعد وأنزله الناس عن العبث بالدين ، بل هو من أشد الناس حفاظاً على واجبات الإسلام ورعايةً لها .

وهذا في مقام فعل الفرائض ، وإذا نظرت في المقام الآخر - مقام اجتناب المحرمات - فالولي عندهم ساقطة عنه التكاليف وليس منهيّاً عن المحرمات ؛ ولهذا لا يتورع من يدعي الولاية على طريقة هؤلاء أن يرتكب الفواحش وأن يمارس الحرام وأن يشرب الحرام ؛ بل بلغ الحال ببعض هؤلاء أن يرتكب المحرمات باسم الولاية وباسم الكرامة وباسم البركة ؛ ومما اطلعنا عليه في كتب هؤلاء ونقله أيضاً المهتدون من هؤلاء أن بعض هؤلاء يبلغ به الحال أن يذهب المريـد بزوجه ليلة الزواج قبل أن يخلو بزوجه ؛ يذهب بها إلى شيخه ويطلب من شيخه أن يخلو بها وأن يفتض بكارتها للبركة لأنه ولي وإذا حصل منه هذا الأمر بورك له في زوجته وفي ذريته ؛ ثم يخلو الولي المزعوم بها ويفتض بكارتها ثم تخرج من عنده وقد بورك بزعم هؤلاء ،

ثم شكراً للولي بهذا الجميل ؛ ينطرح المريد عند الشيخ الولي المزعوم ويقبل قدميه - يشكره على هذا الجميل والإحسان - !!

فهذا كله عبث على دين الله تبارك وتعالى باسم الولاية المزعومة ، والولاية التي هي قرينة إلى الله سبحانه وتعالى شيء ، وما يمارسه هؤلاء كله باطل وضلال ما أنزل الله تبارك وتعالى به من سلطان ، لكنه يمارس بهذا الشكل باسم الولاية .

يقول الله جل وعلا " وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه " :

يعني ليس شيء أحب إلى الله ويُقرب إليه من الفرائض و قوله " افترضته " يتناول أمرين :

• يتناول فعل الواجبات وترك المحرمات ؛ فالله عز وجل افترض على عباده فعل واجبات الدين ، وافترض عليهم أيضاً ترك المحرمات ؛ ولهذا مر معنا في حديث سابق " وأحللت الحلال وحرمت الحرام " ؛ فهذه الدرجة الأولى .. فعل الفرائض ؛ فعل الواجبات وترك المحرمات ، ومن فعل الواجبات وترك المحرمات كان من أولياء الله وكان يوم القيامة ممن يدخل الجنة بدون حساب ولا عذاب ، وهو المقتصد في قوله تعالى { فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد } والمقتصد هو الذي يفعل الواجب ويترك المحرم ، هو الذي اقتصر في طاعته لله وتقربه إليه سبحانه على فعل واجبات الدين وترك المحرمات ؛ فهذا ولي من أولياء الله ، ويوم القيامة يدخل الجنة بدون حساب ولا عذاب .

وليس من شرط الولي أن تحصل له الكرامة التي هي الأمور الخارقة للعادة ؛ بل أعظم كرامة حصول الاستقامة ، وهي أعظم من الخوارق ، أعظم كرامة أن يستقيم على دين الله وأن يحافظ على الفرائض وواجبات الدين وأن يبتعد عن المحرمات ، ونقرأ هذا في قوله تعالى { إن أكرمكم عند الله أتقاكم } .

وأيضاً حصول الأمر الخارق للعادة ليس دليلاً على الولاية ، وعدم وجود الأمر الخارق للعادة ليس دليلاً على انتفاء الولاية

هذه الدرجة الأولى وهي التقرب إلى الله بالفرائض وترك المحرمات

• الدرجة الثانية - وهي أعلى منها . درجة التقرب إلى الله بفعل النوافل والمستحبات والبعد عن دقائق المكروهات والأمور التي تُحْي عنها في الشرع نُحْي تنزيه لا نُحْي تحريم ، وتحقيق مرتبة كمال الورع ؛ فهذه رتبة أعلى من الرتبة الأولى ؛ لأن صاحب هذه الرتبة فعل الفرائض وزاد

على ذلك بالعناية بالنوافل والمستحبات والبعد عن المكروهات ؛ فكانت درجته أعلى ومنزلته أرفع .

" ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه " المراد بذلك أي بعد حفظه ومحافظته على الفرائض ، وليس المراد أن يحافظ على النوافل على حساب الفرائض ؛ ولهذا قال بعض أهل العلم " من فعل أو اعتنى بالنفل على حساب الفرض فهو مغرور ، ومن ترك النفل رعايةً وعنايةً بالفرض فهو معذور " أو كلاماً نحو هذا نقله الحافظ بن حجر رحمه الله تعالى عن بعض الأكابر . ولهذا النوافل لا يفعلها الإنسان على حساب الفرائض ، وكم يغلط كثير من الناس في هذا الباب ، فمثلاً : إذا كان قيامك بالليل على حساب صلاة الفجر فلا يجوز لك هذا القيام ، ولا يجوز لك أن تجتهد بالليل على طلب العلم وحفظ القرآن ولا في مجلس علم إذا كنت تعلم من ذلك أنه سيكون على حساب فريضة الفجر ، والذي يعتني بالنوافل على حساب الفرائض هذا كما قال بعض أهل العلم مغرور - نوع من الغرور . لكن إذا حافظت على الفرائض ولو فاتك شيء من النوافل ولو كثير من النوافل في سبيل حفظ الفرائض ؛ أنت معذور لأن الأصل الفرائض وهي التي طلبت منك طلباً مؤكداً وأوجبها الله سبحانه وتعالى عليك وكتبها عليك .

قال " ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه " : قوله " حتى أحبه " هذا فيه إثبات المحبة لله جل وعلا وأنه يحب ، وفيه بيان الأسباب التي تُنال بها محبة الله ، وأن محبة الله إنما تُنال بفعل الفرائض والعناية بالרגائب والمستحبات ، والذي يفعل الفرض ويترك المحرم هذا ولي من أولياء الله يحبه الله ؛ فيكون قوله " ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه " فيه التنبيه على التفاضل بين العباد في نيل محبة الله جل وعلا ، وأن العبد كلما عظمت عنايته بالطاعات وزادت رعايته للرجائب والمستحبات زاد حظه ونصيبه من نيل محبة الله له جل وعلا ؛ ولهذا فإن قوله " لا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه " فيه التنبيه على المزيد من هذا الباب ، وأن العبد كلما زاد في هذا الباب عنايةً ورعايةً ومحافظَةً زاد نصيبه وحظه من ولاية الله له ومن محبته له سبحانه وتعالى .

ثم ذكر الثمرة العظيمة التي ينالها ولي الله سبحانه وتعالى ؛ قال :

" فإذا أحببته سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي عليها " : ولا يغيب عن بالك هنا وأنت تقرأ هذه الثمار العظيمة أن تذكر دلائل الحديث على وجود

مُتَقَرَّب (وهو العبد) ومُتَقَرَّب إليه (وهو الرب سبحانه وتعالى) ، وكن على ذكر من قوله "من عادی لي ولياً فقد آذنته بالحرب" ؛ فذكر عبداً ورباً ، ومتقرباً ومتقرباً إليه

وقال أيضاً " ما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه " فالرب هو الذي فرض الشرائع ، والعباد هم الذين كُلفوا بفعلها ؛ فذكر متقرباً ومتقرباً إليه ، ذكر في تمام الحديث داعياً ومدعواً ومستعيذاً ومستعاذاً به ؛ فهذه عندما تكون على بال الإنسان وهو يقرأ الحديث لا يقع في زلل بعض الطريقة والضلال في فهم هذا الحديث .

قال " فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي عليها " : والربُّ ربُّ والعبدُ عبدٌ ؛ فما معنى قوله "كنت سمعه .. وكنت بصره" ؟ أي أن الله سبحانه وتعالى يؤيده ويسدده ويحفظه في سمعه وفي بصره وفي يده وفي قدمه ؛ فبي - فبالله - يسمع ، وبني يبصر ، وبني يمشي وبني يبطش ،

بي : أي بتأييدي وبحفظي وتوفيتي .

فيكون سمعه وبصره ويده وقدمه كله محفوظاً بحفظ الله تبارك وتعالى .

بعض الضلال والجهال ومن لا بصيرة له في معاني كلام الله وكلام رسوله ؛ يقول بعضهم عند شرح الحديث : كنت يده أي تصبح يده يدُ الله ، ويصبح سمعه سمعُ الله .. ؛ فيصبح بهذه العقيدة إلى عقيدة حلولية كفرية باطلة جائرة ، تُثمر عدم تفريق بين عبد ورب ؛ حتى قال قائل هؤلاء :

الربُّ عبدٌ والعبدُ ربُّ ألا ليت شعري من المكلف

إن قلت ربُّ فذاك عبدٌ أو قلت عبدٌ أني يكلف

اختلفت عليهم الأمور وهذا مبني على أحد أمرين أو كليهما : سوء العلم وسوء القصد ، واجتماع هذين الأمرين هلكته والعياذ بالله في الدنيا والآخرة ؛ فمعنى قوله "كنت سمعه .. كنت بصره .. في يسمع .. في يبصر" ؛ واضح لدى أهل البصيرة بدين الله ؛ أي الله سبحانه وتعالى يؤيده في سمعه وفي بصره ، والحديث ذكر فيه رب ، ومربوب ، ومتقرب ، ومتقرب إليه ، وداعي ومدعو ، ومستعاذ ، ومستعاذ به ..

قال "ولئن سألتني لأعطينه" : وفي هذا أن الله سبحانه وتعالى يجيب دعوته ، ولا يرد الله تبارك وتعالى دعوته {إن ربي لسميع الدعاء} ، {وقال ربكم ادعوني أستجب لكم} .

"ولئن استعاذني لأعيذنه" ، وأيضاً ضُبِطت "ولئن استعاذ بي لأعيذنه" وكلاهما صحيح ، والاستعاذة هي الالتجاء إلى الله جل وعلا في دفع المكروه ، وفي الجمع بين قوله "ولئن سألتني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه" : أي إن طلب حصول خيرٍ حققه الله له ، وإن طلب دفع ضررٍ حققه الله تبارك وتعالى له .

هذا حديث قدسي عظيم ، بيّن فيه الله تبارك وتعالى مكانة الأولياء عنده ، وبيّن فيه من هم الأولياء وأنهم على رتبتين ، ثم ذكر في تمام الحديث ثواب الأولياء عند الله وأن الله تكفل بحفظهم وتأبيدهم وإجابة دعائهم وإعطائهم سُؤلهم .

قال الشيخ عبد المحسن العباد :

[أولاً: قوله: " من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب " هذا الحديث من الأحاديث القدسية التي يرويها الرسول صلى الله عليه وسلم عن ربّه، وقد أفرد الشوكاني رحمه الله شرحه في كتاب سَمَاءه " فطر الولي بشرح حديث الولي " ، وأولياء الله عزّ وجلّ هم المؤمنون المتّقون، كما قال تعالى: { أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ } ، ومعنى " آذنته بالحرب " أعلمته أنّي محاربٌ له، وهو يدلُّ على خطورة معاداة أولياء الله، وأنّه من الكبائر .

ثانياً : قوله: " وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحبّ إليّ ممّا افترضت عليه " في هذه الجملة وما بعدها بيان أنّ ولاية الله إنّما تحصل بالتقرب إليه بأداء الفرائض، والإتيان مع ذلك بالنوافل، وهو يدلُّ على أنّ التقرب بأداء الفرائض أحبُّ إلى الله من النوافل؛ لأنّ في ذلك فعل ما أوجب الله وترك ما حرّم الله، والآتي بالواجبات التارك للمحرّمات هو المقتصد، ومن أتى بها وأتى بالنوافل معها فهو السابق بالخيرات] .

الشرح.

قوله سبحانه في هذا الحديث القدسي "وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحبّ إليّ ممّا افترضته عليه" هذه الجملة فيها بيان حقيقة الولاية ، وأن الولاية لا تكون إلا بالتقرب إلى الله سبحانه

وتعالى ، وأفاد الحديث أن الولاية على درجتين : درجة المقتصدين ؛ وهم من يقتصرون في التقرب إلى الله على فعل الفرائض ، مثل الرجل الأعراي الذي ذكر له النبي صلى الله عليه وسلم الفرائض فقال لا أزيد على هذا ولا أنقص ؛ قال دخل الجنة إن صدق

والفرائض تتناول فعل الواجب وترك المحرم فمن فعل واجبات الدين وترك المحرمات ولم ينشط لفعل المستحبات ؛ فهذا من أولياء الله يدخل الجنة يوم القيامة دخولاً أولاً بدون حساب .

والرتبة الثانية للولاية : هي التقرب إلى الله سبحانه وتعالى بالنوافل بعد الفرائض والمحافظة عليها ؛ وهذه رتبة أعلى وهي رتبة السابقين بالخيرات ورتبة المقربين .

والمقتصد الذي فعل الواجب وترك المحرم ، والسابق بالخيرات الذي زاد على ذلك فعل الرغائب وترك المكروهات ؛ كلٌ منهما يدخل الجنة يوم القيامة بدون حساب ولا عذاب ، كما قرر ذلك شيخ الإسلام في كتاب الإيمان وغيره من أهل العلم .

بخلاف الظالم لنفسه . وهو باقٍ على أصل الإيمان . فإنه عرضة للحساب وعرضة للعذاب ، وإذا دخل النار لا يدخلها للتأييد والتخليد؛ وإنما يدخلها للتنقية والتطهير ويشمله الحديث "أخرجوا من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه أدنى مثقال ذرة من إيمان" .

[ثالثاً : قوله : “ لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ” إلخ، النوافل هي الإتيان بالأعمال الصالحة زيادة على الفرائض، وفعلها مع الاستمرار عليها يجلب محبة الله عز وجل، وإذا حصلت له المحبة ظفر بتسديد الله في تصرفاته، فلا يسمع إلا ما هو حق، ولا يرى إلا ما هو حق، ولا ينال إلا ما هو حق، ولا يمشي إلا إلى ما هو حق، وأكرمه الله بإجابة دعوته إذا دعاه، وإعادته ممّا استعاده منه] .

الشرح..

هذا نصير معنى مرّ معنا في حديث سابق يؤكد هذا المعنى ؛ وهو قوله صلى الله عليه وسلم " احفظ الله يحفظك" ومعنى احفظ الله أي بفعل ما أمر ، والتقرب إليه سبحانه بما شرع ، وبالبعد عما نهى تبارك وتعالى عنه ؛ والثمره : يحفظك .

وهنا دعا إلى فعل الأوامر والفرائض ، ثم بعده المستحب ، وذكر الثمرة وهي حفظ الله له في سمعه وفي بصره وفي يده وفي قدمه ؛ فلا يرى إلا حقاً ، ولا يسمع إلا حقاً ، ولا يمشي إلا إلى حق ؛ لأنه محفوظ بحفظ الله ، تولى الله سبحانه وتعالى توفيقه وتسديده وحفظه .

[رابعاً : ممّا يُستفاد من الحديث :

- أولاً : بيان فضل أولياء الله، وشدة خطر معاداتهم.
- ثانياً : أن ولاية الله عز وجل تحصل بأداء الفرائض وفعل النوافل.
- ثالثاً : أن أحب ما يتقرب إلى الله عز وجل به أداء الفرائض.
- رابعاً : إثبات صفة المحبة لله عز وجل.
- خامساً : تفاوت الأعمال في محبة الله إياها.
- سادساً : أن فعل النوافل بعد أداء الفرائض يجلب محبة الله عز وجل.
- سابعاً : أن من ظفر بمحبة الله عز وجل سدده في سمعه وبصره وبطشه ومشيه.
- ثامناً : أن محبة الله عز وجل تجلب للعبد إجابة دعائه وإعادته ممّا يخاف.
- تاسعاً : أن ثواب الله عز وجل للعبد يكون بإجابة مطلوبه والسلامة من مرهوبه.

الشرح..

أيضاً مما يلتحق بما سبق وبما جاء في آخر الحديث وهو قوله صلى الله عليه وسلم "ولئن سألتني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه" - أي الولي . فهنا مما ينبغي أن يلاحظ أن الولي الصادق الذي أكرمه الله بالمحافظة على الفرائض والواجبات لا يمكن أن يقول للناس أنا من أولياء الله وأنا من المقربين ؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال {فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى}، ويقول جل وعلا عن المؤمنين الكُمَّل {والذين يُؤْتون ما ءاتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون} جاء في المسند أن عائشة رضي الله عنها قالت "سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية قلت أهو الرجل يزني ويسرق ويقتل ويخاف أن يُعذَّب ؟ قال : "لا يا ابنة الصديق ولكنه الرجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف أن لا يُقبل" ، عبد الله بن أبي مليكة رحمه الله يقول "أدركت أكثر من ثلاثين صحابياً كلُّهم يخاف النفاق على نفسه" ؛ فالولي لا يدّعي لنفسه ذلك ، ولا يصف نفسه بأنه من الأولياء بل يتواضع ويذل لله وينكسر .

كتب أحد الأخوة عن رجل في بلده يقول : كتب لنا في ورقة يقول لأهل البلد أي أحد عنده أمر يريد أن يستخير الله يأتي إليّ ويخبرني أنا أستخير عنه ؛ ما مقصوده بقوله " أنا أستخير نيابة عنه ؟ مقصوده أن لي شأن ومكانة عند الله وأنتم لكم ذنوب ... بينما في الحديث يقول "كان يعلمنا رسول الله ﷺ الاستخارة كما يعلمنا السورة من القرآن " يعلمهم حتى ماذا ؟ حتى يستخيروا هم ؛ كل يستخير لنفسه وهو عليه الصلاة والسلام سيّد المرسلين ما قال لهم إذا احتججتموا شيء تعالوا أنا أستخير لكم

فهذا الذي يفعله هؤلاء الذين يدعون الولاية لأنفسهم ؛ هذا كله نوعٌ من الدجل يُقصد منه أمرين :

الأول : التعلّي والترفع على الناس بادعاء المكانة والمنزلة .. إلى غير ذلك .

والثاني : أكل أموال الناس بالباطل .

وعندما يقرأ المسلم هذا الحديث القدسي ؛ يجد أن باب الولاية مفتوح لكل أحد ؛ وهذا طريق الولاية ، وليس طريق الولاية مرسوماً بطريق ، وليس في طريق الولاية ذل وانكسار لشيخ ، وليس في نيل الولاية لعق يدٍ وتقبيل قدمٍ ونحو ذلك من الأعمال التي تفعل عند الطريقة ويعدونّها خطوات أولية لا بد منها في طريق الولاية ، وليس من الولاية التقرب إلى الله بواسطة الشيخ أو نحو ذلك من الطقوس والأضاليل والأباطيل التي يروجها أهل الطرق الباطلة والحديث حديثٌ قدسي وهو في صحيح البخاري والكلام كلام رب العالمين وخالق الخلق أجمعين سبحانه وتعالى ؛ فباب الولاية واضح، وطريقها بيّن ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور .

سبحانك اللهم و بحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، اللهم صلّ وسلّم على عبدك ورسولك نبينا محمد و آله وصحبه

..*

الدرس الثاني والثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .
أما بعد ..

الحديث التاسع والثلاثون

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما
استكروها عليه" حديث حسن رواه ابن ماجه والبيهقي وغيرهما
الشرح..

هذا الحديث العظيم في بيان سعة رحمة الله وعظيم فضله وجزيل منه على أمة الإسلام أمة
محمد عليه الصلاة والسلام ، وأن الله عز وجل أكرم نبيه ومصطفاه وخيرته من عباده صلوات الله وسلامه عليه بأن تجاوز له
عن أمته أي رفع الإثم عنهم في هذه الثلاثة المذكورة في الحديث ؛ وهي : الخطأ والنسيان وما
استكروها عليه .

وفيه كرم الله وفضله وسعة منته جل وعلا على هذه الأمة وفيه أيضاً فضيلة نبينا الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

قوله "إن الله تجاوز لي" : هذا يدل على تفضيل النبي عليه الصلاة والسلام وتشريفه ومن الله سبحانه وتعالى
عليه بهذه المنة بأنه تجاوز له ؛ أي من أجله .

قوله "عن أمتي" : المراد بالأمة أي من استجابوا له صلى الله عليه وسلم ودخلوا في هذا الدين ؛ لأن الأمة
المضافة إليه عليه الصلاة والسلام تارة يراد بها أمة الدعوة ، وتارة يراد به أمة الإجابة .

وهذا الحديث المراد بالأمة أمة الإجابة أي الذين استجابوا للنبي عليه الصلاة والسلام ؛

فقوله "إن الله تجاوز لي عن أمتي" : أي عن الذين استجابوا لي ودخلوا في هذا الدين تجاوز لهم
عن الخطأ والنسيان وما استكروها عليه .

ومعنى تجاوز الله تبارك وتعالى للأمة عن هذه الأمور أي رفع عنهم الإثم ؛ فإذا وقع المسلم المستجيب لله ورسوله في أمرٍ عن طريق الخطأ أو عن طريق النسيان أو عن طريق الإكراه - أُجبر على ذلك وهو لا يرغب ولا يريد - فإن الإثم مرفوع عنه .
ورفع الإثم عن من أخطأ أو نسي هذا جاء في القرآن الكريم في أواخر سورة البقرة لقول الله تبارك وتعالى {ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا} وقد جاء في صحيح مسلم أن الله تبارك وتعالى قال " قد فعلت " أي يرفع عنا المؤاخذه والعقوبة فيما يقع منا من مخالفة نتيجة النسيان أو نتيجة الخطأ .

والخطأ : فعل الشيء عن غير قصد ، لا يكون فعله متعمداً أو قاصداً .
والنسيان : أن يكون ذاكرةً للشيء فينساه عند الفعل .
فإذا وقعت المخالفة نتيجة الخطأ . عدم التعمد . أو نتيجة النسيان . عدم الذكر . فإن المؤاخذه مرفوعة ؛ بدليل الحديث وبدليل قوله سبحانه وتعالى .
وقوله "وما استكروها عليه " : أي ما أُجِّتُوا على فعله إكراهاً وإجبارةً وإرغاماً من غير اختيار ولا عن رغبة ؛ فأيضاً هذا أمرٌ تجاوز الله سبحانه وتعالى للأمة عنه . فمن فعل أمراً ولو كان كفراً بالله بالإكراه وأُلجى إلى ذلك فالإثم مرفوع .
وهذا المعنى أيضاً دلّ عليه القرآن في قوله تبارك وتعالى {إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان} أي مرفوع عنه الإثم والمؤاخذه إذا فعل ذلك مكرهاً ؛ فمن قال الكفر أو فعل الكفر أو فعل المعصية ملجئاً ومرغماً من غير رغبة ومن غير اختيار فالله سبحانه وتعالى لا يؤاخذه بذلك ؛ وهذا من رحمة الله سبحانه وتعالى بهذه الأمة وسعة إحسانه جل وعلا عليهم بأن تجاوز عن الأمة الخطأ والنسيان وما استكروها عليه .

قال الشيخ عبد المحسن العباد :

أولاً : أُمَّةُ نَبِيِّنا مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم أُمَّتان: أُمَّةُ دعوة وأُمَّةُ إجابة، فأُمَّةُ الدعوة هم كُلُّ إنْسِيٍّ وَجَنِيٍّ من حين بعثته إلى قيام الساعة، وأُمَّةُ الإجابة هم الذين وفَّقهم الله للدخول في دينه الحنيف وصاروا من المسلمين، والمراد من الأُمَّة في هذا الحديث أُمَّةُ الإجابة، ومن أمثلة أُمَّةِ الدعوة قوله صلى الله عليه وسلم :

“ والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلتُ به إلا كان من أصحاب النار ” [رواه مسلم]

الشرح..

قول النبي صلى الله عليه وسلم "إن الله تجاوز لي عن أمتي" الأمة المضافة إليه عليه الصلاة والسلام هي أمة الإجابة ، والإضافة تعني تفضيل هؤلاء وتشريفهم ومن الله سبحانه وتعالى عليهم بالاستجابة للرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ، والأمة المضافة إليه تارةً يراد بها أمة الإجابة وتارةً يراد بها أمة الدعوة ، وهذا يُفهم من خلال السياق ؛ في هذا الحديث المراد بالأمة هنا أمة الإجابة . ويأتي إطلاق الأمة في بضع الأحاديث ويراد بها أمة الدعوة ، وأمة الدعوة هم من بُعث فيهم عليه الصلاة والسلام من الإنس والجن ؛ فيشمل اليهود والنصارى والمجوس وجميع الأديان وجميع الناس من جميع الأديان الموجودين بعد بعثته ؛ فدعوته موجهة للجميع {وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين} فهو رسول للجميع ، كلهم أمته بمعنى أن دعوته للجميع ؛ ومن ذلكم الحديث الذي قال فيه عليه الصلاة والسلام "والذي نفسي بيدي ما يسمع بي يهودي ولا نصراني من هذه الأمة" فالمراد بقوله عليه الصلاة والسلام من هذه الأمة أي من أمة الدعوة الذين بُعث فيهم عليه الصلاة والسلام .

فالشاهد أ الأمة تارةً يراد بها أمة الدعوة وتارةً يراد بها أمة الإجابة والمراد في أمته بهذا الحديث "إن الله تجاوز لي عن أمتي" أمة الإجابة

قال: [الخطأ: فعل الشيء من غير قصد، والنسيان: أن يكون ذاكرًا لشيء فينساه عند الفعل، والإكراه: الإلجاء على قول أو فعل، والإثم مرفوع في هذه الثلاثة؛ وقد جاءت الأدلة من كتاب الله عز وجل على رفع ذلك، قال الله عز وجل { رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا } ، قال الله: “ قد فعلت ” أخرجه مسلم ، وقال: { وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ } ، وقال: { إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا } ، وأمَّا ما أتلفه لغيره فهو مضمون، كالقتل خطأ تجب فيه الدية مع الكفارة، وإذا أكره على الزنا أو قتل معصوم فلا يجوز له ذلك؛ فلا يستبقي حياته بقتل غيره.

الشرح..

ذكر عليه الصلاة والسلام ثلاثة أمور تجاوز الله جل وعلا للأمة عنها : الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه . وهنا تعريف لهذه الأمور الثلاثة :

الخطأ : فعل الشيء من غير قصد وعمد وإنما يكون وقع فيه عن طريق الخطأ ؛ مثل أن يقتل الإنسان غيره خطأ ؛ كأن يوجه نبله أو سهامه إلى صيد ثم يصيب إنساناً ما رآه ولا انتبه له ؛ فهذا قتل خطأ تجاوز الله سبحانه وتعالى عنه لأنه غير عامد . لكن الشيء الذي أتلغه عن طريق الخطأ يكون ضامناً . فالشيء الذي يتعلق بالآخرين يكون ضامناً ؛ ولهذا إذا قتل أحداً خطأ فإنه يضمن بدفع الدية لكن الإثم مرفوع عنه ، ويتناوله قول النبي ﷺ "إن الله تجاوز لي عن أمتي" .

قوله " والنسيان " : أن يكون ذاكراً للشيء عالماً به ؛ لكن وقت الفعل ينسى ؛ فهذا أيضاً مما تجاوز الله سبحانه وتعالى عن الأمة في فعله .

الأمر الثالث قال " وما استكروها عليه " : الإكراه الاجراء على قول أو فعل ؛ أي يجبر ويرغم على الفعل من غير اختيار ولا رغبة ؛ فهؤلاء كلهم تجاوز الله سبحانه وتعالى عنهم . وفي باب الإكراه ينبغي أن يلاحظ أن الإنسان إذا أُكْرِه على الاعتداء على مسلم أو مباشرة انتهاك عرض فلا يحل له ذلك ؛ يعني لا يستبقي حياته على سبيل حياة الآخرين أو الإضرار بالآخرين .

[ثانياً : مِمَّا يُسْتَفَادُ مِنَ الْحَدِيثِ :

أولاً : بيان سعة رحمة الله وفضله وإحسانه إلى عباده؛ حيث رفع عنهم الإثم في هذه الثلاثة. ثانياً : رفع المؤاخذه على الخطأ، فإن كان الخطأ في ترك واجب فَعَلَهُ، وإن كان في إتلاف حقٍّ لغيره ضمنه] .

الشرح..

فإن كان الخطأ في ترك واجب فَعَلَهُ، وإن كان في إتلاف حقٍّ لغيره ضمنه لكن الإثم في كل ذلك مرفوع ؛ لأن الله سبحانه وتعالى تجاوز ورفع المؤاخذه ؛ فلا يلحقه بذلك إثم .

..*

الحديث الأربعون

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: " أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي، فقال: كن في الدنيا كأنك غريب أو

عابر سبيل، وكان ابن عمر رضي الله تعالى عنهما يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك “ .

رواه البخاري

الشرح..

هذا الحديث حديث عظيم في باب الزهد في الدنيا وعدم الانشغال بها عن الآخرة ، وأن الإنسان لم يُخلق لهذه الدنيا وهو في هذه الدنيا بمثابة الغريب أو العابر سبيل ، وشأنه فيها كالمسافر الذي مرَّ بأرض ليست أرضه وبوطنٍ ليس وطنه ، فنزل به قليلاً ليقضي حاجته ويمضي أو لم ينزل وإنما مر مروراً ؛ فهذه حال الإنسان مع هذه الدنيا وإلا الوطن والمستقر والحيوان في الدار الآخرة {وإن الدار الآخرة لهي الحيوان } .

ولهذا لا ينبغي للعبد أن تشغله الدنيا عن ما خُلق لأجله وأُوجد لتحقيقه ، وهو لم يُخلق لهذه الدنيا ، وشأنه فيها كالغريب أو كعابر سبيل .

فالحديث مشتمل على وصية عظيمة من النبي عليه الصلاة والسلام في عدم الاغترار في الدنيا والدعوة إلى الزهد فيها وأن لا يغتر الإنسان في هذه الحياة بطول أمل أو ينشغل فيها عن القيام بصالح العمل وأن يتذكر أنه عنها راحل وأنه مرتحل إلى الدار الآخرة ، فالدنيا مدبرة والآخرة مقبلة ؛ فلا يشغله المُدبر عن المقبل ، والقرار في الدار الآخرة وليس في هذه الدار .

وفي هذا الحديث أيضاً لطف النبي عليه الصلاة والسلام في مقام التعليم والتربية وحسن تربيته عليه الصلاة والسلام وتوجيهه لأصحابه رضي الله عنهم .

وفيه أيضاً سرعة استجابة الصحابة رضي الله عنهم لوصايا النبي صلى الله عليه وسلم .

فالحديث مشتمل على فوائد عظيمة جداً .

يقول ابن عمر رضي الله عنهما " أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكي " : المنكب الكتف ، وأخذ بمنكي : أي وضع يده على منكبي ؛ وهذا نوعٌ من اللطف والمؤانسة وتحريك النفس لحسن الاستماع ؛

فلقية النبي عليه الصلاة والسلام وجهاً إلى وجهه وأراد أن يخاطبه عليه الصلاة والسلام بهذا الخطاب ؛ فرفع عليه الصلاة والسلام يده ووضعها على كتف ابن عمر ، ووضع اليد على الكتف بهذه الصيغة عند إرادة النصيحة فيه ملاطفة للمنصوح ومؤانسة له وإدخالاً للسرور على قلبه ؛ ولهذا ابن عمر رضي الله عنهما يذكر ذلك وأصبحت الوصية مقتزنة بهذه الصفة وهذا العمل الجميل الذي فعله النبي عليه الصلاة والسلام مع ابن عمر رضي الله عنهما .

وأما ما يفعله بعض الناس عندما يكون أخاه أمامه ولا يشعر به ؛ ثم إذا اقترب منه مسكه من الخلف على منكبه فهذا ليس من اللطف ؛ بل هذا ربما يدخل في الإنسان شيئاً من الخوف أو القلق أو الانزعاج ؛ فهي طريقة غير مناسبة .

والذي فعله النبي صلى الله عليه وسلم داخلٌ في باب الرفق واللطف والإحسان والمؤانسة .

ووضّع النبي صلى الله عليه وسلم يده على منكبه رضي الله عنهما للتبني والتذكير مع اللطف والإحسان ، يضع اليد على المنكب كأنه يقول انتبه . وهذا الصنيع فعله عليه الصلاة والسلام تأكيداً على الوصية واهتماماً بها .

قال "كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل " : ليكون شأنك في الدنيا بهذه المثابة كالغريب أو عابر السبيل ، اعتبر نفسك بهذه الصفة لا يأخذك طول الأمل ولا يشغلك التسويف ، ولا تؤخر عمل اليوم إلى الغد لأنك قد تؤخر عمل اليوم إلى الغد فلا تكون من أهل الغد ..

مثل أن يدخل عليك رمضان وتذكر أعمالاً جميلة وأبواباً من البر والخير ؛ فتقول لك نفسك الآن دخل هذا رمضان ؛ اجعل هذه الأعمال في رمضان القادم ؛ فما يدريك أن تكون من أهل رمضان القادم أو لا تكون .. هل تكون من أهل الجمعة القادمة أو لا تكون .. هل تكون من أهل غدٍ أو لا تكون {وما تدري نفس ماذا تكسب غداً} .

ولهذا ينبغي أن يكون حال المسلم في هذه الحياة الدنيا كالغريب أو عابر السبيل .

والغريب هو الذي يدخل البلد ليقوم فيه إقامة مؤقتة لبضعة أيام لمصلحة من المصالح أو حاجة من الحاجات ؛ يأتي مثلاً إلى المدينة بضعة أيام لحاجة أو مصلحة والصلاة في المسجد النبوي فهذا يسمى غريباً ؛ فهل يفكر الغريب في الوطن الذي هو ليس وطنه والأرض التي

ليست أرضه ؛ هل يفكر أن يشتري أرضاً أو يعمر بيتاً أو يؤسس مزرعةً أو غير ذلك ؟ لا يفكر ؛ وإنما تفكيره في حاجة مؤقتة ويرحل . وعابر السبيل هو أشد من الغريب ولا يفكر في الإقامة بالبلد وإنما يمر بالبلد مروراً ؛ فقال "كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل " أي اعتبر حالك بهذه الصفة وعلى هذه الحال ، والمراد أن لا يغتر الإنسان بالدنيا وأن لا تشغله عما خلق لأجله أو أوجد لتحقيقه ، وليس في الحديث نهْي عن قيام العبد بمصالحه الدنيوية وحاجاته من بناء بيت أو شراء مسكن أو إيجاد عمل أو مصلحة أو تجارة أو كسب رزق أو فلاحه أو غير ذلك ؛ وإنما مراد الحديث أن لا تشغل العبد الدنيا عن الآخرة ؛ فإذا قام بواجباته وبالحقوق التي كُلف بها وأوجبت عليه فلا حرج عليه في اشتغاله بمصالحه وحاجاته ؛

ولهذا كان في دعاء النبي عليه الصلاة والسلام " اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا " : أخذ أهل العلم من هذا الحديث أن اهتمام الإنسان بدنيته وتعلمه لمصالح دنيائه لا حرج عليه في ذلك لكن الحرج أن تكون الدنيا أكبر همهم ومبلغ علمهم ؛ فهذا الذي فيه الحرج والإثم .

وهذا أيضاً مأخوذ من الحديث نفسه من قوله عليه الصلاة والسلام "كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل " : فمن المعلوم أن الغريب وعابر السبيل مصالحة لا يتخلى عنها ؛ فتجده يطلب ويسعى لتحقيق مصالحه وحاجاته من مسكن ومطعم وشراب .. ؛ لكن هذه المصالح لا تشغله عن وطنه الأساس وبلده الذي هو راجعٌ إليه ؛ وهكذا ينبغي أن يكون المسلم .

والحديث يفيد أن الإنسان في هذه الحياة الدنيا بمثابة المسافر والقرار في الدار الآخرة ، ولن تُحط رحال السفر إلا في إحدى دارين إما الجنة وإما النار .

قال " وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ... " : وهذا فيه من الفائدة سرعة استجابة الصحابة رضي الله عنهم لوصايا النبي عليه الصلاة والسلام وتأثرهم بمواعظه صلى الله عليه وسلم ؛ فهذا هو ابن عمر رضي الله عنهما قد تأثر بهذه الوصية وأخذ يوصي بموجبها ومقتضاها ؛ فكان يقول :

" إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح " : يعني اعتبر نفسك أنك تنتهي من هذه الحياة قبل أن تصبح ، قدّر ذلك .

" وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء " : فقدّر أنك لا تبلغ المساء ، وإذا عاش الإنسان حياته بهذه الصفة تصلح حياته ويستقيم حاله وتصلح أعماله وتزيد قرباته ولا ينشغل بهذه الدنيا ولا تلهيه .

ولهذا يقولون " الإنسان ابن يومه " وإذا عقل الإنسان هذا استفاد فائدة عظيمة ؛ أما اليوم الذي مضى فهو شيء انقضى وانتهى إما على خير فيحمد الله على ذلك ، وإما على غير ذلك فليستغفر الله ، لكن اليوم الذي مضى لا يعود ؛ فإن كان أمضاه في خير حمد الله وإن كان أمضاه في غير ذلك فليستغفر وليتب إلى الله .

واليوم الآتي - يوم غد أو بعد غد - لا يدري هل يدرك ذلك اليوم أو لا يدركه ، لا يدري هل يدرك يوم غدٍ أو لا يدركه ؛ فالإنسان ابن يومه .

وكثيراً ما يُشغل الإنسان عن يومه الذي ينبغي أن تتجه همته إليه إما إلى أيام ماضية فيدخل على قلبه همٌّ وحزنٌ وغمٌّ أو نحو ذلك ، أو أيام مستقبلية وهو لا يدري هل يدركها أم لا !!

لكن إذا تفكر في يومه أنه ابن يومه فينظر في أعمال اليوم ، ويجاهد نفسه على تميمها وتكملها والإتيان بها على أحسن حال .

فقوله رضي الله عنه "إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء" مفادُه أن الإنسان ابن يومه ، وإذا وضعت رأسك على الفراش قدّر أنها الليلة الأخيرة لك في هذه الحياة ، وفي الدعاء المأثور " باسمك اللهم وضعت جنبي وبك أرفعه فإن أمسكت نفسي فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين " ؛ فأنت تقول إذا أويت إلى فراشك " فإن أمسكت نفسي فارحمها " فإذا من المتوقع أن نفس الإنسان تُمسك وتُقبض في هذا الفراش ، وكم من إنسان نام على فراشه بين أهله ولم يكن يشتكي من علة ولم يقم من فراشه ؛ ولهذا يُقدّر الإنسان ويستحضر هذا المعنى حتى تصلح حاله ، إذا قدّر هذا المعنى عندما ينام فإنه سينام بإذن الله على الفطرة ، على الإخلاص ، على الدعاء ، على حسن الصلة بالله تبارك وتعالى . بخلاف بعض الناس ينام وهو غافل عن هذا المعنى وهو في فراشه يُفكر في نفسه الآثام التي سيفعلها في الغد ! وفي الصباح ينفذ المخطط الذي دار في ذهنه في فراشه !!

بينما إذا نام الإنسان وهو لا ينتظر الصباح ويقول لعلّي لا أدرك الصباح وتكون هذه الليلة هي آخر ليلة لي في هذه الحياة فتقوى صلته بالله والتجأؤه إلى الله ورغبته ورهبه ودعائه... وغير ذلك ، فهذه وصية عظيمة ونافعة وفيها معالجة للأدواء التي تصيب القلوب والأمراض التي تعلق بالنفوس ، والاغترار بالدنيا وطول الأمل ؛ فأكثر ما يُفوّت على الإنسان الخير وأعمال البر طول الأمل ، وكم من شخص دخل قبره وقد سوّف لأعمال كثيرة مات ولم يقيم بها كل ما أراد أن يعمل عل من أعمال البر أجله بسوف لما قام بقلبه من طول الأمل ،،،

ولهذا من لطيف الوصايا والمواعظ أن أحد السلف أراد أن يعظَ أحدَ المفرطين ؛ فأخذه إلى المقابر - قد قال عليه الصلاة والسلام "ألا فزوروها فإنها تذكركم الآخرة" فأخذه إلى أحد المقابر وقال له : لو كنت في هذا المكان ماذا تتمنى ؟ قال : أتمنى أن يعيدني الله مرةً ثانية إلى الحياة الدنيا لأعمل صالحاً غير الذي أعمل ؛ قال له : أنت الآن فيما تتمناه ، والفرصة أمامك الآن ، اعمل صالحاً قبل أن تُدفن وتتمنى ولا تفيدك الأمنية .

قال " وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك " : انتهز فرصة العافية والصحة والنشاط والقوة ، انتهز هذه الفرصة الثمينة للاستفادة من الخير ، إذا كان بصرك قوياً فرصة لك أن تنظر فيه العلم ، تنظر القرآن وتقرأ وتتفقه وتتعلم ؛ لأن الإنسان قد يكبر به العمر ويضعف بصره ويحتاج أن يقرأ ولا يستطيع لأن بصره لا يساعده على القراءة ، وتجد الكتب قريبة منه ، والمصحف قريباً منه ولا يستطيع أن يقرأ لأن بصره لا يساعده .

أيضاً إذا كان سمع الإنسان قوياً ففرصة أن يسمع به الذكر والخير والكلام الطيب والعلم النافع ، إذا كانت قوة الإنسان وصحته قوية ففرصة للصلاة والصيام والمشى في أعمال الخير والبر ومساعدة الناس المحتاجين " خذ من صحتك لمرضك " ولهذا قال عليه الصلاة والسلام في حديث آخر " نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ " ؛ يعني كثير من الناس عنده صحة لكن لا يستفيد منها ، غير منتفع بها ، بل أحياناً يكون الإنسان ضعيف الصحة وأقوى من قوي

الصحة في أعمال البر ، وأحياناً يكون الإنسان فيه عيب في بدنه - إما أن يكون فاقداً لقدم أو فاقداً لإحدى يديه . لكنه يعمل عملاً لا يقوم به كثير من الأصحاء وكثير من الأقوياء .

وأذكر في هذا المسجد ، أفادني رجل . هذا الكلام قديم له ما يقرب من الثلاثين سنة - أفادني فائدة لا زلت أدعوا له بظاهر الغيب عليها ، وهو لم يكلمني ولم أكلمه ، ولم يخاطبني ولم أخاطبه .. ؛ كان في هذا المسجد تُصلى صلاة التهجد في العشر الأواخر من رمضان ، تُصلى الخمس تسليمات بثلاثة أجزاء ونصف ، والتسليمة الأولى جزء كامل - في كل ركعة نصف جزء . فكان القيام طويلاً ويتعب الناس من طول القيام ، والتسليمة الثانية بجزء كامل ، والتسليمة الثالثة والرابعة والخامسة بنصف جزء في كل تسليمة ؛ فكان القيام يطول ، فكان مرةً صلّى أمامي ، وكنت بمرافقة الوالد والجد رحمة الله عليه ؛ فصلّى أمامي وجاء بعكازتين ، وإحدى رجليه وأظنها اليسرى مفقودة من الركبة ؛ فلما قاموا لصلاة التهجد قام وصلى الخمس التسليمات كاملة على قدم واحدة بدون عُكازتين ! وهذا بعيني رأيته !!

فكنت أنظر إليه وأعيد النظر ، والرجل أمامي طوال هذه الفترة وأنا تجول في ذهني أفكار وأنظر فيه وأتعجب !! ثم قلت في نفسي وأنا أنظر إليه وأنا صغير ؛ قلت : هذا الرجل ليس معوّق ، الإعاقة موجودة في كثيرة من الناس أبدانهم صحيحة ولا يشهدون الصلوات الخمس في المساجد ؛ فهؤلاء معوّقين ، أجسامهم قوية ، يداهم قويتان .. ؛ وينادى للصلاة ولا يأتون للصلاة ! هؤلاء المعوقين .

فأعطاني هذا الرجل بدون أن يتكلم درساً في فهم معنى الإعاقة ، ومن ذلكم الحين وهذا الدرس استفدته منه أن المعوّق ليس من فقد بعض أطرافه أو فقد سمعه أو شيء من حواسه ولكنه محافظ لطاعته لربه . المعوّق الذي عنده حواس وقوة ونشاط وقدرة ، وضائعة في الشر والعياذ بالله أو ضائعة في الفساد وفي إضاعة الواجبات وارتكاب المحرمات .

ووجدت كلاماً لأهل العلم في معنى الإعاقة في ضوء قوله تعالى { قد يعلم الله المعوقين منكم } وابن القيم له رحمة الله تعالى كلام جميل في العوائق في كتابه الفوائد ، ولغيره من أهل العلم ..

فالشاهد أن صحة الإنسان وما أعطاه الله من القوة في جسمه ، في بدنه ، في حواسه ؛ ينبغي أن لا يضيعها وينبغي أن يصرفها في الخير وفي الطاعة ، والواجبات ، وفي البعد عن الحرام والآثام .

قال " ومن حياتك إلى موتك " : أي انتهز فرصة وجودك في الحياة لتعمل الأعمال الصالحة المقربة إلى الله سبحانه وتعالى

قال الشيخ عبد المحسن العباد :

[أولاً : في أخذ رسول الله ﷺ بمنكب عبد الله بن عمر تنبيه وحث له على وعي ما يُلقى عليه في هذه الحال، وإخبار عبد الله بن عمر رضي الله عنهما بذلك يدل على ضبطه وإتقانه ما سمعه من رسول الله ﷺ ؛ لأن فيه تذكّر الحالة التي حصلت عند سماعه هذا الحديث من رسول الله ﷺ .

ثانياً : قوله: “ كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ” ، الغريب هو المقيم في غير بلده لقضاء حاجة يستعدُّ لمغادرة ذلك البلد متى تمكّن من ذلك، وعابر السبيل هو المسافر الذي يمرُّ بالبلاد مروراً دون إقامة بها حتى ينتهي من سفره، ودار الغربة وعبور السبيل في هذا الحديث هي الدنيا، والسير فيها للآخرة، وذلك إنّما يكون بتذكّر الموت وقصر الأمل والاستعداد فيها للآخرة بالأعمال الصالحة، كما قال الله عز وجل: ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ وقد ذكر البخاري رحمه الله في صحيحه عن علي بن أبي طالب أنّه قال : “ ارتحلت الدنيا مدبرة، وارتحلت الآخرة مقبلة، ولكلّ واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا؛ فإنّ اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل ” ، وقد أوضح النّبّي ﷺ مثل هذه الحياة الدنيا وانتهائها، وأنّها ليست بدار قرار بقوله ﷺ: “ ما لي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلّا كراكب استظلّ تحت شجرة ثم راح وتركها ” رواه الترمذي وغيره، وقال: “ حديث حسن صحيح ” .

الشرح..

قوله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث "كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل"؛ عرفنا معنى الغريب ومعنى عابر السبيل ؛ وهذا يُستفاد منه أن المطلوب من العبد أن يستعد للدار الآخرة وأن لا يغتر بالحياة الدنيا - هذا خلاصة المطلوب في هذا الحديث - ، وذلك إنما يكون بتذكر الموت وقصر الأمل والاستعداد للدار الآخرة بالأعمال الصالحة ؛ وهذا زبدة المطلوب في هذا الحديث ؛ كما قال الله تبارك وتعالى {وتزودوا فإن خير الزاد التقوى} .

وقد أورد الإمام البخاري أثرًا عظيمًا عن علي بن أبي طالب أنه قال : “ ارتحلت الدنيا مدبرة، وارتحلت الآخرة مقبلة، ولكلٍ منهما بنون يعني أن من الناس أبناء الدنيا وليسوا من أبناء الآخرة ومن الناس من هم من أبناء الآخرة وليسوا من أبناء الدنيا لم تلهم ولم تشغلهم قال " ولكلٍ واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا؛ فإنَّ اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل “

[ثالثاً : قوله: “ وكان ابن عمر رضي الله تعالى عنهما يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء “ ، فيه مبادرة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تنفيذ وصايا الرسول صلى الله عليه وسلم، وفيه فضل عبد الله بن عمر ؛ فإنه مع تنفيذه ما وصَّاه به رسول الله صلى الله عليه وسلم يرشد غيره إلى تنفيذ ذلك، والمعنى أنَّ المسلم يكون مترقباً الموت، فهو يستعدُّ له بالعمل الصالح دون كسل أو تأخير، ويعمل الصالحات في نهاره كأنَّه لا يُدرك المساء، وفي ليله كأنَّه لا يدرك الصباح، وفي ترجمة منصور بن زاذان في تهذيب الكمال: قال هُشيم بن بشير الواسطي: “ لو قيل لمنصور بن زاذان: إنَّ ملك الموت على الباب ما كان عنده زيادة في العمل “

الشرح..

قول ابن عمر " إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء " كان يوصي بذلك وهذه الوصية مه تدل على أمرين..

• أولاً تدل على سرعة استجابته وتأثره بما أوصاه به النبي صلى الله عليه وسلم

• تدل أيضاً على عنايته بوصية الناس بهذا الخير

ومن الأمثلة الجميلة لحفظ السلف للوقت وعنايتهم له ما جاء في ترجمة منصور بن زاذان في تهذيب الكمال: قال هُشيم بن بشير الواسطي: “ لو قيل لمنصور بن زاذان: إِنَّ مَلَكَ الموت على الباب ما كان عنده زيادة في العمل “ لأن حياته كلها ماشية على حفظ الوقت بالأعمال الصالحة

رابعاً : قوله: “ وخذ من صَحَّتْ لمرضك، ومن حياتك لموتك “ ، المعنى أَنَّ المسلم يُبادر إلى الأعمال الصالحة، حيث يكون متمكِّناً منها، وذلك في حال صَحَّتْه قبل أن يأتيه ما يعوقه من ذلك كالمرض والكبر، وأن يعمر حياته بالأعمال الصالحة قبل أن يفاجئه الموت، فينتقل من دار العمل إلى دار الجزاء

الشرح..

كما جاء نضير هذا عن النبي صلى الله عليه وسلم " اغتتموا خمساً قبل خمس " ؛ فإغتنام الحياة قبل الموت، والصحة قبل المرض ، والشباب قبل الهرم .. ؛ كل ذلك مما أوصى به النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

[خامساً : مِمَّا يُستفاد من الحديث:

أولاً : الحثُّ على استشعار الغربة في هذه الحياة؛ ليستعدَّ فيها بالأعمال الصالحة.

الشرح..

استشعار الغربة في هذه الحياة هو الذي يثمر الاستعداد بالأعمال الصالحة ؛ ولهذا قال "كن في الدنيا كأنك غريب" ؛ فإذا استشعر الغربة في هذا الحياة وأنها ليست وطناً ولا مستقراً فإن ذلك يثمر الاستعداد وهو المراد ؛ فالمراد هو الاستعداد ليوم المعاد ، {وتزودوا فإن خير الزاد التقوى} .

ثانياً : فعلُ المعلم ما يلفت نظر المتعلِّم إلى وعي ما يلقي عليه؛ لقول عبد الله بن عمر: “ أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبي “ .

الشرح..

هذا داخل في باب حسن التعليم أن يفعل المعلم ما يلفت نظر المتعلم ؛ بحيث تبقى المعلومة ثابتة ومستقرة في الذهن .

ثالثاً : مبادرة الصحابة إلى تنفيذ وصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

رابعاً : فضل عبد الله بن عمر بأخذه بوصية النبي صلى الله عليه وسلم وحث غيره عليها.

الشرح..

ابن عمر رضي الله عنهما جمع بين أمرين : فعل الوصية والدلالة عليها ، وهكذا ينبغي أن يكون المسلم فيما يسمعه من الخير أن يبادر هو بنفسه بالقيام به ، وأن يفيد به الآخرين .

خامساً : الحثُّ على المبادرة إلى الأعمال الصالحة دون كسل أو تأخير [.

الشرح..

إذا أصبح الإنسان غير منتظرٍ المساء ، وأمسى غير منتظرٍ الصباح فإن الكسل يذهب عنه ولا يفكر في تأخير الأعمال ، أما الذي يكسل ويؤخر العمل هو الذي يُصاب بطول الأمل

سبحانك اللهم و بحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، اللهم صلّ وسلّم على عبدك ورسولك نبينا محمد و آله وصحبه

* * *

الدرس الثالث والثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .
أما بعد ..

الحديث الواحد والأربعون

عن أبي محمد عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: “ لا يُؤمن
أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لِمَا جئتُ به ” حديث صحيح، رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح.

الشرح..

النووي رحمه الله تعالى سَمَّى كتابه الأربعين وجمع فيه كما عرفنا إثنين وأربعين حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فزاد على العدد حديثين وسماه الأربعين ؛ فلم يعتبر الكسر أو العدد الزائد على الأربعين وهو حديثان .

هذا الحديث في بيان أهمية اتباع السنة والتقيد بما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأن يجعل المسلم
الرسول صلى الله عليه وسلم قدوة له فيما يأتي ويذر ، قال تعالى {فلا وربك لا يؤمنون حتى يُحكّموك فيما شجر
بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً} وقال تعالى {وما كان لمؤمن ولا مؤمنة
إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم} ويقول الله جل وعلا {وما آتاكم الرسول
فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا} وقال {فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهوائهم ومن أضل ممن
اتبع هواه بغير هدى من الله} وقال تعالى {ومن يطع الرسول فقد أطاع الله} وقال جل وعلا
{يا أيها الذين ءامنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول} .

فهذا الحديث في هذا الباب العظيم ؛ باب طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام ولزوم نهجه والتقيّد بما جاء عنه صلوات الله وسلامه عليه وأن تكون حال الإنسان مع السنة هي الانقياد والاستسلام والمتابعة لما جاء عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

وهذا الحديث بعض أهل العلم تكلم في إسناده ومنهم الحافظ بن رجب رحمه الله تعالى في كتابه جامع العلوم والحكم ، وذكر ثلاث علل .

ومن أهل العلم من جَوَّد إسناده ومنهم النووي رحمه الله فقال هذا حديث صحيح ، وسيأتي أيضاً النقل عن الحافظ بن رجب رحمه الله في تجويد إسناده الحديث

ومن حيث المعنى قوله " لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به " فهو حق وصحيح ، ودل عليه القرآن والسنة ؛ ومن ذلكم الآيات التي مر الإشارة إليها .

قوله " لا يؤمن أحدكم " : المراد بالإيمان هنا الإيمان الواجب ؛ فقوله " لا يؤمن أحدكم " : أي لا يؤمن الإيمان الذي أوجبه الله عليه حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به .

فالنفي هنا لكمال الإيمان الواجب ، ليس النفي لأصل الإيمان ، وليس النفي أيضاً لكمال الإيمان المستحب ؛ وهذا يفيد أن العبد ينقص إيمانه بذلك ويضعف دينه ، ويعرض نفسه للعقوبة من الله تبارك وتعالى لأنه ترك واجباً من واجبات الدين .

وعرفنا فيما سبق أن الإيمان لا يُنفى في النصوص إلا إذا ترك واجباً من واجباته أو ارتكب شيئاً من المحرمات .

قال " لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به " : بمعنى أن يلزم نفسه وتوجهات قلبه ورغباته ؛ أن يلزم نفسه بالسنة ، وأن يأطر نفسه على السنة أطراً حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به ، بمعنى أن يكون قلبه محباً لما جاء عن الرسول عليه الصلاة والسلام مقبلاً عليه ، منشراح الصدر له ، مُسَلِّماً { فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً } ولهذا المعنى المقرر لهذا الحديث موجود في القرآن الكريم ومن ذلكم

هذه الآية الكريمة {فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً} .

وقوله "حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به " : الهوى المراد به ميل القلب ؛ فلا يؤمن العبد بالإيمان الواجب حتى يكون ميل قلبه إلى ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام أو تبعاً لما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام ، فإذا كانت نفسه تنفر أو تشمئز أو تبغض ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام فهذا دليل رقة الدين وضعف الإيمان قال "حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به " بمعنى أن النفس مقبلة والصدر منشرح لتلقي ما يأتي عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه

ومما يعين في هذا الباب أن يذكر المسلم قول الله تعالى {لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم} ؛ فإذا وجد في قلب المسلم قناعة بأن الرسول عليه الصلاة والسلام أحرص على نفس الإنسان من الإنسان ؛ ويدل لهذا المعنى قوله تعالى {النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم} من دلائل هذه الآية ومعانيها أنه أحرص على نفسك منك ؛ ولهذا ينبغي أن يعود الإنسان نفسه أن يكون ميل قلبه تبعاً لما جاء به الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

وهذا يستطيع الإنسان أن يختبر نفسه في ضوئه وأن يختبر إيمانه في ضوء هذا الحديث ؛ إذا دعت نفسه إلى معصية ونهاه رسوله صلى الله عليه وسلم عنها ، وتنازع في قلبه جاذبان : جاذب الاتباع للرسول عليه الصلاة والسلام وجاذب المتابعة للهوى ؛ فمن اتبع هواه وترك ما جاءه من الهدى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فهذا ينقص إيمانه الواجب بحسب ما ارتكب من مخالفة وما وقع فيه من معصية .

وقل مثل هذا في باب المحدثات والبدع ؛ عندما يُحدث الإنسان بدعة أو تُحدث له ، ثم يقع في قلبه تجاذب بين البقاء على السنة والتمسك به ، وبين الانسياق وراء هذه البدعة واستحسانها ؛ فإذا استحسن البدعة وعمل بها نقص من إيمانه الواجب بحسب ما ارتكب من البدع والمخالفات لهدى الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

والقاعدة في هذا الباب - وقد دل عليها القرآن - أن من لم يستجب للرسول عليه الصلاة والسلام فيما يدعوا إليه فهو متبع لهواه والدليل قول الله سبحانه {إن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهوائهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله} وقال جل وعلا في الآية الأخرى {إن هي إلا أسماء

سميتموها أنتم وءاباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى } أي وتركوه ، تركوا الهدى إتباعاً للظن وهو العلم الفاسد ، واتباعاً لما تهوى الأنفس ؛ وهذا القصد الفاسد ، وإذا اجتمع في الإنسان فساد العلم وفساد القصد هلك أشد الهلكة .

فالحديث “ لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لِمَا جئتُ به ” حديثٌ عظيم في باب الاتباع والافتداء بالرسول الكريم عليه الصلاة والسلام وإلزام النفس والقلب بمحبة ما جاء عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

وقد صح في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: " لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين " وجاء في صحيح البخاري عن عمر أنه قال : " يا رسول الله لأنت أحب إليّ من كل شيء إلا من نفسي، قال: لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه ، قال : والله لأنت الآن أحب إليّ حتى من نفسي " .

فهذا الحديث والذي قبله فيهما دلالة على وجوب تقديم محبته عليه الصلاة والسلام على محبة النفس والوالد والولد والناس أجمعين .

وهذه المحبة على درجتين :

• محبة تكون في قلب المؤمن فتسوقه إلى فعل الواجب وترك المحرم ؛ وهذا القدر من المحبة قدر واجب ، وإذا نقص منه شيء نقص من إيمان العبد الواجب بحسب ما نقص من هذه المحبة الواجبة ؛ فهذه الدرجة الأولى وهي المحبة الواجبة وهي المحبة التي تُثمر فعل الواجبات وترك المحرمات .

• فإذا زادت المحبة في القلب للرسول عليه الصلاة والسلام وأثمرت متابعتة في الرغائب والمستحبات والسنن وترك ما نهى عنه عليه الصلاة والسلام وكرهه كراهة تنزيه ؛ فهذه درجة أعلى .

وفي هذا المعنى يقول الحافظ بن رجب رحم الله في كلام عظيم له في كتابه جامع العلوم والحكم يقرر فيه هذا المعنى ؛ قال رحم الله : " فالواجب على كل مؤمن أن يحب الله محبةً توجب له الإتيان بما وجب عليه منه ، فإن زادت المحبة حتى أتى بما ندب إليه منه كان ذلك فضلاً ، وأن يكره ما كرهه الله

تعالى كراهةً توجب له الكف عما حرم عليه منه ، فإن زادت الكراهة حتى أوجبت له الكف عما كرهه تنزيهاً كان ذلك فضلاً " .

وهذا كلام عظيم في بيان المحبة الواجبة والمحبة التي تُثمر فعل المستحبات وهي لأهل الإحسان وللمقربين من عباد الله السابقين بالخيرات .

وبهذا يُعلم أن الواجب على كل مسلم أن يحب الرسول عليه الصلاة والسلام محبةً تحب على كل مسلم تُثمر أن يكون هوى الإنسان تبعاً لما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام بفعل ما أوجب الله وترك ما حرم ، أما الذي يزيد على ذلك فيثمر فعل المستحب وترك المكروه كراهة تنزيه ؛ فهذا قدرٌ زائد على المطلوب في الحديث ، ولا يشملُه نفي الإيمان في الحديث “ لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لِمَا جئتُ به ” لأن نفي الإيمان لا يكون إلا في ترك واجب أو فعل محرم .

قال الشيخ عبد المحسن العباد :

[أولاً : الحديث صحَّحه النووي وعزاه إلى كتاب الحجة، قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم : “ يريد بصاحب كتاب الحجة الشيخ أبا الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي الشافعي الفقيه الزاهد نزيل دمشق، وكتابه هذا هو كتاب الحجة على تاركي المحجة، يتضمن ذكر أصول الدين على قواعد أهل الحديث والسنة، وقد خرَّج هذا الحديث الحافظ أبو نعيم في كتاب الأربعين وشرط في أولها أن تكون من صحاح الأخبار وجياد الآثار ممَّا أجمع الناقلون على عدالة ناقله ، وخرَّجته الأئمة في مسانيدهم “ ،

ثم إنَّ الحافظ ابن رجب ضعفه، وبَيَّن وجوه تضعيفه، وأمَّا الحافظ ابن حجر فقد أشار في الفتح إلى ثبوته، وجعله من حديث أبي هريرة فقال: “ وأخرج البيهقي في المدخل وابن عبد البر في بيان العلم عن جماعة من التابعين، كالحسن وابن سيرين وشُريح والشعبي والنخعي بأسانيد جياد ذمَّ القول بالرأي المجرد، ويجمع ذلك كلُّه حديثُ أبي هريرة رضي الله عنه “ لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لِمَا جئتُ به ” ، أخرجه الحسن بن سفيان وغيره، ورجاله ثقات، وقد صححه النووي في آخر الأربعين “ .

ثانياً : نفى الإيمان في الحديث نفى للكمال الواجب، قال النووي في شرح الأربعين: “ أي: أن الشخص يجب عليه أن يعرض عمله على الكتاب والسنة، ويخالف هواه ويتبع ما جاء به صلى الله عليه وسلم وهذا نظير قوله تعالى: { وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ } ، فليس لأحد مع الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم أمر ولا هوى ” .

شرح الشيخ :

قوله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث " لا يؤمن أحدكم " : عرفنا قاعدة أهل العلم في هذا الباب أن نفى الإيمان في النصوص لا يكون إلا في ترك واجب أو فعل محرم ، أما إذا ترك المسلم مستحباً أو فعل أمراً مكروهاً كراهة تنزيه لا كراهة تحريم ؛ فإن مثل هذا لا يأتي في النصوص نفى الإيمان عنه .

ثالثاً : قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم ثامناً :

“ والمعروف في استعمال الهوى عند الإطلاق أنه الميل إلى خلاف الحق، كما في قوله عز وجل: { وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ } ، وقال تعالى: { وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى } ، وقد يطلق الهوى بمعنى المحبة والميل مطلقاً، فيدخل فيه الميل إلى الحق وغيره، وربما استعمل بمعنى محبة الحق خاصة والانقياد إليه، وسئل صفوان بن عسال: هل سمعت من النبي صلى الله عليه وسلم يذكر الهوى؟ فقال: سأله أعرابي عن الرجل يحب القوم ولم يلحق بهم؟ فقال: " المرء مع من أحب " ، ولما نزل قوله عز وجل: { تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ } قالت عائشة للنبي صلى الله عليه وسلم: " ما أرى ربك إلا يسارع في هোক " ، وقال عمر في قصة المشاورة في أسارى بدر: " فهوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت " ، وهذا الحديث مما جاء استعمال الهوى فيه بمعنى المحبة المحموده “

الشرح..

هنا ذكر الحافظ بن رجب رحمه الله تعالى أن الهوى يُطلق ويُراد به الميل إلى خلاف الحق مثل قوله تعالى { وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ } المراد بالهوى خلاف الحق ، وقد يأتي الهوى في النصوص ويراد به

المحبة وميل القلب مطلقاً ، فالمراد بالهوى في هذا الحديث “ لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به ” هو ميل القلب ومحبة القلب ؛
فيكون معنى الحديث : لا يؤمن أحدكم حتى تكون محبة قلبه تبعاً لما جئت به أو حتى يكون ميل قلبه تبعاً لما جئت به .
وابن رجب رحمه الله تعالى ساق بعض الأحاديث الدالة على هذا المعنى ؛ وعليه فإن قول النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث “ لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به ” أي حتى يكون ميل قلبه أو محبة قلبه تبعاً لما جئت به .

رابعاً : ممّا يُستفاد من الحديث :

أولاً : وجوب اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم فيما جاء به .

ثانياً : تفاوت الناس في الإيمان .

الشرح ..

تفاوت الناس في الإيمان لأن هذه الخصلة التي هي من الإيمان ؛ الناس يتفاوتون فيها تفاوتاً عظيماً ، بل الشخص يعلم من نفسه في هذه الخصلة قوةً وضعفاً باختلاف الأحوال واختلاف

المؤثرات ، الشخص يرى من نفسه عندما يُوعظ ويُذكر ، وتُذكر له آيات في الاتباع والحث على السنة ، ويعرف فضل ذلك وثوابه ؛ يجد أن هذا الأمر زاد قوةً في قلبه ، وإذا شغلته الملهيّات المتنوعة والصّواد يجد أن هذا الأمر ضعف في قلبه ؛ ولهذا فالإيمان يتفاوت ، ويزيد وينقص ، ويقوى ويضعف ، وأهله ليسوا فيه سواء بما في ذلكم المحبة ، والمحبة من الإيمان . محبة الله ورسوله عليه الصّلاة والسّلام - فهي في الشخص الواحد تزيد وتنقص ، وتقوى وتضعف بحسب المؤثرات والأحوال والأسباب التي يترتب عليها إما الزيادة أو النقصان

..*

الحديث الثاني والأربعون

عن أنس رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " قال الله تعالى: يا ابن آدم! إنَّك ما دعوتني ورجوتني غفرتُ لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم! لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرتُ لك، يا ابن آدم! إنَّك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة " .

رواه الترمذي وقال: " حديث صحيح "

الشرح..

هذا آخر الأحاديث التي جمعها الإمام النووي رحمه الله تعالى ، وعددها اثنان وأربعون حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أولها " إنما الأعمال بالنيات " وآخرها هذا الحديث القدسي الذي رواه أنس ب مالك رضي الله عنه

وهذا الحديث حديثٌ قدسي فيه ثلاث جُمَل كل واحدة منها مبدوءة بقول الرب سبحانه وتعالى " يا ابن آدم " ؛ فالخطاب هنا لبني آدم ، وهو حديثٌ قدسي جامع لأسباب مغفرة الذنوب والعق من النار ، وهو أجمع حديث في هذا الباب ، بل إن هذا الحديث جُمعت فيه أمهات أسباب المغفرة ؛ وهي أمورٌ ثلاثة :

الأول : دعاءُ الله سبحانه وتعالى مع رجاءه .

الثاني : الاستغفار مع عدم الإصرار على الذنب .

الثالث : التوحيد ؛ وهو أعظم أسباب مغفرة الذنوب وأرفعها على الإطلاق .

قال الله تعالى في هذا الحديث القدسي " يا ابن آدم إنَّك ما دعوتني ورجوتني غفرتُ لك على ما كان منك ولا أبالي " : وهذا فيه الجمع بين الدعاء والرجاء {إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهبا} وقال جل وعلا {أولئك الذين يدعون يبتغون إلى رحم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه} .

والداعي يجب عليه في دعائه أن يُظهر افتقاره إلى الله وأن تقوى ثقته بالله تبارك وتعالى وأن يحسن بالله جل وعلا الظن ، وأن يدعو دعاء موقن بالإجابة لا دعاء متردد ؛ قال عليه الصلاة والسلام " ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة فإن الله لا يستجيب من قلب لاه " ، ودعاء الله مع وجود يقين بالإجابة ؛ هذا ناشئ عن قوة الرجاء والطمع فيما عند الله سبحانه وتعالى ، ويجب على

العبد أن يدرك مهما عظم مطلوبه وعظمت حاجته التي يطلبها من الله أن يعلم أن ربنا سبحانه وتعالى لا يتعاضمه شيء ؛ ولهذا جاء في الحديث "وليُعْظِم الرغبة فإن الله لا مكره له " : أي ليعظم الرغبة في الله وفيما عنده سبحانه وتعالى ، لا يقول هذا الطلب عظيم أو كثير أو مثل هذا الطلب قد لا يكون .. ؛ فليعظم الرغبة فإن الله لا مكره له .

وإذا ذكر المسلم في هذا الباب أن عطاء الله سبحانه وتعالى كلام ، ومنعه كلام ؛ {إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون} ولهذا يجب على المسلم أن يسأل الله جل وعلا برغبة عظيمة ورجاء بالله سبحانه وتعالى وحسن ظن به ، وأن لا يتعاضم الأمر الذي يسأله الله ؛ بل يسأل الله عز وجل ما أراد من خيري الدنيا والآخرة ومن ذلكم غفران الذنوب ، وليعلم أن الله سبحانه وتعالى لا يتعاضمه شيء سئله أن يُعطيه ، ولا ذنب سُئِلَ الله فيه الغفران أن يغفره ، وهو تبارك وتعالى الجواد الكريم الوهاب المنان الغفور الرحيم جل وعلا ، وقد مر معنا الحديث القدسي حديث أبي ذر : "كلكم ضال فاستهدوني أهدكم" ، إلى أن قال : "لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسألته مانقص ذلك من ملكي شيئاً إلا كما ينقص المحيط إذا غُمس في اليم" ، إذاً هذا السبب الأول من أسباب مغفرة الذنوب .

يقال " ١ بن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي " : وفي هذا أن الله سبحانه وتعالى يغفر الذنوب مهما كثرت ومهما عظمت . ونضير هذا قوله الله سبحانه وتعالى {قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم} والاستغفار المذكور في هذا الحديث المراد به الاستغفار الذي لا يكون معه من العبد إصرار على الذنب {ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون} بل يستغفر من الذنب وهو نادم على فعله وعلى الوقوع فيه وعازم على عدم العودة إليه ، فيكون هذا الاستغفار مستصحباً العبد معه التوبة من الذنب وعدم الإصرار عليه أو عطف النية على الاستمرار عليه .

فهذا هو السبب الأول من أسباب المغفرة ؛ وهو الدعاء مع الرجاء .

السبب الثاني : قال : "يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك " : عنان السماء " أي السحاب ، أي لو بلغت ذنوبك كثرةً إلى حدِّ السحاب ثم استغفرتني ، والمراد بالاستغفار هو الاستغفار الذي لا يكون معه إصرار على الذنب ولا يكون معه عزم

على المداومة عليه ؛ بل يكون استغفار عن ندم ، وعن عزم على عدم العودة إلى الذنب ؛ فإذا كان العبدُ مستغفراً ربه جل وعلا من ذنوبه غير مصرٍ عليها ؛ نال هذا الذي قاله الربُّ جل وعلا في هذا الحديث القدسي " غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي " ، والله سبحانه وتعالى يقبل توبة التائبين وإنابة المنيبين واستغفار المستغفرين إذا كان الاستغفار عن غير إصرار ، أما إذا لم يكن كذلك فإن الاستغفار يكون دعاء ،

أستغفر الله : يعني أسألك يا الله أن تغفر ذنبي وأن تسترني وأن تتجاوز عني ، ويكون حكمه حكم بقية الأدعية ، والدعاء عرفنا فيما سبق أن لإجابته أسباب ولعدم إجابته موانع ، لكن إذا استغفر استغفاراً مع عدم إصرار وندم وتوبة غفر الله له ما كان منه .
السبب الثالث :

قال : " يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم أتيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة " : وقراب الأرض أي ملء الأرض أو ما يقارب ملئها .

وقوله : " شيئاً " نكرة في سياق النفي ؛ فتفيد العموم ؛ أي لا تشرك بي أي شيء من الشرك لا صغيره ولا كبيره ؛ وهذا فيه فضل تحقيق التوحيد وأن من حقق التوحيد بدون حساب ولا عذاب ، إذا جاء يوم القيامة محققاً توحيد لا يشرك بالله شيئاً .

وتحقيق التوحيد المراد به تصفية التوحيد وتنقيته من شوائب الشرك والبدع والمعاصي ؛ بمعنى أن يكون توحيد صافياً نقياً ؛ فإذا جاء الموحد بهذه الصفة محققاً توحيد دخل الجنة بدون حساب ولا عذاب ،

وقد ذكر أهل العلم أن تحقيق التوحيد على ربتين :

التحقيق الواجب : وهو فعل المقتصدين .

التحقيق المستحب : وهو فعل المقربين .

وكلٌ منهما يدخل الجنة بدون حساب ولا عذاب ، وكل منهما يتناوله ما جاء في هذا الحديث " يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم أتيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة " وإذا كان العبد جاء يوم القيامة بتوحيد مع معاصي وآثام ؛ فإن أمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له ، وإن عذبه فإنه لا يخلد في النار لقوله تعالى {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء} والمراد بما دون ذلك أي من عصاة الموحدين ، ومن دخل النار

من عصاة الموحدين فإنه يدخل فيها لِيُطَهَّرَ ويُنقى من ذنوبه ولا يخلد فيها ؛ ولهذا قال أهل العلم : " إن الموحّد عندما يدخل النار لا يُلقى فيها كما يُلقى المشرك ، و لا يلقى فيها كما يلقى المشرك ولا يبقى فيها ما يبقى المشرك " ؛ قال الله عن إلقاء المشركين في النار { يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مسَّ سقر } ، والحديث ذكر فيه النبي ﷺ أن المشرك يؤتى به يمشي على وجهه إلى أن يُلقى في نار جهنم ، حتى قال أحد الصحابة : يا رسول الله أو يمشي المشرك يوم القيامة على وجهه ؟ يعني هذا أمرٌ عجيب ! يمشي مسافة على وجهه إلى أن يقع على أم رأسه في نار جهنم ؛ وهذا معنى قوله تعالى { فأمه هاوية } ، قال عليه الصلاة والسلام " أوليس الذي أمشاه على قدميه في الدنيا قادرٌ على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة ؟ "

وأيضاً الموحّد في النار لا يلقى ما يلقاه المشرك أي لا يلقى من العذاب ما يلقاه المشرك ؛ فهو دون العذاب الذي يلقاه المشرك فعذاب المشرك أشد .

والأمر الثالث : لا يبقى في النار بقاء المشرك ؛ فالمشرك يبقى في النار أبد الآباد ، يقول تعالى { لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها } ، وأما الموحّد فإنه يبقى في النار لوقت محدود ثم يُخرج ، كما في الحديث القدسي " أخرجوا من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه أدنى مثقال ذرة من إيمان " فالموحّد إذا دخل النار يختلف دخوله النار عن المشرك فلا يُلقى في النار كما يُلقى المشرك ، و لا يلقى فيها كما يلقى المشرك ولا يبقى فيها كما يبقى المشرك .

قوله " يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم أتيتني لا تشرك بي شيئاً " وهذا فيه فضل التوحيد والبراءة من الشرك كله دقيقه وجليله ، وفيه فضل تحقيق التوحيد والبراءة من الشرك ، وهذا المقام يتطلب من العبد أموراً :

أولاً : أن يعرف الشرك ليجتنبه ويكون منه على حذر ؛ فمن لا يعرف الشرك كيف يتقيه . الأمر الثاني : يتطلب منه أن يكون على خوف من الشرك وعلى خوف من الوقوع فيه قد قال عليه الصلاة والسلام " إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الخفي فسئل عنه قال الرياء " .

الأمر الثالث : أن يجاهد نفسه دائماً على البعد عنه صغيره وكبيره

الأمر الرابع : أن يدعو الله لاسيما الدعاء العظيم المأثور عن النبي ﷺ " اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم " . فيتعوذ بالله من الشرك ما علمه وما لم يعلمه ، ما وقع منه عن علم ، وما وقع منه عن عدم علم .

قال الشيخ عبد المحسن العباد :

[أولاً : هذا الحديث هو آخر الأحاديث التي أوردها النووي رحمه الله في كتابه الأربعين، وقد زادت على الأربعين حديثين، فيكون إطلاق الأربعين عليها من تغليب اللفظ وحذف الكسر الزائد في العدد، وهو من الأحاديث القدسية التي يرويها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه تبارك وتعالى .

ثانياً : الخطاب في الحديث لبني آدم، وهو مشتمل على أن من أسباب مغفرة الذنوب دعاء الله ورجاءه مغفرة الذنوب والاستغفار منها والإخلاص لله والسلامة من الشرك، ومعنى مغفرة الذنوب سترها عن الخلق والتجاوز عنها، فلا يُعاقب عليها.

الشرح..

هذا الحديث جمع أعظم أسباب مغفرة الذنوب واجتمع فيه أمور ثلاثة تلخص فيما يلي:

أن من أسباب مغفرة الذنوب دعاء الله ورجاءه مغفرة الذنوب والاستغفار منها والإخلاص لله تعالى والسلامة من الشرك ؛ فتجتمع هذه الأمور التي ذكرت في الحديث في هذه الجملة المختصرة ، وهذه أعظم أسباب مغفرة الذنوب .

ثالثاً : قوله: “ يا ابن آدم! إنك ما دعوتني ورجوتني غفرتُ لك على ما كان منك ولا أبالي ”

، دعاء العبد ربه مغفرة ذنوبه ورجاؤه ذلك منه دون يأس مع التوبة من الذنوب يحصل به من الله المغفرة ولو عظمت الذنوب وكثرت وتكررت، ولهذا قال: “ على ما كان منك ولا أبالي ” ونظير هذا قول الله عز وجل: { قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } .

الشرح..

هذا السبب الأول من أسباب مغفرة الذنوب دَلَّ عليه قول الله تعالى " يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي " : والمعنى الذي تدل عليه هذه الجملة أن دعاء العبد ربه مغفرة ذنوبه ورجاءه ذلك منه دون يأْس مع التوبة من الذنوب يحصل به من الله المغفرة ؛

فالدعاء الذي ورد هنا دعاء الله مع رجاءه أي دعاءه غفران الذنوب مع الرجاء وأن يكون ذلك عن توبة وعدم إصرار على الذنوب .

[رابعاً : قوله: “ يا ابن آدم! لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرتُ لك “ ، لو كثرت ذنوب العبد حتى بلغت عنان السماء، أي: بلغت السماء أو ما دون ذلك كالسحاب أو ما يبلغه بصر الناظر إلى فوق، ثم حصل من العبد الاستغفار مع التوبة من جميع الذنوب، فإنَّ الله تعالى يغفر تلك الذنوب ويتجاوز عنها، والتوبة تكون بالإقلاع من الذنب والندم على ما فات والعزيمة في المستقبل على ألا يعود إليه، ومع هذه الثلاثة، فإن كان الذنب في حقِّ الله عزَّ وجلَّ وفيه كفَّارة، أتى بالكفارة، وإن كان في حق للآدميين، أدَّى حقوقهم إليهم أو تحلَّ لهم منها] .

الشرح..

هذا السبب الثاني من أسباب المغفرة لقوله تبارك وتعالى "يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء " أي لو كثرت الذنوب وعظمت وتعددت وحصل من العبد الاستغفار مع التوبة والندم والعزم على عدم العودة إليه ؛ فإن الله عز وجل يغفر له على ما كان منه ولا يبالي .

ودلت نصوص أخرى أن الأمر الذي تاب منه العبد لو كان يتعلق بحقوق الآخرين فلا بد من إعادة الحق لأهله أو طلب المسامحة والعفو من أصحابه .

خامساً : قوله: “ يا ابن آدم! إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة “ ، الشرك بالله عزَّ وجلَّ هو الذنب الذي لا يغفره الله، وكلُّ ذنب دون الشرك

فهو تحت مشيئة الله، إن شاء عفا عن صاحبه ولم يعذبه، وإن شاء عذَّبه وأدخله النار، ولكنه لا يُخلَّد فيها خلود الكفار، بل لا بدَّ أن يخرج منها ويدخل الجنة، كما قال الله عزَّ وجلَّ { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ } في آيتين من سورة النساء، وفي هذا الحديث بيان أنَّ الذنوب ولو بلغت في الكثرة ما بلغت، فإنَّ الله يتجاوز عنها، بشرط كون العبد مخلصاً لعبادته لله سليماً من الإشراك به.

الشرح..

هذا السبب الثالث من أسباب مغفرة الذنوب وهو أعظمها ، بل إن التوحيد إذا انتفى من العبد ومات على ذلك فلا مطمع له أبداً في مغفرة الذنوب ولا مطمع له في رحمة الله ، بل ليس له في الآخرة إلا النار مخلداً فيها أبد الآباد

كما قال الله { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ } وهذا يدلنا دلالة عظيمة على فضيلة التوحيد ومكانته ، وأنه أعظم أسباب مغفرة الذنوب ، ويدلنا أيضاً على خطورة الشرك وأن من مات مشركاً ليس له إلا النار ، بل ليس بين المشرك وبين النار إلا أن يموت كما في الحديث الصحيح عن النبي عليه الصلاة والسلام "من مات وهو يدعو من دون الله نداً دخل النار" فالحديث يدل على أن النار قريبة جداً من المشرك فليس بينه وبين أن يدخل النار إلا أن تفارق روحه جسده . وإذا فارقت روحه جسده وهو مشرك بالله انتهى أمره ولا مطمع له في مغفرة الله ؛ ولهذا المشرك يطلب أن يُعاد للدنيا ليعمل صالحاً غير الذي يعمل ، يطلب أن يخفف عنه العذاب ، يطلب أن يُقضى عليه فيموت ؛ فلا يحصل شيئاً من ذلك ولا ينال شيئاً من مغفرة الله تبارك وتعالى .

[سادساً : مِمَّا يُسْتَفَادُ مِنَ الْحَدِيثِ :

أولاً : سعة فضل الله عزَّ وجلَّ ومغفرة ذنوب عباده.

ثانياً : من أسباب مغفرة الذنوب دعاء الله ورجاؤه من غير يأس.

ثالثاً : فضل الاستغفار مع التوبة، وأنَّ الله يغفر للمستغفر ذنوبه ولو بلغت في الكثرة ما بلغت.

لأن الاستغفار بدون توبة دعاء وللدعاء لإجابته شروط ولعدم إجابته موانع ، لكن إذا كان مع الاستغفار توبة أي استغفر وهو تائب غير مصر بل نادم على فعله للذنوب وعازم أن لا يعود عليها فهذا شأنه كما جاء في الحديث يغفر له ذنوبه

رابعاً : أنَّ الشرك بالله هو الذنب الذي لا يُغفر، وأنَّ ما سواه تحت مشيئة الله.

خامساً : فضل الإخلاص، وأنَّ الله يُكَفِّر به الذنوب.

سبحانك اللهم و بحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، اللهم صلّ وسلّم على عبدك
ورسولك نبينا محمد و آله وصحبه

..*



شرح الأربعين النووية

لأبي زكريا يحيى بن شرف الحزامي النووي رحمه الله

من الدرس ٣٤ إلى الدرس ٣٦

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما الله تعالى

١٤٤٠/٠٧/٢٢ هـ

الدرس الرابع والثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .
أما بعد ..

الحديث الثالث والأربعون

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ألحقوا الفرائض بأهلها فما أبقت الفرائض
فلأولى رجل ذكر " خرجه البخاري ومسلم
الشرح..

هذا الحديث هو أول حديث من الأحاديث التي زادها الحافظ بن رجب رضي الله تعالى عنهما على كتاب
الأربعين للإمام النووي رحمه الله .
وقد عرفنا أن النووي رحمه الله جمع اثنين وأربعين حديثاً ، وزاد عليها الحافظ بن رجب ثمانية أحاديث
؛ فبلغ مجموع كل خمسون حديثاً .
وقد شرح كل ذلك الحافظ بن رجب رضي الله عنه في كتاب حافل ومؤلف جامع سماه جامع العلوم
والحكم ؛ وهو كتاب على اسمه ؛ جمع علماً غزيراً وفوائد عظيمة لا يستغني عنها طالب علم .
وهذا الحديث حديث جامع في بابيه - باب الميراث - بل هو يُعدُّ أصلاً عظيماً يُبنى عليه هذا
الباب ، وكما بيّن أهل العلم فإن هذا الحديث جمع جُلَّ أحكام الميراث ، ويُعدُّ أصلاً جامعاً
وأساساً يُبنى عليه هذا العلم .
وقد قال عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث " ألحقوا الفرائض بأهلها فما أبقت الفرائض فلأولى رجل ذكر " :
المراد بـ " الفرائض " أي المُقدَّرة في كتاب الله تعالى .
" بأهلها " : أي الورثة الذين ذكر الله سبحانه وتعالى مقدار أنصبتهم من الميراث .

والفرائض المقدرة في كتاب الله جل وعلا جاءت تحديداً في ثلاث آيات فقط من سورة النساء ؛ آيتين في بداية السورة وآية حُتِمت بها سورة النساء .

ففي هذه الثلاثة آيات ذكر الله سبحانه وتعالى الفرائض وذكر أهل الفرائض أما الفرائض التي ذكرها الله جل وعلا في هذه الثلاث آيات فهي ستة : النصف والربع والثلث والثلثان والثلث والسدس .

وأما أهل هذه الفرائض فأيضاً جاء مبيناً في هذه الآيات ؛ فذكر أولاً جل وعلا ميراث الأبناء - الأولاد . ثم ذكر ميراث الوالدين ، ثم ذكر ميراث الأزواج ، ثم ذكر سبحانه وتعالى ميراث الزوجات ، ثم ذكر ميراث الأخوة والأخوات .

فهؤلاء هم أهل الفرائض الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم "ألحقوا الفرائض بأهلها" أي ألحقوا الفرائض المقدرة في كتاب الله عز وجل بأهلها المذكورين في كتاب الله عز وجل الذين هم أهل تلك الفرائض .

وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال " إن الله أعطى كل ذي حقٍ حقه " . ويجب أن يُستشعر هنا أن الذي أعطى كل ذي حق حقه عليم حكيم سبحانه وتعالى ؛ عليم بعباده حكيم في قضاءه وأحكامه وتدبيره سبحانه وتعالى ؛ ولهذا قال جل وعلا في ثنايا آيات الموارث { لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً } ؛ ولهذا قال نبينا عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث العظيم " ألحقوا الفرائض بأهلها " ، وعرفنا أن المراد بالفرائض الستة المذكورة في الآيات ، والمراد بأهل الفرائض من بيّنهم الله تبارك وتعالى في هذه الآيات ؛ فذكر جل وعلا أولاً الأولاد ، ثم ذكر الوالدين ، ثم الأزواج ، ثم الزوجات ، ثم الأخوة ، ثم الأخوات .

بدأ جل وعلا أولاً بذكر ميراث الأولاد ؛ فقال سبحانه وتعالى { يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين فإن كن نساءً فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وإن كانت واحدة فلها النصف } انتهى هنا ميراث الأولاد .

ثم ذكر ميراث الوالدين فقال { ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث فإن كان له إخوة فلأمه السدس } .

ثم في الآية التي تليها ذكر الله سبحانه وتعالى ميراث الأزواج قال { ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين } هذا ميراث الأزواج .

ثم ذكر ميراث الزوجات قال {ولهـن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهـن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين} .

ثم ذكر جل وعلا بعد ذلك ميراث الأخوة قال {وإن كان رجلٌ يورث كلالة أو امرأة} أي تُورث كلالة ، والمراد بالكلالة أي الذي ليس له آباء ولا أولاد ، يعني ليس له فرعٌ ولا أصل .

{وإن كان رجلٌ يورث كلالة أو امرأة وله أخٌ أو أخت} والمراد بالأخ والأخت هنا بإجماع أهل العلم الأخ والأخت لأم ، وسيأتي ميراث الأخوة الأشقاء والأخوة لأب في آخر آية من سورة النساء .

قال تعالى {وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث}

ثم ذكر في آخر آية من سورة النساء ميراث الأخوة الأشقاء والأخوة لأب فقال جل وعلا {يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها إن لم يكن لها ولد فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك وإن كانوا إخوة رجالاً ونساءً فللذكر مثل حظ الأنثيين} .

فهذه هي المواريث المقدرة في كتاب الله تبارك وتعالى والتي قال عنها صلوات الله وسلامه عليه "ألقوا الفرائض بأهلها" .

ثم قال : " فما أبقت الفرائض فلأولى رجل ذكر " : فأول ما يبدأ بقسم الميراث يُبدأ بأهل الفرائض ؛ فكلٌ يُعطى نصيبه حسب التقدير المبين في هذه الآيات .

" فما أبقت الفرائض فلأولى رجل ذكر " : المراد بقوله صلوات الله وسلامه عليه " فلأولى رجل ذكر " ؛ أي أن ما بقي بعد الفروض المقدرة في كتاب الله جل وعلا فإنه يكون لأولى رجل ذكر أي لأقرب رجل ذكر للميت ، وقد بين أهل العلم ذلك : أقربهم البُنوة ، ثم بنوهم وإن نزلوا ، ثم الأب ، ثم الجد من الأب وإن علا ، ثم الأخ الشقيق ، ثم الأخ من الأب ، ثم ابن الأخ الشقيق ، ثم ابن الأخ لأب وإن نزلوا ، ثم الأعمام ، ثم بنوا الأعمام ، ثم المعتق ، ثم عصبته كذلك .

" فما أبقت الفرائض فلأولى رجل ذكر " أي يُعطى ما بقي من الفرائض ، حسب الجهة والمنزلة وقوة القرابة .

هذا معنى الحديث إجمالاً وأما تفاصيل ذلك فقد بينها أهل العلم في كتب المواريث .

قال الشيخ عبد المحسن العباد :

[أولاً : هذا الحديث هو أوَّل الأحاديث الثمانية التي زادها الحافظ ابن رجب رحمه الله فأكمل العدة خمسين على ما جمعه الإمام النووي رحمه الله في الأحاديث الأربعين، ويلاحظ أنَّ الحافظ ابن رجب عند ذكر الذين رووا الأحاديث من الأئمة يُعبّر بـ “ خَرَّجَه “ ، ويُعبّر أيضاً بـ “ رواه “ ، وأمّا النووي فكان تعبيره بـ “ رواه “ ، ولا فرق بين التعبيرين؛ لأنَّ معناهما واحد.

ثانياً : هذا الحديث أصلٌ في قسمة الموارث، والمراد بالفرائض المقدَّرة في كتاب الله، وهي ستة، وهي: الثلثان، والثلث، والسدس، والنصف، والرَّبع، والثلث، ويُقال فيها اختصاراً: الثلثان، والنصف، ونصفهما، ونصف نصفهما، أو يُقال: الثلثان، والثلث، والسدس، ونصفهما، ونصف نصفهما، أو يُقال: الثلثان، والثلث، والرَّبع، وضعف كلٍّ، ونصفه، والمراد بالفروض المقدَّرة وما جاء معها في القرآن من الإرث بغير تقدير، في حال اجتماع الأولاد والأخوة لغير أم، ففي حال اجتماع الأولاد إذا كانوا ذكوراً وإناثاً فللذكر مثل حظِّ الأنثيين، وإن كانوا إناثاً لا ذكور معهم، فللثنتين فأكثر الثلثان، وللبنات الواحدة النصف، هذا إذا كنَّ في درجة واحدة، كالبَنات وبنات الأبناء، فإن كنَّ في درجتين وكان البنات ثنتين فأكثر لم يكن لبنات الابن شيء؛ لاستيعاب البنات الثلثين، وإن كانت البنت واحدة فلها النصف، ولابنة الابن أو بناته السدس تكملة الثلثين؛ لثبوت السنة في ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم رواه البخاري ، أمّا إذا كان الأولاد ذكوراً حُلَصَّاً، سواء كانوا أبناء أو أبناء بنين عند فقد الأبناء، فإنَّ الواحدَ منهم يحوز الميراث كلَّه، والجمع يقتسمونه بينهم بالسوية، ويُقال أيضاً في ميراث الأخوة الأشقاء والأخوة لأب ما قيل في ميراث الأولاد من تقديم الأخوة الأشقاء على الأخوة لأب، فيقتسم الذكور الحُلَصَّ الميراث بالسوية، فإن كانوا ذكوراً وإناثاً فللذكر مثل حظِّ الأنثيين، والواحدة منهنَّ لها النصف، والاثنتان فأكثر لهما الثلثان، ويكون ميراث الأخوة لأب مثل ميراث الأخوة الأشقاء عند فقدهم، وإذا وُجد أخت شقيقة أخذت النصف، وللأخوات لأب معها السدس تكملة الثلثين، سواء كنَّ واحدة أو أكثر، وأمّا الأبوان فلكلِّ واحد منهما السدس إذا كان للميت ولد، وإن كان الولد إناثاً فإنَّ الأب يأخذ الباقي تعصيباً، وإذا لم يكن للميت ولد فإنَّ الأمَّ تأخذ الثلث، والباقي للأب، إلّا أنَّه في هذه الحالة إذا كان مع الأبوين أحد الزوجين فإنَّ الأمَّ تأخذ ثلث ما يبقى

بعد فرض أحد الزوجين، ويُقال لهاتين المسألتين العُمريتان؛ لقضاء أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بذلك.

وإذا كان للميت إخوة، سواء كانوا أشقاء أو لأب أو لأم، فإنَّ ميراث الأم يكون السدس، والجد أبو الأب يرث ميراث الأب عند فقده، والجدَّة عند فقد الأم ترث السدس، سواء كانت الجدة من قبل الأم أو من قبل الأب، وعند اجتماع الجدَّات الوارثات يشتركن في السُدس، وأمَّا الأخوة لأم فميراث الواحد منهم السُدس إذا لم يكن للميت فرع وارث أو أصل من الذكور وارث، وإن كانوا أكثر من واحد، سواء كانوا ذكوراً خُلصاً، أو إناثاً خُلصاً أو ذكوراً وإناثاً، اشتركوا في الثلث بالسوية، لا فرق في ذلك بين ذكورهم وإناثهم، وأمَّا ميراث الزوجين، فالزوج يرث النصف إذا لم يكن للميت فرع وارث، فإن وُجد كان له الربع، والزوجة ترث الربع إذا لم يكن للميت فرع وارث، فإن وُجد كان لها الثمن، وإن كنَّ أكثر من زوجة اشتركن في الربع أو الثمن.

قد ذكر الله عزَّ وجلَّ في كتابه العزيز قسمة الموارث في ثلاث آيات: الآية الأولى قوله تعالى: { يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ... } الآية، وهي في ميراث عَمَوَدِي النسب، أصول الميت وفروعه، والآية الثانية قوله:

{ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ } الآية، وهي في ميراث الزوجين والأخوة لأم، والآية الثالثة قوله تعالى في آخر آية من سورة النساء:

{ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ } الآية، وهي في ميراث الأخوة الأشقاء والأخوة لأب.

هذه الآيات الثلاث جمعت الفرائض المقدرة؛ التي قدرها الله سبحانه وتعالى في كتابه وأيضاً اشتملت على الأنصبة التي مر بيانها.

والآية الأولى اشتملت على ميراث عَمَوَدِي النسب أي أصول الميت وفروعه - الأب وإن علا والابن وإن نزل - والآية الثانية اشتملت على ميراث الزوجين والأخوة لأم فذكر أولاً ميراث الأزواج ثم ذكر ميراث الزوجات ثم ذكر ميراث الأخوة لأم والآية الأخيرة من سورة النساء اشتملت على ميراث الأخوة الأشقاء والأخوة لأب.

ثالثاً: مِمَّا تَقَدَّمَ يَتَبَيَّنُ أَنَّ الأبناء وأبناء الأبناء وإن نزلوا إذا كان معهم إناث اشتركوا في الميراث: للذكر مثل حظِّ الأنثيين، وكذلك الأخوة الأشقاء والأخوة لأب تشترك معهم أخواتهم: للذكر

مثل حظّ الأنثيين، وأمّا أبناء الأخوة لأم فليس لهم نصيب في الميراث، وأمّا أبناء الأخوة الأشقاء والأخوة لأب وكذلك الأعمام وإن علوا أو أبناء الأعمام وإن نزلوا فإنّ ذكورهم يستقلّون بالميراث عن أخواتهم؛ لأنّ الإناث منهم لا يُفرض لهنّ عند الانفراد، فكذلك لا ميراث لهنّ عند الاجتماع، ويختصّ الذكور منهم بالميراث لقوله صلى الله عليه وسلم: “ ألحقوا الفرائض بأهلها، فما أبقت الفرائض فلاولى رجل ذكر ” .

وإذا كان للميت بنت أو بنات وأخت شقيقة أو شقيقات وله أيضاً إخوة لأب، فإنّ الأخوة لأب لا يرثون؛ وترث الشقيقة أو الشقيقات ما زاد على فرض البنات تعصياً مع الغير ؛ لثبوت السنّة بذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم رواه البخاري ، فيكون ذلك مستثنى من حديث: “ ألحقوا الفرائض بأهلها، فما أبقت الفرائض فلاولى رجل ذكر ” ؛ لأنّ الشقيقات أقرب إلى الميت من الأخوة لأب.

رابعاً : فائدة ذكر الذكر بعد الرجل في قوله: “ فلاولى رجل ذكر ” أنّ الرّجل هو الذي يكون كبيراً وفيه نجدة وقوة، فأضيف إليه لفظ “ ذكر ” لبيان أنّ الميراث منوطٌ بالذكورة لا بالرجولة والقوة، فيتساوى في ذلك من يكون كبيراً جداً ومن يكون صغيراً جداً.

قوله “ فلاولى رجل ذكر ” المراد بهذا القيد أن الحكم منوط بالذكورة لا بالرجولة سواء كان كبيراً أو صغيراً فالميراث “ فلاولى رجل ذكر ” فيكون لأقرب الناس من الذكور .. هذا فائدة القيد

خامساً : ممّا يُستفاد من الحديث:

أولاً : كمال الشريعة واشتمالها على قواعد كليّة عامة، كما جاء في هذا الحديث.

ثانياً : تقديم من يرث بالفرض فيعطى ميراثه، وما بقي يكون لمن يرث بغير تقدير.

ثالثاً : بناء على هذا الحديث يكون الراجح في مسألة الجد والأخوة اختصاص الجدّ بالميراث دون الأخوة ؛ لأنّه أصل، والأخوة يرثون كلاله ، والجدّ مثل الأب، فيستقلّ بالميراث دونهم، وأيضاً يكون الراجح تقديم الأخوة لأم على الأخوة الأشقاء في مسألة المشتركة؛ لأنّ الأخوة لأم

يرثون بالفرض، والأشقاء يرثون بالتعصيب، وصاحب الفرض يُعطى فرضه، ويأخذ الذين يرثون بالتعصيب ما بقي إن بقي بعد الفروض شيء، وإلا سقطوا] .

..*

الحديث الرابع والأربعون

عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الرضاعة تحرم ما تحرم الولادة "

خرجه البخاري ومسلم

الشرح..

هذا الحديث الرابع والأربعون وهو الحديث الثاني من الأحاديث التي زادها الحافظ بن رجب رحمه الله تعالى على كتاب الأربعين للإمام النووي رحمه الله تعالى .

وهذا الحديث من الأحاديث الجوامع وهو معدود في جوامع كلم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو أصل في بابه يُرجع إليه .

قال " الرضاعة تحرم ما تحرم الولادة " : أي بأنه يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب ؛ وهذه قاعدة وأصل جامع في هذا الباب يُعرف به المحرمات من الرضاعة .

والمراد بالرضاعة : أي الرضاعة التي كانت في الحول وأيضاً كان عددها خمس رضعات ؛ فإذا حصلت هذه الرضاعة في حولين وكان عدد الرضعات خمس سواءً في وقت واحد أو في أوقات متفرقة ، والمراد بالرضعة أن يلتقم الطفل الثدي ثم يُطلقه ، فإذا رجع و التقمه مرةً أخرى ورضع ثم أطلقه فتكرر منه ذلك ؛ هذه تُعد خمس رضعات ولو كان ذلك في مجلس واحد ؛ فلا يُشترط في الخمس رضعات أن تكون في أيام أو أن تكون في أوقات مختلفة ؛ بل يمكن أن يكون ذلك في مجلس واحد ؛ بأن يكون الطفل في حجر المرأة ثم يحتاج إلى الرضاع فيرضع ثم يترك ثم يعود مرةً ثانية ثم ثالثة ؛ فإذا حصل خمس رضعات وكانت هذه الرضعات في الحولين فإن هذه الرضاعة تكون محرمة . وتُحرم هذه الرضاعة ما يحرمه النسب ؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام " يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب " أو قال " الرضاعة تحرم ما تحرم الولادة " .

والمحرمات من النسب سبع جاء بيانهن في كتاب الله عز وجل وهن : الأمهات من كل جهة وإن علون ، والبنات من كل جهة وإن نزلن ، والأخوات مطلقاً - سواءً شقيقة أو لأب أو لأم . والعمات والخالات وبنات الأخ وبنات الأخت وإن نزلن ؛ فهؤلاء هن المحرمات من النسب ؛ قال الله عز وجل ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبنَاتُكُمْ وَأَخُوتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبنَاتُ الْأَخِ وَبنَاتُ الْأُخْتِ... ﴾ .

وقول النبي ﷺ في هذا الحديث "يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب" أو قوله "الرضاعة تحرم ما تحرم الولادة" أي أن الطفل إذا رضع من امرأة خمس رضعات في مدة الحولين فإنها تكون أمّاً له تحرم عليه كما يحرم عليها ابنها من النسب ، ثم تنتشر هذه الرضاعة واللبن للأب ؛ فتنتشر من قبل الأم وتنتشر من قبل الأب ؛ فيكون آباء الأم آباءً له ، وأمهاً أمهاتٍ له من الرضاعة ، ويكون آباء الأب آباءً له وأمهاً الأب أمهاتٍ له ، وتكون أخوات الأم خالات له و إخوان الأم أخوالاً له من الرضاعة ، ويكون إخوان الأب وأخوات الأب أعماماً له من الرضاعة ، ويكون أبناءها سواءً من هذا الزوج أو من زوج آخر إخواناً له من الرضاعة ، ويكون أبناء الزوج منها أو من الزوجات الأخر إخوان له من الرضاع ؛ فتنتشر من قبل الأم المرضع وزوجها ؛ لأن اللبن للأب ؛ فتنتشر الرضاعة من خلال الأم ومن خلال الأب ، ويحرم بها ما يحرم من النسب .

وإذا أردت أن تتصور هذه المسألة فقدّر الطفل الذي رضع ابناً للمرأة ، وُلِدَ منها ؛ ما الذي يحرم ؟ المحرمات عليه محرماتٌ على من رضع معه من أمه ، يعني قدّر الرضيع ابناً لهذه المرأة ، وكل من يحرم على هذا الابن من النسب يحرم على هذا الابن من الرضاعة . الرضاعة تحرم ما تحرم الولادة . ثم إن هذه الرضاعة تنتشر من جهة الابن الراضع في أبناءه ، لا تنتشر في إخوانه ولا في آباءه ولا في أمهاته ؛ وإنما تنتشر في أبناءه وأبناء أبناءه ؛ فأبناء الولد من الرضاعة أبناء لأمه من الرضاعة ، وأبناءه أبناء لها وإن نزلوا ، فتنتشر الرضاعة في أبناء من رضع ، لكنها لا تنتشر في إخوانه ؛ فإذا كان أخوهم رضع من امرأة وهم لم يرضعوا منها ؛ هو يكون ابناً لها وهم لا علاقة لهم بها . لا تنتشر في إخوانه ولا في الآباء ولا الأمهات ، فتنتشر فقط في أبناءه وإن نزلوا ؛ فكلهم يكونون أبناءً للأم التي رضع منها والدُّهم .

مرةً ثانية أقول من أراد أن يتصور ما تحرمه الرضاعة فليُقدّر أن هذا الرضيع ابناً للمرأة من النسب ؛ فالذين يحرّمون عليه . على الابن من النسب . يحرّمون على هذا الذي رضع من أمه سواءً بسواء .

هذا معنى قوله عليه الصلاة والسلام "الرضاعة تحرم ما تحرم الولادة" .

قال الشيخ عبد المحسن العباد :

[أولاً : جاء في القرآن الكريم تحريم الأمّهات المرضعات والأخوات من الرضاعة في قوله تعالى : { وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ } ، وجاءت السنّة بهذا الحديث وما في معناه بأنّ الرضاعة تحرم ما تحرم الولادة، فكلّ ما حرّم بالنسب يحرم بالولادة مثله، فإذا ارتضع طفلٌ من امرأة صارت أمّاً له من الرضاعة وصار أبوها وأجدادها آباء له من الرضاعة، وأمّها وجداتها أمّهاتٍ له من الرضاعة، وإخوانها أخوالاً له من الرضاعة، وأخواتها خالات له من الرضاعة، وأولادها سواء كانوا من زوج واحد أو أزواج إخوة له من الرضاعة، وأيضاً يكون زوج المرأة المرضعة الذي رضع من لبنه أباً له من الرضاعة، وأبوه وأجداده آباء له من الرضاعة، وأمّه وجداته أمّهات له من الرضاعة، وإخوانه وأخواته أعماماً وعمّات له من الرضاعة، وأولاده من زوجات متعدّدات إخوة له من الرضاعة، وزوجاته زوجات أب من الرضاعة، وهكذا كلّ ما حرّم من النسب فإنّه يحرم ما يماثله من الرضاعة .

يكون بهذا الحديث قاعدة جامعة في هذا الباب " يحرم م الرضاعة ما يحرم من النسب " أو "

الرضاعة تحرم ما تحرم الولادة " فكل ما تحرمه الولادة تحرمه الرضاعة

ثانياً : الرضاع الذي يكون به التحريم ما بلغ خمس رضعات فأكثر، وكان في الحولين، فإن نقص عن الخمس فإنّه لا يحصل به التحريم، كما أنّ رضاع الكبير لا يحصل به التحريم، وما جاء في قصة سالم مولى أبي حذيفة أخرجه مسلم ، فهو مقصور عليه لا يتعدّاه إلى غيره، ومما يوضح أنّ رضاع الكبير لا يُعتبر؛ لأنّه لا يحصل به التغذية، أنّ بإمكان كلّ امرأة تريد أن

تتخلص من زوجها أن تحلب في كأس من ثديها ما يبلغ خمس رضعات فأكثر، ثم تسقيه زوجها وهو لا يشعر، وتقول له بعد ذلك: أنا لا أحل لك؛ لأنك ابني من الرضاعة.

الشرح..

قوله عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث "الرضاعة تحرم ما تحرم الولادة": المراد بالرضاعة كما قيد ذلك الأحاديث الأخرى هي الرضاعة التي تبلغ خمس رضعات فأكثر وأن تكون في الحولين فإذا كانت الرضاعة أقل من خمس - ثنتين أو ثلاث أو أربع - فإنها لا تحرم ، وأيضاً أن تكون في الحولين لأن الرضاعة التي تكون في الحولين هي التي يحصل بها التغذية للرضيع وبعد الحولين يستغني عن الحليب ويبدأ يتغذا بالطعام وأنواع الغذاء .

وأما قصة سالم مولى أبي حذيفة وهي في صحيح مسلم ؛ فهذه مقصورة عليه وخاصة به ولا تتعداه ، ويبقى الحكم في هذه المسألة أن الرضاعة لا تكون محرمة إلا إذا كانت في الحولين وكان عدد الرضعات خمس رضعات .

وهنا مثال يوضح ما يتعلق بأن الرضاعة بعد الحولين غير معتبرة وأن الحديث الذي جاء في صحيح مسلم خاصٌ وحالة مستثناة من عموم النصوص الواردة في هذا الباب ؛ أن المرأة أو كل امرأة أرادت أن تتخلص من زوجها تعطيه من حليبها مقدار خمس رضعات ثم بعد ذلك تخبره أنه صار ولداً لها من الرضاعة ، وتقول أنت لا تحل لي وأنت أصبحت ابناً لي .

وأذكر الشيخ ابن عثيمين في هذا المسجد سئل عن هذه المسألة وتكلم عنها وضرب هذا المثال وقال رحمه الله أن المرأة إذا أرادت أن تتخلص من زوجها - على هذا لو كان معتبراً - تحلب من ثديها وتضعها في إبريق الحليب ثم تطبخه على النار وتهينه وتأتي في الصباح وتعطيه البيالة الأولى والثانية والثالثة والرابعة والخامسة ؛ فإذا اكتمل الخمس قالت له : أنت الآن ابناً لي من الرضاعة لا تحل لي !!

فكل امرأة تريد أن تتخلص من زوجها تتخلص منه بمثل هذه الطريقة ..

على كل حال المعتبر بالرضاعة المحرمة خمس رضعات في الحولين .

ثالثاً : ممَّا يُستفاد من الحديث :

أولاً : كمال الشريعة واشتمالها على قواعد كليّة عامة، كما جاء في هذا الحديث.

ثانياً : أنَّ كلَّ امرأة حرِّمت من النسب يحرم ما يُماثلها من الرضاة.

* * *

الحديث الخامس والأربعون

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنَّه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح وهو بمكة يقول: “ إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ حَرَّمَ بَيْعَ الْخَمْرِ وَالْمَيْتَةِ وَالْخَنْزِيرِ وَالْأَصْنَامِ، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ شَحُومَ الْمَيْتَةِ، فَإِنَّهُ يُطْلَى بِهَا السُّفْنُ، وَيُدْهَنُ بِهَا الْجُلُودُ، وَيَسْتَصْبَحُ بِهَا النَّاسُ؟ قَالَ: لَا! هُوَ حَرَامٌ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: قَاتِلِ اللَّهَ الْيَهُودَ إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْهِمُ الشَّحُومَ، فَأَجْمَلُوهُ ثُمَّ بَاعُوهُ فَأَكَلُوا ثَمَنَهُ “ . خرَّجه البخاري ومسلم

الشرح..

هذا الحديث حديثٌ جامع في باب البيوع المحرمة التي حرّمها الله سبحانه وتعالى ، وقد ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم أموراً أربعة حرم الله سبحانه وتعالى بيعها ؛ وهي :

الخمر . وهي أم الخبائث . والميتة والخنزير والأصنام ؛ فهذه الأمور الأربعة حرم الله سبحانه وتعالى بيعها ونهى العباد عن بيعها .

وقد جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم " إنَّ اللَّهَ إِذَا حَرَّمَ شَيْءً حَرَّمَ ثَمَنَهُ " فهذه محرمات وأثمانها محرمة فلو باعها الإنسان فالثمن الذي يقبضه من هذه المحرمات ثمن خبيث ولا يحل له لأنها محرمة في نفسها وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم " إنَّ اللَّهَ إِذَا حَرَّمَ شَيْءً حَرَّمَ ثَمَنَهُ " فهذه محرمات في ذاتها وأثمانها محرمة ؛ ولهذا لا يحل للإنسان أن يبيعها ولو احتج على بيعها بأنه يُستفاد منها في وجوه غير الأكل أو اللباس أو نحو ذلك ؛ بل هذا من الاحتيال المحرم على شريعة الله ؛

ولهذا مما يُستفاد من هذا الحديث تحريم الحيل التي يُقصد من خلالها التوصل إلى أشياء ممنوعة أو أمور محرمة شرعاً .

قال " إن الله ورسوله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام " : هذه أربعة محرمات .

قيل " رأيت شحوم الميتة، فإنه يُطلى بها السفن، ويُدهن بها الجلود، ويستصبح بها الناس؟ قال: لا هو حرام " : واختلف أهل العلم في قوله صلى الله عليه وسلم حرام؛ هل المراد البيع أو الانتفاع؟ على قولين سيأتي ذكرهما .

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قاتل الله اليهود؛ إنَّ الله حَرَّمَ عليهم الشحوم، فأجملوه، ثم باعوه، فأكلوا ثمنه " : فذكر صلوات الله وسلامه عليه هذا الاحتياال المحرم الذي أراد منه فاعلوه التوصل إلى شيء حرمه الله سبحانه وتعالى عليهم ومنعهم منه .

قال الشيخ عبد المحسن :

أولاً : قوله: " إنَّ الله ورسوله حَرَّمَ " ، جاء لفظ الفعل " حَرَّمَ " بالإفراد، وجاء بالثنية، وجاء " إنَّ الله حَرَّمَ " ، وجاءت التثنية في الضمير الذي يعود إلى الله ورسوله في حديث: " ثلاث مَنْ كُنَّ فيه وجد بهنَّ حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه ممَّا سواهما ... " الحديث أخرجه البخاري ومسلم ، وعلى هذا يُحمل ما جاء هنا من إفراد الفعل " حَرَّمَ " على أنَّه يعود إلى الرسول ، ويكون التحريم المضاف إلى الله محذوفاً، والتقدير: إنَّ الله حَرَّمَ ورسوله حَرَّمَ، وهو نظير قول الله عزَّ وجلَّ: { وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ } أي: والله أحقُّ أن يُرضوه، ورسوله أحقُّ أن يرضوه، ومثله قول الشاعر:

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأي مختلفُ

أي: نحن بما عندنا راضون، وأنت بما عندك راض.

ثانياً : بيَّن جابر أنَّه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرم هذه الأشياء عام الفتح بمكة، ويكون هذا البيان في هذا الوقت وفي هذا المكان بمناسبة دخول الكفار في الإسلام، وهم يتعاطون هذه المحرمات، فأعلمهم أنَّها حرام، وهذا لا يمنع أن يكون تحريمها قد حصل من قبل.

الشرح..

قول جابر رضي الله عنه في هذا الحديث أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح وهو بمكة يقول .. إلى آخر الحديث : لا يلزم من ذلك أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما حرم هذه الأشياء عام الفتح ؛ بل يكون قد حرمها قبل ذلك أو ذكر تحريمها قبل ذلك وأعاد ذكر ذلك عام الفتح لأن حدثاء العهد بالإسلام في ذلك الوقت كثير فأراد عليه الصلاة والسلام أن يُعلمهم جميعاً بذلك .

[ثالثاً : الأول من هذه المحرمات الأربع الخمر، وهي أمُّ الخبائث؛ لأنَّ شاربها يسعى بشربها لإلحاق نفسه بالمجانين، فيحصل نتيجة لذلك أنَّه يقع في كلِّ حرام، وقد يكون من ذلك الاعتداء على المحارم، وهي تجلب كلَّ شرٍّ وتوقع في كلِّ بلاء، ولهذا أطلق عليها أمُّ الخبائث.

الشرح..

بدأ النبي عليه الصلاة والسلام هذه الأربع المحرمات بالخمر لأنه أم الخبائث ، ومعنى أم الخبائث أن من شرب الخمر جمع لنفسه الخبائث لأنه بشربه للخمر فقد عقله بذلك وأصبح يتصرف تصرف من لا يعقل ؛ فيفعل عموم الخبائث لأنه ليس عنده عقل يحجزه أو يمنعه أو يردعه ؛ ولهذا قد يقع في شربه للخمر في أنواع الخبائث من القتل والنهب والاعتداء والظلم إلى غير ذلك ، وسيأتي حديث مفصل بعض الشيء عن الخمر في الحديث القادم عند المصنف رحمه الله تعالى .

والثانية الميتة، فيحرم أكلها إلاَّ لضرورة إبقاء الحياة حيث لا يجد غيرها، ويُستثنى من ذلك جلدها إذا دُبغ؛ لثبوت السَّنة بذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم رواه البخاري ومسلم .

الشرح..

الميتة لا تحل مطلقاً إلاَّ للضرورة إذا اضطر الإنسان ليأكل منها إبقاء حياته فإنه يحل له أن أكل منها ما يُبقي فيه حياته وأيضاً جلدها إذا دُبغ كما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم

والثالث: الخنزير، فلا يجوز أكله ولا بيعه، وكلُّ ما يحرم أكله من الدواب فالميتة والمذكى منه سواء.

الشرح..

مر معنا قول النبي ﷺ " إن الله إذا حرم شيء حرم ثمه " وكل ما يحرم أكله من الدواب من الميتة أو المذكى سواء ؛ يعني سواء ذكي أو كان ميتة فإنه محرم وإذا كان ميتة اجتمع فيه كونه ميتة وكونه محرم أصلاً

والرابع: الأصنام، فلا يجوز بيعها ولا اقتنائها؛ لأنها صُنعت لعبادتها، بل يجب تحطيمها وكسرها، ولا بأس بالانتفاع بها بعد التكسير في البناء ونحوه؛ لأنها لم تبق أصناماً.

الشرح ..

قوله عليه الصلاة والسلام " والأصنام " هذا الأمر الثالث من الأمور المحرمة ، ذكر الحافظ بن رجب رحمه الله فائدة مهمة جديرة بأن تُقيد في التعليق على هذه الجملة قال : " ويلتحق بالأصنام كتب الشرك والسحر والبدع وكذلك الصور المحرمة والملاهي المحرمة " فهذه كلها يحرم بيعها ويحرم شرائها ويحرم مطالعتها . كتب الشرك وكتب البدع ..

رابعاً : قال الحافظ في الفتح : “ قوله: أُرِيتَ شحوم الميتة، فإنه يُطلى بها السفن، ويُدهن بها الجلود، ويستصبح بها الناس؟ ” أي: فهل يحلُّ بيعُها لِمَا ذكر من المنافع؛ فإنَّها مقتضية لصحة البيع، قوله: " فقال: لا، هو حرام " ، أي: البيع، هكذا فسَّره بعض العلماء كالشافعي ومَن اتَّبَعه، ومنهم من حمل قوله: " هو حرام " على الانتفاع، فقال: يحرم الانتفاع بها، وهو قول أكثر العلماء، فلا يُنتفع من الميتة أصلاً عندهم إلاَّ ما حُصَّ بالدليل، وهو الجلد المدبوغ “ .

الشرح ..

قوله " لا، هو حرام " قيل حرام أي البيع وقيل حرام أي الانتفاع وهذا قول أكثر أهل العلم ، وقد ثبت في سنن أبي داود وغيره من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لعن الله اليهود " ثلاثاً ، " إن الله حرم عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا أثمانها وإن الله إذا حرم شيئاً حرم ثمنه " فالتحريم للانتفاع وللبيع ؛ لا يحل الانتفاع ولا بيعها ؛ لأن ما حرم في ذاته من أن يُنتفع به فهو محرم كذلك بيعه .

خامساً: قوله: " قاتل الله اليهود؛ إنَّ الله حرَّم عليهم الشحوم، فأجملوه، ثم باعوه، فأكلوا ثمنه " هذا من حيل اليهود؛ فإنَّ الله لَمَّا حرَّم عليهم الشحوم أجملوها أي: أذابوها، وباعوها وأكلوا أثمانها، والله إذا حرَّم شيئاً حرَّم ثمنه، ولهذا دعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم [.

الشرح ..

ولهذا يُعد هذا الحديث أصلاً في تحريم وإبطال الحيل التي يريد بها المحتال إلى أن يتوصل إلى تحريم حلال أو تحليل حرام .

[سادساً : ممَّا يُستفاد من الحديث :

أولاً : بيان تحريم النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم هذه الأمور الأربعة.

ثانياً : بيان النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم هذا التحريم بمكة عام الفتح؛ لئيبادر الذين أسلموا إلى الامتناع من هذه الأربعة، انتفاعاً وبيعاً.

ثالثاً : أنَّ ما حرَّم الله فبيعه حرام وثمره حرام.

رابعاً : تحريم الحيل التي يُتوصَّل بها إلى استحلال ما حرَّم الله .

خامساً : ذمُّ اليهود وبيان أنَّهم أهلُّ حيل للوصول إلى استباحة الحرام.

سادساً : تحذير هذه الأمة أن تقع فيما وقعت فيه اليهود من هذه الحيل.

الشرح..

لَمَّا ذَكَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حَالِ الْيَهُودِ ذَامًا لَهُمْ وَقَالَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ " قَاتِلِ اللَّهُ الْيَهُودَ " ، وَفِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ "لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ" ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ؛ فَهَذَا تَحْذِيرٌ مِنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَنْ يَفْعَلَ أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ الْيَهُودُ ؛ فَهَذَا تَحْذِيرٌ مِنَ التَّشْبِيهِ بِالْيَهُودِ، وَأَنْ التَّشْبِيهِ بِهِمْ فِي خِصَالِهِمْ مُوجِبٌ لِلْعَنَةِ ، وَاللْعَنَةُ هِيَ الطَّرْدُ وَالْإِبْعَادُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ

* * *

الدرس الخامس والثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .
أما بعد ..

الحديث السادس والأربعون

عن أبي بردة عن أبيه أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم بعثه إلى اليمن، فسأله عن أشربة
تُصنع بها، فقال: “ ما هي؟ قال: البتّع والمزّر، فقليل لأبي بردة: وما البتّع؟ قال: نبيذ العسل،
والمزّر نبيذ الشعير، فقال: كلُّ مسكر حرام ” .

خرّجه البخاري

الشرح..

هذا الحديث هو الحديث السادس والأربعون وهو من الزيادات التي زادها الحافظ بن رجب رحمه الله
على كتاب الأربعين للإمام النووي رحمهما الله .

وهذا الحديث يتعلق بالمسكرات وما يلتحق بها من أنواع المخدرات والمسكرات ، وأن ذلكم كله
حرام حرمه الله عز وجل وحرمه رسوله عليه الصلاة والسلام والله جل وعلا لا يمنع عباده عن شيء إلا لما فيه
من الأضرار الكثيرة والمفاسد المتنوعة .

والخمر وما شاكلها هي أم الخبائث وجماع الشر كما جاء وصفها بذلك في الحديث بأنها أم
الخبائث ؛ لأنها جمعت متفرق الخبائث وأنواع المفاسد وذلكم أن شارب الخمر إذا شربها غطت
عقله وأفسدته وجعلته أشبه بالمجانين الذين لا يعقلون ، وعندما يذهب عقله بشربه للخمر أو
تعاطيه للمسكر أو المخدر فإنه يرتكب أنواعاً من العظائم والفواحش والمنكرات تجتمع فيه ما لا
تجتمع في غيره من أرباب الكبائر والمعاصي والآثام ؛ ولهذا جاء نعتها بأنها أم الخبائث .

وقد جاء عن بعض الصحابة أنه سُئل عن وصفها بذلك فضرب مثلاً بحال رجل خُير بين أمور ثلاثة : أن يشرب كأساً من خمر ، أو أن يقتل نفساً معصومة ، أو أن يرتكب فاحشة الزنا ؛ فقال كأس خمر أخف ؛ فلما شربها فعل هذه الأشياء جميعها وزاد عليها .

فشرب الخمر يترتب عليه من المفساد والأضرار الشيء الكثير ؛ ولهذا جاءت شريعة الإسلام بتحريمه والمنع منه ، وجاءت بذكر مفسده وأضراره على العبد في دنياه وأخراه .

وقد جاء في آيتين متواليتين في القرآن تحريم الخمر وبيان أضراره الكثيرة ومفسده العديدة وذلك في قوله سبحانه وتعالى { إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون } إنما يريد الشيطان ليقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون { فهاتان الآيتان فيهما تحريم الخمر ، وفيهما بيان المفساد العديدة والأضرار المتنوعة التي تترتب على شرب الخمر .

وقد ذكر جماعة من المفسرين أن تحريم الخمر يُستفاد من هاتين الآيتين من وجوه سبعة :

الوجه الأول : في تسميتها رجساً ؛ والرجس الخبث ، النجس .

الوجه الثاني : وصفها بأنها من عمل الشيطان ؛ وكل ما كان من عمل الشيطان فهو باطل محرم .

الوجه الثالث : الأمر بالاجتناب { فاجتنبوه } وهذا فيه دلالة على التحريم ؛ فإن ما أمر الله تعالى باجتنابه يحرم تناوله .

الوجه الرابع : في قوله تبارك وتعالى { لعلكم تفلحون } وهذا فيه أن الفلاح لا يتم للعبد إلا بترك الخمر ، والفلاح أجمع كلمة قيلت في حياة الخير في الدنيا والآخرة .

الوجه الخامس : كونها سبباً للعداوة والبغضاء { إنما يريد الشيطان ليقع بينكم العداوة والبغضاء } .

الوجه السادس : مستفاد من قوله جل وعلا { ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة } كل ما كان صادراً عن ذكر الله سبحانه وتعالى وعن الصلاة فهو حرام .

الوجه السابع : مستفاد من قوله تعالى {فهل أنتم متهون} فإن الاستفهام هنا معناه الردع

والزجر .

فهذه وجوهٌ سبعة ذكرها أهل العلم مستفادة من الآيتين في الدلالة على تحريم الخمر.

وقد اشتملت الآيتان على ذكر بعض أضرار الخمر ومفاسدها ؛ فذكر جل وعلا من أضرارها الخطيرة الصد عن ذكر الله وعن الصلاة وكفى بذلك دلالة على قبحها وشناعتها وسوء عاقبتها ، وذكر جل وعلا أنه يترتب عليها إيقاع العداوة والبغضاء كما يترتب ذلك على الميسر والأزلام والأنصاب ؛ فهذه كلها يترتب عليها مضار كثيرة .

وكذلك من الوجوه المستفادة من الآيتين على تحريم الخمر أن الله عز وجل قرنها بالشرك في هذا السياق ؛ ولهذا نُقل عن بعض الصحابة أن هذه الآيات التي نزلت في تحريم الخمر صار بعضهم يذكر لبعض أن الخمر حُرمت وُقُرنت بالشرك بالله ، ولما نزل قوله تعالى في تمامها {فهل أنتم متهون} قالوا : انتهينا انتهينا ، وهذا فيه سرعة استجابة أصحاب النبي ﷺ لأوامر الله وأوامر رسوله ﷺ .

والخمر سُئيت خمرًا لأنها تخامر العقل أي تغطيه ؛ فتجعل عليه غطاءً يصبح بذلك لا يعقل ، يصبح بذلك فاقدًا للعقل مُعطلاً عقله ، وقد جاء عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه التصريح بهذا المعنى أن الخمر هو كل ما خامر العقل وغطاه ؛ فالخمر سُئيت خمرًا من التغطية لأنها تغطي عقل المخمور فيصبح لا عقل له ، ويفعل أفعال المجانين الذين لا عقول لهم ؛

ولهذا فإن بعض أهل الجاهلية في جاهليتهم حرموا على أنفسهم الخمر لما لاحظوا عليها من مثل هذه العواقب الوخيمة ؛ مثل ما ورد في ترجمة قيس بن عاصم في جاهليته قبل إسلامه وكان رجلاً معروفاً بالشهامة والكرم ؛ فشرب الخمر مرةً ثم إنه حال شربه لها غمز عجز ابنته . وهو مخمور . ووقف في الطريق وأخذ يقفز يريد أن يمسك القمر بيده بهيئة مضحكة ؛ فأخبر بذلك فحرمها على نفسه لأنها أفضت به إلى هذه الحال .

وممن حرم الخمر على نفسه أبو بكر الصديق رضي الله عنه فلم يشربها لا في جاهلية ولا في إسلام . كما ذكر ذلك في ترجمته . وذكر أنه رأى رجلاً شرب خمرًا وجلس في الطريق يغمس يده في العذرة . التي تخرج من الإنسان . ؛ يغمس يده فيها ويرفعها إلى فيه ، في هيئة قبيحة وصورة منكرة ؛ فحرمها على نفسه فلم يشربها لا في جاهلية ولا في إسلام .

وذكر الحافظ بن أبي الدنيا صاحب الأجزاء العديدة الحديثية التي تقارب الأربعمئة جزءاً ؛ ذكر أنه مرَّ برجل شرب خمرًا وجلس يبول أمام الناس يأخذ من بوله ويتوضأ ويقول وهو على هذه الحال : الحمد لله الذي جعل لنا الإسلام نوراً والماء طهوراً .

وفي هذا يُذكر قبائح كثيرة وشنائع عظيمة تدل على قبح الخمر وشدة ضررها ، ومن أقبح ما وقفت عليه في هذا الباب ما ذكره الحافظ بن رجب رحمه الله وله رسالة قصيرة في ذم الخمر نافعة جداً ؛ ذكر رحمه الله أن شاباً ممن يتعاطون الخمر أتى في آخر ليلة من شعبان إلى والدته في البيت ، وكانت قد سجرت تنورا لتصنع لها ولولدها خبزاً ، فدخل عليها وهو مخمور يترنح من الخمر فنصحته ؛ فأخذ بأمه ووضعها على رأسها في التنور فاحتترقت وماتت ، ولما أفاق من خمره وجد أنه فعل هذه الفعلة النكراء !!

ويُذكر عن حال المخمورين في هذا الباب عجائب وغرائب بسبب فساد العقل وضياعه ، وقد ذكر بعض الأفاضل عن رجل ذكر له أنه زوج ابنته ثم تبين لها أنه يتعاطى الخمر ، وجاء بأصحاب له في بيته يشربون الخمر ؛ فاطلعت عليهم فإذا أحدهم وهم مخمورين على زوجها في هيئة شنيعة !! إلى غير ذلك من الأمور التي تحصل وتحصل من تعاطي الخمر .

ولهذا من نعمة الله تعالى علينا بالإسلام أن حرم الإسلام الخمر ومنع المسلمين منه حفظاً للعقول وحفظاً للأديان وحفظاً للأعراض وحفظاً للدماء وحفظاً للجميع ما جاء الإسلام بحفظه لأن الخمر مفسد لذلك كله .

فنعمة الله جل وعلا على أمة الإسلام بتحريم الخمر نعمة عظيمة حيث حماهم الله سبحانه وتعالى بهذا الدين من هذه الآفة الخطيرة والبلاء العظيم والشر المستطير .

وما قيل في الخمر وما ورد في النصوص في ذمه قل مثله وأضعافه في الأمور الحديثة التي يتعاطاها الناس فتفقد العقل وتخدّر الإنسان وتعطل أحاسيسه من مواد بعضها يستعمل عن طريق الشم ، وبعضها يُبتلع على هيئة حبوب ، وبعضها على هيئة حُقن توضع في الوريد ، إلى غير ذلك من أمور استجدّت يتعاطاها بعض المبتلين والعياذ بالله ؛ فيترتب عليها من المفساد والمضار ما يترتب على الخمر وأشنع من ذلك .

ومن يتعاطون المخدرات - وهي آفة من آفات هذا العصر الخطيرة - بلغت بهم إلى نهايات مزرية وموتات مؤلمة في حالة أسيفة يألم لها كل ناصح ؛ ولهذا نعود ونقول إن نعمة الله سبحانه وتعالى علينا عظيمة بتحريم الخمر ؛ حرمه الله سبحانه وتعالى في كتابه وحرمه رسوله صلى الله عليه وسلم في سنته ، وقد جاء عنه صلوات الله وسلامه عليه أحاديث كثيرة جداً في تحريم الخمر وبيان مفسادها وأضرارها ؛ ومن ذلكم هذا الحديث الذي ساقه ابن رجب رحم الله هنا في تحريم الخمر " عن أبي بُردة عن أبيه أبي موسى الأشعري أنّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم بعثه إلى اليمن، فسأله عن أشربة تصنع بها .. "

تأمل السؤال " فسأله عن أشربة " : يعني أشياء تُشرب .

" تُصنع بها " : أي باليمن .

فقال " ما هي ؟ قال : البُتْع والمِزْر ، فقليل لأبي بردة : وما البُتْع ؟ قال : نبيذ العسل ، والمِزْر نبيذ الشعير ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : كلُّ مسكر حرام "

تأمل السؤال وتأمل الجواب ففي هذا التأمل فائدة عظيمة نبّه عليها أهل العلم ؛

أبو موسى الأشعري رضي الله عنه سأل عن الأشربة وجاء جواب النبي صلى الله عليه وسلم بذكر قاعدة كلية جامعة في الباب تتناول الأشربة وغيرها فلم يختص الجواب بالشراب قال " كل مسكر حرام " لم يقل عليه الصلاة والسلام : كل شراب مسكر حرام - والسؤال عن الشراب - فأفاد الحديث بهذه القاعدة أن كل مسكر سواء كان مشروباً أو مشموماً عن طريق الأنف ، أو حقنة عن طريق الوريد أو تحميلة عن طريق الدبر أو بأي وسيلة كانت ؛ فهو حرام .

قال " كل مسكر حرام " : أي كل مسكر تعاطاه الإنسان بأي وسيلة كانت فهو حرام .

قال الحافظ بن حجر رحمه الله تعالى في كلامه على هذا الحديث : أُسْتَدِلَّ بمنطق قوله صلى الله عليه وسلم "كل مسكر حرام" على تحريم كل مسكر ولو لم يكن شراباً كالحشيشة وغيرها : مثل الأمور التي جدَّت في هذا الزمان وتنوعت من حبوب تُبتلع أو أمور تُشَمَّ يحصل بها السكر أو إبر عن طريق الوريد أو تحاميل في الدبر أو غير ذلك من الوسائل ؛ كلها حرام ، وكل أمر يتعاطاه الإنسان يصل به إلى حد الإسكار فهو حرام وإذا كان هذا الذي يتعاطاه الإنسان يُسكر ولو لم يصل بتعاطيه له حد الإسكار - يعني شرب منه كمية قليلة لا تُسكر - فهو أيضاً حرام لقول النبي صلى الله عليه وسلم "ما أسكر كثيره فقليله حرام" .

يقول الحافظ بن حجر في تعليقه على هذا الحديث - كل مسكر حرام - : المراد أنه إذا كانت فيه صلاحية الإسكار حرَّم تناوله ولو لم يسكر المتناول بالقدر الذي تناول منه

• هذه فائدة عظيمة مستفادة من هذا الحديث "كل مسكر حرام" يفيد أن جميع المسكرات ولو لم تكن شراباً حرام ؛ يعني سواء كانت بالشرب أو بالشم أو غير ذلك من الوسائل

وفائدة أخرى تستفاد من هذا الحديث "كل مسكر حرام" أي كل ما كانت فيه صلاحية الإسكار فهو حرام وإن لم تسكر كمية قليلة في حق م تناول كمية قليلة وجاء حديثٌ مُصرِّحٌ بذلك وهو قوله صلى الله عليه وسلم "ما أسكر كثيره فقليله حرام" .

فهذا الحديث حديثٌ عظيم وقاعدة كلية وهو معدود في جوامع كلمه عليه الصلاة والسلام ، وهذا الملحظ انتبه له الصحابي الجليل أبو موسى ؛ ولهذا جاء في بعض طرق الحديث عند مسلم وغيره أن أبا موسى قال : وإن النبي صلى الله عليه وسلم أُوتِيَ جوامع الكلم فقال "كل مسكر حرام" ؛ فهو انتبه لهذا الملحظ لأنه سئل عن أشربة في اليمن معينة - البتع والمزر - فلم يقل لهم أن هذه الأشربة محرمة ، ولم يقل لهم إن كانت هذه الأشربة مُسكرّة فهي محرمة ؛ بل قال "كل مسكر حرام" .

ومما استفاد أهل العلم من هذا الحديث كمال تعليمه عليه الصلاة والسلام وكمال نصحه وحسن بيانه ، وأن المعلم إذا احتاج المقام إعطاء السائل أزيد مما سأل يعطيه ذلك ؛ وهذا يُعَدُّ من سخاء العلم - كما ذكر ذلك ابن القيم رحمه الله في منزلة السخاء في كتابه مدارج السالكين - فهذا من السخاء والكرم في العلم ؛ فكما أن الكرم يكون في المال ؛ يكون في العلم، سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الوضوء من ماء

البحر فقال عليه الصلاة والسلام : " هو الطهور مأؤه الحلُّ ميتته " فهو لم يُسأل عن ميتته ، لكن هذا من سخاءه عليه الصلاة والسلام .

وهذا أيضاً من سخاءه عليه الصلاة والسلام وجمال بيانه سأله عن نبيذٍ يُشرب في اليمن وشراب يُصنع في اليمن - البتع والمزر - فأجابه بهذه القاعدة الكلية فقال "كل مسكر حرام" .

قال الشيخ عبد المحسن العباد :

[أولاً : من الأشربة التي كانت تُستعمل في اليمن عندما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا موسى الأشعري رضي الله عنه إليه: البتع، وهو نبيذ العسل، والمزر: وهو نبيذ الشعير، وقد سأل أبو موسى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذين الشرابين، فأجابه بجواب جامع يشملهما ويشمل غيرهما فقال: “ كلُّ مسكر حرام ” ، فأناط النبي صلى الله عليه وسلم التحريم بالإسكار، فدلَّ على أنَّ ما أسكر من الأشربة حرام، وما لم يسكر فإنه حلال، وفي صحيح البخاري عن أبي الجويرية قال: سألت ابن عباس رضي الله عنهما عن الباذق؟ فقال: سبق محمد صلى الله عليه وسلم الباذق، فما أسكر فهو حرام، قال: الشراب الحلال الطيب، قال: ليس بعد الحلال الطيب إلاَّ الحرام الخبيث “ ، وقد ذكر ابن سيده في المحكم أنَّ الباذق من أسماء الخمر.

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في أول الأمر حرَّم الانتباز في أوعية معينة، كما جاء ذلك في حديث وفد عبد القيس، رواه البخاري ومسلم ، ثم إنَّه صلى الله عليه وسلم جاء عنه ما ينسخ ذلك في حديث بُريدة بن الحُصيب حيث قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: “ نهيتكم عن زيارة القبور فزروها، ونهيتكم عن لحوم الأضاحي فوق ثلاث فأمسكوا ما بدا لكم، ونهيتكم عن النبيذ إلاَّ في سقاء، فاشربوا في الأسقية كلِّها، ولا تشربوا مسكراً ” رواه مسلم .

وكلُّ ما أسكر فهو حرام، سواء كان شراباً أو طعاماً، وسواء كان سائلاً أو جامداً أو دقيقاً أو ورقاً أو غير ذلك، فإنَّ كلَّ ذلك داخلٌ تحت قوله صلى الله عليه وسلم: “ كلُّ مسكر حرام ”

الشرح..

قول النبي صلى الله عليه وسلم "كل مسكر حرام" : هذه قاعدة كلية جامعة في هذا

الباب ، وقد أناط صلوات الله وسلامه عليه التحريم بالإسكار ؛ فمتى وُجد الشيء الذي يتعاطى الإسكار سواء القليل منه أو الكثير فهو حرام ، وسواء كان التعاطي منه بالشرب أو أي وسيلة أخرى ؛ فكل مسكر حرام .

وابن عباس رضي الله عنهما سُئل عن شيء من هذه الأشربة لم يكن موجوداً في زمن النبي عليه الصلاة والسلام . سُئل عن الباذق . فقال ابن عباس " سبق محمد صلى الله عليه وسلم الباذق ، فما أسكر فهو حرام " : يعني أعطانا في هذا الباب قاعدة ، والقاعدة تُطبق في كل زمان وفي كل مكان ؛ فمتى ما وُجد أي مسكر فهو حرام ، يتناوله قول النبي صلى الله عليه وسلم " كل مسكر حرام " .

ثم قال ابن عباس رضي الله عنهما : الشراب الحلال الطيب - يوضح ماذا يتناول المسلم - وهذا مأخوذ من قوله تعالى {يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات} .

وقال : " ليس بعد الحلال الطيب إلا الحرام الخبيث " : وهذا فيه أن المسكرات من الخبائث ، والله سبحانه وتعالى أحل لعباده الطيبات وحرم عليهم الخبائث .

ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم في أول الأمر حرّم الانتباز في أوعية معينة - يعني حدّد أوعية معينة حرم الانتباز فيها مطلقاً حتى لو لم يصل المنتبذ فيها إلى حد الإسكار وإلى حد التخمر ، كما في حديث وفد عبد القيس في الصحيحين وغيرهما ؛ قال : " أُمِرْتُم بأربع وأنهاكم عن أربع " ؛ فنهاهم عن الدُّبَاءِ و المُرَقَّتِ والمُخَيَّرِ " عن أمور أربعة من الأوعية التي كان يُنتبذ فيها ثم نُسخ هذا الحكم كما في هذا الحديث " نهيتكم عن

زيارة القبور فزوروها ونهيتكم عن لحوم الأضاحي فوق ثلاث - أي أن تُدَّخِر - فأمسكوا ما بدى لكم ونهيتكم عن النبيذ إلا في سقاء ، فاشربوا في الأسقية كلّها ، ولا تشربوا مسكراً " هذا الحديث ذكر ثلاث أشياء نهاهم عنها ثم نسخ ذلك في حديث واحد ، فأباح لهم الانتباز في كل سقاء مالم يصل الأمر إلى حد الإسكار ، يعني مثل أن يوضع في وعاء من الأوعية من الليل إلى الصباح فيتحلل في الماء ويُشرب حلوّاً أو العنب فهذا لا بأس به . لكن أن يُترك وقتاً إلى يتخمر ويصبح خمرّاً مسكراً سواء القليل منه أو الكثير ؛ فهذا محرم . لكن الانتباز والنبيذ الذي لم يصل إلى حد

الإسكار - وُضع لفترة ليست طويلة - ويصبح الماء يُشرب حلواً بطعم هذا الذي وُضع به إما التمر أو العنب أو العسل ؛ فهذا لا بأس به .

وفي زماننا هذا استغنى الناس عن هذا بالخلّاطات الحديثة بحيث يشرب الماء حلواً بطعم العنب أو بطعم الرطب فيشرب عصيراً حلالاً طيباً ..

[ثانياً : الخمر ما خامر العقل وغطّاه، فكلُّ ما كان كذلك داخلٌ تحت قوله صلى الله عليه وسلم : “ كلُّ مسكر حرام ” ، وكلُّ شيء أسكر كثيره فقليله حرام، وذلك سدّاً للذريعة الموصلة إلى المسكر، وسواء كان ذلك من العنب أو غيرها، وقد جاء عن بعض علماء الكوفة أنّ القليل الذي لا يسكر إذا لم يكن من العنب، فشربه سائغ، وهذا غير صحيح؛ لأنّه ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث جابر وغيره رضي الله عنهم أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: “ ما أسكر كثيره فقليله حرام ” أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه ، وهذا لفظ عام يشمل كلَّ مسكر، سواء كان من العنب أو غيرها، فلا يجوز تعاطي كل مسكر إلّا إذا كان شيئاً يسيراً لدفع غصّة.

الشرح..

الخمر هو ما خامر العقل - أي غطاه - ، وهذا اللفظ ورد قريباً منه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خطبة له . فكل شراب أو غيره يفضي إلى تغطية العقل وحصول الإسكار أو السكر فهو حرام .

وعرفنا أن المسكرات تُميت خمرّاً لأنها تغطي العقول فيصبح متعاطي تلك الأمور فاقداً للعقل ، من عجائب الأمور أنه يتعاطى ما يفقد به عقله بماله . يشتريه بماله . ولهذا جاء في منضومة الآداب " كيف يبتاع جنوناً من عقل " يعني كيف يشتري جنونه بالمال ؟ فلو قال قائل للناس : من منكم يريد أن يشتري بماله جنون ؟ لعدّوا قائل ذلك مجنوناً !

والحقيقة أن بائعي المخدرات والمسكرات هم في الحقيقة بائعوا الجنون وفساد العقول ، ويأتي إليهم سفهاء العقول ويشترون منهم بأموال طائلة ما تتلف به عقولهم وتفسد به أديانهم وتتضرر

به أبدانهم ، وكم من الوفيات حصلت بتعاطي الخمر والمخدرات ! بل إن - والعياذ بالله -
الذين يتعاطون المخدرات كالهروين ونحوه لا يفضلون تعاطيه ولا يميلون إلى تعاطيه إلا في
الأماكن القذرة - في البيوت الخربة المهجورة أو في دورات المياه - ولهذا وُجد حالات كثيرة لهؤلاء في
دورات المياه مُكبّين على وجوههم في المراض ميتا !! ...

نسأل الله الكريم رب العرش العظيم بأسماءه الحسنى وصفاته العلى أن يهدي من ضل من
شباب المسلمين ورجالهم وأبنائهم ونساءهم ، اللهم اهدهم وردهم إليك رداً جميلاً .

ثالثاً : مِمَّا يُستفاد من الحديث:

أولاً : حرص الصحابة رضي الله عنهم على معرفة الأحكام الشرعية.

ثانياً : كمال الشريعة واشتمالها على قواعد كليّة عامة، كما جاء في هذا الحديث.

ثالثاً : تحريم كلِّ مسكر من أيّ نوع كان.

* * *

الحديث السابع والأربعون

عن المقدم بن معد كَرِب رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: “ ما ملأ آدمي وعاءَ شراً من بطن، بحسب ابن آدم أكالات يُقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثَلثُ طعامه ، وثَلثُ لشرابه ، وثَلثُ لنَفْسِه “ .

رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه، وقال الترمذي حديث حسن

الشرح..

الكلام في هذا الحديث عن أكل الطيبات ، والحديث الذي قبله في تحريم الخبائث وشرب الأمور الخبيثة ، وكذلك الذي قبله في تحريم الميتة والخمر والخنزير ؛ فلما ذكر رحمه الله في الحديثين الماضيين تحريم المحرمات والخبائث من المطعومات والمشروبات ؛ أورد هذا الحديث فيما يتعلق بالطيبات ، وأن الله سبحانه وتعالى أحل لعباده الطيبات ، وأن المسلم له أن يأكل ما شاء من الطيبات ويشرب ما شاء من الطيبات من غير إسراف ولا مخيلة {كلوا واشربوا ولا تسرفوا} لا يسرف في أكله ولا في شربه لأنه إذا أسرف في الأكل وأسرف في الشرب أضّر بنفسه وتسبّب في هلكتها وجلب لنفسه أنواعاً من الأمراض والأسقام ، والمعدة بيتُ الداء - يعني بيت المرض - فإذا كان الإنسان لا يبالي بما يدخله في معدته من أنواع المأكولات والمشروبات بغير اعتدال وبغير انضباط ؛ فهذا يضر بنفسه ويجلب لنفسه أمراض عديدة ، وكثير من الأمراض والأسقام تنشأ من المعدة بما يُدخل فيها وبما يتناوله الإنسان من أنواع الأطعمة وبسبب إسرافه في الطعام والشراب ؛ فيجلب لنفسه أنواعاً من الأمراض والأسقام ؛ ولهذا يُلاحظ أن سكان البادية الذين ليس عندهم من الطعام مثل ما عند الحاضرة؛ وإنما طعامهم قليل ومعين ، حليب الغنم أو حليب الإبل ، التمر والطحين .. ، وأشياء يسيرة تتكرر كل يوم باعتدال ...

ولهذا يقول ابن القيم في بعض كتبه أن الطب والعلاج يحتاج إليه في الحاضرة ما لا يحتاج إليه في البادية ، وأن الأمراض تكثر في الحواضر أكثر منها في البوادي ، والحواضر تكثر فيها الأطعمة والأشربة والأغذية ، وإذا كان الإنسان يأكل بغير اعتدال - بإسراف وشره - ؛ فهذا يجلب لنفسه المضرة ؛ ولهذا أباح الله سبحانه وتعالى لعباده عموم الطيبات من المأكولات والمشروبات

ونهاهم عن الإسراف فقال {كلوا واشربوا ولا تسرفوا} ، قال عليه الصلاة والسلام "كل ماشئت من غير إسراف" ؛
يعني لا تسرف في أكلك .

فالإسراف في الأكل والشرب مضرة على الإنسان وسبب لأنواع من الأسقام والأمراض ؛ ولهذا
جاء هذا الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم يُحدد المنهج القوام والوسطية في هذا الباب والاعتدال في
الأكل والاعتدال في الشرب ؛ فلا يأكل الإنسان أكلاً يترتب عليه مضرة نفسه ولا يجيع نفسه
إجاعة يترتب عليها هلاكها كما يفعل ذلك بعضُ الطريقة كنوع تقرب إلى الله حتى يصل
بعضهم الحال إلى فساد عقله من شدة تجويعه لنفسه !

ودين الله سبحانه وتعالى وسط بين الغلو والجفاء والإفراط والتفريط ؛ ولهذا جاء هذا الحديث
العظيم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرسم المسلك السديد والمنهج القويم والاعتدال في هذا الباب ،
وبيّن عليه الصلاة والسلام أن الاعتدال في هذا الباب على درجتين ؛

قال عليه الصلاة والسلام "ما ملأ آدمي وعاءاً شراً من بطن " : والوعاء هو الظرف الذي يُوضع فيه الشيء ،
وسميت المعدة وعاء لأنها ظرفٌ للطعام والشراب ؛ فما يأكله الإنسان ويشربه يجتمع في وعاء
هو المعدة ؛ فالمعدة وعاء لأنها تجمع غذاء الإنسان .

" ما ملأ آدمي وعاءاً شراً من بطن " : فهذا فيه أن شرَّ وعاءٍ يُمَلَأُ المعدة ؛ وذلك لما في ملئها من
الضرر على الإنسان . وهذا قاله النبي صلى الله عليه وسلم ناصحاً لأمته يَبَيِّنُ لهم أن شرَّ وعاءٍ يُمَلَأُ البطن .

فلا يملأ الإنسان بطنه بالأكل والشرب ؛ وإنما يأكل ويشرب باعتدال .

والاعتدال في ذلك على درجتين :

• قال : " بحسب ابن آدم أكالات يُقمن صلبه " : بحسبه أي يكفيه ؛ أي يكفي ابن آدم من
الطعام أكالات - يسير من لقم الطعام - يحصل بها إقامة الصلب فهذه الدرجة الأولى .

• الدرجة الثانية قال : " فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه " :

أي إن كان لا محالة أكلا فليجعل القسمة ثلاثية " ثلث لطعامه وثلث لشربه وثلث لنفسه " وهذا هو المنهج العدل والقوام الذي يحصل به صحة الأبدان ويحصل به فطنة العقول لأنه كما يقال " البطنة تذهب الفطنة " وإذا أكثر الإنسان من الطعام والغذاء تبلدت أحاسيسه وأحس بدئه بالكسل والفتور وعدم النشاط ؛ فجاء النبي عليه الصلاة والسلام بهذا المنهج العدل في الطعام وبدأ ذلك أولاً بالتحذير من ملئ البطن بالطعام وأنه سبب الداء فقال في الحديث " ما ملأ آدمي وعاءاً شراً من بطن " فلما حذر من ملئ البطن أرشد إلى الاعتدال في ذلك وأن الاعتدال في ذلك يكون على درجتين بدأ بأولاهما وهو " حسب ابن آدم أكالات يُقمن صلبه " يعني لُقْم يسيرة يحصل بها إقامة الصلب ، والنشاط على المشي والحركة وممارسه أعمال الإنسان الدينية والدنيوية .

الدرجة الثانية : بيّنها في قوله " فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشربه وثلث لنفسه " .

وهذا الحديث حديث عظيم ، ثابت عن نبينا عليه الصلاة والسلام ، وفيه أكمل ما يكون في اعتدال الأجسام وقوامها في باب الغذاء والطعام ، ومن خالف هذا المنهج أضر بصحته وأضر بنفسه ، وجلب لنفسه أسقاماً وأمراضاً تحرمه مدةً طويلة من حياته من أنواع من الأطعمة قرر الأطباء حرمانه منها ومنعه منها لأن تناول شيء قليل منها يسبب مضرةً فوريةً له ؛ فتجده يعيش سنوات كثيرة متضرراً من عدم اعتداله في أول أمره في طعامه ؛ فجاء النبي عليه الصلاة والسلام بهذه النصيحة البليغة والبيان العظيم والمنهج السداد في الأكل من الطيبات وأن يكون الإنسان في هذا الباب معتدلاً على الدرجتين اللتين بينهما النبي صلى الله عليه وسلم .

قال الشيخ عبد المحسن العباد :

[أولاً : قوله صلى الله عليه وسلم : " ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطن " ، الوعاء هو الظرف الذي يُوضَع فيه الشيء، وشراً وعاء مُلئ هو البطن؛ لِمَا في ذلك من التُّخمة، والتسبُّب في حصول الأمراض، ولِمَا يورثه من الكسل والفتور والإخلال إلى الراحة] .

الشرح..

هذه بعض المضار التي تترتب على ملء المعدة بالطعام ؛ فهو يسبب التخممة - الزيادة في البدن ووزنه . يسبب بعض الأمراض ، وكما قيل : المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء ، والحمية المراد به الاعتدال والالتزان في الطعام والشراب ، وأيضاً من المضار أنه يورث الكسل والفتور والإخلال إلى الراحة ..

[ثانياً : قوله : “ بحسب ابن آدم أكلات يُقمن صلبه “ ، المعنى : يكفي ابن آدم عددٌ من الأكلات التي تحصل بها حياته، وهو معنى قوله : “ يُقمن صلبه “ ، أي : ظهره، وفي ذلك حثٌ على التقليل من الأكل وعدم التوسّع فيه؛ ليحصل للإنسان الخفّة والنشاط والسلامة من التعرّض للأمراض والأسقام التي تنتج عن كثرة الأكل.

ثالثاً : قوله “ فإن كان لا محالة، فثُلثُ طعامه، وثُلثُ لشرابه، وثُلثُ لنَفْسِه “ ، المعنى : إذا لم يكتف الإنسان بأكلات يُقمن صلبه، وكان لا محالة زائداً عن هذا المقدار فليكن مقدار ما يُؤكل ويُشرب في حدود ثلثي البطن؛ ليبقى ثلثٌ يُمكن معه التنفس بسهولة.

قوله عليه الصلاة والسلام “ فإن كان لا محالة، فثُلثُ طعامه، وثُلثُ لشرابه، وثُلثُ لنَفْسِه “ أي إذا لم يكتف الإنسان بلقم يسيرة يُقمن صلبه فلا يزيد على هذه القسمة الثلاثية بحيث يجعل ثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس ، بينما إذا ملأ بطنه بالطعام لم يجد الشراب له سبيلاً ولا النفس

رابعاً : ممّا يُستفاد من الحديث :

أولاً : بيان الأدب الشرعي الذي ينبغي أن يكون عليه الآكل في مقدار أكله.

ثانياً : التحذير من ملء البطن ؛ لِمَا يجلبه من الأمراض والكسل والخمول.

ثالثاً : أنَّ الكفاية تحصل بما يكون به بقاء الحياة.

رابعاً : أنَّه إن كان لا بدّ من الزيادة على الكفاية، فليكن في حدود ثلثي البطن.

الشرح ..

أي أن الحديث دلّ على درجتين في هذا الباب :

الدرجة الأولى : درجة الكفاية " بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه " أي تكفيه .

الدرجة الثانية : الزيادة على درجة الكفاية ما لم يصل إلى حد الإسراف وهو مُبين في قوله "ثَلْثَ لَطْعَامِهِ وَثَلْثَ لَشْرَابِهِ وَثَلْثَ لِنَفْسِهِ" ، ويحذر المسلم مما حذرهُ الله سبحانه وتعالى في قوله تعالى {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا} .

وعندما يُسرف الإنسان في الطعام يحتاج في يوم من الأيام من حياته عندما تظهر المضار الصحية الناشئة عن ملء المعدة مسبقاً بالأكل ؛ يبدأ بأخذ نفسه أخذاً شديداً في الحمية التي يفعلها من أجل حفظ الصحة ، والتقارير من الأمراض التي بدأ يُصاب بها ؛ فيبدأ بحمية شديدة في الطعام ، وهذه الحمية يضطر إليه الكثير اضطراراً مما شاهده في بدنه من أضرار بدأت تسري فيه وبدأ يشاهدها .

والحمية في الطعام نافعة ومفيدة وهي رأس الدواء وأساسه ، ويعتني بها كثيرٌ من الناس رعاية لصحة البدن ..

وهنا أحدُ السلف له كلمة جميلة جداً يُنبه فيها أخذاً من هذا الملحظ يقول كلاماً معناه " عجباً لمن يحتمي من بعض الطعام حفظاً لصحته كيف لا يحتمي من الذنوب حفظاً لبدنه من النار " يمنع نفسه من بعض الأطعمة وهي حلال ونفسه تشتهيها حمية وحفظاً لصحته

فهذا يستفيد منه العاقل الذي يحمي بدنه من الأمراض بهذه الحمية وتركه للأشياء الطيبة بأن يتجنب الذنوب والمعاصي حفظاً لنفسه من النار يوم القيامة فالمعاصي والذنوب تفضي وتؤدي بصاحبها إلى النار ؛ فإذا كانت الحمية عنده من الأطعمة الطيبة اضطر إليها حفظاً لصحته ؛ فعليه كذلك أن يحفظ نفسه عن الذنوب والمعاصي ويجاهد نفسه على اجتنابها حميةً لنفسه من النار ؛ وهذا هو معنى قوله سبحانه وتعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غُلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ } والوقاية من النار ومن سخط الله تعالى بالبعد عن الذنوب والآثام وعن كل ما يسخط الله جل وعلا .

سبحانك اللهم و بحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، اللهم صلّ وسلّم على عبدك ورسولك نبينا محمد و آله وصحبه

الدرس السادس والثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .
أما بعد ..

الحديث الثامن والأربعون

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: “أربعٌ من كنَّ فيه كان منافقاً، وإن كانت
خصلةً منهنَّ فيه كانت فيه خصلةٌ من النفاق حتى يدَّعها؛ إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف
، وإذا خاصم فجر ، وإذا عاهد غدر“ . خرَّجه البخاري ومسلم

الشرح ..

هذا الحديث الثامن والأربعون وهو من الأحاديث الثمانية التي زادها الحافظ بن رجب رحمه الله تعالى
على كتاب الأربعين للإمام النووي رحمه الله تعالى .

وهذا الحديث فيه التحذير من النفاق ومن خصال المنافقين والتحذير من شعب النفاق ، وأن
المسلم الذي أكرمه الله جل وعلا بالإيمان وهداه إلى هذا الدين أن يتجنب شعب النفاق
وخصاله وأن يحذر منها أشد الحذر فإنه خطير على الشخص وعلى إيمانه ؛ ولهذا جاء هذا
الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم محذراً من النفاق ومن شعب النفاق .

والنفاق هو مخالفة الظاهر الباطن - الاختلاف بين الظاهر والباطن - فيكون ظاهر الإنسان شيء
وباطنه شيء آخر .

وهو على نوعين : .

النوع الأول : نفاق اعتقادي ؛ ويقال له النفاق الأكبر ، وهو ناقل من الملة ؛ وهو أن يُظهر الإنسان الإيمان ويُبطن الكفر ؛ قال الله سبحانه وتعالى ﴿وإذا لقوا الذين ءامنوا قالوا ءامنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون﴾، وقال تعالى ﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾ كاذبون لأن باطنهم يخالف ظاهرهم ، كاذبون في ادعائهم الإيمان أو في إظهارهم الإيمان بأن محمداً رسول الله ﷺ ، لأن باطنهم منطوٍ على خلاف ذلك . فهذا يُقال له النفاق الأكبر ، وهو مخرج من الملة ، وصاحبه يوم القيامة في النار ، بل هو في الدرجات السفلى منها .

النوع الثاني : النفاق العملي ؛ وهو أن يكون خلافاً بين الظاهر والباطن في أمور العمل ليس في أمور الاعتقاد ؛ مثل أن يُظهر الوفاء؛ وفي باطنه عدم الوفاء ، أو أن يظهر التزام الصدق وهو في باطنه ليس ملتزماً بالصدق ، أو يُظهر التزام الأمانة وهو في باطنه ليس ملتزماً بها ؛ فهذا يسمى النفاق العملي ولا يخرج من الملة ، ووجوده في الإنسان ليس مخرجاً من الملة لكنه كبيرة من كبائر الإثم وذنب عظيم وجرم وخيم ، ويكفي في ذلك جرماً أنه من شعب النفاق ومن خصال المنافقين .

والحديث الذي ساقه المصنف رحمه الله تعالى في بيان هذا النفاق والتحذير منه ؛ فأورد حديث عبد الله بن عمر بن العاص رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال : “أربعٌ من كنَّ فيه كان منافقاً، وإن كانت خصلةً منهنَّ فيه كانت فيه خصلةٌ من النفاق حتى يدَّعها؛ إذا حدَّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا خاصم فجر ، وإذا عاهد غدر”

قوله " أربعٌ من كن فيه كان منافقاً " : أي منافقاً النفاق العملي ، ويخشى على من اجتمعت فيه أن يُفضي اجتماعها فيه إلى الدخول في النفاق الاعتقادي لأنه اجتمعت فيه شعب النفاق العلمية، فيخشى على من كان كذلك أن يُفضي به الأمر إلى فساد باطنه وخراب قلبه بالتخلي عن الإيمان في الباطن مع الادعاء له بالظاهر ؛ وهذا أخطر ما يكون في الإنسان ، والمنافقون يوم القيامة في الدرك الأسفل من النار فهذا معنى قوله “أربعٌ من كنَّ فيه كان منافقاً ”

وقوله " إن كانت خصلةً منهن فيه كانت فيه خصلةٌ من النفاق " : فالأمور التي ستُذكر في الحديث هي من خصال النفاق ومن شعب النفاق ومن أوصاف أهل النفاق ، ويكفي تقبيحاً وتجريحاً لهذه الخصال كونها من خصال النفاق وشعبه .

وقوله عليه الصلاة والسلام في صدر هذا الحديث " أربع " : هذا أسلوب نافع في التعليم يفيد ضبط العلم وإتقانه ، بخلاف لو ذكرت سرداً دون أن يُنبه على العدد ؛ فذكر العدد قبل ذكر المعداد فيه ضبط للعلم وتثبيت له .

الخصلة الأولى : " إذا حدث كذب " والكذب ضد الصدق ، وكما أن الصدق يهدي صاحبه إلى كل خير ؛ فإن الكذب يفضي بصاحبه إلى كل شر ، قال عليه الصلاة والسلام "عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر والبر يهدي إلى الجنة وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار" . فالتزام المرء الصدق بوابةٌ للخير ونافذةٌ إليه ، ووقوع الإنسان في الكذب وتماديهِ فيه يُعدُّ بوابةً للشر ونافذةً للفجور .

" إذا حدّث كذب " يعني لا يصدق في حديثه ؛ يُظهر للناس أنه صادق في حديثه وهو بخلاف ذلك ؛ فهذا من خصال المنافقين وهي خصلةٌ ذميمة ومضرة بصاحبها غاية المضرة .

الخصلة الثانية : قال " وإذا وعد أخلف " : أي لا يفي بمواعيده ؛ بل يعد الناس وهو في باطنه ينوي أن لا يفي ، وهذا من خصال النفاق . بخلاف من لو أن الإنسان وعد وفي باطنه أن يفي لكن حصل له ظرف منعه أو حال حائل بينه وبين الوفاء ؛ فهذا معذور .

لكن خصلة النفاق أن يعد وهو في قرارة نفسه أو ما يبطنه في قلبه عدم الوفاء ؛ فاختلف الظاهر والباطن .

الخصلة الثالثة : قال " وإذا خاصم فجر " : إذا وقعت بينه وبين شخص خصومة يفجر بظلم صاحبه أو البغي عليه أو تحميله من الجناية والجرم ما لم يفعل وما لم يقع منه ويتعدّى على صاحبه ويجور ؛ فهذا الفجور في الخصومة وهو من خصال المنافقين ؛ فتجده يقسم الأيمان المغلظة أن الحق له ؛ وفي باطنه يعلم أن الحق لصاحبه ؛ فهذا نفاق - اختلاف الظاهر والباطن - في الظاهر يقسم الأيمان المغلظة أن الحق لي ، هذا المال لي ، ورثته كابراً عن كابر .. ؛ وفي الباطن

يعرف أنه ليس له فيه أي نصيب ولا حق له فيه ؛ فهذا نفاق عملي اختلف الظاهر عن الباطن وهذا من خصال المنافقين .

الخصلة الرابعة قال " إذا عاهد غدر " : أيضاً هنا اختلاف الظاهر والباطن ؛ يعطي في العهد صفحةً بيضاء والتزاماً ووفاء ومن يسمع كلامه يظن أنه من أهل الوفاء ؛ لكن الباطن شيء آخر ؛ يبيت الغدر والخيانة ؛ فهذا نفاق عملي ؛ ولهذا نلاحظ في هذه الخصال الأربع أنها كلها من النفاق لأن الظاهر اختلف عن الباطن .

وهذا كله يسمى نفاق عملي وهو من خصال المنافقين ومن شعب النفاق ، كما أن الطاعات مثل الصدق والبر والأمانة والوفاء من فروع الإيمان وشعبه ؛ فإن الكذب والخيانة والغدر والفجور ؛ كل ذلك من شعب النفاق ومن خصال المنافقين .

فهذا الحديث فيه التحذير الشديد من هذه الخصال الذميمة والأوصاف الشنيعة التي هي من خصال المنافقين ومن شعب النفاق .

قال الشيخ عبد المحسن العباد :

[أولاً : قوله : “ أربعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا ، وَإِنْ كَانَتْ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ فِيهِ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَّعَاهَا “ ، المعنى أَنَّ مَنْ وَجَدْتَ فِيهِ هَذِهِ الْخِصَالَ الْأَرْبَعَ فَهُوَ مُوصُوفٌ بِالنِّفَاقِ الْعَمَلِيِّ ، وَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ وَاحِدَةٌ مِنْهَا كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَّعِ هَذِهِ الْخَصْلَةَ ، وَهَذَا مِنْ كِمَالِ بَيَانِهِ صلى الله عليه وسلم ؛ حيث يذكر العدد أولاً : ، ثم يأتي بتفصيل المعداد ؛ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ حِفْزِ السَّامِعِ إِلَى الْإِسْتِعْدَادِ وَالتَّهَيُّؤِ لَوْعِي مَا سَيُلْقَى عَلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الْخِصَالِ ، وَلِيَطَالِبَ نَفْسَهُ بِالْمَعْدُودِ ، فَإِنْ لَمْ يُطَابَقْ عِلْمُهُ أَنَّهُ فَاتَهُ شَيْءٌ] .

الشرح ..

فإذا قال : " أربع من كن فيه كان منافقاً ومن كان فيه واحدة منهم كان فيه خصلة من النفاق " ثم بدأ يعدّ فعد ثلاثاً ؛ فتجده يطالب نفسه يقول : بقيت الرابعة ؛ فأفاد ذكر العدد ضبط العلم ، لكن لو لم تُذكر فإذا عدّ ربما لا يطالب نفسه بالرابعة لأنه لم يذكر ذلك .

[ثانياً: الخصلة الأولى الكذب في الحديث، وذلك أن يحدث غيره بحديث هو كاذب فيه، فيخبر بالشيء على غير حقيقته، وفي ذلك إساءةٌ صاحب الحديث إلى نفسه؛ لا تصافه بهذا الخلق الذميم، وإساءةٌ إلى مَنْ يحدثه بإيهامه أنه صادق في حديثه معه، وقد قال صلى الله عليه وسلم : “ عليكم بالصدق؛ فإنَّ الصِّدْقَ يهدي إلى البر، وإنَّ البرَّ يهدي إلى الجنَّة، وما يزال الرَّجل يصدق ويتحرى الصِّدْقَ حتى يُكتب عند الله صديقاً، وإيَّاكم والكذب؛ فإنَّ الكذبَ يهدي إلى الفجور، وإنَّ الفجورَ يهدي إلى النار، وما يزال الرَّجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يُكتب عند الله كذاباً ” رواه مسلم.

الشرح..

من يقع في الكذب وقع في إساءتين : إساءة إلى نفسه بحيث جعلها متصفة بهذا الخلق الشنيع الذي هو من صفات المنافقين ، والإساءة الثانية إساءته إلى من كذب عليه حيث توهم وظن أنه صادق ثم يظهر أنه بخلاف ذلك ..والله سبحانه يقول (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين)

الخصلة الثانية: إخلاف الوعد، وذلك بأن يعدَّ عدَّةً وفي نيَّته ألاَّ يفي بها، أمَّا إذا وعد وهو عازمٌ على الوفاء بالوعد، فطراً له ما يمنعه من الوفاء فهو معذور، وقد روى أبو داود عن عبد الله بن عامر أنه قال: “ دعني أُمِّي يوماً ورسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد في بيتنا، فقالت: هاه ، تعال أعطيك، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما أردتِ أن تعطيه؟ قالت: أعطيه قرأ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمَّا إنَّك لو لم تعطه شيئاً كُتبت عليك كذبة “ . انظر: الصحيح للألباني] .

الشرح..

الخصلة الثانية : إخلاف الوعد ، والمراد من إخلاف الوعد أن يعد ومن نيته عدم الوفاء وفي باطنه ألا يفي ، أما من وعد وفي نيته الوفاء لكن حصل له ظرف أو حائل أو مانع فلم يتمكن من الوفاء ؛ فهو معذور .

وهذا الجانب ينبغي أن يُحذر منه حتى في أمور ربما يستهين بها بعض الناس ، ويراها أموراً عادية جداً وليست بذات بال ، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم حذر من مثل ذلك أشد التحذير ؛ في التعامل مع الصغار الناشئة الذين هم على الفطرة ، والفطرة هي الصدق والوفاء والأمانة ؛ فحذر النبي عليه الصلاة والسلام في التعامل مع الصغار أن يعدهم الكبير دون وفاء ؛ مثل أن يقول للصغير تعالى خذ - كأن في يده حلوى أو ثمرة - ثم يُقبل الصغير يجري يريد أن يأخذ الذي في يده فيفتح اليد وإذا بها ليس بها شيء ؛ فهذا كثير ما يُفعل من باب المداعبة ؛ لكنه في الحقيقة إفساد لفطرة الطفل في صدقه وإدخال الكذب عليه ؛ فينشأ متخلفاً بالكذب الذي هو ليس من الفطرة بسبب هذه الأعمال ؛ ولهذا حذر النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك لخطورة هذا الأمر ولما فيه من الجناية على الناشئة والصغار .

ومما يُذكر في هذا المقام أن أحد طلاب العلم قديماً رحل إلى عالم أو رجل مشهور برواية الحديث ليسمع منه بعض الأحاديث التي يرويها بإسناده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

فوجده ممسكاً ثوبه وينادي شاةً له يوهما أن في ثوبه طعام حتى يمسك بالشاة ؛ فاقترب منه ولم ير في ثوبه شيئاً فأنكر عمله وترك التلقي عنه وذهب .

فمثل هذه الأعمال قد يفعلها الإنسان بقصدٍ ليس في ذاته ذميماً ، لكن الفعل نفسه مذموم ويجر إلى ما وراءه من أضرار وآثام ووقوع في خصال النفاق وشعبه .

[الخصلة الثالثة : الفجور في الخصومة، والمعنى أن يكون الإنسان عند الخصومة مع غيره يغضب فيتجاوز العدل إلى الظلم، وقد قال الله عز وجل: { وَلَا يَجْرِ مَنكُم مَّنكُم شَتَائُنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا } ، وقال: { وَلَا يَجْرِ مَنكُم مَّنكُم شَتَائُنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا } ، قال الحافظ في الفتح “ والفجور الميل عن الحق والاحتيال في رده ” ، وقال ابن رجب في جامع العلوم والحكم : “ فإذا كان الرجل ذا قدرة عند الخصومة - سواء كانت خصومته في الدين أو في الدنيا - على أن ينتصر للباطل، ويخيّل للسامع أنه حق، ويوهن الحق ويخرجه في صورة الباطل، كان ذلك من أقبح المحرمات، ومن أخبث خصال النفاق “] .

الشرح..

المراد بالخصومة أن يتعدى - عندما يقع بينه وبين شخص ما في أمرٍ فيغاضبه فيتعدى عليه؛ فيفجر في خصومته ؛ بتغطية الحق الذي لصاحبه أو بإيهاهم أن الحق له وأنه هو صاحب الحق ، ويكون في ذلك ليس صادقاً ؛ فهذا فجور في الخصومة ، وبعض الناس قد يكون عنده لسان يستطيع بلسانه ومهارة حديثه أن يوهم أن الحق له .. بحديثه من جهة و حركاته من جهة أخرى ؛ فهو يتصنع أنه مظلوم ، وإذا جلس عند الحاكم جلس بصورة ربما من يراه لا يشك أنه مظلوم من كلام وبكاء .. فهذا فجور ، هذا التصرف القولي والفعلية أراد أن يتوصل به إلى تغطية حق غيره أو اعتداء على حق غيره فهذا يعد فجورا في الخصومة وهو من صفات أهل النفاق

[الخصلة الرابعة: الغدر في العهد، قال الله عزَّ وجلَّ: { وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا } ، وقال: { وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا } ، قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم : “ والغدرُ حرامٌ في كلِّ عهد بين المسلم وغيره، ولو كان المعاهد كافرًا” ولهذا في حديث عبد الله بن عمر عن النَّبِيِّ ﷺ: " مَنْ قَتَلَ نَفْسًا مَعَاهِدًا بِغَيْرِ حَقِّهَا لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا " خرَّجه البخاري،

وقد أمر الله تعالى في كتابه بالوفاء بعهود المشركين إذا أقاموا على عهودهم ولم ينقضوا منها شيئاً، وأمَّا عهود المسلمين فيما بينهم فالوفاء بها أشد، ونقضها أعظمُ إثماً، ومن أعظمها نقض عهد الإمام على مَنْ بايعه ورضي به، وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النَّبِيِّ ﷺ قال: " ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ... " فذكر منهم: " ورجلٌ بايع إماماً لا يُبايعه إلَّا لدنيا، فإن أعطاه ما يريد وقَّيَّ له، وإلَّا لم يَفِّ له " ، ويدخل في العهود التي يجب الوفاء بها ويحرم الغدرُ فيها جميعُ عقود المسلمين فيما بينهم إذا تراضوا عليها من المبيعات والمناكحات وغيرها من العقود اللازمة التي يجب الوفاء بها، وكذلك ما يجب الوفاء به لله عزَّ وجلَّ ممَّا يعاهد العبدُ ربَّه عليه من نذر التبرر ونحوه “ [.

الشرح..

هذه الخصلة الرابعة من خصال وصفات أهل النفاق وهي الغدر بالعهد .

والوفاء بالعهد من صفات أهل الإيمان وهو من شعب الإيمان ، وقد أمر الله سبحانه وتعالى بالوفاء بالعهود ، ومن لم يف بالعهد وكان في العهد غادراً فهو على شعبة من شعب النفاق ولو كان العهد الذي التزمه كان مع مشرك وكافر ؛ فالتزام العهود والوفاء بها دينٌ شرعه الله سبحانه وتعالى لعباده وأمرهم به ودعاهم إلى الوفاء به ولهذا جاء الوعيد الشديد في حق من قتل معاهداً ، والمعاهد هو الذي بينه وبين المسلمين عهد ودُمه حُقِنَ وحُرِّمَ بالعهد الذي بينه وبين المسلمين ؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام "من قتل معاهداً بغير حق لم يرح رائحة الجنة وإن ریحها يوجد من أربعين عاماً" ؛ وهذا دليل على أن هذا العمل جُرْمٌ يُعَدُّ من كبائر الإثم لأن النبي صلى الله عليه وسلم لا يقول مثل هذا الوعيد إلا في الكبائر التي تتنافى مع الإيمان الواجب .

[ثالثاً : مِمَّا يُسْتَفَاد من الحديث :

- أولاً : أنَّ من حسن التعليم ذكر المعلِّم العدد قبل تفسير المعداد؛ ليكون أوقع في ذهن المتعلِّم .
- ثانياً : بيان خطورة اجتماع خصال النفاق في الشخص .
- ثالثاً : التحذير من الكذب في الحديث، وأنَّه من خصال النفاق .
- رابعاً : التحذير من إخلاف الوعد، وأنَّه من خصال النفاق .
- خامساً : التحذير من الفجور في الخصومة، وأنَّه من خصال النفاق .
- سادساً : التحذير من الغدر في العهود، وأنَّه من خصال النفاق .

* * *

الحديث التاسع والأربعون

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " لو أنكم توكلون على الله حقّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً، وتروح بطاناً " .

رواه الإمام أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والحاكم، وقال الترمذي: حسن صحيح .

الشرح..

هذا الحديث التاسع والأربعون وهو حديث عظيم في باب التوكل على الله سبحانه وتعالى ؛ بل إن هذا الحديث يُعد أصلاً جامعاً في باب التوكل .

والتوكل كما قال أهل العلم جماع الإيمان لأن المسلم يحتاج إلى التوكل في كل أموره الدينية والدينية ؛ ولهذا فإن التوكل مصاحبٌ للمؤمن الصادق في أموره الدينية كلها ؛ التوكل يصاحب المؤمن في صلاته وفي صيامه وفي حجه وفي بره وفي صلته وفي جميع أعماله الصالحات وطاعته الزاكيات .

كذلك يصاحب المسلم في أموره الدنيوية ومصالحه وأعماله ولا يستغني عن التوكل على الله تبارك وتعالى طرفه عين لأنه لا غنى له عن الله تبارك وتعالى ، وقد كان من هدي نبينا صلى الله عليه وسلم أنه إذا خرج من البيت قال : " بسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله " وذكر عليه الصلاة والسلام أن من قالها يقال له هُديت وكُفيت ووُقيت ، ويقول الشيطان لآخر : كيف لك السبيل برجل هُدي وكُفي ووُقي ؟ وبسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله : كلها كلمات استعانة وتوكل ؛ ولهذا يُشرع للمسلم في كل مرة يخرج من بيته أن يخرج متوكلاً على الله قائلاً بسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله في أي مصلحة دينية أو دنيوية ؛ لأن التوكل يحتاج إليه المسلم في كل شؤونه الدينية والدنيوية .

والتوكل حقيقته اعتماد القلب على الله مع بذل الأسباب ؛ ولهذا بذل الأسباب من تمام التوكل ، والتخلي عن الأسباب وتعطيها يتنافى مع تحقيق التوكل .

والناس في هذا الباب طرفان ووسط :

طرف فعل الأسباب معتمداً عليها وعطّل التوكل .

وطرف اعتمد في قلبه على الله وعطّل الأسباب فلم يفعل منها شيئاً .

والوسط هو من جمع بين الأمرين ؛ اعتمد على الله سبحانه وتعالى وبذل السبب ؛ وهذا هو الذي شرعه الله سبحانه وتعالى لعباده ؛ قال {فاعبد وتوكل عليه} وقال عليه الصلاة والسلام " احرص على ما ينفعك واستعن بالله " ، وقال " اعقلها وتوكل " فأرشد على فعل السبب ، وكان صلى الله عليه وسلم هديته قائماً على بذل الأسباب في طلبه للغذاء والشراب والسكن واتقاء الشمس والحر والبرد وأيضاً في ملاقات الأعداء واتخاذ الأسباب ؛ فكان هديته عليه الصلاة والسلام قائماً على بذل الأسباب مع التوكل على الله سبحانه وتعالى .

فالتوكل قائم على أمرين : اعتماد القلب على الله ، وبذل الإنسان الأسباب النافعة المفيدة التي يُتوصل من خلالها إلى المصالح الدنيوية والدينية .

وقد أورد المصنف هذا الحديث في بيان التوكل وحقيقة التوكل ؛

قال فيه عليه الصلاة والسلام : " لو أنكم توكلون على الله حق توكله " : يعني لو قام في قلوبكم من الثقة بالله والاعتماد عليه جل وعلا وعدم الالتفات إلى سواه مع بذل الأسباب النافعة لرزقكم كما يرزق الطير ، والحديث فيه جمع بين الأمرين ؛ بين اعتماد القلب على الله وبذل السبب ، خلافاً لما يظنه بعض المعطلين للأسباب أن الحديث يشهد لهم في تعطيل الأسباب ، ويتوهمون أن المراد بقوله " توكلتم على الله حق توكله " أي بقيتم متوكلين معطلين للأسباب غير قائمين بها وهذا فهمٌ سيءٌ للحديث لا يدل عليه ؛ فقوله " لو توكلتم على الله حق توكله " يجمع الأمرين - اعتماد القلب مع بذل السبب - أما اعتماد القلب فهو ظاهر ،

وأما بذل السبب فمستفاد من المثل الذي ضربه النبي عليه الصلاة والسلام قال :

" لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماساً " : يعني في الصباح الباكر تغدو من أوكارها ومن عشاها خماساً جائعة ليس في بطنها طعاماً .

" وتروح بطاناً " : تعود ورزقها الله سبحانه وتعالى طعاماً .

فحقيقة التوكل أن يعتمد على الله وأن يبذل السبب ، لا أن يبقى في مكانه ويقول أنا من المتوكلين ؛ ولهذا عمر بن الخطاب - راوي الحديث - رأى جماعة يقولون نحن المتوكلون ، خرجوا من ديارهم بدون زاد ويقولون نحن المتوكلون ؛ فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : " بل أنتم المتأكلون " ؛ يعني تستجدون الناس وتطلبون منهم أن يمدونكم بالطعام والشراب ، ثم قال : المتوكل الذي يضع بذره في الأرض ويقول توكلت على الله ويتوكل على الله .

أما أن يقول : إن كتب الله لي أن تكون حديقة تكون ؛ فأنا متوكل لن أبذل سبباً !! فهذا ليس من التوكل ، ومثله لو قال قائل : أنا لن أتزوج إلى أن أموت ولو كتب الله لي ذرية يكون ! وآخر يقول : أنا لن أذهب إلى العلماء ولن أقرأ الكتب وإن كتب الله لي أن أكون من العلماء سأكون ! فهذا كله تواكل وليس توكل .

فالتوكل يكون على أمرين :

• الأول ؛ الثقة بالله والاعتماد عليه (وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت)

• الثاني ؛ بذل الأسباب وقد كان هذا هو هديه عليه الصلاة والسلام

قال الشيخ عبد المحسن العباد :

[أولاً : هذا الحديث أصل في التوكل على الله عز وجل ، مع الأخذ بالأسباب المشروعة ، والأخذ بها لا يُنافي التوكل ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم سيّد المتوكلين قد دخل مكة عام الفتح وعلى رأسه المغفر ، وقد أرشد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الجمع بين الأخذ بالأسباب والاعتماد على الله بقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث في صحيح مسلم " احرص على ما ينفعك واستعن بالله " وحديث عمر هذا فيه الجمع بين الأخذ بالأسباب والتوكل على الله ، والأخذ بالأسباب فيما ذكر عن الطير ؛

لأنَّها تغدو خماساً أي خالية البطون لطلب الرزق، وتروح بطاناً أي مُتلتئة البطون، ومع أخذ المرء بالأسباب لا يعتمد عليها، بل يعتمد على الله ولا يُهمل الأخذ بالأسباب ثم يزعم أنَّه متوكِّل، والله قدر الأسباب والمسبَّبات، قال ابن رجب في جامع العلوم الحكم وهذا الحديث أصلٌ في التوكِّل ، وأنَّه من أعظم الأسباب التي يستجلب بها الرزق، قال الله تعالى ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ ... " إلى أن قال: " وحقيقة التوكِّل هو صدق اعتماد القلب على الله عزَّ وجلَّ في استجلاب المصالح ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة كلِّها، وكلِّه الأمور كلِّها إليه، وتحقيق الإيمان بأنَّه لا يعطي ولا يمتنع ولا يضر ولا ينفع سواه " .

الشرح..

هذه حقيقة التوكِّل كما وضع ذلك ابن رجب رحم الله " صدق اعتماد القلب على الله عزَّ وجلَّ في استجلاب المصالح ودفع المضار الدينية والدنيوية " وهو لا يتنافى مع فعل الأسباب بل فعل الأسباب من تمام التوكِّل ، وفي هدي سيد المتوكِّلين صلى الله عليه وسلم وإمام المتقين صلوات الله وسلامه عليه الأخذ بالأسباب ؛ فلما دخل مكة فاتحاً كان على رأسه المغفر ، وكان في بعض غزواته يُظاھر بين الثُّرسين ، والمغفر والترس يُتقى به النبل والسهم ، المغفر يحمي الرأس ويقيه ، والترس يقي الصدر من النبل والسهم والسيوف ؛ فهذا من بذل الأسباب فكان من هديه عليه السلام بذل السبب في طعامه وشرابه ولباسه ومسكنه .

فإذاً بذل السبب لا يتنافى مع التوكِّل بل هو من تمام التوكِّل . والحديث كما عرفنا فيه الإشارة لذلك لأنه ضرب مثلاً قال : كما يرزق الطير ؛ والطير لا تبقى في عشاها تنتظر أن يأتيها القمح والطعام والشراب في العش ؛ بل تمشي وتقطع المسافات بحثاً عن الماء وبحثاً عن الغذاء وهذا بذل للسبب .

فحقيقة التوكِّل صدق الاعتماد على الله جل وعلا مع بذل الأسباب النافعة في جلب المفيد ودفع الضار .

[ثانياً : مِمَّا يُسْتَفَادُ مِنَ الْحَدِيثِ :

أولاً : وجوب التوكل على الله والاعتماد عليه في جلب كلِّ مطلوب، ودفع كلِّ مرهوب.

ثانياً : الأخذ بالأسباب مع التوكل على الله، وذلك لا يُنافي التوكل] .

* . *

الحديث الخمسون

عن عبد الله بن بسر قال: " أتى النَّبِيُّ ﷺ رجلاً، فقال: يا رسول الله! إنَّ شرائع الإسلام قد كثُرت علينا، فبابٌ نتمسَّك به جامع؟ قال: لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله عزَّ وجلَّ ".

خَرَّجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بِهَذَا اللَّفْظِ، وَخَرَّجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ وَابْنُ حِبَانَ فِي صَحِيحِهِ بِمَعْنَاهُ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ.

الشرح..

هذا الحديث الخمسون هو آخر حديث في هذا المجموع المبارك النافع الذي اشتمل على ما جمعه الإمام النووي رحمه الله تعالى وما زاده عليه الإمام الحافظ بن رجب رحمه الله تعالى وبلغ عدة هذا المجموع خمسين حديثاً، وهي أحاديث عظيمة منتقاة جمعت أمهات الدين وأصول الإيمان وشرائع الإسلام وقواعد الدين الكلية ؛ ولهذا العلماء قديماً وحديثاً ينصحون طلاب العلم بحفظ هذه الأربعين وحفظ الزيادة التي زادها الحافظ بن رجب رحمه الله ، وأن يضيف طالب العلم مع حفظه لهذه الأحاديث ضبط المعاني ومعرفة المدلولات ؛ فيصبح لديه بإذن الله تبارك وتعالى قاعدة جيدة لأهميات الدين وقواعد الشريعة وكلّيات الإسلام وأصوله وقواعده العظام ؛ هذا كله مُستفاد من هذه الأحاديث المنتقاة المجموعة ، وكلها داخلة في عداد جوامع الكلم المأثور عن رسول الله ﷺ .

وقد ختم بن رجب هذا الحديث المجموع بهذا الحديث ؛

قال : " أتى النبيّ رجلٌ " : قوله هذا من الأدب مع النبي صلى الله عليه وسلم بتقديمه في الذكر ؛ فهو عليه الصلاة والسلام هو الذي أُتيَ ، والعادة أن يُقدّم الفاعل ، وفاعل الإتيان الرجل ؛ لكن قدّم النبي صلى الله عليه وسلم مراعاةً للأدب معه . وهذا يُلاحظ في ذكر الصحابة للنبي عليه الصلاة والسلام مثل قولهم : كنا جلوساً عند النبي صلى الله عليه وسلم... فهم يُراعون الألفاظ التي يذكرون فيها النبي صلوات الله وسلامه عليه .

قال " إنّ شرائع الإسلام قد كثرت علينا ، فبابٌ نتمسك به جامع " : بعضُ الناس ربما يفهم الحديث فهماً خاطئاً؛ فالرجل يقول : " شرائع الإسلام كثرت علينا " فهل هو يريد بقوله هذا إلغاءً بعض الشرائع والتخفيف منها ؟ أم أن مطلوبه من النبي صلى الله عليه وسلم أن يذكر له شيئاً يعينه على هذه الشرائع ويخففها عليه ؟

لا شك أن مقصوده الثاني لا الأول ؛ ليس مقصوده بقوله " إنّ شرائع الإسلام قد كثرت علينا " يطلب أن يخفف شيئاً منها أو أن يلغي شيئاً منها أو أن يذكر له شيئاً يستغني به عن هذه الشرائع ؛ هذا ليس هو المراد من مطلوبه .. إذاً ماذا طلب ؟

طلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يذكر له شيئاً جامعاً في هذا الباب يفيد في المحافظة على شرائع الإسلام .

ولهذا أهل العلم استنبطوا من هذا الحديث فائدة عظيمة جليلة القدر ألا وهي أن من فوائد الذكر أنه يعين العبد على القيام بشرائع الإسلام ويلينها ويسهلها عليه ؛ فالمحافظة على الأذكار تليّن الطاعة وتُسهلها للعبد وتجعل صدره منشرحاً مقبلاً على الطاعة ولا تكون الطاعة ثقيلة على الإنسان ، فالنبي عليه الصلاة والسلام أرشده إلى الذكر والعناية به وترطيب اللسان به .

نلاحظ في السؤال ما يوضح هذا الأمر قال " فباب نتمسك به جامع " : وهذا يفيد أن الأمر الذي ذكره له النبي صلى الله عليه وسلم أمرٌ مشتمل على جماع الخير ؛ فأرشده عليه الصلاة والسلام إلى كثرة الذكر وأن يكون اللسان رطباً بالذكر ؛ وهذا ييسر للعبد الطاعة والعبادة ، بل يعينه على جميع مصالحه الدينية والدنيوية ؛ ولهذا ابن القيم رحمه الله ذكر أن شيخ الإسلام ابن تيمية إذا صلى الفجر بقي في مصلاه إلى الضحى يذكر الله ؛ يقول : فسألته مرةً في ذلك فقال : هذه غدوتي ، لو لم أفعل ذلك خارت قواي .

فهذا يفيد أن الذكر يُعطي العبد نشاطاً للقيام بمصالحه الدينية والدنيوية ؛ وهذا مستفاد من قوله صلى الله عليه وسلم لما سألته خادماً قال : ألا أدلك على ما هو خير لك من خادم " تسبحين

الله ثلاثاً وثلاثين وتحمدينه ثلاثا ثلاثين وتكبرينه ثلاثاً وثلاثين " ، أخذ أهل العلم من هذا الحديث أن هذا يعطي الجسم قوةً ونشاطاً للقيام بالمصالح الدينية والدنيوية ، وهذا الصحابي لما طلب من النبي صلى الله عليه وسلم أمراً جامعاً يعينه على القيام بالشرائع التي كثرت عليه ؛ فيريد ما يجمع له الخير ويعينه على القيام به أرشده عليه الصلاة والسلام إلى الإكثار من ذكر الله .

قال " لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله عز وجل " وهذا فيه أن الذكر يرطب اللسان بالخير والكلام الطيب النافع المفيد الذي ينعكس على حياة المسلم كلها خيراً ورفعةً وبركة .
والإمام الحافظ بن رجب رحمه الله في ختمه لهذا الكتاب المبارك بهذا الحديث ؛ يظهر لي والله أعلم أن ثمة لمحة يحسن الانتباه لها؛ وهي أن طالب العلم لما مر على هذا الكتاب وأحاديثه الجامعة التي جمعت الدين وأمهاته وشرائع الإسلام والقواعد الكلية يجد أن هذا الكتاب فتح له أبواب كثيرة من الخير والبر ؛ فإذا وصل إلى نهاية هذه العلوم المباركة الغزيرة الجامعة يريد ويطلب لنفسه الشيء الذي يضبط ذلك وييسر له المزيد من العلم والعمل ؛ لأن الكتاب فيه مفاتيح العلم والعمل ؛ فيطلب المزيد من ذلك ؛ فختتم بالذكر وبهذا الحديث الجامع حاثاً طالب العلم على الإكثار من ذكر الله ؛ فالذكر هو الذي ييسر للإنسان طلب العلم ، وهو الذي ييسر له القيام بالعبادة ، وهو الذي ييسر له عموم المصالح والمنافع الدينية والدنيوية .

قال الشيخ عبد المحسن البدر :

[أولاً: سؤال هذا الرجل رسول الله صلى الله عليه وسلم مثال من الأمثلة الكثيرة في سؤال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أمور الدين، وكل ذلك دالٌّ على فضلهم ونبلمهم وسبقهم إلى كلٍّ خير وحرصهم على كلٍّ خير، والمراد بالشرائع التي كثرت النوافل، وقد أراد هذا الصحابي معرفة طريق من طرق الخير يخصّها بمزيد اعتناء لتحصيل ثواب الله عزَّ وجلَّ، وأمّا الفرائض فإنّها مطلوبة كلّها، ويجب على المسلم التمسكُ بها جميعاً، وقد أجابه النبي صلى الله عليه وسلم بالمداومة على ذكر الله، وألاً يزال لسانه رطباً من ذكره، والذكرُ يكون عامّاً وخاصّاً، والذكرُ العام يدخل فيه الصلوات وقراءة القرآن وتعلُّم العلم وتعليمه وحمد الله والثناء عليه وتنزيهه وتقديسه عن كلِّ ما لا يليق به، والذكرُ الخاص حمد الله والثناء عليه وتسيحه وتهليله وتكبيره وتحميده، وهو الذي يُقرن بالدعاء، فيقال: الذكر والدعاء، أو الأدعية والأذكار، وهذا العمل سهلٌ على الإنسان، عظيم الأجر عند الله، وثبت في الصحيحين وهو آخر حديث في صحيح البخاري قوله صلى الله عليه وسلم : " كلمتان حبيبتان إلى الرحمن،

خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان وبحمده، سبحان الله العظيم " .

ثانياً : ممّا يُستفاد من الحديث:

أولاً : حرص الصحابة رضي الله عنهم على الأسئلة عن أمور دينهم.

ثانياً : فضل ذكر الله عزّ وجلّ و المدوامة عليه.

آخر الشرح، والحمد لله ربّ العالمين وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه.

سبحانك اللهم و بحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، اللهم صلّ وسلّم على عبدك ورسولك نبينا محمد و آله وصحبه

..*